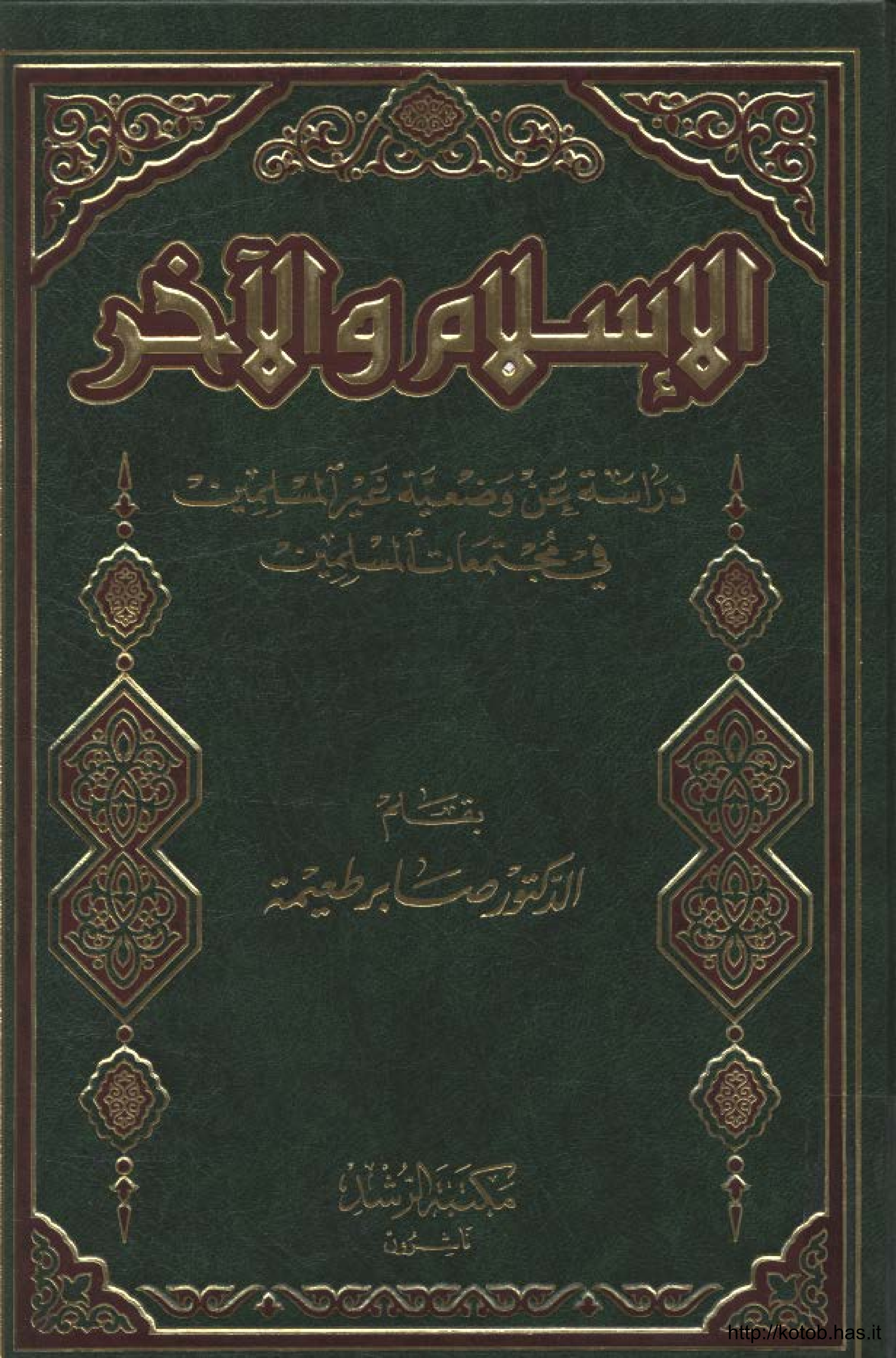
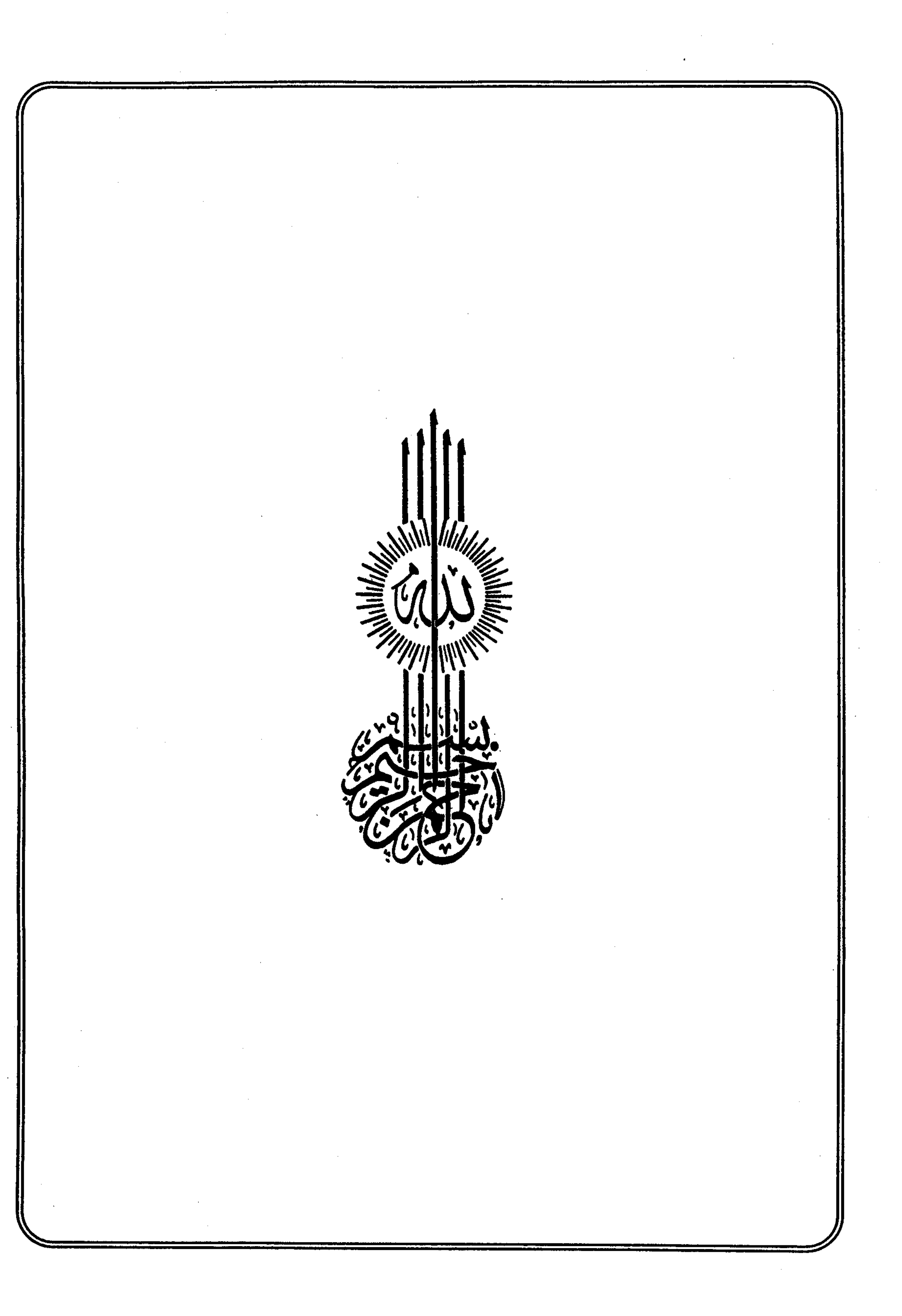

الإسلام والآخر
دراسة عن وضعية غير المسلمين
في مجتمعات المسلمين
بقلم
الدكتور صابر طعيمة
مكتبة الرشد
ناشرون
http://kotob.has.it

«الإسلام والآخر»

دراسة عن وضعية غير المسلمين
في مجتمعات المسلمين


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

«الإسلام والآخر»

دراسة عن وضعية غير المسلمين
في مجتمعات المسلمين

بقلم الدكتور/صابر طعيمة





الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م

مكتبة الرشد ـ ناشـــرون

المملكة العربية السعودية ـ الرياض

شارع الأمير عبد الله بن عبد الرحمن (طريق الحجاز)

ص.ب: ١٧٥٢٢ الرياض: ١١٤٩٤ - هاتف: ٤٥٩٣٤٥١ - فاكس: ٤٥٧٢٢٨١

E-mail: alrushd@alrushdryh.com

Website: www.rushd.com

فروع المكتبة داخل المملكة

الرياض: فرع طريق الملك فهد - هاتف: ٢٠٥١٥٠٠ - فاكس: ٢٠٥٣٣٠١

فرع مكة المكرمة - شارع الطائف - هاتف: ٥٥٨٤٠١ - فاكس: ٥٥٨٣٥٠٦

فرع المدينة المنورة - شارع أبي ذر الغفاري - هاتف: ٨٣٤٠٦٠٠ - فاكس: ٨٣٨٣٤٢٧

فرع جدة - مقابل ميدان الطائرة - هاتف: ٦٧٧٦٣٣١ - فاكس: ٦٧٧٦٣٥٤

فرع القصيم بريدة - طريق المدينة - هاتف: ٣٢٤٢٢١٤ - فاكس: ٣٢٤١٣٥٨

فرع أبها - شارع الملك فيصل - تلفاكس: ٢٣١٧٣٠٧

فرع الدمام - شارع الخزان - هاتف: ٨١٥٠٥٦٦ - فاكس: ٤٨١٨٤٧٣

فرع حائل - هاتف: ٥٢٢٣٢٤٦ - فاكس: ٥٦٦٢٢٤٦

فرع الاحساء - هاتف: ٥٨١٣٠٢٨ - فاكس: ٥٨١٣٠١٥

مكاتبنا بالخارج

القاهرة - مدينة نصر - هاتف: ٢٧٤٤٦٠٥ - موبايل: ٠١٠-١٦٢٢٦٥٣

بيروت - هاتف: ٠١/٨٥٨٥٠١ - موبايل: ٠٣/٥٥٤٣٥٢ - فاكس: ٠١/٨٥٨٥٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

هذا الكتاب الذي نتناول فيه بالعرض والتحليل والتقييم منهج الإسلام في التعامل مع الآخر وتحديداً مع من يسميهم الإسلام: أهل الكتاب ـ إنصافاً منه وعدلاً ـ ويعني بهم اليهود والنصارى، ومن في حكمهم من أصحاب العقائد المغايرة لعقيدة الإسلام، لا نستهدف من دراسة وعرض مفرداته، تبرئة الإسلام، من اتهامات سوء النية، وسوء القصد، وسوء التعامل التي تعامل بها ـ الآخر ـ في عصرنا هذا، وعصور سابقة مع الإسلام، عقيدة وشريعة، بل إن سوء النية بلغ «بالآخر» المعاصر أن يتطاول على شخص نبي الإسلام ﷺ، تاريخاً وسلوكاً، دعوة ورسالة، ومع ذلك لا ينزعج المشتغلون بالدعوة الإسلامية تعريفاً ودفاعاً بالقذف السياسي، بل ولا حتى العدوان العسكري، فقديماً قال الحكيم العربي: «الحياة كر وفر، والعيش حلو ومر، والأيام دول» لكن المؤلم حقاً هو: التحريف، والتزييف، وتضليل الرأي العام عبر قنوات متخصصة يجلس في استديوهاتها بعض غير المسلمين، باسم النقد وحرية التعبير، ويتناول «الآخر» الثوابت والأصول في الإسلام بالتشويه والبتر وأحياناً بالقذف وكل ذلك يقع من «الآخر» وعلى مسمع الدنيا وخاصة منذ الكارثة التي أصابت المسلمين قبل غيرهم بتداعيات رد الفعل لما وقع في الولايات المتحدة في سبتمبر من عام ٢٠٠١م، فقد أصبح وبسرعة الضوء، الإسلام بكل رصيده ومعطياته للحضارة الإنسانية في نظرة الغرب يهدد حياة الغربيين وأمنهم وتقدمهم، واتسعت التفاصيل عندهم ليتشكل في أذهانهم تصوراً يتلون في صور الحرب الباردة التي سادت الغرب والشرق عقوداً عديدة بين الاتحاد السوفيتي السابق الملحد وبين الغرب الصليبي، حيث ابتدأت مؤسسات خارج العالم الإسلامي، تقود الغرب المعاصر، لاعتناق

مخاوف من الإسلام الذي انزعجت منه مؤسسات في بلاد الغرب، وخاصة عندما ابتدأ بعض رجال الفكر الغربي وقادته يعتنقه أو يدافع عنه كما فعل المفكر الغربي في عقد واحد حينما حذر من المخاطر المحدقة بالإسلام في كتابه «من يجرؤ على الكلام» ثم اضطر لأن يكتب تحت اتساع الخرق على الواقع كتابه «لا سكوت بعد اليوم» لكن الذي لفت أهل النظر من علماء المسلمين، أن مخاوف الغرب من الإسلام لم تتشكل بسبب سلبيات أو تجاوزات وقع فيها بضعة نفر من شباب المسلمين ضد «الآخر» وإنما الفزع، أو الخوف، ليس مصدره الكراهية، أو العنصرية فقط لكنه خوف وفزع من ثبات أصول الدين، واستقامة مبادئه الفطرية التي يتزايد على اعتناقها أمم من شعوب العالم المعاصر بغير تمويل أو تبشير، أو عمل مؤسسات إسلامية أو حتى بعض دعاية، أو إعلام به، كما ارتبط هذا الخوف الغربي من الإسلام بفقدان الثقة بالنفس لدى قطاعات هائلة من مؤسسات التوجيه في الغرب، وهي الحالة التي يعيشها الغرب اليوم، وأصبحت تقلق حكومات وهيئات ذات سطوة، وقد تؤدي بهم إلى مزيد من التعسف أو الحذر من هذا (الدين الإلٰهي) الذي لم تمتد إلى أصوله وثوابته يد التحريف والدس والوضع. ومن هنا تولدت في النفس فكرة هذا الكتاب، وذلك على الرغم من كثرة وتعدد ألوان الخطاب الإسلامي وتزيينه وتجميله بكل صور السماحة التي جاهد من خلالها نفر من علماء الإسلام، عاهدوا اللّٰه على تقديم الأدلة والبراهين على المواقف العادلة لأحكام وتعاليم الإسلام تجاه الآخر. وكنا نتابع الجهود المبذولة، وبعض المنتديات المعقودة، فنلمح من خلال نبرة خاصة تلهم أن بعض الدعاة والعلماء يحاولون تبرئة الإسلام من مفتريات الآخر، وكأن هذا الدين السماوي الذي نؤمن بأن اللّٰه تعالى قد تكفل بحفظه وأن البشر في حاجة ماسة إليه وفي حاجة إلى مبادئ عدله ونبل الأخوة الإنسانية في تعاليمه في قفص الاتهام.

ومنذ فترة من عصرنا هذا، وبأثر من رد فعل إسلامي، أمام لغة الصدام الحضاري التي علا بها بعض الممثلين لهذا الآخر، وأملاً في حوار حضاري بديلاً عن الصدام الحضاري، ورغبة في تكوين خطاب علمي هادئ قلّبنا في بعض صفحات هذا الدين ـ الإسلام ـ لنطالع: «الأيديولوجية» من الكتاب والسنة ولننظر أيضاً تطبيقات فعل النبي ﷺ وجوانب وميادين ومجالات العمل التي وضع ضوابطها ﷺ في التعامل مع الآخر، مروراً سريعاً بعصور ومجتمعات وأوطان،

ساد فيها الإخاء الإنساني بتوجيه من هدي الإسلام على الصراع العقدي أو العنصري، آملين أن تنفع مفردات وقضايا هذا الكتاب المسلمين وغير المسلمين، وذلك ببيان أحكام منهج الإسلام في التعامل مع أهل الكتاب، منهجاً وتطبيقاً وهو المنهج الذي عرضناه موجزاً في لقاء ثقافي، أمام صفوة من علماء ومفكري العاصمة السعودية «الرياض» دُعي إليه بعض أفراد البعثات الدبلوماسية الغربية في المملكة العربية السعودية وذلك يوم ٩ ربيع الأول ١٤٢٤هـ الموافق ١٠ مايو ٢٠٠٣، في منزل أحد أحفاد مؤسس المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز آل سعود، رحمه الله تعالى وهو صاحب السمو الملكي الأمير تركي بن طلال بن عبد العزيز آل سعود، وبحضور عدد من شباب أبناء عمومته وصفوة من الأكاديميين.

ولما كان الوفد الدبلوماسي المدعو إلى اللقاء قد تفاعل بموضوعية وتقدير ومشاركة، لخطاب «اللقاء الثقافي» العام الذي أراد الله لي فيه أن أكون وحدي الذي يحمل عبء هذا الخطاب الذي قوبل بمداخلات وتعليقات باللغتين العربية والإنجليزية إيجابية، قررت التوسع في دراسة موضوعات هذا الكتاب وبعد أن كانت «المحاضرة» التي ألقيتها في منتدى الأمير تركي مختصرة وتحت عنوان «منهج الإسلام في التعامل مع أهل الكتاب» رغبت في أن يكون الموضوع بعد جمع ما يتصل به، مع نماذج من الممارسة، أن يتسع التناول فيتجاوز إطار منهج «محاضرة» إلى عرض رؤية موسعة بعض الشيء عن نبي الإسلام ﷺ، أتناول فيها نبذاً عنه ﷺ، تتعلق بنسبه ومولده، وشطراً من حياته قبل الدعوة، وشطر آخر تحت علم النبوة، باعتباره ﷺ الشخصية التاريخية الفريدة التي لم يختلف حول وجودها التاريخي أحد من المسلمين، ولا من «الآخر» الذي لم يؤمن به نبياً ورسولاً، بخلاف غيره من أنبياء الله ورسله الذين تعرض بعضهم لإنكار شخصيته التاريخية. وقد جاءت دراستنا هذه «الإسلام والآخر» في ثمانية فصول، تناولنا في الأول والثاني جملة قضايا تتعلق بمقومات اختيار النبي محمد ﷺ للدعوة الخاتمة، والعلاقة بين العرب وظهور الإسلام على أرضهم وهو دعوة عالمية، وبيان أثر العرب والمسلمين في تبليغ الدعوة بالسلم والحلم. وكان لا بد من استعراض بعض مراحل الدعوة وجهادها تحت راية النبي ﷺ، ومن هنا جاء الفصل الثالث ليعرض نموذجاً مختصراً عن قيام الدولة التي أسسها الإسلام في المدينة باعتبارها عاصمة سياسية، يستظل بالمواطنة فيها من القبائل والشعوب

والفئات حتى التي لا تدين بالإسلام ممن وقع على وثيقة المواطنة العدد الكثير، وبتوسع الدولة وتبليغ الدعوة دخلت قوى عديدة تحت لواء السيادة التي مثلتها العاصمة في جمع كل من التزم الدفاع عنها، لكن القبائل اليهودية التي وقعت عهد المواطنة مثل قبائل: قينقاع، والنضير، وقريظة، وبني النضير، وخيبر، والمصطلق، وغيرهم، نقضت عهودها وتآمرت ضد الوطن الذي استظلوا به.

وقد اقتضى البحث منا، خاصة، وحجم المفتريات التي تخلط فيها الحق بالباطل أبواق غير مسلمة تنتمي للتعليم الديني لا تزال تطالعنا عبر قنوات البث الفضائي بتزييف حقائق التاريخ، أن نتوسع في عرض وبيان وسائل نقض العهود التي بادرت إلى نقضها أقوى القبائل اليهودية وأصغرها إبان بناء الدولة، وإعلان الحرب عليها، وهي المواقف والملابسات والمؤامرات بل والاعتداءات التي تعرض لها المجتمع المسلم، وقد خصصنا لها الفصل الرابع الذي تدور قضاياه ومفرداته، حول الأسلوب الذي تعامل به «الآخر» ممثلاً في اليهود وغيرهم من مشركي العرب ومنافقيهم وهو الأسلوب الذي تمثل في التآمر، وتجميع القوى للفتنة في الدين، وإثارة الجدل، وإعلان الكراهية للنبوة في بيت إسماعيل، ومع إعلان التحدي والسخرية من شخص النبي محمد ﷺ، وحتى إعلان الحرب ضد الدولة في المدينة وهي المواقف التي جعلتنا نتناول موضوعاً يتعلق بالسياسة الشرعية نوضح فيه: كيف ومتى يقبل الإسلام الحرب ضد أعدائه، إذا ما وقع الغدر بمجتمع المسلمين.

وأما الفصل الخامس فقد خصصناه للقضية الأم والتي تناولناها بالتفصيل والاستشهاد بآراء من سبقونا في هذا المضمار، وأعني بهذه القضية: «المنهج الإسلامي العام في التعامل مع أهل الكتاب»، وهو المنهج الذي وسع: «المؤلفة قلوبهم»، وتقرير مشروعية حسن النية تجاه الآخر، والبعوث لتبليغ دعوة الإسلام بالحسنى، وبالسلم والعدل والإخاء الإنساني الذي عبد الطريق أمام سرعة انتشار الإسلام.

وفي الفصل السادس تناولنا البعد الفلسفي والتشريعي الذي يوضح الأصل في علاقة الدولة الإسلامية بغيرها. مع بيان ما للآخر في الإسلام دمه وماله وحرية عقيدته التي يؤثرها على غيرها في ضوء علاقة السلم بين المسلمين وغيرهم.

وفي الفصلين السابع والثامن، عرضنا وفي إيجاز شديد على ضوء ما تقول به مصادر التاريخ الإسلامي، وشهادة بعض المنصفين من «الآخر» الذي تعامل عبر عصور التاريخ مع النظام في الإسلام، بدءاً من عصور الراشدين والأمويين والعباسيين، والفاطميين، مع دراسة موسعة عن تطبيقات المسلمين لأحكام دينهم في الأندلس في التعامل مع الآخر، من دعم بناء الكنائس اليهودية والمسيحية وإشاعة حرية الاعتقاد، بين جميع من يستظل «بالوطن» الذي يكون فيه النظام للإسلام وتسود روح العدل والتسامح.

هذا وقد اقتضى البحث وذلك على الرغم من أن معظم ديار المسلمين تتعرض في عصرنا هذا، لسوء الظن، بل للإساءة والعدوان من قبل «الآخر»، من أن نتناول إشكالية تاريخية، تحكم العقل الغربي في التعامل مع الإسلام بشراً وأرضاً، وتشريعاً وبعضه أصبح «فرضية شرعية» وأعني بها قضية «الجزية» وما يتعلق بها، وهي القضية التي فرض البحث فيها بيان حكم حرية العبادة، وحرية بناء الكنائس في عصرنا هذا مع عرض نموذج من علاقات التسامح بين المسيحية والإسلام، مع بيان لدراسة الفكر العربي المسيحي المعاصر، الذي تعرض معظم مفكريه المعاصرين، لنقض الزعم القائل بتناقض العروبة والإسلام. وذلك لرتق ثغرة التوهم الغربي الذي يخطط للنفاذ إلى تجمعات المسلمين المعاصرين من باب الدفع بالعدوان الغربي إلى بلاد المسلمين عرباً كانوا أم غير عرب تحت سؤال صنعه الفكر الغربي يقول: من يحمي المسيحيين العرب؟.

وكان لا بد لنا من عرض هذه القضية بالدراسة والنقد والتحليل، وذلك للاستشهاد ـ علمياً ـ إلى ما يستهدفه الكتاب «الإسلام والآخر» من الغاية المرجوة وهي الكشف والبيان وحجب غبار العدوان عن عرضنا لمنهج الإسلام في التعامل مع الآخر من باب التعريف بحقائق يحاول بعض دعاة الفتنة في قنواتهم التلفازية أن يطمسوها، ونحن هنا لا ندافع عن دين يتوهم بعض من «الآخر» أنه في قفص الاتهام، إنما نذكر بالحقائق التي جاد بها وأحسن وتسامح النظام في الإسلام مع الآخر فنعم كثيراً وآمن كثيراً كثيراً بل وحافظ على عقيدته ونسكه دون قهر أو تضييق، أو حرمان كذلك الذي يمارس اليوم من قبل الآخر ضد كل ما يمكن أن يتصل بالإسلام. ولكن اللّه غالب على أمره.

هذا وأرجو اللّه تعالى أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن

يكون إسهاماً حضارياً في تقديم صورة من عدل هذا الدين، وبياناً لحجم الحرية الإنسانية فيه.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين اهتدوا بهديه واتبعوا سنته، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه الفقير إلى رحمة ربه وعفوه
دكتور صابر بن عبد الرحمٰن طعيمة
الأستاذ بجامعة طيبة ـ المدينة النبوية (المنورة)

١٠/١/١٤٢٧هـ



الفصل الأول

- حول صاحب الدعوة الإسلامية ﷺ.
- نسبه ﷺ وشخصيته التاريخية
- متى وأين ولد ﷺ
- رأي المستشرقين في شخصيته ﷺ
- وفاة أمه
- سفره للشام
- شهوده حرب الفجار
- حلف الفضول
- سفره للشام ثانية
- محمد ﷺ قبيل الرسالة
- عبادته ﷺ ونوعها قبل الإسلام
- محمد ﷺ تحت علم النبوة

حول صاحب الدعوة الإسلامية ﷺ

من باب الوفاء بمتطلبات البحث أن نفرد هذه الصفحات للتعرف على صاحب الدعوة الإسلامية التي ينتسب إليها موضوع بحثنا ودراستنا «الإسلام والآخر» باعتبار أن معطيات هذا الدين في جوهرها تنطلق من عطائه وهديه ﷺ وإلا فإنه (محمد ﷺ) سيد الخلق ورحمة الله البشير النذير الرسول الخاتم قد ملأت سيرته العالم أجمع وتعرفت عليه أمم الأرض فإذا هي أمام أعظم عظيم ممن حباهم الله بالرسالة وأيدهم بالمعجزات واصطفاهم من بين خلقه ولولا عناد أعداء الحق ومكابرتهم لنطقت ألسنتهم بمنهج يذكره ويعترف بفضله وينحني أمام جلائل أعماله وعظيم هديه عند عدد هائل من البشر هذا الهدي الذي يتمثل في ذلك الرصيد الهائل من الخير والفضل والعلم الذي لو تتربى الإنسانية على بعض أدبه وتأتنس النفوس بروح الخير والسلام فيه لما عانت البشرية ويلات ضياعها اليوم ولما وقعت في براثن أعداء الخير والحق الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

نسبه ﷺ وشخصيته التاريخية

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان المتصل بإسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. هذا وقد روي أن النبي ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز معد بن عدنان بن أدد ويمسك ويقول: (كذب النسابون) وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وكنيته أبو القاسم[1].

وأما بيته فكان أشرف البيوت القرشية وأنبلها فقد كان هاشم سيداً كريماً

(١) ابن كثير «البداية والنهاية» جـ ٢/ ٢٥٢ـ ٢٥٦.

وكانت إليه السقاية والرفادة وهما منصبان من مناصب الشرف في الجاهلية وبعد وفاة هاشم آلت إلى المطلب أخيه ثم إلى ابن أخيه عبد المطلب وقد قاسى في القيام بهما وبنوع خاص في السقاية كثيراً من المشقة منذ نصبت زمزم، ولما اهتدى عبد المطلب إلى مكان زمزم حفرها، وهنا يرد حديث النذر والفداء الذي طالما تردد عن النبي المنتظر، الذي طالما كان يدور إذ ذاك على الألسنة من بشارات واستفتاحات كان يرددها اليهود عن قرب بعثة نبي منتظر من العرب[١].

وقبل الانتقال إلى الحديث عن الرضاع يجب أن نشير إلى أن كتاب السير وعلى الأخص المتقدمين منهم قد أجهدوا عقولهم وأقلامهم في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية فنقلوا كثيراً من البشائر التي قد يكون كثيراً منها أو معظمها وقع. وقد يكون بعضها غير مؤكد الرواية، غير أن هذه البشائر تبقى لها دلالتها وهي أنه قد سبق مولد صاحب الدعوة بشائر لفتت الأنظار وحركت القلوب والمشاعر وهيأت العالم لقرب ظهور المخلص محمد ﷺ ومن هذه البشائر: كثرة انقضاض الكواكب وزلزلة الأرض في جهات شتى زلزالاً سقطت به الأصنام حول الكعبة، وتهدمت كنائس وبيع، وارتج إيوان كسرى، حتى سقط من شرفاته أربع عشر شرفة، وخمدت نار فارس ولم تك خمدت قبل ذلك بألف سنة وغيض ماء بحيرة ساوة[٢] على اتساعها، وكذلك ما فعل الله بأصحاب الفيل إلى غير ذلك من الأخبار غير أنه يمكن القول وعلى ضوء ما ذهب إليه الباحثون المحدثون من الاهتمام بسوق مثل هذه البشارات عند الحديث عن نبي الإسلام ﷺ خاصة وأنه لم يكن لبشارة من تلك البشائر أثر في إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبي بها، أو كان ثبوت الدعوة متوقفاً عليها والذين شهدوا هذه العلامات يوم الميلاد لم يعرفوا مغزاها، ولا عرفوا أنها علامة تدل على رسالة شخص بعد أربعين سنة من وقوعها، هذا إلى أنه قد ولد مع النبي أطفال كثيرون في بلاد العرب وغيرها، فإذا صح للمسلم أن ينسبها إلى النبي، فكذلك يستطيع غير المسلم نسبتها إلى غيره من مواليد هذا اليوم والعام ويجوز أن تكون كل الظواهر التي حدثت في يوم الميلاد حدثت ولا علاقة لها أصلاً بميلاد النبي ولا بإرساله إلى الخلق فانقضاض

---

(١) انظر «مطلع النور» عباس محمود العقاد، دار الهلال، مصر عام ١٩٥٨، ص ٦١.

(٢) في بعض الروايات بحيرة طبرية وهذه بالشام، وساوة بفارس بين همذان وقم، وجمع بينهما بأن بحيرة ساوة تسمى بطبرية أيضاً (شرح المواهب جـ ١، ص ١٢١).

الشهب أمر له أزمنته ومواعيده وأسباب يرجع إليها، وإذا اتخذنا مثل هذه الظاهرة بشارة من بشائر الرسول فكيف نعلل انقضاض الكواكب مثلاً في سنة ٣٢٣هـ وهل كانت بشارة لنبي؟ كذلك الزلازل وما تحدثه من آثار مخربة لا تنقطع أخبارها، ولعل ما حدث في سنة ميلاد الرسول كان مما يحدث بين آن وآخر في السماء والأرض من الأحداث الطبيعية فلا بأس من رجعها إليه، أما العلامة التي لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها فهي علامة الكون وعلامة التاريخ، قالت حوادث الكون لقد كانت الدنيا في حاجة إلى الرسالة، وقالت حقائق التاريخ: لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة، ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ[١] إن محمداً ﷺ كان كاملاً في صفاته بين الأنبياء بعموم رسالته، وبالقرآن الكريم معجزته الخالدة على مر الأيام والدهور وما أغنى رسالته وشخصيته عن نسبة هذه الأشياء التي لم يقم عليها دليل ونثبتها له، وإن أقواله وأفعاله لتجعلنا نبعد هذه الأقاصيص التي علق الناس بها، فقد مات ابنه إبراهيم، وحزن عليه حزناً شديداً، فوافق هذا اليوم كسوف الشمس، فقالت الناس: ما ذاك إلا لموت إبراهيم أتدرون ماذا كان جواب النبي ﷺ؟ لقد كان رده حاسماً قال ما معناه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة».

متى وأين ولد ﷺ:

الأكثرون من العلماء والمؤرخين على أنه عام الفيل سنة ٥٧١م في فجر يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، وعليه كان عمل أهل مكة قديماً في زيارتهم موضع مولده في هذا الوقت من كل سنة[٢] وذلك بالدار التي كانت في زقاق المدكك بشعب بني هاشم من الطرف الشرقي لمكة وكانت لرسول الله ﷺ فوهبها لعقيل بن أبي طالب، ولما توفي عقيل باعها هو أو ولده إلى محمد بن يوسف الثقفي أخي الحجاج ولما حجت الخيزران جعلت البيت الذي ولد فيه مسجداً للصلاة[٣].

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، ص ٣١، طبعة أولى، دار الهلال بدون تاريخ.

(٢) شرح المواهب، جـ ١، ص ١٢٣، حقق محمود باشا الفلكي ميلاد الرسول فقرر أنه في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول الموافق ٢٠ أبريل سنة ٥٧١م.

(٣) شرح المواهب، جـ ١، ص ١٢٦ـ ١٢٧ هذا ما ذكره شارح المواهب.

الرضاع:

أرضعته أمه بضعة أشهر، ثم أرضعته ثوبية جارية عمه أبي لهب الذي أعتقها فرحاً بميلاد النبي، وفي اليوم الثامن من مولده انتظرت آمنة مجيء المراضع من بني سعد على عادة أشراف العرب الذين كانوا يلتمسون المراضع لأولادهم من البادية لبعدها عن أمراض الحواضر التي كثيراً ما تصيب الأطفال، وهناك تقوى أبدانهم لما في هوائها من الصفاء والابتعاد عن آفات المدن، وقد اختار الله لمحمد ﷺ حليمة السعدية(١) وبقي النبي معها إلى أن تمت مدة رضاعة سنتين ففصلته وعادت به إلى أمه بمكة وكانت حريصة كل الحرص على مكثه بينهم لما شاهدته من بركاته، ولم تزل بأمه حتى عاد معها مرة ثانية وأقام سنتين أخرتين أو ثلاث سنوات.

وفي هذه الفترة وقبل أن يبلغ الثالثة ـ بعد أن عادت به حليمة إلى منزلها ببضعة أشهر ـ تقع حادثة شق الصدر(٢).

وقد روى ابن إسحاق عن أبي ذر(٣) في هذه الواقعة حديثاً عن النبي ﷺ بعد البعثة وقال الرسول ﷺ في آخره: «وكأني أرى الأمر معاينة» وسياق القصة يدل على أنه رد لأمه ثانية وعمره لم يبلغ الثالثة، والأكثرون على أنه رد لأمه وهو

---

(١) من بني سعد بن بكر بن هوازن، وهي بنت أبي ذؤيب وزوجها يسمى الحارث بن عبد العزى المكنى بأبي كبشة من قومها وبهذا تظهر العلة في تلقيب كفار قريش للنبي بابن أبي كبشة.

(٢) وملخصها «أنه بينما كان محمد مع أخيه الطفل من سنه في بهم لأهله خلف بيوتهم إذ عاد أخوه الطفل السعدي يعدو ويقول لأبيه وأمه ذلك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه ـ يقلبانه ـ قالت حليمة: فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً ممتقعاً وجهه فالتزمته والتزمه أبوه» فقلنا له: ما لك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيها شيئاً لم أدر ما هو؟ ورجعت حليمة ورجع أبوه إلى خبائهما، وخشي الرجل أن يكون الغلام أصابته الجن فاحتملاه إلى أمه بمكة.

(٣) وأبو ذر يروي عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان الكلاعي: أن نفراً من أصحاب الرسول ﷺ طلبوا إليه أن يحدثهم عن نفسه فذكر قصة الملكين ـ الخ، ابن هشام جـ ١، ص ١٧٧.

ابن خمس سنوات، ويمكن التوفيق بين الرأيين بأنه رد إلى أمه أكثر من مرة.

رأي المستشرقين في مقدمات النبوة:

كعادة الغربيين في دراسة أمور الإسلام تناول بعض كتاب الغرب ومن قلدهم من المسلمين هذه القصة وعدوها أسطورة من الأساطير التي اخترعها المسلمون الأولون ويدللون على رأيهم بأمور منها:

١ـ إن الذي رأى الحادث ورواه طفل لا يعدو السنتين إلا قليلاً.

٢ـ أنه لو كان الحادث صحيحاً لترتب عليه إرجاع محمد لأهله بعد زمن يسير من عودته مع حليمة، وهذا تناقض ظاهر إذ الرواة مجمعون على أنه بقي عند حليمة حتى بلغ الخامسة.

٣ـ إن محمداً ﷺ لم يكن في حاجة إلى شق صدره وإلى هذه العملية الجراحية القاسية ما دام الله قد أراده من يوم خلقه لتلقي الرسالة.

٤ـ إن الرواية لا تستند إلا إلى المعنى الظاهري من الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ الخ السورة، مع أن المراد منها إنما هو العملية الروحية البحتة لتطهير ذلك القلب وتنظيفه ليتلقى الرسالة القدسية خالصاً ويؤديها مخلصاً تمام الإخلاص.

٥ـ إن هذا الحادث شق الصدر ـ يروى أنه حدث أيضاً وهو ابن عشر سنين[١] وحدث أيضاً عند مجيء جبريل إليه بالوحي في غار حراء[٢] والمرة الرابعة ليلة الإسراء والمعراج[٣] فما الفائدة من تكراره وقوعه ثانياً؟.

٦ـ ما رواه ابن إسحاق من أن السبب في رده إلى أمه لم تكن حكاية الملكين وإنما خوفها عليه من نصارى الحبشة الذين أرادوا أخذه منها، هذه أدلة

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد مسند ابن خليل وابن حبان، والحاكم وابن عساكر عن أبي بن كعب عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه أبو نعيم والبيهقي في دلائلهما من حديث عائشة.

(٣) رواه الشيخان وأحمد من حديث قتادة عن أنس بن مالك بن صعصعة والترمذي والنسائي من طريق الزهري عن أنس عن أبي ذر مرفوعاً في المواهب: جـ ١، ص ١٥٣. وروي شق صدره مرة خامسة وهو ابن عشرين سنة وقال: وهي لا تثبت.

المستشرقين ومن وافقهم من مفكري المسلمين المحدثين، وقبل الرد عليهم يجب أن نشير إلى أن شق الصدر الحسي ليس خاصاً بالنبي محمد ﷺ، بل جرى لغيره من الأنبياء.

أما عن الأول:

فإن الطفل لم يكن يرويه على سبيل الأخبار وإنما قص ما شاهد وهو مروع للاستنجاد، ويكفي أنه شعر بطريق الغريزة أن ضرراً يراد بأخيه القرشي فراح إلى أقرب الناس إليهما ليستنجد بهما فيكون ما قصه على أبيه وأمه وقع فعلاً يضاف إلى هذا موافقة محمد ﷺ لأخيه السعدي حين سأله أبواه من الرضاع ولا يتصور عادة اتفاق الطفلين على اختراع هذه الحادثة من مخيلتهما إن لم تكن حدثت بالفعل، والمعروف عن الأطفال في تلك السن عدم القدرة على اختراع الحوادث، فإذا أضيف إلى هذا تأييد النبي ﷺ بعد مبعثه، وقد روي ذلك من عدة طرق[1] وجاء في إحداها[2] أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك؟ قال: «نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما[3] لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجاً فأخذاني فشقا بطني واستخرجا قلبي فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبي بذلك الثلج حتى أنقياه، قال: ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته، فوزنني ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني بهم، فوزنتهم، فقال: دعه عنك فوالله لو وزنته بأمته لوزنها»[4].

---

(١) ابن كثير في «البداية والنهاية» أورد خبر شدق الصدر فقد رواه أبو يعلى وأبو نعيم وابن عساكر عن شداد بن أوس، ورواه البيهقي بسنده عن ابن عباس، انظر جـ ٢، ص ٢٧٥-٢٧٧.

(٢) هي رواية ابن إسحاق عن ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم، خالد بن معدان الكلاعي عن أبي ذر.

(٣) البهم: بفتح الباء وسكون الهاء الصغار من الغنم واحدتهما بهمة.

(٤) ابن هشام: جـ ١، ص ١٧٧ وما بعدها.

وعن الثاني بالمنع:

فلم يجمع الرواة على بقاء محمد ﷺ عند حليمة السعدية إلى سن الخامسة، فلا تناقض إذاً[1].

وعن الثالث والرابع:

بأن الله شاء أن يطهره ظاهراً وباطناً.

وعن الخامس:

بأن التكرار لزيادة التطهير والكمال، فما جرى له في حال صباه واستخراج العلقة منه كان لتطهيره عن حالات الصبا حتى يتصف بصفات الرجولة ولذلك نشأ على أكمل الأحوال من العصمة، وخلقت هذه العلقة لأنها من جملة الأجزاء الإنسانية، فخلقت مكملة للخلق الإنساني فنزعها كرامة ربانية طرأت بعده فإخراجها بعد خلقها يدل على مزيد من الرفعة وعظيم الاعتناء والرعاية من خلقه بدونها، ولو خلق سليماً منها لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقة فأظهره الله على يد جبريل ليتحققوا كمال باطنه كما برز لهم مكمل الظاهر، وأما عند الوحي فليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير، وفي الإسراء لرؤية رب العزة وهو على أتم ما يكون التطهير.

وعن السادس:

بأن النقل عن ابن إسحاق بهذه الصورة غير صحيح[2] وبالتالي لا يؤدي إلى نفي هذه الواقعة، فقد قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم

---

(١) حاصل ما ذكره الزرقاني، جـ ١، ص ١٤١، وظاهر مما رواه ابن إسحاق إن شق الصدر ورجوعه إلى أمه كان في السنة الثالثة وقد قال ابن عباس رجع إلى أمه وهو ابن خمس سنين، وقال غيره وهو ابن أربع وقال ابن عبد البر ردته بعد خمس سنوات ويومين وقال الأموي: وهو ابن ست سنين وحاول بعضهم التوفيق بين هذه الآراء بأنه رد إلى حليمة أكثر من مرة وهذا غير مرضي فقد ثبت أن حليمة لم تره إلا مرتين الأولى بعد تزويج خديجة، جاءته تشكو السنة «القحط» وأن قومها استنوا فكلم خديجة فأعطتها عشرين من الغنم وبكرات من الإبل والثانية يوم حنين، والراجح أنه ﷺ رجع إلى أمه وهو ابن أربع سنين وإن شق الصدر إنما كان في الرابعة.

(٢) الدكتور محمد حسين هيكل «حياة محمد»، طبعة ثانية، ص ١٠٩.

أن مما أهاج أمه السعدية على رده لأمه ـ مع ما ذكرت لأمه مما أخبرتها عنه ـ أن نفراً من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه، فنظروا إليه، وسألوها عنه، وقلبوه، ثم قالوا لها: فنأخذن هذا الغلام فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا، فإن هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره، فزعم الذي حدثني أنها لم تكد تنفلت به منهم[١].

على أن شق الصدر من الأمور الممكنة التي لا يحيلها العقل أو العلم، وبقي أن نقول لأولئك المنكرين المتشككين في هذه القصة من غير دليل، وخاصة من بعض المسلمين الذين يحملون الشق على أمر معنوي رمزي[٢]. نقول إن الميزان الصحيح لنقد الخبر لا يكفي فيه أن يقول: إنه ممكن الاختراع فيحكم عليه بالوضع، لأن اتهام كل خبر بما سبق يقضي على أخبار التاريخ كلها في جميع العصور ولا يبقى منها شيئاً، وحيث إنه لا يوجد مسوغ معقول يدعو إلى إنكار شق الصدر فإثباته أولى من نفيه، إذ لا مصلحة ولا حاجة للمسلمين في اختراع هذا الخبر وإلصاقه بمحمد ﷺ حيث إن الرسول عليه الصلاة والسلام في غنى عن إضافة هذا إليه بما أفاضه عليه ربه من المكرمات والخصائص التي لا تقف عند حد، وحسبه معجزته الخالدة (القرآن الكريم) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وإذا كانت الحكمة الحقيقية في شق الصدر تبدو خافية علينا فلا يكون ذلك سبباً للإنكار، فإن عدم الوصول إلى معرفة السر لا يترتب عليه نفيه في الواقع والسر عند علام الغيوب وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً.

---

(١) ابن هشام: ج١، ص ١٧٩.

(٢) ممن يرى ذلك هيكل في (حياة محمد) والسيدان ناصر الدين «م. دينه» وسليمان إبراهيم في كتابهما (محمد رسول الله) ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم محمود، فقد جاء في ص ٧٧ ما يلي: «سجل القرآن هذه الحادثة في قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾: هذه القصة ككل القصص التي من نوعها والتي يجدها القارىء أثناء قراءته لهذا الكتاب يجب أن تؤول تأويلاً رمزياً والقصة التي نحن بصددها تعني: أن الله شرح صدر محمد إلى الفرح بحقيقة التوحيد».

وفـاة آمنـة:

عاد محمد ﷺ إلى مكة[1]. بعد رجوعه من بادية بني سعد ـ وأقام مع أمه آمنة، وجده عبد المطلب في كلاءة الله وحفظه، ولما بلغ ست سنين توفيت أمه، وقصة وفاتها: أنه كان من عادتها أن تزير ابنها أخوال جده عبد المطلب من بني عدي بن النجار بالمدينة، فأقامت به عندهم شهراً. ثم عادت به قاصدة مكة، لما كانت بالأبواء[2] وافاها أجلها المحتوم، فرجعت به حاضنته أم أيمن الحبشية، وكان لموت أمه أثر عميق في نفسه فشعر بالوحدة والألم شعوراً عميقاً بلغ منه مبلغاً لدرجة يمكن تصورها إذا علمنا أن القرآن الكريم ذكر عناية الله تعالى بعبده محمد في هذا الموقف الأليم وأشارت الآيات الكريمة إلى أن الله سبحانه لم يترك محمداً ﷺ في هذه المحنة دون سند وحماية منه سبحانه، فقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾[3].

---

(١) روي أنه لما عاد مع حليمة، واقتربا من مكة أضلها في الناس وهي مقبلة به نحو أهله فالتمسته فلم تجده فأتت جده، فقالت له إني قد قدمت بمحمد هذه الليلة فلما كنت بأعلى مكة أضلني، فوالله ما أدري أين هو؟ فقام عبد المطلب يدعو الله أن يرده، ثم وجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من زعماء قريش فأتيا به عبد المطلب، فقالا له: هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة فأخذه جده فجعله على عنق وطاف به الكعبة، وأرسل به إلى أمه آمنة.

(٢) الأبواء: بفتح الهمزة وسكون الباء، قرية بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ٢٣ ميلاً ورابغ بينهما، فالأبواء جهة المدينة، والجحفة جهة مكة وقيل: جبل شامخ هناك، وهي قبل رابغ بقليل من جهة المدينة «مرآة الحرمين للواء إبراهيم رفعت»، جـ ١، ص ٧٩. وتعرف الأبواء اليوم بالخريبة، ويرى المكيون أن قبر آمنة بمكة بشعب دب المعروف بشعب الجن ويتصل بالحجون الجاهلي، ويروي البعض أن القبر في دار رابغة، انظر: أخبار مكة للأرزقي، جـ ٢، ص ٢٢١ـ ٢٢٢، ومما يعضد قرب الأبواء من المدينة أنه في غزوة أحد مرت بها قريش وأرادت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان نبش قبر آمنة الذي بالأبواء فرفضت قريش، أخبار مكة، جـ ٢، ص ٢٢٠.

(٣) سورة الضحى، الآيات: ١ ـ ٦.

وفاة جده:

ولما بلغ محمد ﷺ الثامنة مات جده، فكفله عمه أبو طالب شقيق والده بوصية من عبد المطلب فقد أوصى إليه برسول الله كما أوصى بالسقاية للعباس فلم تزل بيده حتى جاء الإسلام وهي بيده فأقرها الرسول له وقد توفي عبد المطلب عن ١٢٠ سنة، وقيل: هو أول من تحنث بحراء فكان إذا دخل رمضان صعد حراء وأطعم المساكين جميع الشهر(١) وترك أمر الكعبة إلى الزبير فكان أبو طالب يحبه حباً شديداً كما شاركته في تربية النبي امرأته فاطمة بنت أسد بن هاشم أم أولاده جميعاً، ويروى أنها لما ماتت قال محمد ﷺ: «اليوم ماتت أمي وكفنها بقميصه».

سفره للشام:

كان أبو طالب تاجراً فعزم على الذهاب تجارة للشام ولما بلغ النبي عزمه على السفر، رغب إليه في أن يصحبه معه فوافق عمه واستصحبه معه، حتى بلغ بصرى في جنوب الشام، وقد التقى في الرحلة بالراهب بحير، وقد نصح الراهب أهله لما رأى فيه إمارات النبوة أن لا يوغلوا به في بلاد الشام خوفاً عليه من اليهود أن يقتلوه، وبعد الرحلة عاد مع عمه إلى مكة، وكانت هذه السفرة ومحمد في التاسعة أو الثانية عشرة من عمره على أرجح الأقوال.

شهود حرب الفجار:

قامت حرب بين قريش وكنانة من جهة، وبين هوازن من جهة أخرى، تعرف بحرب الفجار وهي الرابعة، لأنها كانت في الأشهر الحرم وكانت سن النبي ﷺ حينذاك نحو خمس عشرة سنة واختلف فيما قام به من عمل في هذه الحرب(٢)، فقال قوم: إنه كان يجمع السهام التي تقع من هوازن ويدفعها إلى

---

(١) تاريخ ابن الأثير، ط الأزهرية، جـ ٢، ص ٧.

(٢) تقول كتب السيرة عن هذه الحرب: إن قائد قريش فيها: كان حرب بن أمية الذي اتفق هو وأبو سفيان على أن يقيدوا أبناء أمية أنفسهم لئلا يفروا فسموا العنابس، والعنابس جمع عنبس وهو الأسد وللعرب فجارات أربع آخرها فجار البراص، بتشديد الراء، وهو الذي حضره الرسول وكان أربعة أيام شمطة والعبلاء وهما عند عطاظ والشرب =

أعمامه ليردوها إلى صدور خصومهم وقال آخرون: بل كان يرمي السهام بنفسه، قال النبي ﷺ: وقد ذكر حرب الفجار بعد رسالته: «قد حضرته مع عمومتي ورميت فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فعلت، وبعد انصراف قريش من الفجار عدت».

حلف الفضول:

وأول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب، فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم وبنو أسد بن عبد العزى في دار عبد الله بن جدعان وصنع لهم طعاماً فتعاقدوا وتعاهدوا بالله، ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه، بل ما بل بحر صوفه، وقال النبي ﷺ عن هذا الحلف: «ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم، تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم ما بل بحر صوفه ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»[1] وإلى النبي وأسرته يرجع الفضل في تأسيس هذا الحلف وإنفاذه[2].

رعيه للغنم:

ولما كانت تجارة أبي طالب محدودة ولم يكن منها المال الذي يكفيه، ويكفي من يعولهم من أولاده فقد رأى محمد، أن يشتغل برعي الغنم لأهله

= بفتح فكسر وهو أعظمها وكان بالعالية ويوم الحريرة مصفراً عند نخلة وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة: حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة. ابن هشام: السيرة جـ ١/ ١٩٥ وما بعدها، والسهلي: الروح الآنف جـ ١/ ١٢٠، وابن كثير: البداية والنهاية جـ ٢/ ٢٨٩.

(١) كان بين الحسين بن علي وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان منازعة مال والوليد أمير على المدينة لعمه متحامل على الحسين فقال له الحسين: لتنصفني أو لآخذن سيفي ثم لأقومن بمسجد الرسول ثم لأدعون بحلف الفضول وساعده ابن الزبير وغيره، ولما رأى الوليد ذلك أنصف الحسين.

(٢) راجع عن حرب الفجار، وحلف الفضول، ابن هشام، جـ ١، ص ١٩٥ وما بعدها وشرحها السهلي، جـ ١، ص ١٢٠، والبداية والنهاية لابن كثير، جـ ٢، ص ٢٨٩، وابن الأثير، جـ ١، ص ١٨، وكتاب الفتوة والصعلكة لأحمد أمين سلسلة اقرأ عدد ١١١، ص ٤٥ـ ٤٦، وبلوغ الأدب للألوسي، جـ ١، ص ٢٧٥.

بمكة، وكان الرسول بعد البعثة يفتخر بهذا، وروى أبو هريرة قال: قال النبي، ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم، قال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط كل شاة بقيراط ذهب أو فضة، وكان بين أصحاب الإبل وأصحاب الغنم تنازع فاستطال أصحاب الإبل». فقال النبي بعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داود وهو راعي غنم، وبعثت أنا وأنا راعي غنم أهلي بأجياد[1] هذا ويرى بعض العلماء في تفسيرهم لهذه الظاهرة التي لازمت معظم أنبياء الله على أنه عملية رعي الغنم بالإضافة لكونها عناية شديدة بالعمل أياً كانت نوعيته فإنها بمثابة نوع من التربية والإعداد لهؤلاء الذين اصطفاهم الله تعالى لأن الرجل إذا استرعى الغنم التي هي أضعف الدواب سكن قلبه الرحمة، فإذا انتقل من هذه لسياسة الناس، فإنه يكون مهذباً من الحدة والظلم ويكون معتدلاً في أحواله.

سفره للشام ثانية:

تذكر كتب السيرة والتواريخ أنه ﷺ حين بلغ من العمر خمساً وعشرين سنة، قال له عمه، يا ابن أخي: أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكرة، وليس لنا مادة تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام وخديجة تبعث رجالاً من قومك في عيرها فيتجرون لها في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها وعرضت نفسك عليها[2] لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك وأمانتك، وإن كنت لأكره أن تأتي الشام، وأخاف عليك من يهود، ولكن لا تجد من ذلك بداً، وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف رفيع ومال كثير، وتبعث بتجارتها إلى الشام، وكانت تستأجر الرجال وتدفع إليهم المال مضاربة[3]، فقال النبي فلعلها ترسل إلي في ذلك فقال عمه: إني أخاف أن تولي غيرك، فسكت النبي، ثم بلغ خديجة ما كان من محاورة بين محمد وعمه، فقالت: ما علمت أنه يريد هذا، ثم أرسلت إليه

---

(١) أجياد اسم لحي من أحياء مكة في الجنوب الشرقي للمسجد وهي من أجمل مواقع مكة.

(٢) وقيل: إن خديجة هي التي عرضت عليه أن تعطيه أكثر مما كانت تعطي غيره، وهذا أليق بمكانة محمد ﷺ.

(٣) المضاربة: دفع المال إلى شخص ليتجر فيه ويكون الربح بينهما على ما شرطا.

فقالت: إنه دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك، وعظم أمانتك وكرم أخلاقك وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك فقبل، ولقي محمد أبا طالب فذكر له ذلك فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليه، وذهب مع غلامها ميسرة حتى قدما الشام، وجعل عمومته يوصون به أهل العير، ونزلا في سوق بصرى في ظل شجرة قريباً من صومعة الراهب نسطور، فسأل الراهب ميسرة - وكان يعرفه من قبل - عدة أسئلة عما يعرفه من أحوال محمد، كان يجيبه عليها، فقال الراهب: فيما نسب إليه «ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي» ثم باع الأمين تجارته واشترى ما كلفته خديجة من السلع والأمتعة.

وقد كان لهذه الأسفار التي قام بها محمد أكبر أثر في حياته، كما كان لها من بعد نتائج بعيدة المدى في سياسته بعد الرسالة.

عاد محمد، مع ميسرة - وقد أكرمهما الله - وهما مغتبطان بما فتح الله به عليهما في التجارة، وقد شاهد ميسرة من سجاياه ما جعله موضع إعجابه وتقديره، وقابل الأمين خديجة فقص عليها بحديثه العذب خبر رحلته، وأنصتت له في إجلال وإكبار، ولما انصرف، أقبل ميسرة فحدثها عما شاهد من أحوال النبي مما جعلها تعرف عن محمد، شيئاً كثيراً فوق ما كانت تعرفه وضاعفت له ما كانت سمته من الأجر.

ولقد بلغ بها السرور درجة عظيمة انقلبت إلى حب وودت التزوج به، فكشفت عما تكنه من التقدير والحب له، وتحدثت إلى محمد أو إلى نفيسة بنت منبه في هذا الأمر، ودارت بينهما محاورة لطيفة انتهت بالقبول، وحددت الساعة التي تتم فيها مراسيم العقد، ثم أخبر أعمامه فقبلوا، وذهب مع عميه أبي طالب وحمزة ورؤساء مضر وبعد أن فرغوا من الأكل خطبوا خديجة من عمها عمرو بن أسد(١)

---

(١) وقيل زوجه إياها أبوها خويلد وقيل: أخوها عمرو بن خويلد، والراجح عمها عمرو، فإن أباها كان قد توفي، وعلى هذا فما ورد مما دس عن إسكار خديجة لأبيها حتى يرضي بزواجها من محمد غير صحيح والتقاليد العربية تجعل العم مقدماً على الأخ في مثل هذه الأمور، إضافة إلى ذلك فإن الدوافع التي كانت عند خديجة رضي الله عنها في الزواج من محمد، لا تأتي معها أن تقدم على مثل هذا العمل خاصة وأنه لم يكن هناك ما يبرره، فمحمد كانت تتمناه كل البيوت العربية فلماذا كان يرفض خويلد الزواج على فرض حياته، وكانت خديجة قبل زواجها بالرسول، عند أبي هالة ابن مالك من تميم - حليف =

فرحب بالمصاهرة وتم الزواج، وأولمت الولائم[1]. وكان الصداق عشرين بكرة[2] وهو ما يعادل خمسمائة درهم أو اثنتي عشرة أوقية ذهباً.

وهنا تبدأ صفحة جديدة في حياة محمد، حياة الزوجية السعيدة، فقد كانت تحبه حباً خالصاً على الرغم من أنها ثيب ـ جاوزت الأربعين ـ وكان هو من جانبه ـ وهو في سن الخامسة والعشرين ـ يبادلها ذلك الحب الصادق. وكانت له خير معوان في حياته، ووزير صدق له بعد رسالته، وواسته بنفسها ومالها ولم يتزوج غيرها في حياتها، وبلغ من وفائه لها بعد مماتها الإشادة بذكرها في كل مناسبة وقد أنجب منها أولاداً ذكوراً وإناثاً، ولم يرزق من غيرها بولد سوى جاريته مارية التي رزق منها بإبراهيم.

= بني عبد الدار ـ فولدت له هند وزينب، وكان قبله عند عتيق بن عابد من بني مخزوم فولدت له عبد الله وجارية، انظر ابن هشام، جـ ٤، ص ٣٢١، وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة وسيدة نساء قريش (المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٠٤).

(١) خطب أبو طالب في هذا الحفل، فكان مما قال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وضئضىء «أصل معد» وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وشوكة حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي محمد لا يوزن به رجل إلا رجح به فضلاً وشرفاً ونبلاً وعقلاً، وإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل وأمر حائل، ومحمد ممن قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله كذا من مالي، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم، فلما أتم أبو طالب كلامه تكلم ورقة بن نوفل فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، فنحن سادة العرب وقادتها وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا على معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة من محمد على أربعمائة دينار، ثم سكت ورقة وتكلم أبو طالب وقال: قد أحببت أن يشركك عمها فقال عمها: اشهدوا عليَّ معشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد وشهد على ذلك صناديد قريش، وما جاء في خطبة ورقة من أنه أصدقها ٤٠٠ درهم لا ينافي القول بأنه أصدقها ٢٠ بكرة أو اثنتي عشرة أوقية من الذهب إذ يمكن الجمع بتقويم الثمن بذلك أو أحد الشيئين مهر والآخر هدية أو أنه عليه الصلاة والسلام زاد في صداقها على صداق أبي طالب فكان الكل صداقاً.

(٢) البكرة: الفتى من أنثى الإبل.

هذا وقد عرف محمد ﷺ منذ الصبا المبكر بالذكاء ورجاحة العقل، والحادثة التالية تشهد بهذا «أرادت قريش تجديد بناء الكعبة وكان سن النبي نحو خمس وثلاثين سنة، ولما انتهوا إلى المكان الذي يوضع فيه الحجر الأسود اختلفوا أيهم أحق بوضعه لما له عندهم من مكانة، واستفحل الخطب وكادت الحرب تنشب بسببه، ثم اتفقوا على أن يحكموا بينهم أول من يدخل من باب الصفا في الغد، فلما رأوا محمداً داخلاً، قالوا هذا الأمين رضينا حكمه، وما هي إلا لحظات انقضت بسط بعدها النبي رداءه ووضع الحجر الأسود فيه، ثم أمر رئيس كل قبيل أن يأخذ بطرف من أطراف الرداء، ويرفعوه، فحملوه إلى ما يحاذي موضع الحجر من البناء ثم تناوله ووضعه مكانه، وبذلك الحكم الصائب انحسم النزاع وقضى على الفتنة، كما رفع من قدره في أعين أشراف العرب».

محمد ﷺ قبيل الرسالة:

الذين يختارهم الله لهداية البشر يعدهم إعداداً خاصاً لهذه المهمة الشريفة منذ نعومة أظافرهم، وقد أعد الله سبحانه محمداً، فنشأ على أتم ما يكون من الأخلاق والأحوال أفضل الناس مروءة وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً، وأشدهم تواضعاً، يصغى إلى أنات الضعفاء وآلام الفقراء، يفيض قلبه بالرحمة والحنان على جميع الخلق، يمشي على الأرض هوناً تغشاه السكينة حتى ليشير إليه الناس بالبنان قائلين: «هذا هو الأمين الصادق الصدوق، كان نعم الصديق الحميم والزوج الوفي وكان ﷺ قبيل البعثة كثيراً ما يشغل فؤاده في أسرار الحياة والموت، ويغوص بفكره في سر القضاء والقدر، والحكمة في وجود الخلق وكان ﷺ أوفر الناس حلماً وأمانة وأبعدهم عن الفحشاء والأذى ما رئى مماريًا ولا ملاحياً أبداً، حتى سماه قومه (الأمين) ما شرب الخمر، ولا أكل مما ذبح على النصب، ولا ركن إلى لهو ولعب، ولا أتى شيئاً من المنكرات التي كانت متفشية وقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ولما نشأت بغضت الأوثان، وبغض إلى الشعر، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته، قلت ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي، حتى أدخل مكة، فأسمر كما يسمر الشباب، فخرجت لذلك حتى جئت أدنى من دور مكة فسمعت عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلست لذلك فضرب الله

على أذني فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس ولم أقض شيئاً، ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك فقيل لي مثل ما قيل فسمعت كما سمعت حتى غلبتني عيني فما أيقظني إلا مس الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي، فقال لي ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً» وكان كما وصفه ربه بقوله: وإنك لعلى خلق عظيم[١].

هذا: والقول بنسبة كثير من فضائل الرسول إلى الظروف التي لابست حياته قبل البعثة، قول ليس له ما يؤيده واقعياً أو تاريخياً، إن هذه الظروف والحوادث لم تكن ذات أثر تكويني في أخلاقه ﷺ بل على العكس لو كانت المسألة للظروف لكانت النتيجة عكسية وتتجلى هذه الحوادث إذا فرضنا الفرض الآتي: ماذا كان يحدث للنبي عليه السلام لو لم تصادفه تلك الحوادث في رسالته الأولى؟ فالأمر في شأن محمد لم يجر على سنه الطبيعية، وبغضت إليه الوثنية من مبدأ حياته فعالجته طهارة العقيدة وما جاء في الكتاب العزيز من قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد أو على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم، حاشا لله وإنما هي الحيرة تلم بقلوب تلك الصفوة من الخلق التي يختارها الله سبحانه وهذه الحيرة تكون بسبب نقاء معدنهم وإخلاص قلوبهم حتى قبيل الإعلام بالرسالة وقبل أن يمن الله عليهم بعلمه، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته[٢].

ولقائل أن يقول: قد نشأ النبي بين أتراب من الجاهلية وفراد من عبدة الأصنام فكان حرياً أن تنطبع نفسه بما يرى ويسمع من أول نشأته إلى كهولته أو على الأقل إلى أن يبلغ مبلغ الرجولة، وأن يتأثر بالبيئة التي من حوله، فكيف كان على هذه الدرجة من سمو الأخلاق، ويجاب عن هذا: بأن الأنبياء قد فطرهم الله على الأخلاق الفاضلة، فهي قيم خليقة عن تقليد أو محاكاة أو تعلم ورسول الله نبي من هؤلاء، وجرى الأمر فيه على غير السنن المألوف من تأثير البيئة وكان كلما تقدمت به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه قومه مما لا يتفق وما طبع عليه من مكارم الأخلاق، وهم على أشد ما يكون من الشرك والطغيان وعبادة

---

(١) حدائق الأنوار، القسم الأول لابن الديبع، ص ١٥٩.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، الجزء الأول، ص ١٩٤.

الأوثان. كيف حفظه الله من الدنس والفساد ولم يتأثر بالبيئة كما تأثر بها أقرانه، لم يكن النبي بدعا من الرسل في هذا الأمر، فإن ذلك اللطف فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته.

في غار حراء: رأى محمد بعينيه وبصيرته ما عليه قومه من الفساد، كما لم يعجبه ما شاهده في رحلاته إلى الشام من انحلال وتدهور وفساد ظهر في البر والبحر، وتاقت نفسه إلى إصلاح تلك الحال وطال تفكيره في ذلك ولما شارف سن الأربعين اشتدت رغبته في الإصلاح ولكن ما هو السبيل إلى ذلك؟ وأين الحق الذي ينشده؟ لعله قد يهتدي إليه إذا ترك مكة وما فيه من ضروب اللهو وأنواع الفساد، ويعتزل الناس في مكان لا يشغله فيه أحد، ولما صح عزمه على ذلك خرج من مكة إلى جبل شاقه في الطريق إلى منى وعرفات وفي قمة هذا الجبل غار هو خير ما يصلح للعبادة والخلوة، ذلك الجبل هو جبل حراء والغار هو غار حراء فكان يذهب إليه في كل عام ويمكث فيه طوال شهر رمضان ويقال: إن أول من تعبد في هذا الغار جده عبد المطلب، فمن الجائز أن يكون النبي قلده في هذا كما يجوز أن يكون هذا إلهاماً من الله لرسوله الذي أراد إعداده للرسالة السامية، وكانت العرب تسمي هذا الانقطاع التحنف أو التحنث بمعنى اتباع الحنيفية أو البعد عن الحنث والإثم، وقد حبب إلى الرسول هذا النوع من الخلوة والعبادة، ممعناً في التفكير، متلمساً الحقيقة، ولقد كان يستبد به التفكير حتى ليكاد ينسى نفسه وطعامه وكل ما في الحياة من زخرف زائل[1].

وكان محمد طوال هذه المدة في حيرة شديدة عبر الله عنها بقوله في سورة الضحى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ فقد خبر قومه فلم يرقه ما هم عليه دينياً واجتماعياً[2].

وسافر إلى الشام فرأى فيها مدنية الرومان ودينها، وسمع عن الفرس وما هم فيه من إباحية منتشرة ومجوسية مرذولة، لم يرض عن شيء من هذا كله ولم يطمئن قلبه لذلك ولكنه اطمأن إلى شيء واحد وهو أن كل ما رأى ضلال

---

(١) انظر: ابن كثير «البداية والنهاية» جـ ٣/ ٤٦، وابن هشام، السيرة جـ ١/ ٢٣٥، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ ١/ ٢٧.

(٢) المختار من كنوز السنة، الدكتور عبد الله دراز، ص ٢٨ـ ٣٠.

وحيرة[1].

عبادته ونوعها:

كانت عبادة محمد ﷺ هذه الفترة غير معروفة تماماً وقد ذهب بعض العلماء إلى أنه كان متعبداً بشريعة من شرائع الأنبياء السابقين، بينما يرى فريق ثان أنه لم يكن متعبداً باتباع شريعة من الشرائع، وفريق ثالث: توقف عن الفصل في هذه المسألة، وقد يكون القول الثاني أقرب إلى الصواب وأن عبادته كانت من نوع التفكير في الكون وخالقه، فإنه لم يثبت تاريخياً أن النبي كان يتعبد على شريعة خاصة، ولو حدث لتوفرت الدواعي على نقله ويرشح لهذا الرأي قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾[3].

محمد ﷺ تحت علم الدعوة:

دراسة تاريخ الدعوة الإسلامية ومراحلها وأطوارها سواء في مكة أو المدينة ترينا أن كل ما يتصل بالنبي ﷺ من أمور حياته قبل النبوة وبعدها له علاقة مباشرة بهذا الشرف العظيم الذي أكرمه الله به وقبل أن نتعرض لنبذة من حياته ﷺ تحت أعلام النبوة نعرض في إيجاز لبعض ما حباه الله به ﷺ من هيئة خلقية وخصائص خلقية.

فماذا عن هيئته ﷺ؟

- كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً، ليس بالطويل البائن ولا القصير ـ متفق.
- كان رسول الله ﷺ مربوعاً[4] عريض ما بين المنكبين، كث اللحية[5] تعلوه حمرة جمته[6] إلى شحمة أذنية، لقد رأيته في حلة حمراء، ما رأيت أحسن

---

(١) الإمتاع للمقريزي، الجزء الأول، ص ٨.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٣) سورة الضحى، الآية: ٧.

(٤) مربوعاً: ليس بالطويل ولا بالقصير.

(٥) كث اللحية: كثير الشعر.

(٦) جمته: شعره.

منه ـ رواه البخاري.

- كان رسول الله ﷺ ضخم الرأس واليدين والقدمين، حسن الوجه، لم أر قبله ولا بعده مثله ـ رواه البخاري.

- كان وجهه مثل الشمس والقمر وكان مستديراً.

- كان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، حتى كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك، متفق عليه.

- كان الرسول ﷺ لا يضحك إلا تبسماً، وكنت إذا نظرت إليه قلت أكحل العينين وليس بأكحل ـ حسن رواه الترمذي.

- وعن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً، حتى أرى منه لهواته، إنما كان ضحكه التبسم ـ رواه البخاري.. وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة أضحيان[1]، فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر، وعليه حلة حمراء، فإذا هو عندي أحسن من القمر. أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وهذه الملامح الطيبة الكريمة كانت تحمل مهابة وقوة وسنداً من الله، وإذا أردنا الدليل على أنه كان يكثر بكاؤه ﷺ من خشية الله ويطيل سجوده حتى تتورم قدماه يحمل قلباً فيه من الثقة بالله والاعتماد عليه ما تخر أمامه القلوب التي كان لها صلابة الجبال الراسيات، فيكفينا في ذلك أن نذكر في إيجاز واقعة (الأراشي) التي ذكرتها كتب السيرة ورواها رجال التراجم وخلاصتها كما روى محمد بن إسحاق بسنده عن عبد الملك بن أبي سفيان الثقفي قال: قدم رجب من أراش بابل إلى مكة المكرمة، فابتاعه أبو جهل بن هشام فماطله بأثمانها، فقبل الأراشي حتى وقف على نادي قريش ورسول الله عليه الصلاة والسلام جالس في ناحية المسجد فقال: «يا معشر قريش هل من رجل يعديني على ابن الحكم بن هشام، فإني غريب وابن سبيل، وقد غلبني على حقي؟.

فقال أهل المجلس ترى ذلك ويشيرون إلى رسول الله ﷺ يهزؤون به لما

(١) أضحيان: مضيئة مقمرة.

يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة، اذهب إليه فهو يعديك عليه.

فأقبل الأراشي، حتى وقف على النبي ﷺ فذكر له فقام معه، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم: اتبعه فانظر ماذا يصنع، فخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه، فقال من هذا؟ قال محمد فأخرج، فخرج إليه، وما في وجهه قطرة دم، وقد امتقع لونه، فقال له عليه الصلاة والسلام: أعط الرجل حقه، قال لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه، ثم انصرف رسول الله ﷺ وقال للرجل: ارحل لشأنك، فأقبل الأراشي حتى وقف على ذلك المجلس، فقال: جزاه الله خيراً، قد أخذت الذي لي.

جاؤوا إلى الرجل الذي بعثوه معه فقالوا ويحك ماذا رأيت؟ قال عجباً من العجب، والله ما هو أن ضرب عليه بابه، فخرج وما معه روحه، فقال اعط هذا الرجل حقه، فقال لا تبرح حتى أخرج إليه حقه، فدخل فأخرج إليه حقه.

لم يلبث أن جاء أبو جهل إلى المجلس، فقالوا: ويلك. والله ما رأينا مثل ما صنعت. فقال ويحكم، والله ما هو أن ضرب على بابي، وسمعت صوته فملئت رعباً، فخرجت إليه، وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قوته، ولا أنيابه لفحل قط فوالله لئن أبيت لأكلني.

إن هذه الواقعة تدل أولاً على هيبة النبي ﷺ يستعين بها إذا أراد في إقامة حق وخفض باطل، ولا يستعين بها في الدعوة إلى الله تعالى دائماً، فالرسالة تستدعي تأليف القلوب دائماً على الرفق واللين، ولقد قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

وتدل ثانياً: على أن أشد الناس سفهاً، وتهجماً على الناس، واستهانة بحقوقهم، وهو في وسط الجموع هو أشدهم خوفاً، وهلعاً وفزعاً إذا انفرد فهو جبان رعديد، إذا لاقى خصمه وجهاً لوجه، وإنك لترى الذين يبالغون في الإيذاء من الحكام الظالمين وغيرهم أشد الناس فزعاً، إذا أحسوا بأنهم مرام مقصود، وانفردوا، فالتهجم من فرط الاندفاع، وهو لا يتنافى مع الجبن، بل إنه يلازمه إذا لاقى الأقوياء.

هذه هي الواقعة الأولى، أما الواقعة الثانية فهي ما رواه البيهقي بسنده عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص ما أكثر ما رأيت من قريش قريشاً أصابت النبي ﷺ فما كانت تظهره من عداوة؟ فقال رأيتهم وقد

اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط: سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا وسب آلهتنا، وصرنا على أمر عظيم.

قال: فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالبيت، فغمزوه ببعض القول فعرفت ذلك في وجه الرسول ﷺ فمضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفتها في وجهه ﷺ، فمضى فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فقال: أتستمعون يا معشر قريش أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح.

فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم من رجل إلا وكأنه على رأسه طائر وقع حتى أن أشدهم فيه قبل ذلك ليرفؤه، حتى أنه ليقول: «انصرف أبا القاسم راشداً فما كنت بجهول».

انصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر، وأنا معهم (أي عبد الله بن عمرو) قال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا بداكم بما تكرهون تركتموه.

فبينما هم على ذلك طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول: كذا وكذا. لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم فيقول رسول الله ﷺ: «نعم أنا الذي أقول ذلك» ولقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجاه.. دانه، وقام أبو بكر دونه ويقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأكبر ما رأيت قريشاً بلغت منه قط[1].

وإن هذه الواقعة تدل أيضاً على هيبة النبي ﷺ وطاقته النفسية ولا ينافي هذه الهيبة ما ارتكبوه بعد ذلك من إثم، فإن الهيبة تفرض نفسها عند أول الصدمة ولا تتنافى مع التدبير لمقاومتها، فقد ألقوه في المرة الأولى، وواجههم بما يكف ألسنتهم عن الغمز والاستهزاء، ويلقي في قلوبهم الرعب فأثمر ذلك في نفوسهم، ولما استرجعوا أنفاسهم واستردوا تفكيرهم الآثم بعد الصدمة التي أوجدتها الهيبة دبروا أمرهم ثم كانت تلك الحركة أخذ فيها بعضهم بمجامع ردائه، وإن ذلك لا ينافي الهيبة التي كانت للنبي ﷺ عندما يعتزم القول وإلقاء المجابهة في القلب.

---

(١) ابن كثير «البداية والنهاية» جـ ٣، ص ٤٦.

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن نشير إلى بعض من مراحل حياته ﷺ في ظلال النبوة لنقف من خلالها على بعض خصائصه ومقاماته ﷺ ففيها من إشراقات الهدى ومعالم الهداية والرشد ما يأخذ من أولي الألباب إلى الاقتداء والاهتداء.

ولقد اتخذت حياته ﷺ في ظل النبوة أطواراً عديدة كان من أهمها تأملاته ﷺ في غار حراء وخاصة قبيل بلوغه سن الأربعين، فكان يأخذ السويق والماء ويذهب إلى غار حراء في جبل الثور على مبعدة نحو ميلين من مكة ـ وهو غار لطيف طوله أربع أذرع وعرضه ذراع وثلاثة أرباع من ذراع الحديد ـ ومعه أهله قريباً منه، فيقيم فيه شهر رمضان، يطعم من جاءه من المساكين، ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون، وفيما وراءها من قدرة مبدعة وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة، وتصوراتها الواهية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح، ولا منهج محدد، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه[١].

وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له ويعده لما ينتظره من الأمر العظيم ولا بد لأي روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى، لا بد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة.

وهكذا دبر الله لمحمد ﷺ وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى، وتغيير وجه الأرض، وتعديل خطة التاريخ، دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بنحو ثلاث سنوات ينطلق في هذه العزلة شهراً من الزمان ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله[٢].

ولما تكامل له أربعون سنة وهي كما يؤثر رأس الكمال، وقيل: ولها تبعث الرسل ـ بدأت آثار النبوة تتلوح وتتلمع له من وراء آفاق الحياة وتلك الآثار هي الرؤيا. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، حتى مضت على ذلك ستة

---

(١) ابن هشام ١/٢٣٥، ٢٣٦، سيد قطب «في ظلال القرآن»، الجزء ٩/١٦٦.
(٢) نفس المصدر ٢٩/١٦٦، ١٦٧.

أشهر[1]، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ـ فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ بحراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض، فأكرمه بالنبوة، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن[2].

ولنسمع إلى أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله عنها تروي لنا قصة هذه الواقعة التي كانت شعلة من النور أخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر والضلال حتى غيرت مجرى الحياة، وعدلت خط التاريخ، فقالت عائشة رضي الله عنها:

---

(١) قال ابن حجر: وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده وهو ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة في رمضان، فتح الباري ١/ ٢٧.

(٢) للشيخ العلامة صفي الرحمٰن المباركفوري في بحثه الرحيق المختوم، دراسة رائدة في هذا الموضوع يقول فيها اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً في أول شهر أكرمه الله فيه بالنبوة وإنزال الوحي فذهبت طائفة كبيرة إلى أنه شهر ربيع الأول وذهبت طائفة أخرى إلى أنه في رمضان وقيل إنه شهر رجب (انظر مختصر سيرة الرسول للإمام الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، ص ٧٥)، وإنما رجحنا الثاني أي أنه شهر رمضان ـ لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ ولقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾، ومعلوم أن ليلة القدر في رمضان وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾، ولأن جواره ﷺ بحراء في رمضان وكانت وقعة نزول جبريل فيها كما هو معروف، ثم اختلف القائلون في بدء نزول الوحي في رمضان في تحديد ذلك اليوم فقيل: هو اليوم السابع وقيل السابع عشر، وقيل الثامن عشر (انظر مختصر سيرة الرسول للإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ص ٧٥، ١/ ٤٩)، وقد أصر الخضري في محاضراته على أنه اليوم السابع عشر (محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/ ٦٩).

وإنما رجحنا اليوم الحادي والعشرون مع أننا لم نر من قال به لأن أهل السيرة كلهم أو أكثرهم متفقون على أنه مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين ويؤيدهم ما رواه أئمة الحديث عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين فقال: فيه ولدت وفيه أنزل علي وفي لفظ: ذلك يوم ولدت فيه ويوم بعثت أو أنزل علي فيه (صحيح مسلم ١/ ٣٦٨، أحمد ٥/ ٢٩٧، ١٩٩، البيهقي ٤/ ٢٨٦، ٣٠٠، الحاكم ٢/ ٦٠٢)، ويوم الاثنين في رمضان من تلك السنة لا يوافق إلا اليوم السابع، والرابع عشر، الحادي والعشرين، والثامن والعشرين. انتهى تعليق المباركفوري.

أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾[1].

فرجف بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: مالي وأخبرها الخبر، لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضعيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى عم خديجة وكان أمرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي ـ فقالت له خديجة: يا ابن عم. اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله الله على موسى. يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أمخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي[2].

وروى الطبري وابن هشام ما يفيد أنه خرج من غار حراء بعدما فوجىء بالوحي ثم رجع وأتم جواره، وبعد ذلك رجع إلى مكة ورواية الطبري تلقى ضوءها على سبب خروجه وهاك نصها:

---

(١) كان نزول الآيات إلى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

(٢) صحيح البخاري ١/٢، ٣ وقد أخرجه البخاري مع اختلاف يسير في اللفظ في كتابي التفسير وتعبير الرؤيا.

قال رسول الله ﷺ بعد ذكر مجيء الوحي: ولم يكن من خلق الله أبغض علي من شاعر أو مجنون، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما، قال: قلت إن الأبعد ـ يعني نفسه ـ شاعر أو مجنون إلا تحدث بها عني قريش أبداً لأعمدن إلى حالق من الجبل لأطرحن نفسي منه فلأقتلنها، فلأستريحن، قال: فخرجت أريد ذلك حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، قال: فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قديمه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فوقفت أنظر إليه، وشغلني ذلك عما أردت فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي، ولا أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مقامي، انصرف عني وانصرفت راجعاً إلى أهلي[1]. حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخدها مضيفاً إليها «ملتصقاً بها مائلاً إليها» فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى، ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت أبشر يا ابن عم، وأثبت، فالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة[2]. ثم قامت فانطلقت إلى ورقة وأخبرته فقال: قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لقد جاء الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له: فليثبت، فرجعت خديجة وأخبرته بقول ورقة، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره، وانصرف (إلى مكة) لقيه ورقة، وقال بعد أن سمع منه خبره: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى[3].

أما مدة فترة الوحي فروى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد أنها كانت أياماً[4]، وهذا الذي يترجح بل يتعين بعد إدارة النظر في جميع الجوانب، وأما ما اشتهر من أنها دامت طيلة ثلاث سنين أو سنتين ونصف فلا يصح بحال.

وقد بقي رسول الله ﷺ في أيام الفترة كئيباً محزوناً تعصف به الحيرة

---

(١) نص الطبري ٢/ ٢٠٧.

(٢) نص ابن هشام ١/ ٢٣٧ـ ٢٣٨.

(٣) ملخص عن ابن هشام ١/ ٢٣٨.

(٤) فتح الباري ١/ ٢٧، ١٢/ ٣٦٠.

والدهشة، فقد روى البخاري في كتاب التعبير ما نصه:

فتر الوحي حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزناً عدا[(١)]. منه مراراً كي يتردي من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك[(٢)].

قال ابن حجر: وكان ذلك (أي انقطاع الوحي أياماً) ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع، وليحصل له التشوق إلى العود[(٣)]، فلما تقلصت ظلال الحيرة وثبتت أعلام الحقيقة، وأن ما جاءه سفير الوحي ينقل إليه خبر السماء وصار تشوقه وارتقابه لمجيء الوحي سبباً في ثباته واحتماله عندما يعود جاءه جبريل للمرة الثانية، روى البخاري عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي (قال):

فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي فقلت: زملوني زملوني زملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿فَٱهۡجُرۡ﴾، ثم حمى الوحي وتتابع[(٤)].

هذا وقد تلقى النبي ﷺ أوامر عديدة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾. أوامر بسيطة في الظاهر، بعيدة المدى والغاية، قوية الأثر والفعل في الحقيقة ونفس الأمر.

---

(١) بالعين المهملة من العدو، وهو الذهاب بسرعة، وفي بعض النسخ «عدا» بالعين المعجمة.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ٢/ ٣٤.

(٣) فتح الباري ١/ ٢٧.

(٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب والرجز فاهجر ٢/ ٧٣٣.

يقول الشيخ المباركفوري[1]:

١ـ فغاية القيام بالإنذار أن لا يترك أحداً ممن يخالف مرضاة الله في عالم الوجود إلا وينذره بعواقبه الوخيمة حتى تقع رجفة وزلزال في قلبه وروعه.

٢ـ وغاية تكبير الرب أن لا يترك لأحد كبرياء في الأرض إلا وتكسر شوكتها، وتقلب ظهراً لبطن حتى لا يبقى في الأرض إلا كبرياء الله تعالى.

٣ـ وغاية تطهير الثياب وهجران الرجز أن يبلغ في تطهير الظاهر والباطن وفي تزكية النفس من جميع الشوائب والألواث إلى حد كمال يمكن لنفس بشرية تحت ظلال رحمة الله الوارفة وحفظه وكلئه وهدايته ونوره، حتى يكون أعلى مثل في المجتمع البشري، تجتذب إليه القلوب السليمة، وتحس بهيبته وفخامته القلوب الزائغة، حتى ترتكز إليه الدنيا بأسرها وفاقاً أو خلافاً.

٤ـ وغاية عدم الاستكثار بالمنة أن لا يعد فعالاته وجهوده فخيمة عظيمة بل لا يزال يجتهد في عمل بعد عمل، ويبذل الكثير من الجهد والتضحية والفناء.

٥ـ وفي الآية الأخيرة إشارة إلى ما سيلقاه من أذى المعاندين من المخالفة والاستهزاء والسخرية إلى الجد والاجتهاد في قتله وقتل أصحابه وإبادة كل من التف حوله من المؤمنين، يأمر الله تعالى أن يصبر على كل من ذلك بقوة وجلادة لا ينال حظاً من حظوظ نفسه، بل لمجرد مرضاة ربه.

ما أبسط هذه الأوامر في صورتها الظاهرة، وما أروعها في إيقاعاتها الهادئة الخلابة، ولكن ما أكربها وأفخمها وأشدها في العمل، وما أعظمها إثارة لعاصفة هوجاء تحض جوانب العالم كله، وتتركها بتلاحم بعضها في بعض.

والآيات نفسها تشتمل على مواد الدعوة والتبليغ، فالإنذار نفسه يقتضي أن هناك أعمالاً لها عاقبة سود يلقاها أصحابها، ونظراً لما يعرفه كل أحد أن الدنيا لا يجازي فيها بكل ما يعمل الناس، بل ربما لا يمكن المجازاة بجميع الأعمال، فالإنذار يقتضي يوماً للمجازاة غير أيام الدنيا وهو الذي يسمى بيوم القيامة، ويوم

---

(١) انظر صفي الرحمٰن المباركفوري (الرحيق المختوم)، الوفاء للطباعة والنشر، صفحات ٧٤ـ ٨١ بتصرف.

الجزاء والدين، وهذا يستلزم حياة أخرى غير الحياة التي نعيشها في الدنيا.

وسائر الآيات تطلب من العباد التوحيد، الصريح، وتفويض الأمور كلها إلى الله تعالى، وترك مرضاة النفس ومرضاة العبد إلى مرضاة الله تعالى.

فإذن تتلخص هذه المواد في:

أ ـ التوحيد.

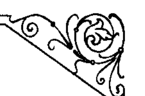
ب ـ الإيمان بيوم الآخرة.

ج ـ القيام بتزكية النفس بأن تتناهى عن المنكرات والفواحش التي تفضي إلى سوء العاقبة، وبأن تقوم باكتساب الفضائل والكمالات وأعمال الخير.

د ـ تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى.

هـ ـ وكل ذلك بعد الإيمان برسالة محمد ﷺ وتحت قيادته النبيلة وتوجيهاته الرشيدة.

ثم إن مطلع الآيات تضمنت النداء العلوي ـ في صوت الكبير المتعال ـ بانتداب النبي ﷺ لهذا الأمر الجلل، وانتزاعه من النوم، والتدثر والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾، كأنه قيل: إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً، أما أنت الذي تحمل هذا العبء الكبير فما لك والنوم؟ وما لك والراحة؟ وما لك والفراش الدافىء؟ والعيش الهادىء والمتاع المريح، قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك، قم للجهد والنصب والكد والتعب، قم فقد مضى وقت النوم والراحة، وما عدا منذ اليوم إلا السهر المتواصل والجهاد الطويل الشاق.



الفصل الثاني

- دلالة الدعوة في شخصيته ﷺ
- خلق صاحب الدعوة ﷺ وعفته
- مقومات اختبار النبي ﷺ للدعوة الخاتمة
- العلاقة بين العرب وظهور الإسلام
- أثر العرب المسلمين في تبليغ الدعوة
- جهاد الدعوة تحت راية النبي ﷺ
- تبليغ الدعوة ومدى علاقته بالإيمان بها
- حقائق تتعلق بالدعوة الإسلامية

دلالة الدعوة في شخصيته ﷺ

في علوم الاجتماع والأخلاق يتفق أربابها قديماً وحديثاً على أن دلالة المذاهب الكبرى والعقائد العظمى يتعرف عليها من خلال سيرة أصحابها ودعاتها فضلاً عن مؤسسيها ومنشئيها، وإذا ما أردنا النظر بهذه المعايير إلى دلالة الدعوة الإسلامية في خلق وزهد رسولها ﷺ لوقفنا أمام نموذج من الناس يتمنع تصوره أو تمثله إلا تحت علم النبوة وعون الرسالة الإلٰهية، فقد كان ﷺ إماماً للزاهدين، يعرف زهده في طعامه ولباسه وفراشه وبيته ونظرته إلى المال وتعامله مع الناس، وفيما يلي عرض وترتيب وتحليل المرويات التي عرفت عن زهده ﷺ، إذ لا بد في هذا العصر من توطئة المعاني وتبسيط المباني، والوصل بين القديم والجديد أو الأصالة والمعاصرة، وبين الثابت والمتغير أو الناموس والتطور، فالزهد في الماديات والاستعلاء على الشهوات والتجافي عن دار الغرور والتطلع إلى حياة الخلود من صفات الأنبياء وسمات الصالحين، ولا يقتضي ذلك تحقير نعم الله فليس هذا من هدي الرسول وأصحابه، وإنما كان هديهم تقدير هذه النعم وشكرها وتناول طيبات الحياة مع الشكر للنعمة والذكر للمنعم ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَالطَّيِّبَٰتِ مِنَ الرِّزْقِۚ﴾ فالزهد في الدنيا قصر الأمل وعدم الفرح بإقبالها والحزن على إدبارها كما روي عن الإمام أحمد بن حنبل، وهو الذي جعل الزهد على ثلاثة أوجه:

الأول: ترك الحرام وهو زهد العوام.

الثاني: ترك الفضول من الحلال وهذا زهد الخواص.

الثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين(١).

فليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص ٢٨٤.

بما في يد الله أوثق منك بما في يدك[1]. وكان علي بن أبي طالب، وعبد الرحمٰن بن عوف والزبير بن العوام وعثمان بن عفان من الزهاد مع ما كان لهم من الأموال، وكان عبد الله بن المبارك والليث بن سعد من أئمة الزهاد مع ما كان لهما من الأموال الكثيرة[2]، لأن أموالهم لم تشغلهم عن الله بل سخروها في طاعته وعبادته ووصل أهل الخير من عباده، فالزهد في خلو القلب من الدنيا ومتعلقاتها لا في خلو اليد منها، فقد استعاذ رسول الله ﷺ من الكفر والفقر.

ولنستعرض صوراً من حياته عليه الصلاة والسلام في حالتي الشدة والرخاء وإدبار الدنيا وإقبالها فهو إمام الزاهدين وقدوة المتقين، ومن سيرته وهديه وأقواله وأفعاله تعرف موازين العدل ومقاييس الصدق في الزهد والزاهدين.

لم يعرف رسول الله ﷺ الاستغراق في النوم على الفرش الوثيرة والطنافس الناعمة منذ أن حمل أمانة الرسالة، فقد فرض عليه ربه عز وجل قيام الليل منذ العهد المكي، فكان ينام على فراش صغيرة من جلد حشوه ليف[3]، وأحياناً ينام دون فراش على حصير يؤثر في جنبه، وتحت رأسه وسادة من جلد حشوها ليف أيضاً[4].

وفي أوقات أخرى وضع تحته عباءة مثناة بدلاً من الفراش[5] حتى إذا رأت ذلك امرأة من الأنصار بعثت إلى زوجه عائشة رضي الله عنها بفراش حشوه الصوف، لكن الرسول ﷺ أمرها برده وكرر عليها ذلك عندما أبدت رغبتها في الاحتفاظ به مبيناً لها أنه لو شاء لأجرى الله معه جبال الذهب والفضة فردته إليها[6]، وقد عملت له عائشة رضي الله عنها فراشاً جديداً بدل فراشه الرث، فألقاه ورفض النوم عليه[7]، ولم يكن

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٥ وأما رفع هذا التعريف للزهد إلى الرسول ﷺ فلا يصح لأن في إسناده عمرو بن واقد الدمشقي وهو متروك (انظر جامع الترمذي حديث رقم ٢٣٤١، وابن ماجه: سن حديث رقم ٤١٠٠).

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٥.

(٣) فتح الباري ١١/ ٢٨٢، وأما صفره فيدل عليه حديث أبي داود في سننه، كتاب الأدب ٩٧.

(٤) حماد بن إسحاق بن إسماعيل ١٩٩ـ ٢٦٧ «تركة النبي والسبل التي وجهها فيه» ص ٩١.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق، ص ٥٥ـ ٥٦.

(٧) المصدر السابق، ص ٥٣.

في حجرة عائشة سوى فراش واحد ثم رزقها الله بفراش آخر(١).

وكانت قريش تألف النوم على السرر، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، ونزل على أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه سأله إن كان يجد عنده سريراً، فلم يكن عنده، وبلغ ذلك أسعد بن زرارة فأرسل إليه سريراً له عمود، وقوائمه من ساج، وهو مضفور من حبال الحصر، فلما تحول من بيت أبي أيوب إلى بيته وهبه لعائشة رضي الله عنها(٢)، وقد رآه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ينام عليه وقد وضع عليه فراشاً رقيقاً لا يمنع أثر الحبال عن جسده الشريف(٣). وكان ذلك بعد غزوة أوطاس، وعقب حيازته أموال هوازن العظيمة في غزوة حنين، فلم يكن امتناعه عن الفرش الوثيرة الناعمة بسبب ضيق ذات يده، وإنما حذر من الركون إلى النوم العميق الذي يحول دون قيامه الليل، وتجافيا عن لذائذ الحياة ومنها لين الفراش ونعومة العيش، فلما طاب منه عمر رضي الله عنه أن يتخذ فراشاً أوثر من فراشه أجابه «ما لي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها»(٤).

وقد استفاضت الروايات في بيان قلة الطعام في بيوت رسول الله ﷺ، فما كان أهله يشبعون من خبز الشعير يومين متتابعين، وكان جل طعامهم التمر، وحتى التمر ما شبعوا منه حتى فتحت خيبر (سنة ٧هـ)(٥)، وأما اللحم وخبز البر والسمن والقثاء فقلما كانوا ينالونه، وقد يمضي عليهم الشهر والشهران ما يوقدون ناراً تحت قدر لا لخبز ولا لطبخ ـ إلا نادراً ـ مكتفين بالتمر والماء(٦).

وقد يبيتون الليالي طاوين(٧). لا يجدون عشاء؟. فكان جيرانهم من الأنصار يصلونهم باللبن.

وقد أتي النبي بطعام سخن مرة فأكل وحمد الله وقال: ما دخل بطني طعام

---

(١) مسند أحمد ٦/ ٩١.

(٢) تركة النبي، ص ٩٥ـ ٩٦.

(٣) فتح الباري ٨/ ٤١.

(٤) مسند أحمد ١/ ٣٠١.

(٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر ٧/ ١٩٥، ٣٨٠.

(٦) تركة النبي، ٤١، ٤٢ والفتح ١١/ ٢٨٣.

(٧) مسند الترمذي حديث رقم ٢٣٦١.

سخن منذ كذا وكذا[1]، وقد ذكر عن نفسه ﷺ أنه أمضى مع أبي بكر رضي الله عنه بضعة عشر يوماً ما لهم من طعام إلا ثمر الآراك وذلك في طريق الهجرة، وكان يصيبه الجوع فلا يجد شيئاً يملأ بطنه[2]. وربما ضعف صوته من الجوع، وربما أخرجه الجوع من بيته وقت الظهيرة وشدة الحر[3]، وقد عصب بطنه في غزوة الخندق بحجر لما يجد من الجوع[4]، وقد اضطره الجوع والضعف مرة إلى أن يضطجع الطريق حتى سقاه رجل قدحاً من اللبن.

وكان الرسول ﷺ يسأل ربه الكفاف وأخذ البلغة من الدنيا والزهد فيما فوق ذلك رغبة في توفر نعيم الآخرة وإيثار لما يبقى على ما يفنى[5]، فلما عرض عليه ربه عز وجل أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً قال: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك[6]، وقد عرضت عليه مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة فاختار لقاء ربه والجنة[7].

وقد وسع الله تعالى على المسلمين بعد فتح قريظة وخيبر لكن النبي الزاهد لم يوسع على نفسه وأهله في الطعام، فقد كان الزهد في الدنيا من صفاته التي لازمته طيلة حياته، ولم يكن مضطراً إليه حتى عندما كانت الأموال قليلة عند المسلمين في السنين الأولى من الهجرة، فلو شاء لأخذ من أموال أصحابه الأغنياء مثل أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة وغيرهم مع بذل أنفسهم وأموالهم بين يديه، وقد أمر بالصدقة، فجاء أبو بكر بجميع ماله وعمر بنصفه[8].

ولو كان العوز وضيق ذات اليد سبب زهده لتغير حاله عندما جاء الله بالغنى، ولكنه آثر الزهد وخشونة العيش وقلة الطعام لنفسه وآل بيته تجافياً وترفعاً

---

(١) رواه ابن ماجه بإسناد حسن (فتح الباري ١١/ ٢٩٣).
(٢) تركة النبي، ص ٤٣.
(٣) تركة النبي، ص ٤٧.
(٤) تركة النبي، ص ٥٠.
(٥) فتح الباري ١١/ ٢٩٣.
(٦) تركة النبي، ص ٢٤.
(٧) تركة النبي، ص ٢٤.
(٨) فتح الباري ١١/ ٢٩١.

وإيثاراً وكراهة للشبع[1].

وأبيات رسول الله التسع هي حجرات أزواجه أمهات المؤمنين، اتخذت من الجريد وستائر من شعر أسود[2] كانت خارج المسجد النبوي، فأمر الوليد بن عبد الملك بإدخالها في المسجد[3].

قال الإمام مالك: رأيت بعض أهل العلم يقولون: وددنا أنهم حيث كانوا بنوا مسجد المدينة كانوا تركوا أبيات رسول الله ﷺ التسع حتى يراها الناس، قد اتخذت بالجريد والمسوح، فيعتبرون بذلك ويقولون: هذا أكرم الخلق على الله رضي من الدنيا بهذا[4].

وماذا كان داخل هذه الأخبية من الرياش والأثاث؟

لعل في معرفة تجهيزه لأزواجه عائشة وأم سلمة وحفصة ما يعبر عن أثاث بيته ﷺ.

فقد أمهر كلاً من عائشة وأم سلمة بنت أبي أمية صحفة كثيفة وقدحاً كثيفاً وفراش حشوه ليف، ومجسة ـ أي الرحا[5] ـ لطحن الشعير وغيره وأمهر حفصة بساطاً ووسادتين وكساء رحباً يفترشان في القيظ والشتاء نصفه، ويلتحفان بنصفه، وإناءين أخضرين[6].

وما رئي ﷺ يجلس على طنفسة ولا وضع بين يديه خوان طعام[7].

وقد كانت الدنيا مقبلة على الرسول ﷺ وهو مدبراً عنها فمنذ العهد المكي كانت زوجته خديجة رضي الله عنها تملك الأموال والتجارات فأثر حياة التحنث والانقطاع في غار حراء، وكان من أصحابه الذين آمنوا أغنياء مثل أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة، وكانوا يفتدونه بالنفس والمال، فآثر حياة الزهد، وترفع عن أعراض

---

(١) المرجع السابق، ١١/ ٢٩١.
(٢) تركة النبي، ص ١٧٤، ١٠٥.
(٣) ابن سعد ١/ ٤٩٩.
(٤) تركة النبي، ص ١٠٥.
(٥) أزواج النبي لابن زبالة ص ٦٢.
(٦) أزواج النبي لابن زبالة ص ٥٧.
(٧) التركة ص ١٠٦.

الدنيا، ومنذ السنة الثالثة للهجرة صارت له أموال جليلة أوصى بها مخيريق اليهودي الذي قتل في غزوة أحد وهي بساتين الدلال، وبرقة، والأعواف، والصافية، والميثب، وحسنى، ومشربة أم إبراهيم، ويسقى وادي مهزور هذه البساتين السبعة، وقد ذكر الواقدي رواية تفيد أن النبي ﷺ فرق هذه الأموال[١]. وهي من أموال ابن النضير.

وكانت أموال بني النضير خاصة بالرسول ﷺ بعد إجلائهم لأن جلاءهم تم صلحاً بعد حصار دون قتال على أن لهم ما أقلت الإبل إلا السلاح فكان ينفق منها على أهله ويجعل بقية المال عدة في سبيل الله[٢]. كما كانت بئر غاضر والنورس وهما من أموال قريظة بعالية المدينة طعمة لأزواجه[٣].

وفي سنة ٧هـ فما بعدها جاءته غنائم «صفايا» خيبر وفدك، فكان يأخذ الخمس من نصف إنتاج خيبر من التمور، ويطعم كل امرأة من أزواجه من الخمس مائة وسق تمراً، وعشرون وسقاً شعيراً[٤]، وفي رواية أخرى أنه أعطى كل واحدة منهن مائة وسق، ثمانين وسقاً وتمراً وعشرين وسقاً شعيراً[٥].

وكانت منطقة الكتيبة من خيبر خمس الله وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين وطعم أزواج النبي ﷺ ورجال مشوا بين أهل فدك بالصلح[٦]. وصارت في صدقاته بعد وفاته[٧]. ولما أجلى عمر رضي الله عنه يهود خيبر، خير أزواج النبي ﷺ فيما كان أجرى عليهن في أن يعطيهن مثل ما أعطاهن الرسول ﷺ من التمر والشعير.

وأما فدك فكانت للنبي ﷺ خالصة لأنها فتحت صلحاً دون قتال[٨]. وقد

---

(١) ابن شيبة: تاريخ المدينة ١/ ١٧٥.

(٢) البخاري: صحيح ٤/ ٤٦، ٦/ ١٨٤، وأبو داود ٣/ ١٤١، والترمذي ٤/ ٢١٦، ومسند أحمد ١/ ٤٨، وأبو عبيد: الأموال ١٥.

(٣) ابن شيبة: تاريخ المدينة ١/ ١٨٧.

(٤) ابن شيبة: تاريخ المدينة ١/ ١٧٨.

(٥) المصدر السابق ١/ ١٨١، ١٨٦.

(٦) المصدر السابق ١/ ١٧٦.

(٧) المصدر السابق ١/ ١٧٨.

(٨) النسائي: سنن ٧/ ١٢٤، وأبو داود: سنن ٣/ ١٤٣.

قومت أرض فدك ونخلها في زمن عمر رضي الله عنه بمائة ألف درهم، فلما أجلاهم عمر رضي الله عنه دفع لهم خمسين ألف درهم لأنهم كانوا صالحوا على نصف أرضهم ونخلهم[1].

وكان الرسول ﷺ ينفق على أهله من هذه الصوافي التي أفاءها الله تعالى عليه نفقة سنتهم، ثم يأخذ بقيتها فيضعها مع الأموال العامة[2]، وقد أوصى بأن كل ما يترك من مال يكون صدقة لا يرثه أحد فيها، ولكن جعل لأهله حق أخذ ما يكفل لهم معيشتهم فقط، فلما توفاه الله عز وجل تولى الصديق رضي الله عنه الإنفاق على أهله[3]، وأعطى فاطمة نخلاً يقال له الأعواف وهي من صدقات الرسول ﷺ[4].

ولما توفي الصديق رضي الله عنه دفع عمر رضي الله عنه صدقات الرسول بالمدينة إلى العباس وعلي، فقام علي بها، يعمل بها ما كان رسول الله ﷺ يعمل، وأما خيبر فأمسكها عمر، وهما صدقتا النبي كانتا لحقوقه التي تعروه ونوائبه، فجعل أمرهما بعده لولي الأمر[5].

وقد ظلت صدقات النبي ﷺ بعد عمر رضي الله عنه في يد الخلفاء يولون عليها من يقوم بها، ويقسم ثمرها وغلتها في أهل الحاجة من أهل المدينة على قدر ما يرى الوكلاء فيها[6].

وهكذا لم يستأثر رسول الله ﷺ بهذه الأموال بل جعلها «صدقة» مآلها أن تنفق كالأموال العامة في مصالح المسلمين، ومنع أن يرثوها بقوله: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة»[7].

ورغم توفر هذه الأموال للرسول ﷺ فإنه آثر الآخرة على الأولى، وداوم

---

(١) ابن شيبة: ١/ ١٩٥.
(٢) البخاري: صحيح ٤/ ٩٦، ٥/ ١١٣، ومسلم: الصحيح ٣/ ١٧٧٣، ١٣٧٩، وابن شيبة: تاريخ المدينة ١/ ٢٠٣ـ ٢٠٤.
(٣) تركة النبي، ص ٦٧.
(٤) ابن شيبة: ١/ ٢١١.
(٥) ابن شيبة: ١/ ٢٠٧.
(٦) المصدر السابق: ٢/ ٢١٨.
(٧) أخرجه البخاري ومسلم (فتح الباري ٦/ ١٩٧، ٧/ ٤٩٦، ومسلم ٣/ ١٣٨٠).

على حياة الزهد والتقشف وتعويد أهله على هذا النهج وأخذهم به خشية أن يأكلوا طيباتهم في الحياة الدنيا.

فلما سألته فاطمة رضي الله عنها خادماً من السبي الذي أتى به من الخمس علمها أن تسبح الله وتحمده وتكبره فذلك خير لها من خادم[(١)]. وقد أنكر عليها أن تصبغ ملحفتها التي تغطي رأسها بالزعفران وأن تلقي على بابها ستراً موشياً أو في بيتها بساطاً وأبى أن يدخل عليها حتى هتكت الستر وألقت ما عليها ولبست أطمارها فدخل عليها قائلاً: كذلك كوني فداك أبي وأمي[(٢)]. وأنكر عليها أن تحلي الحسن والحسين بسوارين من فضة حتى قطعتهما وتصدقت بهما وهما يبكيان، فأمر ثوبان أن يشري لفاطمة قلادة من عصب[(٣)]، وسوارين من عاج[(٤)]. ولما سألته أزواجه النفقة أمره ربه عز وجل أن يخيرهن بين أن يفارقن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن هذه الحياة وزينتها وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ولهن عند الله الثواب الجزيل فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك خير الدنيا وسعادة الآخرة[(٥)]. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٢٩﴾[(٦)].

وقد سمت المصادر أسماء أفراسه الثمانية وهي: الضرس والسكب والمرتجز ولزاز والطرب واللحيف والورد وسبخة.

وسمت بغلتيه دلدل وفضة ـ وناقته القصواء وحماره يعفور، وسيوفه السبعة ذات الفقار والعضب والقلعي والبتار والحيف ورسوب والمخذم. وأرماحه الثلاثة، الفضول والسعدية، ورايته العقاب.

---

(١) تركة النبي، ٣٣، ٣٤.

(٢) تركة النبي، ص ٣٥.

(٣) جاء في لسان العرب: ذكر بعض أهل اليمن أن العصب سن دابة بحرية تسمى فرس فرعون، يتخذ منها الخرز وغير الخرز ويكون أبيض (لسان العرب، مادة عصب).

(٤) تركة النبي، ص ٣٦، ٣٧.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٩٢.

(٦) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

وكانت هذه عدته للجهاد، فأين هي من عدة كسرى وقيصر حيث الأبهة والفخامة من الجياد المطهمة والهوادج المكسوة بالدمقس والمرصعة بالجواهر.

وكان عنده أعنز سمتهن المصادر وهن: عجوة وزمزم وسقيا وبركة وورسة وأطلال وأطراف، ترعان أم أيمن.

كما كانت له لقائح (نياق منهن مهرة والشقراء والزباء الحناء والسمري والعيرش والسعدية والبغوم واليسيرة وبردة، وقد بلغ عددهم عشرين ناقة، وكان آل محمد وأضيافهم يعيشون على لبنها، يراح عليهم كل ليلة بقربتين عظيمتين من اللبن).

وكان له ثلاثة من الإماء فأعتقهن جميعاً وهن سلمى وخضرة ورضوى، وقد ورث أم أيمن عن أبيه فأعتقها أيضاً.

وكان له من الخدم ثلاثة، أنس بن مالك وهند وأسماء.

وقد أعتق من مواليه زيد بن حارثة وأبا كبشة وأنجشة وصالح (وهو شقران) وثوبان وبسار ورباع وأبا رافع (أسلم) وأبا مويهبة ورافعًا. فهؤلاء عشرة من مواليه أعتقهم جميعاً ولم تشر المصادر إلى إعتاق بقية مواليه وهم مدعم الذي قتل بوادي القرى وكركرة وفضالة. وهذه الأموال التي ذكرناها والكسوة والخيل والبغلة والحربة كلها وقفت بعد وفاته وجعلت صدقة لحديث رسول الله ﷺ: «لا يقتسم ورثتي ديناراً ما تركت بعد نفقة عيالي ومؤونة عاملي فهو صدقة» فما استأثر بها ورثته وإنما جعلت أسوة الأموال العامة[1].

ومن هنا يتبين لنا أن لا تناقض بين ما ذكرته من إقبال الدنيا على المصطفى ﷺ وما خصه الله به من أموال بني النضير وخيبر وفدك وبين زهده في الحياة وتقشفه في المأكل والملبس والفرش والأثاث.

وعندها نفهم حديث عمرو بن الحارث: (ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهماً ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة)[2].

ونفهم أيضاً كيف استوت حياته عند قلة المال وبعد ما أتى الله بالغني وهذه

---

(١) انظر: تركة النبي، ص ٨٤ ـ ١٠٨.

(٢) رواه البخاري.

أم المؤمنين عائشةﷺ تحكي حالها عند وفاته عليه الصلاة والسلام قالت: «توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي فأكلت منه حتى طال علي فكلته منه حتى طال علي فكلته ففني» متفق عليه، وهو دليل على مزيد إعراضه ﷺ عن الدنيا في آخر حياته حتى ترك أحب أزواجه إليه في الحال التي وصفت.

قال الطبري: «استشكل بعض الناس كون النبي ﷺ وأصحابه كانوا يطوون جوعاً مع ما يثبت أنه كان يرفع لأهله قوت سنة، وأنه قسم بين أربعة أنفس ألف بعير مما أفاء الله عليه، وأنه ساق في عمرته مائة بدنة فنحرها وأطعمها المساكين، وأنه أمر الأعرابي بقطيع من الغنم وغير ذلك، مع من كان معه من أصحاب الأموال كأبي بكر، وعمر وعثمان، وطلحة، وغيرهم، وبذلهم أنفسهم وأموالهم بين يديه، وقد أمر بالصدقة فجاء أبو بكر بجميع ماله وعمر بنصفه، وحث على تجهيز جيش العسرة فجهزهم عثمان بألف بعير إلى غير ذلك.

والجواب إن ذلك كان منهم في حالة دون حالة لا لعوز، وضيق بل تارة للإيثار وتارة لكراهة الشبع، وكثرة الأكل.

قال الحافظ ابن حجر: وما نفاه مطلقاً فيه نظر لما تقدم من الأحاديث آنفاً[١].

ـ انتهى ـ والحق ما ذكره الحافظ فإن إصابة النبي ﷺ وأصحابه بالخصاصة وضيق ذات اليد ثابت بالآثار الكثيرة الصحيحة ﷺ، على إمام الزاهدين، وقدوة المتقين.

---

(١) فتح الباري ١١/ ٢٩١.

من جوانب خلق صاحب الدعوة ﷺ

بعد أن أشرنا إلى بعض معالم زهده ﷺ كدلالة على طبيعة الحياة في دعوة الإسلام بحيث لا يخشاها غني ولا صاحب مال أو جاه ولا يخاف منها فقير أو صاحب حاجة نحاول أن نلمح بعض خلقه ﷺ كدلالة أيضاً على طبيعة السلوك في دعوة الإسلام ممثلة في القدوة والأسوة بنبيها رسول الله إلى الناس بها، ومن نافلة القول أن نذكر هنا أن:

الخلق في اللغة ـ بضم الخاء واللام ـ يعني: السجية، أي ما استقر عليه سلوك الإنسان بالإحسان أو العدوان، وبالإنفاق والعطاء، أو بالبخل والشح، تجاه أصحاب الحقوق، وجمع خلق: أخلاق.

معنى هذا: أن هناك أخلاقاً وسجايا كريمة ومحمودة، يجتمع عليها الناس متحابين متعاونين، وأخلاقاً أخرى بغيضة وذميمة، يتفرق بها الناس متنافرين متعاسرين.

أما الأخلاق الكريمة المحمودة: فهي التي يحض عليها الدين الحق، ويدعو إليها الإسلام الخاص إلى الله الواحد، لأنها تعني تحقيق هذا الارتباط الفطري، والتعاون التراحمي، الذي تأمر به شرائع الله، حيث تقوم حياة الفرد باستهداف العمل لحياة الآخرين. وبحيث تعيش الجماعة أو المجتمع، أفراداً متحابين، متعاونين، متطهرين، كأنهم جسم واحد سليم، غايتهم المشتركة هي استثمار ما أنعم الله به عليهم من نعمة الإيمان، والحواس، والعقل، والعلم، في استثمار موارد الأرض المسخرة لهم، بطرق مشروعة، ووسائل علمية، وواجبات يتقاسمها الجميع، من أجل حقوق في منافعها وخيراتها تعود على الجميع.

الأخلاق الكريمة إذن هي التي تقود الأعمال الإنتاجية والاستثمارية في المجتمع بواسطة العلم، وبقيادة العدل، ليشمل النفع والنماء بثمرات العمل جميع أجزاء المجتمع، بحسب عمل العاملين، وحاجة المحتاجين، ومصلحة الأجيال

القادمة من المؤمنين، بحيث لا يقع ظلم أو بغي من فئة في المجتمع على الأخرى، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[١].

وكذلك بحيث لا يعيش البعض من الناس كسالى يستغلون جهد غيرهم، أو يسألون غيرهم أن يعطوهم في غير جهد عملهم، تأدباً وتخلقاً بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾[٢].

من هذا يتضح أن الخلق الكريم من الدين الحق، وأن الدين الحق مشرقاً من حقيقة الإيمان، ومن صحة العمل بالشريعة، يجعل من الأخلاق الكريمة هذه القيادة الواعية لجهد الأفراد في جميع الأعمال الاستثمارية الدنيوية، وهي توثق من وشائج الأفراد بعلاقات اجتماعية سليمة من خلال هذه الأعمال الإنتاجية الأخلاقية، يتم بها الحفاظ على نعمة الحرية للجميع، والحب بين الجميع، والسواسية الاجتماعية القانونية بين الجميع.

بهذا الخلق الكريم الذي هو من الدين الحق لا يتعرض المجتمع المؤمن لهذه المظالم، والمخاطر، والأمراض النفسية والاقتصادية والاجتماعية التي تقع فيها المجتمعات غير المؤمنة، التي تجعل أخلاقها تابعة وخاضعة لهذا الصراع الذي يغرق فيه الجميع من أجل المال طلباً للمتاع، ومن أجل المتاع طلباً للترف، ومن أجل أن يكون هذا الترف حكراً على فئة أو طائفة أو طبقة دون الآخرين.

إنه بذلك الانتكاس في غيبة الإيمان تخضع أعمال الأفراد المتصارعين داخل مجتمع واحد لقيادة هذه الأخلاق الذميمية القائمة على البغضاء والأثرة والشح، والطمع، بما ينتهي إلى إهدار الجهد البشري، وتعدد تطبيقات القوانين، وسوء استخدام العلم، وفي النهاية إلى تحطم نفسية الفرد الفردية، والاجتماعية وإلى شيوع الجريمة، والعنف والابتذال الجسدي، والمرض النفسي، واستشراء أعمال العدوان الداخلي، أو الخارجي، في العلاقات الاجتماعية والدولية، مهما حاول هؤلاء المرضى بغياب الإيمان، وبقيادة الأخلاق التجارية الصراعية أن يستتروا تحت شعارات فارغة من أمثال «التحررية» و «التقدمية» وذلك مصداقاً

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.

لقوله تعالى في مثل هذه التجمعات صغيرة كانت أو كبيرة.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾[1].

هكذا ندرك أن الدين الحق هو خلق كريم، وأن البداية إلى هذا الدين الحق تبدأ دائماً بالخلق الكريم، الذي لا يشك أحد في هذا العالم - إذا تعقل الماضي والحاضر - إنه هو الأساس لسيادة السلام والإخاء والرخاء بين البشر.

ومن أجل هذا كانت رسالة النبي ﷺ، وهي الرسالة الخاتمة لكل الرسالات والمتممة بالشرع والتطبيق لجميع ما سبقها من الرسالات، والباقية ببيان القرآن، وأسوة التطبيق لشرعه وأخلاقه في حياة الرسول وأصحابه إلى ما بعد جميع الرسالات - هي الرسالة التي أتم الله بها - في دعوة نبيه وفي أسوة عمله - مكارم الأخلاق الإسلامية، على صورة الكمال الذي تعيش به الدعوة إلى الله، ويبقى به الدين الحق بالإسلام حياً، ومشرقاً، بالغاً آيته بالحجة، والتجدد والاستمرار إلى آخر الزمان.

وحتى نضرب المثل بهذه الأخلاق الكريمة التي كان الرسول بخلقه العظيم أسوة لها بين أصحابه، ومنارة لها في كل عمله - نذكر بعض ما ورد في القرآن الكريم من هذه المكارم الأخلاقية التي حض المؤمنين عليها، وألزمهم بها، وهو يذكرهم بأن حقيقة الإيمان، وقوة المؤمنين ووحدتهم، وعزتهم، لا تكون بغيرها.

يقول الله تعالى في قمتي الأخلاق الكريمة وهما العدل والإحسان، وما يتبعهما من توابع النهي عن البغي والشح والمنكر:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[2].

ويقول سبحانه في مجموع المكارم الأخلاقية التي يتصف بها المؤمنون الصادقون «عباد الرحمٰن» فلا يوصفون بأنهم الصادقون من عباد الرحمٰن بغيرها، وهي تشمل في سورة الفرقان ما بين الآية ٦٣ إلى آخر السورة، وتبدأ بمقدمة هذه الآيات والصفات بقوله تعالى:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٠.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾[1].

ثم يقول سبحانه في خشية هؤلاء المؤمنين الصادقين من عذاب الله يوم القيامة بوصف هذا العذاب ـ فوق الجسدي منه ـ حكماً عليهم بمهانة التقصير عن حق الله المنعم عليهم، بما هو أشد ملازمة وألماً لأنفسهم من عذاب الجسد.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾[2].

ثم تمضي الآيات في سرد هذه القائمة الكاملة من شعارات وأثواب ودروع هذه الفضائل والضوابط والمكارم الأخلاقية كما يتحصن بها، ويجاهد بها، ويحسن بها عباد الرحمٰن المنذرون بإرادة الإيمان لطاعة الله، والمتطهرون في حبه من النقائض، والمتسابقون في التقرب إليه ببذل المال والنفس والجهد في حب الآخرين، ومواساتهم ومساواتهم في خيرات ما يملكون بأنفسهم، وذلك حيث يقول تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾[3].

ثم تمضي الآيات في تفصيل واستيفاء المنهج الثاقب الضوء الوثيق العري السابغ الفضل، في كمال المكارم الأخلاقية بدعوة الدين والإسلام حيث يقول تعالى أيضاً في صفة هؤلاء المؤمنين الصادقين من عباد الرحمٰن:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾[4].

---

(١) سورة الفرقان، الآيتان: ٦٣، ٦٤.

(٢) سورة الفرقان، الآيتان: ٦٥، ٦٦.

(٣) سورة الفرقان، الآيات: ٦٧ـ ٧١.

(٤) سورة الفرقان، الآيات: ٧٢ـ ٧٤.

كذلك فمما اشتملت عليه آيات الكتاب الحكيم من أخلاق الدين، ومكارم سجاياه وفضائله هذه الدعوة إلى «الحلم» الذي هو حكمة العقلاء والمؤمنين، وذلك أنه مع الحلم، وضبط النفس عن سرعة المجازاة على السيئة بمثلها، تتفتح الطرق التي يتراجع فيها الغاضبون إلى إيثار الصفح، وتجديد المودة، وإصلاح ما لا يصلح إلا بالتعقل في ضوء الحب، ومودة الإيمان، والقربى في طاعة الرحمٰن.

من ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[١].

كذلك تتردد الدعوة في القرآن الكريم إلى الصفة الملازمة للإيمان بالله، والمشرقة على رؤوس جميع الأخلاق الكريمة في حياة المؤمن، وهي بر الوالدين، وبخاصة الأم، وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾[٢].

وهنا نأتي إلى بيان المعنى الشامل في دلالة قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٣]. وهو المعنى الذي يتجلى في هذا الإشراق الطبيعي لمكارم الأخلاق من معنى ولفظ «الدين الحق» و «الإسلام»... كما يتجلى في إدراكنا أنه مع تمام الدين الحق في رسالة النبي الخاتمة إلى الإسلام الخالص، كان تمام هذه المكارم الأخلاقية فيما كان من النص عليها وحياً وتشريعاً في القرآن الكريم، وما كان من الإحياء لها عملاً وسلوكاً في حياة الرسول الأمين، صاحب الخلق العظيم، أسوة مشرقة للمؤمنين جميعاً في عصره

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ٣٣ـ ٣٥.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(٣) رواه البخاري وقال حديث حسن.

المنير، وفي كل العصور من بعده.. عليه الصلاة والسلام.

كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول في حديثها عن صفة أخلاق الرسول الكريم: «كان خلقه القرآن».

وفي القرآن الكريم يرد النص على مكارم أخلاقه ﷺ، وبلوغه الغاية من هذه المكارم في كماله البشري، في هذا البيان الجامع، الشديد، الإشراق والإيجاز:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[1].

ولقد ورد في القرآن الكريم الكثير من سمات أخلاقه الكريمة التي تم بها - في تمام الرسالات الدينية - هذا البيان العملي في حياته ﷺ لمكارم الأخلاق التي سار عليها كما أمره الله بها ديناً، واصطفاه بها فطرة سواء بين من صدقوا الله الإيمان به وبرسوله، أو في مواجهة من غلب عليهم اللهو والكبر طويلاً في مقاومته وتكذيبه، ومن ذلك ما جاء به أمره تعالى له في شأن بعض المكذبين ممن سمع له وأطاعه.

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾[2].

ومن ذلك قوله تعالى له عن خلقه بين المؤمنين:

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥﴾[3].

وقوله أيضاً في أخلاقه التي جمعت أصحابه من حوله على أخلاقه في طاعة الله والجهاد في سبيله:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[4].

وأخيراً نقول: إنه لما كان هذا الدين الحق بالإسلام الخالص إلى الله في رسالة النبي محمد ﷺ هو التمام والغاية لكل الرسالات السابقة، فإن مكارم

---

(١) سورة القلم، الآية: ١٠.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٩.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.
(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

الأخلاق التي ظهرت بها هذه الرسالة الخاتمة أصبحت دعوة موجهة ومستمرة في القرآن الكريم، وفي أسوة النبي ﷺ كما عاشت حية بهذه الأخلاق في مجتمع المؤمنين، الأول بالمدينة، ليس فقط بالنسبة للمسلمين المؤمنين جيلاً بعد جيل، بل كذلك إلى أهل الكتاب، من المواطنين العرب الذين يسمعون القرآن، ويعرفون لسانه، ويفهمون عنه، أنها دعوة موجهة إليهم ليتم لهم تقويم العقيدة الصحيحة بمكارم الأخلاق التي يدعو إليها الدين الحق وذلك كما نص عليها القرآن الكريم في قوله تعالى عن هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[١].

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

اختيار النبي محمد ﷺ للدعوة الخاتمة

دراسة مقومات المكان والرجال والزمان والأدوات في تاريخ الحركات والمذاهب والعقائد الكبرى تشير إلى أن لهذه المقومات مجتمعة أو منفردة من التأثير بالإيجاب أو السلب في هذه العقائد ما يعد العامل الأساسي في نجاحها أو فشلها وكذلك الأمر في ذيوعها أو اندثارها، هذا هو ما تنبىء به دراسة عقائد وضعية كانت قبل الإسلام كالبوذية والهندوسية والزرادشتية والجينية وغيرها.

لكن الأمر هنا في اختيار الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ليقوم على الرسالة الخالدة والدعوة الخاتمة، فهو جد مختلف قد تكون عوامل الزمان والمكان والرجال واللغة المبينة عامل جذب ويسر في تدريب عقول المؤمنين بهذا الدين من غير العرب على سهولة إدراك أحكامه والتعرف على شرعه، لكن هذه العوامل حتى وإن وضعت في الاعتبار ليست فاعلة ولا رئيسة في نشأة الدعوة ودفع مسارها الأساسي وقيام أحكامها ونسكها فضلاً عن إعداد ونشأة صاحبها ﷺ، ونظرة متأنية حول هدي الكتاب والسنة في هذا الموضوع نرى أن اختيار الرسول ﷺ لكي يكون هو النبي الخاتم ودعوته الناس إلى الله هي الرسالة الخالدة، تكشف عن ذلك كله ثم وفق سنن ونواميس لله تعالى جعلها الأداة والعلامة المميزة في اختياره سبحانه وتعالى لرسله وأنبيائه ومن هنا فمن نافلة القول أن نذكر بأنه في ضوء سنن الله تعالى أنه سبحانه يختار رسله من الملائكة إلى الأنبياء، ويختار رسله من البشر إلى الناس، وفق علمه وإرادته وقدرته[1]، وفي ذلك يذكر الطبري: أن الله يختار من الملائكة رسلاً كجبريل وميكائيل اللذين كان يرسلهما إلى أنبيائه، ومن شاء من عباده، ومن الناس كأنبيائه الذين أرسلهم إلى عباده من بني آدم.

---

(١) الطبري، جامع البيان في تفسير آي القرآن، جـ ١٧، ص ١٤٢، ط الأميرية ببولاق.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧﴾[1]، أي: هؤلاء الذين ذكرنا لمن الذين اصطفيناهم لذكرى الآخرة. الأخيار الذين اخترناهم لطاعتنا، ورسالتنا إلى خلقنا[2].

وكتب السنة تروي ما يشير إلى تشريف الله تعالى باصطفاء محمد ﷺ، وكونه أول الأنبياء خلقاً[3].

فقد روى ابن إسحاق[4] عن قتادة[5]. مرسلاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث»[6]، وقد يكون المراد بالخلق ما

---

(١) سورة ص، الآية: ٤٧.

(٢) مرجع سابق جـ ٣٣/١١١.

(٣) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، جـ ١، ص ٨٩، تحقيق د. مصطفى عبد الواحد، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، سنة ١٣٩٢هـ.

(٤) هو: محمد بن إسحاق بن يسار، كنيته: أبو عبد الله، وقيل: أبو بكر، المخزومي، من أهل المدينة، ثبت في الحديث عند أكثر العلماء ولا تجهل إمامته في المغازي والسير، وقد روى له أصحاب السنن، وأخرج له مسلم في المتابعات حديثاً واحداً فقط، وأخرج له البخاري تعليقاً من مؤلفاته: «السيرة النبوية» هذبها ابن هشام، وكتاب الخلفاء، وكتاب المبتدأ، وسكن بغداد وتوفي بها سنة ١٥١هـ ـ ٧٦٨م، ودفن بمقبرة الخيزران أم الرشيد الذهبي، ميزان الاعتدال، جـ ٣، ص ٤٦٨، ط: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
عبد الرحمٰن السهيلي الخثعمي، الروض الأنف، جـ ١، ص ٢٠، ط: دار المعرفة، بيروت، تحقيق: عبد الرحمٰن الوكيل.

(٥) هو: أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن عزيز السدوس البصري، ولد سنة ٦١هـ ـ ٦٨٠م، كان مفسراً وحافظاً، كان مع علمه بالحديث يرى القدر، وقد يدلس في الحديث، توفي بواسط، بمرض الطاعون، سنة ١١٨هـ ـ ٧٣٦م.
ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ٢٤٨، رقم الترجمة ٥١٤.
الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٥، ص ٢٦٩، رقم الترجمة ١٣٢، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٤٠١هـ.

(٦) رواه قتادة، وهو تابعي ثقة، ولكن اختلف الرواة عنه:
فمنهم من رواه موقوفاً عليه.
ومنهم من رواه موصولاً بذكر الحسن عن أبي هريرة.
ومنهم من رواه عن قتادة مرسلاً، وهو أصح. =

يتعلق به من حيث كونه تعالى خالق ومتكلم من غير خلق ولا تكلم أي أن أولوية الخلق هنا تنصرف إلى التقدير دون الإيجاد، فإنه قبل أن تلده أمه لم يكن موجوداً، ولكن الغايات والكمالات سابقة في التقدير، لاحقة في الوجود.

وجاء عن العرباض ابن سارية رضي الله عنه[1] عن النبي ﷺ قال: «إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل[2] في طينته»[3].

ويقول الطيبي[4]: والمعنى: كنت خاتم الأنبياء في الحال الذي آدم مطروح على الأرض، حاصل في أثناء تخلقه، لما يفرغ من تصويره وإجراء الروح.

ويقول الحافظ أبو الفرج بن رجب[5] رحمه الله تعالى: المقصود من هذا

= الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة، جـ ١، ص ١١٥، رقم الحديث ٦٦١، ط المكتب الإسلامي، بيروت.

ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ٣١٩، ط: البابي الحلبي، القاهرة.

(١) هو: أبو نجيح العرباض بكسر العين وسكون الراء ـ ابن سارية السلمي، صحابي، كان من أهل الصفة، سكن حمص، وروى أحاديث، توفي سنة ٧٥هـ ـ ٦٤٩م، وقيل: توفي في فتنة الزبير، الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٣، ص٤١٩.

(٢) الجندل: الحجارة. الجندل: الموضع فيه الحجارة.

ابن منظور: لسان العرب، جـ ١، ص ٥١٣، إعداد وتصنيف يوسف خياط، ط: لسان العرب، بيروت، مادة (جندل).

(٣) رواه الإمام أحمد، في سنده، جـ ٤، ص ١٢٧ـ ١٢٨، جـ ٥، ص ٢٧٩، ط دار صادر بيروت.

(٤) هو: الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين الطيبي، من علماء الحديث والتفسير، والبيان من أهل تورنز، من عراق العجم. كان شديد الرد على المبتدعة، متواضعاً، ضعيف البصر، له مؤلفات، منها: «التبيان في المعاني والبيان» و «الخلاصة في معرفة الحديث». توفي سنة ٧٤٣هـ.

الشوكاني، البدر الطالع، جـ ١، ص ٢٢٩، ط الأولى، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٣٤٨هـ.

(٥) هو: أبو الفرج عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي، ثم الدمشقي الحنبلي، ولد في بغداد، سنة ٧٣٦هـ ـ ١٣٣٥م. وقدم إلى دمشق مع والده سنة ٧٤٤هـ ـ ١٣٤٣م، ونشأ بها، محدث حافظ فقيه. ابن حجر ـ الدرر الكامنة جـ ٢/ ٣٢١ـ ٣٢٢ رقم الترجمة ٢٢٧٦.

الحديث: أن نبوة النبي ﷺ كانت مذكورة معروفة من قبل أن خلقه الله تعالى، ويخرجه إلى دار الدنيا حياً، وأن ذلك كان مكتوباً في أم الكتاب من قبل نفخ الروح في آدم - صلى الله عليهما وسلم[١]. وفسر أم الكتاب: باللوح المحفوظ في قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾[٢] ولا ريب أن الله تعالى عالم لم يزل عالماً بما يحدثه من خلقه، ثم إن الله تعالى كتب ذلك في كتاب عنه، قبل أن يخلق السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢﴾[٣].

ويروي الإمام أحمد[٤] عن ميسرة رضي الله عنه[٥] قال: قلت يا رسول الله: متى كنت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»[٦].

ويقول الإمام أحمد في رواية منها: وبعضهم يرويه: متى كتبت من الكتابة؟ قال: كتبت نبياً، وآدم بين الروح والجسد، فتحمل هذه الرواية مع حديث العرباض السابق على وجوب نبوته ﷺ، وثبوتها، وظهورها في الخارج، فإن الكتابة إنما تستعمل فيما هو واجب، إما تشريعاً كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ

---

(١) ابن رجب، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ص ٧٩، ط: مكتبة الرياض الحديثة.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٢.

(٤) هو: أبو عبد الله شيخ الإسلام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزي، ولد في بغداد، سنة ١٦٤هـ - ٧٨٠م، وقيل: في مرو، كان إماماً في الفقه والحديث والزهد والورع والعبادة، وهو أحد المجتهدين المعمول بقوله ورأيه ومذهبه، له مؤلفات منها: المسند، والسائل، والعلل، وغيرها، توفي في بغداد سنة ٢٢٤هـ - ٨٥٥م.
ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١ : ١٠، ص ٣٢٥.
ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٤٧، رقم الترجمة ١٩.

(٥) هو ميسرة الفجر، قال ابن الفرضي: اسم ميسرة الفجر: عبد الله بن أبي الجدعاء، وميسرة لقب له، صحابي ويعد من أعراب البصرة.

(٦) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التاريخ، باب ذكر مراكبه ﷺ، جـ ٢، ص ٦٠٨-٦٠٩ وقال حديث صحيح. الألباني - سلسلة الأحاديث الضعيفة، جـ ٣١٦/١ رقم الحديث ٣٠٢- ٣٠٣ مرجع سابق.

ٱلصِّيَامُ﴾[1]. أو قدراً، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[2].

وعن أبي هريرةﷺ قال: قالوا يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»[3].

وسئل أبو جعفر محمد بن علي[4]، كيف صار محمد ﷺ يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث؟ قال: إن الله لما أخذ من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟[5] كان محمد ﷺ أول من قال: بلى، ولذلك صار يتقدم الأنبياء، وهو آخر من بعث[6].

ومنذ استودع الخليل إبراهيم قلب الصحراء ولده إسماعيلعليه السلام فإن عناية الله لهما بتحمل التبعة والمسؤولية، بعيداً من الدعة والرخاوة والنعومة للرجال الأكفاء، الذين سيحملون أمانة الرسالة الخاتمة على يد النبي محمد ﷺ، وتترجم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

(٣) رواه الترمذي، في صحيحه، كتاب المناقب، باب فضل النبي ﷺ، جـ ٥، ص ٥٨٥، رقم الحديث ٣٦٠٩ وقال: حسن صحيح وغريب من حديث أبي هريرة، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.
وروه الحاكم، في المستدرك كتاب التاريخ، باباً ذكر مراكبه، جـ ٢، ص ٦٠٩، وقال: حديث صحيح ووافقه الذهبي.

(٤) هو: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الملقب بالباقر، خامس الأئمة الاثني عشر في اعتقاد الإمامية، وهو والد الإمام جعفر الصادق، تابعي ثقة، كثير الحديث، فقيه فاضل، وعالم نبيل، وسيد جليل، وسمي الباقر، لأنه تبقّر في العلم، أي: توسع. له في العلم وتفسير القرآن آراء، وأقوال ولد بالمدينة، سنة ٥٧هـ ـ ٦٧٦م، وقيل: سنة ٥٦هـ، وكان عمره يوم مقتل جده الحسين ثلاث سنوات.
ابن حجر: تهذيب التهذيب، جـ ٩، ص ٣٥٠ـ ٣٥٢.
ابن العماد: شذرات الذهب، جـ ١، ص ١٤٩.

(٥) قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٦) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، جـ ١، ص ١٠١، ولا يوجد في «الدر المنثور» للسيوطي، جـ ٣، ص ٦٠٥، في تفسير هذه الآية عن أبي جعفر، ولا عن غيره نحو هذا الكلام.

فطرة إبراهيم عليه السلام هذه المعاني، في سورة الدعاء الذي يسأل به ربه ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧﴾[1]، وما يكاد يشتد ساعد إسماعيل عليه السلام، بعد فترة وجيزة، حتى يقف إلى جوار أبيه، يؤكدان معاً هذا الأمل الجاد في خاتم الأنبياء، وفي أمة الإسلام، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٢٩﴾[2].

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝١٢٨﴾[3].

فالعناية الإلٰهية قد هيأت سلسلة طيبة من الآباء الأخيار، والأجداد للنبي ﷺ، ليأخذ منها عن طريق الوراثة كثيراً من الخلق والطباع، ذلك لأن الوراثة كما يقول المعاصرون عامل معهم في تكوين الشخصية، ونبينا محمد رسول الله ﷺ باصطفاء الله تعالى له نبياً ورسولاً وخاتماً، وبتأثير دعوته العالمية: توحيد الله بالحق والعدل من بين كل العقائد والمذاهب الوضعية والسماوية التي حرفها أصحابها قبل الإسلام أعلى وأكرم من أن يقاس بمقاييس علماء النظريات الوراثية أو غيرها وإن كان اصطفاء الجنس والنوع والرسل والأنبياء لا يتعارض مع روح الإسلام وهديه.

ومن ثم فإننا لو احتكمنا إلى الخصائص الوراثية التي تقوم على عنصر التأثير وحمل الخصائص والصفات فرسول الله ﷺ في الذروة والمجد أمام كل قيادات العالم القديم والحديث على السواء.

ومن سفه بعض ضعفاء العلم وقليلي الإدراك نفر من المستشرقين الحاقدين على الإسلام والمسلمين من طعن في نسب النبي ﷺ حديثاً ومن هؤلاء القس

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٢٧ـ ١٢٩.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

لامانس[١]. الذي كان يمارس افتراء ضد نسب النبي ﷺ، لا يعتمد على توثيق من مصدر أمين، ولم يكن يمثل إلا الكذب على الحقيقة والعدوان على أطهر الخلق نسباً وأعظمهم خلقاً، وأقومهم ديناً، لكن اللافت للنظر هو عناية الله سبحانه وتعالى في تهيئة وإعداد كل المقومات التي تميز نبيه محمد ﷺ على غيره من الخلق وتؤهله للرسالة، إذ في هذا الجانب بالذات فإن نسبه ﷺ يرتكز إلى أصول متميزة وفاضلة بين الناس، وقد أتته هذه الأصول العائلية من قبل والديه، فأبوه: عبد الله، وجده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، فهما يلتقيان معاً في الجد الخامس كلاب بن مرة[٢].

وعبد المطلب هو جد النبي ﷺ، وابن هاشم زوجته سلمى بن عمرو[٣].

---

(١) هو: هنري لامانس، مستشرق بلجيكي المولد، ولد سنة: ١٢٧٨هـ ـ ١٨٦٢م، فرنسي الجنسية، له دراسات كثيرة في التاريخ الإسلامي، والأدب العربي، وخصوصاً في صدر الإسلام مملوءة بالتهجم على الإسلام، والنبي محمد ﷺ.
من مؤلفاته: الأخطل مغنى الأمويين، ودراسات عن حكم الخليفة الأموي معاوية الأول، وخلافة يزيد الأول، ومدينة الطائف العربية عشية الهجرة، والإسلام عقائد ونظم، مات في بيروت، سنة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م.
الزركلي: الأعلام، جـ ٨، ص ٩٩ـ ١٠٠.
محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، جـ ٢، ص ١٥٤٣.

(٢) هي: آمنة بنت وهب بن عبد مناف، من قريش، أم النبي ﷺ، كانت أفضل امرأة في قريش نسباً ومكانة، تزوجها عبد الله بن عبد المطلب، فحملت منه بمحمد ﷺ، ورحل عبد الله في تجارة إلى غزة، لما كان في المدينة عائداً مرض فمات بها، وولدت آمنة بعد وفاته، وكانت تخرج في كل عام من مكة إلى المدينة، فتزور قبره، وأخوال أبيه (بني عدي بن النجار) وتعود، فمرضت في أحد رحلاتها هذه، فتوفيت بموضع يقال له: «الإيواء» بين مكة والمدينة، ولابنها ست سنين، وقيل: أربع.
ابن قتيبة، المعارف، ص ١٢٩، ط: دار المعارف بمصر.
ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ١، ص ١٠٠، ط مكتبة الكليات الأزهرية.

(٣) هي: سلمى بن عمرو بن زيد بن لبيت بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، وأمها: عميرة بنت صخر المازنية، وابنها: عمرو بن أحيجة بن الجلاح، وأخوه: معبد، ولدتهما لأحيجة. =

وقد شرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه؛ إذ أحبه قومه، وعظم خطره فيهم. وهو الذي حفر بئر زمزم، بعد أن هدي إليها، وهو الذي قدّم أحد أبنائه العشرة، للذبح عند الكعبة، وفاء لنذره بأن يقوم بذبح أحد أولاده إن رزق عشرة ذكور، فلمَّا رزقهم أقرع على الذبيح، جاء على عبد الله، وكاد يذبحه، لولا نصح القرشيين له، وتضحياتهم، لكنه استبدل بالذبح الفداء بناء على نصيحة عرَّافة خيبر(١).

والذبيح الذي أفدى هو: عبد الله - أصغر أبناء عبد المطلب، والد النبي ﷺ وقد اشتهر بالعفة والطهر، ومما روي في هذا الباب: أنه مرَّ ذات يوم بعد فدائه على بنت مر الخثعمية(٢)، فقالت له: هل لك أن تغشاني، وتأخذ مائة من الإبل؟ فردَّ عليها بقوله:

أما الحرام فالممات دونه ... والحل لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه ... يحمي الكريم عرضه ودينه(٣)

قال ذلك ولم يلتفت إليها، ثم تزوج من آمنة؛ نزولاً على مشورة والده، ثم ترك آمنة بعد العرس بقليل للتجارة، لكنه مات وهو عائد من هذه الرحلة.

ومن الجدير ذكره أن نسب النبي ﷺ من جهة أمه عاليًا هو الآخر؛ إذ يصف ابن هشام آمنة بقوله: «إن آباءها فضلاء قريش، وسادة بني زهرة»(٤).

فالنبي محمد ﷺ نخبة بني هاشم، وسلالة قريش وأشرف العرب، وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمه، ومن أهل مكة أكرم بلاد الله تعالى وعلى عباده.

وأعداؤه ﷺ كانوا يشهدون له بذلك، ولهذا شهد له به عدوه إذ ذاك: أبو

= ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ١، ص ٩٨.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٢، ص ١٠- ١١.

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص ١١٧، وخيبر: واحة بالحجاز، بالمملكة العربية السعودية، على بعد ٩٥كم، شمال المدينة.

(٢) هي فاطمة بنت مرّ الخثعمية، شاعرة، كاهنة، يهودية، جاهلية، قرأت الكتب، واشتهرت بين الناس وكانت معاصرة لعبد الله بن عبد المطلب والد الرسول ﷺ.

(٣) عباس محمود العقاد، مطلع النور، أو طوالع البعثة المحمدية، ص ١٣٨، طبع ونشر المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ١، ص ١٢١.

سفيان بن حرب[1]، بين يدي ملك الروم، قال ملك الروم لترجمانه: كيف حسبه فيكم؟ يقول أبو سفيان قلت: هو فينا ذو حسب[2]، فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيلته، وأشرف الأفخاذ فخذه ﷺ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[3] وما قاله الله تعالى حجة لأهل الحق، على أن الرسالة فضل من الله تعالى يختص به من يشاء من خلقه، لا ينالها أحد بكسب، ولا يتوسل إليها بسبب، ولا نسب، ثم إنه تعالى لا يختص بهذه الرحمة العظيمة إلا من كان أهلاً لها، بما أهّله هو من سلامة الفطرة، وعلو الهمة، وطهارة القلب، وحب الخير والحق، وكان أذكياء العرب في الجاهلية على شركهم بالله تعالى يعلمون: أن الصادقين محبي الحق، وفاعلي الخير من الفضلاء، أهل لكرامته تعالى، وعنايته[4].

لقد كان بيت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد النبي ﷺ لأبيه، وبيت وهب بن عبد مناف، جد النبي ﷺ لأمه من أعلى البيوت في قريش، إذ كان عبد المطلب بن هاشم سيد بني هاشم، وكان وهب بن عبد مناف سيد بني زهرة، وكان كلا البيتين موسوماً بالشرف والكرامة والطهر والعفاف، ورعاية الدين، والفضيلة، فكان زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب زواجاً موفقاً ميموناً، اتحد فيه عنصر طيب بعنصر طيب، وانضم به أصل كريم إلى أصل

---

(١) هو: أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، من سادات قريش في الجاهلية، صاحبي جليل، ولد سنة ٥٧ ق.هـ ـ ٥٦٧م. وهو والد معاوية أول خلفاء الدولة الأموية، أسلم يوم الفتح، سنة ٨هـ ـ ٦٢٩م، وأبلى بعد إسلامه البلاء الحسن، توفي سنة ٣٠هـ ـ ٦٥٢م وعمره ٨٨ سنة.
ابن الأثير: أسد الغابة، جـ ٢، ص ٣٩٢، رقم الترجمة ٢٤٨٤.
الذهبي: الإصابة، جـ ١، ص ١٧٨، رقم الترجمة ٤٠٤٦.

(٢) رواه البخاري في مواضع من صحيحه مع فتح الباري، في كتب بدء الوحي، والجهاد، والأحكام، والإيمان، والشهادات وغيرها، جـ ١، ص ٣١ـ ٤٥.

(٣) سورة الأنعام، جزء من آية ١٢٤، وتمامها: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

(٤) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، جـ ٢، ص ٣٥، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٣م.

كريم، وأصهر بيت عريق في شرف الآباء، وطهر الأمهات، إلى بيت يكافئه بالشرف والطهارة، فكان من البداهة أن تكون ثمرة هذه المصاهرة ثمرة طيبة مباركة، وأن يكون نسل هذا الزواج نسلاً طاهراً كريماً.

وبرؤية تحليلية علمية يعلق عباس محمود العقاد على طهر هذه الأصول فيقول: كان بنو هاشم أصحاب عقيدة أي أن أسرة النبي ﷺ أسرة عزيزة الآباء والأجداد، فخرها بالنسب الأعظم من كل فخر، وسيادتها بالخلائق الموروثة، أثبت من كل سيادة، ثم ينشأ لها من بنيها نبي ينعى على الآباء والأجداد، ما كانوا عليه من ضلالة.

لقد نشأ محمد ﷺ في الأسرة، التي تعطيه خير ما تعطي الأسرة بنيها، ولكنه جاء بالنبوة التي لا يعطيها غير الله، فكانت الأسرة تمهيداً له فيما ورث منها[(١)].

ويروى: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[(٢)].

ويقول العباس[(٣)]: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر، فقال: «من أنا؟ قالوا: أنت رسول الله، قال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب إن

---

(١) العقاد، الإسلاميات، المجلد السابع، ص ٣٢٣ـ ٣٥٤، ط المكتبة العصرية ـ صيدا بيروت، سنة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، ج ٤، ص ١٧٨٢ـ ٢٢٧٦، ورواه أحمد في مسنده، ج ٤، ص ١٠٧.

(٣) هو: العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو الفضل، ولد سنة ٥١ ق.هـ ـ ٥٧٣م، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام. وجد العباسيين، قال الرسول ﷺ في وصفه: أجود قريش كفًا، وأوصلها، هذا بقية آبائي!، وهو عمه، وكان محسناً لقومه، أسلم قبل الهجرة، وكتم إسلامه، وأقام بمكة يكتب إلى رسول الله ﷺ أخبار المشركين، ثم هاجر إلى المدينة، وشهد وقعة «حنين»، وشهد فتح مكة، في آخر حياته، توفي بالمدينة سنة ٣٢هـ ـ ٦٥٣م.
ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٣، ص ٦٠ـ ٦٣، رقم الترجمة ٢٧٩٧.
ابن حجر، الإصابة، ج ٢، ص ٢٧١، رقم الترجمة ٤٥٠٧.

الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً، فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً»[1].

والذي عليه أهل السنة والجماعة: أن قريشاً أفضل العرب، وأن بني هاشم: أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بنو هاشم فهو أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً[2].

وهناك إجماع على: أن نسب الرسول ﷺ ينتهي إلى إسماعيل بن إبراهيم أبي العرب، نسب شريف، وآباء طاهرون، وأمهات طاهرات وأنه ﷺ لم يزل ينتقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء، حتى اختاره الله نبياً ورسولاً من أوسط العرب نسباً؛ فهو من صميم قريش، التي لها القدم الأولى في الشرف، وعلو المكانة بين العرب، ولا تجد في سلسلة آبائه، إلا سادة وقادة، وكذلك أمهات آبائه، من أرفع قبائلهن شأناً، ولا شك أن شرف النسب، وطهارة المولد من الدلالات التي تشير إلى إمكان وقوع النبوة بفضل الله أولاً وأخيراً على من اجتمعت فيه مثل تلك الخلال الحميدة[3].

---

(١) رواه الترمذي في صحيحه، كتاب المناقب، باب فضل النبي ﷺ، جـ ٥، ص ٥٨٤، رقم الحديث ٣٦٠٧ـ ٣٦٠٨. وقال حديث حسن.
ورواه أحمد في مسنده، جـ ١، ص ٢١٠.
ورواه السمعاني، في الأنساب، جـ ١، ص ١٤ـ ١٥.

(٢) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، المجلد الأول صفحة ٣٧٠، تحقيق الدكتور ناصر العقل، طبعة أولى عام ١٤٠٤هـ.

(٣) محمد الخضري، نور اليقين، ص ١٢، ط: دار القلم، بيروت، تحقيق: عبد العزيز سيراوان.

العلاقة بين العرب وظهور الإسلام

لا ترجع العلاقة بين العرب وظهور الإسلام واختيار الأمة العربية لكي تكون أمة التبليغ لهذه الدعوة الإسلامية العربية المنطلق والعالمية الغاية والهدف إلى نزعة عنصرية أو مزاعم عرقية تقوم على دعوى الجنس وتميزه الطبقي وميراثه في الأسطورة والخرافة كما هو شأن دعوات ومذاهب وضعية سبقت عصر الإسلام وبعضها جاء بعده[1].

إنما كانت العلاقة بين العرب والإسلام وفي ضوء المقومات التي خص العرب بها ومن بينها أمة قادرة على التعبير عما تؤتمن به، وهي أمة مبينة لم يستذلها قهر سياسي أو كهنوني ولم تستغلها أنظمة كسروية أو قيصرية ولسانها الموروث أداتها العظيمة التي تتربى الأجيال العربية على التوازن الاجتماعي والأخلاقي وفق وظائف ودلالات مفرداته اللغوية[2].

ومن نافلة القول هنا أن نؤكد المرة بعد الأخرى على أن ظهور الإسلام في الأمة العربية لا يرتكز إلى أصول عرقية، وإنما العلاقة تتجلى بأوضح ما تكون حين تضيء لنا آيات الكتاب الكريم وسنة المصطفى ﷺ أن الاجتباء والاصطفاء الذي اختص الله به العرب قبل الإسلام ليكونوا أداة تبليغ للإسلام إلى شعوب الدنيا كلها يتمثل في كونها (أمة مختارة) تعيش في منطقة من اليابسة تجمع أطراف العالم القديم والحديث وهي أيضاً في علم الله تعالى وفي ضوء ما أخبر سبحانه مختارة. أي أنه لا بد أن تكون هذه الأمة في مستوى أن يرتبط العالم كله بقدرها وبلسانها ومنهجها في الحياة وفق سنن الله تعالى ونواميسه التي جاءت بها دعوة

---

(١) انظر: سليمان مظهر «في الديانات» القاهرة، بدون تاريخ، الطبعة الأولى، ص ٥٢٧.

(٢) أحمد موسى سالم، «لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب» طبعة أولى عام ١٩٦٨م، دار الجيل، بيروت، ص ٣١٠.

الإسلام. وهنا قد يطرح سائل سؤالاً أي أمة يمكن أن تملك هذه المقومات، والجواب الذي تقوم الشواهد على صحته واستقامته، إنها الأمة العربية حتى قبل أن يشرفها الله تعالى بظهور الإسلام.

ونستطيع أن نقول إنها الأمة العربية التي يمكن للدارس من أن يقول عنها إنها معلمة البشر الأولى[1]، وأنها بدء حياة الإنسان، هذه الأمة التي يقرر التاريخ الصحيح ابتداء البشر بها هي: الأمة العربية بغير لغو أو هراء ضاربين صفحاً عن القول الجاهلي[2]، بقدم تاريخ شعوب حول الجزيرة أو بعيداً عنها، إنما الحقيقة التي تقوم عليها شواهد القرآن والعمران وتاريخ الإنسان أن ما كان حول الجزيرة من حضارة إنما هو من آثار هجرات عربية قديمة فاض بها قلب الوطن الأم على أطراف ما حوله من آثار الهجرات العربية القديمة[3]. التي فاض بها قلب الجزيرة على أطراف الوطن العربي[4].

وهذه الأمة يقوم الدليل على أن الله عز وجل خاطبها بالحق، وجعل لسان الحق لسانها، ودعوة الخير في الناس دعوتها، وكتاب العدل في البشر الكتاب الذي نزل على قلب واحد من أبنائها، ولقد قام الدليل الناصع الخالد على أنها هي الأمة العربية، أمة القرآن، وأمة الإسلام، وأمة البيان[5]. وأداة تبليغ دعوة الإسلام إلى نبي الإنسان.

وهي الأمة التي يثبت بالدليل: أن لها من عناصر البيئة التي عاشت فيها ما يحفظ عليها كمال الفطرة الإنسانية التي نشأت عليها في قوام الفطرة وتقويم النفس، ذلك أن النفس والبدن في اتحادهما على كمال الفطرة يعبران عن سلامة العقل الإنساني واستوائه[6].

---

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص ٩٩.

(٢) أي: أنهم كانوا أكثر الناس حفاظاً على الأنساب، حتى لا تختلط.
أحمد موسى سالم، «لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب» المقدمة، ط: دارالجيل، بيروت.

(٣) أحمد موسى سالم، «لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب»، ص ١٤٧ـ ١٤٨.

(٤) داود عبد الغفور سنقراط، العروبة والإسلام، الأردن، سنة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، دار عمان للنشر والتوزيع.

(٥) أحمد موسى سالم، «لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب»، ص ١٤٨.

(٦) مرجع سابق، ص ١٤٨.

وقد أشار القرآن الكريم إلى خصائص للعرب، أهلتهم لحمل الدعوة الخاتمة قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[١].

وفي تجلية وإبراز هذه الخصائص يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسول الله ﷺ مضريها، ويمانيها[٢].

فالله سبحانه وتعالى تخير العرب من خلقه، وتخير الرسول ﷺ منهم[٣].
وفي تقرير ذلك وتأكيده يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[٤] رحمه الله: «والذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم، عبرانيهم[٥]، وسريانيهم[٦]. روميهم وفرسيهم، وغيرهم.

وأن قريشاً أفضل العرب، وأن بني هاشم: أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ: أفضل بني هاشم، فهو: أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما[٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله الخلق، فاختار

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٢٨، ١٢٩.
(٢) ابن الجوزي، الوفا بأحوال المصطفى، جـ ١، ص ٧٩، ط بيروت.
(٣) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، جـ ١، ص ٢٦٩.
(٤) ابن عبد الهادي، العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٣، وما بعدها، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط: مطبعة حجازي بالقاهرة، سنة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٨م.
ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٤، ص ١٣٥.
(٥) العبرانيون: اسم يطلق على بني إسرائيل، والعبرانية لغتهم، ويقال لمن تكلم العبرانية: عبراني.
الفيروزآبادي، القاموس المحيط، جـ ٢، ص ٨٦.
(٦) السريان: هم: النصارى من أبناء اللغة السريانية، والسريانية لغة من اللغات المتفرعة من الآرامية التي هي اللغات السامية، كالعربية والعبرانية، وكان بعض اليهود، في عهد رسول الله ﷺ يتكلمون السريانية.
الأب لويس معلوف، المنجد في الآداب والعلوم، حرف الألف (الآرامية)، ص ١٢، وحرف السين (السريان)، ص ٢٥٣، ط الثامنة عشر.
(٧) هو: أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن عمر بن الخطاب، العدوي، صحابي جليل، ولد =

من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار»[1].

هذا ويذكر ابن خلدون فضل العرب الفطري وتميزهم الخلقي فيقول: (وهم أسرع الناس قبولاً للحق والهدى، لسلامة طباعهم عن اعوجاج الكلمات، وبراءتها من ذميم الأخلاق، إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة، المتهيىء لقبول الخير، ببقائه على الفطرة الأولى، وبعده عما ينطبع في النفوس، من قبيح العوائد، وسوء الملكات»[2].

وعلى الجانب الآخر من تميز أمة العرب ومنعتها أرضاً وناساً يشير إليه المؤرخ المعاصر: محمد كرد علي حين يقول: وأهم ما حفظ في ديار العرب من اكتساح غيرها لها من الأمم في غابر الدهر: «كون العرب أهل شدة وبأس، وأباة ضيم، لا ينامون عن الثأر، ويصبرون على شظف العيش، ويتبلغون بميسوره، وليست الرفاهية من شأن أكثر المعمور من أرضهم، ولذلك خاب الفرس والرومان والفراعنة، والأحباش، يوم حاولوا أن يستولوا على اليمن والحجاز، وما إليهما[3].

= بمكة المكرمة، سنة ١٠ ق.هـ ـ ٦١٣م، كان جريئاً جهيراً، نشأ في الإسلام، وهاجر إلى المدينة المنورة مع أبيه، وشهد فتح مكة، أفتى الناس في الإسلام ستين سنة، توفي عام ٧٣هـ ـ ٦٩٢م، وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة رضوان الله عليهم.
الذهبي، تذكرة الحفاظ، جـ ١، ص ٣٧، والترجمة ١٧.
ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٣، ص ٢٣٦، رقم الترجمة ٣٠٨٠.
الزركلي، الأعلام، جـ ٤، ص ١٠٨.

(١) ليس في الكتاب والسنة، ولا مجمع الزوائد، والمطالب العالية، ولا صحيح ولا ضعيف الجامع الصغير، وزيادته للسيوطي والألباني بهذا اللفظ، وإنما قال في ضعيف الجامع، جـ ٢، ص ٦٧ ـ ٦٨: «إن الله اختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، ومن مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار، من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم.
رواه الحاكم، في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر فضائل قريش جـ ٤/ ٧٣ ـ ٧٤.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٣٢، ط كتاب التحرير، سنة ١٣٨٦هـ، بالقاهرة.

(٣) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، جـ ١، ص ١٢٠، ط الثالثة، لجنة =

إن لبيئة العرب ـ عند ظهور الإسلام ـ من المقومات التي تتمثل في عوامل التاريخ والمكان والناس ما لم يكن متاحاً أو متوفراً بعضاً منه في غيرها من بيئات العالم القديم، لقد كانت كما سبق القول مبرأة من القهر السياسي، والترف الحضاري(١) والفساد الخلقي.

لقد كانت معرفة العرب بالأقطار المجاورة لا غبار عليها، وكثيراً ما كانوا يقتنون الأملاك والضياع وينزلون المدائن المجاورة، يساكنون أهلها، كأن تلك البلاد أجزاء متممة لديارهم(٢).

واللافت للنظر إن الأمة العربية جمعت بين صفات البدو والحضر، ومن هنا كانت عصبيتهم الحادة، التي جعلت كل فرد يتصور نفسه ملكاً، لا يخضع لغير قبيلته، ولم تقم لهم بذلك دولة واحدة، وكان الرئيس فيهم إن وجد يتقرب إليهم بحسن المعاملة فهو شيخ القبيلة أو العضو فيها وفقط(٣). فلا ظالم ولا مظلوم، ومن ثم لا قهر ولا استبداد، ومن هنا تولدت العصبية التي فاقت حدها، فانقلبت إلى ضد المطلوب منها.

لكن السمات العظيمة في هذه الأمة قبل الإسلام، هو سلامة جوهرها الأخلاقي وقدرتهم على المزج السلوكي بين البادية والحاضرة، وهذا هو ما جعلهم أداة متميزة في تقبل الدعوة الدينية حين استقاموا على أمرها، على أساس أن الوازع الديني في خضوعهم لأمرها وسلطانها لم ينشأ بسبب قهر بشري، أو استغلال سلطان، وإنما سببه من داخل أنفسهم، كما أنه ليس خضوعاً لفرد، أو لقبيلة، ولكنه خضوع لدين الله، الذي يبعد المرء كلية عن التحاسد والتنافس والبغضاء(٤).

وذوبان الفرد في ظل الشرع الجديد لم يكن يمثل إرادة بشرية تمثل القهر

= التأليف والترجمة والنشر، سنة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

(١) د. عبد العزيز كامل، الرسول وموقفه من التفرقة العنصرية، جـ ١، ص ٦٢٣، من كتاب: البحوث والدراسات المقدمة لمؤتمر السيرة، ط قطر، سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

(٢) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، جـ ١، ص ١٢٠.

(٣) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص ١٠٦.

(٤) السابق، الصفحة نفسها.

الذي يرفضونه[١].

وقد لاحظ ابن خلدون طبيعة العرب في الإباء والشمم، فذكر: أنهم لا يجتمعون إلا بصبغة دينية، فإذا كان الدين بالنبوة، كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المهذب للغلظة والأنفة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن من الصفات التي تمتعوا بها وأهلتهم لأن يكونوا الأمة الأجدر بتبليغ الدعوة الإسلامية ما تمتعوا به من ملامح الحلم في القول والعمل، فقد كان العرب أقرب للحلم من غيرهم، لأن الحلم إمساك النفس عن فوران الغضب، كما أن التحلم: إمساكها عن قضاء الوطر، والحلم من آثار العقل، وغير منفك عنه[٢].

وما الكتابة في كلام العرب، ولغتهم إلا حساسية مرهفة، وصيانة اللسان من القول البذيء، يستعان بها في الأسلوب، عوضاً عن التصريح والإفصاح عما يستكره[٣]. وقد كان عندهم كلمة يقولونها في مواطن الثورة والغضب، فيسكن الغضب، وتهدأ الثورة، هذه الكلمة هي: (إذا ملكت فاصفح)[٤]، ومن حلمهم العملي: ما روي أن قيس بن عاصم المنقري[٥] كان يحدث أصحابه يوماً وهو جالس حبواً، فجاؤوا بابن له قتيل، وابن عم له كنيف، فقالوا: «إن هذا قتل ابن هذا» فلم يقطع حديثه، ولا غير حبوته، ولمَّا فرغ من حديثه التفت إليهم وقال:

---

(١) د. صابر طعيمة: إرادة التغيير في الإسلام، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، عام ١٩٦٨م، طبعة أولى ص ١٩٣.

(٢) الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ص ٩٩.

(٣) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص ١٠٧.

(٤) الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ص ١١٠.

(٥) هو أبو علي قيس بن عاصم بن سنان المنقري السعدي التميمي، أحد أمراء العرب وعقلائهم، والموصوفين بالحلم والشجاعة فيهم، حرم على نفسه الخمر في الجاهلية، وفد على النبي ﷺ في وفد تميم، سنة ٩هـ ـ ٦٣٠م، فأسلم وقال النبي ﷺ لما رآه: «هذا سيد أهل الوبر»، نزل البصرة وتوفي بها سنة ٢٠هـ ـ ٦٤٠م.
ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٤، ص ١٣٢ـ ١٣٤، رقم الترجمة ٤٣٦٧.
ابن حجر، الإصابة، جـ ٣، ص ٢٥٢، رقم الترجمة ٧١٩٤.

أين ابني فلان؟ فجاء. فقال: يا بني قم إلى ابن عمك فأطلقه، وإلى أخيك فادفنه، وإلى أم القتيل فأعطها مائة ناقة، فإنها غريبة لعلَّها تسلو عنه[١].

كذلك ممَّا اتصف به العرب وتمتعوا به: الوفاء، وهو يعد دليلاً على سمو نفسياتهم، واستقامة شجاعتهم، واعتدال حياتهم، فما نقضوا عهداً، أو خالفوا وعداً، وكانوا يرون: أن الغدر من كبائر الذنوب فحكَّموا بذلك قوتهم، وسيطرتهم على أنفسهم[٢].

وإن اجتماع الشجاعة والحلم والوفاء في أمة، يجعلها بعيدة عن الاستذلال، وعن الاعتداء، وعن الضرر وإذا ما اشتهروا بهذه الصفات حازوا الثقة، ونالوا التقدير، واستحقوا التصديق في كل ما يقولون[٣].

وهكذا كان العرب الأمة التي ظهرت فيها الدعوة، فحملتها إلى الناس في كل أرجاء الأرض، تصحبهم ثقة الناس فيهم، ومعهم في كل مكان التقدير والتصديق والأمان.

كذلك علينا أن ندرك أن العرب قبل الإسلام قد تمتعوا بفكر عقلي مستنير بحيث لم يوغلوا في الوثنيات التي شاعت في الأمم حولهم، بل إن الفطرة عند معظمهم دفعت بعضهم إلى الاقتراب من التوحيد وهم جميعاً يجمعهم اعتقاد بإله أعظم يعلو كافة الآلهة التي هي وسطاؤهم عنده وشفعاؤهم إليه[٤].

وتعد ظاهرة الحنفاء، دليلاً على مستوى التقدم العقلي عند العرب، فقط خطب الحنفاء في المجتمعات بأفكارهم، ولم يقف في وجههم عربي، بل إن المشركين العرب، كانوا يعتزون ببقايا دين إبراهيم عليه السلام ويعدون خدمة البيت، وحجيجه شرفاً يورثونه لأبنائهم وأحفادهم[٥].

وخلاصة الأمر كله في هذا الموضوع الجليل، أن الدعوة الإسلامية في

---

(١) الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ص ١٠٢.

(٢) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص ١٠٨.

(٣) السابق، ص ١٠٧.

(٤) د. محمد رشاد خليل، ملامح من دور الإسلام في بناء العمارة العربية قبل البعثة المحمدية، ص ٦٠٧، ط الأولى، سنة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

(٥) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص ١٠٨.

ضوء سنن الله ونواميسه التي توزعت بين خلقه أكواناً وأجناساً، كان لا بد لها في ضوء إشارة القرآن والسنة إلى ذلك من الأمة العربية التي تملك من مقومات تقبل الدعوة الإسلامية ووعي مفرداتها وأطروحاتها والانتقال بها إلى الناس جميعاً ما لا تملكه أمة من الأمم.

إذ الصفات والسجايا والمزايا التي أشرنا إلى بعضها مما تمثل في كونهم أمة بدوية حضرية تملك الشجاعة المضبوطة بالحلم والعفة وتملك الذكاء والمحافظة ورجاحة العقل في النظر والتدبر أعانتهم كثيراً، ولذا سرعان ما تخلصوا من بعض السلبيات التي أصابتهم عندما انفتحت قلوبهم وعقولهم على دعوة الإسلام، أي أنه يمكن القول وبغير أدنى تجاوز في وصف مقومات الأمة العربية قبل الإسلام، أنهم وجدوا أنفسهم بعد الإسلام في الإسلام، وتحول التعصب للرأي والحرية التي لا تخضع لأي قهر أو قسر خاضعة لأمر ربها مطيعة لتعاليم دينها(١).

---

(١) لمعرفة الكثير من مقومات الأمة العربية قبل الإسلام، انظر: حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، النهضة المصرية، عام ١٩٧٥، جـ ٣، ص ٤٦٥، وعبد الرحمٰن الكواكبي في أم القرى، طبعة دار الرائد العربي، بيروت، وعلي عبد الحليم محمود، الدعوة الإسلامية، جـ ٢/ ١٥٠٧، ود. صابر طعيمة: الإسلام وعالمنا المعاصر، دار المعارف، الرياض، ص ١٣٥.

أثر العرب المسلمين في عالمية الإسلام

لم يحدث في تاريخ العقائد أن تمكن مذهب أو دين من أمة كما تمكن الإسلام من العرب، كما لم يحدث من أمة أن تمكنت من دين أو عقيدة كما تمكنت أمة العرب بعد إسلامها من الإسلام، ولذلك عندما واجه العرب الإسلام، وواجه الإسلام العرب لم يلبثوا في عنادهم ومقاومتهم وقتاً طويلاً، وفي وقت قصير لا يتجاوز عقداً من الزمان أصبحوا بالإسلام خير أمة أخرجت للناس، تتحلى بمكارم الأخلاق، وعظائم السلوك وتسعى في كل مكان لهداية البشر على نهج القرآن الكريم. ينتبه إلى هذه الظاهرة مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله فيقول: فالقرآن الكريم بتمكنه من فطرة العرب على وجهه المعجز، قد نزل منهم منزلة الزمان في عمله وآثاره، لأن الذي أنزله بعلمه، وقدَّره بحكمته، إنما هو خالق الزمن نفسه، فهدم نفوس العرب، وكان هدمه بناء جديداً، جعل الأمة نفسها قائمة على أطلال نفسها[1].

إن الدعوة الإسلامية أثمرت أكلها بظهورها في الأمة العربية، إذ ناسبتها طبيعتهم البدوية الحضرية، وأخلاقهم الرفيعة، وشجاعتهم الحليمة الوفية، وذكاؤهم الحاد، وفهمهم الدقيق، وحافظتهم القوية، إذ جاءت الدعوة إلى كل هذه المزايا فنشطتها، وسمت بها، وأزالت منها السلبيات الموروثة، فوجد العرب أنفسهم - بعد الإسلام - تلقائياً يبذلون حماستهم وقوتهم للدعوة الإسلامية، ويعطون شجاعتهم وإمكاناتهم لأمر رسول الله ﷺ وفي خدمة دعوته، فتحركوا إلى كل مكان من أجل نشرها، تاركين كل ما يهمهم، وأصبح تعصبهم اندفاعاً، لتنفيذ أوامر الدعوة الإسلامية وتعاليمها، وكان لهم من استعدادهم ما جعلهم يستفيدون بالدعوة، ويفيدونها[2].

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٨٦، ط الخامسة، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

(٢) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص ١١٣.

ولقد كان للبيئة العربية في شبه الجزيرة أثرها الكبير في الحركة العربية، لا سيما من الناحيتين: الاجتماعية والسياسية.

ولقد كان جلياً في حكم التاريخ، وبنزول القرآن كله في جزيرة العرب، أن هذه الخصائص التي نهض بها بيان العرب، ونبتت أخلاقهم، وانتهت إلى الله حكمتهم، لم تكن مما توفَّر لأمة في غير جزيرة العرب، حتى نزل القرآن الكريم، وحتى انطلق لها صحابة الرسول الكريم، في مد الإسلام للتحرير، وإشراقه للتنوير والتغيير، فكان حفظ القرآن بتعلم لغة العرب، والجهاد حول القرآن، والجهاد بالقرآن: طريق الإثبات لهذه الخصائص الإنسانية من خلال حركة التعريب الواسعة، التي صاحبت انتشار الإسلام[١].

فإذا ما أضيف إلى عوامل التاريخ والجغرافيا والإنسان وهي مقومات عربية متميزة غير متوفرة كما قلنا لأمة من الأمم عامل اختيار الله تعالى «المكان» لظهور دعوة الإسلام في مكة، وانطلاقه من المدينة حيث بناء دولة الإسلام على الرغم من أساليب أعداء الدعوة في المدينة وتغلب الدعوة من خلال القرآن والسنة والمجتمع الذي صنعته الدعوة تتبين لنا وتتضح عناية الله تعالى في اختيار المكان لظهور الدعوة في أم القرى[٢].

إن المتأمل في إعداد أول بيت وضع للناس، ليكون منطلقاً للدعوة الإسلامية والدين الخاتم للرسالات والديانات قبل ظهوره، يتفق تماماً مع عهد الله تعالى المأخوذ على أنبيائه، لنصرة دين الإسلام، قبل ظهور محمد ﷺ إلى عالم الدنيا، بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[٣].

فالمكان الذي ظهرت فيه الدعوة أحاطه الله بمجموعة من العوامل والمقومات جعلته مكاناً ملائماً للدعوة الخاتمة، لكي تنطلق في كل اتجاه، وقد انطلقت الدعوة الإسلامية هنا وهناك، فكان صداها بين كل البشر وعلى امتداد

---

(١) أحمد موسى سالم، لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب؟ ص: ٣١٩.

(٢) عبد القادر أحمد عطا: لماذا بعث الرسول ﷺ؟ ص ٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

أرض الله الواسعة.

وترجع أهمية المكان: إلى أن الجزيرة العربية، ملتقى مواصلات مهم بين بقية أجزاء آسيا وإفريقيا، التي تواجه أوروبا[١].

وإذا ما توسعت دائرة الرؤية حول نعم الله وعنايته في تشكيل العوامل والمقومات التي أحاطت ببيئة الدعوة الإسلامية الأولى أعني ما تميزت به الأمة العربية أرضاً وتاريخاً وبشراً وفطرة وقدرة فإننا نستطيع أن نرى بجوار عامل العناية بالمكان عنصر الزمان الذي قامت فيه الدعوة وتم إبلاغها لنماذج من أمم العالم[٢]. إن الملفت للنظر أن الزمان الذي ظهرت فيه الدعوة الإسلامية مطالع القرن السابع الميلادي سادت فيه خاصة مناطق التجمع البشري الكبرى صراعات وحروب، وإراقة دماء غزيرة، وما أشبه اليوم بالأمس ولا شك في أن الحروب المتوالية المحلية والعالمية، والخصومات المتتابعة، والثغرات المتلاحقة، القومية والعنصرية، كل ذلك قد مهد للإسلام طريقه الفطري في الأرض بغير عوائق مستعصية على أطروحات الدعوة الإسلامية الدينية والاجتماعية والأخلاقية ولا بد أن نقرر هنا بوضوح شديد أن الزمن عامل خارج عن ماهية الإسلام، لا صلة له بجوهره، ولكنه من العوامل المساعدة في دفع عجلته، والدعاية لرسالته، فإن احتكاك المسلمين بغيرهم بسبب هذه الصراعات والحروب، كان مدعاة لاستعراض ما للإسلام من مزايا وأخلاق وتقاليد.

إن صراعات هذا الزمن تميزت بالشمول والعمق، ولذلك كانت نهايته أمنية صادقة على مستوى هذا الشمول وهذا العمق.

وكان الطابع العام لهؤلاء الحكماء هو البحث عن الدين المستقيم، والتطلع إلى الهداية السماوية.

وحكماء العرب هؤلاء الذين نعنيهم ليسوا فلاسفة على غرار ما كان عليه فلاسفة أثينا وأسبرطة وغيرهما من بين عواصم العالم التي زخرت باللغو والمراء، إنما هم العلماء الذين كان يرجع إليهم فيما يعرض من مشكلات، وهم في

---

(١) د. محمد مصطفى النجار، عرب الجزيرة بين الجاهلية والإسلام، ص ٤، ط دار الطباعة المحمدية.

(٢) د. سليمان حزين، المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية، جـ ١، ص ٣٨٦.

الجملة أعظم العرب حظاً[١] واستعداداً للدين الحق.

وإذا كان ما سبق يعد من الجوانب المحدودة برغم كثرته، فإن قريشاً قد غمرتها روحانية، ففكرت في أمر الدين وقداسته، والبيت وحرمته، وبعد تأمل وتروٍّ ابتدعت رأي الحمس. والحمس: جمع أحمس، والأحمس: الشديد الصلب في الدين والقتال[٢].

لقد وصل النضج الفكري في هذا الزمن إلى مستوى يناسب ظهور الدعوة الإسلامية، التي جاءت لترتقي بالإنسان إلى معالم الحق، وتأخذ به إلى عالم الكمال المنشود الذي كانت تتطلع إليه الضمائر وتهفو إليه القلوب.

لقد كانت الإنسانية تتطلع زمناً طويلاً إلى دين جديد، عادل رحيم، وكان هذا الدين هو الإسلام.

لقد أفلست نظم الإنسان السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، وأدت إلى صراع في كل بقعة من بقاع الدنيا، مما جعل الإنسانية تتطلع إلى ما يقيم لها إنسانيتها، ويحفظ لها كرامتها.

لقد كانت سنن الاجتماع البشري قد بلغت بالإنسان أشده، وأعادته الحوادث الماضية إلى رشده، فجاء الإسلام يخاطب العقول ويحيي القلوب بعد مسلسل النبوات والرسالات التي كانت بمثابة التمهيد لدعوة الإسلام. ولذلك حين بعث الله محمداً ﷺ للناس جميعاً، والإنسانية عامة كان لا بد من بعثته تفضلاً من الله ورحمة ليخرج العالم كله مما كان يتخبط فيه من ظلم وضلال، وباطل وعدوان[٣].

نعم: كان العالم في حاجة ملحة لدين جديد، بعد أن خفت صوت الرسل السابقين، وضاعت معالم الرسالات الإلهية، التي أرسلها الله لعباده، لا فرق بين بلاد العرب وغيرها.

إن الحالة الدينية فضلاً عن الحالة الاجتماعية الظالمة، التي كانت عليها

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) السابق، جـ ١، ص ٣٢ـ ٣٣.

(٣) د. محمد يوسف موسى: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، ص ٢٢، ط دار الفكر العربي، بيروت.

الأمم قبل الإسلام، كانت تتطلب إنقاذاً سريعاً، يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن ضيق الظلم إلى رحابة العدل، فكان هذا المنقذ هو الإسلام[1].

ولم تكن هناك أمة أقدر ولا أجدر لحمل هذه المسؤولية سوى أمة العرب والإنسانية في عصرنا هذا أشد ما تكون حاجة إلى الدين الإسلامي، إنه لا شيء غير هذا الدين الإسلامي، فلا خلاص للإنسانية إلا بالرجوع إلى دعوة الإسلام - ولن تجد الإنسانية ديناً قويماً كما أنزله الله - واضحاً ميسراً، خالياً من الغموض والتعقيد، سليماً من التحريف والتبديل، إلا دين الإسلام، فهو الدين الذي ينظم العلاقة بين الروح والمادة بين القلب والعقل، والفرد والجماعة، والدنيا والآخرة[2].

وهذا الدين لا يزال العالم في حاجة شديدة إليه، ولا خلاص للإنسانية مما تعانيه إلا بالإيمان به، واتباعه، فهو الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، والداعي إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم.

---

(١) د. محمد يوسف موسى: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، ص ٢٦.

(٢) محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام، ص ٢٤.

جهاد الدعوة الإسلامية تحت راية النبي ﷺ

هذا الجانب من الدراسة فيما أرى له علاقة وثيقة برد الفعل الذي تمثل من جانب أعداء الدعوة في مرحلتها المدنية، هل كان خصوم الدعوة يتصرفون بمنطق رد الفعل في مواجهة فعل صاحب الدعوة ﷺ معهم، أم أنهم كانوا يصنعون الخطط والعراقيل ويبتكرون الأساليب القولية والفعلية لأغراض تتصل بمصالحهم وموقفهم الأساسي من الدعوة.

إن جهاد النبي ﷺ في تبليغ ما بعثه الله تعالى به لهداية الناس وإنفاذ أمره فيهم ليتضح فيه بأجلى المعاني تميزه ﷺ وانفراد منهجه في تبليغ الدعوة الإسلامية حتى وهو في مرحلة الجهاد بها وفي ذلك والتدليل عليه فقد أخرج البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية ـ فذكر الحديث بطوله، وفيه: فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة ـ وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ(١). من أهل تهامة(٢) ـ فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد(٣). مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل(٤)، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن نهكتهم(٥) الحرب وأضرت

---

(١) عيبة نصح رسول الله ﷺ: موضع النصح له والأمانة على سره.

(٢) تهامة: وهي من ذات عرق إلى البحر وجدة، وقيل تهامة ما بين ذات عرق إلى مرحلتين من وراء مكة، وما وراء ذلك من المغرب فو غور.

(٣) إعداد: جمع عدد، بالكسر، ماء لا ينقطع.

(٤) العوذ: جمع عائذ وهي الناقة إذا وضعت وبعدما وضعت أياماً حتى يقوى ولدها. والمطافيل: جمع مطفل وهي الناقة القريبة العهد بالنتاج من طفلها، أي جاؤوا بأجمعهم كبارهم وصغارهم.

(٥) نهكتهم: أتبعتهم كثيراً وأضنتهم.

بهم فإن شاؤوا ماددتهم[1] مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جمعوا[2]. وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي[3]. ولينفذن أمر الله».

وعند الطبراني عن المسور ومروان مرفوعاً: «يا ويح قريش!! لقد أكلتهم الحرب، فماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن الله أظهرني عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يقبلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟! فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله حتى يظهرني الله أو تنفرد هذه السالفة»[4]. وهكذا أخرجه ابن إسحاق من طريق الزهري، وفي حديثه: «فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة»[5].

أخرج البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على النبي ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي بعينيه» قال: فأرسل إليه فأتى فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال رسول الله ﷺ: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم[6].

هذا وقد أخرج ابن سعد[7] عن المقداد بن عمرو قال: أنا أسرت الحكم بن

---

(١) ماددتهم: عقدت معه هدنة تترك فيها الحرب لمدة معينة.

(٢) جمعوا: استراحوا.

(٣) سالفتي صفحة العنق وكني بانفرادهم عن الموت، انظر: كنز العمال، جـ ٢، ص ٢٨٧.

(٤) ابن كثير «البداية والنهاية» جـ ٤، ص ١٦٥.

(٥) رواه البخاري ومسلم، وقال حديث حسن صحيح.

(٦) حمر النعم هي الإبل الحمرا.

(٧) ابن سعد: الطبقات جـ ٤/ ١٣٧.

كيسان، فأراد أميرنا ضرب عنقه[1]، فقلت: دعه نقدم به على رسول الله ﷺ، فقدمنا، فجعل رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام فأطال، فقال عمر: علام تكلم هذا يا رسول الله؟ والله لا يسلم هذا «آخر الأبد، دعني أضرب عنقه ويقدم إلى أمه الهاوية[2]، فجعل النبي ﷺ لا يقبل على عمر حتى أسلم الحكم، فقال عمر: فما هو إلا أن رأيته قد أسلم حتى أخذني ما تقدم وما تأخر، وقلت: كيف أرد على النبي ﷺ أمراً هو أعلم به مني؟! ثم أقول: إنما أردت بذلك النصيحة لله ولرسوله، فقال عمر: فأسلم والله فحسن إسلامه وجاهد في الله حتى قتل شهيداً ببئر معونة[3] ورسول الله ﷺ راضٍ عنه.

ومن أراد أن يتأمل صبره ﷺ فينظر قصة إسلام قاتل عم النبي وحشي بن حرب[4]، أخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي بن حرب قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام، فأرسل إليه: يا محمد، كيف تدعوني وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق آثاماً، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً وأنا صنعت ذلك؟! فهل تجد لي من رخصة؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾[5]، فقال وحشي: يا محمد، هذا شرط شديد ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فلعلي لا أقدر على هذا، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[6]، فقال وحشي: يا محمد، هذا أرى بعد مشيئة، فلا أدري هل يغفر لي أم لا فهل غير

---

(١) أي أطال الحديث معه.

(٢) الهاوية: هي المكان المنخفض، والمراد بها هنا النار.

(٣) بئر معونة: مكان في نجد، ذكر البخاري أن سبعين من المسلمين استشهدوا فيه وقد كانوا من صحابة رسول الله ﷺ في صفر من الرابعة للهجرة، وقد كان ذلك نتيجة غدر بطون رعل وذكوان وعصية من قبيلة بني سليم.

(٤) هو وحشي بن حرب صحابي من سودان مكة، كان من أبطال الموالي في الجاهلية قتل حمزة عم النبي يوم أحد، ثم أسلم وحسن إسلامه، ثم قتل مسيلمة الكذاب، مات في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٢٥هـ (راجع الإصابة ٩١١١).

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

(٦) سورة النساء، الآية: ٤٨.

هذا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿۞قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[١]، قال وحشي: هذا نعم، فأسلم، فقال الناس: يا رسول الله، إنا أصبنا ما أصاب[٢] وحشي، قال: «هي للمسلمين عامة».

هذه هي روح دعوة الإسلام إبان مراحل جهادها حتى مع أعدائها طمعاً في أن تشملهم رحمة الله ومغفرته، وفي ضوء تلك الروح وفي ظل هديها يقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: «إن الذي تقول وتدعو إليه لحسنٌ لو تخبرنا أنَّ لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ﴾[٣]، ونزل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾.

وأخرج الطبراني وأبو نعيم في الحلية والحاكم عن أبي ثعلبة الخشني قال: قدم رسول الله ﷺ من غزاة له، فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين وكان يعجبه إذا قدم من سفر أن يدخله المسجد فيصلي فيه ركعتين يثني[٤]، بفاطمة ثم أزواجه - فقدم من سفره مرة فأتى فاطمة فبدأ بها قبل بيوت أزواجه، فاستقبلته على باب البيت فاطمة فجعلت تقبل وجهه - وفي لفظ: فاه - وعينيه وتبكي، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما يبكيك؟» قالت: أراك يا رسول الله قد شحب[٥] لونك، واخلولقت[٦] ثيابك، فقال لها رسول الله ﷺ: «يا فاطمة لا تبك فإن الله بعث أباك بأمر لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر ولا شعر[٧] إلا أدخله به

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٢) أي فعلنا ممثل فعله.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٦٨.
وانظر تفسير الطبري في توضيح بيانها جـ ١٩، ص ٢٦: والبحر المحيط، جـ ٦، ص ١٥١.
(٤) الهيثمي: (مجمع الزوائد) ج ٧، ص ١٠.
(٥) شحوب اللون: تغيره.
(٦) اخلولقت ثباك: أبليت.
(٧) بيت مدر ولا وبر ولا شعر: يريد أهل القرى والأمصار، وأهل الأخبية.

عزاً وذلاً حتى يبلغ حيث يبلغ الليل»[١].

وعلى درب النبي ﷺ في مجال تبليغ الدعوة والجهاد بها، يبرز تأثر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمنهجه ﷺ في جهاد الدعوة، وذلك في حرصه على رجوع المرتدين للإسلام والانضواء تحت لوائه. فقد أخرج: عبد الرزاق عن أنس رضي الله عنه قال: بعثني أبو موسى بفتح تستر[٢]، إلى عمر فسألني عمر ـ وكان ستة نفر من بكر بن وائل؟ قد ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بالمشركين فقال: ما فعل النفر من بكر بن وائل؟ قلت: يا أمير المؤمنين، قوم قد ارتدُّوا عن الإسلام ولحقوا بالمشركين ما سبيلهم إلا القتل، فقال عمر: لأن أكون أخذتهم سلماً أحب إلي مما طلعت عليه الشمس من صفراء وبيضاء[٣]، قلت يا أمير المؤمنين، وما كنت صانعاً بهم لو أخذتهم، قال لي: كنت عارضاً عليهم الباب الذي خرجوا منه أن يدخلوا فيه، فإن فعلوا ذلك قبلت منهم وإلا استودعتهم السجن[٤].

وعند مالك والشافعي وعبد الرازق أنه[٥]: قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل من قبل أبي موسى رضي الله عنه، فسأله عن الناس فأخبره، ثم قال: هل كان فيكم من مغربة خبر[٦]؟ فقال: نعم رجل كفر بعد إسلامه، قال فما فعلتم به؟ قال: قربناه فضربنا عنقه، قال عمر: فهلا حبستموه ثلاثاً، وأطعمتموه كل يوم رغيفاً، واستتبتموه، لعله يتوب ويراجع أمر الله؟! اللهم، إني لم أحضر، ولم آمر، ولم

---

(١) كنز العمال جـ ٧٧، وقال الهيثمي (٨/ ٢٦٢)، رواه الطبراني، وفيه يزيد بن سنان أبو وفرة وهو مقارب الحديث مع ضعف كثير ـ انتهى، وقال الحاكم (٣/ ١٥٥): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي فقال: يزيد بن سنان هو الهرهاوي ضعفه أحمد وغيره، وعقبة (أي شيخه) نكرة لا تعرف ـ انتهى، وذكر عقبة في اللسان فقال: قال البخاري في صحته نظر، وذكره ابن حبان في الثقات. انتهى.

(٢) تستر ـ بضم التاء الأولى وسكون السين وفتح التاء الأخرى ـ أعظم مدينة بخوزستان، وهو تعريب شوستر.

(٣) الصفراء: الذهب، والبيضاء: الفضة.

(٤) كنز العمال، جـ ١، ص ٨٩.
سنن البيهقي جـ ٨، ص ٢٠٧.

(٥) كنز العمال جـ ١، ص ١٧٥.

(٦) أي هل من خبر جديد جاء من بلد بعيد.

أرض إذ بلغني.

هذا وقد أخرج البيهقي وابن المنذر والحاكم عن أبي عمران الجوني قال: مرّ عمر رضي الله عنه براهب فوقف ونودي بالراهب فقيل له: هذا أمير المؤمنين، فاطلع فإذا إنسان به من الضر والاجتهاد وترك الدنيا، فلما رآه عمر بكى، فقيل له: إنه نصراني، فقال عمر: قد علمت ولكني رحمته، ذكرت قول الله عز وجل: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾[1]، رحمت نصبه واجتهاده وهو في النار[2].

هذا ويتضح المنهج النبوي في جهاده ﷺ لتبليغ دعوة الإسلام وهو المنهج الذي يؤكد سماحة الإسلام وحرص نبيه ﷺ على أن تستظل الأمم والشعوب بنور هذه الدعوة، وذلك في دعوته ﷺ غير المسلمين للإسلام (بالدعوة) لا بالحرب ولا بالعدوان، إلا أن تكون الحرب ضرورة حياة لحماية مجتمع المؤمنين، فقد أخرج الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى قوم يقاتلهم، ثم بعث إليه رجلاً فقال: «لا تدعه من خلفه وقل له: لا تقاتلهم حتى تدعوهم»[3].

وأخرج ابن راهويه عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثه وجهاً ثم قال لرجل: «الحق ولا تدعه من خلفه، فقال: إن النبي ﷺ يأمرك أن تنتظره، وقل له: لا تقاتل قوماً حتى تدعوهم»[4]. وعند عبد الرازق عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له حين بعثه: «لا تقاتل قوماً حتى تدعوهم»[5]، وعند البخاري وغيره أن النبي ﷺ[6] قال لعلي رضي الله عنه يوم خيبر: «انفذ على رسلك[7]، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم»[8].

---

(١) سورة الغاشية، الآيتان: ٣، ٤.

(٢) كنز العمال جـ ١، ص ١٧٥.

(٣) الهيثمي ـ مجمع الزوائد جـ ٥، ص ٣٠٥.

(٤) كنز العمال جـ ٢، ص ٢٩٧.

(٥) نصب الراية، جـ ٣٧٨/٢.

(٦) نصب الراية، جـ ٣٧٨/٢.

(٧) على رسلك: أي تمهل رويداً رويداً.

(٨) رواه البخاري وقال حديث حسن صحيح.

وهذا المنهج النبوي في دعوة النبي وجهاده مرجعه طبيعة الدعوة الإسلامية وخصائصها، وكونها دعوة عالمية للناس جميعاً فلا معنى للحوار مع غير المسلمين في دعوتهم للإسلام قبل «الحسنى» والموعظة، وقبل عرض المبادئ والثوابت والأسس.

ولم يكن أمام صاحب الدعوةﷺ وهو الرسول الخاتم للناس جميعاً إلا أن يمتثل لأمر ربه وهو الأمر الذي خوطب به النبي ﷺ مبكراً أي في أوائل الدعوة الأولى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾[1]، ومن الواضح الجلي أن سورة المدثر التي افتتحت بهاتين الآيتين حاملة الأمر بتبليغ الرسالة، وكانت أول سورة في هذا المقام، وإن كانت سورة العلق هي أول ما نزل من القرآن مطلقاً، وبعد النبوة التي ارتبطت بالوحي على ما يفهم من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن[2]، قال: سالت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل قبل؟ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ قلت: أو ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾[3]، قال: أحدثكم بما حدثنا به رسول الله ﷺ.

ومن آيات الأم بالتبليغ قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ﴾[6].

بهذه الآيات وبغيرها ممَّا نزل بمكة المكرمة ، أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بالتبليغ، فالتزم بأصول الدعوة، فكان الداعي إلى الله جل وعلا، وللهدى

---

(١) سورة المدثر، الآيتان: ١، ٢.

(٢) هو: ابن عوف الزهري المدني، الحافظ، من كبار أئمة التابعين، كان ثقة عالماً، وكان يناظر ابن عباس، روى عن أبيه، وعن عثمان، وأبي قتادة، وعائشة، وغيرهم، توفي سنة ٩٤هـ ـ ٧١٣م، وقيل سنة ١٠٤هـ ـ ٧٢٢م، الذهبي «تذكرة الحفاظ» جـ ١/ ٦٣ رقم الترجمة ٥٢.

(٣) سورة العلق، الآية: ١.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٩٤.

(٥) سورة الشورى، الآية: ١٥.

(٦) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

والنجاة والصراط المستقيم، كما التزم بالمنهاج الذي أشرنا إليه القائم على الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

هذا وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون الدعوة سرًا، وأن يبدأ بها هو مع أقرب الناس منه، وكان أن استجاب لأمر الله، فأخذ يسر بدعوته إلى من يطمئن إليه من أهله، فكانت خديجة أول من آمن به من النساء[1]، ومعها علي بن أبي طالب، وهو ابن عشر سنين[2]. بعد إسلام أبي بكر رضي الله عنه من الرجال[3]. وكان أوثق الناس صلة برسول الله ﷺ، وأعرفهم به، فآمن به دون تردد[4].

وشاء الله عز وجل أن يكون الصف الأول الذي استجاب لدعوة الإسلام خيرة الرجال الذين باعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، ووقفوا خلف نبيهم، مستعدين لمتابعته في أي سبيل، ومرافقته إلى أية غاية، وبذلك تهيأت الدعوة للخروج من السرية التي اقتضتها حكمة الله لتبدأ بإذن الله طوراً جديداً تشق فيه الطريق علانية إلى القلوب[5].

وكانت النتيجة أن تفتحت للدعوة القلوب، وراح الرسول الرحيم بقومه، الحريص على هدايتهم، يبدي في دعوتهم ويعيد، ويبذل كل ما في وسعه لجذبهم إلى حظيرة السلامة والإيمان[6].

والسيرة النبوية قد وضحت خطوات النبي ﷺ في تبليغ الدعوة بمكة من الإسرار بها، ثم الجهر، ومن طرق عرضها على الناس، وما لاقى هو وأصحابه

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢١٣.

(٢) المرجع السابق نفس الموضوع.

(٣) المرجع السابق، نفس الجزء ص ٢١٤.

(٤) إبراهيم الدسوقي، الدعوة الإسلامية علماً وعملاً، ص ٨، ط الأولى.
ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٢، ص ٢٤٢.
ابن الأثير: أسد الغابة، جـ ١، ص ٥٩.
ابن عبد البر، الاستيعاب جـ ١، ص ١٣١، رقم الترجمة ١٣٣.
الزركلي، الأعلام، جـ ١، ص ٢٨٨.

(٥) إبراهيم الدسوقي، الدعوة الإسلامية علماً وعملاً، ص ٨، ط الأولى.

(٦) د. محمد علي الهاشمي، شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم، ص ٧٨، ط: عالم الكتب، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

في سبيل ذلك[1]. ولن نتوسع في هذه المرحلة وما تعرضت له الدعوة من المعوقات وما حققته من النجاحات، إنما الهدف هنا من هذا البسط لجوانب الدعوة التمهيد المنهجي لدراسة طبيعة الدعوة الإسلامية وخصائصها في التعامل مع الآخر وذلك بعد تلك المقدمات التي قد تكون من الأهمية بمكان أمام غير المسلمين من المسلمين الذين قد لا تنقص غالبيتهم هذه المعارف المتعلقة بدعوة الإسلام ونبيها عليه السلام.

(١) عطية صقر، الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه، ص ٤٢.

تبليغ الدعوة ومدى علاقته بالإيمان بها

في ضوء ما أرسى النبي ﷺ من قواعد لتبليغ الدعوة الإسلامية طبقها وقام بها بنفسه وأمر بها رسله إلى الناس، ولكونه ﷺ كما مر معنا مأموراً بتبليغ الدعوة، فقد بلغها ﷺ، وكان لا بد من حمل الأمانة من بعده أي أنه كان لا بد للأمة المسلمة من التبليغ العام الواجب على مجموعها من خلال أمة منها تحمل قدوة التبليغ وأدب حمل الدعوة، واستقامة عرض الدعوة من غير أغراض تخلط الحق بالباطل والطيب بالخبيث مرتكزة إلى أنها دعوة لله وحده لا شريك له، على بصيرة وتحمل مسؤولية وتبليغ الدعوة والجهر بها وتوصيلها للناس مسؤولية ليست يسيرة فهي في الأصل وظيفة «النبي» ولذا جاءت التوجيهات ـ قرآناً وسنة ـ محددة واضحة لا تحتمل تأويلاً ولا تعطيلاً، فمن ضوابط تبليغها قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[(١)].

ومن هنا حفز النبي ﷺ أصحابه لتبليغ دعوة الإسلام في قوله: «ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض[(٢)] من سمعه». وفي قوله ﷺ: «أوعى له» دلالة بليغة على أن أمر الدعوة يحتاج إلى الوعي والرشد، لا الارتجال والعشوائية ويدعو ﷺ لمن يسمع شيئاً من أمر دعوته وهديه ويبلغه فيقول: «نضر الله امرءاً سمع مني شيئاً فبلغه كما سمع، فرب مبلغ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الأضاحي، باب من قال الأضحى يوم النحر، جـ ١٠، ص ٨، رقم الحديث: ٥٥٥٠، بلفظ «ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه» وفي كتاب العلم، باب رب مبلغ أوعى من سامع، جـ ١، ص ١٥٧، رقم الحديث: ٦٧.
ورواه أحمد في مسنده، جـ ١، ص ٣٧.

أوعى من سامع».

وقد حذر الرسول ﷺ من كتم العلم، فقال: «من سئل علماً فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[1].

وفي تقرير نفس المعنى وبيان فضل العمل به يقول ﷺ: «من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجر من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»[2].

ويقول الرسول ﷺ: «اللهم ارحم خلفائي، قلنا: يا رسول الله، ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدي يروون أحاديثي يبلغونها للناس[3]. وقد يرى البعض أن هذا الحديث في بيان فضل تعلم أحاديث الرسول ﷺ، لكن من الناس من يحمل دعوة الإسلام حقاً وصدقاً دون أن يكون رصيد أطروحاته ومرئياته، قوله تعالى أو قوله ﷺ.

والمتتبع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ يجد أن الوجوب على النبي بتبليغ الدعوة الإسلامية انسحب على المسلمين بعامة من خلال إعداد الجماعة التي تقوم على أمر تبليغ دعوة الله للناس على هدى وبصيرة والتي يقول الله تعالى بشأن تحقيقها هذه الغاية: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[4]. وقد دلت الآية الكريمة على أمور عظيمة منها: أن الله تعالى كلف رسوله ﷺ في أمر الدعوة إلى الله، وكذلك فإن الله تعالى كلف من اتبع الرسول ﷺ بأمر الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى في كل زمان

---

(١) رواه أحمد، في مسنده، جـ ٢، ص ٣٥٣.
ورواه الترمذي، في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، جـ ١٠، ص ١١٨، وقال حديث حسن.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سنَّ سنة حسنة، جـ ٤، ص ٢٠٦٠، رقم الحديث ٢٦٧٤.
ورواه الترمذي، في سننه أبواب العلم، باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى فاتبع، جـ ١٠، ص ١٤٢، وقال حديث حسن صحيح.

(٣) رواه الديلمي في مسنده، جـ ١، ص ٤٧٩، رقم الحديث: ١٩٦٠.
ورواه الخطيب البغدادي، في شرف أصحاب الحديث، ص ٣١، تحقيق د. محمد سعيد الخطيب أوغلي، الناشر (المكتبة السلفية بالمدينة، المملكة العربية السعودية).

(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

ومكان على العكس من ذلك تماماً، فإن من لم يبلغ الدعوة إلى الله تعالى ممن هم أهل للقيام بها حيث توفر له العلم بها وبوسائلها وصحة التعبير عنها، والعلم بحال المدعوين إليها، لا يعد تابعاً قوياً للنبي ﷺ. ثم إن الداعي لا بد له من تقدير للأمور، يأتيها من طرقها المسلوكة، والمشروعة وأن يكون ليناً في دعوته، كما قال تعالى في شأن موسى عليه السلام مع فرعون ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[١].

ولا بد للداعية من أن يسلك سبيل الرسول ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى ذلك أن الإيمان وحده مع عدم القدرة على تبليغ دعوة الله تعالى لا يكفي في اتباع النبي ﷺ ولا التعبير الصحيح عن دعوة الإسلام[٢].

ومن نافلة القول هنا أن نقرر ـ إنما للتذكير ـ أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يكونوا جميعاً ممن يكلفون بعبء عمليات تبليغ الدعوة وذلك على الرغم من أن الأمة كلها حوله ﷺ قد استجابت لأوامر ربها وتوجيهات نبيها، ووفق الإطار والمنهج والمعتقد الذي تطرحه الدعوة الإسلامية بين يدي الناس[٣].

ومنذ عصر صدر الإسلام هيأ الله سبحانه وتعالى للإسلام حملة من صفوة المؤمنين، وهبوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الرسالة، فنالوا شرف المساهمة في نشرها في المشارق والمغارب، ولدرجة أن الموت كان أحب إليهم من الحياة، والشهادة عندهم أشهى من النصر[٤].

ولقد تقبّل الناس بشغف دين الإسلام، لما أنسوا فيه من الفطرة النقية، ولما رأوا فيه من الغذاء الروحي، الذي اطمأنت به عقولهم، وسكنت إليه نفوسهم[٥].

إن اللافت للنظر في أمر الدعوة الإسلامية ما وقع من الشعوب التي حاربت

---

(١) سورة طه، الآية: ٤٤.

(٢) حسني محمد إبراهيم غيطاس، الدعوة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ص ٥٠، ط: المكتب الإسلامي، بيروت، سنة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

(٣) محمد بن فتح الله بدران «الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن» الطبعة الأولى عام ١٩٦٩م، القاهرة ص ٢٢٠.

(٤) مؤيد الكيلاني، كيف انتشر الإسلام؟ ص ٤٦.

(٥) عطية صقر، الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه، ص ٧٠.

الإسلام، فما أن وقفوا أمام هدي الدعوة الإسلامية وعدالتها، إلا وأصبح من بين أبنائها أعلام في فقه ونشر هذه الدعوة، كما رأيناه واضحاً من الفرس بعد موقعة القادسية حين دخلوا الإسلام فقد أقبلوا على تعلم لغته، والتبحر في علومه، حتى كانت بعد سنوات معدودة تضم أقطاب الإسلام في الميادين المختلفة[1].

وكذلك كان للإسلام فضل كبير في البلاد التي وصل إليها من حدود فارس شمالاً وشرقاً، إذ خرج الناس من وثنية عبادة الكواكب والأساطير إلى دين الله.

وفي عصر صدر الإسلام رأينا شمال إفريقيا الذي كانت العلاقات الاجتماعية فيه تقوم على القهر، والذي تخرج منه بفضل الدعوة الإسلامية زعامات وقيادات حملت فقه الإسلام وشرعه وقد اتجه ركب الدعوة الإسلامية بعد فترة وجيزة من قيام دولة الإسلام في المدينة ماراً بشمال بلاد العرب، فأسلم النصارى من غسان[2]. وقد يغيب عن بعض الذين لا يدركون حقيقة التصدي لحمل دعوة الإسلام وأنها دعوة سمحة لا تقوم على العنف ولا التنفير من ضوابط الحوار في لغة الداعي إلى الإسلام أنه بعد موقعة القادسية الشهيرة[3]. وفد النصارى الضاربون على ضفاف الفرات[4]. مسلمين، وقد ساعد النصارى

---

(١) مرجع سابق، نفس الموضوع.

(٢) هم: شعب، اختلف في نسبته، فقالوا: غسان أبو قبيلة باليمن، منهم: ملوك غسان. وقالوا: غسان ماء بين زمع وزبيد من نزل من الأزد فشرب منه، سمي غسان، وقالوا: الغساسنة ملوك الشام، وهم: بنو عمرو بن مازن بن الأزد، كانوا عمالاً للإمبراطورية الرومانية البيزنطية، قدم وفد منهم على النبي ﷺ في شهر رمضان سنة عشر من الهجرة، وكانوا يختصون من بين العرب بالطيبات.
راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان جـ ٤، ص ٢٠٣، وعمر كحالة «معجم قبائل العرب» حـ ٣/ ٨٨٤.

(٣) هي: موضع بالعراق، وقرية قرب الكوفة، مرَّ بها إبراهيم عليه السلام فوجد بها عجوزاً، فغسلت رأسه، فقال: قدست من أرض فسميت بالقادسية، وقيل: غير ذلك، وقد وقعت فيها معركة بين المسلمين والفرس، في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة ١٤هـ ـ ٦٣٥م، وقائد جيش المسلمين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وقائد جيش الفرس رستم.
الطبري، تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٧٨ـ ٤٣٦.
ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٤٣ـ ٤٤.

(٤) هو: نهر من أشهر أنهار آسيا، ينبع من جبال أرمينية، ويتصل بنهر دجلة في جهة =

المقيمون في الأراضي البيزنطية جيوش العرب في فتح فارس، وكتبوا إلى أبي عبيدة قائد الجيش الإسلامي: يا معشر المسلمين: أنتم أحب إلينا من الروم ـ وإن كانوا على ديننا ـ أنتم أوفى لنا، وألطف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا.

وكان للتسامح الديني معهم، ومع غيرهم، أثره في كثرة دخولهم في الإسلام، وذلك بسبب سهولة طرح العقيدة على الناس، وبساطة الدين، ووضوحه، مع يسر التكاليف، إلى جانب استيائهم من السفسطة المذهبية، التي جلبتها الروح الإغريقية إلى اللاهوت[1]. النصراني بعد عمليات التحريف والوضع التي سنعرض لها في موضعها من البحث.

وحول آثار التسامح الديني من قبل الدعاة إلى الإسلام في مواجهة غيرهم يقول كيتاني[2]: «فلمّا أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف، وتمزقت بفعل الإقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الترهات، لم تعد المسيحية بعد تلك الحالة قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة،

= يقال لها: القرنة، فيصير دجلة والفرات نهراً واحداً، يصب عند مدينة عبدان، على الخليج العربي.
ياقوت الحموي (معجم البلدان) جـ ٤/ ٢٤١.

(١) هو: علم العقائد النصرانية، وهو يفسر الأسرار التي لا يدرك العقل كنهها بحسب معتقدات الكنيسة ومصادره: ١ـ الكتاب المقدس، ٢ـ تعليم الكنيسة الحي، ٣ـ المجامع السكونية، ٤ـ الشعائر الدينية، ٥ـ التشريع الكنسي.
محمد شفيق غبريال، الموسوعة العربية الميسرة، جـ ٢، ص ١٥٤٦.

(٢) هو: ليوني كيتاني، أمير ومفكر ومستشرق إيطالي، ومؤرخ، ولد في روما، سنة ١٢٨٦هـ ـ ١٨٩٦م، وتخرج من جامعتها، قام برحلات إلى الشرق، ولا سيما الهند وإيران، ومصر والشام، ألف بالإيطالية، كتاب «تاريخ الإسلام» طبع في عدة مجلدات، و«دراسات في تاريخ الشرق» كتب تراجم لعدد من العلماء المسلمين في الأندلس، وشارك في تحرير المواد الإسلامية في الموسوعة الإيطالية، توفي سنة ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٦م.
نجيب العقيقي، المستشرقون، جـ ١، ص ٤٢٩.

وقدم مزايا مادية جليلة، إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة، التي لا تحتمل الجدل، وحينئذٍ ترك الشرق المسيح، وارتمى في أحضان دين العرب[1] الجديد.

ودراسة جوانب الفتح الإسلامي وتقبل الشعوب لدعوته ثم استبسالها في الدفاع عن دعوته في المساحات الواسعة من ظهر البسيطة، تكشف عن أن ذلك يعود إلى أسباب كثيرة، اجتماعية، وسياسية، ودينية. ولكن أهم العوامل التي أحدثت هذه النتيجة المثيرة للإعجاب والإجلال في جهود المسلمين المتتابعة، هو هؤلاء الذين اقتدوا بالنبي ﷺ، فجاهدوا في سبيل إدخال الناس في دين الله تعالى[2]. وبلغوا دعوة الإسلام بما يعين على تقبلها بيسر دون تعقيد كهنوتي أو قهر سياسي.

---

(١) توماس آرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٧٣.

(٢) أنور الجندي، آفاق جديدة للدعوة الإسلامية، ص ٣٣٥.

حقائق تتعلق بالدعوة الإسلامية

مما يجب أن تتنبه له الأجيال المؤمنة، وفي ظل هذا التداخل واللبس الذي اختلطت فيه المفاهيم واضطربت القيم، وهو التداخل الفكري والأخلاقي والسياسي والاقتصادي الذي تعيشه الإنسانية في عالمنا المعاصر، بحيث رأينا بمقياس التاريخ وكأننا في لحظة سقوط أيديولوجيات كبرى وأنظمة عظمى أن الدعوة إلى الله في الأصل: وظيفة الأنبياء والمرسلين، والعلماء أمناء الله على شرعه، والحافظون لدينه، والقائمون على حدوده، والعارفون بما يجب له ـ جل شأنه ـ إذا فعلوا لحظتهم العيون، وإذا قالوا: أصغت إليهم الآذان، ووعت القلوب، وحكت الألسنة، وهم الحجة البالغة، والبرهان القاطع، والنور الذي يهتدي به الناس وهم أيضاً الصفوة من المؤمنين وقد أشار إليهم الذكر الحكيم بمثل ذلك التصور، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[١].

وإن الراشدين من الأئمة: أبو بكر، وعمر، وعثمان وعلي، كانوا يرسلون العمال إلى الأقاليم دعاة إلى الإسلام، هداة مرشدين.

ولم تكن الدعوة في عصرهم أقل شأناً مما كانت عليه في عصر الرسول ﷺ نفسه، بل كانت أقوى نفوذاً، وأوسع انتشاراً، وفي أيامهم انتشر الإسلام خارج الجزيرة العربية، وفتحت بلاد فارس والروم وإفريقيا، خصوصاً في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[٢].

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو الذي اتسعت في عهده الدولة الإسلامية، يقول: «إنما بعثت عمالي إليكم ليعلموكم كتاب ربكم، وسنة نبيكم، ويقيموا بينكم

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٢) آدم عبد الله الألوري، تاريخ الدعوة الإسلامية، ص ٦٤، ط دار مكتبة الحياة، بيروت.

دينكم»[1].

ومن تعليم أمور الدين: أن يبينوا لغير المسلمين حقائق الإسلام، وهم بعد البيان أو الحوار لهم الحرية في اعتناق عقيدة الإسلام أو عدم قبولها[2].

وقد أرسل رضي الله عنه إلى أهل الكوفة[3]. عماراً أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ورسولاً[4]. وقال رضي الله عنه: «تعلموا كتاب الله وعرفوا به، واعملوا به، تكونوا من أهله»[5].

وصارت الدعوة في عهد الخلفاء الراشدين على المنهاج الذي كانت عليه في عهد النبي ﷺ فالخلافة أساسها الدين، وأداتها الدعوة إلى الله، ورائدها: الكتاب والسنة.

وكانت الدعوة في عهد الخلفاء الراشدين متجهة نحو تقوية الروح الجماعية للمسلمين، حتى ينتظم عدد كبير في سلك الجندية للقيام بالجهاد الذي هو عماد الدعوة، وقوام الرسالة.

فأخذت الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة تطور وسائلها لتحقيق غايتها عبر محاور وممارسات إبداعية وتجلى ذلك في مظهرين أو مسارين: مسار يحقق الدعاة من خلاله للمسلمين التوجيه إلى حكم كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، والمسار الثاني كان يستهدف الوصول إلى أكبر عدد من الناس من غير المسلمين للدخول في الدعوة الجديدة[6].

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٢١.

(٢) حسني محمد غيطاس، الدعوة الإسلامية، ص ٥٣.

(٣) هي: مدينة مشهورة بالعراق، وعاصمة إسلامية، تاريخية، تقع على مقربة من ضفة الفرات، جنوب مدينة الحيرة، أسست في خلافة عمر رضي الله عنه سنة ١٧هـ ـ ٦٣٨م، نشأ بها من علماء الحديث: البخاري، والسجستاني، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، ومن علماء اللغة: الكسائي.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ٤، ص ٤٩٠ـ ٤٩٤.

(٤) ابن القيم، أعلام الموقعين، جـ ٢، ص ٢١٩.

(٥) أحمد عز الدين البيانوني، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص ٣٧، ط: الثانية، دار السلام للطباعة والنشر، بالقاهرة سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٦) آدم عبد الله الألوري: تاريخ الدعوة الإسلامية، ص ٦٧.

ومن هنا: كانت وظيفة الدعاة خطيرة وكبيرة، ومسؤوليتهم عظيمة، وتزداد جسامة وخطراً، حين يتصدون للدعوة والإرشاد إذ كان عليهم أن يتزنوا وبشكل متميز وأن يرتكزوا وبمنهج ثابت على جملة اعتبارات تعينهم على الوفاء بما كانوا يقومون به.

وفي مقدمة تلك المقومات الإيمان بالله تعالى.

فإذا كان الإيمان هو نبع الفطرة في صدقها وصفائها[1]، فعلى المؤمن أن يحفظ فطرته من كل مؤثر يدفعها بعيداً عن الحق، حتى يظل ملتزماً بأحكام دين الله تعالى الذي فطر الناس عليه.

وكان سبيلهم إلى ذلك: كثرة النظر في كتاب الله المنزل، وكثرة النظر في آيات الله الكونية، فهي صفحة مشرقة، تزيد الإيمان في قلب المؤمن. قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾[2].

فإذا صدق الإيمان في القلب، كان لذلك آثاره في عقيدة المؤمن وشعوره، وفي صلته بالله تعالى، وفي جهاده في الحياة، حتى لا يعبد إلا الله، ولا يخشى في الله لومة لائم، ولا يؤثر فيه باطل من قول أو عمل أو منح أو منع بل يكون شهيداً على الناس من حوله، وينصح مخطئهم، ويعطيهم من نفسه المثل والقدوة بأخلاقه وعمله مؤثراً فيهم بما في قلبه من النور واليقين.

والإيمان: التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها واستقرارها وآيته: العمل بما يقتضيه الإيمان عن عمل[3].

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾[4].

فالمؤمنون بالله تعالى يؤمنون بأنه واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، لا

---

(١) أحمد عز الدين البيانوني، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص ٣٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠١.

(٣) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، جـ ١، ص ١٢٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

رب سواه، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل، والكتب المنزلة من السماء وعباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض، ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون، بارون، راشدون، مصيبون، هادون إلى سبيل الخير[1].

وصاحب الإيمان الصادق: لا تزيده الأيام إلا يقيناً، فإن أصابه ضر شكر ربه، وأدى حق الله في نعمته، وإن أصابه شر حمد الله، ورضي بقضائه، ولا يضعف ثقته بالله شيء.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾[2].

وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ قال: «المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل»[3]،

ويقول ابن كثير: «أي: لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حالة واحدة، وهي: التصديق المحض، وبذلوا مهجهم، ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه»[4].

فعلى منهاج الحق يسير المؤمن، وإليه يدعو، وبه يحكم، وعلى أساسه يقيم العدالة، قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ﴾[5].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ ١، ص ٣٤٢.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

(٣) رواه أحمد في مسنده، جـ ٣، ص ٨، من طريق أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، بهذا اللفظ.
قال أحمد: منكر الحديث، وكذا قال النسائي، وزاد: ليس بالقوي. وقال أبو حاتم: في حديثه ضعف، وضعفه الدارقطني.
ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ ٣، ص ٢٠٨.
وقال ابن حجر: صدوق، وفي حديثه عن أبي الهيثم ضعف.
ابن حجر: تهذيب التهذيب، ص ٢٠١، رقم الترجمة ١٨٢٤.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ ٤، ص ٣١٩.

(٥) سورة الشورى، الآية: ١٥.

أي: فادع الناس كافة إلى إقامة الدين، لمقاومة الباطل ودحره، وهتك وساوسه، واستقم على الدعوة إليه، والصدع به[١]. فالله يأمر بالدعوة والثبات عليها، والدعوة إليها[٢].

وفي هذا المقام تجدر الإشارة إلى أنه لا بد في الداعية أن ينطوي قلبه على إيمان عميق بالإسلام، يتغلغل داخل نفس الداعية، ويجعله لا يعيش إلا للإسلام، إيماناً بأنه النظام الوحيد، القادر على الوفاء بمتطلبات البشرية في مختلف مناحي الحياة.

ولا بد أن يكون الإيمان نامياً، فلا يكفي أن يكون عميقاً فقط، بل لا بد أن يكون نامياً مطرداً، بحيث لا تخفف ألفة الإيمان من شدة التهابه، وأن يكون هذا الإيمان حافزاً لصاحبه على زيادة التعلق بالإسلام، والدعوة إليه، لذلك كان أحد السلف يقول لأخيه: «اجلس بنا نؤمن ساعة»[٣].

كذلك لا بد للداعية مع قوة الإيمان بالله تعالى إخلاص العمل له سبحانه، وحده ذلك أن كل عمل من الأعمال، مهما جد فيه الجاد، فلن ينظر الله تعالى إليه أو يبارك فيه، حتى يكون نابعاً من قلب مخلص له عز وجل، والإخلاص: التبري من دون الله[٤]. وإخلاص عقيدة المسلمين لله تعالى وحده: أنهم تبرؤوا مما يدعيه اليهود من التشبيه، والنصارى من التثليث[٥].. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾[٦].

---

(١) القاسمي، محاسن التأويل، جـ ١٤، ص ٥٢٣٣.

(٢) مصطفى المراغي، تفسير القرآن، جـ ٢٥، ص ٢٧ـ ٢٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، جـ ١، ص ٤٥. عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.
ورواه أحمد في مسنده، جـ ٣، ص ٢٦٥. عن أنس بن مالك، قال: كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحابه، يقول: «تعال نؤمن بربنا ساعة».

(٤) محمد الصباغ، من صفات الداعية، ص ١٣، ط: الثالثة، المكتب الإسلامي، بيروت، سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

(٥) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز، جـ ٢، ص ٥٦٠.

(٦) سورة البينة، الآية: ٥.

وقال تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾[2].

فيجب على الداعية: أن يكون مخلصاً لله ـ عز وجل ـ لا يريد رياء، ولا سمعة، ولا ثناء الناس، ولا حمدهم، إنما يدعو إلى الله، يريد وجهه عز وجل[3]. لا زعامة ولا شهرة ولا نجومية ولا جماعة تصفق وتهلل، إنما يستهدف بناء وتربية أمة على أمر الله.

فالإخلاص من أهم أسباب النجاح، وحقيقته أن يعمل الإنسان العمل، لا يريد به إلا وجه الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ولا ينتظر من أحد جزاء ولا شكوراً، هذا هو سر قول الأنبياء لأقوامهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾[4].

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ﴾[5]، ويقول سبحانه عن النبي الخاتم محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ﴾[6].

واللافت للنظر أن الله سبحانه وتعالى ينفي عن رسله أن يسألوا الناس شيئاً من دنياهم نظير ما يدعونهم إليه من الهداية والرشد وليت الدعاة على امتداد بلاد المسلمين يفقهون مثل هذه الإشارة البليغة التي تطهر الأنبياء والدعاة من بعدهم عن أن يكونوا مظنة حظوة أو جاه، أو سلطان أو أن يغنموا شيئاً من متاع الدنيا وزينتها نظير دعوتهم لله رب العالمين، أقول ينفي الله سبحانه عن الدعاة أن يكونوا مظنة شيء من هذا القبيل حين يوبخ أعداءهم، يقول سبحانه: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾[7]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ

---

(١) سورة الزمر، الآيتان: ٢، ٣.

(٢) سورة الزمر، الآية: ١١.

(٣) الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الدعوة إلى الله، وأخلاق الدعاة، ص ٤٦.

(٤) سورة هود، الآية: ٢٩.

(٥) سورة هود، الآية: ٥١.

(٦) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٧) سورة الطور، الآية: ٤٠.

رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾[١]. وتلك هي الحقيقة التي يجب أن يدركها ويفقهها المخلصون من الدعاة[٢].

وإذا كان الإيمان الصادق بالله تعالى، وإخلاص العمل له سبحانه من أوجب الواجبات على الدعاة فإن من نافلة القول أن نذكر بأن الدعوة إلى الإسلام دعوة إلى العمل به، ولا عمل إلا من بعد علم، فلا بد لصاحب الدعوة من العلم بما يدعو إليه، فالعلم ضروري، لأن الدعوة لا تستقيم إلا به.

فينبغي أن يكون الداعي على علم بالعقيدة التي يدعو إليها، والفرائض التي يأمر الناس بها، والمعاصي التي ينهى الناس عنها، ولا يتحقق له ذلك إلا بدراسة القرآن الكريم، وتفسيره، والحديث الشريف، وشرحه، والفقه الذي يهديه إلى معرفة أحكام الحلال والحرام، إضافة إلى معرفته بعوامل الزمان والمكان والناس والأدوات والوسائل التي تعين على توصيل الدعوة[٣]. وذلك لأن الإسلام رفع منزلة العلم، وحض على طلبه، وأوجبه في الواجبات، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٥].

وفي الحديث الشريف: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[٦].

فالداعي من شأنه أن يعرف أصول الدعوة وقواعدها وأساليبها ومعالمها، ويعرف أن الإسلام رسالة عامة تامة كاملة شاملة مستمرة صالحة لكل زمان ومكان، وللناس جميعاً، ويعرف أن الإسلام كل لا يتجزأ، عقيدة وشريعة

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧٢.

(٢) د. محمد السيد الوكيل، أسس الدعوة، ص ١٠٨ـ ١٠٩.

(٣) محمد إبراهيم شقرة، ركائز الدعوة في القرآن، ص ١١ـ ١٢. ط: الأولى، المكتبة الإسلامية، بعمان، الأردن، سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٥) سورة النحل، الآية: ٤٣.

(٦) رواه ابن ماجة في سننه، المقدمة، باب طلب العلم والانتفاع به، جـ ١، ص ٤٨، حديث رقم ٢٣٧.
ورواه الطبراني في المعجم الصغير، جـ ١، ص ٢٩.

ومعاملة وأخلاق.

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾[1]. فقدم العلم على العمل.

ولأهمية المعرفة بالنسبة للدعوة والدعاة جعلها شيخ الإسلام ابن تيمية من الشروط التي ينبغي توافرها في الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، إذ يقول: ولا يكون عمله صالحاً، إن لم يكن بعلم وفقه، كما قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من عبد الله بغير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح، كما في حديث معاذ رضي الله عنه: «العلم إمام العمل، والعمل تابعه»[2].

وهذا ظاهر، فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما، ولا بد من العلم بحال المأمور، وحال المنهي»[3].

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[6].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ

(١) سورة محمد، الآية: ١٩.
(٢) رواه ابن عبد البر، في: «جامع بيان العلم وفضله»، باب جامع في فضل العلم، جـ ١، ص ٦٥.
ورواه المنذري، في «الترغيب والترهيب» كتاب العلم، باب الترغيب في العلم وطلبه، جـ ١، ص ٥٣ـ ٥٤.
(٣) ابن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص ٣٩، تحقيق د. محمد السيد الجليند، ط: دار المجتمع للنشر والتوزيع بجدة والخبر، سنة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.
(٦) سورة النساء، الآية: ١١٣.

زِدْنِي عِلْمًا﴾[1].

فالإسلام يعتمد البصيرة والعلم سبيلاً للدعوة إلى الله، والقرآن الكريم يدعو إلى العلم، ويحث المسلمين في شخص رسولهم الكريم على طلب الزيادة منه، والتبحر فيه، وينهاهم صراحة عن تتبع ما ليس لهم به علم، ولا معرفة[2].

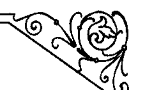
ومن هنا: كانت البصيرة التي يعتمد عليها الدعاة واجبة لنجاح دعوتهم إلى الله تعالى والعلم هو الوسيلة المحصلة لتلك البصيرة[3].

---

(1) سورة طه، الآية: ١١٤.

(2) د. محمد الوكيل، أسس الدعوة وأدب الدعاة، ص ٦٢.

(3) المرجع السابق، نفس الموضع.



الفصل الثالث

- المسرح السياسي وقيام الدولة في عهد الرسول ﷺ
- موقف اليهود من قيام دولة الإسلام
- العقبات التي وضعها اليهود أمام الدولة
- القرآن ودفائن النفس اليهودية
- العنصرية اليهودية ودعوى التميز
- مواجهة اليهود للدولة
- بنو قينقاع والخيانة الوطنية
- غدر بني النضير وخيانتهم الوطنية
- خيانة بني قريظة ونقض عهود السلم

المسرح السياسي وقيام الدولة في عهد الرسول ﷺ

(أ) القبائل اليهودية في المدينة:

بدراسة اليهود ديناً وتاريخاً عصر قيام دولة النبي ﷺ نجد أن القبائل اليهودية التي كانت عصر النبي قد جاء ذكرها في القرآن الكريم، في مواضع من سورة البقرة[١]. ومن سورة المائدة[٢]، ومن سورة التوبة[٣]، وكلها سور مدنية، ولم ترد في سورة من السور المكية.

كما ورد لفظة (يهودياً) بغير لام التعريف في سورة آل عمران، وردت في شرح ديانة (إبراهيم عليه السلام): ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾[٤]. وهي من السور المدنية كذلك.

وعبر القرآن الكريم عن اليهود وعن معتنقي اليهودية بـ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾[٥]، وبـ ﴿مَن كَانَ هُودًا﴾[٦]، و ﴿كُونُوا هُودًا﴾[٧]، و ﴿كَانُوا هُودًا﴾[٨]، وسورتا الأنعام والنحل من السور المكية. وبناء على ذلك تكون جملة «الذين هادوا» قد نزلت

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١١٣، ١٢٠.

(٢) سورة المائدة، الآيات: ١٨، ٥١، ٦٤، ٨٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٦٢، النساء، الآيات: ٤٦، ١٦٠، المائدة، الآيات: ٤١، ٤٤، ٦٩.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٣٥.

(٨) سورة البقرة، الآية: ١٤٠

قبل نزول لفظة (اليهود) في القرآن الكريم.

وقد أخذ «أهل الأخبار مما رووه» عن دخول اليهود إلى يثرب في أيام موسى، وما ذكروه عن إرساله جيشاً إلى هذه المنطقة، ثم ما رووه عن سكنهم القديم في أطراف المدينة وفي أعالي الحجاز، من سفر (صموئيل الأول) من التوراة.

ومن استقر في المدينة: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، وبنو بهدل، وبنو عوف، وبنو القصيص، وبنو ماسلة، سكن هؤلاء المدينة وأطرافها، وكان يسكن معهم من غير بني إسرائيل بطون من العرب.

وظل نفوذ اليهود على يثرب حتى جاء الأوس والخزرج، فاستغلوا الخلافات التي كانت قد وقعت بين اليهود، فتغلبوا عليهم، وسيطروا على المدينة، وقسموها فيما بينهم[١].

وتركزت قوة اليهود في المدينة في ثلاث قبائل كبيرة، هي بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة.

وبنو قينقاع كانوا دون سائر يهود يثرب أصحاب الصناعة والصياغة[٢]. وقد كان الرسول ﷺ ينظر إلى يهود بني قينقاع على أنهم أصحاب الكلمة والمعرفة بين يهود المدينة، فزارهم في سوقهم. وقال لهم: «يا معشر اليهود، احذروا من الله عز وجل، فإنكم عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم»[٣]. وكانت العلاقة بين هذه القبائل الثلاث مضطربة متوترة، وقد يكون بعضهم حرباً على بعض. يقول دكتور إسرائيل ولفنسون:

«قد كانت هناك عداوة بين بني قينقاع وبقية اليهود، سببها أن بني قينقاع قد اشتركوا مع الخزرج في يوم بعاث، وقد أثخن بنو النضير بنو قريظة في بني قينقاع ومزقوهم كل ممزق، مع أنهم دفعوا الفدية عن من وقع في أيديهم من اليهود، وقد استمرت هذه العداوة بين البطون اليهودية بعد يوم بعاث حتى وقعت الحرب

---

(١) راجع المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، جـ ٦، ص ٥١١ـ ٥١٩، ط أولى، ١٩٧٠.

(٢) تاريخ الطبري جـ ٢، ص ٤٨١.

(٣) مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ لعبد الله بن إدريس، ص ٣٨ ط ١٩٨٢م.

بين الأنصار وبين بني قينقاع، لم ينهض معهم أحد من اليهود في محاربة الأنصار»[1].

وقد أشار القرآن إلى عداوة اليهود فيما بينهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾[2].

والقرآن يسجل الحياة الاجتماعية بين بطون وأفخاذ اليهود التي كانت تتحرك في وسط المجتمع المدني وتختلط بالبيئة وترتبط بالقبائل العربية بارتباطات سياسية واجتماعية، ووضح ابن عباس رضي الله عنه أبعاد هذه الآية، فقال: «أنبهم الله من فعلهم، وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا فريقين: طائفة منهم من بني قينقاع حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى يتسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون منها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل الشرك يعبدون الأوثان لا يعرفون جنة ولا ناراً، ولا بعثاً، ولا قيامة، ولا كتاباً، ولا حراماً، ولا حلالاً، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، وتفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم ويطلبون ما أصابوا من الدماء، وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم»[3].

وكانت علاقة اليهود هذه مع الأوس والخزرج خاضعة للمنفعة الشخصية

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، للدكتور إسرائيل ولفنسون ص ١٢٩، ط الاعتماد بالقاهرة، ١٩٢٧، نقلاً عن السيرة النبوية للندوي ص ١٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٨٤، ٨٥.

(٣) تفسير الطبري، جـ ١، ص ٣٩٧.

والمكاسب المادية، دون ضابط أو نظام فهم يعملون على إثارة الحرب بين الفريقين، متى وجدوا في إثارتها فائدة لهم ليقترض الأوس من طائفة من ود، ويقترض الخزرج من طائفة أخرى.

وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على المراهنات وتعاطي الربا، لذا سيطر اليهود على الجوانب الاقتصادية في المدينة، وأثقلوا الأوس والخزرج بالديون والالتزامات، علاوة على ما تعرضوا له من إرهاق ومشقة[1].

(١) انظر: التاريخ اليهودي العام لصابر طعيمة، جـ ٢، ص ١٧ ط الأولى ١٩٧٥م، دار الجيل، بيروت.

موقف دولة اليهود من قيام دولة الإسلام

قبل بعثة الرسول ﷺ كان أحبار اليهود قد تحدثوا عن نبي يبعث في جزيرة العرب، ووردت صفاته في كتبهم وتنبؤاتهم، قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إن مما دعانا إلى السلام مع رحمة الله تعالى وهداه لنا لما كنا نسمع من رجال يهود، وكنا مع الشرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، كانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به، وكفروا به[1]، وفيهم نزلت الآيات: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[2]. قال محمد بن إسحاق: عن ابن عباس، أن يهوداً كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج رسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب، كفروا به وجحدوا فكانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور، محمد بن سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ، ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه، فقال سلام بن مشكم (أخو بن النضير): ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله في ذلك في قولهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الآية، وقال العوفي: عن ابن عباس «وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا»، ويقول: يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركي العرب، يعني

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ص ٢٢٥ ط الحلبي، ١٩٣٦م.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ص ٢٢٥ ط الحلبي، ١٩٣٦م.

بذلك أهل الكتاب، فلما بعث محمد ﷺ ورأوه من غيرهم، كفروا به وحسدوه. . .

وقال مجاهد: «فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين» قال: هم اليهود(١).

لقد كان اليهود هم أول من اصطدم بالدعوة في المدينة وكان لهذا الاصطدام أسبابه الكثيرة:

- كانوا يزعمون أنهم شعب الله المختار، فكانوا يتطلعون أن يكون الرسول الأخير فيهم، فلما جاء من العرب أخذتهم العزة بالإثم.

- شعر اليهود بالخطر من عزلهم عن السيطرة على المجتمع المدني الذي كانوا يزاولون فيه التجارة الرابحة.

- بدأ القرآن يتعرض لليهود في عقائدهم وحياتهم وأخلاقهم، مما أثار اليهود على الإسلام والمسلمين، فغيروا موقفهم منهم، وناصبوا الإسلام العداء الخفي والسافر.

وقد حلّل الكاتب اليهودي «إسرائيل ولفنسون» أسباب هذا النزاع، فقال: «ولو وقفت تعاليم الرسول عند حد محاربته للديانة الوثنية فحسب، ولم يكلف اليهود أن يعترفوا برسالته، لما وقع نزاع بين اليهود والمسلمين، ولكان اليهود قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول، ولأيدوه وساعدوه بأموالهم وأنفسهم حتى يحطموا الأصنام ويقضوا على العقائد الوثنية، لكن بشرط ألا يتعرض لهم ولا لدينهم، وبشرط ألا يكلفهم الاعتراف بالرسالة الجيدة، لأن العقلية اليهودية لا تلين أمام شيء يزحزحها عن دينها، وتأبى أن تعترف بأن يوجد نبي من غير بني إسرائيل»(٢).

هذا وقد زاد اليهود غيظاً وحقداً على الإسلام دخول بعض أحبار اليهود وعلمائهم في الإسلام كعبد الله بن سلام، فأثار ذلك الحقد الدفين فيهم، لإدراكهم أن دخول أولئك الأحبار الإسلام آية ساطعة وبرهان قاطع على صدق

---

(١) تفسير ابن كثير، ١ ص ١٨٧.

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ولفنسون ص ١٢٣ نقلاً عن السيرة النبوية للندوي.

الدعوة، وأن ما عليه اليهود باطل من العقيدة، وزيف من القول.

ولم يقتصر اليهود على مخالفة الإسلام والابتعاد عنه، بل تعدوا إلى تفضيل عبادة الأوثان والمشركين، فقد روي أن قريشاً قالت لعلماء اليهود الذين زاروهم في مكة: «يا معشر اليهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه»[1].

وإلى هذا يشير القرآن بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾[2].

ولقد كان المنتظر أن يكون اليهود في المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة ويؤمن بالرسول الجديد منذ كان القرآن يصدق ما جاء في التوراة في عمومه ومنذ كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول وعندهم أوصافه في البشارات التي يتضمنها كتابهم، وهم كانوا يستفتحون به على العرب المشركين، والقرآن يزيد وضوحاً من موقف اليهود من الرسول ﷺ ودعوته:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[3].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾[4].

---

(١) الروض الآنف للسهلي، ج ٣، ص ٢٥٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥١.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٤) سورة النساء، الآيات: ٤٤ ـ ٤٦.

جدال اليهود مع النبي ﷺ لإثارة البلبلة في المجتمع الإسلامي:

لم تذكر كتب السير شيئاً عن الاحتكاك الذي وقع بين النبي ﷺ، وبين اليهود وهو بمكة المكرمة، حتى هاجر إلى المدينة المنورة، فالتقى بهم، إذ كانوا مختلطين بالقبائل العربية ومتصلين بالمسلمين بروابط عديدة، ومن البداهة أن يدعوهم النبي ﷺ إلى الإسلام لعموم رسالته، لأنه أرسل رحمة للعالمين، وكانت هذه الدعوة هي المحرك لغرورهم الذي دفعهم إلى الإنكار والمكابرة، وأخذتهم العزة بالإثم، فاندفعوا لمجادلة النبي ﷺ وسائر المسلمين، ثم أخذت من جانبهم سباً واستهزاء وخيانة، حتى اضطر النبي ﷺ إلى إجلاء بعضهم.

وقد أمر الله نبيه أن يجادلهم برفق، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[2].

وقد كان النبي ﷺ ينكر عليهم في جدلهم معه تحريفهم التوراة واختلافهم فيها، ويكفي ذلك دليلاً على الشك في حقيقة ما بأيديهم، فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾[3].

كما أنكر عليهم أنهم كانوا لا يتلقون تعاليم دينهم من كتبهم ولكن من أحبارهم، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4].

واستنكر عليهم النبي ﷺ شدة تعصبهم لدينهم، إلى درجة أنهم كانوا يتواصون بعدم الإيمان لأحد من غير جنسهم ولو غزت الحقيقة نفوسهم، وقد سجل القرآن هذه الحقيقة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٧٩.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٣١.

﴿ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾[1].

وقد كانت المناقشة تدفعهم إلى كثير من المهاترات، فكان النبي ﷺ يأخذها عليهم، من مثل ادعائهم أن جبريل عدوهم، وقد رد القرآن على هذا القول رداً صريحاً قوياً، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾[2].

واتخذ اليهود هذه المجادلات وسيلة لإثارة الفتنة والبلبلة في هذا المجتمع المتطور، واحتجوا على النبي ﷺ بوجود النسخ في القرآن وأنكروا نسخ المعجزات والآيات، فرد الله عليهم: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾[3].

وهكذا أوجد اليهود جواً من المناقشات والمهاترات التي لم يكن الهدف من ورائها الوصول إلى الحق، بل كانت صادرة عن سوء نية، ولذلك اتخذت طابع التحدي والعداوة[4].

وسوف نعرض لشيء من ذلك تبياناً لما استقرت عليه الشخصية اليهودية عبر الأزمان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها من غرام بالإفساد في الأرض، ودحض الحق بالباطل، وجحد لكل ما يدين إرجافهم وإفسادهم وما يكشف زيفهم، أملاً منا أن يستبصر أبناء الإسلام أنهم اليوم أمام يهود الأمس في ثوب عصري، وأن عليهم أن يستلهموا هدى رسول الله ﷺ في التعامل معهم في السلم والحرب، في القرب والبعد.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٧٣، ٧٤.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

(٤) راجع تاريخ الجدل للإمام محمد أبو زهرة ص ٤٨- ٥١ ط الثانية ١٩٨٠م.

العقبات التي وضعها اليهود أمام الدولة

(١) جدالهم في شأن نبوته ﷺ بقصد الطعن فيها:

حاول اليهود الطعن في نبوة الرسول ﷺ كيما ينصرف عنها الناس، فلا يؤمنوا بدعوته، واتخذوا لذلك وسائل متعددة:

راحوا يصرحون بأنه ﷺ ليس هو النبي المنتظر بعد أن عرفوا صدقه، كما يعرفون أبناءهم، وقد سجل القرآن الكريم هذا عليهم، ليبقى الآية الهادية للأمة الإسلامية، والكاشفة لهم حقيقة عبدة العجل من أبناء يهود: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[١].

ظهروا أمام الناس ـ تضليلاً وتعتيماً ـ بمظهر المحافظة على عهود الله، وأنهم ما تركوا الإيمان بمحمد ﷺ صداً له، وإنكاراً لحقه، بل تركوا الإيمان به، لأنه لم يأت بالمعجزات التي أتى بها الأنبياء السابقون، وهم لا يؤمنون إلا لمن أتى بالمعجزات، فهم في حل من الإيمان به، وفقاً لما عهد إليهم. وقد سجل القرآن عليهم هذا التضليل وكشف زيفهم ومحق زخرفهم وباطلهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾[٢].

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم من واقع تاريخهم المظلم، فقال: قل لهم يا محمد: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالحجج والبراهين، وبالذي قلتم أي بنار تأكل القرابين المتقبلة ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل؟!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٣.

وبذلك تكون الآية قد أبطلت دعواهم، وردت عليهم بما يثبت كذبهم، وطالبوا الرسول ﷺ بالمطالب المتعنتة، على سبيل التحدي والتعجيز، وإظهاره بمظهر العاجز عن إجابة أسئلتهم، لكي ينصرف الناس عنه ويعتقدوا عدم صدقه.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حريملة اليهودي لرسول الله ﷺ يا محمد، إن كنت رسول من الله كما تقول، فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾[1].

فأجابهم الله عن هذه الشبهة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، وحاصل هذا الجواب أنا قد أيدنا قول محمد ﷺ بالمعجزات، وبينا صحة قوله بالقرآن وسائر الحجج.

وقد ذكر القرآن أن هذه من عادات اليهود القديمة، بدليل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾[2].

ومن الوسائل التي اتبعها اليهود في الطعن في نبوة محمد ﷺ محاولتهم إنكار أن يكون القرآن منزلاً من عند الله تعالى على محمد ﷺ.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال ابن صوريا القطيوني لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك، فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾[3].

وغرضهم من هذه المقالة الطعن في كون القرآن الكريم معجزة لرسول الله ﷺ، فالآية الكريمة ترد على اليهود الذين حاولوا الطعن في صدق

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

(٣) تفسير ابن كثير م ١ ص ٢٠٠ وذكر السهلي: الغطيوني بدلاً من القطيوني، وهي كلمة عبرانية تطلق على كل من تولى أمر اليهود وملكهم.

النبي ﷺ عن طريق إنكارهم أن يكون القرآن معجزة[1].

(٢) جدالهم حول تحويل القبلة:

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾[2].

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجهه الله إلى الكعبة، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية وقال السفهاء من الناس وهم اليهود: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ رواه البخاري عن عبد الله بن رجاء[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾: قال ابن عباس في رواية الكلبي: كان رجال من أصحاب رسول الله ﷺ قد ماتوا على القبلة الأولى، منهم: أسعد بن زرارة، وأبو أمامة أحد بني النجار، والبراء بن المعرور أحد بني سلمة، وأناس آخرون جاءت عشائرهم، فقالوا: يا رسول الله، توفي إخواننا وهم يصلون إلى القبلة الأولى، وقد صرفك الله تعالى إلى قبلة إبراهيم، فكيف بإخواننا؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾[4].

والآيات والروايات تصور البيئة المدنية، وتسجل حقيقة الجدال، فبدأ القرآن يرد عليهم وعلى أسئلتهم وعلى أقاويلهم، ويصحح التصور العام للأمور، كما كانت حادثة القبلة مناسبة كريمة لتقديم مفاهيم جديدة لمعاني القبلة: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فالجهات والأماكن لا فضل لها

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة د. محمد سيد طنطاوي الجزء الأول ط ١ـ ١٩٦٨م، ص ١٩٣ : ١٩٨.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٤٢، ١٤٣.

(٣) صحيح البخاري: جـ ١، ص ٨٨.

(٤) أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٣٩.

لذاتها، وإنما يفضلها ويخصصها اختيار الله وتوجيهه، لذلك يقرر حقيقة التصور للأماكن والجهات، وحقيقة المصدر الذي يتلقى منه البشر التوجيهات.

ويكشف لهم عن حكمة اختيار القبلة التي كانوا عليها: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

والآيات تصور تحركات اليهود في جنبات المجتمع، وإثارة الشكوك في صفوف المسلمين وقلوبهم، عندما قالوا لهم: إن كان التوجه إلى بيت المقدس فيما مضى باطلاً فقد ضاعت صلواتكم طول هذه الفترة، وإن كانت حقاً فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل، وصلاتكم إليه كلها ضائعة، فأنزل الله تعالى رداً عليهم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ﴾.

وتتبين لنا خلال قصة تحويل القبلة مدى ما أحدثته هذه القضية والحملة في نفوس بعض المسلمين، وفي المجتمع الجديد من بلبلة في أذهان الناس حتى صارت القضية حديث المجالس، والقرآن يتابع القضية أولاً بأول، ويوجه هذا المجتمع ويرشده فيقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ﴾.

وبدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم، فصدر الأمر الإلٰهي الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام[2]: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾[3].

قال ابن عباس: كان أول ما نسخ القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، فأمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله، وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، فارتابت من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) الظلال: م ١، ص ١٢٦ بتصرف.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾(١).

وقد تكررت آيات القبلة، وتكرر فيها الأمر للمؤمنين بالتوجه إلى المسجد الحرام في صلاتهم، وهذا التكرار لتأكيد أمر القبلة وتشديده، لأن تحول القبلة كان أول نسخ في الإسلام، كما قال كثير من العلماء، فاقتضى الأمر تأكيده حتى يرسخ في نفوس المسلمين، ويستقر في مشاعرهم، ويتبدد ما أثير حولها من شبهات وشكوك(٢).

جدالهم حول أفضلية البيت الحرام:

حرص اليهود على أن يشيعوا «أن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال، لأنه وضع قبلها، وهو أرض المحشر، وأرض جميع الأنبياء من ذرية إسحاق، وكانوا يعظمونه ويصلون إليه، وقد وعد الله تعالى «إبراهيم» أن تكون البركة في نسل ولده «إسحاق»، فلو كنت على ما كانوا عليه لعظمت ما عظموا، ولبقيت على استقبالهم أبداً دون أن تتحول إلى المسجد الحرام فإن تحولك إليه مخالفة لقبلة الأنبياء من قبلك»(٣).

وقد جاء رد الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌۢ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾(٤).

وبذلك كذب اليهود في دعواهم أن المسجد الأقصى أفضل من المسجد الحرام، وبين فضائل البيت الحرام، وأن في تحول الرسول ﷺ للكعبة لم يكن مخالفة للأنبياء قبله، وإنما هو تكريس لعظمة البيت الحرام وأهميته، وبيان لزيف الادعاء وبطلان حججهم المغرضة التي تهدف إلى البلبلة، وإثارة النفوس، وتقويض دعائم الدعوة الجديدة، وبث العقبات أمامها، وإشغالها بقضايا جانبية تستنفذ جُلَّ طاقتها، وتصرفها عن مهامها الأساسية ممثلة في التأسيس لمجتمع

---

(١) تفسير ابن كثير م ١ ص ٢٨٧، باختصار.
(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة للدكتور الطنطاوي جـ ١، ص ٢٤٥.
(٣) بنو إسرائيل في القرآن والسنة للدكتور الطنطاوي جـ ١، ص ٢٤٥.
(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ٩٦، ٩٧.

مثالي نقي، ومحاولة لتأكيد فريتهم أنهم الأئمة والناس لهم تبع في كل شؤون الحياة ومنها التوجه في العبادة التي هي جوهر الحياة لدى كل ذي دين يستمسك به.

وما كان لرسول الله ﷺ أن يدعه ربه على حال يبدو ظاهرها أن فيه تبعية لتوجهات يهود، وهو الذي جعل منه إمام الأنبياء في المسجد الأقصى ليلة الإسراء، فكان في هذه الإمامة وفي التوجه إلى بيت المقدس أولًا إشارة إلى أنه لم يأت بما يناقض بما جاءت به الرسل من قبل، وأنه أحق ببيت المقدس منهم، وأنه لما تفرد بالسيادة والإمامة والختم كان أحق بأن يكون أول بيت وضع للناس هو توجهه، فجمع الله ـ عز وعلا ـ بين التوجهين، تأكيداً، وتكريماً.

جدالهم هم والنصارى في شأن إبراهيم عليه السلام وملته:

كانوا في مجادلاتهم يدعون أن «إبراهيم عليه السلام» كان على ديانتهم، لأنه كان موضع إجلال الفريقين لما في كتبهم في الثناء عليه في العهد العتيق والعهد الجيد، كما كانت قريش تجله وتدعي أنها على دينه، ولذلك كانت هي القضية موضع اهتمام القرآن الكريم في آيات عديدة، ففي سورة «النحل» المكية يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[1].

فلما هاجر النبي إلى المدينة نزلت آيات تتحدث عن هذه القضية، وتعالجها بصورة منطقية وبحجج وبراهين علمية:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾[2].

وبهذا الأسلوب المحكم تولى القرآن مجادلة أهل الكتاب على مسمع من المجتمع الذي يتابع هذه الأحداث لحظة بلحظة، فما أنزلت التوراة على موسى ولا الإنجيل على عيسى إلا من بعد إبراهيم بأحقاب طوال، وقد قالوا: إن بين

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ٦٥ ـ ٦٨.

إبراهيم وموسى سبعمائة سنة، وبين موسى وعيسى حوالي ألف سنة، وبين عيسى ومحمد ﷺ حوالي ستمائة سنة. أفلا تعقلون أن المتقدم على الشيء لا يكون تابعاً له، كما أن هذه الأخبار لا يمكن تلقيها إلا بوحي من الله[1]،[2].

عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية أي كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾[3].

والآيات والروايات تصور مظاهر الجدل ومنطق القرآن للرد عليهم، كما تصور وقع هذا الجدال في نفوس السامعين والمتتبعين لهذه الأحداث، فالقرآن ينكر على من يجادل فيما لا علم له به، وهي مجادلة اليهود في كون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً، مع أنه لا ذكر لدين إبراهيم في أحد الكتابين، وهذا الأسلوب الحكيم أثبت للناس أن هذا الجدل لذات الجدل فقط لا لمعرفة الحقائق.

وإن على المجتمع الإسلامي المعاصر أن يستقي في صراعه الحاضر مع الباطل اليهودي من معين الهدى القرآني، ليكشف عن نهج الفكر اليهودي في التزييف والتزوير التاريخي للواقعات، فما الصراع الإسلامي مع محرفي التوراة إلا ثمرة لما غرسته العصابة اليهودية التحريفية من إفك في تربة الوعي التاريخي للحياة، وما يزال إفكهم يورق ويثمر حنظلاً يتجرع المسلمون عصارته، وما يزال المسلمون عاجزين عن استئصال هذا الإفك، لتغافلهم عما أقام الإسلام: قرآناً

---

(١) تفسير المراغي جـ ٣، ص ١٨١، ١٨٠ بتصرف.

(٢) في كتابنا: «التاريخ اليهودي العام» الصادر عن دار الجيل، بيروت، وفي الطبعة الثالثة، حققنا للفترات التي كانت بين هؤلاء الأنبياء العظام أزماناً وتواريخ غير تلك الحقب التي أشار إليها المراغي رحمه الله.

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١، ص ٣٧٣.

وسنة هادية إلى التي هي أهدى وأقوم في مجادلة ومجالدة عبدة العجل، على الرغم من أنهم يقيمون صروح إفكهم على كثبان رملية يسير تبديدها بأعاصير الحق الذي كاد يتغافل عنه كثير من أهله وذويه.

جدالهم حول ما حُرِّم عليهم من الأطعمة:

ومن المسائل التي أثار اليهود حولها الجدل بعض الآيات التي كانت تخصهم، وتتحدث عن تاريخهم وصفاتهم، فعندما نزل قوله تعالى: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾[1].

اندفع اليهود وانطلقوا للنبي ﷺ يناقشونه ويجادلونه، وقالوا: (لسنا بأول من حرمت عليه، ولا هو تحريم قديم: كانت محرمة على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بني إسرائيل، وهلم جرًّا إلى أن انتهى التحريم إلينا، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا)[2].

وآية ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ تشير إلى أشياء كثيرة، من أهمها زعم اليهود أن النسخ محال، فدحض القرآن دعواهم عن طريق كتابهم، فقد أخبر سبحانه أن جميع الأطعمة السابقة على نزول التوراة كانت حلالاً لبني إسرائيل سوى ما حرمه «إسرائيل» على نفسه، واستمر الأمر على ذلك حتى نزلت التوراة، فحرم الله عليهم فيها بعض الطيبات بسبب ظلمهم ونعيهم وتحريم التوراة لبعض المطاعم التي كانت حلالاً لهم قبل نزولها هو النسخ بعينه[3].

ومنها أنها تتضمن تكذيبهم أن ما حرم عليهم لم يكن سبب تحريمه ظلمهم أو بغيهم، وإنما كان محرماً على غيرهم ممن سبقهم من الأمم، وقد سبق صاحب «الكشاف» رحمه الله وقام بالرد على هذا القول بتفصيل.

ومنها أيضاً أن الآية تشير إلى عدم صدقهم، فما كانوا يحضرون كتابهم، وما كانوا يجرؤون على إخراج التوراة، وبعد نزول هذه الآية انقلبوا صاغرين

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٩٣، ٩٤.
(٢) الكشاف للزمخشري جـ ١، ص ٤٤٥ ط دار المعرفة.
(٣) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، جـ ١، ص ٢٤٦.

مخذولين، ولكنهم لا يصدعون للحق كما ينبغي، فما هم بالذين يخضعون لسلطان الحق، بل هم الخاضعون أبداً لسطوة السيف حين يكون في يد قاهر، فتلك هي السجية التي جبلت عليها يهود، وما كان للمسلمين في هذا العصر إلا أن يدركوا أن حقهم المنهوب لن يعود إلا على شفرات سيوف باترة، لا على مناضد مجادلة لن يوضع عليها إلا مهاترة صهيونية يجيدها عبدة العجل منذ أكثر من ثلاثين قرناً.

توجيه أسئلة محرجة في تصورهم إلى النبي ﷺ:

كان اليهود يترددون على مجلس الرسول ﷺ، ويوجهون إليه أسئلة صاغها التعنت وقذف بها على ألسنتهم قصد الإحراج وإظهار عجزه عن الإجابة عنها. وما كان لهم أن يفعلوا ـ لو كانوا يعقلون ـ من بعد أن تكاثرت البراهين والدلائل والآيات الباهرات القاهرات على أنه ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾[1].

سألوه عن الروح، فسجل القرآن الكريم سؤالهم والجواب المخرس الدامغ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾[2].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث في المدينة، وهو متوكىء على عسيب، فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، قال: فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾.

وهذا الحديث يشير إلى أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سأل اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة مكية إلا آيات لم تعد هذه الآية منها.

وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة المنورة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو نزل عليه الوحي بأن يجيبهم عما سألوه بالآية

---

(١) سورة النجم، الآيات: ٣ ـ ٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

المتقدم إنزالها عليه، ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام (أحمد): حدثنا قتيبة، حدثنا يحيى بن زكريا، عن داود، عن عكرمة، عن ابن العباس، قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الآية.

ولذلك حمل العلماء تعدد الروايات على تعدد نزول الآية، فقالوا نزلت مرتين: مرة في مكة ومرة في المدينة[١].

وسألوه عن الساعة:

وسجل القرآن ذلك، وأجاب عن سؤالهم بما يكف كل لسان عنه، وبما يعلن في قوة قاهرة أنه لا يملك من علمها شيئاً، لاستئثار الله بذلك، وما كان له ﷺ أن يفتري. يقول الحق عز وعلا:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾[٢]

قيل: نزلت في قريش، وقيل في نفر من اليهود:

والحق أن اليهود بتساؤلهم عن مثل هذه الأشياء التي لا يضير جهل الإنسان بها إنما يقصدون منه التشكيك في صدق نبوة المصطفى ﷺ، وليثيروا البلبلة في هذا المجتمع الذي يتابع قصة الوحي لحظة بلحظة، ويتلقى كل يوم أنباء جديدة وقيماً ومثلاً فريدة من نوعها.

عن ابن عباس، قال: قال حمل بن أبي قشير، وسموأل بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً، كما تقول، فإنا نعلم متى هي؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

هكذا يفعلون على مسمع من الناس إشعالاً لنار الفتنة وإشاعة البلبلة في

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٣، ص ٩٩، ١٠٠.
(٢) سورة الأعراف: ١٨٧.
(٣) تفسير الطبري جـ ٩، ص ١٣٧.

المجتمع المسلم، وقد ذكر القرآن جانباً من مواقفهم العدائية في أكثر من سورة:

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾(١).

إن اليهود بدؤوا يتعنتون فيطلبون إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم بكتاب مخطوط ينزله عليهم من السماء مجسماً يلمسونه بأيديهم. ويتولى الله سبحانه الإجابة عن نبيه، ويقص عليه وعلى المسلمين في مواجهة اليهود صفحة من تاريخهم مع نبيهم موسى عليه السلام أن هذه طبيعتهم وتلك جبلتهم أنهم هم من عهد موسى تعنتاً وإعناتاً، فلا يسلمون إلا تحت القهر والضغط، فقد سألوا موسى ما هو أكبر من ذلك، فقالوا: أرنا الله جهرة، وكان جزاء هذا التعنت وثمرته: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾.

قال محمد بن كعب القرطبي والسدي وقتادة: سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة، قال ابن جريح: سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان بتصديقه فما جاءهم به، فهذا إنما قالوه عن سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد(٢).

قال صاحب الكشاف: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ الشرط مقدر معناه: إن استكثرت ما سألوك عنه فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، وإنما أسند السؤال إليهم وإن وجد من آبائهم في أيام موسى، لأنهم كانوا على طريقهم وراضين بسؤالهم ومضاهين لهم في التعنت(٣).

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

(٢) تفسير ابن كثير م ١، ص ٨٧١.

(٣) تفسير الكشاف، جـ ١، ص ٣٩٤.

القرآن ودفائن النفس اليهودية

من نافلة القول أن نؤكد على أن اليهود عصر ظهور الإسلام كانوا يشكلون في المجتمع المدني ثقلاً حين كانت لهم علاقات وارتباطات بين الفئات المختلفة، بينهم وبين المنافقين من جهة، وبينهم وبين المشركين من جهة أخرى، ولذلك تحدث القرآن في سور متعددة عن هذه العلاقات.

وعُرف اليهود بالخداع والمكر، فكانوا في كثير من الأحيان يتظاهرون بالمودة لجيرانهم المسلمين ذاكرين صلة القربى، وأن العرب واليهود من نسل إبراهيمعليه السلام، فينخدع بحيلهم ومكرهم كثير من المسلمين، فيواصلونهم لما كان بينهم من الجوار والموادعة(١).

فأنزل الله تعالى آياته ينهى بها المسلمين عن مباطنة اليهود والاطمئنان إليهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾(٢).

ولم يَتوانَ اليهود عن السعي في دين الله معاجزين لكي يفتنوا الناس في دينهم ويوهنوا عقائدهم بالشبه الزائفة والأباطيل المختلفة وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾(٣).

وكعادة اليهود في المدينة كانوا يطلقون كل سهامهم المسمومة على الإسلام والمسلمين، ويدسون الشكوك والريب ليضعفوا الإيمان في نفوس المسلمين وليزعزعوا ثقتهم في الإسلام والمسلمين، ويدسون الشكوك والريب ليضعفوا الإيمان في نفوس المسلمين وليزعزعوا ثقتهم في الإسلام.

---

(١) خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية، لعبد الله التل ص ٤٢ ط الثالثة.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

واتخذوا لذلك أساليب ماكرة منها: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾[1].

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾[2].

تلك لمحة سريعة عن دور اليهود في الإثارة وبث الفتن وتسميم الأفكار وقد ندد القرآن بمواقف اليهود العدوانية، وبتسليبهم الحق بالباطل وكتمان الحق، ليشيعوا الفتنة والبلبلة في المجتمع النامي والشك والارتياب في النفوس: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[3].

ومن معالجة القرآن الحكيمة أنه يذكرهم بنعمة الله التي أنعمها عليهم إجمالاً ليدعوهم بعدها إلى الوفاء بعهدهم، وألا يسارعوا إلى الكفر فيصبحوا أول الكافرين، وكان ينبغي أن يكونوا أول المؤمنين، وينهى الله بني إسرائيل أن يكون كفرهم بما أنزله مصدقاً لما معهم شراء للدنيا بالآخرة وإيثاراً لما بين أيديهم من مصالح خاصة وبخاصة أحبارهم الذين يخشون أن يؤمنوا بالإسلام فيخسروا رياستهم، وما تدر عليهم من منافع وأتاوات، ثم يدعوهم إلى الاندماج في الصف والمجتمع والدخول في أجواء القرآن وأداء العبادات المفروضة وترك هذه العزلة والتعصب والعداوة[4].

والشق الآخر من العلاج هو خطاب إلى المجتمع المدني ونصيحة إلى الجماعة المسلمة تبصرهم بأساليب اليهود ووسائلهم في الكيد والفتنة، يتجلى فيها كيدهم ومكرهم على ضوء تاريخهم وحيلتهم لئلا ينخدع أفراد هذه البيئة الفَتيَّةِ بأقوال اليهود ومزاعمهم ووسائلهم الماكرة في الفتنة والتضليل:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦١.

(٣) سورة البقرة، الآيات: ٤٠ ـ ٤٣.

(٤) الظلال، م ١، ص ٦٧.

﴿۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾(١).

يقول ابن كثير: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾، أي ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾، قال ابن عباس: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾، أي قالوا: إن صاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم، ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾، أي تقرون بأنه نبي وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه(٢).

وكان اليهود يتحركون في المجتمع المدني، ويخالطون الناس في ندواتهم ومجالسهم، ويتفاخرون بأنهم شعب الله المختار، وأنهم أقرب الناس إلى الله، وأن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وكان أفراد المجتمع المدني يتأثرون بهذه الأقاويل ويتساءلون فيما بينهم: ما الحق؟

فلقن الله رسوله ﷺ أن يتحداهم بدعوتهم إلى المباهلة، أي أن يجتمع الفريقان هم والمسلمون، ثم يدعون الله أن يميت الكاذب ملعوناً، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٧٥ ـ ٧٧.

(٢) تفسير ابن كثير م ١، ص ١٧٢، ١٧٣.

(٣) سورة البقرة، الآيات: ٩٤ ـ ٩٦.

فالآيات تقرر أن اليهود متعلقون بالحياة، ولا يتمنون الموت أبداً، وإنما هي الأماني التي يلجأ إليها المنحرفون عن العقيدة حين يطول بهم الأمد، وهم أحرص الناس على البقاء في الدنيا، ولذلك نكصوا عن المباهلة لعلمهم أنهم كاذبون فيما يدعون(١).

هكذا تمضي الآيات في هذه المواجهة في وسط هذا المجتمع، ومن شأن هذه الخطة أن تبطل كيد اليهود في وسط الصف المسلم، وأن تكشف دسائسهم وأحابيلهم، وأن تدرك الجماعة المسلمة طريقة اليهود في العمل والكيد والادعاء على ضوء ما وقع منهم في تاريخهم القديم، وآيات سورة «البقرة» و«آل عمران» وغيرها استوفت هذه المعاني:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾(٢).

لقد كان هذا هو واقع اليهود إذْ ظلوا على هذا الموقف العدائي (موقف إثارة الفتنة) والتبجح باستثناء بعض أفراد من علمائهم نوهت بهم بعض الآيات:

قال تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾(٣).

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾(٤).

---

(١) راجع ابن كثير م ١، ص ١٩١.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٩١ ـ ٩٣.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١١٣، ١١٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩٩.

﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾[1].

وكما صور القرآن مواقفهم العدائية هذه صَوَّرَ طباعهم وأخلاقهم، وعرض جوانب منها عرفوا بها وجبلوا عليها، فراح يفَنِّدُ ما يدعونه من أنهم شعب الله المختار.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٢.

العنصرية اليهودية ودعوى التميز

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾[1].

وصور عبادتهم للمال، وحرصهم على جمعه من الطرق المحرمة، وما انتهى بهم ذلك إلى البخل والشح:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾[2].

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾[3].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾[4].

قال ابن عباس: لما نزل قول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾ دخل أبو بكر الصديق بيت المدارس فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له «فنحاص»، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له: «أشيع»، فقال له أبو بكر: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من

---

(١) تفسير ابن كثير م ١، ص ١٧٢، ١٧٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٢.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ١٨٠، ١٨١.

عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا نحن الأغنياء، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكرﷺ، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أبصر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟» فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولاً عظيماً، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك، غضبت لله مما قال، فضربت وجهه، فجحد فنحاص ذلك، وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ الآية، رواه ابن أبي حاتم[1].

والقصة تدل على مدى التزام المسلمين بالوثيقة المبرمة بينهم وبين اليهود، وأن تلك الوثيقة ظلت نبراساً ينير الطريق لتأسيس المجتمع وتنظيمه، فهي كصمام الأمان لتفادي الاحتكاك بين الأطراف المعنية بها. كانت منبعاً ثراً لتفهم معاني العهود والمواثيق بصورة تطبيقية.

وتدل أيضاً على أن الحمية الإسلامية في قلب المؤمن حين تجد حرمة من حرمات الله تنتهك لا تملك زمامها فإذا هي تنصر الله عز وعلا في غير ما تجاوز وعدوان على حدود ما أقامت ولاية الإسلام من عهود ومواثيق.

وتدل أيضاً على أن المسلم وإن كان حليماً في سجيته إلا أن حلمه هذا انقلب بركاناً لا يقهر، وذلك ما كان من الصديق الحليم إزاء بغي «فنحاص» وكُفْرانِهِ.

وتدل أيضاً على أن «يهود» لا يعرفون في تطاولهم وبغيهم حداً حتى يجدوا يداً للحق تقف ضدهم، فالحياء لا يعرف طريقه إلى جنوبهم ووجوههم، ذلك دَيْدَنُهُم حتى تقوم الساعة.

وَصَوَّرَ قسوة قلوبهم وما طبعوا عليه من خيانة، وسجل تحريفهم للتوراة:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا

---

(١) تفسير ابن كثير م ١، ص ٦٥١.

يَنفَجِرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾[١].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[٢].

وصدق الله، فقد رأوا الحجر تنفجر منه اثنتا عشرة عيناً، ورأوا الجبل كذلك حين تجلى عليه وخر موسى صعقاً، ولكن قلوبهم لا تلين ولا تندى ولا تنبض بخشية ولا تقوى، وهي ترى كل يوم معالم الحق، وتشاهد في لحظة صدق القرآن وصدق النبوة، ولكن ظلت قلوبهم قاسية جاسية، وصلت بهم القساوة أن يحرفوا الكلم عن مواضعه.

والآيات تصور حال يهود في المجتمع المدني، فهم لا يكفون عن محاولة خيانة الرسول ﷺ، وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة، وكلمة «لا تزال» تؤكد أن خيانتهم مستمرة في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ، والتعبير القرآني الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول الله ﷺ في المدينة تعبير طريف له أبعاده ومفاهيمه، فما دامت هذه خيانتهم مع نبي الرحمة ﷺ فكيف بالمجتمعات العادية؟ فهذا هو جوهر جبلتهم، وهذا هو جوهر موقفهم مع المجتمعات[٣].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٣.

(٣) الظلام، جـ ٢، ص ٨٥٩ ـ بتصرف.

مواجهة اليهود للدولة في المدينة

إن اليهود لم يقفوا عند حد إنكار نبوة النبي ﷺ وتنزيل القرآن وفي نطاق المجادلات والمناورات الكلامية، بل تجاوزه إلى الغدر ونقض العهد والعداء الفعلي والتحدي السافر وعدم احترام الوثيقة المبرمة بينهم وبين النبي ﷺ: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[1].

وهي أدق وأوسع وثيقة كتبها رسول هذه الأمة، ونظراً لخطورتها وثقلها وأهميتها، سنتناولها بالعرض والدراسة والتعليق وهي الرسالة التي وردت فيها أسماء قبائل اليهود وفصائلها بصورة دقيقة تدل على حنكة النبي ﷺ السياسية وبعد نظره، وتتجلى أبعاد تفاصيلها عندما بدأ النبي ﷺ يتخذ مواقف الجد والصرامة مع اليهود لتطهير المدينة منهم بتوجيه من الله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾[2].

وكأنَّ الآية تشير إلى أن هذا النمط من الناس يشكلون حجر عثرة في بنية المجتمع الجديد، فلا بد من تطهير الجو من هذه العناصر الخطرة والتي بدأت فصوله في الربع الأول من العهد المدني، ثم استمرت إلى أن تم جلاؤهم عن المدينة وكسر شوكتهم.

ولقد تعددت مواقف التطهير، فكان لكل فريق من اليهود موقف، هذا يدل على أن التطهير إنما كان يجري بمقدار الضرورة وبقصد إزالة الضرر والخطر المتحقق، كما يدل على أن اليهود لم يقدموا جميعهم على الخروج من الميثاق إلى الغدر، والعداء العملي في وقت واحد، ولعل من أسباب ذلك أنهم لم يكونوا مجموعي الشمل في سلك كيان سياسي وحربي واحد كما أشارت الآية: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٠.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

بنو قينقاع والخيانة الوطنية

من الثابت أن أول من كشف عن دفين غله وحقده هم يهود بنو قينقاع(١) حين كانوا يقيمون داخل المدينة وبيوتهم تلاصق بيوت المسلمين. (عن ابن عباس قال: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر، فقدم المدينة، واجتمع اليهود في سوق بني قينقاع، فقال: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً»، فقالوا: يا محمد، لا تغرنك نفسك، أنت قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لن تأتي مثلنا، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾(٢)... قال فنحاص اليهودي في يوم بدر: لا يغرن محمداً أن غلب قريشاً، إن قريشاً لا تحسن القتال، فنزلت الآية المذكورة(٣).

قال الزرقاني في شرح المواهب: «ذكر ابن سعد أن بني قينقاع لما كانت وقعة بدر أظهروا البغض والحسد، ونبذوا العهد لمدة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ فقال النبي ﷺ: إني أخاف بني قينقاع»(٤).

وصدق تنبؤ النبي ﷺ، فكان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها، فعقده على ظهرها، فلما قامت انكشفت سَوْءَتُهَا، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين

---

(١) قال الزرقاني في شرح المواهب ما ملخصه: (بنو قينقاع بطن من يهود المدينة جسر يلي: العالية، وكانوا أشجع اليهود وأشدهم بغياً) جـ ٢، ص ٤٥٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢.

(٣) جامع البيان للطبري، جـ ٣، ص ١٩٢.

(٤) المواهب اللدنية للزرقاني، جـ ١، ص ٤٥٦.

على الصائغ، فقتله، وكان يهودياً، وشدت اليهود على المسلم، فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.

وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه[1].

فقام عبد الله بن أُبي يكلم رسول الله فيهم وألح عليه، فوهبهم له، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان له من حِلْفِهِ مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسول الله ﷺ ومن حِلْفِهِم، ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت هذه الآيات في المائدة:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾[2]. إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وذكر لتولي عبادة بن الصامت ورسوله والذين آمنوا وتبريه من بني قينقاع وحلفهم وولايتهم: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وأمر قائد المسلمين نبي الهدى ﷺ أن يخرج بنو قينقاع من المدينة، ولا يجاوروه فيها، فخرجوا إلى أذرعات من أرض الشام، وكانوا أشجع يهود المدينة، وكان عدد المقاتلين منهم نحو ستمائة مقاتل.

وكان هذا الخروج إيذاناً بتحول هام في بنية المجتمع الإسلامي، ومنعطفاً خطراً في تاريخ الجزيرة العربية إذ خلت من هذا الدنس وظلت طاهرة نقية من رجسهم.

والجدير ذكره في مناسبة حديثنا عن غزوة بني قينقاع بسبب خيانتهم الوطنية

---

(١) سيرة ابن هشام م ٢، ص ٤٨ ط دار الوفاق، بيروت، تحقيق السقا وزملائه.

(٢) سورة المائدة، الآيات: ٥١ ـ ٥٣.

ونقضهم عهود الدستور الذي وقعوه مع النبي ﷺ، أن الرسول بعد أن عاتبهم لنقضهم العهد، وخيانتهم للوطن الذي يظلهم سمح لهم وكانوا كما تقول السير ومصادر التاريخ الإسلامي نحو ستمائة مقاتل إلى الإقامة في منطقة إذرعات بأرض الشام ولم يقم بإبادتهم كما يقول متحدث جاهل خبيث النفس في إحدى الفضائيات التي تبث حقدها وسمها باللغة العربية ونحن هنا نرى أنه لا بد من الإشارة ولو بشكل مبسط وموجز إلى الأسباب الرئيسة في قيام نبي الإسلام ﷺ بهذه الغزوة. تاريخها وأسبابها كما تقول السير تتمثل في الآتي:

تاريخ الغزوة:

ذكر معظم أهل المغازي والسير أنها وقعت بعد بدر، ورجح ذلك ابن حجر[١]، مستنداً إلى رواية ابن عباس في سنن أبي داود[٢]، وحكم عليها بالحسن، وقواه برواية عبادة بن الوليد في مغازي ابن إسحاق[٣]، وقد حدد الزهري[٤] أنها كانت في شوّال من السنة الثانية الهجرية، ويضيف الواقدي[٥] وابن سعد[٦] أنها كانت يوم السبت للنصف من شوّال.

أسبابها:

تذكر كتب السيرة سببين لهذه الغزوة، الأول: أن يهود بني قينقاع أظهروا الغضب والحسد عندما انتصر المسلمون ببدر، ويظهر ذلك في موقفهم من الرسول ﷺ عندما جمعهم في سوقهم بعد بدر، وقال لهم: «يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً، فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً في قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا»، فأنزل الله ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا

---

(١) الفتح (١٥/ ٢٠٤).

(٢) (٣/ ٤٠٢ـ ٤٠٣).

(٣) ابن هشام (٣/ ٧١ ـ ٧٢) بإسناد مرسل.

(٤) في تاريخ الطبري (٢/ ٤٧٠٩ـ ٨٠) مرسلاً.

(٥) المغازي (١/ ١٧٦).

(٦) الطبقات (٢/ ٢٨ـ ٢٩) دون إسناد.

فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾[1].

والسبب الثاني هو ما أشرنا إليه في الصفحات الماضية في إيجاز من أن أحد اليهود عقد طرف ثوب امرأة مسلمة في سوق بني قينقاع، فلما قامت انكشفت، فصاحت مستنجدة، فقام أحد المسلمين فقتل اليهودي، وتواثب عليه اليهود فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود. فغضب المسلمون، ووقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[2].

وإذا قبلنا تحسين ابن حجر لرواية ابن إسحاق في السبب الأول، فهذا لا يعني أن سبب إجلائهم يعود إلى رفضهم الدخول في الإسلام، لأن الإسلام في هذه المرحلة كان يقبل التعايش السلمي معهم، وأن نصوص صحيفة المدينة تؤكد إعطاء اليهود حريتهم الدينية في المدينة، وإنما يعود سبب الإجلاء إلى ما أظهروه من روح عدائية ضد المسلمين والاعتداء على أفراد من المسلمين، انتهت إلى الإخلال بالأمن داخل المدينة ومن ذلك قصة المرأة المسلمة معهم[3].

وخلاصة القول إن الآثار كلها ضعيفة ولكن تتقوى بعضها ببعض لترتفع إلى درجة الحسن لغيره كما قال الدكتور السندي: مرويات تاريخ يهود المدينة، في عهد النبوة، ص ٨٣.

(١) أبو داود: السنن (٣/ ٤٠٢/ ح ٣٠٠١) بإسناد فيه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، ـ حكم عليه ابن حجر في التقريب بأنه مجهول ص ٥٠٥، ومع ذلك حسنه ابن حجر في الفتح (١٥/ ٢٠٤) ومحمد الذهبي في التفسير والمفسرون (١/ ٧٩) وخلاصة دراسة السندي أن روايات هذه الحادثة تتقوى ببعضها وتصلح للاحتجاج بها ـ (السندي: مرويات يهود المدينة، ص ٧٧).
وانظر آل عمران: ١٢، ١٣.

(٢) ابن هشام (٣/ ٧٠) بإسناد ضعيف لأنه موقوف على أبي عون وهو تابعي صغير مجهول، وفيها انقطاع بين ابن هشام وعبد الله بن جعفر ـ انظر السندي، ص ٧٩، والعمري: المجتمع المدني ـ التنظيمات: ص ١٣٧. والألباني: دفاع، ص ٢٦ـ ٢٧. والرواية يستأنس بها.

(٣) العمري: المجتمع المدني ـ تنظيماته. . . ، ص ١٣٨.

الحصار والإجلاء:

إن خبر إجلاء بني قينقاع ثابت في الصحيحين[1]، وأما تفاصيل الحصار فقد أورده ابن إسحاق[2] والواقدي[3] وابن سعد[4]، وتابعهم المؤرخون في ذلك.

وقد ورد في تفاصيل خبر حصارهم أنهم كانوا صاغة وحلفاء عبد الله بن أبي ابن سلول، وكانوا أشجع اليهود. فلما أظهروا العداوة والبغضاء، خشي الرسول ﷺ خيانتهم، فنبذ إليهم على سواء كما أمره الله (عز وجل) في مثل هذه الحالات، إذ يقول الله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[5]. وحاصرهم خمس عشرة ليلة. وعندما اشتد عليهم الحصار نزلوا على حكم الرسول ﷺ على أن لهم أموالهم، وأن لهم النساء والذرية، فأمر بهم فكتفوا، ثم كلمه فيهم حليفهم ابن سلول، وألح في ذلك قائلاً: «أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع منعوني من الأحمر والأسود وتحصدهم في غداة واحدو؟»، فقال رسول الله ﷺ: «هم لك[6]، وأمر بهم أن يجلوا عن المدينة». وتولى أمر ذلك عبادة بن الصامت، فلحقوا بأذرعات، وتولى قبض أموالهم محمد بن مسلمة، فقسمت بين الصحابة بعد إخراج الخمس للرسول ﷺ[7].

وكما سبق لنا القول كان عبادة بن الصامت قد تبرأ من حلفهم عندما حاربوا الرسول ﷺ، وفيه وفي ابن سلول نزل قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟

---

(١) البخاري/ الفتح (١٥/ ٢٠٣ـ ٢٠٤/ ح ٤٠٢٨)، مسلم (٣/ ١٣٨٧ـ ١٣٨٨/ ح ١٧٦٦).

(٢) ابن هشام (٣/ ٧٠ـ ٧٢) وإسناده مرسل، ولكنه يتقوى مع المتابعة.

(٣) المغازي (١/ ١٧٦) بإسناد ضعيف.

(٤) الطبقات (٢/ ٢٩) دون إسناد.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.

(٦) رواه ابن إسحاق بإسناد منقطع ـ ابن هشام (٣/ ٧٠ ـ ٧١)، الواقدي (١/ ١٧٧ـ ١٧٨) وابن سعد (٢/ ٩٢) بدون إسناد وفيه الآية. وجاء خبر تشبث ابن سلول ببني قينقاع في أثرين ضعيفين لابن إسحاق لأنهما موقوفان على عاصم وعبادة، ولكن كل منهما يقوي الآخر ويرتقيان إلى درجة الحسن لغيره، ويقوي ذلك أكثر ذكر ذلك عند أهل المغازي والسير الآخرين ـ قاله السندي ص ٩٦.

(٧) ابن سعد (٢/ ٩٢) دون إسناد.

ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ... ﴾[1].

أحكام وعبر:

١ـ دلت هذه الحادثة على حقد وعداوة اليهود واتخاذ ما يستطيعون من وسائل للغدر بالمسلمين وإمامهم.

٢ـ هذه الحادثة وما أعقبها من دفاع عبد الله بن أبي ابن سلول عن اليهود بالكيفية التي علمنا، ودوره في كثير من أحداث الفتن، والتخذيل والترويج للإشاعات المغرضة في صفوف المسلمين، دليل قاطع على نفاقه. ومع ذلك عامله الرسول ﷺ على أنه مسلم. وهذا يدل ـ كما أجمع العلماء ـ على أن المنافق إنما يعامل في الدنيا من قبل المسلمين على أنه مسلم، ويتولى الله أمر باطنه يوم القيامة. ومن الأدلة على ذلك قول عمر رضي الله عنه: «إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه، وليس إلينا من سريرته شيء، والله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه، وإن قال إن سريرته حسنة».

والحكمة من معاملة الناس للمنافقين بحسب الظاهر، أن تظل العدالة بين الناس في مأمن من التلاعب، إذ ربما اتخذ بعض الحكام من حجية الأدلة الوجدانية والاستنتاجية وحدها ذريعة إلى الإضرار ببعض الناس بدون وجه حق.

٣ـ لا يجوز موالاة غير المسلمين، بل يجب البراءة منهم، والجدير ذكره في هذا المقام أن البراءة هنا وفي حالات بني قريظة لا تعني أكثر مما تدل عليه المفردة العربية أي البعد عنهم وعدم الاطمئنان إليهم لا إعلان الحرب والعدوان وممارسة ضروب الغدر ونكث العهد كما يحاول أن يفهم بعض المغرضين أو الجاهلين.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٥١، ٥٢. وروى الخبر ابن إسحاق بإسناد مرسل ـ ابن هشام (٣/ ٧١ـ ٧٢) ـ يتقوى مع المتابعات والشواهد، مثل رواية ابن جرير الطبري في تفسيره (٦/ ٢٧٥) بسند ضعيف لأن فيه عطية بن سعد، فهو مدلس، ولم يصرح بالسماع، ورواية ابن مردويه في التفسير من طريق عبادة بن الوليد عن أبيه عن جده عبادة، حيث روى أنها نزلت فيه ـ ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٩١).

غدر بني النضير وخيانتهم الوطنية

بعيداً عن لغط الجاهلين من غير المسلمين الذين يتحدثون بالعربية الركيكة على الرغم من كونهم يحسبون على أمة العرب حين يجلسون في استديوهات بعض قنوات البث الفضائي يمسكون بأيديهم التحريفية بعض مصادر الإسلام يلوون أعناق بعض النصوص ويقدمونها مبتورة شوهاء ليضعوا منها في أوهام بعض السذج من عامة المسلمين وغيرهم تصوراً غريباً ظهر عنيفاً في عصرنا هذا ليكذب على التاريخ ويفتري على الحقيقة ويرمي المسلمين ونبيهم ﷺ بأنه حارب اليهود وغدر بهم ونقض عهده معهم وأخرجهم من جزيرة العرب لمجرد أنه أصبح يملك جيشاً ودولة والحقيقة العلمية الخالصة التي تنطق بها مصادر التاريخ العربي الإسلامي تقول بأن النبي محمد ﷺ لم يبادر إلى حرب أحد قبل أن يتعرض المسلمون للعدوان سواء من جانب المشركين أو المنافقين وكذلك كل قبائل اليهود الذين غدروا ونقضوا العهد الذي أبرموه مع النبي في الدفاع معاً عن المدينة إذا دهمها عدو بالحقيقة العلمية الخالصة فيما يتعلق ببني النضير تحديداً أن النبي ﷺ بعدما شعر أن بني النضير يتربصون به الدوائر بعد نكبة الرجيع وبئر معونة، وأن هذه النكبة ذكرتهم بانتصار قريش في أحد وأنستهم فوز المسلمين في بدر وغيرها، فأراد الرسول ﷺ أن يستدرجهم لتتضح له نياتهم، فذهب إليهم في عدد من الصحابة لكي يطلب مهادنتهم في دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية خطأ غداة مرجعه من بئر معونة، لأن القتيلين من بني عامر وكانا حلفاء بني النضير، وتظاهر اليهود بتلبية الطلب، وجلس النبي ﷺ إلى جانب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا.

ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - فمَنْ رجُلٌ يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه؟ - فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم، فقال: أنا لذلك، فصعد، ليلقي عليه

صخرة، كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر، وعمر، وعلي رضوان الله عليهم.

فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلْبَثَ النبيَّ ﷺ أصحابه قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مُقْبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ﷺ، فأخبرهم خبر ما أرادت اليهود من الغدر به، وأمر الرسول ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم، ثم سار بالناس حتى نزل بهم فتحصنوا منه بالحصون، فأمر الرسول ﷺ بقطع النخيل وتحريقها فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتَعيبُه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟![1].

ونزل القرآن الكريم بعد ذلك يذكر المؤمنين بنعمة الله عليهم حيث نَجّى نبيه مما بيته له يهود بني النضير من غدر ومكر، فقال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾[2].

«ذكر محمد بن إسحاق بن يسار ومجاهد وعكرمة وغير واحد أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى، لَمَّا جاءهم يستعينهم في دية العامرين، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك وأمروه إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرحى من فوقه، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالؤوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه، فأنزل الله في ذلك هذه الآية» التي سبق ذكرها[3].

فلما ظهر الغدر وتجلت الخيانة من بني النضير لم يبق مفر من نبذ عهدهم إليهم وفق القاعدة الإسلامية: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[4].

فتجهز رسول الله ﷺ، وحاصر محلة بني النضير، وأمهلهم ثلاثة أيام ـ وقيل

---

(١) سيرة ابن هشام، م ٢، ص ١٩٠ـ ١٩١، ط دار الوفاق.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١.

(٣) تفسير ابن كثير م ٢، ص ٥١.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.

عشرة ـ ليفارقوا جواره ويجلوا عن المحلة، ويقيموا وكلاء عنهم على بساتينهم ومزارعهم، وفي تلك الفترة أرسل إليهم عبدالله بن أبي ابن سلول من يقول لهم: اثبتوا وتمنعوا، فإننا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

ولما بلغ الحصار ستًا وعشرين ليلة يئس اليهود من صدق وعد المنافقين بهم، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا الرسول ﷺ أن يجليهم ويكف من دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، ففعل، كان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، أو يخر به حتى لا يقع في أيدي المسلمين[2].

وفي شأن بني النضير نزلت معظم آيات سورة الحشر، وقد سماها ابن عباس رضي الله عنهما: بسورة بني النضير، ففي البخاري عن سعيد بن خدير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: سورة الحشر، قال: سورة بني النضير[3].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾[4].

ومن هذه الآيات نلاحظ أن الله تعالى هو الذي تولى إخراج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، والله هو فاعل كل شيء ويؤكد ذلك

---

(١) سورة الحشر، الآيات: ١١ ـ ١٣.
(٢) سيرة ابن هشام، م ٢، ص ١٩١، ط دار الوفاق.
(٣) صحيح البخاري (باب حديث بني النضير جـ ٥، ص ١١٣).
(٤) سورة الحشر، الآيات: ٢ ـ ٤.

قوله تعالى بعد ذلك: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، تعني الآيات فلا أنتم كنتم تتوقعون خروجهم، ولا هم كانوا يتخيلون وقوعه، فقد كانوا من القوة والمنعة في حصونهم، بحيث لا تتوقعون أنتم أن تخرجوهم منها كما أخرجوا، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾.

أتاهم من داخل أنفسهم لا من داخل حصونهم، أتاهم من قلوبهم، فقذف فيها الرعب، ففتحوا حصونهم بأيديهم.

هذه التعبيرات البليغة كان لها أثرها في أفراد المجتمع النامي، فقد لمسوا الرعب في وجوه اليهود، وشاهدوه من تقاطيع وجوههم وهي تنطق بالوجل والرعب وهم في حصونهم المنيعة، فكان لا بد أن يتساءل المجتمع عن هذه الظاهرة الغريبة ثم يجد الجواب، وهكذا حين يشاء الله أمراً يأتي له من حيث يعلم ومن حيث يقدر، فلا حاجة إذاً إلى سبب ولا إلى وسيلة مما يعرفه الناس ويقدرونه.

ولقد تحصن الذين كفروا من أهل الكتاب بحصونهم، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب، ولقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم، فسلطهم الله على هذه الدور والبيوت يخربونها بأيديهم ويمكنون المؤمنين من إخرابها ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

واللافت للنظر أن القرآن الكريم سجل معظم صور الخيانة والغدر التي تعرض لها مجتمع المؤمنين في المدينة حيث فرضت على المسلمين معارك لم يكن لها من مبرر أدنى مبرر سوى نكث الإيمان وغدر العهود ونقض المواثيق يتمثل ذلك أوضح تمثل في تلك النتيجة التي كان يمني بها كل الخارجين على دولة الإسلام وهذه النتيجة نشاهدها في الحركة المصورة والعبارات المجسدة التي جاءت في قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾(١).

ولقد كان إجلاء بني النضير تطبيقاً وتنفيذاً لسياسة الأخذ بمبدأ الوقاية التي سار عليها النبي ﷺ، لا سيما في أعقاب غزوة أحد، وبعد أن ظهر غدرهم ونقض ميثاقهم.

وكان الإجلاء خطة حكيمة لإعطاء درس لليهود والمنافقين في وقت واحد، ليرتدعوا عن إثارة الفتن داخل المجتمع المدني.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢.

وكان هذا الإجلاء أيضاً نصراً للنبي ﷺ وللمسلمين بدون تضحيات، وعاد هذا النصر بمنافع جمة على المهاجرين بما أفاء الله على رسوله من أموال اليهود مما دعم اقتصاد المجتمع المدني بعد المحاولات التخريبية التي حاولها اليهود بإشاعة أساليب الربا وإحاكة المؤامرات وخاصة بعد أن تجلى للمسلمين التحام المنافقين مع اليهود وتوحدهم وتكتلهم ضد المجتمع المسلم بصورة عجيبة تؤكد نية وممارسة الخيانة الوطنية وخاصة عندما قرر بنو النضير بالتعاون مع المنافقين قتل الرسول ﷺ ولعل أولئك الذين يعبثون بالتراث الإسلامي ومصادره عبر قنوات البث الفضائي وهم من غير المسلمين أن يتأملوا الأسباب الحقيقية وراء غزوات الرسول ﷺ، وفي هذه الغزوة تحديداً فإن أسبابها الجوهرية كما تشير المصادر وتنص تنحصر في ثلاثة أسباب رئيسة.

الأول: يتمثل فيما أراده بنو النضير من محاولة قتل الرسول ﷺ. عندما حرضتهم قريش على ذلك.

الثاني: محاولتهم قتل الرسول ﷺ عندما جاءهم ليستعين بهم في دية الكلابيين اللذين قتلهما الضمري.

الثالث: حضهم قريش على قتال الرسول ﷺ ودلوهم على العورة.

تقول المصادر عن السبب الأول إن قريشاً أرسلت اليهود وهددتهم بالحرب إن لم يقاتلوا الرسول ﷺ فاستجاب بنو النضير لذلك ووضعوا خطة يقتلون بها الرسول ﷺ غدراً. فقد طلبوا منه أن يخرج إليهم في ثلاثين رجلاً من أصحابه ليلتقي بثلاثين من أحبارهم في موضع وسط ليحدثهم، فإن صدقوه آمنت يهود فلما جاؤوا قريباً من المكان اقترحوا على النبي ﷺ أن يجتمع ومعه ثلاثة من أصحابه وثلاثة من أحبارهم، وقد حمل هؤلاء اليهود الثلاثة خناجرهم، ولكن امرأة منهم أفشت سرهم لأخ لها مسلم فأخبر النبي ﷺ فرجع عنهم، ثم استعد وحاصرهم بجنوده حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح. أما السبب الثاني فتقول عنه المصادر: إن النبي ﷺ عندما ذهب إليهم في دية الكلابيين، لما كان بينه وبينهم من الحلف، جلس إلى جدار لهم في انتظارهم ليأتوا بما وعدوا به من المساهمة في الدية، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا، إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فاتفقوا على أن يعلو عمرو بن جحاش ذلك الجدار، فيلقى صخرة على الرسول ﷺ فيقتله. فأخبر الله رسوله بما أرادوا، فخرج راجعاً إلى المدينة. وعندما تأخر عن

أصحابه الذين كانوا معه، سألوا عنه، فعلموا رجوعه إلى المدينة، فأتوه فأخبرهم الخبر ثم أمر بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم ومحاصرتهم، فنزلوا على الصلح بعد حصار دام ست ليال، على أن لهم ما حملت الإبل.

كل هذا يدل على حالهم مع المسلمين إلى أن كانت محاولتهم قتله، وتسبب ذلك في قرار لوضع حد لممارساتهم الإجرامية فكان القرار طردهم من المدينة.

ثانياً: الإنذار:

عندما صدر منهم ما صدر طلب منهم الرسول ﷺ الخروج من المدينة خلال عشرة أيام، فمن رأوه بعد ذلك ضربت عنقه. وعندما استعدوا للخروج حرضهم عبد الله بن أبي ابن سلول على عدم الخروج ومناهم بالوقوف إلى جانبهم، فأعلنوا العصيان فحاصرهم المسلمون، وقد أشارت آيات في سورة الحشر إلى هذا، مثل قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾.

ثالثاً: الجلاء وشروطه:

ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ أجلى بني النضير عندما حاربوا. وفصلت الكتب الأخرى، وخاصة كتب المغازي والسير، كيفية هذا الجلاء ونوعية الحرب التي حاربوها.

وصح أن الرسول ﷺ حاصرتهم بالكتائب، وقال لهم: إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه، فأبوا أن يعطوه عهداً فقاتلهم يومهم ذلك، هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب، وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه فانصرف عنهم وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من أمتعتهم، وأبواب بيوتهم، فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها».

وقد ثبت بنص القرآن أن النبي ﷺ حرق وقطع نخل بني النضير خلال مدة الحصار، كما ثبت في الحديث الشريف أن النبي ﷺ حرق وقطع بعض نخل بني النضير خلال مدة الحصار.

خيانة بني قريظة ونقضهم العهود

من الإنصاف العلمي التاريخي أن نقرر هنا بادئ ذي بدء أن قبيلة بني النضير بعد أن وقعت العهد مع من وقع من القبائل مع النبي ﷺ في إطار وثيقة المدينة بقيت فترة قصيرة مخلصة لعهدها، بعد جلاء بني قينقاع، لما كانت تجده قبل الإسلام من بغي هؤلاء اليهود عليها. وسبق ذكر اعتبار دية بني قريظة نصف الدية، فساوى الرسول في الدية بين هؤلاء وهؤلاء. لكن الذي وقع أن زعماء بني النضير في بلاد العرب ذهبوا يحرضون المشركين على حرب المسلمين وما زالوا بقريش وغيرها من قبائل العرب، حتى أقبلت الأحزاب لحرب الرسول والمسلمين في المدينة، وكانت غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة ـ وسميت بذلك لأن المسلمين حفروا خندقاً حول المدينة لحمايتها ـ ونقض بنو قريظة عهدهم مع الرسول وتحالفوا مع الأحزاب لحرب المسلمين، وليأخذوا المدينة من خارجها ـ حيث الأحزاب ـ وداخلها ـ حيث بنو قريظة ثم أرسل الله على الأحزاب ريحاً عظيمة في ليال شاتية كفأت قدورهم وآنيتهم، وطرحت أبنيتهم، فوقع في قلوبهم الرعب ورحلوا عن المدينة، فلما رأى بنو قريظة ذلك اجتمعوا في حصونهم وأغلقوها عليهم، فحاصرهم المسلمون فيها حتى أدركهم اليأس فنزلوا على حكم الرسول، ولكن الرسول رأى من حُسن السياسة ألا يتولى هو الحكم على بني قريظة فترك ذلك لمواليهم من الأوس. كما فعل مع بني قينقاع إذ ترك الحكم لمواليهم من الخزرج، فاختار الأوس زعيمهم سعد بن معاذ ونزل اليهود على حكمه. فحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء. فقال النبي ﷺ لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.

ويرى الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام أن الحكم بذلك على بني قريظة يرجع إلى غدرهم في غزوة الأحزاب والأعداد يحيطون بالمدينة كما أنهم أخذوا بحكم التوراة في الإصحاح العشرين من سفر التثنية، وأن حكم التوراة هذا لشدته

لم يأخذ به الإسلام فيمن حاربه من اليهود وغيرهم وقد حارب يهود خيبر بعد ذلك، فأبقى عليهم بعد أن استسلموا به، وأبقاهم في أرضهم يزرعونها على نصيب يأخذونه منها.

والحق في ذلك ما رآه الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي وخلاصته أن بني قريظة أجرموا في حق وطنهم، وارتكبوا جناية الخيانة العظمى بالانضمام إلى جيش أعدائه، وكانت أول قضية من نوعها في الإسلام، ولها خطورتها من جهة فظاعة الجناية ومن جهة العدد الكثير الذي سيحكم عليه فيها، وما قضى به الإسلام من القتل فيها هو ما تقضي به كل الشرائع في نظائرها، لا فرق في ذلك بين الشرائع القديمة والحديثة، ولا بين السماوية والوضعية ولم يحكم الإسلام عليهم بذلك لأنهم يهود، بل لأنهم ارتكبوا تلك الخيانة العظمى في حق وطنهم، وهذا هو حكمه في كل من يرتكب تلك الخيانة في حق وطنه، ولا فرق عنده في ذلك بين مسلم ويهودي ونصراني. ويرد على الرأي السابق أن الحكم لا شدة فيه، لأن النبي ﷺ لم يأخذ به بني قريظة كأسرى حرب (يقصد باعتبارهم أسرى حرب وأجرى عليهم حكم التوراة بقتل الأسرى) وإنما أخذهم به (أي بحكم سعد بن معاذ) كمجرمين خانوا وطنهم وشاركوا أعداءه في حرب إخوانهم في هذا الوطن. ولا شك أن النبي لم ينظر إلى رجال بني قريظة كأسرى حرب لأنه لم يفعل مع الأسرى في حروبه كما فعل بهم، وإنما نظر إليهم كمجرمين خانوا وطنهم وانضموا إلى أعدائه في الهجوم عليه، فأجرى عليهم حكم وطنهم في هذه الخيانة وكان أمرهم عنده أشد من أمر أسرى الحرب، لأن أسرى الحرب يقاتلون أعداءهم، أما الخائنون لأوطانهم فيقاتلون إخوانهم، وليس من يقاتل عدوه كمن يقاتل أخاه في الوطن، فالأول له شيء من الغدر في حربه ولهذا أمر الإسلام بالإحسان إلى الأسير، حتى ذهب بعض الفقهاء إلى تحريم قتله، أما الثاني فلا عذر له أصلاً ولهذا لا يستحق شيئاً من الرأفة. كما يلاحظ أن بني قينقاع وبني النضير لم يصل فعلهم إلى جناية الانضمام إلى جيش الأعداء المحارب للوطن، وإنما كانت خيانتهم محاولة التفريق بين المسلمين بإلقاء الشبه عليهم في دينهم، وما إلى ذلك من محاولتهم فكان عقابهم أن ينفوا من بين المسلمين اتقاء لشرهم. ومن الواضح الجلي أن مثل هذا الإجراء لا يمثل أدنى تجاوز في الآخر لا في الزمن القديم أو الحديث.

ومن هنا أقول لمثيري الافتراء والفتن وتحريف وتشويه ثوابت التاريخ كما تفعل بعض أبواق الفتنة من غير المسلمين عبر قنوات البث الفضائي.

د ـ أحكام وعبر:

دلت هذه الحادثة على حقد وعداوة اليهود واتخاذ ما يستطيعون من وسائل للغدر بالمسلمين وإمامهم ﷺ.

والثابت علمياً والذي تقول به المصادر المعتبرة قديماً وحديثاً لا الذي يلغط به بعض الكذابين الذين يجلسون في استديوهات مغلقة يحرفون تاريخ الإسلام ويخدمون الحملة الغربية على الإسلام أن اليهود بعد العهود والعقود لم يهادنوا في المدينة المسلمين بعد الهجرة إلا حقبة قصيرة، وكان الرسول ﷺ قد عقد معهم مهادنة وعهداً أول مقدمه إلى المدينة أوجب لهم فيه النصرة والحماية، مشترطاً عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدواً ولا يمدوا يداً بأذى.

ولكنهم لم يكونوا أهلاً لهذه المعاملة الطيبة، ولم يحترموا عهد رسول الله ﷺ معهم، ولعلهم قد أغراهم لطف من الرسول عليهم فظنوه ضعفاً، فلما كانت غزوة الأحزاب ظاهروهم، وانضموا إليهم «وبلغ رسول الله ﷺ خبر بني قريظة ونقضهم للعهد، فبعث إليهم السعدين وخوات بن جبير وعبد الله بن رواحة ليعرفوا هل هم على عهدهم أو قد نقضوه، فلما دنوا منهم فوجدوهم على أخبث ما يكون، وجاهروهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ، فانصرفوا عنهم ولحنوا إلى رسول الله ﷺ لحناً يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد وغدروا، فعظم ذلك على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «الله أكبر: أبشروا يا معشر المسلمين»[1].

فلما أيد الله تعالى نبيه بنصره في غزوة الأحزاب، ورد أعداءه بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، تبدى له جبريل عليه السلام، ثم قال: إن الله تعالى يأمرك أن تذهب إلى بني قريظة، وكانوا على أميال من المدينة، وحاصرهم الرسول ﷺ حتى أجهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر لنستشيره في أمرنا، فأرسله

---

(١) زاد المعاد جـ ٢، ص ١١٧، ١١٨، المطبعة المصرية ومكتبتها.

رسول الله ﷺ، فلما رأوه قام إليه الرجال، وأجهش النساء والصبيان بالبكاء في وجهه، فرقَّ لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه: أنه الذبح.

وشعر أبو لبابة أنه خان الله ورسوله، فانطلق حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عُمُده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي مما صنعت، وعلم النبي ﷺ بقصته، فقال: «أما لو جاءني لاستغفرت له، أما وقد فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه، ونزل قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾[1].

ومما لا شك فيه أن قصة أبي لبابة وربطه بسارية المسجد كان لها أكثر من تأثير في نفوس المسلمين، فكانوا يتساءلون: ما بال هذا الصحابي الجليل نراه مربوطاً بسارية المسجد، ولا يزال ينتظر التوبة؟ وكأن الناس يتهامسون فيما بينهم يقولون: هذه مكافأة لمحبته لليهود، وتلك جريمته التي ربط من أجلها، وعرف الناس حينئذٍ أن الولاء والمحبة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن الارتباطات مع أعداء الله لها حدود وقيود.

وما زالت سارية أبي لبابة تنطبق بهذه المعاني، وهي محاطة بالمصلين والتائبين، وفي وسط روضة من رياض الجنة، وفي قلب المسجد النبوي الطاهر، وهي من المعالم التي استمرت عبر الأيام والسنين تتحدث عن غدر بني قريظة، وتوبة أبي لبابة، وبعد قصة أبي لبابة أمر الرسول ﷺ سعد بن معاذ أن يصدر حكمه في بني قريظة، فقال: «الله ورسوله أحق بالحكم» فقال رسول الله ﷺ: «الله أمرك أن تحكم فيهم»، فقال سعد: «فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبي الذراري»[2]. فقال النبي ﷺ لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات، ثم حفرت الخنادق في سوق المدينة لتنفيذ حكم سعد فيهم، وكان عددهم ما بين ستمائة وسبعمائة، وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ إرسالاً: يا كعب، ما تراه يصنع بنا؟

---

(١) سيرة ابن هشام، م ٢، ص ٢٣٧، دار الوفاق.

(٢) سيرة ابن هشام، م ٢، ص ٢٤٠ـ ٢٤١، دار الوفاق.

قال: هو والله القتل. وأتى في النهاية برأس الفتنة (حُيَي بن أخطب) وقد مزق حلته من كل ناحية، مجمعة يداه إلى عنقه بحبل، ثم جلس وضربت عنقه[1].

ومنذ ذلك اليوم ذلت يهود في هذا المجتمع، وتطهر من أرجاسهم، وخيم الهدوء والطمأنينة عليه، وتبع ذلك أن المشركين لم يعودوا يفكرون في غزو المسلمين، بل أصبح المسلمون هم الذين يغزون حتى كان فتح مكة والطائف، وكانت هناك ارتباطات مريبة وعميقة بين تحركات اليهود وتحركات المنافقين وتحركات المشركين، ولكن طرد اليهود من المدينة قضى على هذه الارتباطات، وأعاد إلى هذا المجتمع تماسكه، وترابطه حيث لم يبق فيه من الأقليات الشاذة إلا المنافقون:

وفي قتل بني قريظة نزل قوله تعالى في سورة الأحزاب:

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾[2].

وترتب على تطهير المدينة من القبائل الثلاث التي تمثل مراكز القوى لليهود نجاة المجتمع المسلم من دسائسهم ومؤامراتهم في هذه البقعة الطاهرة، مما أتاح الفرصة للدولة الإسلامية الفتية إعادة ترتيب الأوضاع والاحتشاد للانطلاقة التاريخية المظفرة لنشر الإسلام في مأمن من طعناتهم الغادرة، وفي منجاة من التحلل والتفكك، فبقيت الجزيرة العربية متماسكة في جبهتها الداخلية كقاعدة تنطلق منها الجيوش الإسلامية وهي مطمئنة إلى سلامة خطوطها الخلفية.

وقد وقعت هذه الغزوة بعد غزوة الأحزاب مباشرة، في آخر ذي القعدة وأول ذي الحجة من السنة الخامسة الهجرية[3].

وواضح من سير الأحداث أن سبب الغزوة كان نقض بني قريظة العهد الذي

---

(١) نفس المصدر ص ٢٤١.

(٢) سيرة ابن هشام، م ٢، ص ٢٤٠ـ ٢٤١، دار الوفاق.

(٣) ابن سعد (٢/ ٧٤) ـ معلقاً. وعنده أنه سار إليهم يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة. وهي أصلاً رواية شيخه الواقدي في المغازي (٢/ ٤٩٦) أما ابن إسحاق فقال إنها سنة خمس وسكت ـ ابن هشام (٣/ ٣٢٤) معلقة.

بينهم وبين النبي ﷺ، بتحريض من حيي بن أخطب النضري[١]. وقد سبق أن ذكرنا من رواية الصحيحين أن الرسول ﷺ أرسل الزبير لمعرفة نيتهم، ثم أتبعه بالسعدين وابن رواحة وخوات لذات الهدف ليتأكد من غدرهم.

ولأن هذا النقض وهذه الخيانة قد جاءت في وقت عصيب، فقد أمر الله تعالى نبيه بقتالهم بعد عودته من الخندق ووضعه السلاح[٢]. وامتثالاً لأمر الله أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يتوجهوا إلى بني قريظة، وتوكيداً لطلب السرعة أوصاهم قائلاً: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، كما في رواية البخاري[٣]، أو ـ الظهر ـ كما في رواية مسلم[٤].

وعندما أدركهم الوقت في الطريق، قال بعضهم لا نصلي حتى نأتي قريظة، وقال البعض الآخر: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً منهم[٥]. وهذا اجتهاد منهم في مراد الرسول ﷺ[٦].

قال ابن حجر[٧]: «... وقد جمع بعض العلماء بين الروايتين ـ البخاري ومسلم ـ باحتمال أن يكون بعضهم قبل الأمر كان صلى الظهر، وبعضهم لم يصلها، فقيل لمن لم يصلها: لا يصلين أحد الظهر، ولمن صلاها: لا يصلين أحد العصر. وجمع بعضهم باحتمال أن تكون طائفة منهم راحت بعد طائفة فقيل للطائفة، الأولى الظهر وقيل للطائفة التي بعدها العصر، وكلاهما جمع لا بأس به...».

خرج الرسول ﷺ في ثلاثة آلاف مقاتل معهم ستة وثلاثون فرساً[٨] وضرب

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف (٥/ ٣٦٨ـ ٣٧٣) من مرسل سعيد بن المسيب، والرواية صالحة للاحتجاج بها مع المتابعة، ورواه أبو نعيم في دلائله من هذا الطريق (٢/ ٥٠٤ـ ٥٠٥).

(٢) البخاري/ الفتح (١٥/ ٢٩٣/ ح ٤١١٧).

(٣) صحيحه (٣/ ١٣٩١/ ح ١٧٧٠).

(٤) الفتح (١٥/ ٢٩٤/ ح ٤١١٩).

(٥) البخاري ومسلم ـ المصدرين والمكانين نفسيهما.

(٦) ابن إسحاق بإسناد مرسل ـ ابن هشام (٣/ ٣٢٦).

(٧) الفتح (١٥/ ٢٩٤/ك. المغازي).

(٨) ابن سعد (٣/ ٧٤) ـ معلقاً والمعلق كما هو معلوم من أقسام الضعيف.

الحصار على بني قريظة لمدة خمس وعشرين ليلة على الأرجح[(١)]، وضيق عليهم الخناق حتى عظم عليهم البلاء، فرغبوا أخيراً في الاستسلام، وقبول حكم الرسول ﷺ فيهم. واستشاروا في ذلك حليفهم أبا لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه، فأشار إلى أن ذلك يعني الذبح. وندم على هذه الإشارة، فربط نفسه إلى إحدى سواري المسجد النبوي، حتى قبل الله توبته[(٢)].

وعندما نزلوا على حكم الرسول ﷺ أحب أن يكل الحكم عليهم إلى واحد من رؤساء الأوس، لأنهم كانوا حلفاء بني قريظة، فجعل الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ، فلما دنا من المسلمين قال الرسول ﷺ للأنصار: «قوموا إلى سيدكم أو خيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك. قال: تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم وتقسم أموالهم. فقال له النبي ﷺ: قضيت بحكم الله تعالى»[(٣)].

ونفذ الرسول ﷺ حكم الله فيهم. وكانوا أربعمائة على الأرجح[(٤)]. ولم

---

(١) من رواية أحمد: الفتح الرباني (٢١/ ٨١ ـ ٨٣) ورواته ممن يحتج بهم. وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ١٤٠): «وهذا الحديث إسناده جيد». وروى الطبري في تاريخه (٢/ ٥٨٣) وفي الصحيح بعضه، بإسناد حسن، أن المدة بين الشهر والخمس وعشرين ليلة ـ بلفظ الشك، وعند ابن إسحاق خمس وعشرين ليلة ـ ابن هشام (٣/ ٣٢٦) معلقاً، وهو الذي تابعه أهل السير والمغازي في ذلك. وعند ابن سعد (٢/ ٧٤) ـ معلقاً ـ أنها خمسة عشر يوماً. وعند ابن عقبة بضع عشرة ليلة كما ذكره عنه ابن حجر في الفتح (١٦/ ٣٠/ك. المغازي/ب. مرجعه من الأحزاب).

(٢) من رواية أحمد في المسند بإسناد حسن: الفتح الرباني (٢١/ ٨١ ـ ٨٣).

(٣) البخاري/ الفتح (١٥/ ٢٩٨/ ح ٤١٠١)، مسلم (٣/ ١٣٨٨ـ ١٣٨٩/ ح ١٧٦٨).

(٤) من رواية أحمد في مسنده، بإسناد حسن (٣/ ٣٥٠)، وفي حديث جابر عند الترمذي والنسائي وابن حبان، بإسناد صحيح، وذكر ذلك ابن حجر في الفتح (١٥/ ٣٠١). وقد اختلف في عدتهم: قال ابن إسحاق: «وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكثر لهم يقول: «كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة» ـ ابن هشام (٣/ ٣٣٣) ـ وعند ابن عائذ من مرسل قتادة: كانوا سبعمائة ـ ذكره ابن حجر في الفتح (١٥/ ٣٠١). وعند ابن سعد (٢/ ٧٥)، أنهم كانوا ما بين ستمائة إلى سبعمائة وعند الواقدي ثلاث روايات: الأولى أنهم ستمائة، والثانية أنهم ما بين ستمائة إلى سبعمائة، والثالثة تقول إنهم كانوا سبعمائة وخمسين ـ المغازي (٢/ ٥١٧ـ ٥١٨) قال ابن حجر في الفتح (١٥/ ٣٠١): «فيحتمل في طريق الجمع أن يقال إن الباقين كانوا أتباعاً».

ينج إلا بعضهم[1]، وهم ثلاثة، لأنهم أسلموا، فأحرزوا أموالهم[2]، وربما نجا اثنان آخران منهم بحصولهم على الأمان من بعض الصحابة، أو لما أبدوه من التزام بالعهد أثناء الحصار[3]. وربما نجا آخرون لا يتجاوزون عدد أفراد أسرة واحدة، إذ يفهم من رواية عند ابن إسحاق[4] وغيره[5] أن الرسول ﷺ وهب

(١) البخاري/ الفتح (١٥/ ٢٠٢/ ح ٤٠٢٨)، مسلم (٣/ ١٣٨٨ـ ١٣٨٩/ ح ١٧٦٦)، وأبو داود في سننه (٢/ ١٤٠ـ ١٤١) وأبو عوانة في مسنده (٤/ ١٦٣).

(٢) ابن إسحاق بإسناد ضعيف، في المرة الأولى فيه جهالة الشيخ من بني قريظة، وإسنادها قوي ولكنه مرسل، وفي المرة الثانية مُعلقاً ـ ابن هشام (١/ ٢٧٢) و (٣/ ٣٢٩)، والذي يبدو أن إسناده الأول يتقوى مع المتابعة، وقد توبع برواية البخاري ومسلم وأبي داود وأبي عوانة التي فيها أنه لم ينج أحد إلا بعضهم، وهذا البعض هو الذي فسرته رواية ابن إسحاق هذه، وهم: ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعيد وأسد بن عبيد، كما ذكر ابن إسحاق معلقاً ـ ابن هشام (٣/ ٣٢٩)، وذكرهم ابن حجر في الإصابة (١/ ٣٣) وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٧٩) ضمن الصحابة.

(٣) ذكر ابن إسحاق ـ معلقاً ـ ابن هشام (٣/ ٣٣٠) منهم: عمرو بن سعدي، حيث مر في تلك الليلة بحرس رسول الله ﷺ وعليه محمد بن مسلمة فتركه وشأنه لأنه ممن لم يغدر بالرسول ﷺ وكذلك ذكره أبو عبيد في الأموال ص ١٤٦ بإسناد ضعيف لأنه من مراسيل الزهري، وذكر ابن إسحاق بإسناد يبدو من القرائن أنه حسن ـ ابن هشام (٣/ ٣٣٧ـ ٣٣٨)، كما خرجه السندي، ص ٣٧٩، وذكر ابن سلمى بنت قيس ـ خالة الرسول ﷺ طلبت منه أن يهب لها رفاعة بن سموأل القرظي فوهبه لها. وذكره الواقدي (٢/ ٥١٤ـ ٥١٥)، ولرفاعة صحبة ورواية كما في الإصابة (١/ ٥١٨) والاستيعاب (١/ ٥٠٤) ـ ترجمته ـ والدرر، ص ١٩٣.

(٤) بإسناد ضعيف ـ ابن هشام (٣/ ٣٣٥ـ ٣٣٦) ـ لم يصرح فيه ابن إسحاق بالسماع ودلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٢٢) ـ من حديث ابن إسحاق عن الزهري مرسلاً، وصرح فيه بالسماع، و (٤/ ٢٠ـ ٢١) ـ من حديث موسى بن عقبة عن الزهري مرسلاً والطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف لأن فيه موسى بن عبيدة ـ المجمع (٦/ ١٤٢)، والواقدي (٢/ ٥١٨ـ ٥٢٠)، وجزم ابن عبد البر بذلك وذكر أن لعبد الرحمٰن بن الزبير صحبة ـ انظر: الاستيعاب (٢/ ٤١٩)، والدرر، ص ١٩٣. وهذه الطرق الضعيفة تدل على أن لقصة ثابت بن قيس مع الزبير بن باطا أصلاً، وعلى أقل تقدير أن ثابتاً أحسن إلى الزبير ليد كانت للزبير على ثابت في الجاهلية.

(٥) مثل أبي عبيد: الأموال، ص ١٤٦ بإسناد ضعيف لأنه من مرسل الزهري.

لثابت بن قيس بن الشَّمَّاس ولد الزُّبير بن بَاطَا القُرظي، فاستحياهم، منهم عبد الرحمٰن بن الزبير، الذي أسلم، وله صحبة.

وجمعت الأسرى في دار بنت الحارث النجارية[1]، ودار أسامة بن زيد[2] وحفرت لهم الأخاديد في سوق المدينة، فسيقوا إليها المجموعة تلو الأخرى لتضرب أعناقهم فيها[3]. وقتلت امرأة واحدة منهم[4]، لقتلها خلاد بن سويد رضي الله عنه حيث ألقت عليه برحى[5]. ولم يقتل الغلمان ممن لم يبلغوا سن البلوغ[6].

---

(١) من رواية ابن إسحاق ـ ابن هشام (٣/ ٣٣٣) معلقاً، والواقدي (٢/ ٥١٢).

(٢) من رواية عروة في مغازيه، ص ١٨٧، والواقدي (٥١٢ـ ٥١٨) ويوضح الواقدي أن السبي سيقوا إلى دار أسامة بن زيد، والنساء والذرية سيقوا إلى دار رملة بنت الحارث. ووقع في حديث الرسول ﷺ أمر بأسلحتهم فجعلت في بيت، ولعل هذا البيت هو دار ابنة الحارث. ووقع في حديث جابر عند ابن عائذ التصريح بأنهم جعلوا في بيتين ـ ابن حجر: الفتح (١٦/ ٣٠). وهكذا يتضح من رواية الواقدي وابن عائذ أنهم حبسوا في بيتين ولذا لا معنى لكلام ابن حجر، الفتح (١٦/ ٣٠) عن الكلام على الجمع بين الروايات لأن بعضها جاءت مفسرة وموضحة للأخريات.

(٣) من رواية أحمد في المسند (٤/ ٣١٠)، الألباني: صحيح الترمذي (٣/ ١١٨/ ح ٣٥٤٤) وقال «صحيح» وغيرهما. والحديث لا يقل عن درجة الحسن لذاته كما ذكر السندي ص ٢٨٨/ ٢٨٩.

(٤) من رواية أحمد في المسند (٦/ ٢٧٧)، وأبي داود في السنن ٣/ ١٣٣/ك. الجهاد/ ح ٢٦٧١) بإسناد حسن لذاته وعنده أن السبب لحدث أحدثته، وقال الشارح إنها شتمت النبي ﷺ، وابن إسحاق بإسناد حسن ـ ابن هشام (٣/ ٣٣٤)، والواقدي (٢/ ٥١٦) واسمها عنده «نباتة» وفي أصل سيرة ابن إسحاق «بثاثة».

(٥) من رواية أحمد في المسند (٦/ ٢٧٧)، وأبي داود في السنن (٢/ ٥٠/ك. الجهاد/ب. قتل النساء، والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٥ـ ٣٦) وصححه وسكت عنه الذهبي، وابن هشام ـ معلقاً (٣/ ٣٣٥)، والحديث لا يقل عن درجة الحسن لذاته كما ذكر السندي ص ٢٨٩. وخلاد هو الشهيد الوحيد في غزوة بني قريظة كما هو واضح من هذه الأحاديث.

(٦) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٥٦١/ك. الحدود/ب. في الغلام يصيب الحد/ح ٤٤٠٤/ ٤٤٠٥)، والترمذي كما في صحيح سنن الترمذي للألباني (٢/ ١١٤/ك. السير/ح ١٦٤٩) ورمز له بالصحة، وابن ماجه (رقم ٥٤١)، كما ذكر الألباني في صحيح الترمذي، وأحمد في مسنده (٤/ ٣١٠١) و (٥/ ٣١١ـ ٣١٢) وابن إسحاق بإسناد حسن. ابن هشام =

ثم قسم الرسول ﷺ أموالهم وذراريهم بين المسلمين[1].

مصير بعض سبي بني قريظة:

ذكر ابن إسحاق وغيره[2] أن رسول الله ﷺ بعث سعد بن زيد الأنصاري بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد، فابتاع لهم بها خيلاً وسلاحاً.

وذكر الواقدي في المغازي[3] في شأن بيع سبايا بني قريظة قولين آخرين إضافة إلى ذكره ابن إسحاق، والقولان هما:

١ـ بعث رسول الله ﷺ سعد بن عبادة إلى الشام بسبايا ليبيعهم ويشتري بهم سلاحاً وخيلاً.

٢ـ اشترى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما جملة من السبايا... إلخ. ويمكن الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة بأن ذلك كله قد حدث.

واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم رَيْحَانَة بنت عمرو بن خُنَاقَة، وأسلمت. وقد توفي عنها رسول الله ﷺ وهي في ملك يمينه، وكان ذلك باختيارها[4].

= (٣/ ٣٣٧)، وابن سعد (٢/ ٧٦ـ ٧٧) بإسناد صحيح، وهو نفس طريق ابن إسحاق ورواه غير هؤلاء. والحديث لا يقل عن درجة الحسن لذاته ـ انظر السندي، ص ٢٨٧ و ٢٨٩.

(١) البخاري/ الفتح (١٥/ ٢٠٢/ ح ٤٠٢٨)، مسلم (٣/ ١٣٨٨/ ح ١٧٦٦)، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٧].

(٢) ذكره عنه الشامي في سيرته (٥/ ٢٩) وابن عبد البر في: الاستيعاب (٢/ ٤٧/ ترجمة سعد بن زيد)، ذكره معلقاً. وذكره الواقدي (٢/ ٥٢٣).

(٣) (٢/ ٥٢٣) وانظر: السيرة الشامية (٥/ ٢٩) والسيرة الحلبية (٢/ ٦٧٤ـ ٥٧).

(٤) رواه ابن إسحاق بإسناد مرسل ـ ابن هشام (٣/ ٣٣٩) ولكنه يتقوى بالمتابعة، فقد رواه ابن سعد (٨/ ١٣١) بإسناد رجاله ثقات يحتج بهم ما عدا الواقدي، وقد عدها من زوجات الرسول ﷺ، والواقدي (٢/ ٥٢٠ـ ٥٢١) والطبري في التاريخ (٢/ ٥٩٢)، وعدها ابن عبد البر ـ الاستيعاب (٤/ ٣٠٩)ـ بهامش الإصابة، وابن حجر: الإصابة (٤/ ٣٠٩) في زوجات الرسول ﷺ ـ وسيأتي ذكرها في الفصل الخاص بأمهات المؤمنين. (٢٩) شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ٩٣).

دروس وعبر من غزوة بني قريظة:

١ـ جواز قتل من نقض العهد. ولا زالت الدول تحكم بقتل الخونة الذين يتواطؤون مع الأعداء حتى زماننا هذا.

٢ـ جواز التحكيم في أمور المسلمين ومهامهم. كما في تحكيم ابن معاذ.

٣ـ مشروعية الاجتهاد في الفروع، ورفع الحرج إذا وقع الخلاف فيها. فقد اجتهد الصحابة في تفسير قول الرسول ﷺ: «ألا لا يصلين أحد العصر ـ أو الظهر ـ إلا في بني قريظة»، ولم يخطىء الرسول أحداً منهم ﷺ.

٤ـ ذكر النووي أن جماهير العلماء احتجوا بقول الرسول ﷺ: «قوموا إلى سيدكم أو خيركم. . .» وغيره على استحباب القيام لأهل الفضل، وليس هذا من القيام المنهي عنه، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه.

غزو خيبر وتداعياتها:

أما أجلى الرسول بني النضير عن المدينة، وذهب بعضهم إلى خيبر انضموا إلى من فيها من اليهود، وطاف زعماء بني النضير في بلاد العرب يحرضون المشركين على قتال المسلمين، حتى قدموا إلى مكة فقابلوا رؤساء قريش، وأخذوا يحرضونهم على قتالهم، فقالوا لهم: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟. . قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه. وقد نزل في ذلك القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾[1].

ولا شك أن هذا ارتداد منهم عن يهوديتهم، لأن اليهودية تدعو إلى التوحيد مثل الإسلام، فمن يفضل الشرك على الإسلام لا يكون مؤمناً باليهودية التي جاء بها موسى عليه السلام.

ثم كان من شأنهم أن جمعوا جيشاً عظيماً لحرب المسلمين بالمدينة، وهو خليط من العرب واليهود. وكان لا بد للرسول، وقد كان من شأن يهود خيبر ما

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥١.

تقدم، أن يغزوهم، ويؤمن المسلمين من عدوهم خاصة قبل أن يقدم بعد ذلك على فتح مكة.

لم يبد يهود خيبر عداء سافراً للمسلمين حتى لحق بهم زعماء بني النضير عندما أُجْلُوا عن المدينة، ومن الثابت تاريخياً في ضوء مصادر التاريخ الإسلامي، بل وكتب السنة المطهرة أنه قد كان من أبرز زعماء بني النضير الذين غادروا المدينة ونزلوا خيبر: سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب، فلما نزلوها دان لهم أهلها[1].

لقد نزلوها بأحقادهم ضد المسلمين، ولذا كانوا كلما وجدوا فرصة للانتقام من المسلمين انتهزوها، ووجدوا في قريش وبعض قبائل العرب حصان طروادة الذي سيدخلون به المدينة مرة أخرى، فألبوهم ضد المسلمين، ثم جروهم إلى غزوة الخندق[2]، وسعوا في إقناع بني قريظة للانضمام إليهم والغدر بالمسلمين[3]. ولذا كانت تلك العقوبة الرادعة التي أنزلها المسلمون بهم عندما صرف الله الأحزاب، وأرسل الرسول ﷺ سرية عبد الله بن عتيك للقضاء على رأس من رؤوسهم أفلت من العقاب يوم قريظة، وهو سلام بن أبي الحقيق، فقتلوه.

وكانت هدنة الحديبية فرصة أمام المسلمين لتصفية هذا الجيب الذي يشكل خطورة على أمن المسلمين، وقد وعد الله المسلمين بمغانم كثيرة يأخذونها إذا هزموا يهود خيبر، وإلى ذلك أشارت سورة الفتح التي نزلت في طريق العودة من الحديبية ﴿۞لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾[4][5].

---

(١) ابن إسحاق ـ معلقاً ـ ابن هشام (٣/ ٢٦٩).

(٢) ابن إسحاق بإسناد مرسل ـ ابن هشام (٣/ ٢٩٨ـ ٢٩٩).

(٣) ابن إسحاق ـ معلقاً ـ ابن هشام (٣/ ٣٠٧ـ ٣٠٩).

(٤) سورة الفتح، الآيات: ١٨ ـ ٢١.

(٥) قال مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ يعني فتح خيبر ـ انظر تفسير =

تاريخ الغزوة:

ذكر ابن إسحاق[1] إنها كانت في المحرم من السنة السابعة الهجرية، وذكر الواقدي[2] أنها كانت في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة بعد العودة من غزوة الحديبية، وذهب ابن سعد[3] إلى أنها في جمادى الأولى سنة سبع، وقال الإمام الزهري ومالك إنها في المحرم من السنة السادسة[4]. وظاهر أن الخلاف بين ابن إسحاق والواقدي يسير، وهو نحو الشهرين، وكذلك فإن الخلاف بينهما وبين الإمامين الزهري ومالك مرجعه إلى الاختلاف في ابتداء السنة الهجرية الأولى. وقد رجح ابن حجر[5] قول ابن إسحاق على قول الواقدي.

سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر وشدة بأس رجالها وعتادهم الحربي. وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة، فطلب منهم النبي ﷺ أن يرفقوا بأنفسهم قائلاً: «إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم»[6]. وسلكوا طريقاً بين خيبر وغطفان ليحولوا بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر لأنهم كانوا أعداء للمسلمين[7].

ونزل المسلمون بساحة اليهود قبل بزوغ الفجر، وقد صلى المسلمون الفجر قرب خيبر، ثم هجموا عليها بعد بزوغ الشمس، وفوجىء أهلها بهم وهم في طريقهم إلى أعمالهم، فقالوا: «محمد والخميس!!» فقال الرسول ﷺ: «الله أكبر

= ابن كثير (٧/ ٣٢٢) قال ابن حجر في الفتح (١٦/ ٤٠ـ ٤١): وروى يونس بن بكير في المغازي عن ابن إسحاق في حديث المسور ومروان قالا: «انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة، فأعطاه الله فيها خيبر بقوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ يعني خيبر وقد اختلف المفسرون في تفسير المعنى بهذه الغنيمة، فقال العوفي عن ابن عباس إنها خيبر، وقاله غيره.

(١) ابن هشام (٣/ ٤٥٥) ـ معلقاً.

(٢) المغازي (٢/ ٦٣٤).

(٣) الطبقات (٢/ ١٠٦).

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق (١/ ٣٣).

(٥) الفتح (١٦/ ٤١).

(٦) البخاري/ الفتح (١٦/ ٥٠/ح ٤٢٠٥).

(٧) ابن هشام (٣/ ٤٥٥) ـ معلقاً.

خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[1].

وهرب اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون. وقد حاولت غطفان نجدة حلفائهم يهود خيبر، حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حساً فظنوا أن المسلمين قد خالفوا إليهم فرجعوا، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر[2]، فأخذ المسلمون في افتتاح حصونهم واحداً تلو الآخر. وكان أول ما سقط من حصونهم ناعم والصعب بمنطقة النطاة وأبي النزار بمنطقة الشق، وكانت هاتان المنطقتان في الشمال الشرقي من خيبر، ثم حصن القموص المنيع في منطقة الكتيبة، وهو حصن ابن أبي الحقيق، ثم أسقطوا حصني منطقة الوطيح والسلالم[3].

وقد واجه المسلمون مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصن ناعم الذي استشهده تحته محمود بن مسلمة الأنصاري، حيث ألقى عليه مرحب رحى من أعلى الحصن[4]، والذي استغرق فتحه عشرة أيام[5]؛ فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصديق، ولم يفتح الله عليه، وعندما جهد الناس، قال رسول الله ﷺ إنه سيدفع اللواء غداً إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح له، فطابت نفوس المسلمين، فلما صلى الفجر في اليوم التالي دفع اللواء إلى علي، ففتح الله على يديه[6].

---

(١) البخاري/الفتح (٣/٢٨٨/ح ٦١٠). مسلم (٣/ ١٤٢٦ـ ١٤٢٧/ح ١٣٦٥).

(٢) ابن إسحاق ـ بلاغاً ـ ابن هشام (٣/٤٥٨)، والواقدي (٢/ ٦٥٠).

(٣) الواقدي (٢/ ٦٣٩) وابن إسحاق ـ بإسناد منقطع ـ ابن هشام (٣/ ٤٦١ـ ٦٢)، مع الاختلاف بينهما في تقديم وتأخير فتح حصن ما على الآخر.

(٤) ابن إسحاق ـ بإسناد حسن ـ ابن هشام (٣/ ٤٦٤) وفيه استشهاده دون ذكر الكيفية، وابن إسحاق بإسناد معلق ـ ابن هشام (٣/ ٤٥٩) وفيه قتل بالرحى، ولم يذكر من ألقاها عليه، والواقدي (٢/ ٦٤٥) وفيه أن الذي ألقى الرحى عليه هو مرحب اليهودي.

(٥) الواقدي (٢/ ٦٥٧).

(٦) مسند أحمد (٥/ ٣٥٣)، ومستدرك الحاكم (٣/ ٣٧). وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ومجمع الزوائد (٦/ ١٥٠) وصححه الهيثمي، وأصل الرواية عند مسلم (٤/ ١٨٧٢/ح ٢٤٠٥ـ ٢٤٠٧) وليس فيها خبر حمل أبي بكر الراية. ووردت روايتان ضعيفتان =

وكان علي يشتكي من رمد في عينيه عندما دعاه الرسول ﷺ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرىء[1].

ولقد أوصى الرسول ﷺ علياً بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم»[2]. وعندما سأله عليّ: «يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟» قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك منعوا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»[3].

وعند حصار المسلمين لهذا الحصن، برز لهم سيده وبطلهم مرحب، وكان سبباً في استشهاد عامر بن الأكوع، ثم بارزه علي فقتله[4]، مما أثر سلبياً في معنويات اليهود ومن ثم هزيمتهم.

وقد أبلى عليّ بلاء حسناً في هذه الحرب. ومن دلائل ذلك: روى ابن إسحاق[5] من حديث أبي رافع ـ مولى رسول الله ﷺ ـ أن علياً عندما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده، فتناول علي باباً كان عند الحصن[6] فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو

= تشير إحداهما إلى أن حامل الراية قبل علي هو عمر وليس أبا بكر، وتشير الأخرى إلى أن أبا بكر وعمر تعاقبا في اليومين الأولين على حمل الراية. والرواية في مسند أحمد (٥/٣٥٨) وكشف الأستار (٢/٣٣٨) ومدارها على ميمون البصري وهو ضعيف، والثانية عند ابن إسحاق بن هشام (٣/ ٤٦٥ـ ٤٦٦) وفي إسنادها بريدة بن سيفان، وهو ضعيف والروايتان تعتضدان فتقويان بعضهما البعض.

(١) مسلم (٤/١٨٧٢/ح ٢٤٠٦)، ورواه ابن إسحاق بإسناد ضعيف ولكنه يتقوى بالشواهد والمتابعات ـ ابن هشام (٣/٤٦٦) ـ انظر: كشف الأستار (٢/ ٣٣٨ـ ٣٩) والحاكم (٣/ ٣٨ـ ٣٩).

(٢) مسلم (٤/١٨٧١/ح ٢٤٠٤ـ ٢٤٠٥).

(٣) المصدر نفسه (ص ١٨٧٢/ح ١٤٠٥).

(٤) المصدر نفسه (٣/١٤٤٠/ح ١٨٠٧).

(٥) ابن هشام (٣/٤٦٧) بإسناد ضعيف لأن فيه راوٍ لم يسمه ابن إسحاق.

(٦) نقل البيهقي في الدلائل (٤/٢١٢) رواية ابن إسحاق هذه. ويبدو بعض التحريف في نقله، إذ ذكر أن علياً تناول باب الحصن فترس به عن نفسه.

يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ. قال الراوي ـ أبو رافع: فلقد رأيتني في نفر سبعة معي، أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما نقلبه.

وروى البيهقي[١] من طريقين مرفوعين إلى جابر رضي الله عنه قصة علي والباب ويوم خيبر. ففي الطريق الأول أن علياً رضي الله عنه حمل الباب حتى صعد عليه المسلمون فافتتحوها، ولم يستطع أربعون رجلاً أن يحملوا هذا الباب[٢]. وفي الطريق الثانية أنه اجتمع عليه سبعون رجلاً، فأعادوه إلى مكانه بعد أن أجهدهم[٣].

توجه المسلمون إلى حصن الصَّعْب بن مُعاذ بعد فتح حصن ناعم، وأبلى حامل رايتهم الحباب بن المنذر بلاءً حسناً حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه الكثير من الطعام والمتاع، يوم كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعده إلى حصن قلعة الزبير الذي اجتمع فيه الفارون من حصن ناعم والصعب وبقية ما فتح من حصون يهود ـ فحاصروه وقطعوا عنه مجرى الماء الذي يغذيه، فاضطروهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيام، وبذلك تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النَّطَاة التي كان فيها أشد اليهود.

ثم توجهوا إلى حصون منطقة الشِّق، وبدؤوا بحصن أُبَيّ، فاقتحموه، وأفلت بعض مقاتلته إلى حصن نزَار، وتوجه إليهم المسلمون فحاصروهم ثم افتتحوا الحصن، وفر بقية أهل الشق من حصونهم وتجمعوا في حصن القَمُوص المنيع وحصن الوَطيح وحصن السُّلاَلِم، فحاصرهم المسلمون لمدة أربعة عشر يوماً حتى طلبوا الصلح[٤].

---

(١) دلائل النبوة (٤/ ٢١٢).

(٢) وهذا الطريق رجاله ثقات إلا الليث بن أبي سليم، وهو صدوق اختلط جداً ولم يتميز حديثه فترك. وقال البيهقي: الدلائل (٤/ ٢١٢): تابعه فضيل بن عبد الوهاب عن المطلب بن زياد.

(٣) وهذا الطريق ضعيف أيضاً كما قال الشامي في السيرة (٥/ ٢٠١). وقال الشامي هنا: «رواه الحاكم». قلت: إن هذه الطرق تعتضد فتتقوى وتدل على أن للقصة أصلاً. والراجح عندي مضمون رواية ابن إسحاق لأنها أقرب إلى المعقول، أما الروايات الأخرى فلا مانع من قبولها في ضوء أن ما حدث يمكن تفسيره بأنه كرامة من كرامات علي رضي الله عنه.

(٤) الواقدي (٢/ ٦٥٨ـ ٦٧١).

وهكذا فتحت خيبر عنوة[١]، استناداً إلى النظر في مجريات الأحداث التي سقناها، وما روى البخاري[٢] ومسلم[٣] وأبو داود[٤] من أن رسول الله ﷺ غزا خيبر وافتتحها عنوة.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فَدَك ـ شمالي خيبر ـ فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك، فقبل ذلك منهم. فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب[٥].

وقتل من اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعون رجلاً[٦]. وسبيت النساء والذراري، منهن صفية بنت حيي بن أخطب، التي اشتراها الرسول ﷺ من دحية حيث وقعت في سهمه فأعتقها وتزوجها[٧]. وقد دخل عليها في طريق العودة إلى المدينة، وتطوع لحراسته في تلك الليلة أبو أيوب الأنصاري[٨].

واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحاق[٩] وخمسة عشر فيما ذكر الواقدي[١٠].

---

(١) انظر مناقشة قول من قال إن بعضها فتح عنوة والبعض الآخر صلحاً، وجزم ابن القيم في الزاد (٣/ ٣٥٢ـ ٥٤) وابن عبد البر في الدرر، ص ٢١٤ بأنها فتحت عنوة، وكذلك عوض الشهري في رسالته: مرويات خيبر، ص ١٩٧ـ ١٩٩.

(٢) الفتح (٣/ ٣٢/ح ٣٧١).

(٣) صحيحه (٣/ ١٤٢٧/ ح ١٣٦٥).

(٤) السنن (٣/ ٤٠٨ـ ١٤٠/ك. الخراج/ح ٣٠٠٩) بإسناد صحيح.

(٥) رواه ابن إسحاق ـ معلقاً ـ ابن هشام (٣/ ٤٩٠ـ ٤٩١)، وأبو داود (٣/ ٤١٤/ك. الخراج/ب. ما جاء في حكم أرض خيبر/ ح ٣٠١٦) وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود (٤/ ٢٣٩): هذا مرسل، وأبو يوسف في الخراج، ص ٥٠، وفي سنده الكلبي، وهو متروك.

(٦) الواقدي (٢/ ٧٠٠) وأسانيد الواقدي ضعيفة كما هو معلوم لأنه متروك في الحديث.

(٧) مسلم (٢/ ١٠٤٥ـ ١٠٤٦/ح ١٣٦٥)، البخاري/ الفتح (١٥/ ٥٩ـ ٦٠/ح ٤٢١١) وعنده أنه اصطفاها لنفسه.

(٨) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٨) وصححه ووافقه الذهبي.

(٩) ابن هشام (٣/ ٤٧٨) ـ معلقاً.

(١٠) المغازي (٢/ ٧٠٠).

وممن استشهد من المسلمين راعي غنم أسود كان أجيراً لرجل من يهود. وخلاصة قصته أنه أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر لبعض حصون خيبر ومعه غنم يرعاها لبعض يهود خيبر، فطلب من الرسول ﷺ أن يعرض عليه الإسلام، فعرضه عليه، فأسلم، ثم استفتاه في أمر الغنم، فطلب منه الرسول ﷺ أن يضرب وجوهها، فسترجع إلى أصحابها، فأخذ الراعي حفنة من الحصى فرمى بها في وجوهها، فرجعت إلى أصحابها، وتقدم ليقاتل فأصابه حجر فقتله، وما صلى لله صلاة قط، فجيء به إلى رسول الله ﷺ فسجي بشملة، فالتفت إليه الرسول ﷺ ثم أعرض عنه، وعندما سئل عن إعراضه قال: «إن معه الآن زوجتيه من الحور العين»[1].

واستشهد أعرابي له قصة دلت على وجود نماذج فريدة من المجاهدين. وخلاصة قصته أنه جاء إلى النبي ﷺ فأسلم، وطلب أن يهاجر مع الرسول ﷺ. فلما كانت غزوة خيبر - وقيل حنين - غنم رسول الله وأخرج له سهمه، وكان غائباً حين القسمة، ويرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوا إليه سهمه، فأخذه وجاء به إلى النبي ﷺ وقال: «ما هذا يا محمد»، قال النبي ﷺ: «قسم قسمته لك». قال: «ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمي هاهنا، وأشار إلى حلقه بسهم، فأدخل الجنة»، قال: «إن تصدق الله يصدقك»، ولم يلبث قليلاً حتى جيء به وقد أصابه سهم حيث أشار، فقال الرسول ﷺ: «صدق الله فصدقه»، فكفنه الرسول ﷺ في جبة للنبي ﷺ ودفنه[2].

وبعد الفراغ من هذه الغزوة حاول اليهود قتل الرسول ﷺ بالسم. فقد أهدته امرأة منهم شاة مشوية مسمومة، وأكثرت السم في ذراع الشاة عندما عرفت أنه يحبه، فلما أكل من الذراع أخبرته الذراع أنه مسموم فلفظ اللقمة، واستجوب المرأة، فاعترفت بجريمتها، فلم يعاقبها[3]. في حينها، ولكنه قتلها عندما مات

---

(١) رواه ابن إسحاق - بلاغاً - ابن هاشم (٣/ ٤٧٩- ٤٨٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٣٦) من غير طريق ابن إسحاق وصححه ولم يقره الذهبي لأن في إسناده شرحبيل بن سعد، هو منهم، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٢١٩- ٢٢٠) من طريق موسى بن عقبة، مرسلاً، ومن حديث عروة، مرسلاً، وهذا يدل على أن للقصة أصلاً.

(٢) رواه عبد الرزاق في المصنف (٥/ ٢٧٦) بإسناد صحيح.

(٣) البخاري/ الفتح (١٢/ ٢٦١/ح ٣١٦٩)، ومسلم (٤/ ١٧٢١/ح ٢١٩٠).

بِشْر بن البَراء بن مَعْرور من أثر السم الذي ابتلعه مع الطعام عندما أكل مع الرسول ﷺ[1].

وتم الصلح في النهاية بين الطرفين وفق الأمور الآتية:

- بالنسبة للأراضي والنخيل - أي الأموال الثابتة: دفعها لهم الرسول ﷺ على أن يعملوا عليها ولهم شطر ما يخرج منها[2].
- أن ينفقوا من أموالهم على خدمة الأرض[3].
- أما بالنسبة لوضعهم القانوني فقد تم الاتفاق على أن بقاءهم بخيبر مرهون بمشيئة المسلمين، فمتى شاؤوا أخرجوهم منها.

وقد أخرجهم عمر بن الخطاب إلى تيما وأريحاء[4]، استناداً إلى قول الرسول ﷺ في مرض موته: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»[5] وتكرر منهم الاعتداء على المسلمين. ففي المرة الأولى اتهمهم الرسول ﷺ في قتل

---

(١) الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٢٠)، وعبد الرزاق في المصنف بإسناده إلى أبي بن كعب كما ذكر ابن حجر في الفتح (١٦/ ٨١)، والواقدي (٢/ ٦٧٩) والبيهقي في الدلائل (٤/ ٢٥٦- ٢٦٤) وقد ذكر جميع الروايات في الموضوع. وانظر تعليق المحقق على القضية، خاصة ما كشفه الدكتور منير العجلاني - رئيس تحرير المجلة العربية، من أن تسميم الرسول ﷺ كان بقرار من اليهود وذلك استناداً إلى ما جاء في وثيقة أرمنية قديمة تعرض لها العجلاني بالدراسة في المجلة العربية - السنة الثالثة - العدد الثالث. والذي يبدو أن إثبات هذه الوثيقة فيه نظر، إذ لو ثبت ذلك لترتب عليه حكم فقهي تبعاً لكونهم جميعاً اشتركوا في قتله.

(٢) من رواية البخاري/ الفتح (١٦/ ٨٠ - ٨١/ح ٤٢٤٨)، ومسلم (٣/ ١١٨٦- ١١٨٧/ح ١٥٥١).

(٣) مسلم (٣/ ١١٨٧/ح ١١٥١) وغيره.

(٤) مسلم (٣/ ١١٨٨/ح ١١٥١)، البخاري/ الفتح (١٢/ ٢٣٩/ح ٣١٥٢).

(٥) ابن سعد (٢/ ٢٤٢) بإسناد صحيح، ورواه ابن إسحاق موقوفاً عن الزهري - ابن هشام (٣/ ٤٩٥) ولفظة: «لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان» ورواه مرسلاً عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة من حديث الزهري - ابن هشام (٣/ ٤٩٠)، ورواه أحمد في المسند (٦/ ٢٧٥) بإسناد صحيح، وعبد الرزاق في مصنفه (٦/ ٢٥٧) بإسنادين الأول متصل عن عائشة والثاني موقوف عن ابن جريج.

عبد الله بن سهل، فأنكروا فلم يعاقبهم، فوداه رسول الله ﷺ من عنده[(١)]. وفي هذه المرة الثانية التي أكدت الأولى ـ كما أشار عمر ـ أنهم اعتدوا على عبد الله بن عمر، وفدعوا يديه[(٢)].

واتفقوا على إيفاد مبعوث من قبل النبي ﷺ إلى أهل خيبر ليخرص ويقبض حصة المسلمين[(٣)].

أما بالنسبة للأموال المنقولة، فقد صالحوه على أن له الذهب والفضة والسلاح والدروع، ولهم ما حملت ركائبهم على ألا يكتموا ولا يغيبوا شيئاً، فإن فعلوه فلا ذمة لهم ولا عهد. فغيبوا مسكاً لحيي بن أخطب، وقد كان قتل قبل غزوة خيبر، وكان قد احتمله معه يوم بني النضير حين أجليت. وعندما سأل الرسول ﷺ سعية ـ عم حيي ـ عن المسك، قال: «أذهبته الحروف والنفقات»، فقال النبي ﷺ: «العهد قريب والمال أكثر من ذلك»، فدفعه النبي ﷺ إلى الزبير فمسه بعذاب، فاعترف بأنه رأى حيياً يطوف في خربة ها هنا، فوجدوا المسك فيها، فقتل لذلك ابني أبي الحقيق، وسبى نساءهم وذراريهم، وقتل محمد بن مسلمة ابن عم كنانة هذا الذي دل على المال، قتله بأخيه محمود بن مسلمة[(٤)].

وبالنسبة للطعام فقد كان الرجل يأخذ حاجته منه دون أن يقسم بين المسلمين أو يخرج منه الخمس ما دام قليلاً[(٥)] وكانت غنائم خيبر خاصة بمن

---

(١) رواه البخاري/ الفتح (٢٢/ ٣٤٠/ح ٦١٤٢، ٦١٤٣)، ومسلم (٣/ ١٢٩١ـ ١٢٩٥/ح ١٦٦٩)، ورواه غيرهما، واكتفينا بهما على سبيل الاختصار.

(٢) أحمد: المسند (١/ ٩٠/ح ٩٠، شاكر) بإسناد صحيح، وابن إسحاق بإسناد حسن ـ ابن هشام (٣/ ٤٩٥).

(٣) من حديث ابن عمر عند أحمد في المسند (٧/ ٧، شاكر) بإسناد صحيح، ومن حديث جابر في المسند: الفتح الرباني (٢١/ ١٢٥) بإسناد صحيح، والسنن لأبي داود (٣/ ٦٩٧/ ك. البيوع/ب. المساقاة) بإسناد حسن، والبيهقي في السنن (٩/ ١٣٧ـ ١٣٨) وابن حبان في صحيحه كما في موارد الظمآن (٤١٢ـ ٤١٣) كلاهما بإسناد واحد صحيح، وابن إسحاق بإسناد منقطع ـ ابن هشام (٣/ ٤٩١ـ ٤٩٢).

(٤) رواه أبو داود في سننه (٣/ ٤٠٨/ك. الخراج/ب. ما جاء في حكم أرض خيبر/ح ٣٠٠٦) بإسناد صحيح.

(٥) البخاري/الفتح (١٢/ ٢٤١/ح ٣١٥٣)، مسلم (٣/ ١٣٩٣/ح ١٧٧٢)، أحمد: =

شهد الحديبية من المسلمين، كما في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾[1]،[2].

ولم يغب عن فتح خيبر من أصحاب بيعة الرضوان أحد سوى جابر بن عبد الله، ومع ذلك أعطي سهماً مثل من حضر الغزوة ـ غزوة الحديبية[3].

وأعطى أهل السفينة من مهاجرة الحبشة الذين عادوا منها إلى المدينة، ووصلوا خيبر بعد الفتح، أعطاهم من الغنائم، وكانوا ثلاثة وخمسين رجلاً وامرأة بقيادة جعفر بن أبي طالب. وتقول الرواية إنه لم يقسم لأحد لم يشهد الفتح سواهم[4]. وهم الذين فرح الرسول ﷺ بقدومهم، وقبل جعفر بين عينيه والتزمه، وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر، بفتح خيبر أو بقدوم جعفر»[5].

= الفتح الرباني (٢١/ ١٢٥)، أبو داود (٣/ ١٥١/ك. الجهاد/ب. النهي عن النهي إذا كان في الطعام قلة في أرض العدو، الحاكم (٢/ ١٣٤)، الواقدي (٢/ ٦٦٤) وغيرهم.

(١) سورة الفتح، الآية: ١٥.

(٢) انظر تفسيرها عند الطبري (٢٦/ ٥٠).

(٣) ابن إسحاق ـ معلقاً ـ ابن هشام (٣/ ٤٨٦)، وذكر البخاري معلقاً أن الرسول ﷺ أعطى جابر بن عبد الله من تمر خيبر (الفتح ١٢/ ٢١٧ـ ٢١٨/ك. فرض الخمس/ب. ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين...) وقال ابن حجر ص ٢١٩ عن هذا الخبر المعلق: «...فهو من حديث أخرجه أبو داود، وظهر من سياقه أن حديث جابر الذي ترجم به المصنف للباب طرف منه» وانظر: سنن أبي داود (٣/ ٤١١ـ ٤١٢/ك. الخراج/ ح ٣٠١١، ٣٠١٢).

(٤) البخاري/الفتح (١٢/ ٢٢٢ـ ٢٢٣/ح ٣١٣٦)، مسلم (٤/ ١٩٤٦/ح ٢٥٠٢). ويحمل هذا القول على أنه أعطاهم دون استرضاء الغانمين، إذ روي أنه أعطى سواهم ولكن برضاء الغانمين. فقد أعطى أبا هريرة وبعض الدوسيين الذين قدموا بعد خيبر، ولم يشتركوا في القتال ـ انظر ابن شبة: تاريخ المدينة (١/ ١٨٧)، وابن حجر: الفتح (١٦/ ٧١).

(٥) سنن أبي داود (٥/ ٣٩٢/ك السنة/ب. في قبلة ما بين عينيه/ح ٥٢٢٠) وهو من مرسل الشعبي، وقد جاء مسنداً من طرق عن جابر كما عند الحاكم في المستدرك (٣/ ٢١١) وقد صححه الحاكم وقال الذهبي إنه مرسل، وعن طريق غير جابر كما في المعجم =

وربما يرجع سبب استثنائهم إلى أنهم حبسهم العذر عن شهود بيعة الحديبية، ولعله استرضى أصحاب الحق من الغانمين في الإسهام لهم، ولعله رأى ما كانوا عليه من الصدق وما عانوه في الغربة، وهم أصحاب الهجرتين[1].

وأعطى الرسول ﷺ أبا هريرة وبعض الدوسيين من الغنائم برضاء الغانمين، حيث قدموا عليه بعد فتح خيبر[2].

وشهد خيبر مع رسول الله ﷺ نساء مسلمات فأعطاهن من الفيء ولم يضرب لهن بسهم[3].

وكذلك أعطى من شهدها من العبيد، فقد أعطى عميراً، مولى أبي اللحم، شيئاً من الأثاث[4].

وأوصى ﷺ من مال خيبر لنفر من الداريين، سماهم ابن إسحاق[5].

وكان كفار قريش يتحسسون أخبار الرسول ﷺ مع يهود خيبر، ويسألون

= الكبير للطبراني (٢/ ١٠٧)، وكلها طرق لا تسلم من ضعف. وذكر الشيخ الألباني طرق هذا الحديث وشواهده ومال إلى تحسينه. انظر: تخريج أحاديث فقه السيرة للغزالي، ص ٣٦٧.

(١) د. العمري: المجتمع المدني ـ تنظيماته. . .، ص ١٧٤، وعوض الشهري: مرويات غزوة خيبر ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ الجامعة الإسلامية المدينة، ص ١٨١. وعن فضل أصحاب الهجرتين، انظر: مسلم (٤/ ١٩٦٤/ح ١٦٩٠).

(٢) عبد الرزاق: المصنف (٥/ ٢٧٦).

(٣) رواه ابن إسحاق معلقاً ـ ابن هشام (٣/ ٤٨٧٦)، ورواه الأوزاعي كما في صحيح سنن الترمذي (٢/ ١٠٦) وقال الألباني: صحيح الإسناد مقطوع. أما مسلم (٣/ ١٤٤٤ـ ١٤٤٥/ح ٨١٢) وغيره فقد رووا أنه كان يعطي النساء اللائي يغزون معه، ولم يقيدوه بغزوة خيبر.

(٤) من رواية أبي داود في سننه (٣/ ٧٥/ك. الجهاد/ب. في العبد والمرأة يحذيان من الغنيمة/ح ٢٧٣٠ ورواه الترمذي: صحيح سنن الترمذي للألباني (٢/ ١٠٦/ك. السير/ح ١٦١٦) ورمز إلى أنه في صحيح أبي داود ـ له ـ برقم ٢٤٤، ونقله ابن كثير في تاريخه (٤/ ٢٢٨). وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٢٣) وابن ماجه في الجهاد/ ح ٢٨٥٥، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٣١) وصححه.

(٥) ابن هشام (٣/ ٤٩١) ـ معلقاً ـ أي دون إسناد.

الركبان عن نتيجة المعركة، وقد فرحوا عندما خدعهم الحجاج بن عِلاَط السَّلَمِي وقال لهم إن المسلمين قد هزموا شر هزيمة وإن اليهود أسرت محمداً، وستأتي به ليقتل بين ظهراني أهل مكة ثأراً لمن كان أصيب من رجالهم، وما لبثوا قليلاً حتى علموا بأن الأمر خدعة من الحجاج بن علاط ليحرز ماله الذي بمكة ويهاجر مسلماً. فحزنوا لتلك النتيجة التي كانوا يراهنون على عكسها[1].

وبعد الفراغ من أمر خيبر توجه رسول الله ﷺ نحو وادي القرى، وحاصرهم، ثم دعاهم إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إذا أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم، وحسابهم على الله، فبرز رجل منهم، فبرز له الزبير فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه علي فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه أبو دجانة فقتله، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً، ثم قاتلهم حتى أمسوا، وفي الصباح استسلموا، ففتحت عنوة، وأقام فيها ثلاثة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه، وترك الأرض والنخل بأيدي يهود، وعاملهم عليها.

فلما بلغ يهود تيماء ما حدث لأهل فدك ووادي القرى، صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم. فلما كان عهد عمر أخرج يهود خيبر وفدك ولم يخرج أهل تيماء ووادي القرى لأنهما داخلتان في أرض الشام، ويرى أن ما دون وادي القرى إلى المدينة حجاز، وأن ما وراء ذلك من الشام[2].

وثبت في الصحيح أن مدعماً - مولى رسول الله ﷺ - أصابه سهم فقتله، وذلك حين كان يحط رحل رسول الله ﷺ عندما وصلوا وادي القرى. فقال الناس: «هنيئاً له بالجنة»، فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه ناراً». فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بشراك أو بشراكين، فقال: «هذا شيء كنت أصبته»، فقال رسول الله ﷺ: «شراك أو شراكان من نار»[3].

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف (٥/ ٤٦٦ـ ٤٦٩) بإسناد صحيح، وأحمد في المسند (٣/ ١٣٨) من طريق عبد الرزاق بإسناد صحيح، وابن حبان في موارد الظمآن ص ٤١٣، والبزار في كشف الأستار (٢/ ٣٤١)، وغيرهم.

(٢) الواقدي (٢/ ٧٠٩ـ ٧١١) بإسناده إلى أبي هريرة.

(٣) البخاري/ الفتح (١٦/ ٧١ـ ٧٢/ح ٤٢٣٤)، مسلم (١/ ١٠٨/ح ١١٥).

بعض دروس غزوة خيبر:

١ـ نهى رسول الله ﷺ عن الغلول، وأن من يموت وهو غالّ يدخل النار. وقد جاء ذلك في خبر الرجل الذي قال عنه الصحابة إنه شهيد، فقال لهم الرسول ﷺ: «كلا! إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة...»(١) وخبر مدعم مع الشملة...

٢ـ نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الحمر الإنسية(٢).

٣ـ نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم البغال(٣).

٤ـ النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع وعن أكل كل ذي مخلب من الطير(٤).

٥ـ النهي عن وطء الحبالى من السبايا حتى يضعن(٥).

٦ـ النهي عن ركوب الجلالة(٦) والنهي عن أكل لحمها(٧) وشرب لبنها(*).

---

(١) مسلم (١/ ١٠٧ـ ١٠٨/ح ١١٤، ١١٥).

(٢) البخاري/ الفتح (٢١/ ٦٨/ح ٥٥٢٣ـ ٥٥٢٩)، مسلم (٢/ ١٠٢٧ـ ١٠٢٨/ح ١٤٠٧).

(٣) مسند أحمد (٣/ ٣٦٥/ طبعة المكتب الإسلامي) بإسناد رجاله ثقات غير أن فيه عنعنة أبي الزبير، وهو مدلس، ولكن يشهد له ما أخرجه الترمذي في سننه (٥/ ٥٣/ أبواب الصيد/ ب. في كراهية كل ذي ناب وذي مخلب). ولفظه: عن جابر قال: «حرم رسول الله ﷺ يعني يوم خيبر الحمر الإنسية ولحوم البغال وكل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطير».

(٤) سنن أبي داود (٤/ ١٦٠/ك. الأطعمة/ ب. النهي عن أكل السباع/ح ٣٨٠٢، ٣٨٠٣، ٣٨٠٥، ٣٨٠٦) من حديث ابن عباس. سنن ابن ماجه (٢/ ١٠٧٧/ك. الصيد/ ب تحريم كل ذي ناب من السباع)، مسلم (٣/ ١٥٣٤/ح ١٩٣٢، ١٩٣٣، ١٩٣٤)، من حديث ابن عباس ولكن دون التقييد بمكان معين. وهو يعضد حديث ابن ماجه وأبي داود، فيكون الحديث حسناً.

(٥) رواه ابن الجارود في المنتقى/ك. النكاح/ ص ٢٤٤، بإسناد صحيح.

(٦) الجلالة: حيوان يأكل القذرة، [وهي الغائط]، من الإبل والغنم والدجاج وغيرها حتى يتغير ريحها.

(٧) رواه أبو داود في سننه (٤/ ١٦١/ك. الأطعمة/ب. في أكل لحوم الحمر الأهلية/ح ٣٨٠٦) بإسناد حسن. ورواه غيره [مثل أحمد والنسائي]..

(*) رواه الخمسة: إلا ابن ماجه، وصححه الترمذي. قال سيد سابق في فقه السنة =

٧ـ النهي عن النهبة من الغنيمة قبل قسمتها[١].

٨ ـ وأجرى الله على نبيه بعض المعجزات دليلاً على نبوته وعبرة لمن يعتبر، فإضافة إلى ما ذكرنا من قصة بصقه علي عيني علي فصحتا، وإخبار ذراع الشاة المسمومة إياه بأنها مسمومة، فقد ثبت أنه نفث ثلاث نفثات في موضع ضربة. أصابت ركبة سلمة بن الأكوع يوم خيبر، فما اشتكى بعدها[٢].

٩ـ وفي خبر الإسهام لأهل السفينة أنه إذا لحق مدد بالجيش بعد انقضاء الحرب، فلا سهم لهم إلا بإذن الجيش ورضاه[٣].

١٠ـ جواز المساقاة والزراعة بجزء مما يخرج من الأرض من تمر أو زرع، كما عامل رسول الله ﷺ أهل خيبر على ذلك، وهو من باب المشاركة، وهو نظير المضاربة، فمن أباح المضاربة، وحرم ذلك، فقد فرق بين متماثلين[٤].

١١ـ عدم اشتراط كون البذر من رب الأرض، لأن الرسول ﷺ دفع إليهم الأرض على أن يعلموها من مالهم.

١٢ـ خرص الثمار على رؤوس النخيل وقسمتها كذلك، وأن القسمة ليست بيعاً، والاكتفاء بخارص واحد وقاسم واحد.

١٣ـ جواز عقد المهادنة عقداً جائزاً للإمام فسخه متى شاء.

١٤ـ جواز تعليق عقد الصلح والأمان بالشرط، كما عقد لهم رسول الله ﷺ بشرط ألا يغيبوا ولا يكتموا، كما في قصة مسك حيي.

١٥ـ الأخذ في الأحكام بالقرائن والإمارات كما قال النبي ﷺ لكنانة: «المال كثير

= (٣/ ٢٨٥): «فإن حبست بعيدة عن العذرة زمناً وعلفت طاهراً فطاب لحمها وذهب اسم الجلالة عنها حلت لأن علة النهي التغيير، وقد زالت».

(١) أحمد: المسند (٤/ ٣٤٨) بإسناد صحيح، وأخرجه غيره.

(٢) البخاري/الفتح (١٦/ ٥٠/ح ٤٢٠٦).

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٤٢).

(٤) المرجع نفسه ص ٣٤٥.

والعهد قريب»، فاستدل بذلك على كذبه في قوله: «أذهبته الحروب والنفقة».

١٦ـ جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغنى عنهم، وقد أجلاهم عمر رضي الله عنه بعد موت النبي ﷺ.

١٧ـ لم يكن أخذ الجزية من يهود خيبر لأنهم ليسوا أهل ذمة، بل لأنها لم تكن نزل فرضها بعد[١].

١٨ـ سريان نقض العهد في حق النساء والذرية، وجعل حكم الساكت والمقر حكم الناقض والمحارب كما في حالة كنانة وابني ابن الحقيق، على أن يكون الناقضون طائفة لهم شوكة ومنعة، أما إذا كان الناقض واحداً من طائفة لم يوافقه بقيتهم، فهذا لا يسري النقض إلى زوجته وأولاده[٢].

١٩ـ جواز عتق الرجل أمته، وجعل عتقها صداقها، ويجعلها زوجته بغير إذنها ولا شهود ولا ولي غيره، ولا لفظ نكاح ولا تزويج، كما فعل ﷺ بصفية.

٢٠ـ جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير، إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين والمشركين حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت بالمسلمين من ذلك الكذب.

٢١ـ إن من قتل غيره بسم يقتل مثله قصاصاً، كما قُتلت اليهودية ببشر بن البراء.

٢٢ـ جواز الأكل من ذبائح أهل الكتاب وحل طعامهم وقبول هديتهم، كما في حادثة الشاة المسمومة.

٢٣ـ الإمام مخير في الأض التي تفتح عنوة إن شاء قسمها وإن شاء وقفها وإن شاء قسم البعض ووقف البعض الآخر، وقد فعل رسول الله ﷺ الأنواع الثلاثة، فقسم قريظة والنضير، ولم يقسم مكة، وقسم شطراً من خيبر وترك شطرها الآخر[٣].

---

(١) المرجع نفسه (٣/ ٣٤٨).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٤٨ـ ٣٤٩).

(٣) انظر الشهري: مرويات غزوة خيبر، ص ١٩٨، ابن القيم: زاد المعاد (٣/ ٣٢٩).

نقض العهد وإعلان الحرب على الإسلام

من أعظم التدابير السياسية التي اتخذها الرسول ﷺ هو تأسيسه ﷺ لحق المواطنة بضوابط السيادة السياسية للنظام العام الذي وضعه فيما تناقلته كتب السنة ومصادر التاريخ الإسلامي باسم: (وثيقة) المدينة واصطلح عليه الباحثون باسم دستور المدينة الذي أقره ووافق عليه كل سكان المدينة عقب انتقال النبي ﷺ وقد تضمنت الوثيقة قبول القبائل العربية يهودية كانت أو مشركة، وكذلك فتحت الباب أمام من رغب في اللحاق بهذا التحالف، ورغب في الانضمام لهذه الوحدة الوطنية والتي عوهد فيها بين كل أطرافها الموقعين عليها على أن يكونوا يداً واحدة ضد كل من غدر من الداخل بهذا التجمع المدني، وأن يصدوا كل عدو استهدف ثروة أو تراب هذا الوطن الذي أسسه النبي ﷺ والذي اتفق فيه على أن ما اشتجر من خلاف بين عناصر المجتمع فإن مرده إلى الله وإلى رسوله ليحكم بما يحقق الأمن والاستقرار، كما ترك لكل قبيلة شأنها الاقتصادي أو العقدي. وباعتبار أن النبي ﷺ هو النبي الخاتم لرسالات السماء وأنه مأمور بتبليغ رسالة ربه فإنه في ضوء ذلك كان يدعو الجميع بالحسنى وتحت اعتبارات حق المواطنة وحرية الجميع إلى الإسلام دون إكراه أو قسر أو ضغط أو تهديد. وباعتبار اليهود كانوا أصحاب دين وبأيديهم بعض الحق، وبقية من وحي ضيعوه، ومن ثم فإنهم كانوا من أصلح الفئات التي كان يمكن لهم أن يقبلوا الدين الخاتم، وأن يصححوا بعض ما وقع منهم بحق الأنبياء والمرسلين ومن هنا رأينا القرآن الكريم يوجه عناية النبي ﷺ إلى تلك الفئة من أصحاب العقائد، لكن القوم رفضوا الدعوة ودخلوا مرحلة الغدر والمؤامرة والكيد والدسائس حتى خانوا الوطن الذي افتقوا على حمايته والذود عنه تحت راية النبي ﷺ.

ويتمثل ذلك الإنكار في رفض ذلك النداء العف المسالم والذي يتعامل مع المخالف بتلك السماحة الهادئة: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ

كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[1].

وتبع تلك الدعوة دعوات مماثلة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[2] ثم يناديهم الرحمٰن الرحيم بما يرضيهم وبما يدل على بعض الحق الذي لا يزال في أيديهم فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾[3]. وفي ضوء تلك الآية وكما يقول ابن جرير في تفسيره: أن رسول الله ﷺ خاطب رؤساء من أحبار اليهود منهم: عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسد وقال لهم: يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به الحق. فقالوا ما نعرف ذلك يا محمد.

وتوالت آيات الذكر الحكيم تعالج مناخ وأسلوب الحوار بين دعوة الإسلام والمخالفين لها ففي سورة آل عمران: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾[4].

وفي إنصاف معجز يكشف الخطاب القرآني اضطراب المنهج اليهودي وتضاربه بغير تجريح أو لعن أو سب، إنما يكشف عن الخلل الذي يفسد الحوار معهم ومنهم فيقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾[5].

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٧.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

(٥) سورة الجاثية، الآيتان ١٦، ١٧.

وعندما تتنوع ساحة الحوار في خطاب القرآن يدخل عليهم بتلك السماحة الهادئة المنصفة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾[1]. ومع الكشف عن هذه الحقيقة ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ يأتي ذلك الإنصاف الباهر:

﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٤ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ۝١١٥﴾[2].

وفي ضوء تلك الفرضية التي نعتهم بها القرآن الكريم فإنه قد أباح توسيع العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وعناصر الخير والإيمان الذي افترضها القرآن الكريم وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ﴾[3].

لكن الذي تجدر الإشارة إليه أنه بعد فترة من الحوار مع اليهود بأمل أن يكونوا بما معهم من بقية الوحي الحق الذي كانوا يملكونه وكان يجب أن يكونوا من أهل الحق إلا أنهم رفضوا ونقضوا وكذبوا إلى ذلك تشير الآيات من سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٨٩﴾[4].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٩.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١١٣ـ ١١٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

النبي ﷺ يضع دستور المدينة

صحيفة المدينة:

عندما استقر الرسول ﷺ بالمدينة وأراد أن ينظم العلاقات بين أهل المدينة كتب كتاباً بهذا الشأن. عرف في المصادر القديمة باسم «الكتاب» و«الصحيفة» وأسماه الكتاب المحدثون «الدستور» أو «الوثيقة».

ولأهمية هذه الوثيقة واعتماد الباحثين المعاصرين عليها. وجعلها أساساً في دراسة تنظيمات الرسول ﷺ في المدينة المنورة، ونظم الدولة الإسلامية، وعلاقاتها مع الدول والملل الأخرى، والنظام السياسي في الإسلام، فقد رأينا أن نتناولها بالعرض والدراسة باختصار شديد.

أولاً: مضمون الصحيفة:

(أ) بنود الصحيفة المتعلقة بالمسلمين:

- المؤمنون من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس.
- كل فريق من المؤمنين (المهاجرين، بني ساعدة، من الأوس) على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.
- المؤمنون المتقون على من بغى منهم، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.
- ذمة الله واحدة، يجير على المسلمين أدناهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس.
- من تبع المؤمنين من يهود، فإن له النصرة والأسوة، غير مظلومين ولا

متناصرين عليهم.

(ب) بنود الصحيفة المتعلقة بالمشركين:

- لا يجبر مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على المؤمنين.

(ج) بنود الصحيفة المتعلقة باليهود:

- ينفق الهود مع المؤمنين ما داموا محاربين.

- يهود بنو عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، مواليهم وأنفسهم ولبقية اليهود من بني النجار، يهود بني الحارث... ما ليهود بني عوف. وإن بطانة يهود كأنفسهم.

- لا يخرج من يهود أحد إلا بإذن محمد ﷺ وعلى اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصر للمظلوم.

(د) بنود الصحيفة المتعلقة بالقواعد العامة:

- يثرب حرام جوفها لأهل الصحيفة، وإن الجار كالنفس، غير مضار، ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

- ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو استئجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله (عز وجل) وإلى محمد رسول الله ﷺ.

- لا تجار قريش ولا من نصرها.

- وإن بينهم - أهل الصحيفة - النصر على من دهم يثرب.

- ومن خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ.



الفصل الرابع

- الموقف الديني والسياسي لليهود في بناء الدولة
- الفتنة في الدين
- الكراهية لبيت إسماعيل ونبي الإسلام
- التحدي والسخرية من شخص النبي ﷺ
- الجهر بالهزؤ والاستخفاف بعقائد الإسلام
- الدسائس والتآمر مع أعداء الإسلام

الموقف الديني والسياسي لليهود من بناء الدولة

الفتنة الدينية:

وتتمثل فيما زعموه من أنهم وحدهم أهل الهدى والدين وأصحاب الإيمان، وفي صدد تبجحهم بأنهم على الهدى وأن ملتهم هي خير الملل، نزل قوله تعالى في سورة البقرة الآيات التالية:

١ـ ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾(١).

٢ـ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢)﴾(٢).

٣ـ ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١١١ ـ ١١٣.

(٢) سورة البقرة، الآيات ١٢٠ ـ ١٢٢.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾[1].

والآيات قد جاءت ـ على ما يدل عليه سياقها وبعض مضامينها ـ في معرض مواقف اليهود وحجاجهم، وإدماج النصارى في الآيتين (١١٠ و١٣٥) منها إنما كان من قبيل التعميم أو الاستطراد؛ وإن كانت الآيات تتضمن حكاية أقوال اليهود ومواقفهم والحجاج معهم وخاصة بعد أن قابلوا الدعوة الإسلامية بقولهم إن الهدى إنما هو في اليهودية، واحتجوا على دعوة النبي ﷺ بأنه على ملة إبراهيم ﷺ وإن دعوته إليها، فقالوا إن إبراهيم ﷺ هو أبوهم وأبو الأنبياء، وأن أبناءه قد ساروا على ملته، وإن اليهودية التي هي دين هؤلاء الأنبياء والأبناء هي التي يجب الإيمان بها فردت عليهم الآيات قائلة إن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، وهذه هي ملته التي يدعو إليها النبي ﷺ، ثم قررت أن العقيدة الإسلامية واجبة على الجميع ومنهم اليهود، وهي الإيمان بالله وبما أنزل إلى محمد وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والنبيين صلوات الله عليهم جميعاً دون تفريق بين أحد منهم، وإسلام

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٣٠ ـ ١٤٠.

النفس لله وحده، ودعتهم إلى هذه العقيدة، وطمأنت النبي ﷺ في حال عدم استجابتهم بأنهم في شقاق، وأن الله كافيه شرهم ومكرهم.

وقد نصت الآية (١١٣) خاصة من قبيل الإفحام ودحض الحجة التي يحتجون بها، أن شقاقهم ليس فيما بينهم فقط بل بين الكتابيين عامة، إذ يقرر اليهود أنهم وحدهم على الحق وأن النصارى ليسوا على شيء منه، ويقرر النصارى هذا عن اليهود، في حين أن الفريقين يتلون الكتاب (التوراة على الغالب لأنها مشتركة بينهما كما هو معلوم؛ وهكذا يشهد كل فريق على ضلال الفريق الثاني؛ فتصدق الشهادة على المنافقين وتدمغهم حجة القرآن ودعوته، ويصبح لزاماً عليهم اتباع العقيدة التي قررها بها وحدها يتحد الجميع في الطريق القويم ويتخلص اليهود والنصارى من خلافهم ومشاكلهم.

هذا؛ ولعله أريد بتقرير أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين جواباً على قولهم: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ الإشارة إلى عقيدة النصارى بنوة عيسى وألوهيته، وإشراكهم إياه مع الله في الربوبية والعبادة، وإلى ما كان من عبادة اليهود للعزير.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

وهي عقيدة لا بد أن يكون اليهود المعاصرون في المدينة أو فريق منهم على الأقل يدينون بها؛ ولعله أريد بها كذلك الإشارة إلى اتخاذهم وأحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله كما نددت بذلك آية التوبة التالية لهذه الآية وهي:

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[2].

والإشارة إلى ما تلهمه بعض آيات سورة آل عمران وهي هذه:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣١.

عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾[١].

فثمة دلالة على أن الكتابيين أو بعضهم كان يتخذ الملائكة والأنبياء أرباباً، أو يتشفع بهم مع الاعتقاد بتأثيرهم، مما هو من جملة الشرك.

دحض المفتريات وردها:

اللافت للنظر هو أن آيات الذكر الحكيم كانت تكشف حجج اليهود وتردها أولاً بأول كما هو في سورة آل عمران في صدد الحجاج حول إبراهيم وملته بالآيات التالية:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾[٢].

وفي الآيات شيء مما تضمنته آيات البقرة، وتلهم وقوع حجاج مماثل لما استلهمناه من تلك الآيات مرة أخرى بين النبي ﷺ واليهود، فنزلت معقبة منددة وموضحة دامغة الحجة؛ وقد جاءت عقب سلسلة أشير فيها إلى مشهد حجاجي بين النبي وبعض النصارى حول ماهية المسيح، غير أن الآيات التي تلتها احتوت حكاية موقف كيد ودس لليهود، مما يسوغ أن القول بأن الخطاب الموجه فيها إلى «أهل الكتاب» قصد به اليهود، ومهما يكن من أمر هذه النقطة فإن اليهود داخلون في هذا التعبير على كل حال.

وفي الآيات حجة جديدة، وهي أن إبراهيم ﷺ إنما عاش قبل التوراة، واليهودية إنما بدأ عهدها بعد التوراة، وأن ملة إبراهيم والحالة هذه لا يمكن أن تكون اليهودية، وأن دعوى اليهود باطلة من أساسها؛ وأن أبوة إبراهيم لليهود ليس من شأنها أن تجعلهم على ملته، وأن تدعم أولويتهم به؛ فأولى الناس به هم

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٧٩، ٨٠.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ٦٥ ـ ٦٨.

الذين اتبعوا ملته حقاً، والذين تابعوه في دعوته من المؤمنين. وهكذا يكون القرآن قد دمغ اليهود في موقفهم الحجاجي الثاني أيضاً، وكشف زيف دعوى أولويتهم به بسبب أبوته لهم فحسب، وجعل هذه الأولوية للنبي ﷺ ومن تابعه من المسلمين. ومما لا شك فيه أن الحجاج استؤنف وأن النبي ﷺ واجههم بهذه الحجة القرآنية في كشف زيفهم في كثير مما وضعوه في وجه المسلمين.

الكراهية لبيت إسماعيل ونبي الإسلام

لا بد لنا ونحن نؤصل لمنهج الإسلام في التعامل مع أهل الكتاب من بيان كيف واجه الإسلام الخصومة والفتنة والعدوان بأمل الحفاظ على العهد والعقد الذي استظل به الجميع في دولة الإسلام.

ومن هذه المواقف ما كان حول نبوة النبي ﷺ بسبب عروبته. فقد جاء في سورة الجمعة الآيات التالية:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾[1].

ويستلهم من روح الآيات أن اليهود ادعوا أن الله قد اختص بالنبوة بني إسرائيل دون سائر الأجناس، وأنكروا نبوة النبي لأنه ليس من بني إسرائيل؛ فردت الآيات عليه مثبتة أولاً نبوة النبي الأمي العربي، ومقررة ثانياً أنه لا حرج على فضل الله، وأنه مطلق الإرادة يختص بفضله من يشاء؛ وهاجمت ثالثاً اليهود لأنهم مكابرون في موقفهم، يعرفون الحق ويكتمونه، وأن مثلهم في موقفهم كمثل الحمار الذي لا ينتفع بما يحمله من أسفار العلم؛ ومما لا شك فيه أن النبي ﷺ واجه اليهود بهذه الآيات في مشهد استؤنف فيه الحجاج مواجهة.

ولقد سجل القرآن المكي موقفين فيهما اعتراف بعض اليهود بمطابقة صفات النبي ﷺ لما هو مكتوب عندهم في التوراة واتباعهم له وإيمانهم به في آية سورة الأعراف (١٥٧) وآية سورة الأحقاف (١٠).

---

(١) سورة الجمعة، الآيات: ٢ ـ ٦.

التحدي والسخرية من شخص النبي ﷺ

هذه الحالة من العدوان سجلها القرآن عليهم.

١ـ فقد جاء في سورة آل عمران الآيات التالية:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾[1].

والآيات لا تحتوي دلالة صريحة على أنها في حق اليهود؛ ولكن في الفقرة الأخيرة من الآية الأخيرة قرينة حاسمة على أنها في حقهم.

وقد ذكر المفسرون والرواة في صدد القسم الأول من الآيات أن النبي ﷺ قد استعان باليهود مالياً في ظرف من الظروف ـ تمشياً مع عادة الحلف العربي وتبعاته ـ بواسطة أبي بكر رضي الله عنه، فذهب إلى محلتهم فردوه رداً قبيحاً، كما رووا أن أبا بكر ذهب ليدعوهم إلى الإسلام وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإقراض الله قرضاً حسناً، فقابلوا الدعوة بالجحود، والجملة الأخيرة بالسخرية، وقالوا إذا كان الله يستقرضنا فهو إذن فقير ونحن أغنياء، ولم يرو في صدد القسم الثاني مناسبة خاصة ولعل ما حكى عنهم فيه قد صدر منهم في الظرف نفسه الذي صدر عنهم فيما وقع بينهم وبين النبي ﷺ من مواجهة فيما يتبادر لنا.

ومهما يكن من أمر فالآيات صريحة بأنها تضمنت حكاية موقف يهودي

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٨٠ ـ ١٨٣.

بذيء ساخر في حق الله، وموقف تحد وتعجيز وحجاج من النبي ﷺ.

٢ـ وقد جاء في سورة النساء الآيات التالية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾(١).

وقد تضمنت السورة موقفاً ساخراً لليهود من النبي فكانوا يلوون ألسنتهم بكلمة «راعنا» حتى تؤدي إلى نعت النبي بالرعونة، ويجهرون بعصيانه فيما يأمر ويدعو، فيستعملون كلمة «عصينا» بعد «سمعنا» استخفافاً به بدلاً من الجملة العربية المعتادة «سمعنا وأطعنا» أو «سمعاً وطاعة»، ويدعون عليه بالسوء فيقولون اسمع لا سمعت، أو اسمع غير مستجاب، ويقصدون في كل ذلك الانتقاص من الدعوة النبوية والشخصية النبوية والطعن فيها. ومما يروى أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه انتبه إلى خبثهم في ليهم كلمة «راعنا» فقال لهم: يا أعداء الله عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربن عنقه...

وقد يبدو من هذا أن اليهود بعد أن كانوا يحاجون النبي ﷺ ويقفون موقف الجحود دون أن يخرجوا ـ ولو في مواجهته على الأقل ـ عند حدود الأدب، رأوا في أنفسهم القوة فتجاوزوا هذا النطاق إلى الهجوم وبدؤوه بالسخرية والبذاءة؛ ولعل هذا كان منهم في ظرف أزمة من الأزمات مرت بالنبي والمسلمين كواقعة «أحد» فاغتنمها اليهود فرصة لإظهار ما امتلأت به قلوبهم من غل وحقد.

٣ـ وقد جاء في سورة النساء أيضاً الآيات التالية:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ

---

(١) سورة النساء، الآيات: ٤٤ ـ ٤٦.

بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾»[1].

والآية الأولى تضمنت حكاية موقف تحد يهودي للنبي إزاء دعوتهم إلى التصديق بنبوته؛ ومن المتبادر أن هذا التحدي قد كان في مشهد دعوة وحجاج مواجهة؛ أما الآيات الأخرى فقد جاءت تعقيباً على هذا الموقف، واحتوت ربط موقفهم هذا بموقف آبائهم، وحملت عليهم حملة شديدة بسبب تحديهم لموسى عليه السلام وانحرافاتهم عن مبادئ دينهم وعقيدة التوحيد، وافتراءاتهم على مريم والمسيح؛ وقد استهدفت الآية التي ذكرت إيمان الراسخين في العلم منهم، دمغهم بحجة قاطعة كما هو المتبادر، كما استهدفت الآيتان التي تلتها بتقرير أن وحي الله بالقرآن لنبيه كوحيه للأنبياء الذين يؤمن بهم اليهود ـ بيان تناقضهم في تحديهم وتعجيزاتهم؛ ومما لا ريب فيه أن النبي ﷺ قد أسمعهم هذا الفصل

---

(١) سورة النساء، الآيات: ١٥٣ ـ ١٦٧.

التعقيبي القوي في مشهد مواجه وأفحمهم بالحجة القرآنية الدامغة، والتقريع القرآني اللاذع.

٤ـ وقد جاء في سورة المائدة الآيات التالية:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾[1].

وقد روى جمهور المفسرين والرواة أنها نزلت في حادث زنا اقترفه يهودي فطلب اليهود قضاء النبي فيها آملين أن يقضي بغير الرجم الذي هو قصاص ذلك في شريعتهم؛ كما أن بعضهم روى أنها نزلت في حادث دم؛ وهذه الرواية أكثر اتساقاً مع سياق الآيات التي أتت بعدها، لأنها ذكرت أحكام التوراة في حوادث الدماء.

ومهما يكن من أمر ففي الآيات صورة صريحة لموقف حجاج وتعجيز وتهويش وقفه اليهود من النبي يطلبون التقاضي عنده؛ ويبدو منها أن المنافقين اندمجوا في هذا الموقف وأنه كان له أثر أليم في نفس النبي ﷺ لما بدا منهم من تمحل وتضليل وكذب وتحريف.

ومن قبيل الاستطراد نلفت النظر إلى ما احتوته الآيات من جعل الخيرة لليهود في التقاضي لدى النبي وعدمه، وفي إيجاب القضاء بالقسط إذا ما تقاضوا لديه، إذ حفظت لهم حريتهم القضائية وأقرت لهم القضاء بأحكام التوراة؛ ولقد نوهت الآيات التالية لها بما في التوراة من نور وهدى توكيداً لهذا الإقرار؛ ففي هذا شاهد على ما جنح إليه الإسلام من احترام حرية اليهود القضائية واحترام أحكام التوراة القضائية وإقرارهم عليها مع التوصية بالقسط إذا ما أرادوا التقاضي

(١) سورة المائدة، الآيات: ٤١ ـ ٤٣.

لديه ورأى أن يقضي بينهم دون أن يكون لمواقفهم الجحودية أي تأثير في ذلك.

٥ـ وقد جاء في سورة المائدة الآية الآتية:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

وقد روى في نزولها أن النبي ﷺ استعان بعض اليهود على بعض الديات تمشياً مع عصبية الحلف فشكوا له ضيق الرزق، وقالوا إن يد الله مغلولة عنهم فيه.

وعلى كل حال ففي الآية صورة لموقف محاجة يهودي أساء اليهود فيه أدبهم في حق الله؛ وقد سبق منهم موقف مماثل حكته آيات آل عمران ١٨٠ـ ١٨٤؛ مع فارق واحد هو أنهم في ذلك الموقف كانوا يزهون بغناهم، في حين أنهم في هذا الموقف كانوا يشكون إذ بدل الله حالهم بالعسر بعد اليسر وبالضيق والفقر بعد السعة والغنى!

ويبدو من مضمون الآية أن هذا الموقف الذي وقفوه كان منبعثاً مما كان يملأ صدورهم من الغيظ والسخط من رسوخ في قدم النبي وانتشار دعوته؛ ولعل مما يصح أن يضاف إلى هذا احتمال كون المسلمين قد انصرفوا عنهم أو قاطعوهم بسبب مواقف الكيد والجحود التي ما فتئوا يقفونها، واستجابة لأمر القرآن ونهيه وتحذيره، فأثر ذلك في حالتهم الاقتصادية تأثيراً سيئاً زاد غيظهم وسخطهم وتبرمهم، ودفعهم إلى ما كان منهم من سوء الأدب في حق الله ومن رد غير جميل لرسوله. ولقد جاء بعد هذه الآية آيتان في ثانيتهما قرينة على صحة ما ضمناه وهما هاتان:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾[2].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ٦٥، ٦٦.

إذ يلمح فيهما أنهم في حالة ضيق، وأن سبب هذا هو ما كان من موقفهم الجحودي. وواضح أن في هذا فوق الصورة التي نبهنا عليها مشهداً من مشاهد الحال التي صار إليها اليهود؛ وننبه إلى أن الآيات وسياقها في حق اليهود، وأنها تحتوي مشاهد وأقوالاً واقعية لهم، ولو أن الآيتين الأخيرتين جاءتا مطلقتين وشملتا أصحاب الإنجيل أيضاً، ونرجح أن ذلك من قبيل التعميم والاستطراد:

٦ـ وقد جاء في سورة البقرة الآيتان التاليتان:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾[1].

وليس لليهود ذكر في الآيتين؛ غير أنهما جاءتا في سلسلة في حق اليهود متصلة بهما من قبل ومن بعد، كما أن روايات الرواة والمفسرين تذكر أنهما نزلتا بمناسبة حوار وقع بين النبي ﷺ وبعض اليهود حول جبريل عليه السلام، إذ سألوه عمن ينزل عليه بالوحي، فلما قال لهم إنه جبريل قالوا هذا عدونا، وذكرت كذلك أنهما نزلتا بمناسبة حوار وقع بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعض اليهود قالوا فيه إن جبريل وميكال عدوان لليهود.

ومهما يكن من أمر ففي الآيتين موقف من مواقف اليهود التمحلية والجحودية متصل بوحي الله وملائكته، وصلتهم بالنبي ﷺ كما هو المتبادر.

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

الهزؤ والاستخفاف بعقائد الإسلام

يتمثل ذلك الهزؤ والاستخفاف بعقائد الإسلام فيما ذكره عنهم القرآن الكريم، فقد جاء في سورة البقرة الآيات التالية:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٤٢ ـ ١٥٣.

ولقد قال جمهور المفسرين والرواة: إن المقصود من السفهاء هم اليهود؛ وفي الآيات قرينة على ذلك في ذكر أهل الكتاب وكتمانهم الحق مع علمهم به، مما وصف به اليهود أكثر من مرة في القرآن، هذا إلى أن الآيات مسبوقة بسلسلة طويلة في حق اليهود. وهكذا تكون الآيات قد تضمنت فيما تضمنته صورة لموقف من مواقف اليهود الحجاجية والكيدية في ظروف تبديل سمت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الحرام.

وروح الآيات تلهم أنه كان لهذا التبديل وقع شديد على اليهود؛ فقد كان النبي ﷺ في مكة يتجه في صلاته ـ على ما جاء في الروايات ـ إلى الكعبة، ثم اتجه إلى المسجد الأقصى عزوفاً عما كان فيها من أصنام، وتفادياً من اشتراكه في الاتجاه إليها مع المشركين، أو لعله فعل هذا عند هجرته من مكة من أجل هذين السببين من جهة، وتأثراً من موقف أهل مكة الجحودي والمؤذي الذي اضطره إلى مفارقة مكة من جهة، وتألفاً لليهود وتسهيلاً لإجابتهم لدعوته من جهة ثالثة، وقد عددنا العلل لأننا لم نطلع على تعليل قديم وثيق، ولا على توقيت وثيق لاتجاهه إلى المسجد الأقصى؛ ولكن اليهود وقفوا منه موقف الإنكار والجحود والدس من جهة، وأخذوا يزهون عليه وعلى المسلمين بأن اتجاههم إلى قبلتهم هو اعتراف بأنهم على الهدى، وبأن النبي والمسلمين إنما يقتبسون الهدى منهم، وبأنهم أولى أن يتبعوهم ويندمجوا فيهم لا العكس؛ فحز هذا في نفس النبي ﷺ وانبثقت فيها أمنية التحول عن سمت المسجد الأقصى، لا سيما وقد ظهر من اليهود ما أيأسه منهم.

ونص مطلع الآية (١٤٤) بنوع خاص ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قرينة قوية على ما اعتلج في نفس النبي من أزمة بسبب الاتجاه نحو المسجد الأقصى وزهو اليهود وموقفهم من ذلك، وعلى ما قام فيها من رغبة في التحول عنها؛ وجملة في ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ في الآية المذكورة يمكن أن تلهم أن النبي ﷺ حين صار يائساً أو كاليائس من اليهود وثارت في نفسه تلك الأزمة وقامت فيها هذه الرغبة، تراءى له أن اتجاهه إلى قبلتهم مما يضعف قوة دعوته، وأن عودته إلى قبلته الأولى مما يؤلف قلوب العرب، كما أن ذلك هو الأولى، لأنها بيت الله العربي القديم الذي يعرفه العرب ويرتبطون به، والذي هو من عوامل وحدتهم الروحية بسبب اشتراكهم جميعاً في حجه، فكان يتمنى أن يتحول

إليها في صلاته وتكون قبلته ثانية؛ ولعله كان يسمع تألماً أو انتقاداً أو يرى حيرة من العرب مسلمين وغير مسلمين من الاتجاه إلى المسجد الأقصى وإهمال الكعبة وهي بيت الله المقدس منذ قديم الأحقاب، فكان هذا ما قوي ما في نفسه من الرغبة والأمنية[1].

ولعل جملة ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ قرينة على هذا.

ولقد رأى اليهود في هذا التحول ضربة شديدة توجه إلى مكانتهم الدينية ووسيلتهم إلى الزهو على النبي ﷺ والمسلمين، فنشطوا على ما تلهمه الآيات إلى الدس والحجاج وتشكيك المسلمين، فقالوا إذا كان سمت المسجد الأقصى غير حق فقد أضاع النبي عبادة الذين صلوا إليه، وإذا كان حقاً فلا معنى للتحول عنه وتكون الصلاة إلى الكعبة ضائعة؛ وقالوا إن أفعال النبي لو كانت مستندة إلى وحي رباني لما نسخ اليوم ما فعله بالأمس، ولما قال اليوم قولاً ثم نقضه في الغد، لا سيما في الأمور التعبدية.

ويبدو من روح الآيات ومضامينها أن هذه الدسائس والدعايات والمواقف الحجاجية قد أثرت بعض الأثر في بعض المسلمين، فاحتوت الآيات أسباب طمأنينة متنوعة لهم، وحملة على اليهود، وتثبيتاً للنبي ﷺ فيما أوحى إليه به، مثل تقرير أن المسألة ليس في الشرق والغرب، وإنما هي في الاتجاه الخالص إلى الله، وأن تبديل القبلة الأولى بالثانية هو اختبار رباني لقوة إيمان المسلمين واتباعهم الرسول ﷺ؛ وأن من نعمة الله عليهم أن بعث فيهم رسولاً منهم، يعلمهم ويزكيهم، فحق عليهم شكره وذكره، والثبات على ما فرضه، وعدم جحود نعمته والتردد في اتباع ما يأمر به، وكون الله لا يمكن أن يضيع إيمانهم وصلاتهم فعليهم أن يطمئنوا، ولا يستمعوا لدسائس اليهود الذين يعلمون أن ما وقع حق وإن كتموه، وأن يستيقنوا أن انتقادهم سفه فلا يعبأ به، وأنه لا أمل في اتباعهم دعوة النبي وقبلته، فلم يبق محل لاتباعه قبلتهم وأهواءهم.

---

(١) روى المفسر الطبرسي في سياق تفسير الآيات عن الحسن وأبي العالية وعكرمة من التابعين أن النبي ﷺ كان يكثر الدعاء والابتهال بأن يوجهه الله إلى الكعبة فاستجاب الله دعاءه، وروى البخاري والترمذي عن البراء أن النبي ﷺ كان يحب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله الآيات: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ... ﴿١٤٤﴾﴾ الخ.

وهذه السلسلة مسبوقة بسلسلة أخرى نعتقد أن لها صلة بالموقف وأنها نزلت هي أيضاً في مناسبة نقتطف منها ما يلي:

١ـ ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾(١).

٢ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾(٢).

٣ـ ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٠٥ ـ ١٠٩.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١١٤، ١١٥.

ﭐلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾[1].

ولقد روي في صدد الآية ١٠٦ أن اليهود كانوا يغمزون النبي ويثيرون الشك في نفوس المسلمين بقولهم إنه يأمر بالشيء ثم ينهى عنه، وإن هذا ليس شأن الأنبياء، ويلقنونهم طلب البراهين منه على نبوته بسبيل ذلك؛ فاحتوت الآيات طمأنة للمسلمين، فالله إذا نسخ أمراً فلحكمة رآها، ولعل الناسخ يأتي خيراً من المنسوخ، وأن الكتابيين ـ والمقصود هنا اليهود للقرينة القائمة ـ لا يريدون لهم أي خير كالمشركين، وأن كثيراً منهم يودون أن يرتدوا كفاراً حسداً وحقداً، وأنه لا ينبغي للمسلمين أن يقفوا من النبي موقف اليهود من موسى: يحاجونه ويرادونه ويسألونه البراهين، فإن مغبة هذا تبدل إيمانهم بالكفر. والذي يتبادر لنا أن اليهود قد غمزوا النبي ﷺ بما غمزوه من النسخ بمناسبة تبديل القبلة قصد الدس والتشكيك، فاحتوت الآيات ما احتوته من الطمأنة والتحذير.

وفي الآيتين ١١٤ـ ١١٥ ما يمكن أن يكون قرينة على هذا التوجيه، إذ احتوت الأولى تنديداً بمن يعطل مساجد الله ويسعى في خرابها، والثانية إعلاناً بأن المشرق لله والمغرب لله، وأن الله موجود أينما يولي المسلمون وجوههم؛ والأولى تلهم أنها تنديد باليهود، لأنهم دسوا وشككوا في ظروف تبديل القبلة، وفي هذا سعي لخراب بيت الله وإهماله، وينطوي في الثانية معنى سعة أفق الدعوة الإسلامية، واهتمامها بالجوهر دون العرض، تلقينًا للمسلمين حتى لا يعبأوا بما يبثه اليهود فيهم.

أما السلسلة الثالثة (١٢٤ـ ١٣٠) ففيها توكيد:

لقدسية الكعبة، وتقرير أنها بيت الله ومعبده المطهر، ومثابة للناس منذ طويل الأحقاب. ولصلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بها وبأمن منطقتها ومناسك حجها. ولصلة العرب بإبراهيم وإسماعيل بالنبوة، وتوكيد أن بعثة نبي منهم فيهم هي أمنية من أمانيهما، ودعوة من دعواتهما لإنقاذ العرب وتطهيرهم وإرشادهم. ولأساس ومفهوم ملة إبراهيم عليه السلام وهي إسلام النفس لله وحده، وأن المنحرف عن ذلك ضال خاسر نفسه.

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٢٤ ـ ١٣١.

والذي يستلهم من روحها ومضامينها ومن ورود الآيات المندّدة باليهود بسبب موقف الدس الذي وقفوه في ظرف تبديل القبلة بعدها بقليل، وهي الآيات ١٤٢ـ ١٥٣ أن هذه الآيات هي من جهة مقدمة للآيات التي تليها مباشرة والتي احتوت الرد على اليهود في أمر ملة إبراهيم ومجادلتهم وهي ١٣١ـ ١٣٤ التي أوردناها في فقرة سابقة، ومن جهة ثانية مقدمة أيضاً للآيات ١٤٢ـ ١٥٣ التي احتوت الرد عليهم في نقدهم تبديل القبلة؛ فوق ما احتوته من تدعيم لصحة النبوة المحمدية وأهدافها إزاء أهل الكتاب معاً. ولعل مما يتصل بالموضوع الذي نحن في صدده استهدافها في تقرير صلة إبراهيم وإسماعيل بالكعبة واتصال فضلها وطهارتها ـ تقرير سبقها في القدم والوجود للمسجد الأقصى، وأولويتها عليه في الاتجاه والتعظيم، ومن ثم تقرير أن الناسخ وهو الكعبة جاء خيراً من المنسوخ وهو المسجد الأقصى.

وننبه إلى ما يمكن أن تلهمه فقرة ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ في الآية ١٤٤ من اعتراف اليهود في موقف ما قبل البعثة أو بعدها بفضل الكعبة وصلتها بإبراهيمعليه السلام وسبقها المسجد الأقصى، إذ جابهتهم الحجة القرآنية بما كان من اعترافهم بذلك ثم إنكارهم له وسعيهم ضده بالدس والتشكيك؛ وإذ أريد في آيات من السلسلة تقوية للحجة الدامغة عليهم، تقرير واقع موقفهم وبواعثه، وهو الغرض والهوى والحقد والمماراة، ولقد كانت هذه الفصول القرآنية تتلى جهرة، ولا بد أن يكون اليهود قد سمعوها أو وجهت إليهم في مشهد من المشاهد، كما سمعها العرب على اختلاف سرائرهم، وقد احتوت هذه التقريرات القوية الصريحة عن فضل الكعبة وقدمها وصلتها بإبراهيم وإسماعيلعليهما السلام، وصلة العرب بهما، ومعرفة اليهود أن هذا حق، والتنديد بهم لكتمهم إياه ومماراتهم فيه؛ وكل هذا لا يبقى أيّ محل للمماراة فيما استلهمنا من أن اليهود كانوا قد اعترفوا للعرب في موقف من المواقف بذلك كله.

ومع كل ذلك يظهر أن اليهود لم يقبلوا الهزيمة، فقد جاء في سورة آل عمران الآيات التالية:

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا

وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾[(١)].

وقد روى الرواة والمفسرون في صدد القسم الأول من الآيات أنه نزل في سياق موقف حجاجي بين النبي واليهود حول تحليل النبي ﷺ لحوم الإبل ألبانها؛ إذ انتقدوا ذلك لمخالفته للتوراة وملة إبراهيم؛ ورووا في صدد القسم الثاني أنه نزل في سياق موقف حجاجي آخر بينه وبينهم أيضاً ادعى اليهود فيه أفضلية معبدهم أفضلية الاتجاه إليه على الكعبة؛ وكل رواية متسقة مع مضمون القسم الخاص بها من الآيات؛ غير أنه يتبادر لنا أن الآيات نزلت دفعة واحدة في سياق موقف حجاجي واحد اتصل الموضوعان فيه بعضهما ببعض، إذ أنكر اليهود ما قررته آيات البقرة من قبلة الكعبة وحجها بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وقالوا إن التوراة لا تذكر شيئاً عن ذلك، فردّت عليهم الآيات بأن التوراة لا تذكر أشياء كثيرة مما كان قبلها، فضربت مثلاً لهم بالمحرمات من الأطعمة التي ذكرتها التوراة مع أن كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل قبلها، وتحدتهم بتلاوة التوراة وإثبات عكس ذلك.

ومهما يكن من أمر هذا التوجيه فإن القسم الثاني متصل بموقف حجاجي لليهود بشأن الكعبة وفضلها؛ وقد احتوى تثبيتاً لما قررته آيات البقرة من صلة إبراهيم عليه السلام بها، وقدمها على كل بيت عبادة آخر، وبالتالي على المسجد الأقصى، وإن من علائم فضلها أن كل من دخلها أمن، وأن الله قد فرض حجها على كل من استطاع على ذلك سبيلاً من الناس، وأن فيها مقام إبراهيم ذا العلامات الواضحة المعروفة؛ ثم حمل على اليهود حملة قوية، وحذر المسلمين منهم؛ فالله غني عن الكافرين وإن اليهود يكفرون بآيات الله ويصدون من آمن عنها، وعلى المسلمين أن يحذروهم فإنهم إذا بغوا إليهم ارتدوا إلى الكفر بعد

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٩٣ ـ ١٠٠.

الإيمان. وفي الفقرة الأخيرة من الآية (١٠٩) نقطة خطيرة المغزى نريد أن ننبه إليها؛ فقد أمرت المسلمين بالعفو والصفح إزاء ما يبدو من اليهود من مواقف الدس والكيد والأذى والتشكيك والحسد ومحاولة رد المسلمين إلى الكفر... الخ، إلى أن يأتي الله بأمره؛ مما يلهم أن الغضب استفز فريقاً من المسلمين عليهم فاقترح التنكيل بهم، فاقتضت الحكمة تهدئته وتسكينه إلى وقت تكون الحجة عليهم أشد قوة وتبديل الموقف معهم أكثر تبريراً.

هذا، وقد رأينا المناسبة سانحة للتنبيه إلى بعض الأمور في صدد تبديل سمت القبلة بالذات كحادث من حوادث السيرة في العهد المدني؛ فقد أكسب الدعوة الإسلامية شخصية مستقلة بعد أن كان في شخصيتها شيء من التموج أو التمازج في أفق ومدار شخصية أهل الكتاب وقبلتهم، وقد خلد قدسية الكعبة ومركزيتها، إذ لم تلبث أن صارت متجه العرب في حياتهم الدينية الجديدة في جميع أنحاء الجزيرة، أشد وأقوى وألزم مما كانت لهم قبل هذه الحياة أولاً، ومتجه المسلمين في جميع أنحاء العالم، وناظماً لوحدتهم الروحية ثانياً، وقد كان كذلك عنواناً على الإبقاء على مناسك الحج والكعبة، إذ صارت ركناً مفروضاً من أركان الإسلام بعد تصفيتها من شوائب الوثنية ومشاهدها.

وهناك نقطة تستحق التوقف من ناحية ظروف حادث تبديل القبلة: فالآيتان ١٤٢ـ ١٤٣ تقدمتا على الآيات التالية لها في السلسلة ١٤٢ـ ١٥٣ والتي فيها صراحة تبديل القبلة. والسؤال الذي يخطر بالبال هو هل نزلت هذه السلسلة جميعها معاً، أو أن الآيات ١٤٤ وما بعدها نزلت على حدة ونزلت الآيتان الأوليان على حدة، وأي المجموعتين نزلت قبل الأخرى؟ فإذا كانت السلسلة نزلت جميعها معاً فمعناه أن حادث التبديل كان بدءاً بإلهام رباني غير قرآني، وأن السلسلة وما قبلها إنما نزلت للرد على انتقاد اليهود، وتثبيت النبي ﷺ على ما ألهمه من التحوّل، وتبريره ومن الأمثلة على ذلك غزوة بدر، وعزيمة زيارة الكعبة التي انتهت بصلح الحديبية، فقد نزلت سورتا الأنفال والفتح فيهما بعد وقوعهما، وفيها تثبيت لما فعل النبي، كما في الأنفال وعتاب بشأن الأسرى لأن ما فعله كان خلاف الأولى الذي في علم الله. أما إذا كان التبديل قد وقع بأمر قرآني، وبعبارة أخرى: بالآية ١٤٥ وما بعدها فالمتبادر أن تكون هذه الآية هي التي نزلت أولاً ثم وقف اليهود موقفهم فنزلت الآيتان ١٤٢ـ ١٤٤ ثم بقية السلسلة

وما قبلها من فصول متصلة بالموقف على ما ذكرنا قبل؛ ونحن نميل إلى ترجيح الفرض الأول، لأن الآية ١٤٥ نفسها قد احتوت رداً على أهل الكتاب، وبياناً لواقع موقفهم وباعثه.

أما تاريخ الحادث فقد كان ـ فيما يروى ـ بعد ستة عشر شهراً من الهجرة النبوية، في أثناء صلاة الظهر يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهراً حيث صلى النبي ﷺ ركعتين إلى المسجد الأقصى ثم تحوّل إلى الكعبة[1]، وبقطع النظر عن التعيين الحاسم في الرواية فإن من المحتمل جداً أن تكون آيات القبلة من الفصول المبكرة في النزول تبعاً لتبكير اليهود في موقفهم الجحودي؛ وقد يكون في هذا ما يدعم صحة التاريخ للمروي أو مقاربته للصحة.

ومما يصح أن يلحق بهذا المبحث ما حكته آيات عدة عن غرور اليهود وتبجحهم اللذين كانا يبدوان منهم حينما كانت توجه إليهم الدعوة أو يحدث بينهم وبين النبي والمسلمين حجاج وجدل، إذ ورد في القرآن غير ما مر نقله مما اتصل بالأبحاث السابقة آيات عدة أخرى.

١ـ ففي سورة البقرة الآيات التالية:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾[2].

وقد تضمنت حكاية موقف تدليس لهم على العرب بما كانوا يظهرونه من تعاليم، وينسبون ما يقولونه ويكتبونه إلى الله افتراء عليه، لاستبقاء ما لهم عندهم من ثقة ومكانة. وحكاية موقف تبجح إزاء ما كانوا يسمعونه من الإنذار القرآني

---

(١) رواه البخاري والترمذي عن البراء أن النبي ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكان يحب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله آيات القبلة فوجه نحو الكعبة فصلى رجل معه العصر ثم مر على قوم من الأنصار وهم ركوع في صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال لهم إنه يشهد أنه صلى مع رسول الله وأنه يوجه إلى الكعبة فانحرفوا نحوها وهم ركوع. انظر أيضاً تفسير الآيات في تفسير الطبري والخازن وابن كثير.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٧٩، ٨٠.

فيقولون: إن المذنب منهم لن تمسه النار إلا أياماً معدودة ثم يناله عفو الله لما لهم من حظوة خاصة عنده. والمتبادر أن هذا الموقف خاصة هو من باب المواقف الحجاجية فوق ما فيه من تبجح زائف.

٢ـ وفي السورة نفسها الآية التالية:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾[1].

وقد تضمنت حكاية موقف غرور واستخفاف لهم؛ إذ كانوا يقولون إن ما عندهم كاف لهم ولا حاجة لهم بغيره حينما كانوا يدعون إلى الإيمان بالقرآن والنبوة المحمدية، والفقرة الثانية من الآية تلهم أن هذا القول منهم كان في مشهد حجاج ودعوة مواجه كما هو المتبادر.

٣ـ وفي السورة نفسها أيضاً الآيات التالية:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾[2].

والمتبادر أن تحدي اليهود في الآية الأولى قد كان جواباً على موقف حجاج وتبجح قالوا فيه إنهم وحدهم على الهدى، وإنهم من أجل ذلك هم وحدهم أصحاب الحظوة عند الله في الآخرة. ولقد جاء في سورة الجمعة تحد مقارب لهذا التحدي رداً على تبجحهم بأنهم أولياء الله من دون الناس، كما ترى فيما يلي:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾[3].

مما يدل على أن هذا التبجح منهم في المشاهد الحجاجية كان يتكرر آناً بعد آخر.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩١.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٩٤، ٩٥.

(٣) سورة الجمعة، الآيتان: ٦، ٧.

٤ـ وفي سورة البقرة كذلك الآية التالية:

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[1].

وهذه الآية متصلة فيما هو المتبادر بالموقف التبجحي الذي ذكرناه في الفقرة السابقة، لأنها مع سلسلة واحدة من الآيات السابقة لها؛ وقد لاحظنا في مكان سابق أن ذكر النصارى هو من قبيل التعميم لكل من يتمسك بما هو عليه ويزعم أنه على حق. وعلى الصراط المستقيم.

٥ـ وفي السورة نفسها الآية التالية:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ... ﴿١٣٥﴾﴾[2].

وهذه أيضاً متصلة بالموضوع نفسه، وهي من سلسلة واحدة، إذ قالوا متبجحين إن الهدى إنما هو في اليهودية.

٦ـ وفي سورة آل عمران الآية التالية:

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾[3].

وجمهور المفسرين والرواة على أن قائلي ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ هم اليهود، وهذا متصل بفكرة أنهم شعب الله المختار، وأنهم ليس عليهم تبعة أي عمل يصدر منهم ضد أي شخص من الأميين، أي غير الكتابيين، وبكلمة ثانية من غيرهم[4]؛ لأنهم لا يعترفون بالنصرانية وإنجيلها... وواضح أن قولهم هذا من باب الزهو والغرور والترفع عن الغير، كما أن فيه فتوى لأنفسهم باستحلال ما في أيدي الغير دون ما حرج.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

(٤) صار المقصود من الأميين في القرآن «العرب» أيضاً، لأن اليهود حينما كانوا يقولون الأميين لم يكن أمامهم غير عرب الحجاز تقريباً. وقد وصف النبي بالأمي في آيات سورة الأعراف ١٥٧ـ ١٥٨.

ولقد جاء في سورة النساء آيات تمت إلى هذا الخلق الذي لا يتورعون عن التبجيح به وهي:

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾[1].

إذ وصفهم بأنهم إذا صار لهم ملك شيء أو سلطان ما فإنهم يحتكرون كل منفعة لأنفسهم، ولا يدعون للغير أي مجال للانتفاع بأي شيء مهما كان تافهاً؛ كما أن من خلقهم حسد غيرهم على أي نعمة تصيبهم أو فضل ينالهم من الله، مع أن الله قد آتاهم نعماً عظيمة تمتعوا بها من فضله.

٧ـ وفي سورة آل عمران أيضاً الآية التالية:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾[2].

وجمهور المفسرين والرواة على أن المقصود في الآية علماء اليهود. ومما روي في صددها أن النبي ﷺ سألهم عن أمر فأجابوه إجابة غير صحيحة ثم أخذوا يزهون بعلمهم، مع أن كذبهم لم يلبث أن انفضح؛ فنزلت الآية تندد بهم وتتوعدهم؛ ومهما يكن من أمر فالموقف التبجحي واضح في الآية.

٨ـ وفي سورة النساء الآيات التالية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾[3].

وقد روي أن الآيتين نزلتا بمناسبة تبجح صدر من اليهود بأن الله يكفر عنهم في النهار ما يقترفونه من ذنوب في الليل، ويكفر عنهم في الليل ما يقترفونه في النهار؛ وعلى كل حال فالتبجح واضح في الآية، وهو متصل بدعوى الحظوة عند الله.

---

(١) سورة النساء: الآية: ٥٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٨.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

٩- وفي سورة المائدة الآية التالية:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾[1].

وقد تضمنت حكاية تبجح صريح وعجيب ورداً عليه، والقسم الثاني من الآية يدل على أنه صادر في موقف حجاجي. وقد استهدفت الآية دحض دعوى الحظوة والشعب المختار؛ كما استهدفت الآيات الأخرى ذلك أيضاً. ومما يجدر التنبيه إليه أن القرآن المكي والمدني قد احتوى تقرير تفضيل الله اليهود على العالمين[2] مما يمكن أن يوهم تناقضاً في التقريرات القرآنية؛ ولسنا نرى ذلك؛ إذ الأولى صرف التفضيل إلى بعثة موسى عليه السلام، وعدم ضرورة أن يكون ذلك مستمراً كما هو المتبادر؛ لا سيما أن القرآن مكيه ومدنيه قد ذكر ما كان من انحراف اليهود واستحقاقهم لغضب الله ونكاله في السابق واللاحق، وفسق كثير منهم، وجواب الله لإبراهيم عليه السلام بأن عهده لا ينال الظالمين من ذريته[3].

هذا بقطع النظر عما إذا كان القول المحكي في الآية قد صدر عن اليهود والنصارى في مجلس أو مجالس، أو أنه تعبير عن لسان حالهم؛ فإنها تحتوي صراحة أن اليهود ممن صدر عنهم القول كما هو ظاهر.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٨.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ١٦، والبقرة، ٤٧ مثلاً.

(٣) سورة الأعراف، الآيات: ١٢٨ - ١٥٦ و ١٦١ - ١٦٩، والبقرة، ١٢٤ والحديد ٢٦ وكثير من الآيات.

الدسائس والتآمر مع أعداء الإسلام

في القرآن صور عدة لدسائس اليهود بين المسلمين وكيدهم لهم وللدعوة الإسلامية، وتآمرهم عليهم مع المنافقين من جهة والمشركين من جهة أخرى، تدل على أبعد مدى ما كان من سوء نيات اليهود ضد المسلمين وشدة نكايتهم فيهم، وتوسلهم بكل وسيلة لإحاكة الدسائس والمؤامرات ضد الإسلام.

أولاً: دسائس بين المسلمين:

١ـ في سورة البقرة الآيات التالية:

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾[(١)].

وقد تضمنت نهي اليهود عن كتم الحق وإلباسه بالباطل عن قصد؛ والمتبادر أن هذا إنما كان منهم تجاه الغير، ويقصد الدس والتشكيك والصد، والراجح إن لم نقل المحقق أن هذا كان منهم إزاء المسلمين، لا سيما أن آيات أخرى كثيرة قد أكدته بصراحة. ويلاحظ أن الآيات من أبكر ما نزل في المدينة، ومعنى هذا أن الدس بين المسلمين قد أخذ يقع من اليهود مبكراً جداً...

٢ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية:

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾[(٢)].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٤١، ٤٢.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٧٥، ٧٦.

والآيات تخاطب المسلمين وتقرر لهم من جهة فقدان الأمل بارعواء اليهود وإيمانهم بالنبي وتتضمن من جهة أخرى صورة من صور تدليسهم على المسلمين ونفاقهم، وصورة أخرى لتآمرهم عليهم بالتواصي بألا يصدر منهم أي اعتراف بحقيقة قد يكون فيها متمسك أو حجة عليهم...

٣ـ وفي السورة نفسها الآية الآتية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾[1].

يضاف إليها الآيات ١٠٥ـ ١٠٩ التي نقلناها في بحث تبديل القبلة. ولهذه الآيات مع الآية ١٠٤ صلة بالذي نحن في صدده، إذ احتوت تحذيرات متنوعة للمسلمين من حسد اليهود ودسائسهم والجري على أساليبهم؛ فاليهود كانوا يتخذون خطاب المسلمين للنبي ﷺ بكلمة «راعنا» وسيلة لأذاه، فيلوون ألسنتهم بالكلمة ليكون معناها وصف النبي، بالرعونة سخرية به، فنهوا عن ذلك؛ وقد حذروا من تعجيز النبي ﷺ بالأسئلة والمطالب تقليداً لأسلافهم الذين عجزوا موسى بمثل ذلك. مما يلهم أن اليهود قد نجحوا في دسهم وتشكيكهم بين المسلمين حتى صار بعضهم يجادل ويسأل ويبدو منه بعض الشك، وقد رجحنا أن هذا قد كان في ظروف تبديل القبلة. وقد حذروا تحذيرين آخرين: فاليهود لا يريدون أن ينالهم خير من ربهم، ويودون أن يرتدوا عن دينهم كفاراً، حسداً للمسلمين وغيظاً من إسلامهم والتفافهم حول النبي ﷺ. وخلال كل هذا تبدو أصابع اليهود الدساسة بين المسلمين واضحة كما ترى.

٤ـ ويسلك في هذه السلسلة آيات القبلة ١٤٢ـ ١٥٢ التي نقلناها سابقاً، إذ احتوت الإشارة إلى مواقف الدس والتشكيك اليهودية، مما تناولنا بعضه.

٥ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٤.

مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾[(١)].

والمقصود من الحملة في الآيات ١٧٤ـ ١٧٦ هم علماء اليهود على ما قاله جمهور المفسرين. وورود آية المحرمات مع الحملة عليهم أن هؤلاء العلماء قد وقفوا موقف دس وتشكيك من المسلمين بشأنها، كاتمين أنها مما حرمته التوراة، فاستحقوا هذا التقريع والإنذار، وتنبيه المسلمين إلى الحق في الأمر، وإلى أن علماء اليهود إنما يكتمون ما في كتابهم من الحق المتسق مع التقرير القرآني بقصد بث الشك فيهم وإضلالهم عن الهدى.

٦ـ وفي سورة آل عمران الآيات التالية:

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾[(٢)].

والجمهور على أن أهل الكتاب هنا أيضاً هم اليهود؛ وفي الآيات قرائن عدة على ذلك؛ فالصفات والأفعال المنسوبة إليهم مما نسب في غيرها لليهود صراحة كما هو في آيات البقرة إذ حكت تآمر اليهود فيما بينهم على التظاهر بتصديق القرآن والإيمان به، حتى إذا اطمأن المسلمون لهم أعلنوا شكوكهم وارتيابهم في بعض المسائل؛ فأحدثوا بلبالاً وريباً في المسلمين وثغرة في صفوفهم؛ وقد حكت كذلك تواصيهم فيما بينهم بعدم الاعتراف بحقيقة مواقفهم ومقاصدهم ومعارفهم إلا بعضهم لبعض، وبعدم الاطمئنان إلا لمن دان بدينهم؛ لئلا ينتفع بذلك غيرهم ويكون لهم عليهم الحجة، أو ينفذون

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٧٢ ـ ١٧٦.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ٦٩ ـ ٧٣.

إليهم من ثغرة ما.

٧ـ وبعد قليل من هذه الآيات جاءت الآيات التالية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾[1].

والآيتان من سلسلة وسياق واحد، والجمهور على أن المقصود في الآية الثانية هم علماء اليهود؛ وقد تضمنت صورة من صور التدليس على المسلمين بقصد التعالم وكسب الثقة وضمانة المنفعة الخاصة؛ ويبدو من فحوى الآية الأولى أنهم كانوا يحلفون الإيمان على صحة ما يقولون من الأكاذيب والافتراءات على الله ليضمنوا الأهداف الدنيوية التي يهدفون إليها...

ومن المحتمل أن تكون الحملة المنطوية في الآية الأولى، والتقرير الذي احتوته الآية الثانية، متصلين بالمؤامرة التي حكتها الآية ٦٩ـ ٧٤، وأن يكون فريق من علماء اليهود قد نفذوها، وأنهم أخذوا يقسمون الإيمان على صدق ما قرروه من مناقضات النبي ﷺ والقرآن لما عندهم، تحقيقاً لهدف وهو تشكيك المسلمين، وردهم إلى الكفر، وتفريقهم عن النبي أو إيجاد ثغرة في صفوفهم.

ولقد جاء بعد قليل الآيات التالية:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٧٧، ٧٨.

﴿٨٨ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٨٩﴾[1].

ومن المحتمل أن تكون الآيات الأولى قد استهدفت رد دعوى المناقضة التي ادعاها اليهود تحقيقاً لمؤامراتهم، وتوكيد إيمان النبي ﷺ والمسلمين بكل ما جاء به الأنبياء السابقون بالإضافة إلى ما أنزل عليهم، دون تفريق بين أحد، ودون تردد ما، وبكل إسلام وانقياد مما هو متصل بالرد عليهم أيضاً على ما هو المتبادر. والآية ٨٦ تلهم أكثر من الآيات السابقة أن فريقاً من اليهود قد نفذ المؤامرة، فأعلن إيمانه بالرسالة النبوية والتنزيل القرآني، وشهد أنهما حق، ثم ما لبث أن أعلن ارتداده لإثارة الشك في المسلمين، فاستحق هذه الحملة الشديدة المتناسبة مع بشاعة المؤامرة، واحتمالات آثارها الوخيمة.

ونحب أن نلفت النظر إلى مدى الآية الأخيرة، إذ يتسق مع مبادئ القرآن العامة من إبقاء الباب مفتوحاً لكل إنسان جاحداً كان أم مذنباً ليصلح أمره، ويتوب عن موقف الإثم والجحود فيقبل منه ذلك؛ وإذ يدل على أن هذا لليهود كما هو لغيرهم على السواء، وعلى أن فكرة التعصب ضد اليهود ديناً وعنصراً لم يكن لها أساس أو محل في الدعوة النبوية والسيرة النبوية خلافاً لما يزعمه المغرضون.

٨ـ وفي سورة آل عمران أيضاً الآيات التالية:

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ٩٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠﴾[2].

والفريق المقصود هنا هو اليهود أيضاً على ما قاله الجمهور، والاستنكارات التي احتوتها الآيتان الأوليان مماثلة لاستنكارات آيات البقرة الموجهة لليهود بصراحة، مما يقوم قرينة على ذلك. ولقد روي أنها نزلت بسبب محاولة بعض اليهود إثارة الفتنة بين الأوس والخزرج مدفوعين بالغيظ من اجتماع شملهم والتفافهم حول النبي، وعدم نجاحهم فيما حاولوه من دس وتشكيك. ولقد جاء

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٨٣ ـ ٨٩.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ٩٨ ـ ١٠٠.

بعد هذه الآيات آيات فيها أمر للمسلمين بالاعتصام بحبل الله وعدم التفرق، وتذكيرهم بما كان بينهم من عداء انقلب بنعمة الله إلى أخوة، وبما كانوا عليه من ضلال تبدل إلى هداية، مما يمكن أن يدعم تلك الرواية كما ترى فيها:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾(١).

على أنه مما يحتمل أن تكون الآيات ٩٨ـ ١٠٠ قد نزلت لمناسبة موقف دس وتضليل ديني أيضاً، لأنها تندد باليهود لمحاولتهم صد المؤمنين عن سبيل الله وإقامة العثرات في طريقهم، مع يقينهم صدق النبوة والتنزيل، كما أن من المحتمل أن يكون هذا الموقف قد أثر في بعض المسلمين أيضاً.

ومهما يكن من أمر فالآيات تضمنت صوراً لمواقف دس وتضليل وإفساد وفتنة وقفها اليهود من المسلمين والدعوة الإسلامية، واستهدفوا بها إيجاد ثغرة في صفوف المسلمين؛ ويبدو من صيغة الآيات وقوة تحذيرها للمسلمين وتنديدها باليهود أنه كاد يكون لهذه المواقف أثر غير محمود لولا أن تدارك الله المسلمين بتثبيته وهدايته.

وبعد هذه الآيات جاءت الآيات التالية:

١ـ ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾(٢).

٢ـ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٠١ ـ ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٠٤، ١٠٥.

مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾[1].

والمتبادر أن الآيات استمرار لسابقاتها في تحذير المسلمين وتنبيههم إلى ما هو الأولى بهم؛ وقد احتوت الآيات الأخيرة تهويناً لشأن اليهود وقوتهم ومدى أذاهم، وإشارة إلى الطابع العام الدائم الذي دمغوا به من الذلة والمسكنة وغضب الله، بسبب كفرهم وتمردهم وبغيهم وسوء نياتهم. والتقريرات التي احتوتها متصلة بما كان من الدسائس اليهودية بين المسلمين، ومنبهة المسلمين إلى واجبهم من التضامن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنهم بذلك خير أمة أخرجت للناس، وقد ربطت بين مواقفهم ومواقف آبائهم، وحالتهم وحالة آبائهم، فقررت أن هذا الواقع الذي فيه اليهود المعاصرون هو متصل بما كان عليه أسلافهم جيلاً بعد جيل. ويبدو من الآية (١١١) أن بعض المسلمين كانوا يخشون ما لليهود من قوة مال وعدد وحصون وسلاح، وأن هذه الخشية كانت منفذاً ينفذ اليهود إليهم في الدس والكيد مطمئنين إلى عدم جرأة المسلمين على التنكيل بهم التنكيل الذي يستحقونه، فقد استهدفت هي والآية التالية لها تهوين قوتهم وشأنهم، ولفت نظر المسلمين إلى واقع أمرهم من الذلة والمسكنة والجبن؛ ويلمح من هذا بدء تطور إزاء بغاة اليهود الذين لم يتورعوا عن أي موقف من مواقف الأذى والكيد والدس وإثارة الفتنة؛ ولقد أشرنا في فقرة سابقة إلى ما تضمنته الفقرة الأخيرة من آية البقرة ١٠٩ من معنى خطير؛ ويبدو من الآية ١١١ هذه أن الوقت الذي هدأ فيه المسلمون الساخطون على اليهود إلى أن يحين؛ قد أخذ يحين بما ازداد اليهود فيه من بغي وكيد وأذى وإثارة فتنة؛ فاحتوت الآية هذا التهوين الذي احتوته، تسكيناً لروع الخائفين، ولعل التنكيلات باليهود قد أخذت طريقها التنفيذي بعد ذلك.

١٠ـ وفي سورة آل عمران أيضاً الآيات التالية:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١١٠ ـ ١١٢.

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾[1].

والجمهور على أن الآيات تعني اليهود، ومضامينها تدعم هذا إذا ما أمعن النظر فيها، وفيها الصفات نفسها التي وصف بها اليهود بصراحة في آيات أخرى.

ولقد تضمنت صورة قوية وبليغة لعداء اليهود الشديد ومكرهم، ونية الشر والكيد والبغض فيهم ضد المسلمين، والغيظ مما بلغ أمر هؤلاء إليه من القوة والتعالي، وقد حذرت المسلمين من أجل ذلك من موالاتهم واختلاطهم بهم، واطلاعهم على أمورهم وأسرارهم مما تضمنته كلمة «بطانة» وليس من شك في أن هذا قد كان مستنداً إلى المواقف المتنوعة والكثرة، العلنية والسرية، القولية والفعلية، التي وقفها اليهود من النبي ﷺ والمسلمين والدعوة الإسلامية. والآيات تلهم ما كان من قوة الروابط التي كانت تربط بعض العرب باليهود، وقوة أثر هؤلاء فيهم؛ مما يفسر حكمة تفصيل نيات اليهود وحقيقة أمرهم ومواقفهم تجاه المسلمين للتأثير في الذين يميلون إلى التمسك بولائهم لليهود وحملهم على الانسحاب منه.

ولقد جاء في سورة النساء نهي آخر فيه شيء من العتاب كما ترى في الآية التالية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ... ﴿١٤٤﴾﴾[2].

وهذه الآية من سلسلة فيها حملة على المنافقين تلهم أن الكافرين المعنيين مباشرة فيها هم اليهود؛ وقد استهدفت الآية ما استهدفته الآيات السابقة، كما أن فيها نفس الدلالة التي ذكرناها آنفاً كما هو المتبادر.

ولعل مما يصح أن يقال إن هذه الآيات تمت إلى ذلك التطور الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة، وتمهد له السبيل في نفوس بعض المسلمين الذين غفلوا عما يبيته اليهود.

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١١٨ ـ ١٢٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٤.

١١ـ في سورة آل عمران أيضاً الآية التالية:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾[1].

وهذه الآية جاءت بعد آيات قوية الصراحة بأنها في حق اليهود بحيث يمكن القول إنهم هم المقصودون من جملة ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ في الدرجة الأولى. وفي الآية إشارة إلى ما كان المسلمون وظلوا يتعرضون له من أذى اليهود ومكائدهم.

١٢ـ وفي سورة النساء الآيات ٤٤ـ ٤٦ تضمنت صورة للعداء والدسائس اليهودية، من عدم تورع اليهود عن المكابرة والارتكاس في الضلال ومناقضة وصايا كتابهم وتعاليمه، وتحريفهم له، وتأويلهم إياه تأويلاً باطلاً بقصد إضلال المسلمين وتشكيكهم في دينهم وشق صفوفهم. والصورة هنا أقوى منها في الآيات السابقة التي تضمنت صوراً مماثلة كما يبدو منها؛ وتكرار التنديد بهذه الصورة يدل على توالي صدورها منهم بطبيعة الحال. ويلاحظ هنا أن اليهود قد وصفوا بأنهم أعداء للمسلمين؛ ولعل هذا الوصف يأتي في القرآن لأول مرة. ومما لا ريب فيه أن هذا إنما كان بسبب استمرارهم في المواقف الكيدية والمؤذية السرية والعلنية، والقولية والفعلية التي وقفوها.

١٣ـ وفي سورة المائدة الآيات التالية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾[١].

ومضامين الآيات وخاصة الآية ٦٠ تدل على أن المقصود من أهل الكتاب فيها هم اليهود، إذ وصفوا بالصفات التي تضمنتها أكثر من مرة: والربانيون والأحبار هم علماء اليهود خاصة أيضاً.

وفي الآيات تحذير للمسلمين من موالاة اليهود، وتعليل بأنهم اتخذوا دينهم ونداءهم إلى الصلاة، أي أذانهم، هزواً ولعباً. وفي هذا صورة لمواقف المكر والاستخفاف اليهودية من المسلمين ودينهم وصلاتهم، وقد يكونون استهدفوا بها ـ فوق دلالتها على غيظهم وجبلتهم الخلقية ـ إلقاء الريب في قلوب المسلمين فيما هم عليه.

وفي الآيات صورة أخرى لمكرهم، إذ كانوا يأتون إلى المسلمين فيعلنون إيمانهم وهم كاذبون، وإنما يفعلون ذلك من قبيل التدليس والمكر والتضليل؛ ولعلهم كانوا يستهدفون بذلك كسب ثقة المسلمين وطمأنينتهم حتى يكون مكرهم ودسهم وتضليلهم أنفذ.

وفيها إلى ذلك استطراد لذكر ما كانت عليه أخلاقهم من قول الإثم وأكل السحت، ومن سكوت ربانييهم وأحبارهم عن ذلك، مما يرجح أن يكون لهذا الاستطراد صلة بمواقف المكر والأذى، وقصد لتقرير اندماج الربانيين والأحبار في تلك المواقف وهذه الأخلاق.

ولقد جاء في سورة التوبة: بضع آيات في حق أهل الكتاب وقتالهم ومنها هذه الآيات:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ...﴾[٢].

---

(١) سورة المائدة، الآيات: ٥٧ ـ ٦٣.

(٢) سورة التوبة، الآيات: ٣٢ ـ ٣٤.

والآيات صريحة الدلالة على ما كان للأحبار اليهود من موقف الصد والتعطيل، وما كان لهذا الموقف من أثر في جحود جمهور اليهود للنبوة المحمدية، وعدم استجابتهم للدعوة الإسلامية؛ ويبدو منها أن هؤلاء الأحبار كانوا شديدي التعلق بأعراض الدنيا، وكانوا يصدون عن سبيل الله قصد إطفاء نوره وتعطيل دعوة نبيه لتبقى لهم الرياسة والمكانة والطاعة، مهما كانت الوسيلة مناقضة للحق، ولعل من الصواب أن يقال استلهاماً من هذه الآيات وغيرها إن أحبار اليهود وربانييهم بالتضامن مع زعماء اليهود قد تولوا كبر المعارضة والمحاجة، والمشاقة والدسائس والتآمر والكيد والتشويش.

ثانياً: تآمر اليهود مع المنافقين:

١ـ لعل أول آية ذكرت فيها صلات اليهود بالمنافقين هي آية البقرة هذه:

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾(١).

وجمهور العلماء على ما تلهمه الآية من أن «شياطينهم» تعني اليهود؛ والكلام في الآية حكاية قول المنافقين، وهي من سلسلة وصفية لهؤلاء حمل عليهم فيها حملة شديدة؛ ووصف اليهود بأنهم شياطين المنافقين أي الذين يوسوسون إليهم ويغوونهم من جهة، وذكر اختلاء المنافقين بهم من جهة أخرى، يدلان بصراحة على الأثر الكبير لليهود في حركة النفاق والمنافقين، كما يدلان على التضامن الوثيق الموطد بين الفريقين تجاه الدعوة الإسلامية.

والآية من أبكر ما نزل من القرآن المدني على الأرجح، وهذا التبكير يدل على ما كان من جدّ اليهود في تغذية وتقوية جبهة النفاق، وعلى نجاحهم في سعيهم وقيام حالة تواثق وتآمر بينهم وبين المنافقين منذ وقت مبكر من العهد المدني.

وإذا لاحظنا الدور الباغي الذي قام به المنافقون على ما سبق شرحه، وما كان له من آثار ضارة، ثم لاحظنا ما كان يربط بين المنافقين والمخلصين من الأوس والخزرج من أوشاج القربى، وما كان لطبيعة القربى من قوة في المجتمع

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤.

العربي، وما كان ينتج عن وقوف بعض ذوي القربى ضد بعضهم من مشاكل ومواقف محرجة ومؤذية في الوقت نفسه للكيان الإسلامي وحركة الدعوة الإسلامية، بدت لنا شدة النكاية وبعد مدى الأذى فيما كان من جد اليهود في تغذية وتقوية جبهة النفاق، ونجاحهم في سعيهم، وقيام حالة التضامن والتآمر بينهم وبين المنافقين منذ الوقت المبكر على ما تلهمه الآية.

٢ـ في سورة النساء الآيات التالية:

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾[١].

كما أن فيما بعدها قرينة ثانية أيضاً. وواضح أن اتخاذ المنافقين اليهود أولياء، وتواثقهم معهم، إنما هما أثر من آثار التآمر الموطد بين اليهود والمنافقين تجاه الدعوة والقوة الإسلامية.

٣ـ في سورة محمد، الآيات التالية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾[٢].

والجمهور على أن الآية الأولى عنت المنافقين، وأن الذين كرهوا ما نزل الله هم اليهود؛ وهكذا تبدو في الآية الثانية صورة من صور التآمر بين الفريقين ضد الإسلام والمسلمين. ونلفت النظر إلى ما حكته الآية الثانية من وعد المنافقين لليهود بطاعتهم والسير على الخطة التي يضعونها، ففي هذا كما هو ظاهر صورة لبعض ما كان لليهود من التوجيه والتأثير والنفوذ في المنافقين وحركتهم وأعمالهم.

٤ـ في سورة المجادلة الآية التالية:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾[٣].

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٣٨، ١٣٩.

(٢) سورة محمد، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٤.

والجمهور كذلك على أن الآية في صدد تولي المنافقين لليهود؛ وفيها والحالة هذه صورة من صور ذلك التآمر.

٥ـ في سورة الحشر الآية التالية:

﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾[1].

والذين كفروا من أهل الكتاب هم اليهود، لأن الآيات السابقة هي في صدد حادث تنكيل بهم؛ وفي الآية صورة قوية للتضامن والتحالف الوثيقين بين اليهود والمنافقين؛ كأثر من آثار التآمر الموطد بينهما.

٦ـ في سورة المائدة الآيات التالية:

﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[2].

والآية الأولى وإن كانت شملت اليهود والنصارى فإن الموضوع المباشر للنهي على ما تلهمه الآية الثانية ورواية نزولها، هو اليهود؛ لا سيما أن المدينة لم يكن فيها من يسارع المنافقون إلى توليهم خشية الدوائر إلا اليهود، إذ لم يكن فيها كتلة نصرانية عدو.

وقد روى المفسرون والرواة أن الآية الثانية نزلت بمناسبة مشادة بين كبير المنافقين عبد الله بن أبيّ وأحد زعماء المسلمين، إذ قال هذا إني بريء من اليهود، فقال الأول أما أنا فلا أتبرأ منهم لأني أخشى الدوائر؛ وعلى كل حال ففي الآية الثانية صورة للتواثق الشديد بين المنافقين واليهود وأثر من آثار التآمر بينهما.

ولقد يرد ـ في صدد الحملة على المنافقين لتوليهم اليهود في آيات هذه

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١١.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ٥١، ٥٢.

الفقرة وغيرها مما نقلناه قبل ـ أنه كان بين الأوس والخزرج وبين اليهود عهود ومواثيق، وأن النبي قد أبقى عليها وجددها، وأن تمسك فريق من العرب بها أو اعتبار أنفسهم مقيدين بها مما لا غبار عليه، لأنه مما توجبه واجبات الوفاء.

وجواباً على هذا نقول أولاً: إن المنعي عليهم هم فريق المنافقين فقط الذين وقفوا منذ بدء الهجرة النبوية من النبي، ودعوته موقف الكيد والمكر والتآمر، في حين أن تلك العهود والمواثيق قد كانت بين اليهود وسائر بطون الأوس والخزرج؛ ومعنى هذا أن المسلمين المخلصين استجابوا لتحذير القرآن والنبي، الذي كان معللاً بمواقف كيد اليهود ومكرهم ودسهم وتآمرهم؛ وإذا كان بعض المسلمين تردد أو تأخر في نفض يده من الولاء للحلف بينه وبين اليهود، فإن الذين جاهروا بالتمسك به ولم يعبأوا بالتحذير والنهي بوقاحة وإصرار وتمرد هم المنافقون فقط، وهذا يدل بصراحة وقوة على أن الباعث لهم على هذا الموقف ليس الإخلاص للحلف، وإنما ما جمع بين اليهود وبينهم من وحدة البغض والكيد للإسلام ونبيه، وما توطد بين الفريقين من تواثق وتضامن وتآمر على النكاية بهم، ولا يصح أن يعد من قبيل الوفاء بالعهود، ولو أن المنافقين كانوا يعتذرون بذلك.

ونقول ثانياً: إن تلك المواقف التي حكاها القرآن عن اليهود من شأنها أن تكون نقضاً من جانبهم لتلك العهود والمواثيق؛ ولقد اعتبرت كذلك بنص القرآن كما تلهمه الآيات التالية:

١ـ ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٠﴾[1].

٢ـ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦﴾[2].

والآيات مما نزل مبكراً، وهو أمر يدل على أن تلك المواقف قد اعتبرت نقضاً منذ وقت مبكر؛ فدعوة القرآن إلى عدم موالاتهم واتخاذهم بطانة وطاعتهم وتحذيره؛ هي شيء طبيعي لا يتمحل فيه إلا مكابر أو مغرض.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٠.

(٢) سورة الأنفال، الآيتان: ٥٥، ٥٦.

وثالثاً: تآمر اليهود مع المشركين:

إن الآيات الواردة عن تآمر اليهود مع الكفار والمشركين أقل مما ورد عن تآمرهم مع المنافقين؛ وهذا طبيعي فيما يبدو، لأن اليهود في المدينة، والصلات بينهم وبين أهلها أوثق، والشقة بعيدة عن مكة التي كان زعماؤها قادة حركة العداء للنبي ﷺ ودعوته؛ ومع ذلك ففي الآيات القليلة الواردة صور ذات خطورة كبيرة المغزى والأثر.

١ـ فمنها الآيات التالية من سورة النساء:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[1].

ولقد رُويَ في صدد الآيتين روايات مفادها أن وفداً من زعماء اليهود ذهب إلى مكة بعد واقعة أحد ليبحث في أمر، النبي والمسلمين مع زعمائها، ويعرض عليهم حلفاً يهدف إلى القضاء عليهم بعد الضربة التي نزلت بهم نتيجة لتلك الواقعة، وأنه لما تم الاتفاق على الحلف ذهب الوفد والزعماء إلى فناء الكعبة وألصقوا أكبادهم بها، وأقسموا عند الأصنام التي حولها على البر في الحلف، والجهد في تنفيذه؛ ومما رُوِيَ أن زعماء مكة استشهدوهم على من هو الأفضل ديناً وسبيلاً فشهدوا لهم أنهم هم الأهدى والأفضل. وليس في الروايات ما لا يتسق مع الآيات إلا كون الآيات أكثر صراحة إذ تذكر إيمانهم بآلهة الكفار.

ولعل أبشع ما في الصورة، بل أشنع ما كان من اليهود، أن يدفعهم الحقد والحسد والعداء للنبي، ودعوته إلى عدم التورع في الشهادة الفاجرة بأن الشرك خير من التوحيد، وأن آلهة المشركين وأصنامهم خير من إله محمد رب العالمين، وأن ما عليه المشركون من عادات وتقاليد أهدى مما يدعو إليه محمد ﷺ؛ ثم إلى عدم التورع في إعلانهم الشرك وإيمانهم بآلهة المشركين وتكريمهم لأصنامهم؛ وهكذا ينكرون أساس دينهم الذي هو الإيمان بالله وحده؛ في سبيل محاربة النبي، الداعي إلى ذلك، والناهي عن الشرك والإثم والفواحش؛ وليس

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٥١، ٥٢.

من ريب في أن موقف هذا الفريق يدمغه بطابع من العار لا يمكن أن ينسى.

ولقد كان من نتيجة رحلة الوفد اليهودي وعقده الحلف مع زعماء مكة أن استنفر هؤلاء أهل مكة وأحزابهم وحلفاءهم، وإن زحفوا بجيوش جرارة على المدينة ـ وهو ما عرف بواقعة الخندق ـ وإن زلزل هذا الزحف أعصاب المسلمين وأدخل في قلوبهم الرعب، وإن كاد يعصف فعلاً بالإسلام والمسلمين لولا أن تداركهم الله بنعمته وعونه، وقد وفى اليهود بالحلف، فظاهروا الجيوش الزاحفة على المسلمين، مما زاد في حرج الموقف وشدة خطورته؛ وهذا وذاك مما أشارت إليه الآيات في سورة الأحزاب.

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ۝١٢﴾[1].

٢ ـ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ۝٢٥ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ۝٢٦ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ۝٢٧﴾[2].

٣ ـ ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ۝٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٨١ ۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٨٢﴾[3].

---

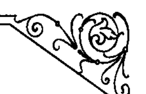
(١) سورة الأحزاب، الآيات: ٩ ـ ١٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآيات: ٢٥ ـ ٢٧.

(٣) سورة المائدة، الآيات: ٧٨ ـ ٨٢.

ومن نافلة القول التأكيد هنا على أن كثيراً من اليهود كانوا يتولون الكافرين ويتواثقون معهم، ومما لا ريب فيه أن هذا قد كان بسائق البغضاء التي كانت تجمع بين الفريقين للإسلام والمسلمين، وبقصد التآمر على تقويض أركانهم وهدم بنيانهم، وإذ لوحظ أن الكفار كانوا في حالة حرب مستمرة مع اليهود، بدا لنا أن ذلك التولي قد كان نوعاً من المظاهرة الحربية وكان بالنتيجة شديد الخطورة بعيد المدى والأثر. ويبدو من الآية الأخيرة أن هذه المواقف منهم كانت مكشوفة، وكانت آثارها ملموسة، إذ وصفت اليهود بأنهم أشد الناس عداوة للمسلمين، وقرنتهم في هذه العداوة الشديدة بالمشركين الذين كان منهم ما كان من شديد الصد والأذى وكانوا في حالة حرب مستمرة مع المسلمين.

ويستلهم من الآية ٨١ أن من اليهود من كان يتظاهر كذباً بالإيمان وتصديق النبي ففضحتهم وأقامت عليهم الحجة في موقفهم الذي لا يمكن أن يحدث لو كانوا صادقين في إيمانهم.



الفصل الخامس

- المنهج العام للتعامل مع أهل الكتاب.
- المؤلفة قلوبهم وحسن النية تجاه الآخر.
- المراسلات والمكاتبات والوفود.
- البعوث إلى القبائل.
- الدعوة الإسلامية والحوار مع الآخر.

منهج التعامل الإسلامي مع أهل الكتاب

المنهج العام في عهد الرسول ﷺ:

من نافلة القول الإشارة إلى أن حرية العقيدة أصل عام لجميع الحريات الشخصية والأدبية والاجتماعية، وهذا ما زخرت به المصادر الإسلامية وطبق في مجتمع المسلمين وهذا هو ما سار عليه ﷺ بالنسبة لأتباع الأديان الموجودة في عهد النبوة كاليهودية والنصرانية وكانتا ديناً لبعض أهل اليمن في جنوب الجزيرة ولبعض أهل الشام في الشمال، والمجوسية وكانت ديناً لبعض أهل البحرين. ولبيان ذلك المنهج أنه في معاهدة الرسول ﷺ مع نصارى نجران يقول: «ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد رسول الله على أموالهم وأنفسهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته. وليس عليهم دنية ولا دم جاهلية.. على ألا يأكلوا الربا فمن أكل الربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة...».

وبمثل ذلك جاء كتاب رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم عامله على اليمن فقد جاء فيه: «..ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها» وقد وجد المسلمون بعد فتح خيبر نسخاً من التوراة في حصونهم فأمر ﷺ بردها.

- وأما حرمة المال لغير المسلمين ولو كان مملوكاً لعدو محارب فقد روى ابن هشام أنه أسلم أحد الرعاة وكان أجيراً على غنم مملوكة ليهودي وذلك أثناء حصار الرسول ﷺ لبعض حصون خيبر فسأل هذا الراعي الرسول ﷺ عما يفعل بهذه الغنم فأمره الرسول ﷺ أن يضرب في وجهها، فإنها سترجع إلى ربها أي صاحبها وهو داخل الحصن المحاصر، فأخذ حفنة من الحصى فرمىٰ بها في وجوهها.. حتى دخلت الحصن.
- وأما حرمة النفس وعدم الأخذ بالشبهة فقد حدث بعد فتح خيبر أن دخلها

عبد الله بن سهل مع أخ له ثم أخبر أخوه أنه قتل وطرح في عين فأتى يهودي وقال: أنتم والله قتلتموه، فأنكروا ذلك. فجاء إلى الرسول ﷺ مع بعض الأنصار وأخبره بذلك، فكتب الرسول ﷺ إلى اليهود في ذلك، فكتبوا أنهم ما قتلوه فوداه الرسول ﷺ من عنده، وبعث إلى أولياء القتيل بمائة ناقة.

وفي هذه الواقعة كانت الشبهات القوية والقرائن الدالة تحوم حول يهود خيبر إذ وجد الصحابي قتيلاً بين أظهرهم، وألقي في بئر لهم، ولكن الرسول ﷺ حفاظاً على حرمة النفس وصدق العدالة مع الأعداء لم يأخذهم بالشبهات على الرغم من قوتها، بل أدى الدية من مال المسلمين.

- **حرمة الملكية:**

لا يقبل الإسلام غدراً أو مصادرة لأموال غير المسلمين ولو كانوا في حالة حرب مع المسلمين، يدل على ذلك ما رواه البخاري من أن المغيرة بن شعبة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ: «فأما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء».

المؤلفة قلوبهم وحسن النية تجاه الآخر

يعرف علماء التاريخ أن الطبقات الاجتماعية التي تتعرض لتغيرات جذرية أنها إما أن تكون مصالحها ومعتقدها مع النظام الجديد فتنبري ترفع لواءه وتحمل شعاره فهؤلاء هم المؤمنون بالنظام، وإما أن تصطدم به وتنفر منه وتعاديه وهؤلاء يكونون أعداء النظام، وبين هؤلاء توجد مساحة رمادية واسعة لعمل مجموعات مرتزقة قد تنافق بأن تظهر الوفاق والاتفاق مع النظام خوفاً من بطشه وقوته وكسباً لمغانم ترجوها أو أن تكون مجموعة ضعيفة من البشر اجتماعياً وفكرياً انضوت تحت لواء النظام الجديد ويخشى عليها أن يؤثر عدو النظام فيها فتحتاج إلى عون ومساندة أو تكون شريحة من هذه المجموعات (عدوة) للنظام لكن قدرتها على العداوة محدودة التأثير وكسبها للنظام يعطي قوة ويمنحها الفرصة وقد وجد في المدينة بعد الغزوات والسرايا التي اغتنم المسلمون منها مالاً وأعطتهم قدرة واسعة جماعة تحتاج إلى تأليف القلوب فمن هم وما حكم علماء المسلمين على هذه الظاهرة «تأليف القلوب» يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن المؤلفة قلوبهم وعند تفسيره لقوله تعالى في سورة التوبة من الآية ٦٠: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾[1]. لا ذكر للمؤلفة قلوبهم في التنزيل في غير قسم الصدقات، وهم قوم كانوا في صدر الإسلام ممن يُظهر الإسلام، يُتألّفون بدفع سهم من الصدقة إليهم يقويهم. قال الزهري: المؤلفة من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنياً. وقال بعض المتأخرين: اختلف في صفتهم، فقيل: هم صنف من الكفار يعطون ليتألفوا على الإسلام، وكانوا لا يسلمون بالقهر والسيف، ولكن يسلمون بالعطاء والإحسان. وقيل: هم قوم

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

أسلموا في الظاهر ولم تستيقن قلوبهم، فيعطون ليتمكن الإسلام في صدورهم. وقيل هم من عظماء المشركين لهم أتباع يعطون ليتألفوا أتباعهم على الإسلام. قال: وهذه الأقوال متقاربة والقصد بجميعها الإعطاء لمن لا يتمكن إسلامه حقيقة إلا بالعطاء فكأنه ضرب من الجهاد.

والمشركون ثلاثة أصناف: صنف يرجع بإقامة البرهان. وصنف بالقهر. وصنف بالإحسان والإمام الناظر للمسلمين يستعمل مع كل صنف ما يراه سبباً لنجاته وتخليصه من الكفر. وفي صحيح مسلم من حديث أنس: فقال رسول الله ﷺ أعني للأنصار: «فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم..» الحديث. قال ابن إسحاق: أعطاهم يتألفهم ويتألف بهم قومهم. وكانوا أشرافاً، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير، وأعطى حويطب بن عبد العزى مائة بعير، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير، وكذلك أعطى مالك بن عوف والعلاء بن جارية. قال: فهؤلاء أصحاب المئين. أعطى رجالاً من قريش دون المائة منهم: مخرجة بن نوفل الزهري وعمير بن وهيب الجمحي، وهشام بن عمرو العامري، قال ابن إسحاق: فهؤلاء لا أعرف ما أعطاهم.. وأعطى سعيد بن يربوع خمسين بعيراً، وأعطى عباس بن مرداس السلمي أباعر قليلة فسخطها. فقال في ذلك:

كانت نهايا تلافيتها ... بكري على المهر في الأجرع
وإيقاظي القوم أن يرقدوا ... إذا هجع الناس لم أهجع
فأصبح نهبي ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع
وقد كنت في الحروب ذا تدرإ ... فلم أعط شيئاً ولم أمنع
إلا أفائل أعطيتها ... عديد قوائمه الأربع
وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس في المجمع
وما كنت دون امرىء منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع

قال رسول الله ﷺ: «اذهبوا فاقطعوا عني لسانه» فأعطوه حتى رضي. فكان ذلك قطع لسانه. قال أبو عمر: وقد ذكر في المؤلفة قلوبهم: النضير بن الحارث بن علقمة بن كلدة، أخو النضر بن الحارث المقتول ببدر. وذكر آخرون أنه فيمن هاجر إلى الحبشة، فإن كان منهم فمحال أن يكون من المؤلفة قلوبهم

ومن هاجر إلى أرض الحبشة فهو من المهاجرين الأولين ممن رسخ الإيمان في قلبه وقاتل دونه، وليس ممن يؤلف عليه. قال أبو عمر: واستعمل رسول الله ﷺ مالك بن عوف بن سعد بن يربوع النضري على من أسلم من قومه من قبائل قيس، وأمره بمغاورة ثقيف ففعل وضيق عليهم، وحسن إسلامه وإسلام المؤلفة قلوبهم، حاشا عيينة بن حسن فلم يزل مغموراً عليه. وسائر المؤلفة متفاضلون، منهم الخير الفاضل المجمع على فضله، كالحارث بن هشام، وحكيم بن حزام، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، ومنهم دون هؤلاء. وقد فضل الله النبيين وسائر عباده المؤمنين بعضهم على بعض وهو أعلم بهم. قال مالك: بلغني أن حكيم بن حزام أخرج ما كان أعطاه النبي ﷺ في المؤلفة قلوبهم فتصدق به بعد ذلك.

واختلف العلماء في بقاء حكم المؤلفة قلوبهم فقال عمر والحسن والشعبي وغيرهم: انقطع هذا الصنف بعز الإسلام وظهوره. وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي. قال بعض علماء الحنفية: لما أعز الله الإسلام وأهله قطع دابر الكافرين لعنهم الله ـ اجتمعت الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين في خلافة أبي بكر رضي الله عنه على سقوط سهمهم. وقال جماعة من العلماء: هم باقون لأن الإمام ربما احتاج أن يستأنف على الإسلام. وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين. قال يونس: سألت الزهري عنهم فقال لا أعلم نسخاً في ذلك. قال أبو جعفر النحاس: فعلى هذا: الحكم فيهم ثابت، فإن كان أحد يحتاج إلى تألفه ويخاف أن تلحق المسلمين منه آفة أو يرجى أن يحسن إسلامه بعد، دفع إليه. قال القاضي عبد الوهاب: إن احتيج إليهم في بعض الأوقات أعطوا من الصدقة. وقال القاضي ابن العربي: الذي عندي أنه إن قوي الإسلام زالوا، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم كما كان رسول الله ﷺ يعطيهم، فإن في الصحيح: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ).

فإذا فرعنا على أنه لا يرد إليهم سهمهم فإنه يرجع إلى سائر الأصناف أو ما يراه الإمام. وقال الزهري: «يعطى نصف سهمهم لعمار المساجد وهذا مما يدلك على أن الأصناف الثمانية لا يستخفون تسوية، ولو كانوا مستحقين لسقط سهمهم بسقوطهم ولم يرجع إلى غيرهم، كما لو أوصى لقوم معينين فمات أحدهم لم يرجع نصيبه إلى من بقي منهم». اهـ.

وأما الإمام ابن كثير ففي تفسيره وعند الحديث عن سورة التوبة وهو يفسر قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾. قال رحمه الله: «لما ذَكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزهم إياه في قسم الصدقات بيّن تعالى أنه هو الذي قسمها وبيّن حكمها وتولى أمرها بنفسه ولم يكِلْ قسمها إلى أحد غيره فجزّأها لهؤلاء المذكورين، كما رواه الإمام أبو داود في سننه من حديث عبد الرحمٰن بن زياد بن أنعم وفيه ضعف عن زياد بن نعيم عن زياد بن الحارث الصدائي رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ فبايعته فأتى رجل فقال أعطني من الصدقة فقال له: «إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزَّأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك». وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين: أحدهما أنه يجب ذلك وهو قول الشافعي وجماعة، الثاني: أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع إلى واحد منها ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقين وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران، قال ابن جرير وهو قول عامة أهل العلم وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ههنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعابها. وإنما قدم الفقراء ههنا على البقية لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور ولشدة فاقتهم وحاجتهم وعن أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير وهو كما قال أحمد وقاله عكرمة لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين إنما المساكين أهل الكتاب فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي» رواه أحمد وأبو داود والترمذي ولأحمد أيضاً والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة مثله وعن عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة فقلب فيها البصر فرآهما جلدين فقال: «إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب» رواه أحمد وأبو داود والنسائي بإسناد جيد قوي، وأما المساكين فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين هذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان» قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غني يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً» رواه الشيخان. وأما العاملون عليها فهم الجباة والسعاة يستحقون

منها قسطاً على ذلك ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث أنه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة فقال: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد إنما هي أوساخ الناس». وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام: منهم من يُعطى ليسلم كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين وقد كان يشهدها مشركاً قال فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إليَّ بعد أن كان أبغض الناس إليَّ كما قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي حدثنا ابن المبارك عن يونس عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إلي فما زال يعطيني حتى أنه لأحب الناس إليَّ ورواه مسلم والترمذي من حديث يونس عن الزهري به ومنهم من يُعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل وقال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم» وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بذهبية في تربتها من اليمين فقسمها بين أربعة نفر: «الأقرع بن حابس وعيينة بن بدر وعلقمة بن علاثة وزيد الخير وقال: «أتألفهم». ومنهم من يُعطى لما يُرجى من إسلام نظرائه ومنهم من يُعطى ليجبي الصدقات ممن يليه أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع والله أعلم».اهـ.

المؤلفة قلوبهم بعد الإسلام:

هل تعطى المؤلفة قلوبهم على الإسلام بعد النبي ﷺ؟

فيه خلاف فروي عن عمر وعامر الشعبي وجماعة أنهم لا يعطون بعده لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم في البلاد وأذل لهم رقاب العباد وقال آخرون بل يعطون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن وهذا أمر قد يحتاج إليه فصرف إليهم.

يقول الشيخ الإمام المراغي في تفسيره وعند الحديث في سورة التوبة الآية رقم (٦) وهي قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾. والمؤلفة قلوبهم هم الذين يراد استمالة قلوبهم إلى

الإسلام، أو التثبيت فيه، أو كف شرهم عن المسلمين، أو رجاء نفعهم في الدفاع عنهم أو نصرهم على عدو لهم، وهم أصناف ثلاثة:

١ـ صنف من الكفار يرجى إيمانهم بتأليف قلوبهم كصفوان بن أمية الذي وهب له النبي ﷺ الأمان يوم فتح مكة وأمهله أربعة أشهر نظر في أمره وأعطاه إبلاً محملة، فقال هذا عطاء من لا يخشى الفقر، وروي أنه قال: والله قد أعطاني وهو أبغض الناس إليَّ، فما زال يعطيني حتى أنه لأحب الناس إليَّ، وقد حسن إسلامه.

٢ـ صنف أسلم على ضعف، ويرجى بإعطائه تثبيته وقوة إيمانه ومناصحته في الجهاد كالذين أعطاهم النبي ﷺ العطايا الوافرة من غنائم هوازن، وهم بعض الطلقاء من أهل مكة الذين أسلموا وكان منهم المنافق ومنهم ضعيف الإيمان، وقد ثبت أكثرهم بعد ذلك وحسن إسلامهم.

٣ـ صنف من المسلمين في الثغور وحدود بلاد الأعداء يعطون لما يرجى من دفاعهم عمن وراءهم من المسلمين إذا هاجمهم العدو.

ويرى أبو حنيفة أن سهم هؤلاء قد انقطع بإعزاز الله الإسلام، واحتج بأن مشركاً جاء يلتمس من عمر مالاً فلم يعطه وقال: (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وبأنه لم ينقل أن عثمان وعلياً أعطيا أحداً من هذا النوع.

هذا هو أهم وأوجز ما جاء في كتب التفسير والحديث حول المؤلفة قلوبهم وخلاصته: أنه منهج في شراء المواقف واستمالة القلوب قد يشرع بسبب الحاجة إليه وقد يمتنع إذا كان المسلمون في غير حاجة، وجملة الآراء حول هذا الموضوع «تأليف القلوب» أن مشروعيته تدور مع وجود صدمة داعية إليه.

وبعيداً عن لفظ المتفيهقين من غير أبناء المسلمين الذين يجلسون باستديوهات بعض قنوات «الموت» الإعلامي يرمون من هنا وهناك بمقالات مَرَضية منحرفة بعد أن يقوموا بتزوير النصوص ويبتروا الصحيح منها بمثل هذه الشبهات التي يثيرها بعض أدعياء العلم الذين يهاجمون الأحكام الشرعية في الإسلام.

المراسلات والمكاتبات والوفود

محمد رسول الله ﷺ الذي أرسل إلى العالمين هدى ورحمة، بعد أن أبلى بلاءه الحسن في دعوة الناس، وبعد أن أحس أن الدعوة بلغت من نفوس الناس مبلغاً، أزال عنهم الجهالة، وكشف لهم الحق، ووضح أمامهم الطريق، وأن الإيمان بها بلغ حداً جعله - ﷺ - يطلب المزيد. بعد ذلك أراد ﷺ أن يطبع دعوته بطابعها الحق، وأن يمدها امتدادها الطبيعي، حتى تصل إلى الناس جميعاً، وحتى تبلغ أقصى ما يمكن أن تبلغه في ذلك الوقت[١].

لذا وبعد عودته ﷺ من صلح الحديبية[٢] ودحر معظم القوى العادية والمتربصة وانتشار الأمن في الجزيرة العربية[٣]، نزلت عليه سورة الفتح، وتلاها النبي ﷺ على أصحابه، وقد كان يفكر في أثناء مقامه في الحديبية، وبعد عودته منها، ماذا عساه يصنع ليحصل على المزيد من انتشار دعوته في العالم كله، وإلى مختلف الناس في مختلف أوطانهم، عملاً بما أمره به ربه من إنذار العالمين،

---

(١) د. علي عبد الحليم محمود، عالمية الدعوة الإسلامية، جـ ٢، ص ٤٦٩، ط: دار عكاظ، سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) الحديبية: بئر سمي المكان بها، وقيل: شجرة حدباء صفرت وسمي المكان بها، وقيل: قرية قريبة من مكة أكثرها في الحرم. وفي عام الحديبية، خرج رسول الله ﷺ يريد زيارة البيت، ولا يريد قتالاً، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي، وأشعره، وأحرم منها بعمرة. وبلغ المشركين خروجه، فأجمع رأيهم على صده عن مكة، وعسكروا ببلدح (موضع خارج مكة) وجرت مفاوضات بين الرسول ﷺ والمشركين، واتفق فيه على وقف الحرب عشر سنين، وأن يرجع المسلمون فلا يدخلون مكة هذا العام، وإنما العام المقبل.
ابن حجر فتح الباري، جـ ٥، ص ٣٢٣- ٣٥٢.
ابن سيد الناس، عيون الأثر، جـ ٢، ص ١٤٨- ١٦٢.

(٣) أستاذنا الدكتور أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص ٤٢٢.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[1].

وانتهى التفكير بصاحب الدعوة ﷺ، أن يرسل رسله إلى الناس[2]، وخطب الناس قائلاً: أيها الناس: إن الله قد بعثني رحمة للناس، فلا تختلفوا عليَّ، كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم، فقال الصحابة: وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟.

قال: «دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأمَّا من بعثه مبعثاً قريباً، فرضي وسلّم.. وأمَّا من بعثه مبعثاً بعيداً، فكره وجهه وتثاقل، فشكا ذلك عيسى إلى الله، فأصبح المتناقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التي بعثت إليها»[3]. وقد وجد أن الوقت قد أصبح مناسباً بدعوة الحكام، سواء أكانوا داخل الجزيرة أم خارجها. فاليهود قد انتهوا من الساحة، وقريش في هدنة معه.. أمَّا الأعراب: فلا بد من غزو ديارهم باستمرار لتبليغهم الإسلام، لأنهم اعتادوا على شن الغارات، فإذا لم يغزهم قطعوا الطريق، أو قاموا بشن الغارات على من جاورهم، أو على ما في المدينة بالذات[4].

ولنقسم هذا الركب الزاحف بالدعوة الإسلامية إلى قسمين:

قسم داخل الجزيرة، وقسم خارجها. والقسم الداخلي: كان بعضه موجهاً إلى القبائل، وبعضه موجهاً إلى الأفراد ذوي السلطان والنفوذ.

وبعض هذا الركب الداخلي: كان من المنتسبين إلى القبائل التي يوجهون إليها؛ لأنهم كانوا قد أسلموا من قبل، فأذن لهم النبي ﷺ بدعوة أقوامهم بالقدر

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٢) د. علي عبد الحليم محمود، عالمية الدعوة الإسلامية، جـ ٢، ص ٤٦٩.

(٣) رواه الطبراني، في المعجم الكبير، جـ: ٢٠، ص ٨.
ورواه الهيثمي، في مجمع الزوائد، جـ ٥، ص ٣٠٥، وقال: «فيه محمد بن إسماعيل بن عياش، وهو ضعيف». ورواه تقي الدين الهندي، في كنز العمال، جـ ٤، ص ٢٠٤، عن مسور بن مخرمة.
وذكره ابن هشام، في السيرة النبوية، جـ ٤، ص ٦٠٦ـ ٦٠٧.
وذكره السهيلي، في الروض الأنف، جـ ٧، ص ٤٦٤.

(٤) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، جـ ٢، ص ٣٣٠، ط المكتب الإسلامي، ببيروت، سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

الذي يستطيعون، وكان أكثر ما يستطيعونه هو العقيدة المبسطة، والأصول الإسلامية[1].

والباحث في كتب السيرة والتاريخ، يجد أن البعوث داخل الجزيرة العربية تقوم على:

أ ـ البعوث إلى القبائل:

فقد بعث النبي ﷺ ستة من أصحابه، فيهم عاصم بن ثابت[2]، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي[3]، وخبيب إلى الرجيع[4]، وذلك بناء على طلب رهط قدم إلى

---

(١) عطية صقر، الدين العالمي، ص ٥٥.

(٢) هو: عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الأنصاري الأوسي، ثم الضبعي، جد عاصم بن عمر بن الخطاب لأمه. شهد بدراً، وهو الذي حمته الدير من المشركين أن يجزوا رأسه يوم الرجيع، حين قتله بنو لحيان. وكان قد بعثه رسول الله ﷺ في نفر من الصحابة، ليعلموا عضل والقارة شرائع الإسلام، فغدروا به.
ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ٣، ص ١٦٩.
ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٣، ص ٧٣.
ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ ٣، ص ٧٧٩.

(٣) هو: مرثد بن أبي مرثد، واسم أبي مرثد كناز الغنوي. شهد بدراً هو وأبوه. استشهد مرثد في غزوة الرجيع، مع عاصم بن ثابت، سنة: ٣هـ ـ ٦٢٤م كان رسول الله ﷺ قد آخى بينه وبين أوس بن الصامت عندما هاجر. كان يحمل الأسرى من مكة إلى المدينة، لشدته وقوته، قيل: إنه كان أميراً على السرية التي أرسلها النبي ﷺ إلى الرجيع، شهد بدراً وأحداً.
ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٤٨.
ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٤، ص ٣٤٤.
ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ ٣، ص ١٣٨٣.

(٤) هو: ماء لبني لحيان من هذيل: بين مكة وعسفان، وبه قتل بنو لحيان عاصم بن ثابت وأصحابه. كان رسول الله ﷺ بعثهم حتى إذا كانوا بالرجيع اقتص أثرهم بنو لحيان، فأدركوهم، فقتلوا عاصماً وأسروا خبيباً، وابن الدثنة، وأرادوا أن يجتزوا رأس عاصم بن ثابت، فحمته الدير، وغلبتهم عليه، فلم يستطيعوا الوصول إليه.
الزرقاني، شرح المواهب اللدنية، جـ ٢، ص ٧٧.
محمد الحميري، الروض المعطار، ص ٢٦٧. =

النبي ﷺ من عضل[1]، والقاره[2]؛ ليفقهوا المسلمين فيهم، وقد غدروا بهذه البعثة.

وبعث النبي ﷺ جماعة من القراء إلى بئر حوسة[3]، وكانوا نحواً من سبعين على بعض الأقوال. بناء على طلب ملاعب الأسنة[4]، فغرّروا بهم أيضاً، وبعث

= ابن هشام، السيرة النبوية، القسم الثاني، جـ ٣، ٤، ص ١٦٩.

(١) هم: بطن من بني هوازن، من مضر، وهم: بنو عضل بن الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، من العدنانية.
القلقشندي، نهاية الأرب، ص ٣٦٣.
الزرقاني، شرح المواهب اللدنية، جـ ٢، ص ٧٧.
عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، جـ ٢، ص ٧٨٧.

(٢) هم: بنو الديش بن محلم بن غالب بن عائذة بن يثيع بن مليح بن الهون بن مدركة - سموا قارة؛ لاجتماعهم والتفافهم، لمَّا أراد ابن الشداخ أن يفرقهم في بني كنانة وقريش.
القلقشندي، نهاية الأرب، ص ١٥٥.
الزرقاني، شرح المواهب اللدنية، جـ ٢، ص ٧٧.
عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، جـ ٢، ص ٧٨٧.

(٣) هي: مكان بين أرض بني عامر، وحرة بني سليم، وهي: إلى حرة بني سليم أقرب، وقيل: هي بين جبال يقال لها: أبلى في طريق المصعد، من المدينة إلى مكة، وهي لبني سليم، نزل بها المنذر بن عمر، الذي بعثه النبي ﷺ في أربعين أو سبعين من المسلمين، ليدعوا عامر بن الطفيل إلى الإسلام، لم ينظر عامر في كتاب النبي ﷺ، وقتل المسلمين عن آخرهم بما فيهم المنذر.
ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ١، ص ٣٠٢.
الزرقاني، شرح المواهب اللدنية، جـ ٢، ص ٨٨.
ابن خلدون، العبر، حـ ٢، ص ٢٠٨.

(٤) هو: أبو براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، اختلف في إسلامه، فذكره جماعة في الصحابة، وقال الذهبي: الصحيح أنه في إسلامه، فذكره جماعة في الصحابة، وقال الذهبي: الصحيح أنه لم يسلم. عرف بملاعب الأسنة في يوم سوبان، وهو: يوم كل بين قيس وتميم؛ لأن أخاه طفيلاً أسلمه ذلك اليوم، وفرَّ. فقال الشاعر:

فـررت وأسـلـمـت ابـن أمـك عـامـراً   يـلاعـب أطـراف الـوشـيـج الـمـزعـزع

فسمي: ملاعب الرماح، وملاعب الأسنة، وهو: عم لبيد بن ربيعة. =

الضحاك بن سفيان[1] إلى بني كلاب[2]، فأسلموا، ووفد منهم جماعة على النبي ﷺ في السنة التاسعة[3].

كما أرسل النبي ﷺ إلى اليمن معاذ بن جبل ومعه أبو موسى الأشعري. وأسلم غالب الناس على إثر هذا البعث، ثم أرسل إليهم علياً رضي الله عنه، وقاتل من لم يسلم، فهزمهم، ثم دعاهم إلى الإسلام، فأسلموا عن استجابة ورغبة، فأقام فيهم يقرئهم القرآن الكريم. ويعلمهم حتى وافى النبي ﷺ في موسم الحج بمكة المكرمة[4].

= ابن قتيبة، المعارف، ص: ٨٩.
القسطلاني، المواهب اللدنية، جـ ٢، ص ٨٩.
ابن خلدون، العبر، جـ ٢، ص ٢٠٨.
السهيلي، الروض الأنف، جـ ٢، ص ١٧٤.

(١) هو: أبو سعيد بن الضحاك بن سفيان بن عوف بن كعب بن أبي بكر الكلابي العامري، يعد في أهل المدينة، كان ينزل بنجد، وولاه النبي ﷺ على من أسلم من قومه. روى عنه: ابن المسيب، والحسن البصري، يقال: إنه كان لشجاعته بعد بمائة فارس، وكان يقوم على رأس النبي ﷺ بالسيف. استعمله الرسول ﷺ على سرية.
ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٣، ص ٣٥.
ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ ٢، ص ٧٤٢، رقم الترجمة: ١٢٤٩.

(٢) هم: بطن عظيم من عامر بن صعصعة، من العدنانية، وهم: بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هواز بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان. كانت بلادهم حمى ضريّة، وهي: حمّى كليب، وحمّى الربذة في جهات المدينة المنورة، وفدك، والعوالي، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الشام، فكان لهم في الجزيرة الفراتية صيت، وملكوا حلب ونواحيها، وكثيراً من مدن الشام، ثم ضعفوا.
ابن خلدون، العبر، جـ ٤، ص ٢٥٤ـ ٢٥٥.
القلقشندي، نهاية الأرب، ص ٤٠٧.
عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، جـ ٣، ص ٩٨٩.

(٣) ابن خلدون، العبر، جـ ٢، ص ٢٠٨.

(٤) الزرقاني، شرح المواهب اللدنية، جـ ٢، ص ٨٨.
عطية صقر، الدين العالمي، ص ٥٥.

وأرسل خالد بن الوليد رضي الله عنه في السنة العاشرة إلى بني عبد المدان[1] في نجران[2]، وكانوا نصارى، ليدعوهم إلى الإسلام فأسلموا، وأقام فيهم مدة يعلمهم، ثم وفد على النبي ﷺ ومعه بعضهم، ثم أرسل إليهم عمرو بن حزم رضي الله عنه[3] ليفقههم في الدين، ومعه كتاب الفصل[4].

---

(١) هم: بطن من بني الحارث بن كعب، وهم: بنو عبد المدان بن الديان الحارثي. كانت لهم الرئاسة في نجران، وانتهت هذه الرئاسة قبيل البعثة إلى يزيد بن عبد المدان. أرسل إليهم النبي ﷺ سنة عشر خالد بن الوليد، فأسلموا، ووفد عبد الحجر بن عبد المدان على النبي ﷺ على يد خالد رضي الله عنه.
ابن خلدون، العبر، جـ ٢، ص ٣٦.
ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٢٦٨.
الأصفهاني، الأغاني، جـ ١١، ص ٣٨٢.
عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، جـ ٢، ص ٧٣٤.

(٢) هي: مدينة تقع في المنطقة الجنوبية بالمملكة العربية السعودية، سميت بنجران بن زيد بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، لأنه أول من نزلها وعمرها. يرتبط اسمها بتاريخ النصرانية، وقد وقعت فيها واقعة أصحاب الأخدود، وكان بنو عبد المدان قد بنوا كعبة نجران، وعظموها، مضاهاة للكعبة. وفتح المسلمون نجران في زمن النبي ﷺ في السنة العاشرة من الهجرة، صلحاً.
ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٢٦٦.
محمد الحميري، الروض المعطار، ص ٥٧٣.
محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، جـ ٢، ص ١٨٢٤.

(٣) هو: أبو الضحاك، عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الخزرجي، الأنصاري النجاري، من بني مالك بن النجار، أمه من بني ساعدة. أول مشاهده الخندق، استعمله رسول الله ﷺ على أهل نجران، وهو ابن سبع عشرة سنة. توفي بالمدينة المنورة، سنة ٥١هـ، وقيل ٥٣هـ ـ ٦٧٣م، روى عنه: ابنه محمد وغيره.
ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٤، ص ٩٨.
ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ ٣، ص ١١٧٢.
الزركلي، الأعلام، جـ ٢، ص ٧٦،

(٤) ابن خلدون، جـ ٢، ص ٣٦.
ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٢٦٨.
الأصفهاني، الأغاني، جـ ١١، ص ٣٨١. =

ومن بعوث النبي ﷺ جماعة أسلموا سابقاً، فبعثهم إلى أقوامهم مبشرين وداعية إلى الإسلام[1].

ب ـ البعوث إلى الزعماء:

ومن هؤلاء: بعث المهاجر بن أمية المخزومي[2] إلى الحارث الحميري[3] أحد أفيال[4] اليمن. فأسلم، وجرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه[5] كما بعث ﷺ إلى

= عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، جـ ٢، ص ٧٣٤.

(١) عطية صقر، الدين العالمي، ص ٥٦.

(٢) هو: المهاجر بن أمية (وقيل: ابن أبي أمية) بن المغيرة، القرشي، المخزومي، أخو أم سلمة زوج النبي ﷺ لأبيها وأمها. كان اسمه: الوليد، فسماه الرسول ﷺ: المهاجر، وأرسله إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن، واستعمله على صدقات كندة. ولاه أبو بكر رضي الله عنه اليمن، وهو الذي افتتح حصن النجير بحضرموت مع زياد بن لبيد الأنصاري. توفي حوالي سنة ١٢هـ ـ ٦٣٣م.
ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٤، ص ٤١٤.
ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ ٤، ص ١٤٥٢.
الزركلي، الأعلام، جـ ٧، ص ٣١٠.

(٣) هو: الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن، أرسل إلى النبي ﷺ يعلن إسلامه عند مقدم رسول الله ﷺ من تبوك مع غيره من ملوك حمير، وكان الرسول ﷺ قد بعث المهاجر بن أمية المخزومي إليه يدعوه إلى الإسلام.
ابن قدامة، التبيين في أنساب القرشيين، ص ٣٣٢.
ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ٤، ص ٥٨٨، ٦٠٧.

(٤) أفيال: جمع فيل، وهم: الملوك الذين دون الملك الأكبر.
ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ٤، ص ٥٨٨.

(٥) هو: أبو عمر، وقيل: أبو عبد الله جرير بن عبد الله بن جابر البجلي، أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بأربعين يوماً، كان له في الحروب بالعراق القادسية وغيرها أثر عظيم، وكانت بجيلة متفرقة، فجمعهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجعل عليهم جريراً فسار بهم إلى العراق، عندما انتهت إلى عمر مصيبة أهل الجسر سنة ١٣هـ ـ ٦٣٤م، وأقام جرير بالكوفة، ولمّا أتى على الكوفة وسكنها خرج جرير منها إلى قرقيسيا، فتوفي بها سنة ٥١هـ ـ ٦٧١م، وقيل سنة ٥٤هـ ـ ٦٧٤م.
ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٩٢. =

ذي الكلاع[1]، وذي عمر الحميري[2]، فأسلما. والعلاء[3] بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي[4].

= ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ١، ص ٣٣٣، رقم الترجمة: ٧٣٠.
النووي، تهذيب الأسماء، جـ ١، ص ١٤٧، رقم الترجمة: ١٠٤.
ابن العماد، شذرات الذهب، جـ ١، ص ٥٧.

(١) هو: يزيد بن النعمان الحميري، ملك جاهلي يماني، من الأذواء، يلقب بذي الكلاع الأكبر، ويلقب ابنه بذي الكلاع الأصغر، عاش ومات في الجاهلية. وكان معبود قومه «نسر» الذي ورد ذكره في القرآن الكريم.
أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي، جـ ٢، ص ٤٥٠.
الزركلي، الأعلام، جـ ٨، ص ١٩٠.

(٢) كان في زمن النبي ﷺ ملكاً، وأرسل إليه النبي ﷺ جرير بن عبد الله برجلين من أهل اليمن، وروى البخاري في الصحيح من طريق إسماعيل عن قيس عن جرير، قال: كنت بالبحر فلقيت رجلين من أهل اليمن، ذا الكلاع، وذا عمرو، فجعلت أحدثهما عن النبي ﷺ.. الخ، وذكر ابن حجر: أن ذا عمرو أسلم مع ذي الكلاع.
البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب ذهاب جرير إلى اليمن، جـ ٥، ص ١١٣.
ابن حجر، فتح الباري، جـ ٨، ص ٧٦،
ابن حجر، الإصابة، جـ ١، ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠، رقم الترجمة: ٢٥٠٣.
ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ ١، ص ٤٧٨.

(٣) هو: العلاء بن الحضرمي، واسم الحضرمي: عبد الله، من حضرموت، حليف بني أمية، ولاه الرسول ﷺ البحرين، وأقره أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وكان الرسول ﷺ قد بعثه إلى المنذر بن ساوي ملك البحرين، ثم ولاه عليها، إذ فتحها الله عليه. وهو: أول من نقش خاتم الخلافة، توفي سنة ١٤هـ ـ ٦٣٥م، روى عنه: السائب بن يزيد وغيره.
ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٤، ص ٧.
ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ ٣، ص ١٠٨٥، ورقم الترجمة: ١٨٤١.
الزركلي، الإعلام، جـ ٤، ص ٢٤٥.

(٤) هو: المنذر بن ساوي العبدي بن عبد الله بن زيد بن عبد الله بن دارم التميمي، صاحب البحرين، بعث إليه النبي ﷺ، رسالة مع العلاء بن الحضرمي، يدعوه إلى الإسلام، فأسلم وحسن إسلامه، ثم توفي بعد رسول الله ﷺ قبل ردة أهل البحرين، والعلاء عنده أمير لرسول الله ﷺ على البحرين:
ابن هشام، السيرة النبوية، المجلد الثاني، جـ ٣ ـ ٣، ص ٥٧٦. =

وعمرو بن العاص إلى جيفر وعياذ ابني الجلندي ملكي عمان فأسلما.

وسليط بن عمرو العامري[1] إلى هوذه[2] بن علي الحنفي صاحب اليمامة فلم يسلم.

وشجاع بن وهب[3]، ....

= ابن حجر، الإصابة، جـ ٤، ص ١٣٧، رقم الترجمة: ٨٢١٨.
ابن سيد الناس، عيون الأثر، جـ ٢، ص ٢٦٦.
ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٤، ص ٤١٧.
الزركلي، الأعلام، جـ ٧، ص ٢٩٣.

(١) هو: سليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن مالك بن حسل، بن عامر بن لؤي، القرشي، العامري، من المهاجرين الأولين، ممن هاجر الهجرتين، وهو الذي أرسله النبي ﷺ إلى هوذة الحنفي، وإلى تمامة بن أنال الحنفي، وهما رئيسا اليمامة، وذلك سنة: ست أو سبع من الهجرة، قتل سنة ١٤هـ - ٦٣٥م باليمامة، وقيل سنة ١٢هـ - ٦٣٣م.
ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٢، ص ٣٤٤.
ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ ٢، ص ٦٤٥، رقم الترجمة: ١٠٤٠.

(٢) هو: هوذة بن علي بن ثمامة بن عمرو الحنفي، من بني حنيفة، من بكر بن وائل، صاحب اليمامة بنجد، وشاعر بني حنيفة، وخطيبها قبل الإسلام، وفي العهد النبوي، ولما ظهر الإسلام أرسل له رسول الله ﷺ كتاباً مع سليط بن عمرو العامري يدعوه إلى الإسلام، فأجاب مشترطاً أن يكون له مع النبي ﷺ بعض الأمر، فلم يجبه الرسول ﷺ، وقال: «باد وباد ما في يديه».
السهيلي، الروض الأنف، جـ ٢، ص ٢٥٣.
ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ١، ص ٤٦٨.
ابن سيد الناس، عيون الأثر، جـ ٢، ص ٢٦٩.
الزركلي، الأعلام، جـ ٨، ص ١٠٢.

(٣) هو: أبو وهب شجاع بن وهب، ويقال: ابن أبي وهب بن ربيعة بن أسد بن صهيب بن مالك بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة الأسدي، ذكره ابن إسحاق في السابقين الأولين، وفيمن هاجر إلى الحبشة، وفيمن شهد بدراً، وأرسله النبي ﷺ إلى المنذر الغساني. وقال ابن سعد: إنه بعثه إلى الحارث بن أبي شمر، وروى ابن وهب: أنه بعثه إلى جبلة. وقال ابن عبد البر: إنه شهد هو وأخوه عقبة بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان رجلاً نحيفاً، طويلاً، أحنى. استشهد يوم اليمامة وهو ابن بضع وأربعين سنة. =

إلى الحارث بن أبي شمّر الغساني(١)، وهو بغوطة(٢) دمشق، فلم يسلم. وبعث بالكتاب إلى قيصر.

وعياش بن ربيعة المخزومي(٣) إلى مسروح(٤)، ونعيم، ابني عبد كلال، من

= ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ٤، ص ١٨٨.
ابن حجر، الإصابة، جـ ٢، ص ١٣٧، رقم الترجمة: ٣٨٤١.
ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ ٢، ص ١٥٧.

(١) هو: أمير من الغساسنة، من بني جفنة، الذين حكموا بادية الشام قبل الإسلام، اشتهر في التاريخ الإسلامي بأنه أحد الأمراء الذين وجه إليهم النبي ﷺ شجاع بن وهب. قيل: إنه لمّا استمع إلى كتاب النبي ﷺ قال: من ينزع مني ملكي، أنا سائر إليه، فلمّا بلغ قوله ﷺ قال: «باد ملكه». مات عام الفتح.
ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٤٢.
أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي، جـ ٢، ص ٨.
الزركلي، الأعلام، جـ ١، ص ١٥٥.

(٢) هي: غوطة تحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها، ولا سيما من شمالها فإن جبالها عالية جداً، ومياهها خارجة من تلك الجبال، وهي في غاية الجمال والروعة للناظرين، وتمتد الغوطة في عدة أنهر، فتسقى بساتينها وزروعها، والغوطة كلها أشجار وأنهار متصلة، وهي أنظف وأنزه بلاد الله، وأحسنها منظراً.
ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ٤، ص ٢١٩.

(٣) هو: عياش بن أبي ربيعة، وقيل: ابن ربيعة، المخزومي، القرشي، وهو أخو أبي جهل لأمه، أسلم قديماً، قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، هاجر إلى أرض الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة المنورة، قدم عليه أبو جهل والحارث ابنا هشام، فذكروا له: أن أمه حلفت ألا تدخل رأسها دهناً، ولا تستظل حتى تراه، فرجع معهما، فأوثقاه رباطاً وحبساه بمكة المكرمة، فكان رسول الله ﷺ يدعو له في القنوت، قيل: مات بمكة. وقيل: قتل يوم اليرموك في خلافة أبي بكر رضي الله عنه.
ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٤، ص ١٦١.
ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ ٣، ص ١٢٣٠، رقم الترجمة ٢٠٠٩.

(٤) هما: مسروح، ونعيم، ابني عبد كلال الحميري، وفدوا على الرسول ﷺ، في آخر شهر رمضان، في أثناء مقدمه من تبوك، يحملون كتاب ملوك حمير الذي يخبر الرسول ﷺ بإسلامهم. فأرسل إليهم الرسول ﷺ كتاباً يطالبهم بالزكاة. وقيل: لم يفدوا على الرسول، وإنما بعثوا بكتاب إليه يخبروه فيه بإسلامهم مع مالك بن مرارة. =

حمير، فأسلموا(١).

أمّا البعوث الخارجية: فتتمثل فيمن حمّلوا كتب النبي ﷺ إلى كبار الملوك المجاورين للجزيرة العربية، والذين يمثلون القارات الثلاث: آسيا، وإفريقيا، وأوروبا(٢).

وقد كان هرقل وكسرى في ذلك الحين على رأس أكبر دولتين، وأقوى دول العصر كله، فقد كانت الروم والفرس صاحبتي السبق في سياسة العالم كله، وفي مصائر أممه جميعاً، وكانت الدولتان متحاربتين دائماً، تتبادلان النصر والهزيمة ما

= وكان الرسول ﷺ قد أرسل لهم كتاباً مع عياش بن ربيعة المخزومي قبل ذلك.

محمد بن علي الأكوع الحوالي، الوثائق السياسية اليمنية، ص ١٠٣ - ١٠٤، ط دار الحرية للطباعة، بغداد، سنة ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.

بغداد، سنة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

محمد بن علي الأهدلي، ص ١١١- ١٥٩، ط الأولى، سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٧٨م. توزيع الدار اليمنية للنشر والتوزيع ودار المنهل، بيروت.

ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ٤، ص ١٧٤- ١٧٥.

ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ ٥، ص ٥٣٠ - ٥٣١.

ابن خلدون، العبر، جـ ٢، ص ٢٤٨.

ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ١، ص ٤٦٥.

(١) السهيلي، الروض الأنف، جـ ٢، ص ٢٥٣.

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ١، ص ٤٦٨.

ابن سيد الناس، عيون الأثر، جـ ٢، ص ٢٦٩.

محمد الأكوع، الوثائق السياسية اليمنية، ص ١٠٣- ١٠٤.

محمد الأهدلي، الدر المكنون، ص ١١١- ١٥٩.

ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ٤، ص ١٧٤- ١٧٥.

ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ ٥، ص ٥٣٠- ٥٣١.

ابن خلدون العبر، جـ ٢، ص ٢٤٨.

ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ١، ص ٤٦٥.

محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، جـ ٢، ص ٣٣٠.

عطية صقر، الدين العالمي، ص ٥٧.

(٢) عطية صقر، الدين العالمي، ص ٥٧.

بين آن وآن[١].

فكتب النبي ﷺ إلى هرقل قيصر الروم، وأرسل الكتاب مع دحية بن خليفة الكلبي، فسلمه إلى عظيم بصرى[٢]: الحارث بن أبي شمر الغساني، الذي أعطاه بدوره إلى هرقل، وتحدث هرقل مع أبي سفيان، في شأن النبي ﷺ وكان أبو سفيان إذ ذاك في تجارة في الشام وقت الهدنة، فسأل هرقل الإسلام، ولكن عندما شاور قومه، حاصوا حيصة حمر الوحش، وأنكروا عليه ذلك[٣].

وكتب النبي ﷺ إلى كسرى أبرويز ملك فارس، وأرسل الكتاب مع عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين: المنذر بن

---

(١) د. علي عبد الحليم محمود، عالمية الدعوة الإسلامية، جـ ٢، ص ٤٧١.

(٢) هي: مدينة قديمة، تقع في إقليم حوران في الجنوب من دمشق، اشتهرت في التاريخ الإسلامي: بأن النبي ﷺ قدمها في صباه في صحبة عمه أبي طالب، وفيها التقى بالراهب «بحيرا» الذي تنبأ بأن محمداً هو النبي المنتظر، لعلامات تبينها فيه. وكانت بصرى نهاية طريق القوافل من الحجاز إلى الشام في العصر الجاهلي، وهي الطريق المارة بتبوك، ومعان، والكرك، كما يروى أن النبي ﷺ بعد البعثة أرسل إلى العامل الروماني على بصرى كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، ولكن الرسول قتل في الطريق، ثم فتح المسلمون بصرى سنة ١٣هـ ـ ٦٣٤م. بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، بعد أن عجز شرحبيل ابن حسنة، وبعده المثنى بن حارثة الشيباني عن فتحها. وقد ساعد خالداً في فتحها حاكمها الروماني (رومانوس) الذي اعتنق الإسلام. وفي الأثر: أن آمنة لمّا حملت بالنبي ﷺ رأت كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٤١.

محمد الحميري، الروض المعطار، ص ١٠٩.

أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي، جـ ١، ص ٣٢٣.

مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية، جـ ٤، ص ٦٧٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ١، ص ٣٣٤.

سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٢٤ـ ١٢٧.

ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ ١، ص ٢٥٩.

الحلبي، السيرة الحلبية، جـ ٣، ص ٢٤٢، ط الأميرية ببولاق.

محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، جـ ٢، ص ٣٣٠.

د. علي عبد الحليم محمود، عالمية الدعوة الإسلامية، جـ ٢، ص ٤٧٣.

ساوي، ليدفعه بدوره إلى كسرى، فمزق كسرى الكتاب ولم يسلم، بل أخذته العزة بالإثم، فأرسل إلى باذان[1] عامله على اليمن أن يوجه إلى النبي ﷺ من يقتله، فمزق الله ملكه، وقتله ابنه شيرويه[2]. ولمَّا جاء رسولا باذان إلى النبي ﷺ أخبرهما بموت كسرى، وبدعوة باذان على الإسلام؛ فلما عادا وأخبراه بذلك، وتحقق صدق خبر الرسول ﷺ بموت كسرى أسلم، وأسلم معه كثيرون من الفرس الذين كانوا باليمن. وهو يعد أول من أسلم من ملوك وأمراء اليمن[3].

---

(١) هو: عامل الفرس على اليمن، ولاه كسرى خلفاً لخسرو، فكان آخر ملك ولاه الفرس على هذه البلاد. أرسل اثنين من رجاله إلى الرسول ﷺ ليحضروه إلى كسرى حسب أمر كسرى له، عندما أرسل النبي ﷺ إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام، فردهما النبي ﷺ ليخبراه بأن الله سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله، ويدعوه إلى الإسلام، فقال باذان: ما أرى الرجل إلا نبياً كما يقول، وأسلم باذان، وأسلم معه الأبناء من فارس، ممّن كل منهم باليمن.

ابن خلدون، العبر، جـ ٢، ص ٢٢٥.

أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي، جـ ١، ص ٢٤٩.

ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٤، ص ١٨٠.

ابن خلدون، العبر، جـ ٢، ص ٢٢٥ـ ٢٢٦.

ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٦٥.

ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ ١، ص ٢٥٩.

د. رؤوف شلبي، اتجاهات في دبلوماسية الدعوة الإسلامية، ص ٥٤.

(٢) وشيرويه: هو: ابن كسرى أبرويز بن هرمز. ملكه قومه مكان أبيه أبرويز، عندما خلعوه لظلمه، وهو: ابن بنت قيصر. تأمر على أبيه، فسملت عيناه، وقتله ابنه، وقتل من إخوته ثمانية عشر رجلاً، خفف المؤونة على الناس، ورفع الخراج. هلك بالطاعون. كان ملكه خمس سنين وأشهر.

ابن خلدون، العبر، جـ ٢، ص ٢٢٦.

ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٦٥.

(٣) البخاري، صحيحه مع فتح الباري، جـ ٦، ص ١٠٨، جـ ١٣، ص ٢٤١.

أحمد المسند، جـ ١، ص ٢٤٣، جـ ٤، ص ٧٥.

البيهقي، السنن الكبرى، جـ ٩، ص ١٧٧.

الزيلعي، نصب الراية، جـ ٤، ص ٤٢٠.

علي الأحمدي، مكاتيب الرسول، ص ٩٠. =

وكتب النبي ﷺ إلى المقوقس عامل هرقل على مصر، وبعث بالكتاب مع حاطب بن أبي بلتعة، فسلمه إليه بالإسكندرية، وبعد محاورة طويلة مع حاطب، قال: سأنظر. وبعث إلى النبي ﷺ بهدايا، ولم يسلم(١).

وكتب ﷺ إلى النجاشي أصحمة. وبعث الكتاب مع عمرو بن أمية الضمري فأسلم، كما هو الراجح(٢).

وهناك كتب كثيرة وجهها النبي ﷺ إلى الملوك والرؤساء والكبراء في داخل الجزيرة العربية، وفي خارجها، حتى تعم دعوته الناس أجمعين، وبعض هذه الكتب ذكر باسم من أرسل إليه، وبعضها ذكر باسم من حمله، وبعضها دعوة صريحة إلى الإسلام، وبعضها كان صلحاً وشروطاً، إلى غير ذلك(٣).

واللافت للنظر ويجب التنبه له لما يمثله من بعد النظر في سياسة الدعوة التي اتبعها النبي ﷺ أن كتب النبي ﷺ إلى الملوك كانت على خلاف كتبه إلى أمراء العرب، فقد ختمت بخاتم النبي ﷺ. وكان نقشه: «محمد رسول الله»(٤).

= ابن سيد الناس، عيون الأثر، جـ ٢، ص ٣٣٤.
ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ ٣، ص ٨٨٨.

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٣١٧.
ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ١، ص ١٨٢ـ ١٨٨.
ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ ١، ص ٢٦٠.
ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ٤، ص ٢١٦.
سيدة إسماعيل الكاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ٨.

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، جـ ١، ص ٣٢، جـ ٦، ص ١٠٩.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ ١، ص ٢٦٢، وما بعدها.

(٤) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب اللباس، باب خاتم الفضة، جـ ١٠، ص ٣١٨، رقم الحديث ٥٨٦٦، ولفظه: «فاتخذ رسول الله ﷺ خاتماً من فضة، كأني أنظر إلى بياضه في يد رسول الله ﷺ، نقشه: محمد رسول الله».
ورواه مسلم، في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب اتخاذ النبي ﷺ خاتماً، جـ ٣، ص ١٦٥٧، رقم الحديث ٥٦، ٥٨.
ورواه الترمذي، في سننه، أبواب اللباس، باب ما جاء في نقش الخاتم، جـ ٧، ص ٢٥٠.
ورواه أبو داود، في سننه، كتاب الخاتم، جـ ٤، ص ٤٢٥، رقم الحديث: ٤٢١٨. =

ولهذا الخاتم أهمية في الوثوق من رسمية الكتاب، وصدوره عن مرسله، وفيه تكريم لهؤلاء الكبار، على ما كان متبعاً عندهم.

وهذا الإدراك الإسلامي لأساليب السياسة ومراعاة بروتوكول التعامل يدل على سعة الأفق في التعامل مع الآخر وبقراءة هذه الكتب، نلحظ فيها ما يأتي:

وحدة موضوع سائر الكتب، لأنها كلها تتضمن الدعوة إلى الإسلام، ابتداء من الإيمان بالله، إلى الإيمان باليوم الآخر.

مراعاة حال المرسل إليه، فإن كان من أهل الكتاب بيَّن رسول الله ﷺ له في خطابه: أن الإسلام يتضمن الإيمان بعيسى عليه السلام ورسالته، وأن محمداً هو بشرى موسى وعيسى عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم(١).

وإلى جانب إيفاد البعوث، وإرسال الكتب لنشر الإسلام، كانت ترد الوفود على النبي ﷺ طائعة مختارة، لتسلم رسمياً أو لتتعلم، ثم تتولى هي نشر الدعوة في أقوامها، فوفد على النبي ﷺ، أكثر من ستين وفداً، كان أكثرهم في السنة التاسعة من الهجرة، والتي سميت: سنة الوفود(٢)، وقد تمثلت فيها جميع قبائل العرب في منازلها ومضاربها المختلفة(٣).

= ورواه النسائي: في سننه، كتاب الزينة، باب صفة خاتم النبي ﷺ، جـ ٨، ص ١٧٢- ١٧٤.

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص ٤٢٣.

(٢) قال ابن إسحاق: لمَّا افتتح رسول الله ﷺ مكة المكرمة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت؛ ضربت إليه وفود العرب من كل وجه.
قال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة أن ذلك سنة تسع، وأنها كانت تسمى: سنة الوفود، فلمَّا افتتحت مكة، ودانت له قريش، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ فدخلوا في دين الله أفواجاً، يضربون إليه من كل وجه. فقدم وفد بني تميم، ووفد بني عامر، ووفد بني زبيد، ووفد كندة، ووفد عبس القيس، ووفد بني حنيفة، ووفد علي، ووفد بني زبيد، ووفد كندة، ووفد الأزد، ووفد جرش، ووفد بني الحارث بني كعب، ووفد همدان، وغيرهم.
ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ٤، ص ١٥٢- ١٦٥.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ٤، ص ١٥٢.
عطية صقر، الدين العالمي، ص ٦٣.

وكان في بعض الوفود نصارى لم يسلموا، كنصارى نجران، الذين استقبلهم النبي ﷺ في مسجده وأذن لهم أن يصلوا فيه صلاتهم، وعقد معهم معاهدة بقوا فيها على دينهم، في مقابل تعهدات تدل على حسن نيتهم نحو الدعوة بتركها حرة تشق طريقها في أمان إلى المتعطش إليها[1]. وإن المطالع لهذه الصور وتلك النماذج من عمل نبي الإسلام ﷺ لتملأه الدهشة، النبي يمسح لمن وفد عليه أن يؤدي شعائر عبادته في مسجده ﷺ. واللافت للنظر أن بعض الخلفاء وأمراء الدولة الإسلامية سمح لأهل الكتاب بمثل ما فعله النبي ﷺ ولا أدري ما الذي لوث منهج التعامل مع «الآخر» من قبل بعض شباب المسلمين في بعض الأقطار كما أن الباحث لتملأه الحيرة من غيبوبة العقل الغربي التي جعلتهم ينسون ويتجاهلون كل هذا الرصيد الإنساني الذي زخر به التاريخ الإسلامي في معاملة الآخر. والمتأمل في أخبار هذه الوفود التي زادت على سبعين وفداً[2]، والتي جاءت إلى النبي ﷺ تطلب الإسلام، يجد أنها كانت عاملاً مهماً في نشر الإسلام؛ إذ كان الوفد يعود بوعيه، وفقهه إلى قومه، فينشر فيهم هذا الدين الذي جاء لكل الناس بغير قهر، أو عنف، أو ممارسة عدوان.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ٤، ص ١٥٤.
عطية صقر، الدين العالمي، ص ٦٤.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ ٢، ص ٣٠٠ـ ٣٦٠.
عطية صقر، الدين العالمي، ص ٦٣.

الدعوة الإسلامية والحوار مع الآخر

لو تأمل بعض دعاة الفتنة بين الناس من بين بعض شباب المسلمين واطلعوا على مصادر دينهم، ولو اطلع «الآخر» من أهل الكتاب وغيرهم وخاصة أولئك النفر من غير المسلمين الذين تحتكرهم أبواق الدعاية التي تشغل القلوب المؤمنة عن طريق قلبها الأسود وعقلها المتخلف الذي جعلهم يغلقون منافذ الحوار ويجلسون بشاراتهم وملابسهم المميزة يمسكون بأديهم بعض المصادر التي يقرؤونها مبتورة بطريقة عرجاء لا تعرض فكراً ولا تشكل مقالاً سوى التعبير عن سوء نية وفساد قصد مع أنهم لو فقهوا لعلموا أن الإسلام دين الحق والمنطق والبيان، لا لبس فيه ولا غموض ولا تعقيد ولا اعوجاج.

ومع أن هذه الميزة شائعة وسارية في كل ما جاء به الإسلام من عقيدة وشريعة، وأسلوب ومنهاج، ومع أن البشر في مسيس الحاجة إلى هذا الدين في يومهم وفي غدهم؛ فإنهم ـ بالرغم من كل ذلك ـ كثيراً ما حالت دون سرعة الإقبال عليه واعتناقه عوارض يذهبها ما في الإسلام من حث على الأناة والرفق، وحسن أوامره وتوجيهاته لنبيه ﷺ ولجميع الدعاة، والتي يجب عليهم أن يلتزموا بها مع المدعوين، بالبر والحكمة، والحلم والهوادة، والأناة والرفق، وحسن التفهم لمشكلاتهم، وبواعثهم ومقاصدهم، والمؤثرات التي تكتنفهم، ومعرفة منهاج حياتهم ليكون الخطاب إليهم والتعامل مهم وفق قدراتهم واحتياجاتهم اقتداء بأعمال النبي الخاتم ﷺ.

فما أجل الإسلام، وما أعظمه من دين، وهو يوجه الدعاة والمصلحين أن يحتكموا في عملهم، ومهمتهم إلى أدب الدعوة ومنهاجها من الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ

أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[1].

هذه الآية: نزلت بمكة المكرمة، في وقت الأمر بمهادنة قريش، والأمر بأن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين ورفق، دون مخاشنة أو ضعف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون وأن يحاور غير المسلمين إلى يوم القيامة[2].

والله سبحانه وتعالى يأمر نبيه الكريم ﷺ أن يعلم البشر بأن دعوته قائمة على هذا المنهاج الذي يمثل الكمال كله في غرس المعارف، وتربية النفوس، وذلك بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن. ومن الدعوة بالحكمة مراعاة مقتضى الحال، ومخاطبة كل قوم بما يعرفون، وأخذهم بالرفق والتلطف، واختيار الوقت المناسب وشكل الموعظة التي يراد وعظهم بها، حتى تتقبلها النفوس، وتنتفع بما فيها من خير[3].

إن الرسول ﷺ يحمل بين جوانب دعوته السمحة لغة الحب الظاهر للآخر حرصاً عليه في الدنيا والآخرة إذا ما دخل قلبه الإسلام. ومن هنا كانت مهمته ﷺ عسيرة وشاقة، يحتاج معها إلى بصيرة نافذة تتسرب إلى خفايا النفس الإنسانية، وتضع يدها على موطن الداء، ثم تختار من الدواء ما يشفي العلة، ويذهب الداء[4].

فلا بد أن تكون هناك حكمة في الدعوة إلى الله، أي إن تخطيط الدعوة للإسلام يتناول أسلوبها وأغراضها ومعانيها، وكل ما يتصل بها، وأحسن الأساليب ما كان مستوحى من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، على أن يضاف إليهما من التجارب والخبرات النافعة، المستقاة من الظروف والأحداث. قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[5]. فالدعوة إلى الله تكون على بصيرة، أي: على تقوى وإيمان، أو على علم وهدى، وهذا العلم الذي ينير طريق الدعوة يتضح أوضح

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ ١٠، ص ٢٠٠.

(٣) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، جـ ١٤، ص ٣٩٨.

(٤) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٥) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

ما يكون في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[١].

ويبدو أن الحكمة، هي: العقل والتفكير السليم، الذي يضع كل شيء موضعه، وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام باستعمالها، ليكون أساس دعوته معقولاً ومقبولاً[٢]. حتى عند من لم يكن قد شرح الله قلبه لها بعد.

ولقد كان الحصين[٣] رجلاً تعظمه قريش، وتجله، فأرسلوه إلى رسول الله ﷺ ليكلمه حتى ينتهي عن دعوته، فلمَّا جاء إلى النبي ﷺ قال: «أوسعوا للشيخ». فقال الحصين: ما هذا الذي بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرها؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا حصين: كم تعبد من إلٰه؟. قال: سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء. فقال: «فإذا أصابك الضر لمن تدعو؟». قال: الذي في السماء. قال: «فإذا هلك المال من تدعو؟». قال: الذي في السماء. قال: «فيستجيب لك وحده، وتشرك معه؟! أسلم تسلم». فأسلم. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «شيعوه إلى منزله»[٤].

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) عطية صقر، الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه، ص ١٩٤ـ ١٩٥.

(٣) هو: الحصين بن عبيد بن خلف الخزاعي، والد عمران بن الحصين.
مختلف في صحبته وإسلامه، روى عنه: ابنه عمران بن الحصين.
ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٢، ص ٢٤.
ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ ١، ص ٣٥٣.
ابن حجر، الإصابة، جـ ١٤، ص ٣٣٦.
أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي، جـ ٢، ص ١٠٧.

(٤) رواه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب رقم (٧٠)، جـ ٥، ص ١٨٢، رقم الحديث: ٣٥٥٠.
عن أحمد بن منيع، عن أبي معاوية، عن شبيب بن شيبة، عن الحسن البصري، عن عمران بن حصين بنحوه مختصراً، وفيه: «سبعة، ستة في الأرض، وواحد في السماء»، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقد روي هذا الحديث عن عمران بن حصين من غير هذا الوجه.
ورواه ابن الأثير الجزري، في جامع الأصول، جـ ٤، ص ٣٤٢، رقم الحديث: ٢٣٦٤.
وذكره ابن حجر، في الإصابة، جـ ١، ص ٣٣٦ بمثله، ترجمة رقم: ١٧٣٠، =

فالأسلوب الذي استعمله الرسول ﷺ مع الحصين هو عين الحكمة، التي أدخلت الرجل في الإسلام. وعلينا أن ننتبه أن الواقعة جاءت في كتب السنة لكنها تكشف عن أدب حوار النبي ﷺ حتى أسلم الرجل، وبعد لحظات من إسلامه طلب من أصحابه أن يشيعوه إلى منزله، والدرس المستفاد هو اتباع أسلوب إعطاء فرصة التعبير عن الرأي. وهو ذات الأسلوب الذي واجه به النبي ﷺ أيضاً عتبة بن ربيعة، لمَّا عرض على رسول الله ﷺ أشياء حتى إذا فرغ منها، ما ناقشها رسول الله ﷺ، ولا جادله فيها. ولكن قال له: «أفرغت يا أبا الوليد؟». قال: نعم. قال: «اسمع مني». ثم تلا عليه آيات من سورة (فصلت). فلمَّا سمع بها عتبة، أنصت لها، وألقى بيديه خلفه، أو خلف ظهره، معتمداً عليها، ليسمع منه[1]، حتى انتهى رسول الله ﷺ وقام عتبة وقد تغيرت معالمه، وتقاسيم وجهه، وقال فيه قومه لما رأوه من بعيد: «نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به»[2]. نعم لقد جاءهم بوجه رقَّ للإسلام.

= لحصين بن عبيد بن خلف والد عمران. وقال: قال ابن خزيمة: حدثنا رجاء العذري، حدثنا عمران بن خالد بن طليعة بن محمد بن عمران بن حصين، حدثنا أبي، عن أبيه، عن جده... وساق الحديث بطوله. ولم أجده في صحيح ابن خزيمة، ولعله في المفقود منه.

وذكره ابن عبد البر، في الاستيعاب، حـ١، ص ٣٥٣، وفيه: (عشرة) بدل (سبعة).

وذكره الحلبي، في السيرة الحلبية، جـ ١، ص ٣١٨.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ ٧، ص ١٥٠ـ ١٥٢ بعدة طرق وروايات.

الزمخشري، الكشاف، جـ ٣، ص ٣٨٧.

ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١، ص ٥٠٤.

(٢) رواه أبو نعيم، في دلائل النبوة، ص ٧٥.

ورواه الهيثمي، في مجمع الزوائد، جـ ٤، ص ١٩٩ـ ٢٠٠، رقم الحديث: ٤٢٨٥.

ورواه البغوي، في معالم التنزيل، تفسير سورة (فصلت) عن الأجلح، جـ ٧، ص ٣١٨.

ورواه البيهقي، في دلائل النبوة، باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز، وأنه لا يشبه شيئاً من لغاتهم، مع كونهم من أهل اللغة، وأرباب اللسان، عن الأجلح، جـ ٢، ص ٢٠٢ـ ٢٠٤.

وأورده الطبري، في جامع البيان في تفسير القرآن، جـ ١٤، ص ١٩٤.

والقرطبي، في الجامع لأحكام القرآن، جـ ٦، ص ٧٨٣. =

وكان ذلك بسبب المنهج النبوي في تبليغ الدعوة بالموعظة الحسنة لأن الموعظة الحسنة التي تتمثل في الكلمة الطيبة، التي تدخل إلى القلوب برفق وأناة، وهدوء، فتلطف من حرارة الصدر، وتلمس المشاعر بلطف، وتنعش الوجدان في تؤدة، وتدفع إلى استشعار روحانية الدعوة، فهي ترطيب للفكر الثائر، وحل لعقد التقاليد الصعبة، وإنقاذ من حيرة غير شعورية موهومة، وطمأنينة تسكن ثورة الجموح. وكثيراً ما هديت القلوب الشاردة بالموعظة الحسنة، وأنها من الطبائع الخيّرة، وأنها أفضل من الزجر، والتأنيب، والتوبيخ، والتجريح[١].

فعلى الدعاة الذين يعملون على انتشار الإسلام، أن يجادلوا من أراد الاستبصار في الدين باللين والرفق[٢]. لأنه ليس هدف الداعية الغلبة ولا المخاصمة، ولا الشهرة، ولكن هدفه: توصيل دعوة الله سبحانه وتعالى، فإذا احتاج الداعية مع صنف من الناس إلى جدال. فليكن الجدال بالتي هي أحسن[٣] أي بالإيضاح الموصل إلى الحق[٤]؛ لأنه هو الذي يطامن من الكبرياء الحساس، وهو الذي يشعر بأن ذاته مصونة، وقيمته محفوظة، وكرامته موقرة، إن ما يجب أن يشغل هم الداعية، من مجادلته هذه هو كشف الحقيقة ذاتها، والاهتداء إليها إرضاء لله، لا ابتغاء نصر لرأيه، وهزيمة لرأي آخر[٥].

وكان المسلمون بعامة، والدعاة بخاصة يقدرون ذلك كله حق قدره، هذا زيادة على ما ملك عليهم حياتهم، وملأ عليهم وجدانهم، من آداب الدعوة، وتوجيهاتها، من كمال الحكمة، وتمام الانضباط، وحسن العظة، وضوء التأثير، بكلمة الحق على العقول والعواطف.

وإذا أدى الأمر إلى الجدل والنقاش، فليكن ذلك في نطاق الموضوعية

= وابن كثير، في تفسير القرآن العظيم، جـ ٢، ص ٥٩٠.
والمراغي، في تفسير القرآن، جـ ١٤، ص ١٦١.
وابن هشام، في السيرة النبوية، جـ ١، ص ٥٠٤.

(١) د. رؤوف شلبي، الدعوة الإسلامية، ص ١٥٤.
(٢) الألوسي، روح المعاني، جـ ٦، ص ٤١٦.
(٣) مصطفى المراغي، تفسير القرآن، جـ ٢١، ص ٥.
(٤) د. رؤوف شلبي، الدعوة الإسلامية، ص ١٥٧.
(٥) سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ ٤، ص ٢٢٠٢.

الرصينة، والحيدة الخالصة التي لا سلطان عليها، إلا لكلمة الله سبحانه وتعالى، وكمال الالتزام في حجة قوية، وبرهان ساطع، ودليل مفحم، دون خروج، أو افتيات، أو مزايدة، ومن غير تجريح أو تشهير، أو تهريج، أو سقطة، وهكذا مهما تدرج المدعو، واختلف حاله؛ ينبغي أن يحكم الحوار بالمنهاج الرباني المتكامل من أدب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن. والجدير ذكره في هذا المقام أن مما استحسنه وعمل معظم علماء وأئمة المسلمين على هديه جملة من المبادئ والأسس التي احتكموا إليها واتكؤوا عليها وهي في ضوء ما تقول به مادة الإسلام الصحيح المتكيء على هدى الكتاب والسنة وتطبيقات وعمل خير الرجال في خير القرون تتمثل فيما يأتي:

- إن المنهاج الإلٰهي الذي يمثله الإسلام كما جاء به محمد ﷺ، لا يتحقق في الأرض، وفي دنيا الناس إلا بتبليغه وبيانه إلى الناس أجمعين.

- إن كل فرد من المسلمين على وجه الإطلاق، له دوره الفاصل الإيجابي في تبليغ الدعوة الإسلامية على قدر الاستطاعة، والمعرفة، والإمكانات.

- إن تبليغ الإسلام إلى الناس، يكون بالالتزام بالإسلام، وبالقول والعمل، وبسيرة الداعية، التي تجعله قدوة حسنة لغيره، فتجذبهم إلى الإسلام.

- إنه على كل مسلم أن يدعو إلى الإسلام دائماً، وأن تكون دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة، وإن جادل بأحسن طرق الجدال.

ثم إن الإقناع في نظر الإسلام يقوم على احترام المخاطب في مشاعره، وعقليته، وآدميته.

كما أن واجب تبليغ الدعوة الإسلامية؛ إنما يقع على عاتق كل مسلم، بالحسنى والموعظة الحسنة ولا تختص به هيئة، أو جماعة، أو أفراد دون غيرهم؛ بل إنه أمر يفرضه الإسلام على الأمة الإسلامية جمعاء دون مفارقة للجماعة أو خروج عليها حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله كما أنه: لا بد أن تكون هناك حكمة في الدعوة، أي: تخطيط دقيق، وأن تكون الدعوة بالموعظة، وإن جاء جدال فبالتي هي أحسن، ليحصل التأثير، والإقناع، حتى تصل الدعوة الإسلامية إلى الناس.

ولا بد للداعية إلى الله من الأخلاق الفاضلة، والقيم العليا بما يعينه على

أداء رسالته في الحياة وجمع القلوب لا تفريقها ولا إثارة الغوغاء على أمر الأمة وتوجهاتها، ويجب على الداعية أن ينبه المدعوين إلى منهاج النبوة الذي سار عليه المؤمنين بالله سبحانه وتعالى ملتزمين في دعوتهم بمكارم الأخلاق وأعلاها، إلى أسمى درجات الحضارة، في كل أحوالهم، وعلى الدعاة المعاصرين أن يدركوا وفي موضوعية وبإيمان كامل بأن انتشار الإسلام السريع في مشارق الأرض ومغاربها، كان بفضل الله تعالى ولتكامل الوسائل والأساليب السلمية التي قامت على الكلمة الطيبة والعمل المتقن والأداء الصادق.

شمول العقيدة الإسلامية:

اللافت للنظر والذي يجب أن ينتبه إليه الدعاة وغيرهم أن العقيدة الإسلامية عقيدة شاملة من أي جانب ينظر الإنسان إليها. . . لقد جاء الإسلام من جوف الصحراء العربية، بأسمى عقيدة في الإلٰه الواحد الأحد، صحّحت فكرة الفلسفة النظرية، كما صحّحت فكرة العقائد الدينية، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين ـ في جانب النقص منها ـ أعظم المعجزات التي أثبتت في حكم العقل المنصف، والبديهة الصادقة أنه وحي من عند الله[(١)].

ومن ثم ـ كما يقول العقاد ـ: كانت هذه العقيدة الإلٰهية في الإسلام مصححة لكل عقيدة سبقتها في مذاهب الديانات، أو مذاهب الفلسفة، ومباحث الربوبية.

فهي عقيدة كاملة، صحّحت المعتقدات في [الكارما والنرفانا][(٢)]؛ باعتبار

---

(١) العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، جـ ٥، ص ٤٠، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد.

(٢) الكارما: هو سبب التناسخ، أو هو التناسخ نفسه، والتناسخ قصاص؛ لأن النفس الشريرة، لا يمكن أن تصعد إلى النرفانا، فتعود للولادة من جديد؛ لتعاقب بالألم والشقاء، حتى تتخلص من الشر، وتنجو من العقوبة، فتمضي إلى النرفانا لتفنى في وجود وهمي.

النرفانا: هو الحال الذي ينعدم فيه التناسخ، الذي هو من ضرورات النفس الشقية، والطريق الوسطى التي تفضي إلى النرفانا: هي الطريق النبيلة ذات الأوجه الثمانية، أي: الرؤية السلمية، والقرار السليم، والكلام السليم، والعمل السليم، والسلوك السليم، والجهد السليم، والعبرة السليمة، والتركيز السليم. =

أنها عقيدة في خواء أو فناء مسلوب الذات، لا تجاوب بينه وبين أبناء الحياة.

وهي عقيدة كاملة، صحّحت عقيدة المعلم الأول بين فلاسفة الغرب الأقدمين؛ لأنه كان على خطأ في فهم التجريد والتنزيه، ساقه هذا الخطأ إلى القول بكامل مطلق، كالعدم المطلق في التجرد من العمل، والتجرد من الإرادة، والتجرد من الروح.

ودين يصحّح العقائد الإلٰهية فيما سبقه من ديانات الأمم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها[1].

وما كان الشمول في العقيدة الإسلامية ليذهب فيها مذهباً أبعد وأوسع من خطاب الإنسان روحاً وجسداً وعقلاً وضميراً، بغير بخس ولا إفراط في ملكة من هذه الملكات[2].

والعقيدة الإسلامية توصف بالشمول؛ لأنها تفسِّر كل القضايا الكبرى في هذا الوجود، القضايا التي شغلت الفكر الإنساني، ولا تزال تشغله وتلح عليه بالسؤال، وتتطلب الجواب الحاسم، الذي يخرج الإنسان من الضياع والشك والحيرة، وينتشله من متاهات النحل المتضاربة، قديماً وحديثاً، فإذا كانت بعض العقائد تعني بقضية الإنسان دون قضية الإلٰهية والتوحيد، أو بقضية الإلٰهية، دون قضية النبوة والرسالة، أو بقضية النبوة دون قضية الجزاء الأخروي، فإن عقيدة

= محمد جابر عبد العال، في العقائد والأديان، ص ١٣٠، ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، سنة ١٣٠٩هـ ـ ١٩٧١م.

أحمد عبد الغفور عطار، الديانات والعقائد في مختلف العصور، ص ١٢٧ـ ١٣١، ط مكة المكرمة، سنة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

د. محمد شامة، الإسلام في الفكر الأوروبي، ص ٢٠٢ـ ٢٠٦، الهامش.

(١) العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، جـ ٥، ص ٦٠ـ ٦١، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد.

(٢) السابق، نفس الجزء، ص ٣٢.

عبد الرحمٰن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ ١، ص ٢٥، ط دار الجيل، بيروت.

صبحي محمصاني، الأوضاع التشريعية في البلاد العربية، ص ٣٦، ط الثانية، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.

الإسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها، وقالت كلمتها فيها، بشكل واضح، ووضوح شامل[(١)].

ولهذا جاءت تشريعات الإسلام لجميع الناس، ولكافة مراحل تطور الإنسان من الميلاد إلى الوفاة؛ وبذلك تشمل كيان الفرد كله، والمجتمع بأسره. والناظر في تشريعات الدعوة الإسلامية يرى أنها كانت مع الإنسان جنيناً في بطن أمه، وبعد مولده، وفي شبابه ورجولته، وتسايره هكذا في أطواره المختلفة، حتى يأتيه أجله[(٢)].

وتتمثل خاصية الشمول التي اتسم بها الإسلام في رد هذا الوجود كله بنشأته ابتداء، وحركته بعد نشأته، وكل انبثاقة فيه، وكل تحوّر، وكل تغير، وكل تطوّر. والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه إلى إرادة الذات الإلٰهية السرمدية، الأزلية، الأبدية المطلقة[(٣)].

وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول؛ لأنها عقيدة لا تقبل التجزئة؛ لا بد أن تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار[(٤)].

وشمول العقيدة الإسلامية هو الذي حقق للإسلام ما لم يتحقق لعقيدة أخرى، من تحويل الأمم العريقة التي تدين بالكتب المقدسة إلى الإيمان به عن طواعية واختيار، كما آمنت به الأمم النصرانية، والمجوسية، والبرهمية في مصر[(٥)]

---

(١) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٦.

(٢) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص ٢٠٠.

(٣) سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص ٩٢، ط: دار الشروق، سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٤) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٨.

(٥) هي: دولة إسلامية عربية، تقع في الشمال الشرقي لإفريقيا، كما تشمل شبه جزيرة سيناء، التي تقع في طرف آسيا الجنوبي الغربي، وتمتد بين خليجي السويس والعقبة، ينقسم تاريخها إلى عصور متميزة، هي: العصر الفرعوني، وبعده العصر اليوناني الروماني، ثم العصر الإسلامي العربي، الذي بدأ بفتح عمرو بن العاص رضي الله عنه، لها في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وانتشار الإسلام فيها، منذ سنة ١٩، ٢٠هـ - ٦٣٩، ٦٤١م. ويشمل حكم ثمان دول، هي: دولة الخلفاء الراشدين، الدولة الأموية، العباسية، الطولونية، العباسية الثانية، الأخشيدية، الفاطمية، فالأيوبية، والعصر المملوكي، والفتح العثماني، =

وسوريا[1] وفارس[2] والهند[3] والصين[4].

= ثم العصر الحديث إلى الوقت الحاضر.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ٥، ص ١٣٦.

(١) هي: دولة إسلامية عربية، تقع في جنوب غرب آسيا، عاصمتها: دمشق، يقطع الأراضي السورية نهر الفرات، وفي جنوبها الغربي سهل حوران الخصيب، وفي الجنوب يقع جبل الدروز، وهي قطر زراعي، تكثر به الأراضي الصالحة للرعي، ٨٠٪ من سكانها مسلمون سنيون، والنصارى فيها حوالي نصف مليون. وفي سنة ١٢هـ ـ ٦٣٣م إلى سنة ١٥هـ ـ ٦٣٦م، تم للمسلمين فتحها، وطرد الروم منها، في عهد عمر رضي الله عنه اتخذ الأمويين دمشق عاصمة لهم، كانت تحت الحكم الإسلامي التركي، حتى سنة ١٣٣٦هـ ـ ١٩٤٥م، فأعلنت جمهورية، وذاق الشعب السوري المسلم الويلات، من قتل، وتخريب، وتشريد، وانتهاك للدماء والحرمات، وخصوصاً في عهد الرئيس حافظ الطاغوت، الذي أباد ثلاثين ألف مسلم في حماة.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ٣، ص ٢٨٠.

عبد المنعم الحميري، الروض العطار، ص ٣٣٣، تحقيق: إحسان عباس، ط الثانية، مكتبة لبنان، بيروت سنة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

محمد شفيق غبريال، الموسوعة العربية الميسرة، جـ ٢، ص ١١٩٩.

(٢) فارس: اسم قديم لدولة إيران، وكان موطنها فارس، والراجح أن الفرس القدامى كانوا قبيلة رحالة، تسربوا عبر جبال القوقاز إلى الهضبة الإيرانية، وفي منتصف القرن السادس قبل الميلاد: أقام (قورش) الإمبراطورية الفارسية، وامتد حكم الفرس إلى أفغانستان، وإلى الشرق غرب الهند، وبلغ نهر الدانوب. ولكن بدأ الاضمحلال في الظهور بعد منتصف القرن ٥ق.م. بعد التنازع على الحكم.

د. حسين سعيد، وآخرين، الموسوعة الثقافية، ص ٧٠١ـ ٧٠٢، ط مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، سنة ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

(٣) هي: شبه قارة في جنوب آسيا، بها جبال الهملايا الشاهقة، عاصمتها نيودلهي، تضم ٢٧ ولاية، تجري بها عدة أنهار، منها نهر السند، ونهر البراهمابترا. وكان الفتح الإسلامي للهند بغارات «محمود الغزنوي» وإقامة سلطنة دلهي، سنة ٦٠٢هـ ـ ١٢٠٦م. احتلتها بريطانيا، ثم استقلت سنة ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م، وأعلنت الجمهورية.

محمد شفيق غبريال، الموسوعة العربية الميسرة، جـ ٢، ص ١٩٠٣م.

(٤) العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ٢٥.

والصين: جمهورية كبيرة المساحة، تقع شرق آسيا، تحدها روسيا السوفيتية، وكوريا =

إن شمول العقيدة الإسلامية، هو العامل القوي الذي يجمع إليها النفوس، ويحفظ لها قوة الإيمان[1].

شمول العبادة في الإسلام:

وتتمثل ظاهرة الشمول الإسلامي في عباداته كما تمثلت في عقيدته. فالعبادة في الإسلام تستوعب الكيان البشري كله، فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فحسب، أو ببدنه فقط، أو بقلبه لا غير، أو بعقله مجرداً، أو بحواسه وحدها؛ بل يعبد الله بهذه كلها، بلسانه ذاكراً، داعياً، تالياً، وببدنه مصلياً صائماً مجاهداً، وبقلبه خائفاً، راجياً، محباً، متوكلاً، وبعقله متفكراً، متأملاً، وبحواسه كلها مستعملاً لها في طاعته سبحانه وتعالى[2]. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[3]. وإن هذا النص القرآني الكريم ـ كما يقول سيد قطب: ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة. ومن جوانب هذه الحقيقة: أن مدلول العبادة؛ لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر، ونحن نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان، نعرفها من القرآن الكريم، من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾[4]. فالخلافة في الأرض عمل هذا الكائن الإنساني، وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي، من أجل عمارة الأرض، والتعرف على قواها وطاقاتها وذخائرها ومكنوناتها، وتحقق إرادة الله سبحانه وتعالى في استخدامها وتنميتها، وترقية الحياة فيها. كما تقتضي الخلافة:

= من الشمال الشرقي، وروسيا والجمهورية المنغولية الشعبية من الشمال، والهند من الجنوب الغربي، وبروما والصين الهندية من الجنوب، يبلغ عدد سكان الصين ألف مليون نسمة، منهم: مائتا مليون مسلم تقريباً.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ٣، ص ٤٤٠.

أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي، جـ ٣، ص ٣٨٦.

محمد شفيق غبريال، الموسوعة العربية الميسرة، جـ ٢، ص ١١٣٩.

(١) العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ٢٦.

(٢) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٨ـ ١٠٩.

(٣) سورة الذاريات، الآيات: ٥٦ ـ ٥٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

القيام على شريعة الله في الأرض؛ لتحقيق المنهاج الإلٰهي، الذي يتناسق مع السنن الكونية، ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة ـ التي هي غاية الوجود الإنساني، أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى ـ أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً[(١)].

وإذا كانت العبادة غاية الوجود الإنساني كما هي غاية كل وجود فإن مفهومها لا يقتصر على المعنى الخاص الذي يرد إلى الذهن، والذي يضيق نطاقها، حتى يجعلها محصورة بأنواع الشعائر الخاصة، التي يؤديها المؤمن.

والعبادة بمعناها العام: تعني السير في الحياة ابتغاء رضوان الله سبحانه وتعالى وفق شريعته الغراء[(٢)].

والعبودية ـ كما بيَّنها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: تشمل كل ما يحب الله ويرضى، من الأقوال والأفعال[(٣)].

ولقب العبادة: يطلق على كل عمل تتحقق فيه الشروط الآتية:

١ـ أن يكون العمل نافعاً ومفيداً، وصالحاً في الحياة.

٢ـ أن يراد بهذا العمل وجه الله سبحانه وتعالى لارتباط الأعمال بالنيات «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»[(٤)].

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ ٦، ص ٣٣٨٦ـ ٣٣٨٧، بتصرف واختصار.

(٢) د. عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية، ص ١٤٨.

(٣) ابن تيمية، رسالة العبودية، ص ٤.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الوحي، باب كيف كان الوحي إلى رسول الله ﷺ، جـ ١، ص ٩، وفي كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية، جـ ١، ص ١٣٥.
ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» جـ ١٣، ص ٥٣.
ورواه أحمد في المسند، جـ ١، ص ٢٥، ٤٣.
ورواه الترمذي في صحيحه، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء فيمن يقاتل رياء وللدنيا، جـ ٤، ص ١٧٩، وقال: حديث حسن صحيح.
ورواه النسائي، في سننه، كتاب الطهارة، باب النية في الوضوء، جـ ١: ص ٥٨ـ ٥٩.
ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب النية، جـ ٢، ص ١٤١٣.

٣ـ أن يؤدي العمل بلا مخالفات شرعية «فكل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»[(١)].

فإذا تحققت هذه الشروط في أي عمل، نستطيع وبكل اطمئنان: أن نلقّبه بالعبادة، وأنه ممَّا يحب الله ويرضى، وأنه في سبيل الله[(٢)].

والغرض من العبادات ـ كما يذكر العقاد ـ: تنبيه المبتدين إلى حقيقتين، لا ينساهما الإنسان في حياته العامة أو الخاصة:

الحقيقة الأولى: ـ التي يراد من العبادة المثلى أن تنبه ضمير الإنسان على الدوام ـ هي: العناية بوجوده الروحي، الذي ينبغي أن تشغله على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية، وغير شهواته الحيوانية.

والحقيقة الثانية: ـ التي يراد من العبادة المثلى أن تنبه ضميره ـ هي: الاعتقاد بالوجود الخالد الباقي، إلى جانب وجوده الزائل، المحدود في حياته الفردية.

وعبادة المسلم في جميع فرائضها تتكفل له بالتنبيه الدائم إلى هاتين الحقيقيتين[(٣)].

لقد عدَّ الإسلام قضية التوحيد قضيته الأولى، وقضيته الكبرى. توحيد

---

(١) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب البيوع، باب النجش، بلفظ: «الخديعة في النار، ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»، حـ ٤، ص ٣٥٥.
ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، بلفظ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»، جـ ٣، ص ١٣٤٣.
ورواية أخرى: ص ١٣٤٤، بلفظ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».
ورواه أحمد في مسنده، جـ ٦، ص ٢٧٠، بلفظ مسلم في الرواية الأولى.
ورواه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب: ٢، تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه، جـ ١، ص ٦.
ورواه أبو داود في سننه، جـ ٥، ص ١٢ـ ١٣، رقم الحديث: ٤٦٠٦، بروايتين:
الأولى: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو رد».
والأخرى: «من صنع أمراً على غير أمرنا، فهو رد».

(٢) د. محمد رأفت سعيد، التوازن في التصور الإسلامي، ص ٢٧ـ ٢٨.

(٣) العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ١١١ـ ١١٢، باختصار.

الإلٰهية، وإفرادها بخصائصها، والاعتراف بها لله وحده، وشمول العبودية لكل شيء، ولكل حي، وتجريدها من خصائص الإلٰهية جميعاً[(١)].

قال كعب بن عجرة[(٢)] - رضي الله عنه - مرَّ على النبي ﷺ رجل ذكر أصحابه من جلدِه ونشاطه ما أعجبهم، فقالوا: يا رسول الله: لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال: «إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة، فهو في سبيل الشيطان»[(٣)].

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن أناساً، قالوا يا رسول الله: ذهب أهل الدثور

---

(١) سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ص ١١٦، ط دار الشروق.

(٢) هو: كعب بن عجرة الأنصاري المدني، أبو محمد، وقيل: أبا عبد الله، وقيل: أبا إسحاق، من بني سالم بن عوف، حليف بني الخزرج، تأخر إسلامه، ثم أسلم، وشهد المشاهد كلها، وهو الذي نزلت فيه بالحديبية الرخصة في حلق رأس المحرم والفدية، فقد مرَّ عليه النبي ﷺ، وهو بالحديبية قبل أن يدخل مكة، وهو محرم، والقمل يتهافت على وجهه، فقال: احلق وأطعم مزقاً بين ستة مساكين. سكن الكوفة، وتوفي بالمدينة المنورة، سنة ٥١هـ - ٦٧١م، وعمره سبع وسبعون، وقيل: خمس وسبعون سنة.
ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٤، ص ٢٤٣- ٢٤٤.
ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ ٨، ص ٤٣٥- ٤٣٦.
القيسراني، الجمع بين رجال الصحيحين، جـ ٢، ص ٤٢٩، ط دائرة المعارف النظامية، بحيدر آباد، الدكن، سنة ١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م.
الزركلي، الأعلام، جـ ٦، ص ٨٣.

(٣) أورده المنذري في الترغيب والترهيب، جـ ٢، ص ٥٢٤، بهذا اللفظ، عن طريق كعب بن عجرة. ورواه البيهقي في السنن الكبرى، جـ ٧، ص ٤٧٩، من طريقين:
١- من طريق أنس رضي الله عنه بلفظ: «غزونا مع رسول الله ﷺ تبوكاً، فمرَّ بنا شاب نشيط يسوق غنماً له، فقلنا: لو كان شباب هذا ونشاطه في سبيل الله، كان خير له منها، فانتهى قولنا، حتى بلغ رسول الله ﷺ، فقال: ما قلتم؟ قلنا: كذا وكذا، قال: (أما أنه إن كان يسعى على والديه، أو أحدهما، فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على عيال يكفيهم، فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه، فهو في سبيل الله عز وجل)».
٢- من طريق ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: (مرَّ بهم رجل فتعجبوا من خلقه، فقالوا: لو كان هذا في سبيل الله، فأتوا النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «إن كان يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه ليغنها، فهو في سبيل الله»).

بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضل أموالهم، قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به، إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[1].

هذا بعض المنهج القويم، والصراط المستقيم الذي أعز الإسلامُ المسلمينَ ذات يوم حين كانوا يبلغون دعوة الله للناس، ويرى في سلوك المسلم، وأمانته وعدله وعفته غير المسلمين قبل المسلمين الأنموذج والقدوة التي دعت «الآخر» إلى الإعجاب والانبهار من هذا الخلق الذي لازم دعوة الإسلام.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، جـ ٢، ص ٣٢٥، رقم الحديث ٨٤٣.



الفصل السادس

- الأصل في علاقة الدولة الإسلامية بغيرها.
- أدلة القائلين بعلاقات السلم.
- سبب قتال المسلمين لغيرهم عند القائلين بالسلم.
- الدولة الإسلامية والعلاقات مع الآخر.
- حرمة مال العدو في شريعة الإسلام.
- علاقات الود بين المسلمين وغيرهم.
- زواج المسلم بالكتابية، وحرية عقيدتها.
- الإسلام لا يوصي بالتباعد عن غير المسلمين.
- معاملة الآخر عصر الخلفاء الراشدين.
- الزي المميز وغيار الذميين.

الأصل في علاقة الدولة الإسلامية بغيرها

فقه الموضوع:

الأصل في علاقة الدولة الإسلامية بالآخر هو: السلم:

وهذا هو رأي الجمهور الأعظم من علماء الأمة وفقهائها وعلى رأسهم ابن عمر رضي الله عنهما الذي أجاب فيما نقل عنه ـ من سأله عن عدم مشاركته في الغزو بجواب اكتفى فيه بذكر ما بُني عليه من قواعد، ليس الجهاد من بينها، فقال: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الإسلام بني على خمس، شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت». كما روي عنه التصريح بتقديم جهاد المدافعة على سواه، وذلك فيما نقل من قوله: «فرض الجهاد لسفك دماء المشركين، والرباط لحقن دماء المسلمين، فحقن دماء المسلمين أحب إلي من سفك دماء المشركين»[1]. ولا شك أنه ليس في شيء من هذين الخبرين المنقولين عن ابن عمر ما يرقى إلى أن يكون حجة في أنه من القائلين بوجوب الكف عن المسالمين من الكفار، فأقصى ما يدل عليه ظاهر جوابه لمن سأله عن عدم مشاركته في الغزو أنه يرى أن الجهاد على سبيل الطلب والابتداء غير متعين كتعين الصلاة ونحوها مما جاء في الخبر، وهذا هو ما خلص إليه النووي من معنى جوابه المذكور. كما أن أقصى ما في الكلام المروي عنه في المفاضلة بين الرباط والجهاد ـ باعتبار أنه يعني بالجهاد الابتداء بالقتال تقديمه للمدافعة على الطلب في الأفضلية. وواضح أن أياً من إنكار التعين أو تقديم المدافعة على الطلب في الأفضلية لا يقتضي اعتبار الطلب والابتداء في القتال غير مشروع، إذ يبقى احتمال أن ابن عمر يرى أن الجهاد على سبيل الطلب مشروع إباحة أو استحباباً أو ـ كما يراه كثير من سلف العلماء ـ فرض كفاية،

(١) شرح صحيح مسلم، جـ ١، ١٧٩.

ولكن هذا أيضاً لا ينفي ـ على وجه الحسم ـ احتمال أنه كان يرى عدم جواز مبادأة المسلمين للمسالمين من الكفار بالقتال، فدفع هذا الاحتمال أو ترجيحه يتوافق على ما هو أكثر وضوحاً في الدلالة على مذهب ابن عمر في هذا الموضوع، وهو ما لم يتيسر الاطلاع عليه.

وأما الثوري فقد أشير إليه في كلام بعض العلماء بأن له رأياً يخالف فيه غيره في قتال الطلب والابتداء مع الكفار، ومن ذلك ما ذكر عنه من أنه يرى: «أن القتال مع المشركين ليس بفرض إلا أن تكون البداية منهم، فحينئذٍ يجب قتالهم دفعاً»[1] ومن البين أن هذا التعبير في نقل رأي الثوري لا يكفي لاعتباره على القول بعدم جواز مقاتلة الطلب والابتداء، لأنه لا يفيد أكثر من أن قتال الكفار المسالمين ليس فرضاً، فيحتمل أنه يرى قتالهم عندئذٍ مباحاً أو مستحباً، وحمل هذه العبارة على معنى أن الثوري يرى الندب إلى المبادأة مع الكفار هو ما يقتضيه الجمع بين ما جاء فيها من أنه يرى وجوب الدفع وما كثر نقله عنه من أنه يرى أن الجهاد تطوع[2]، إذ لا يبقى محلاً لجهاد التطوع بعد وجوب المدافعة سوى القتال الابتداء والطلب، ولكن هذا أيضاً لا يلائم ما نقل عنه من تمسكه، في أن شرط فرضية الجهاد كون البداية منهم[3]، بآية: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾[4]، لأن الاستدلال بهذه الآية على أن قتال البادئين من الكفار بالقتال هو الفرض يقتضي القول بعدم جواز قتال غير البادئين، فهي تأمر بقتال المقاتلين في المسجد الحرام استثناء من حظر متقدم فيها للقتال فيه، فيكون الرأي وفقاً لهذا الاستدلال أنه إذا كانت البداية من الكفار بالقتال فرض قتالهم، وإذا لم تكن البداية منهم رجع حكم قتالهم إلى الحظر المتقدم في الآية. وحاصل القول هو أن ما جاء عن الثوري في قتال الطلب والابتداء لا يوفر الدليل الكافي للجزم بمذهبه في ذلك.

وإذا كان التصريح بالأخذ بهذا المذهب لا يعرف عن أحد من سلف علماء

---

(١) السرخسي، شرح السير الكبير، جـ ١، ١٨٧.

(٢) أبو حيان، البحر المحيط، جـ ٢، ١٤٣. الجصاص، أحكام القرآن، جـ ٣، ١١٣، وقد ذكر الجصاص عنه أيضاً في نفس هذا المكان ما يفيد أنه يرى أن جهاد الطلب والابتداء فرض كفاية.

(٣) ابن الهمام، شرح فتح القدير، جـ ٥، ص ١٩٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩١.

الأمة كما تقدم ذكره، فإن الأمر مختلف بالنسبة للباحثين المعاصرين الذين جاءت عبارات كثير منهم صريحة في تقريره، ومن ذلك قول الشيخ محمود شلتوت: «السلم هو الحالة الأصلية التي تهيىء للتعاون بين الناس عامة»[1]. ويقرر هذا الشيخ في مقام آخر أن الإسلام يأبى اتخاذ الإكراه طريقاً للدعوة إليه، ثم يقول: «وإذا احتفظ غير المسلمين بحالة السلم فهم والمسلمون في نظر الإسلام إخوان في الإنسانية، يتعاونون على خيرها العام، ولكل دينه يدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة». وعلى هذا النحو تأتي عبارات أخرى له، وكلها تبين رأيه في أن أصل العلاقة في الإسلام بين المسلمين وغيرهم هو السلم، وأنه لا يجوز الخروج على هذا الأصل إلا دفعاً لعدوان أو انتصاراً لمظلوم[2]، ونحو ذلك مما يجد المطلع على مباحث المعاصرين انتشار التسليم به بين كثير منهم[3]، وقد حاول بعضهم الاتكاء في هذا المذهب على ما وصفه بأنه رأي جمهور فقهاء الأمة، فبعد كلام طويل لأبي زهرة في تقرير أصل السلم في العلاقة بين المسلمين وغيرهم يقول: «وننتهي من هذا إلى أن الأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلم، وأن ذلك هو رأي الجمهرة من الفقهاء، والقلة التي خالفت ما كان نظرها إلى الأصل، بل نظرها إلى الواقع، وكل ما قررته حكماً زمنياً وليس أصلاً دينياً»[4]. وهذه الدعوى من أبي زهرة عريضة جديرة بالتأمل ويمكن

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة (القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٠م) ٤٥٣.

(٢) المرجع السابق، نفس الموضع.

(٣) المرجع السابق، ٤٥٤. من توجيهات الإسلام (القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٠م) ٩٢، ٩٣، ٢٣٦، ٢٦٣، ٢٧٤.

(٤) محمد أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، دار الفكر العربي، ٢٥، ٢٨، ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٤٧، ٨٩، ٩٠، صبحي محمصاني، القانون والعلاقات الدولية في الإسلام (بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٢م) ٧٥، ١٧٨. محمد عبد الله دراز، دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية (الكويت، دار القلم، ١٩٨٠م) ١٤٢. ودستور الأخلاق في القرآن، تحقيق وتعريب: عبد الصبور شاهين، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢م) ٧٥٦. وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، (دار الفكر، ١٩٨١م) ٩٠ـ ٩١، مجاهد هريدي، العلاقات الإنسانية في القرآن والسنة، (دار الرشيد، ١٩٨١م) ٢١٤ـ ٢٥٦، عبد الخالق النواوي، العلاقات الدولية والنظم القضائية (بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٧٤م) ١٠٨.

إثباتها، فهو يستند فيما نسبه إلى من وصفهم بالجمهرة العظمى من الفقهاء وإلى اجتهاده في فهم ما قالوه في علاقة الحرب والقتال مع الكفار على وجه يناسب الروح العام في الإسلام.

أدلة القائلين بعلاقات السلم

يتمسك القائلون بعدم جواز طلب الكفار بالقتال في الاستدلال على مذهبهم بما جاء من نصوص تخص المعتدين بالقتال، أو تنهي عن الاعتداء أو الإكراه في الدين، أو توجب العفو والصفح والكف عن المسالمين. وفي مقام الاستدلال بهذه النصوص يخلص هؤلاء ـ عادة إلى ما يرونه في مجموعها أو في كل مجموعة منها من دلالة إجمالية تنتج مذهبهم[١]، وهو ما لا يتيسر معه الوقوف على ما قد يختص به أي دليل منها من الدلالة أو المناقشة، ولهذا فسنتناول فيما يلي كل دليل من الأدلة المشار إليها منفرداً، ونبين عن تناول كل دليل ما يبدو من الدليل نفسه أنه وجه التمسك به في هذا المقام، وذلك إن لم يتيسر الاطلاع على عبارة خاصة بالدليل من كلام القائلين بهذا المذهب.

الدليل الأول:

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[٢]. فهذه الآية نص في أن قتال الذين يقاتلون المسلمين مأمور به، وأن العدوان منهي عنه، وظاهر هذا يدل على أن القتال مشروع فيها هو قتال المدافعة فحسب، لأن قتال المدافعة هو الذي تجتمع فيه الاستجابة لما جاء في الآية من أمر مطلق بقتال كل مقاتل ونهي مطلق عن كل عدوان[٣].

وعلى الرغم من أن فهم الآية على هذا الوجه له أصل في كلام عدد من سلف العلماء الذين جاء عنهم القول بأنها توجب قتال من قاتل والكف عمن كف

---

(١) العلاقات الدولية في الإسلام، ٥١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٣) انظر هذا ـ مثلاً ـ عند وهبة الزحيلي، آثار الحرب، ١٣٣ـ ١٣٤.

من الكفار[1] فإن جميع المنتصرين للمذهب الأول يرون أن الاعتراض بها على مذهبهم مدفوع، ولكنهم يختلفون في دفع هذا الاعتراض على وجهين:

الأول: أن هذه الآية منسوخة، وهو قول عدد من العلماء على خلاف بينهم في الناسخ، فهو عند[2] بعضهم آية: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾[3]، وهو عند آخرين آية السيف المتقدمة في أدلتهم على المذهب الأول[4]، وهو عند فريق ثالث الأمر بقتال الكفار دون ذكر نص بعينه، وهو عند فريق رابع آية: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[5]، وهو عند فريق خامس[6] آية النهي عن القتال في المسجد الحرام[7].

الثاني: أن هذه الآية لا تعارض مشروعية طلب الكفار بالقتال أصلاً، لأنها إنما تأمر بمقاتلة كل من وجدت في القدرة على القتال سواء وجدت منه حقيقة المقاتلة أم لا توجد، فلا يخرج من عموم من تأمر الآية بمقاتلتهم من الكفار إلا أهل الكتاب إذا دفعوا الجزية أو النساء والأطفال ونحوهم ممن دلت نصوص أخرى على خصوصيتهم بحكم خاص في ذلك، وعلى هذا فإن الآية محكمة[8].

---

(١) ربما يكون هذا هو المقصود من كلام للدكتور عبد الخالق النواوي، فقد استدل بهذه الآية على مذهب المدافعة، ومما قاله في بيان دلالتها: «إن أول جملة في هذه الآية كافية وحدها في مقصودها، لأنها ـ بطريق المفهوم ـ في قوة: قاتلوا المقاتلين لا المسلمين». العلاقات الدولية والنظم القضائية، ٩٨.

(٢) الطبري، جامع البيان، جـ ٢، ١٨٩. الجصاص، أحكام القرآن، جـ ١، ٣٥٧، الكيا الهراس، أحكام القرآن، جـ ١، ١٢١، ١٢٢. الزمخشري، الكشاف، جـ ١، ١١٨. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ ٢، ٣٤٨.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(٤) القرطبي، المرجع السابق، نفس المكان، الزمخشري، المرجع السابق، نفس المكان، أبو حيان، البحر المحيط، جـ ٢، ٦٥.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ ٢، ٣٤٨، وبه قال الجصاص، أحكام القرآن، جـ ١، ٢٥٨.

(٧) أبو حيان، البحر المحيط، جـ ٢، ٦٥.

(٨) سورة البقرة، الآية: ١٩٣، وسورة الأنفال، الآية: ٣٩. وقد تقدمتا في أدلة أهل المذهب الأول.

ويبدو أن كلاً من هذين الوجهين فيه نظر، فدعوى النسخ لا تستند عند القائلين بها إلى حجة سوى وجود التعارض بين دلالة هذه الآية على منع مقاتلة المسالمين من الكفار ودلالة ما ذكروه من نصوص استدلوا بها على مشروعية قتال الكفار على سبيل الطلب والابتداء، ووجود التعارض المذكور إنما يصح ترتيباً على مذهبهم في وجوب الطلب والابتداء، فهو دعوى مرتبة على دعوى، فلا يسلم بدعوى التعارض أصلاً وفقاً لمذهب المدافعة، لأن الجمع بين جميع النصوص المدعي وجود التعارض بينها ممكن وفقاً لهذا المذهب، وذلك بطريق تقييد النصوص الآمرة بالقتال مطلقاً بهذه الآية ونحوها مما يقصر القتال على دفع العدوان. هذا مع أن دعوى النسخ غير مسلم بها عند كثير من أصحاب مذهب الطلب أنفسهم، وهم الذين التمسوا الوجه الثاني للجمع بين النصوص تجنباً لدعوى النسخ التي لا يجوز أن تدعي إلا ببرهان، وإلا فإنه يصح لكل أحد ـ كما يومىء الطبري، أن يدعي هذه الدعوى[1] لتأييد رأيه، بما في ذلك أهل المذهب الثاني.

أما الوجه الثاني فلا شك أنه خلاف الظاهر من الآية، وهذا واضح من النهجين السابقين في معالجة القائلين بمذهب الطلب لظاهر الآية، فمنهم من رأى نسخها لعدم التمكن من الجمع بينها وبين النصوص الدالة عندهم على الطلب بالقتال مطلقاً، ومنهم من تأوها على معنى أخص من دلالتها للتوفيق بينها وبين أدلتهم، باعتبار أن دعوى النسخ مع وجود التأويل ضعيفة لا يصار إليها[2]، فإذا كان الوجه المذكور خلال الظاهر بتسليمهم جميعاً، امتنع القول به مع إمكان الظاهر، وهو ممكن وفقاً لرأي من يرى مذهب المدافعة على ما تقدم في مناقشة الوجه الأول.

الدليل الثاني:

قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[3]،[4]. فقد

---

(١) أبو حيان، البحر المحيط، جـ ٢، ٦٥.

(٢) وهي آية ١٩٥ من سورة البقرة، وقد تقدمت في أدلة أهل المذهب الأول.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(٤) الطبري، جامع البيان، جـ ٢، ١٩٠. الزمخشري، الكشاف، جـ ١، ١١٨. الجصاص،=

حصرت هذه الآية الرد المشروع على عدوان المعتدي بما يماثل عدوانه بلا تجاوز، فإذا كان تجاوزه ما يماثل العدوان غير مشروع في المجازاة عليه، فإن الاعتداء على من لم يوجد منه العدوان أصلاً يكون مشروع من باب أولى، وبمقتضى هذا فإن المشروع من قتال الكفار هو ما يكون مجازاة ودفعاً لعدوانهم فحسب.

ولم يرد ما يعارض هذا الاستدلال بالآية فيما أمكن الاطلاع عليه من كلام سلف العلماء بشأنها سوى ما جاء من أن هذه الآية قد نزلت قبل أن يقوى أمر المسلمين، ثم نسخت آية: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾[1]، أو ـ كما في قول آخر ـ يجعل أمور القصاص إلى السلطان[2]. ويجاب على دعوى النسخ هذه بما أجيب به على مثيلتها الواردة على الدليل السابق.

الدليل الثالث:

قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾[3]، ووجه دلالة هذه الآية هنا هو أن النفي فيها عن الإكراه في الدين ليس على ظاهره، لانتفاء هذا الظاهر بما يعلم من احتمال وقوع الإكراه في الدين، فيكون النفي في الآية إذاً بمعنى النهي، والنهي عن الإكراه في الدين يعارض القول بابتداء الكفار بالقتال لإلجائهم إلى ترك واعتناق الإسلام، فلا يبقى إلا القول بأن قتالهم غير مشروع إلا لرد عدوانهم فقط.

وقد اختلف القائلون بالمذهب الأول فيما بينهم في معالجة هذه الآية لدفع معارضتها لما ذهبوا إليه، ولهم في ذلك أقوال نوجزها فيما يلي:

الأول: أنها منسوخة بآيات القتال في سورة براءة، وبما هو في حكم هذه الآيات من السنة القولية، وبما هو ثابت من إكراه النبي ﷺ العرب على الإسلام، فالحكم المستقر في معاملة الكفار بكل ذلك هو قتالهم حتى يسلموا أو بذل

= أحكام القرآن، جـ ١، ٣٥٧. الكيا الهراس، أحكام القرآن، جـ ١، ١٢١ـ ١٢٤. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ ٢، ٣٤٨.

(١) أبو حيان، البحر المحيط، جـ ٢، ٦٥.

(٢) محمد بن الحسين، منتهى المرام في شرح آيات الأحكام، ٥٢ـ ٥٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

الجزية مع الصغار من يقبل منه ذلك منهم[(١)].

الثاني: أن الآية محكمة فيمن جاء الأمر بإقرارهم على دينهم إذا دفعوا الجزية كأهل الكتاب والمجوس فهي مما ظاهره العموم وباطنه الخصوص وفقاً لعبارة الطبري الذي يرى أنه لا معنى لادعاء نسخ الآية مع إمكان الجمع بينها وبين نصوص قتال الطلب على هذا الوجه[(٢)].

الثالث: أنها خاصة في بعض الأنصار الذين أرادوا استبقاء أبنائهم معهم وإلزامهم الإسلام بعد أن كانوا قد تركوهم مع بني النضير على اليهودية[(٣)]، أو أنها خاصة فيمن أراد من الأنصار إرجاع أبنائه إلى الإسلام بعد أن تنصروا وخرجوا إلى الشام مع بعض النصارى من أهلها[(٤)].

الرابع: أنها في النهي عن وصف من أسلم تحت السيف بأنه قد أسلم مكرهاً[(٥)].

الخامس: أنها خبر محض تدل على أن الله قد نفي في حقه الإكراه على الدين، فأجرى أمر الإيمان به على اختيار العبد، فهي بمعنى آية: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[(٦)]،[(٧)]، أي لو شاء لقسرهم على الإيمان ولكنه لم يفعل، بل ترك هذا لاختيارهم الذي سيحاسبهم عليه[(٨)].

وكل من هذه الأقوال لا ينبو عن أن يكون محلاً للنظر والمناقشة، فدعوى النسخ يشملها ما تقدم بيانه في مثيلتها الواردة على الدليل الأول، وذلك من حيث

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ ٢، ٣٦٠.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ ٣، ٢٨٠.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ ٣، ٢٨٠. أبو حيان، البحر المحيط، جـ ٢، ٢٨١. الزمخشري، الكشاف، جـ ١، ١٥٥.

(٤) الطبري، جامع البيان، جـ ٣، ٢١٧. وانظر نحو هذا في كلام ابن حزم الظاهري، المحلي، جـ ٥، ٤١٤.

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ ٣، ٢٨٠. أبو حيان، البحر المحيط، جـ ٢، ٢٨١. الزمخشري، الكشاف، جـ ١، ١٥٥.

(٦) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٧) الزمخشري، الكشاف، جـ ١، ١٥٥. أبو حيان، البحر المحيط، جـ ٢، ٢٨١.

(٨) وتتمة الآية: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

إنه لا دليل عليها سوى التعارض الذي لا يلزم على مذهب الطلب في القتال، ومن حيث إن كثيراً من أصحاب مذهب الطلب أنفسهم لا يسلم بها. وأما حمل الآية على معنى آية الجزية في عدم إكراه الكافر على الإسلام إذا دفع الجزية وهو ممن يقبل منه ذلك، فهو معارض بما تطبق عليه عبارات القائلين بالمذهب الأول في فهم الصغار المصاحب للجزية، فمن الصغار عندهم منع الذمي من وظائف هامة في الدولة، ووجوب معاملته بجفاء وغلظة ـ على اختلاف بينهم في تقدير ذلك ـ عند محادثته أو أخذ الجزية منه، وعدم ابتدائه بالسلام، ووجوب إلجائه إلى جانب الطريق، والنظر إليه بريبة وشك فيما يختص مهام القتال والدفاع المسلح عن الدولة، ومنعه من اقتناء السلاح[1]، فهذا ونحوه إن لم يكن إكراهاً بالسيف فهو ضرب من الإكراه في الدين قد يلجىء كثيراً من الذميين إلى اعتناق الإسلام[2]، فإذا كان الإكراه غير المشروع في الدين عند أصحاب هذا القول منحصراً فيما يتعارض مع ما يرونه من دلالة آية الجزية والصغار على الوجه المذكور، فإنه لا يكون لقولهم في آية نفي الإكراه في الدين حقيقة تختلف عن حقيقة القول بنسخها، وذلك لإجماع القولين في أنه لا يعتبر في مدلولها سوى ما يدخل في مدلول آية الجزية، فتتوجه إلى أصحاب هذين القولين معاً المطالبة بالدليل النافي لما نفوه من دلالة الآية. وأما القول الثالث فهو تخصيص للآية بما قيل إنه سبب نزولها، وهذا يتعارض مع ما يعتبر في سائر النصوص من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وأما القول الرابع فهو عدول عن الظاهر إلى

---

(١) محمد بن أبي بكر الزرعي (ابن قيم الجوزية)، أحكام أهل الذمة، تحقيق: صبحي الصالح (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨١م) جـ ١، ٢٠٨. وما بعدها. ابن الهمام، شرح فتح القدير، جـ ٥، ٣١٠ـ ٣٠٢. الرملي، نهاية المحتاج، جـ ٨، ٩٤ وما بعدها.

(٢) يقول محب الدين الخطيب فيما يرى أنه الدافع إلى فرض الجزية مع الصغار على الذميين: «إنما هو إثارة لدواع الكرامة الإنسانية عند هؤلاء الذين يؤدون الجزية» ولتحريك الرغبة فيهم للخلاص من هذا الوضع المشين، وتلك العزلة الباردة لهم في المجتمع الذي يعيشون فيه». محب الدين الخطيب، الحرب والسلام في الإسلام (الرياض: دار نجد للنشر والتوزيع، ١٩٨١م) ٩٤. وفي الشيعة من فسر الصفار في آية الجزية بأنه تكليف أهل الذمة ما لا يطيقون، لإلجائهم إلى الإسلام، انظر: جواهر الكلام شرح شرائع الإسلام، جـ ٢١، ٢٤٧.

معنى خفي بلا دليل، فلا يتلفت إليه. وأما القول الخامس فهو مما يتعذر فهمه مع ما يراه القائلون به من مشروعية الإكراه في الدين بالقتال والسيف، فلا يظهر لهم وجه توفيق بين نفي الله عن نفسه إكراه الناس في الدين وما يرونه من أمره لعباده الذين يختارون الاهتداء إلى الدين إكراه غير المختارين عليه، هذا فضلاً عن أن هذا القول إنما يعبر عن فهم خاص في اختيار العبد أو المكلف لأفعاله لا يوافق قائله فيه كثير من القائلين بمذهب الطلب. والابتداء في القتال.

الدليل الرابع:

قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾[١]، ثم قال في الآية التالية: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾[٢]، فقد بين الشارع في كل من هاتين الآيتين من يجب قتاله من الكفار ومن يجب الكف عنه منهم، ففي منطوق الآية الأولى تبين أنه لا سبيل للمسلمين على من كف عن قتالهم واختار السلم معهم، ومفهوم هذا أن للمسلمين السبيل على من لم يفعل ذلك، وهذا المفهوم جاء مقرراً في منطوق الآية الثانية التي نصت على أن للمسلمين سلطاناً مبيناً في أخذ وقتل غير المسالمين حيث وجدوا، فدل مفهوم هذا على ما جاء في منطوق الأولى من نفي السبيل للمسلمين على المسالمين والكافين عن القتال، ويتحصل من كل هذا القتال المشروع ضد الكفار في الإسلام هو ما يكون جزاء لقتالهم وعدم مسالمتهم للمسلمين فحسب.

ولدفع ما في هاتين الآيتين من معارضة لمذهب الطلب والابتداء في قتال المسلمين للكفار، ويتمسك أصحابه بما قالوه من أن آية السيف ونحوها من نصوص المقاتلة قد نسخت كل ما يعارضها من آيات الكف والصفح وعدم الإكراه، ويبدو أنه لا خلاف بينهم في دعوى نسخ هاتين الآيتين بالآية المذكورة وما في حكمها[٣]، إذ لم ينقل فيما أمكن الاطلاع عليه قول لأحد منهم يخالف

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩١.

(٣) الطبري، جامع البيان، جـ ٥، ٢٠٠١ـ ٢٠٠٢. أبو حيان، البحر المحيط، جـ ٣، ٣١٥. القرطبي الجامع لأحكام القرآن، جـ ٥، ٣٠٨. والعجيب أن القرطبي قد رجح هنا =

في ذلك، وممن صرح بدعوى النسخ في هذا المقام الطبري، وهو ممن ينهج منهجاً حذراً في مسألة النسخ وادعائه، فقد قال بأن جميع ما في هاتين الآيتين من حكم قد نسخ بآية السيف، هذا مع أنه قد فسر إلقاء السلم في الآيتين بالاستسلام وإلقاء القياد إلى المسلمين[1]، مما يدل على أنه لم يجد حتى في هذا المعنى ما يوفق بين الآيتين وآيات المقاتلة وفقاً لمذهب الطلب الذي يأخذ هو به كغيره من سلف العلماء، والذي يقضي عند كثير من القائلين به بقتال الكفار لا لإلجائهم إلى الاستسلام للمسلمين فحسب، بل لإلجائهم إلى الإسلام سوى من يستثنى منهم في جواز أخذ الجزية منه. ونناقش دعوى النسخ هنا بأنها لا تستند على دليل عدا التعارض الذي لا يلزم إلا وفقاً للمذهب الأول.

الدليل الخامس:

قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[2]، فقد بينت هذه الآية أن المعاملة المشروعة في الإسلام لجميع الناس، إنما تقوم على الاكتفاء بالعفو المقدور منهم، وأمرهم بالعرف أو المعروف، والإعراض عن جاهلهم، وهذا لا يلائم القول بطلب الكفار بالقتال حتى يسلموا أو يبذلوا الجزية على وجه الصغار، وإنما يلائم القول بعدم قتالهم ما لم يبدؤوا بالعدوان على المسلمين فيلزم دفعاً لعدوانهم.

وقد اختلف أهل المذهب الأول في دفع ما في ظاهر هذه الآية من معارضة لمذهبهم، وخلافهم في ذلك على قولين:

الأول: أن الآية منسوخة، ثم اختلف القائلون بنسخها في الناسخ، فهو عند بعضهم آية الزكاة، باعتبار أن العفو المأمور به هو فضل المال الذي تطيب بدفعه نفس صاحبه قبل فرض الزكاة[3]، ويراه آخرون آيات الغلظة على الكفار[4]،

= دعوى النسخ المذكورة بعد أن نقلها عن بعض العلماء، ثم عاد في ٣٠٩ فبنى على الآية الأولى من الآيتين المذكورتين حكماً مستقراً، وهو: «شرعية الموادعة بين أهل الحرب وأهل الإسلام إذا كان في الموادعة مصلحة للمسلمين».

(١) الطبري، جامع البيان، جـ ٥، ٢٠٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٣) الطبري، جامع البيان، جـ ١٤٥٩. أبو حيان، البحر المحيط، جـ ٤، ٤٤٨.

(٤) الطبري، المرجع السابق، جـ ٩، ١٥٤ـ ١٥٥.

كآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[1]. وأكثر القائلين بالنسخ هنا يطلقون دعواهم على الآية كلها، ويرى بعضهم أن المنسوخ منها هو الأمر بأخذ العفو في أولها والإعراض عن الجاهلين في آخرها، أما الأمر بالعرف في وسطها فهو محكم[2].

الثاني: أن الآية محكمة في المعاملة بين جميع الناس، ولكن يستثنى من حكمها من يشرع قتاله بآيات القتال التي خصتهم بمعاملة خاصة هي قتالهم حتى يسلموا أو يبذل أهل الكتاب ومن في حكمهم الجزية مع الصغار[3].

الدليل السادس:

قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[4]، فالأمر بالجنوح إلى السلم في هذه الآية غير مقيد بغير جنوح الكفار إليه، وعلى هذا فإن المسلمين ملزمون بمسألة الكفار عن قتالهم إذا التزم لهم الكفار بمثل ذلك.

ولأهل المذهب الأول في دفع ما يعارض مذهبهم من دلالة هذه الآية قولان:

الأول: أن الآية منسوخة، وللقائلين بهذا القول آراء شتى في الناسخ هنا، فهو ما جاء في سورة براءة من آيات القتال في أحد الآراء[5]، وهو آية السيف خاصة في رأي آخر[6]، وهو آية الجزية خاصة في رأي ثالث[7]، وفي رأي رابع[8] هو آية: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾[9]، مع أن هناك من يرى - من أهل المذهب الأول - أن هذه الآية الأخيرة هي المنسوخة بآية الجنوح إلى

---

(1) سورة النساء، الآية: ٩٠.

(2) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، جـ ٢، ٢٤.

(3) وبه قال الطبري ونقله عن آخرين، الطبري، جامع البيان، جـ ٩، ١٥٤ـ ١٥٦. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ ٧، ٣٤٤ـ ٣٤٧، أبو حيان، البحر المحيط، جـ ٤، ٤٤٨.

(4) سورة الأنفال، الآية: ٦١.

(5) الطبري، جامع البيان، جـ ١٠، ٣٤. الجامع لأحكام القرآن، جـ ٣، ٣٩.

(6) الطبري، المرجع السابق، نفس الموضع. الزمخشري، الكشاف، جـ ٣، ١٣٣.

(7) انظر المرجعين السابقين، نفس الموضوع المذكور في كل منهما.

(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ ٨، ٣٩.

(9) سورة محمد، الآية: ٣٥.

السلم المستدل بها هنا[1].

الثاني: أنها محكمة في التماس الكفار للصلح الموافق لمصلحة المسلمين وغاياتهم من بدء القتال، فإذا قبل الكفار الإسلام أو الجزية وجب الكف عن قتالهم، وعلى هذا فإنه لا يتعارض بين هذه الآية وآيات القتال، فكل منها محكمة فيما أُنزلت فيه كما يقول الطبري[2].

الدليل السابع:

قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[3]. ووجه دلالة هذه الآية على حصر القتال المشروع في قتال المدافعة هو أنها نص في أن طريق الدعوة إلى الدين إنما يكون بما ذكرته من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، فينتفي بذلك طلب الكفار بالقتال من أن يكون طريقاً للدعوة.

ويختلف أهل المذهب الأول في معالجة هذه الآية لدفع معارضتها لما ذهبوا إليه، فيرى بعضهم أنها منسوخة في حق الكفار بآيات القتال، وأنها محكمة في حق عصاة المسلمين[4]. ويتوجه بعضهم إلى أنها محكمة باعتبارها مثبتة لضرب من ضربي الدعوة، وهو المجادلة وقرع الحجة بالحجة، والضرب الآخر هو ما قررته آيات القتال من دفع شبه المعاندين بالسيف، فكل من هذه الآية وآيات القتال محكم فيما جاء فيه[5]. وقد رأى بعضهم في هذه الآية دليلاً على مشروعية الدعوة قبل بدء القتال، فإذا امتنع الكفار من قبول الدعوة، أصبحوا أهلاً للمقاتلة والقتل بعد قطع معذرتهم بالكلية[6].

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ ١٦، ٢٥٦.

(٢) الطبري، جامع البيان، جـ ١٠، ٣٤. وانظر في هذا القول أيضاً: القرطبي، المرجع السابق، جـ ١٠، ٤٠. الزمخشري، الكشاف، جـ ٢، ١٣٣.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٤) وبه قال القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ ١٠، ٢٠٠.

(٥) الهوتي، كشاف القناع عن متن الإقناع، جـ ٣، ٣٣.

(٦) الكاساني، بدائع الصنائع، جـ ٧، ١٠٠.

الدليل الثامن:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾[1]. فأهل الكتاب لا يجادلون وفقاً لحكم هذه الآية إلا بالتي هي أحسن حصراً، وذلك باستثناء الظالمين منهم، فإنهم يعاملون بما يقتضيه ظلمهم، وهذا إنما يؤيد القول بعدم قتالهم إلا على سبيل المدافعة، ففي قتالهم على هذا الوجه تطبيق لما ألزمت به الآية من التفريق بين الظالمين وغير الظالمين منهم في المعاملة، وهو ما لا يتحقق على القول بطلبه بالقتال مطلقاً سواء كانوا مسالمين أم محاربين.

ويفهم مما جاء عن بعض سلف العلماء توجههم إلى أن هذه الآية كانت في عدم مقاتلة المسالمين من أهل الكتاب، ولكن هذا على اعتبار أنها قد نسخت بآيات القتال[2]، وهو ما اعترض عليه كثير من سلف العلماء الذين التمسوا التوفيق بين هذه الآية وآيات القتال في تأويل المعنى بدلاً من دعوى النسخ، فمنهم من ذهب إلى أن معناها أنه لا يجادل أهل الكتاب الذين يلتزمون بدفع الجزية إلا بالتي هي أحسن، وذلك بخلاف الظالمين الممتنعين من أداء الجزية[3]. ومنهم من ذهب إلى أن المعنى أنه لا يجادل من آمن بالإسلام من أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، فتسميتهم بأهل الكتاب إنما هي باعتبار ما كان سابقاً فقط من أمرهم، وعلى هذا فإن الذين ظلموا منهم هم الذين لم يرجعوا عن دينهم[4].

وفي كل من التأويلين السابقين نظر، فأولهما يقتضي أن الكتابي لا يكون ظالماً ببقائه على كفره إذا هو قد التزم بدفع الجزية، وهو ما لا يبدو أنه مقبول عند أحد من القائلين بمذهب الطلب والمبادأة في قتال الكفار، فالذي ينتجه كلامهم في فهم الصغار وحقوق أهل الذمة ومعاملتهم في الدولة الإسلامية أنهم

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٢) الطبري، جامع البيان، جـ ٢١، ٢. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ ١٣، ٣٥٠.

(٣) وقد أيده الطبري بعد أن نقله عن غيره، المرجع السابق، جـ ٢١، ١ـ ٣، كما أيده القرطبي، المرجع السابق، جـ ١٣، ٣٥٠ـ ٣٥١.

(٤) الطبري، المرجع السابق، جـ ٢١، ٢، القرطبي، المرجع السابق، جـ ١٣، ٣٥٠.

يرونهم ظالمين مطلقاً وإن دفعوا الجزية، وقد صرح بعضهم بهذا، فقد نقل القرطبي عن مجاهد أنه يجوز بهذه الآية عدم مخاشنة أهل الكتاب رجاء إيمانهم، ثم قال: وقوله على هذا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ معناه ظلموكم، وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق[1]. فإذا انتفي عند هؤلاء وصف أهل الكتاب في الآية، في معنى خاص يحتمله اللفظ، وهذا المعنى لا يكون ـ بعد إبعاد كفرهم وإنكارهم للحق الواجب عليهم في أنفسهم ـ غير تجاوزهم وعدوانهم على المسلمين، وأما التأويل الآخر فهو أبعد من سابقه عن القبول، لأن التسليم به يعني جواز تسمية المسلم بأنه يهودي أو نصراني أو وثني باعتبار ملته السابقة، وهو ما لا يبدو أن أحداً من سلف الأمة أو خلفها يقول بجوازه، فإذا كان هذا غير جائز بلا خلاف، امتنع صرف معنى الآية إليه. وبعد هذا العرض لكل من التأويلين المذكورين، فإنه لا يبقى مما أورده أهل المذهب الأول على دلالة الآية المستدل بها هنا غير دعوى النسخ، وهو ما لم ينهض دليل معتبر على وقوعه في هذه الآية أو في أي نص من النصوص التي تناولها البحث.

الدليل التاسع:

قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾[2]. فالذي تقضي به هذه الآية هو بر غير المعتدي أياً كانت ملته، ولا شك في أنه ليس من بره طلبه بالقتال بسبب ملته أو عدم دفعه الجزية[3].

وهنا أيضاً يختلف القائلون بالمذهب الأول في معالجة ما يعارض مذهبهم من دلالة هذه الآية، ويرى آخرون التوفيق بين حكمها وما ذهبوا إليه عن تخصيص دلالتها، ثم اختلف هؤلاء فيما هي خاص به، فمنهم من يراها خاصة بالأقارب من الكفار، فيشرع برهم والإحسان إليهم ولو كانوا من أهل الحرب إذا لم يفض ذلك إلى تقوية أهل الحرب أو كشف عورة المسلمين. ومال بعضهم إلى

---

(١) القرطبي، المرجع السابق، نفس الموضع.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

(٣) الزحيلي، آثار الحرب، ١٣٣. أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، ٤٧، محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ٤٥٣. ومن توجيهات الإسلام، ٢٣٦.

أنها خاصة بحلفاء النبي ﷺ الذين لم ينقضوا عهدهم معه، ومقتضى هذا القول أن حكمها محصور أصلاً في وقت خاص وفئة خاصة، فانتهى العمل بها بزوالها.
ويراها بعضهم خاصة في بر النساء والصبيان ونحوهم ممن لا يصح قتالهم إذا لم يقاتلوا.

سبب قتال المسلمين لغيرهم

لا خلاف بين القائلين بأصل السلم في العلاقة بين المسلمين وغيرهم في أن سبب الحرب المشروعة ضد الكفار منحصر في عدوانهم على المسلمين، أو ما هو في حكم عدوانهم من الإعداد له أو الشروع بمقدماته، وتطبق عباراتهم ـ على اختلاف بينها في الصياغة ـ على إخراج كل ما سوى عدوان الكفار أو كونهم من جانبهم ابتداء حرباً على المسلمين عن أن يكون سبباً لإقامة حرب مشروعية ضدهم من جانب المسلمين. ومن البين أن مجرد احتمال وجود حرب مشروعة ضد الكفار لأي سبب غير السبب المذكور لا يستقيم مع القول بمذهب المدافعة في الجهاد، وذلك لما لا يخفى من التلازم ـ وجوداً وعدماً ـ بين العدوان سبباً والمدافعة مسبباً.

ولكن القول بأن العدوان ـ حقيقة أو حكماً ـ هو سبب القتال المشروع مع الكفار لا يخلو من إجمال قد يقتضي إلى لبس في المراد به في هذا المقام. وهذا اللبس ملحوظ في عبارات بعض القائلين بأن السلم هو الأصل في العلاقة مع غير المسلمين وأن القتال مشروع للمدافعة فقط، ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ قول أحدهم: «ولا يقاتل إلا الباغي المعتدي الذي يريد أن يفرض إرادته على الأمة بالقهر والسلطان، وأن يصد عن دين الله بقوة الحديد والنار، ويفتن المؤمن بوسائل الفتنة والإغراء. فعلى الرغم مما في هذه العبارة من التأكيد بأن الذي يقاتل هو المعتدي فقط، فإن المعتدي وقتها يمكن أن يكون كل كافر لا يخضع لسلطة الدولة الإسلامية، وذلك لأنه من العدوان فيها فتنة المؤمن بوسائل الفتنة والإغراء، وهذا التعبير ذو مدلول واسع يشمل ـ فيما يشمل ـ كل عمل يقوم به غير المسلمين للدعوة إلى ما يرونه من عقائد وعادات وغيرها، وهنا يكون لبس بين معنى المدافعة ومعنى الطلب والابتداء في قتال الكفار، فمن غاية الطلب والابتداء في الجهاد بالسلاح عند القائلين بذلك إخضاع غير المسلمين لدولة

الإسلام وإزالة استقلالهم في الإرادة والسلطة، وهذا هو ذاته ما يتحصل من القول بمشروعية مقاتلة غير المسلمين إذا هم مارسوا إرادتهم المستقلة في الدعوة إلى عقائدهم وعاداتهم ونحوها مما قد يستجيب له بعض الناس بتأثير وسائل الجذب والإغراء دون إكراه وإلجاء، فمن يرى أن هذه الممارسة عدوان من الكفار يقاتلون بسببه شرعاً، فهو في حقيقة الأمر ممن يقول بأصل الحرب مع غير المسلمين الذين لا يخضعون لسلطة وإرادة الدولة الإسلامية.

وبهذا يتبين أن مجرد حصر الحرب المشروعة مع الكفار في الحرب التي يسببها عدوانهم على المسلمين لا يكفي لتمييز مذهب المدافعة عن مذهب الطلب والابتداء في قتال الكفار، ما لم يكن هذا قائماً على التسليم بشرعية المساواة بين الدولة الإسلامية وغيرها من الحقوق والواجبات التي تحكم العلاقة بينهما، فبهذا فقط يكون الخلاف بين من يقول بالطلب والابتداء ومن يقول بالمدافعة في قتال المسلمين لغيرهم خلافاً حقيقياً وليس لفظياً فحسب، لأن كل ترجيح لمصلحة المسلمين في علاقتهم مع الذين لا يشاركونهم المواطنة في الدولة الإسلامية من الكفار على وجه يقتضي إلجاء الكفار بقوة السلاح إلى فعل ما يريده منهم المسلمون، دون التزام من المسلمين لهم بمثله بعد ـ في الجملة ـ أخذاً بمذهب القتال مع الكفار على وجه الطلب والابتداء باعتبار أن القتال هو الأصل في العلاقة معهم.

وعلى الرغم مما يوجد في كلام كثير من القائلين بمذهب المدافعة والمسالمة من غموض بخصوص المساواة المذكورة التي تتوقف حقيقة مذاهبهم على التسليم بها، فإن منهم من يعترف صراحة بشرعية هذه المساواة، فيقرر أبو زهرة أن مبدأ المعاملة بالمثل بين الناس على اختلاف مللهم لا ينفك عن قانون العدالة ـ كما هو تعبيره ـ المعتبر شرعاً[1]، ويشير في مقام آخر إلى الإسلام بقوله: «فهو يحترم حق كل دولة في الوجود، وحقها أن تكون سيدة نفسها، وحقها في الدفاع عن أراضيها وسيادتها، ولا فرق في ذلك بين دولة راقية متحضرة وأخرى متبدية أو غير راقية»[2]. فإذا تم التسليم ـ على هذا النحو الذي

---

(١) العلاقات الدولية في الإسلام، ٣٦.

(٢) المرجع السابق، ٤٧.

جاء في كلام أبي زهرة - بشرعية مبدأ المعاملة بالمثل في الحقوق والواجبات بين الدول على اختلاف ملل رعاياها وأنظمتها ومستوياتها في التحضر ونحوه، كان في الإمكان ضبط معنى العدوان بأنه تجاوز أي طرف في معاملة الطرف الآخر ما يرضي من هذا الطرف أن يعامله بمثله، فيكون عدوان الكفار المسبب لإقامة حرب مشروعة ضدهم من جانب المسلمين هو تجاوزهم في معاملة المسلمين ما يرضون من المسلمين مثله في معاملتهم، ويكون عندئذٍ دفع العدوان محكوم بالقدر الضروري فقط لإنهاء التجاوز المذكور، وهو ما يقرره أبو زهرة أيضاً في عبارة أخرى له[1].

وعدم تصور القتال المشروع بين المسلمين وغيرهم على خلاف أحد المذهبين السابقين فقد تقدمت الإشارة إلى أنه لا يخرج شيء مما جاء عن العلماء والباحثين في الفقه السياسي الإسلامي من أقوال وآراء في أصل العلاقة بين الدولة الإسلامية وغيرها عن القول بأن الأصل في ذلك هو القتال الذي ينبغي طلب غير المسلمين به ما لم يسلموا أو يدفعوا الجزية مع الصغار، وهو قول أهل المذهب الأول، أو القول بأن الأصل في ذلك هو السلم الذي لا يجوز للمسلمين الخروج عليه في علاقتهم مع الكفار إلا دفعاً لعدوانهم، وهو قول أهل المذهب الثاني. ولكن بعض الباحثين قد اعترض على هذين المذهبين معاً، باعتبار أن الصواب يوافق مذهباً ثالثاً في الموضوع يستقل بمعناه عن كل من القول بالمدافعة في قتال غير المسلمين والقول بالطلب والابتداء في ذلك[2]، وهو ما لم نتمكن من الوقوف على حقيقة بينة له، ولا يبدو أنه من المتصور وجوده أصلاً، وذلك وفقاً لأسباب الجهاد بالسلاح أو قتال المسلمين لغيرهم التي جاء القول بها مطلقاً.

فباستقراء كل ما قيل به من أسباب الجهاد أو قتال الكفار في الإسلام، يتبين أن هذه الأسباب لا تخرج عن ثلاثة حصراً، وهي: العدوان، والكفر، وعدم الخضوع للدولة الإسلامية بدفع الجزية على وجه الصغار، ويترتب على كل سبب من هذه الأسباب ضرب من القتال المستهدف ذي المعيضة بما ينتفي السبب

---

(١) المرجع السابق، ٣٨.

(٢) فهذا هو ما يفهم من كلام عدد من المعاصرين، فانظر على سبيل المثال: محمد علي الحسن، العلاقات الدولية في القرآن والسنة، ١٠٠- ١٣٢.

بتحصيله، فالعدوان سبب لقتال مُغَياً بدفع العدوان، والكفر سبب لقتال مُغَياً بالإسلام، وعدم الخضوع لحكم الجزية مع الصغار سبب لقتال مُغَياً بحصول هذا الخضوع. وعلى هذا، فإن كل قتال مشروع ضد الكفار في الإسلام، على أي قول أو رأي لأحد من علماء الأمة سلفاً وخلفاً، لا يخرج عن القتال الذي تزول مشروعيته بزوال الأسباب الثلاثة المذكورة، لأنه لم يرد عن أحد من المسلمين وجود سبب لقتال مشروع ضد الكفار غير هذه الأسباب، ولأنه لا يصح في التصور العقلي أصلاً وجود سبب آخر يستقل في وجوده عن أحد الأسباب المذكورة سوى إرادة القتال أو القتل أو السلب ونحو ذلك لذاته، وهو ممتنع قطعاً في الشرع.

وإذا ثبت أن قتال المسلمين لغيرهم لا يكون مشروعاً عند أحد من المسلمين إذا خرج عن كونه مسبباً ببعض الأسباب الثلاثة المذكورة أو بها مجتمعة، ثبت أن كل قتال مشروع بين المسلمين وغيرهم لا يخرج عن كونه طلباً وابتداء مطلقاً وعن كونه دفعاً فقط، وذلك لما هو بين من أن الغاية من قتال الكفار بسبب كفرهم أو بسبب عدم دفع الجزية مع الصغار لا تتحقق إلا بأن يكونوا رعية للدولة الإسلامية، وذلك إما بمجرد إسلامهم أو بمقتضى عقد الذمة، مع من يجوز أن يقر على ملته منهم، وما لم تتحقق هذه الغاية فإن العلاقة المشروعة معهم هي طلبهم بالقتال أينما وجدوا، لأن سبب القتال المشروع قائم فيهم وإن كفوا أو جنحوا إلى سلم لا يزول معه استقلالهم بالسلطة على أنفسهم وبلادهم، فيكون كل من يذهب إلى قتال الكفار بأي من السببين المذكورين يذهب - ضرورة - إلى أن الأصل في معاملتهم والعلاقة معهم هو طلبهم وتتبعهم بالقتال مطلقاً ما بقي لهم استقلال عن سلطان الدولة الإسلامية، فلا يبقى بعد هذين السببين من الأسباب الثلاثة المتقدم ذكرها إلا العدوان، وهو ما لا يوجد خلاف بين المسلمين في أن القتال المسبب به قتال مشروع، ولكنه يختص عن السببين الآخرين بأن القتال المسبب به لا يمكن أن يكون طلباً وابتداء، لأن مجرد وقوع الطلب والابتداء من المسلمين للكفار بالقتال دليل يقيني على انتفاء ضده، وهو عدوان الكفار وطلبهم للمسلمين الذي يجب أن يكون - حقيقة أو حكماً - سابقاً لأي قتال مسبب به من جهة المسلمين، وذلك لما هو معلوم من وجوب تقدم السبب على مسببه وليس العكس. وبهذا يتبين أن كل من يقصر سبب الجهاد المشروع ضد الكفار على عدوانهم يذهب - ضرورة - إلى أن الجهاد

بالسلاح مشروع للدفع عن النفس فقط، وأن السلم هو الذي تقوم عليه علاقة المسلمين مع جميع الذين يعاملونهم بمثل ذلك أياً كانت مللهم أو دولهم أو شأنهم في تدبير أمورهم، ويتبين أن كل من لا يقصر سبب قتال المسلمين لغيرهم على العدوان، فإنه يرى ـ ضرورة أيضاً كما تقدم ـ أن علاقة المسلمين بكل من لا يخضع لسلطات الإسلام علاقة حرب وقتال، ويتبين أنه لا يتصور وجود غير هذين المذهبين في الموضوع. والخلاصة التي يمكن أن ننتهي إليها.

١ـ إن الأصل الذي تقوم عليه علاقة الدولة الإسلامية بغيرها، مختلف فيه بين العلماء والباحثين في الفقه السياسي الإسلامي على مذهبين متضادين، أحدهما: أن الأصل هو الحرب والقتال، وهو الذي يبدو أن سلف علماء المسلمين مطبقون على الأخذ به وفقاً لصريح عبارات كثير منهم وعدم نقل خلاف صريح بينهم في ذلك. والآخر: أن الأصل هو السلم، وهو الذي يأخذ به أو يميل إليه كثير من الباحثين المعاصرين، على اختلاف ملحوظ بين عباراتهم المفيدة من حيث التصريح ووضوح المعنى.

٢ـ إن الخلاف في أصل علاقة الدولة الإسلامية بغيرها ناشئ ـ في حقيقته ـ عن الخلاف في المقصود من تشريع الجهاد بالسلاح وسببه، فمن يرى أن الأصل هو الحرب بين مذهبه على أنه لا يخرج أحد من الناس عن أن يكون مسلماً أو غير مسلم، والمسلمون أتباع شرعيون للدولة الإسلامية وغير المسلمين ملاحقون بالقتال شرعاً بسبب كفرهم أو بسبب عدم خضوعهم لحكم الجزية والصغار، ولا يزول أي من هذين السببين إلا بزوال استقلالهم عن سلطة الدولة الإسلامية، وعلى هذا فإنه لا يتصور شرعاً وجود علاقة سوى الحرب مع كل من يخرج عن سلطات هذه الدولة. أما من يرى أن الأصل هو السلم، فإنه يبني مذهبه على أن الجهاد بالسلاح إنما شرع لحماية المسلمين من عدوان غيرهم، وعلى هذا فإن السلم هو الذي تقوم عليه علاقة المسلمين بجميع الذين لا يبادئونهم العدوان ـ حقيقة أو حكماً ـ أياً كانت مللهم أو دولهم.

٣ـ يتمسك القائلون بأصل الحرب بأدلة تعود دلالتها ـ إجمالاً ـ عندهم إلى ما يرونه في آيتي السيف والجزية من دلالة على مشروعية طلب الكفار بالقتال حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية صاغرين، وذلك على خلاف بين من يرى

إطلاق حكم آية السيف بقتال كل كافر سوى أهل الكتاب الذين صرحت آية الجزية بقبول الجزية، ومن يرى أن آية الجزية تشمل في حكمها فئات أخرى من الكفار تستغرق عند بعضهم جميع الكفار غير المرتدين.

٤ـ يتمسك القائلون بأصل السلم بما جاء من النصوص التي تخص بالقتال المعتدين على المسلمين، والتي تنهي عن الاعتداء أو بالإكراه في الدين، والتي تأمر بالكف عن المسالمين والصفح والعفو والإعراض عن الجاهلين، وهي نصوص يختلف القائلون بأصل الحرب في دفع معارضتها لمذهبهم، ولهم في ذلك ـ إجمالاً ـ قولان، وهما: القول بالنسخ، والقول بالتخصيص أو تأويل المعنى، وفضلاً عن أن كلاً من هذين القولين لا يسلم القول به ـ غالباً ـ من اعتراض بعض القائلين بأصل الحرب أنفسهم فإن أياً منهما لا يستند عند القائلين به ـ حيثما جاء القول به ـ إلى دليل مسكت للمخالف أو مانع من أن يعكس القول به على أصحابه لتأييد القول بأصل السلم.

٥ـ مع إدراك خطورة الترجيح في موضوع هذا البحث الذي تتجاذب الحكم في أدلة لا يخلو ظاهر بعضها من التعارض مع ظاهر بعضها الآخر، فإن الذي يبدو أنه الراجح في ذلك هو القول بأن الأصل في علاقة الدولة الإسلامية بغيرها هو السلم، فهذا هو ما يقتضي به النظر فيما تقدم عرضه بالتفصيل من أدلة المذهبين الواردين في الموضوع إذ تبين أن استدلال القائلين بأصل الحرب على مذهبهم مواجه بكثير من المناقشات القوية التي لم يظهر ما يدفعها، في حين أن كثيراً من الأدلة التي تثبت أصل السلم لم تعارض دلالتها على ذلك إلا بما ظهر عدم نهوض الاعتراض به عليها، ونعني بذلك كلاً من دعوى النسخ وحمل المعنى على ما لا دليل عليه من الوجود. وبذلك يمكن القول وبغير تجاوز أن علاقة الدولة الإسلامية بغيرها هو السلم، ما لم تتعرض لغيره من ضروب العدوان.

الدولة الإسلامية والعلاقات مع الآخر

من نافلة القول الإشارة إلى أن الرسول ﷺ أقام بمكة بعد مبعثه ثلاث عشرة سنة، ثم هاجر إلى المدينة وأقام بها نحو عشر سنين (٦٢٢- ٦٣٢م) يوافق (١: ١١هـ).

وبهجرة الرسول ﷺ وتوقيع صحيفة المدينة تبدأ الدولة الإسلامية وكان سكان يثرب حين هجرة الرسول ﷺ من قبيلتي الأوس والخزرج، ويطلق عليهم الأنصار لنصرتهم للنبي ﷺ، وقد اختير لهم هذا الاسم بعد الإسلام ليجمع بينهم، ويقضي على ما كان بينهم من عداء في جاهليتهم، ومن المهاجرين وهم الأصحاب الذين هاجروا إلى المدينة قبل فتح مكة، ومن اليهود الذين نزلوا يثرب وما حواليها بعد أن أجلاهم الروم من فلسطين، واتخذوا التجارة والصناعة حرفة لهم، حتى ظهروا على العرب بأموالهم، ثم عاملوهم بالربا الفاحش حتى ابتزوا كثيراً من أرضهم، فصارت لهم بهذه البلاد قوة ومنعة، وصارت لهم حصون كثيرة، وقبائل هي: بنو النضير، وبنو قينقاع، وبنو قريظة، وقد كان بين الأوس والخزرج حروب في جاهليتهم، فدخل بنو قريظة في حلف الأوس، ودخل بنو النضير وبنو قينقاع في حلف الخزرج، وقاتل اليهود بعضهم بعضاً في هذه الحروب.

فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة بطل ما كان بين أهل المدينة قبل الإسلام من المعاهدات المفرقة الظالمة، وعقد بينهم معاهدة تحقق الأغراض التي أرادها لهم، وتجعلهم أمة واحدة على أعدائهم، وكتب بها كتاباً بين المهاجرين والأنصار واليهود[1] والذي كان من بين ما فيه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم» هذا

---

(١) السياسة الشرعية في عهد النبوة للأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي، دار الفكر العربي، ص ٥٦ وما بعدها. غير مبين سنة الطبع.

كتاب محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم[١] يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم[٢] بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى[٣] وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف ـ ثم ذكر كل بطن من بطون الأوس والخزرج. . . إلى أن قال: ـ وأنه من تبعنا من يهود فله النصر والأسوة[٤] غير مظلومين ولا متناصر عليهم. . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم، وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ[٥] إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف. . ثم عدد بطوناً أخرى من اليهود. . ثم قال: وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد. . . وإن اليهود على نفقهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله. . . وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن من بينهم النصر على من دهم يثرب. . . وأن الله على ما أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ[٦].

ويستفاد من هذه المعاهدة أسس هامة منها:

١ـ **حرية العقيدة:** فقد أقر الرسول ﷺ غير المسلمين على دينهم.

---

(١) ربعتهم أو ريعاتهم على شأنهم وعادتهم من أحكام الديات والدماء.
(٢) العاني: الأسير.
(٣) المعاقل: الديات.
(٤) الأسوة: المساواة.
(٥) لا يوتغ: لا يهلك أو يفسد.
(٦) وقد جاءت في مصادر عديدة من كتب السنة وبروايات يقوي بعضها بعضاً.

٢ـ المساواة في الحقوق والواجبات:

ساوى الرسول ﷺ بين المسلمين ومن عاهدهم من اليهود في الحقوق والواجبات بقوله: «وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة». بل إن الرسول ﷺ ساوى بين اليهود أنفسهم بعضهم ببعض، ذلك أن الآيات من سورة المائدة التي قال الله فيها: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(١) يقول ابن إسحاق إنها إنما نزلت في الدية بين بني النضير وبين بني قريظة، وذلك أن قتلى بني النضير، وكان لهم شرف، يودون الدية كاملة، وأن بني قريظة كانوا يودون نصف الدية، فتحاكموا إلى الرسول ﷺ، فأنزل الله ذلك فيهم، فحملهم الرسول ﷺ على الحق، فجعل الدية سواء(٢). أي جعل دية قتيل بني قريظة كدية القتيل من بني النضير الأشراف. ويلاحظ الباحثون أن هذه الوثيقة أقرت حرمة ملكية الأفراد، أو بتعبير ابن إسحاق: «وكتب رسول الله كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم»(٣). كما تلهم الوثيقة الحرص على حرمة النفس وحق الأمن.

بما نصت عليه الوثيقة من الديات، ونصرة المتعاقدين بعضهم لبعض، وما تضمنته «وأن من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة» ـ والحق أن هذه المعاهدة فتحت فتحاً جديداً في السياسية الدينية، كما يقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدي، فأقرت حرية العقيدة، وحرية الرأي، وحرية الوطن، وحرمة الحياة والنفس والمال، ولم يحدث مثل هذه قبلها بين الأديان(٤).

ويلاحظ أن المعاهدة، وضعت قيداً على حرية التنقل (وهي من الحريات الشخصية التي تكفلها الدساتير الحديثة) وذلك بالنص على: «وأنه لا يخرج منهم

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٢.

(٢) سيرة ابن هشام، الجزء الثاني، الكتاب السابق، ص ٤٠٦.

(٣) سيرة ابن هشام، جـ ٣، ص ٣٤٨ وما بعدها.

(٤) السياسية الشرعية في عهد النبوة، الكتاب السابق، ص ٦٠ـ وبهذا المعنى أيضاً: الدكتور محفوظ إبراهيم الأستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ص ٢٠ وما بعدها، في مؤلفه: التشريع الإسلامي في مدينة الرسول ﷺ، دار الاعتصام بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م.

أحد إلا بإذن محمد» فقد منع الرسول ﷺ اليهود من الخروج من المدينة إلا بإذنه، وسبب ذلك أن الرسول ﷺ استعمل الحذر والحكمة في تقوية الجبهة الداخلية، وكان يتوقع غدر اليهود وعدم التزامهم بالعهد، فحرم عليهم الخروج من المدينة إلا بأمر منه، وحتى لا يقوم أحدهم بكشف أسرار المسلمين ويخبر قريشاً بما يود الرسول ﷺ أن يكتمه عنها(١). فإذا علمنا أن الرسول ﷺ هاجر متخفياً من مكة إلى المدينة، وكذلك أغلب المهاجرين، بعد أن حارب كفار مكة دعوة الإسلام وآذوا المسلمين في أنفسهم وأموالهم، وعلمنا أن المسلمين في حالة حرب مع مشركي العرب ـ في ذلك الحين ـ، وحالة الحرب تجيز للحاكم أن يتخذ من القرارات ما يؤمن الدولة، وهو ما تقره القوانين في العصور الحديثة، فإنه يتضح سلامة هذا القيد الوقتي الذي نصت عليه المعاهدة ـ حتى لو أخضعناه للأحكام الدستورية في العصر الحديث.

وقد كفل الإسلام حرمة المسكن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا...﴾(٢) ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾(٣) فضمن الإسلام في أوامر صريحة عامة، الأمن والسلام والكرامة للجميع(٤). ولأن النص القرآني المتقدم عام لم يخصص فيشمل بعمومه غير المسلمين في دار الإسلام.

وفي أحكام الإسلام ما يكفل هذه الحرية، فإن النفي والإبعاد عقوبة لم يذكرها القرآن الكريم إلاّ جزاءً للذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً(٥).

وفي الحديث: «وأن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب

---

(١) التشريع الإسلامي في مدينة الرسول للدكتور محفوظ إبراهيم، الكتاب السابق ص ٢٨.

(٢) سورة النور، الآية: ٢٧.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٤) الحالة الاجتماعية في الإسلام للأستاذ سيد قطب، الكتاب السابق، ص ١٠٦.

(٥) السياسة الشرعية للشيخ عبد الوهاب خلاف، الكتاب السابق، ص ٣٢ ويطلق على حرمة السكن «حرية المأوى».
عقوبة النفي نصت عليها الآية ٣٣ من سورة المائدة: إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

إلا بإذن» قال السيوطي إنه حديث صحيح[١].

وكفل الإسلام حق الأمن لغير المسلمين في الدولة الإسلامية، وذلك أن الإسلام حدد حدوداً بأوامره ونواهيه، وشرع لمجاوزة هذه الحدود عقوبات، بعضها مقدرة وهي الحدود، وبعضها موكول تقديره إلى ولاة الأمور وهي التعازير، واتفقت كلمة علماء الإسلام على أن العقوبات مما لا تثبت بالرأي والقياس، وأنها لا تثبت إلا بالنص. وما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، من النهي عن الظلم والإيذاء للمسلم والذمي، يكفل حق الأمن، كما أن الإسلام كفل حرمة النفس؛ فحرَّم التعدي على الأنفس والحرمات إلا بالحق وعاقب عليها بالقصاص أو الدية على تفصيل عند علماء المسلمين.

وفي القصاص أن رجلاً من المسلمين قتل رجلاً من أهل الذمة فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: أنا أحق من أوفى بذمته. ثم أمر به فقتل[٢] وفي الديات ما رواه الزهري قال: دية اليهودي والنصراني وكل ذمي مثل دية المسلم. وكانت على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي[٣]. ومن الملاحظ في

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي، الجزء الثاني، ص ١٢٢، الكتاب السابق. وفي الصفحة رقم ١٥٦ الحديث «لا تدخلوا بيوت أهل الذمة إلا بإذنهم».
والحديث الصحيح: هو الحديث المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه، ولا يكون شاذاً أو معبَلاً والحديث الحسن في الاحتجاج به كالصحيح عند الجمهور. وهو وسط بين الصحيح والضعيف في نظر الناظر.
أما الضعيف وهو ما لم يجتمع فيه صفات الصحيح ولا صفات الحسن، ويعمل به في فضائل الأعمال. انظر: الباعث الحثيث في شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير، تأليف أحمد محمد شاكر، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، دار التراث بالقاهرة، ص ١٧ وما بعدها، وص ٢٦ وما بعدها، سنة الرسول ﷺ للشيخ محمد حافظ التيجاني، الكتاب السابع، مجمع البحوث الإسلامية، مطبعة الأزهر سنة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م، ص ٩٦ وما بعدها.

(٢) السياسة الشرعية، الكتاب السابق للشيخ عبد الوهاب خلاف، ص ٣١، ٣٢.

(٣) مسند الإمام الشافعي، ص ٣٤٣، ٣٤٤، دار الكتب العلمية، بيروت، صححت على النسخة المطبوعة في مطبعة بولاق الأميرية والنسخة المطبوعة في بلاد الهندج وغير مبين، سنة الطبع ومسند الإمام أبي حنيفة، ص ١١٧ عن نسخة خطية لمفتي المدينة المنورة، تصحيح عبد الرحمٰن حسن محمود، مكتبة الآداب، القاهرة، سنة ١٩٨١م.

مجموع التشريعات الإسلامية المستمدة من هدي الكتاب والسنة أن حرية العقيدة الدينية أصل عام لجميع الحريات الشخصية.

وبيان ذلك أن الإسلام كفل حرية العقيدة الدينية لغير المسلمين في الدولة الإسلامية وقد قام الإسلام على روح التسامح وعدم التعصب، ولا ينسب إلى النبي ﷺ أنه حمل أحداً على اعتناق الإسلام[1].

وهو ما سار عليه الرسول ﷺ بالنسبة للأديان الموجودة في عهد النبوة، وهي اليهودية والنصرانية وكانتا ديناً لبعض أهل اليمن في جنوب الجزيرة العربية ولبعض أهل الشام في الشمال، والمجوسية، وكانت ديناً لبعض أهل البحرين في الجنوب[2].

ففي معاهدة الرسول مع نصارى نجران يقول: «...ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته. وليس عليهم دية ولا دم جاهلية.. على ألا يأكلوا الربا فمن أكل الربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة...»[3] وبمثل ذلك كتاب الرسول لعمرو بن حرام عامله على اليمن: «...ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها...»[4] وما عهد به النبي ﷺ إلى معاذ بن جبل عند ذهابه إلى اليمن أنه «لا يزعج يهودي في يهوديته»[5] وكذلك كتابه إلى المنذر في مجوس هجر بدعوتهم إلى الإسلام، ومن

---

(١) البداية والنهاية، جـ ٢، ص ٤٥١، «كتاب الديات في النفوس» لابن رشد.

(٢) السياسة الإسلامية في عهد النبوة، ص ١٨٨، الكتاب السابق للشيخ عبد المتعال الصعيدي.

(٣) مجموعة الوثائق السياسية للدكتور محمد حميد الله، الكتاب السابق، ص ٨٠، ١٠٦ وما بعدها، وثيقة رقم ٩٤، ١٠٥، الأموال لأبي عبيد، الكتاب السابق، فقرة ٥٠٢ ص ١٨. معاني الألفاظ: بيع: «كنائس النصارى، صوامع: معابد رهبان النصارى، صلوات: كنائس اليهود: كلمات القرآن تفسير وبيان للمفتي الشيخ حسنين مخلوف، ص ٢٠٧، دار المعارف، سنة ١٩٨١.

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) كتاب العقيدة والشريعة للمستشرق اليهودي جولد تسهير، ص ٣٨، وحاشية رقم ٧، ص ٢٧٩.

أبى عليه الجزية[1].

وفي السنة الثامنة من الهجرة فتح الرسول ﷺ مكة بعد أن نقضت قريش عهدها المعقود يوم الحديبية، وقد فتحت صلحاً، ولم تفتح عنوة، وقد أمنهم الرسول ﷺ على دمائهم وذراريهم وأموالهم ونسائهم إلا من قاتل أو استثنى فقط، وذلك حسبما حققه ابن حزم[2]. فلم يكره الرسول ﷺ أحداً على الإسلام، ولم يصادر حرية أحد، ولم يأمر بقتال إلا من قاتل، ولم يتعرض لأحد من ماله أو أمنه إلا من استثنى فقط لإضرارهم بالمسلمين وحربهم لهم.

ومن الواضح الجلي أن الإسلام قد كفل حرية العقيدة الدينية، لجميع الناس فقد جعل هذا المبدأ أصلاً عاماً يتفرع منه كفالته جميع الحريات الشخصية - والمعروفة دستورياً في العصر الحديث ذلك أنه لو روع الإسلام غير المسلم في نفسه أو في ماله أو في حرمة ملكه أو في مسكنه، أو في غير ذلك من الحقوق المتصلة بشخصه، لكان في ذلك شبهة التعرض له في حريته الدينية، وهو ما تأباه أحكام الإسلام، ولأنه لما كان الواجب ما طلب الشارع فعله على سبيل الإلزام. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[3]. وقد أوجب الإسلام حرية العقيدة

---

(١) مجموعة الوثائق الإسلامية، ص ٦٠ وثيقة رقم (٦١) ونفس المعنى ص ٥٨ وثيقة رقم (٥٩)، ويلاحظ أن الرسول كتب كتباً إلى حكام الدولة الرومية ولواحقها، ص ٢٣ وما بعدها، وإلى حكام الدولة الفارسية ولواحقها ص ٥٣ وما بعدها، وإلى القبائل العربية ص ١٣٨ وما بعدها، وفيها جميعاً يدعو إلى الإسلام بالتي هي أحسن، ولم يكره أحداً.

(٢) جوامع السيرة. الكتاب السابق، ص ٢٢٩، ٢٣٠، وراجع ذكر الأسباب التي أوجبت السير إلى مكة، ص ٢٢٣ وما بعدها والجزء الرابع من سيرة ابن هشام، الكتاب، ص ٨٥١ وما بعدها، وذكر من استثناءهم الرسول ﷺ من الأمان، ص ٢٣٢ وما بعدها، من جوامع السيرة، ص ٨٦٧ وما بعدها من سيرة ابن هشام الجزء الرابع، ولما نزل الرسول ﷺ مكة، واطمأن الناس قام على باب الكعبة فقال: «يا معشر قريش، أن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء والناس من آدم. . . ثم تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ١٣ من سورة الحجرات. . الآية كلها. ثم قال يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ص ٨٩٦ وما بعدها، سيرة ابن هشام.

(٣) أصول الفقه الإسلامي للدكتور محمد سلام مدكور، ص ٢٦، ٣٢٨، الكتاب السابق.

لجميع الناس من غير المسلمين في مجتمع المسلمين، وتحت سلطانهم ولذلك من الواجب الذي فرض على المسلمين ألا يتعرضوا لكل ما يمس غير المسلمين في حريتهم الأساسية (حرية العقيدة) أو ما يكون شبهة في التعرض لهذه الحرية، من التعدي على الحقوق الشخصية لهم: في النفس أو المال أو السكن. . .

وللعلماء أقوال في سبب نزول الآية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾. منها: أنها نزلت في الأنصار كانت المرأة تجعل على نفسها. أي تلزم نفسها نذراً إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا. أو قالوا: إنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن فيه، أما إذا جاء الإسلام فنكرههم عليه. فنزلت الآية. ودخول الألف واللام للتعريف لأن المعنى لا إكراه في الإسلام. وفي قول آخر يكون التقدير لا إكراه في دين الإسلام. فمن شاء التحق بهم (أي باليهود أو غيرهم) ومن شاء دخل في الإسلام[1]. والنبي ﷺ لم يمنع قبل فرض الجهاد ولا بعده وثنياً في دين أهل الكتاب، بل ولا يهودياً تنصر أو نصرانياً تهود، أو مجوسياً دخل في التهود أو التنصر[2].

ووجد المسلمون بعد فتح خيبر نسخاً من التوراة، فأمر الرسول ﷺ بردها إلى اليهود[3] وهذا يبين كفالة الإسلام لحرية الرأي والعقيدة وكذلك حرية التعليم

---

(١) كتاب الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٣هـ، مطبعة السعادة بمصر، ص ٨٠، الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي، الكتاب السابق، جـ ٣، ص ٢٧٩ـ ٢٨١ وأورد القرطبي ستة أقوال للعلماء من بينها الرواية الثابتة بالمتن وهي عن ابن عباس، وقال النحاس والقرطبي إنها أقوى الأقوال، ويلاحظ أن ما بين القوسين زيادة الإيضاح.

(٢) أحكام أهل الذمة لابن القيم، القسم الأول، ص ٧٠، الكتاب السابق.

(٣) إمتاع الأسماع للمقريزي، جـ ١، ص ٣٢٣، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، سنة ١٩٤١م، وذلك نقلاً عن: أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام للدكتور عبد الكريم زيدان، ص ١٠١ والهامش، وعن أحكام أهل الذمة لابن القيم، القسم الأول، مقدمة التحقيق للدكتور صبحي الصالح، ص ٢٣ والهامش.

وتجدر الإشارة أن حقوق الأفراد الأساسية من حيث جوهرها أو موضوعها، المسائل الدستورية، فهي من المسائل المتصلة اتصالاً وثيقاً بنظام الحكم في الدولة. والمقصود بحقوق الأفراد: الحرية والمساواة بأنواعها المختلفة. وألا تمس الحكومة =

لغير المسلمين. والجدير ذكره، ولا بد من تناوله هنا وهو موضوع الجزية الذي اعتبر مدخلاً للزعم بعدم المسالمة بين المسلمين وغيرهم في مجتمع المسلمين وذلك لأن آية الجزية: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[1] إنما نزلت في السنة التاسعة بعد الهجرة، أي بعد فتح مكة، وشرع في الآية عقد الذمة وفرض الجزية[2]. أورد القرطبي خمسة عشر مسألة في هذه الآية، منها أن الله جعلها عوضاً للمسلمين بما قطع عنهم من التجارة التي كان المشركون يوافون بها، لما منع المشركين أن يقربوا المسجد الحرام ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً...﴾[3] ولم يذكر الله في كتابه مقدار الجزية، واختلف العلماء في مقدارها، فقال بعضهم إنه لا توقف فيها وإنما هي على ما صولحوا عليه.. وتؤخذ الجزية من الرجال المقاتلين دون النساء والذرية والعبيد والمجانين والشيخ الفاني، وبأداء أهل الجزية جزيتهم لم يؤخذ منهم شيء من ثمارهم ولا تجارتهم ولا زروعهم، إلا أن يتجروا في بلاد غير بلادهم فيؤخذ العشر. وأن من عجز عن الجزية تسقط عنه، ولا يكلف الأغنياء بأدائها عن الفقراء. هذا وضع

= حرية المعتقدات الدينية، راجع في ذلك: المفصل في القانون الدستوري، الجزء الأول، ص ١٨، ٣٠١ وما بعدهما. ويلاحظ أن الحرية الشخصية تتميز بخصائص ثلاثة حق الأمن، وحق المسكن، وحرية التنقل.

راجع: النظرية السياسية والقانون الدستوري للدكتور فؤاد العطار، سنة ١٩٧٤، دار النهضة العربية، ص ٤٨٣ وما بعدها ويلاحظ في هذا الصدد أن من يرى من علماء القانون الفرنسيين مثل الأستاذ «بريلو» استبعاد موضوع حريات الأفراد عن القانون الدستوري، فإنه يرى رغم ذلك أن تلك الحريات سواء كانت موجودة أو معدومة أو مقيدة فهي من مميزات الأنظمة الدستورية، حيث يقول عن الحريات العامة:

Elles caracterisent, alors, par leur presence, leur limitation our leur absence (carilyades consitiutions sans liberes les divers systeme consitutionels leu edudes' incorpore nature? Illementacelle regimes politiques Prelot, precis de droit Constinutinnel ed 1949 p.17.18.

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، جـ ٨، ص ١٠٩ حتى ١١٦. ويقول ابن القيم إن المسلمين لو حاصروا حصناً ليس فيه إلا نساء فبذلن الجزية لتعقد لهن الذمة عقدت لهن بغير شيء وحرم استرقاقهن، ص ٤٣، أحكام أهل الذمة، القسم الأول، الكتابان السابقان.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

الجزية في أصلها التاريخي للقادر على دفعها، وأما الفقير فلا شيء عليه منها، بل إنه يعطى من مال المسلمين.

وحرية العقيدة مثل حرية الرأي لغير المسلمين، فقد نهى المسلمين أن يؤذوا غيرهم بالطعن والسب فيهم ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[1] ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2]، [3] فيكون الإسلام أباح لأهل الأديان الأخرى أن يجادلوا المسلمين ويناظروهم في الدين إذا رغبوا في ذلك.

والجزية (لغة) وزنها فعلة، من جزى يجزي إذا كافأ عما أسند إليه، فكأنهم (أي أهل الذمة) أعطوها جزاء ما منحوا من الأمن[4].

وهي في اللغة خراج الأرض، فأخذت جزية الذمي منه، وليس فيها ما يشعر بشيء آخر غير هذا المعنى، والإسلام لا يأخذ الجزية من غير المسلمين عقاباً لهم، فهم يتمتعون في الدولة الإسلامية بالحقوق الوطنية التي يتمتع بها المسلمون، فكان لهم فيها ما للمسلمين، وعليهم فيها ما عليهم، وهذا هو أصل المساواة الذي جاء به الإسلام قبل أن يجيء به غيره، ولأن الإسلام دين يدعو الناس بالتي هي أحسن، فيأخذهم بالسلم لا بالقتل، أما قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا﴾ الآية ٢٩ من سورة التوبة فقد ورد في قوم حاربوا المسلمين، وهم نصارى الشام من العرب والروم فأُمر المسلمون بقتالهم إلى أن يعطوا الجزية وهم خاضعون لهم، فلا يفيد قوله ﴿صَاغِرُونَ﴾ إلا معنى الخضوع وإيثار السلم على الحرب، وليس فيه شيء من الذلة والمهانة، ولأن الإسلام لا يقصد إذلال الناس ولا إهانتهم، وإنما يقصد إرشادهم وهدايتهم[5].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٣) السياسة الإسلامية في عهد النبوة، الكتاب السابق، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، ص ١٩٤.

(٤) الجامع لأحكام القرطبي، الكتاب السابق، ص ١١٤، وما بين القوسين إضافة لإيضاح المعنى.

(٥) السياسة الإسلامية في عهد النبوة، الكتاب المشار إليه، ص ١٨٨ـ ١٩٢، وأبطل ابن القيم كل قول بأن المقصود بالصغار إهانتهم وإذلالهم، وقال بأنه لا دليل عليه، ولا هو مقتضى الآية ولا نقل عن الرسول ﷺ ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك، =

ولما كان القتال مما شرع له في الإسلام رد العدوان فلا يمكن أن يحتج على جنوح الإسلام للشدة مع أهل الأديان بآيات القتال، لأنها وردت فيمن يقاتله من أهل الأديان فلا يدخل فيهم من يجمعهم والمسلمين ذمة واحدة ووطن واحد[١].

ويبين من ذلك أن الإسلام وقد كفل الأمن لغير المسلمين في الدولة الإسلامية ـ والأمن هنا بمعنى كفالة الحريات الشخصية بالمعنى المتقدم ـ فإن فرض الجزية لا يتعارض مع هذه الحريات، إذ المقصود من الجزية قبول غير المسلمين أحكام الإسلام في الدولة الإسلامية التي تجمعهم سوياً. كما أن في قصر إلزام الرجال المقاتلين فقط بالجزية وأنه لا يلزم بها سواهم من غير المسلمين، بل هم أنفسهم إذا أصبحوا شيوخاً ـ أي ليسوا من عداد المقاتلين ـ فإنها تسقط عنهم، كما لا تفرض على غير القادرين (ولو كان في عداد الرجال المقاتلين). ولأنه ترد إليهم إذا لم يتمكن المسلمون من حمايتهم والدفاع عنهم ـ كما حصل في الشام في عهد عمر بن الخطاب[٢]. ولكل ما تقدم فإنه يبين بجلاء أن الجزية كانت مقابل بقائهم

= وقال: الصواب في الآية أن الصغار هو التزامهم لجريان أحكام الملة عليهم، (أحكام أهل الذمة، القسم الأول، ص ٢٣، ٢٤) ويقول: السير أرنولد: لم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة ـ يقصد الجزية ـ على المسيحيين، كما يريدها بعض الباحثين على الظن، لوناً من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كان يؤدونها مع سائر أهل الذمة وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين.. (الدعوة إلى الإسلام، ص ٧٩).

(١) السياسة الإسلامية في عهد النبوة، الكتاب السابق، ص ١٩٤.

(٢) الدعوة إلى الإسلام للسير توماس أرنولد، الكتاب السابق، ص ٧٩ وما بعدها وذكر أن خالد بن الوليد سجل في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للجزية قوله: «فإن منعناكم قبلنا للجزية وإلا فلا» ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعت في حكم الخليفة عمر. لما حشد الإمبراطور هرقل جيشاً ضخماً لصد قوات المسلمين، وركز المسلمون كل نشاطهم في المعركة، فكتب أبو عبيدة إلى عمال المدن المفتوحة في الشام أن يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبي من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول: «إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وأنكم قد اشترطم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا

على دينهم ودخولهم في المسلمين والدفاع عنهم.

وذلك يرجع إلى أن المسلمين لم يكونوا - في صدر الإسلام لأسباب دينية - يأمنون جانبهم.

واللافت للنظر أنه على الرغم من أن المسلمين في عصر صدر الإسلام تعرضوا لخوض غمار عدة معارك مع المشركين واليهود والنصارى إلا أنه بمجرد أن وضعت الحرب أوزارها ظهرت واستقرت قواعد وضوابط الحقوق والواجبات لجميع أهل دولة الإسلام، والتي تتمثل في جملة من المبادئ والتي من أهمها: ما نعرضه في الصفحات التالية.

وبينكم أن نصرنا الله عليهم» وذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة، فدعا المسيحيون لرؤساء المسلمين وقالوا: ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أي على الروم)، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقي لنا».

حرمة مال العدو في الإسلام

فقد أسلم أحد الرعاة وكان أجيراً على غنم مملوكة ليهودي، وذلك أثناء حصار الرسول لبعض حصون خيبر، فسأل هذا الراعي الرسول عما يفعل بهذه الغنم، فأمره الرسول بأن يضرب في وجوهها، فإنها سترجع إلى ربها (أي صاحبها داخل الحصن المحاصر فأخذ حفنة من الحصى فرمى بها في وجوهها. . .)، حتى دخلت الحصن[1].

ويدل أمر الرسول للراعي أن يحفظ الغنم، وهي أمانة عنده، وهو أجير عليها لصاحبها اليهودي، ثم أمره للراعي أن يرجعها إلى صاحبها هذا، وهو محارب للرسول ويدخلها عليه في حصنه المحاصر، أقول: إن هذا يدل بوضوح على مدى حرص الرسول على حرمة المال حتى ولو كان لعدو محارب، وهذه سنة له لمن معه ومن بعدهم من المسلمين.

أ ـ حرمة النفس:

بعد فتح خيبر، دخلها عبد الله بن سهل مع أخ له، ثم خبر أخوه أنه قتل وطرح في بئر أو عين، فأتى يهود فقال: أنتم والله قتلتموه، فأنكروا ذلك، فجاء إلى الرسول مع بعض الأنصار وأخبره بذلك، فكتب الرسول إلى اليهود في ذلك، فكتبوا أنهم ما قتلوه، فوداه الرسول من عنده وبعث إلى أولياء القتيل بمائة ناقة[2].

ويقول ابن حزم[3] في ذلك: «ووجد أصحابه قتيلاً من خيارهم وفضلاء

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ ٣، ص ٨٠٦.

(٢) راجع في تفصيل ذلك: مسند الإمام الشافعي، الكتاب السابق ص ٣٤٩، ٣٥٠، صحيح البخاري، جـ ٤، الكتاب السابق، ١٩٢، الموطأ للإمام مالك، الكتاب السابق، ص ٥٤٦، قال مالك: الفقير هو البئر، نفس الصفحة.

(٣) جوامع السيرة، الكتاب السابق، ص ٤١. =

أصحابه، يهدد البلاد العظيمة فقد مثله، فلم يحف لهم من أجله على أعدائه من اليهود الذين وجدوه مقتولاً بينهم، بل وداه مائة ناقة من صدقات المسلمين، وإن بأصحابه لحاجة فقير إلى بعير واحد يتقوون به».

ولا شك أن الشبهات القوية، والقرائن الدالة، تحوم حول يهود خيبر إذ وجد الصحابي قتيلاً بين أظهرهم، وألقي في بئر لهم، ومع وضوح عداوتهم للرسول وللمسلمين، وعقب غزوة خيبر، ولكن الرسول حفاظاً على حرمة النفس، وصدق عدالته مع أعدائه، لم يأخذهم بهذه الشبهات القوية، وحق له أن يفعل، بل إنه يؤدي الدية من مال المسلمين لأولياء المقتول، وفي هذا كله الدليل القوي على محافظة الرسول على حرمة النفس لأعدائه حتى ولو كانوا محاربين، كما أنه حفظ عليهم مالهم.

ب ـ حرمة الملكية:

لا يقبل الإسلام غدراً أو مصادرة لأموال غير المسلمين، ولو كانوا في حالة حرب مع المسلمين، يدل على ذلك ما رواه البخاري من أن المغيرة بن شعبة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء»[1].

وهذا يدل على أن الرسول يقرر مبدأ حرمة الملكية لغير المسلمين سواء

= وإن كان ابن حزم لم يذكر أن ما كتبه خاصاً بهذه الواقعة المذكورة بالمتن، إلا أنني لم أجد في كتب السيرة أو الفقه أو الحديث التي تيسر لي الاطلاع عليها ـ واقعة غيرها يصدق عليها وصف ابن حزم. حاف عليه: ظلم وجار عليه. هامش ص ٤١ من جوامع السيرة. والحيف. الجور والظلم: مختار الصحاح، الكتاب السابق، ص ١٦٥ مادة: ح ي ف. يقول ابن حزم: «إن سيرة محمد ﷺ لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة، وتشهد له بأنه رسول الله حقاً، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته لكفى».

راجع مقدمة المحققين لجوامع السيرة ص ٦ والهامش. ويلاحظ أن كل مرسل نبي وليس كل نبي مرسلاً. راجع ذلك في: من الأشياء والنظائر في القرآن الكريم للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل، مطبوعات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف بمصر ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م، ص ٦٦، و٨٩ وما بعدها.

(١) صحيح البخاري، الجزء الثاني، الكتاب السابق، ص ١٢٠، ١٢١.

أكان أهل الكتاب أو كان صاحبه مشركاً أو كافراً[1].

وقرر الإسلام لغير المسلمين التعامل في الأشياء بيعاً وشراء وهبة وغير ذلك من أنواع التصرفات، وأوجب على المسلمين ألا يتعرضوا لأموالهم بالإتلاف وإلا ضمنوا ما أتلفوه منها، وكان بعض الصحابة يعملون في بساتين اليهود بالأجر[2]. فالإسلام يقرر لغير المسلمين حق الملكية، ولا يستولي على أموالهم، ولا يجد بعض الصحابة حرجاً أن يعملوا بالأجر عند غير المسلمين الذين ينكرون الإسلام ورسالة رسول الإسلام.

---

(١) ويقول أبو جعفر النحاس في هذه المسألة: «لا يحل أخذ مال المشركين عند الأمن وإذا كان الإنسان مصاحباً لهم فقد أمن كل واحد منهم صاحبه فسفك الدماء وأخذ المال عند ذلك غدر محظور وأموال الأبرار والفجار لهم، يستوون في ذلك، لا يؤخذ منها شيء إلا بالحق..» ص ٢٤٥، الناسخ والمنسوخ، الكتاب السابق. المشرك هو من عبد مع الله غيره، والكفر في اللغة الجحود والنكران. والكافر أعم من المشرك. راجع: العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين، ص ٢٨ وما بعدها للدكتور بدران محمد بدران.

(٢) الفقه الإسلامي: نظام الإسلام في العلاقات الدولية، تأليف ستة من الأساتذة بكلية الشريعة، جامعة الأزهر، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩١هـ ١٩٧٢م، مطبعة دار التأليف، ص ٩١، ٩٢.

علاقات الود بين المسلمين وغيرهم

لا ينهى الإسلام عن البر بغير المسلمين والتودد لهم في الظاهر، ما دام أن ذلك لا ينشأ عنه الضرر بجماعة المسلمين، أو يترتب عليه انحلال الجماعة الإسلامية، أو ضعف الدولة الإسلامية. وأورد فيما يلي بعض الحقائق الدالة على ذلك:

أ - أصاب القحط أهل مكة، وهم قائمون على عداوتهم للإسلام ونبي الإسلام، فبعث النبي ﷺ إليهم مالاً ليوزع على فقرائهم(١).

ب - لما شرط أهل مكة في صلح الحديبية على أنه لا يأتي الرسول رجل منهم وإن كان على دين الإسلام إلا رده إليهم، وجاء الرسول بعض من أسلم فرده إليهم، إلا أنهم فروا منهم واعتصموا بسيف البحر في موضع على طريق قريش إلى الشام، فاعترضوا تجارة قريش وآذوهم، فأرسلت قريش إلى النبي تناشده الرحم، وطلبوا منه أن يضمهم إلى المدينة، فضمهم الرسول إلى المسلمين في المدينة ومنع أذاهم عن أهل مكة(٢) وهم ما زالوا مقيمين على الشرك بالله والكفر برسالة الإسلام.

ج - خرج أحد المسلمين إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة طعاماً، فلقيت قريش من ذلك عنتاً وشدة، وعجزوا عن التأثير في قوم هذا المسلم - بني حنيفة، فكتبوا إلى النبي يستشفعونه، فرق لهم وطلب إليه أن يخلي بينهم وبين ما يطلبونه، فعادت القوافل إلى مكة(٣).

---

(١) شرح السير الكبير للشيباني، الكتاب السابق، الجزء الأول، ص ١٤٤.

(٢) صحيح البخاري، الكتاب السابق، جـ ٢، ص ١٢٣، جوامع السيرة لابن حزم، الكتاب السابق، ص ٢١١، ٢١٠، الناسخ والمنسوخ، الكتاب السابق، ص ٢٤٦.

(٣) روح الإسلام، جـ ١، الكتاب السابق، للسيد أمير علي، ص ١٦٩. اليمامة تقع بين =

د ـ تصدق الرسول بصدقة على أهل بيت من اليهود[1]. وسألت أسماء (بنت أبي بكر) رسول الله حينما قدمت عليها أمها وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم (أي في صلح الحديبية) إذا كانت تصلها قال: نعم صلي أمك[2]. وتصدقت صفية زوج النبي ﷺ على ذوي قرابة لها، وهما يهوديان، ولم يمنعها النبي من البر لغير المسلمين[3].

وأرسل النبي إلى عمر بحلة، فأرسل بها عمر إلى أخ له من أهل مكة قبل أن يسلم[4]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾[5] أن الرسول كان يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول له: أحسن إليه فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه... ولم يكن الأسير يومئذٍ إلا من المشركين، وقد حمد الله على إطعام المشركين[6]. وكان الرسول يتألف قلوب غير المسلمين بالعطاء[7].

= نجد واليمن وهي تتصل بالبحرين شرقاً وبالحجاز غرباً. راجع فيما تقدم، فجر الإسلام، الكتاب السابق، لأحمد أمين، ٤، ٣ ومهد العرب، الكتاب السابق، للدكتور عبد الوهاب عزام، ص ٣١ وما بعدها، أسماء القبائل وأماكنها في الجزيرة العربية.

(١) الأموال لأبي عبيد، الكتاب السابق، البندان رقما ١٩٩٢ و١٩٩٣، ص ٦٦٣.

(٢) صحيح البخاري، الكتاب السابق، جـ ٤، ص ٤٨، ٤٩.

(٣) الأموال لأبي عبيد، الكتاب السابق، ص ٦١٧.

(٤) صحيح البخاري، الكتاب السابق، جـ ٤، ص ٤٨، ٤٩.

(٥) سورة الإنسان، الآية: ٨.

(٦) الأموال، الكتاب السابق، الصفحة المذكورة، صفوة التفاسير، المجلد الثالث، الكتاب السابق، للأستاذ محمد علي الصابوني، ص ٤٩٣.

(٧) الآية ٦٠ من سورة التوبة: إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾. والمؤلفة قلوبهم منهم من لم يكن أسلم بعد وفيهم منعة وضرر على الإسلام، ومنهم قوم أسلموا ولم يكن إسلامهم قوياً، فللإمام أن يستميلهم بالعطاء. راجع فيما تقدم: الأموال، الكتاب السابق، ص ٦٠٦، ٦٠٧، الناسخ والمنسوخ، الكتاب السابق، ص ١٧٢ وتعليل الأحكام للدكتور محمد مصطفى شلبي، ص ٨٧ و٣٢٦.

زواج المسلم بالكتابية وحرية عقيدتها

أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية، نصرانية كانت أم يهودية، لما بين المسلمين وأهل الكتاب من مظنة تقارب في العقيدة، إذ إن الأصل في الكتابية أنها تعترف بالله، وتؤمن به، كما تؤمن بالنبي، وباليوم الآخر، وأنه دار العقاب والثواب، وتقر بكتاب سماوي، فهذا التقارب يمكن أن يتحقق معه مقاصد الزواج وأغراضه من التعاون والتآلف وتبادل المودة والرحمة... وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها... ولم يفرق الدين في حقوق الزوجة، بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية، كما أن صلة المصاهرة تربط بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة، وتقوم الألفة بين الأولاد وأخوالهم وذوي القربى لوالدتهم[1].

---

(١) قد يقال إذا كان الإسلام أباح للمسلم أن يتزوج بالكتابية للمعاني السابق ذكرها فلماذا لم يسمح للكتابي أن يتزوج بالمسلمة لهذا الغرض؟ والجواب أن الرجال قوامون على النساء لأنهم هم الأقوى، فليس من العدل ولا الرحمة أن يسمح لغير المسلم الزواج بمسلمة، ودينه يأمره ببغضها وبغض أولادها إذا كانوا على غير عقيدته، ولأن الكتابي لا يؤمن بنبوة محمد، ولا يعتقد برسالته، ولا يعترف بالدين الإسلامي فهو لا يتحرج عن سب دينها، وتسفيه عقيدتها، فيؤذيها في شعورها وعقيدتها وتسوء العشرة بينهما، وقد يحملها على ترك دينها واعتناق دينه، بخلاف المسلم فإنه لا يحاول حمل زوجته الكتابية على ترك دينها واعتناق الدين الإسلامي، لأنه يؤمن بنبوة موسى وعيسى، راجع فيما تقدم: الإسلام والنصرانية، الكتاب السابق، للشيخ محمد عبده، ص ٦٧ وما بعدها، أحكام الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية للأستاذ عمر عبد الله، الطبعة السادسة، سنة ١٩٦٨، دار المعارف، ص ١٨٤ وما بعدها، ويلاحظ أن الشريعة اليهودية لا تجيز لليهودية التزوج بغير يهودي، كما أن اختلاف الدين من موانع الزواج في التشريع المسيحي ويعتبر زواج المسيحية من غير المسيحي زواجاً باطلاً، راجع فيما تقدم العلاقات الاجتماعية بين المسلمين، للدكتور بدران أبو العينين، الكتاب =

وما يهم في هذه الدراسة بيان أن الإسلام حريص على قيام المودة بين المسلمين وبين أهل الكتاب من إباحة زواج المسلم بالكتابية، وأرى أن في ذلك ما يدفع الزعم بأن فرض الجزية قصد به أي إذلال أو إهانة لغير المسلمين، إذ إن رابطة المصاهرة وما تحدثه من علاقات إنسانية تمنع أن تكون نظرة المسلم لأبوي زوجته الكتابية نظرة احتقار أو إذلال، وكذلك الشأن لأقاربها، فإن ما يسوؤهم يلحق به العار والأذى، وكذلك بأولاده منها، ولا يعقل أن يكون ذلك من مقاصد الإسلام.

= السابق، ص ٢٣٠ وما بعدها، أحكام الزواج المسيحي للدكتور مصطفى الجمال، طبعة سنة ١٩٨٣، ص ١٣٩ وما بعدها.

الإسلام لا يوصي بالتباعد عن غير المسلمين

الإسلام يحرص على الود والعلاقات الاجتماعية مع غير المسلمين، وما يظهر من أحكام الإسلام دالاً على ممارسة نوع من الحرص في معاملة غير المسلمين إنما كان في بدء الدعوة وأثناء الحروب التي فرضت على المسلمين ونقض العهود والتربص للمسلمين.

مثال ذلك قول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾[1]، فالقرآن لا ينهى المسلمين عن البر بهؤلاء الذين لم يحاربوهم لأجل دينهم، ولم يخرجوهم من أوطانهم، وهذه الآية عامة محكمة، وبر المؤمن من بينه وبينه نسب أو قرابة من أهل الحرب غير منهي عنه ولا محرم. وسبق ذكر صلة الأب أو الأخ المشرك.

إنما ينهى الإسلام عن صداقة ومودة الذين ناصبوا المسلمين العداوة، وقاتلوهم لأجل دينهم وأعانوا أعداءهم على إخراج المسلمين من ديارهم[2].

وكذلك الشأن في الآية: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ

---

(١) سورة الممتحنة، الآيتان: ٨، ٩.

(٢) الناسخ والمنسوخ، الكتاب السابق، ص ٢٣٦، والعام هو اللفظ الدال على أفراد غير محصورين على سبيل الشمول والاستغراق كلفظ الرجال والنساء راجع أصول الفقه الإسلامي للدكتور مدكور، ص ٢١٨ وما بعدها، وأصول الفقه الإسلامي للدكتور شلبي، ص ٢٣ وما بعدها ومحكمة أي حكمها باق لم ينسخ والنسخ أن يكون الشيء حلالاً ثم ينسخ فيجعل حراماً أو يكون محظوراً فيجعل مباحاً. الناسخ والمنسوخ، ص ٢ وما بعدها.

بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾(١)،(٢) فقد قصد بها أولئك المنافقون الذين كانوا في عصر الرسول، يوالون المشركين وينبئونهم بأسرار المؤمنين، أو هؤلاء الذين خشوا أن تدور الدوائر على المسلمين بعد غزوة أحد، ففكر بعضهم أن يلحق باليهود أو بالنصارى، فنزلت الآية نهياً عن ذلك(٣).

والآيـة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾(٤). النهي الوارد بها عن اتخاذ المؤمنين خواص يستنبطون أمرهم، ويكونون موضع ثقتهم، كان مقصوراً على من ظهرت عداوتهم للمسلمين. كبني النضير الذين حاولوا قتل الرسول في أثناء ائتمانه لهم لما كان لهم من عهد وحلف. وعرفوا بالغش للإسلام وأهله، أما من لم يظهر منهم عداء للمسلمين، فلا يشملهم النهي الوارد بالآية... والإسلام جاء بالحكم المتقدم حينما كان جميع الناس حرباً على المسلمين، وهي قيود للمسلمين لاتخاذهم بطانة يستودعون الأسرار ويستعان برأيهم وعملهم في شؤون الدفاع وصون الحقوق ومقاومة الأعداء(٥). ومن المعروف أن غير المسلمين تولوا الكثير من الوظائف العامة في الدولة الإسلامية.

ويتبين مما تقدم أنه غير صحيح قول بعض المستشرقين أن الإسلام يوصي

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٢) صفوة التفاسير، للصابوني، الكتاب السابق، المجلد الثالث، ص ٣٦٣، ٣٦٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، جـ ٦، ص ٢١٦ وتفسير المنار لرشيد رضا، جـ ٦، ص ٤٢٣، ٤٢٥ الكتابان السابقان.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٨.

(أ) البطانة: خواص يستنبطون أمركم. أو هو الذي يعرفه الإنسان بأسراره ثقة به، شبه في التصاقه بصاحبه ببطانة الثوب.

(ب) لا يألونكم خبالاً: لا يقصرون في فساد دينكم، والألو: التقصير، ودوا ما عنتم: أحبوا مشقتكم الشديدة، والعنت هو شدة الضرر والمشقة، راجع فيما تقدم: كلمات القرآن تفسير وبيان للأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف، ص ٤٢، والمصحف المفسر للأستاذ محمد فريد وجدي، ص ٨٧، الكتابان السابقان.

(٥) جامع البيان للطبري، الكتاب السابق، جـ ٤، ص ٦٠ـ ٦٤ وتفسير المنار للشيخ رشيد رضا، جـ ٤، ص ٨٣، ٨٤.

بالتباعد عن غير المسلمين[١].

والإسلام في أحكامه العامة بالنسبة لغير المسلمين في مجتمع المسلمين لا يخالف التشريعات في العصر الحديث بل شأنه في ذلك شأن الدول التي تحافظ على أسرارها، وتسعى إلى القوة وتبعد أسباب الضعف والانحلال، ومن المعلوم أن الدول ـ في جميع العصور ـ تحاكم على الجاسوسية والخيانة العظمى، حفاظاً على كيانها ووحدتها.

ونرى حرص الرسول على حسن معاملة غير المسلمين، حينما قدم عليه وفد النجاشي (ملك الحبشة، وهم نصارى) فقام النبي ﷺ يخدمهم. فقال له أصحابه: نحن نكفيك هذا. فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإني أحب أكافئهم[٢].

وكان آخر ما تكلم به النبي أنه قال: «احفظوني في ذمتي»[٣].

وينص الشيباني على أن الذمي من أهل دار الإسلام بالتزامه أحكام الإسلام[٤] ويعلل بعض الفقهاء مساواة الذمي للمسلم في بعض التكاليف المالية بأن الذمي بعقد الذمة صار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم[٥].

ويتضح من ذلك أن معاملة الإسلام لمن لا يدينون به من أهل الذمة، قامت منذ العصر الأول على قاعدة أصلية: لهم ما لنا وعليهم ما علينا[٦]. ويكون حكم الإسلام في معاملة رعايا الدولة الإسلامية أنهم ـ كأصل عام ـ كالمسلمين سواء في الحقوق والواجبات، إلا ما كان مرتبطاً بالعقيدة الإسلامية، فهم وما يدينون به، ولا يكرهون على شيء آخر في هذا الأمر لا يرضونه.

---

(١) حضارة الإسلام: جوستاف جروبينام، من مجموعة الألف كتاب سنة ١٩٥٦، ترجمة عبد العزيز توفيق ومراجعة الأستاذ عبد الحميد العبادي، ص ٢٢٨ وما بعدها.

(٢) راجع في ذلك: مجلة الأزهر، الجزءين التاسع والعاشر، السنة الثامنة والثلاثون ذو القعدة وذو الحجة، سنة ١٣٨٦هـ فبراير ومارس سنة ١٩٦٧م، مقال للأستاذ محمد أبو شهبة، ص ٩٨٨، ٩٩١، وما بين القوسين زيادة للإيضاح.

(٣) الأحكام السلطانية للماوردي، الكتاب السابق، ص ١٦٦ وسبق ذكره.

(٤) شرح السير الكبير، جـ ١، ص ٢٠٧.

(٥) البدائع للكاساني، جـ ٢، ص ٣٧، وشرح السير الكبير، جـ ٣، ص ٣٥٠ الكتابان السابقان.

(٦) التعصب والتسامح، الشيخ محمد الغزالي، ص ٤٧.

معاملة الآخر عصر الخلفاء الراشدين

سار الخلفاء الراشدون على سنة الرسول في معاملة أهل العقائد الأخرى في الدولة الإسلامية، والمحافظة على أموالهم وأنفسهم وملتهم وبيعتهم، وما أعطاه الرسول من كتب إليهم.

وبعد أن توسعت الدولة الإسلامية في الدول والإمارات التي حاربت الإسلام وأظهرت عداوتها له مثل دولة الفرس والروم، وأمارتي الحيرة والغساسنة، فقد اتبع الخلفاء بشأنها سنة الرسول المشار إليها.

ومثال ذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلي أوفوا لأهل نجران بعهد الرسول إليهم سالف الذكر[1]. وذلك بالرغم من نقضهم العهد في زمن عمر، إذ إنهم اتخذوا الخيل والسلاح، كما أصابوا الربا، بعد أن عاهدوا الرسول على عدم محاربة المسلمين وترك الربا، فخافهم عمر على المسلمين وأجلاهم عن نجران اليمن وأسكنهم نجران العراق (قرية بالكوفة)[2].

---

(١) راجع ما سبق، ص ١٥٠، هامش (٢٣).

(٢) الخراج لأبي يوسف ص ٧٩ وما بعدها، الأموال لأبي عبيد فقرة ٥٠٣، ص ١٨٩ مجموعة الوثائق السياسية أرقام ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٤ ص ٩٦ وما بعدها، الكتب السابقة. وقد أوردت هذه المصادر نصوص العهود وفيها: أن أبا بكر أجار أهل نجران بجوار الله وذمة محمد النبي رسول الله ﷺ وكتب لهم كتاباً نحواً من كتاب الرسول. وكذلك شأن عمر وعثمان وعلي ولما أجلاهم عمر كتب إلى من مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق أن بوسعهم من حرث الأرض (أي أمر الأمراء بمساعدتهم وإعطائهم ما يحتاجون إليه) كما أمر المسلمين بنصرهم على من ظلمهم، ووضع عنهم الجزية أربعة وعشرين شهراً. وراجع بشأن وفاء الخلفاء الراشدين كتب الرسول وعهوده: مجموعة الوثائق السياسية للدكتور محمد حميد الله، الكتاب السابق القسم الثاني الخلافة الراشدة ص ٢١٥ وما بعدها. ويكفي الإشارة لبعضها للتدليل على ذلك بإيجاز.

وفي خلافة أبي بكر كتب خالد بن الوليد كتاباً لأهل الحيرة وصالحوه على ما صالح عليه غيرهم من أهل الكتاب في إعطاء الجزية، ولم يلزم ألف رجل بها كانت بهم زمانة[1]. وشرط عليهم ألا يعينوا كافراً على مسلم ولا يدلوهم على عورات المسلمين، وإن هم حفظوا ذلك فلهم ما للمعاهد وعلى المسلمين المنع لهم، وجعل لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو إصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام. وشرط خالد مثل ذلك لبلاد عانات بالشام، وعلى أن لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة، وعلى أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاؤوا من ليل أو نهار إلا في أوقات الصلوات (أي للمسلمين) وعلى أن يخرجوا الصلبان في أعيادهم. كما صالح أهل بلدان أخرى بالشام مثل ما صالح عليه وما أعطاه لأهل الحيرة وأهل عانات[2].

وفي خلافة عمر عاهد أمراؤه بلداناً من دولة الفرس بإعطائهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم، لا يغيرون من ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ولهم المنعة[3] كما عاهد خالد بن الوليد أهل دمشق بالشام وأمنهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم كما عاهدهم أبو عبيدة بمثل ذلك.

ومعاهدة عمر مع أهل بيت المقدس أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وأنه لا يسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم[4].

وأعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم[5].

---

(١) رجل زمن أي مبتلى، مختار الصحاح، ص ٢٧٥، مادة: زمن.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية المشار إليها، الوثائق أرقام ٢٩١، ٢٩٨ـ ٣٠٠، ص ٢١٨ وما بعدها والخراج لأبي يوسف، الكتاب السابق، ص ١٥٧ وما بعدها.

(٣) مجموعة الوثائق السياسية المشار إليها، الوثيقة رقم ٣٣١ـ ٣٣٩ وما بعدها وفي هذه الوثائق وما قبلها بياناً لبلاد الشام والفرس.

(٤) الكتاب السابق، الوثيقة ٢٥٧، ص ٢٦٨، ٢٦٩.

(٥) نفس المصدر، الوثيقة ٣٦٥، ص ٢٧٥، ٢٧٦.

ويعرض عمر بن الخطاب ـ وهو الخليفة ـ الإسلام على مملوكه المسيحي، فيرفض ويقول عمر (لا إكراه في الدين) ثم يعتقه[1] ويقول لعجوز نصرانية: اسلمي أيها العجوز تسلمي، إن الله بعث محمداً بالحق. قالت: أنا عجوز كبيرة والموت إلى قريب. فقال عمر: اللهم اشهد، وتلا «لا إكراه في الدين»[2].

وكانت وصية عمر عند موته: أوصى الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم[3]. وأمضى عثمان وعلي الصلح مع غير المسلمين على ما أمضاه أبو بكر وعمر[4].

وتزوج عثمان بنائلة بنت الفرافصة الكلبية وهي نصرانية، وقتل عثمان بين يديها[5] وكان علي يأمر ولاته بحسن معاملة أهل الذمة والعدل معهم والرفق بهم[6].

ولما فتحت مصر في عهد الخليفة عمر، خفف واليه عليها ـ عمرو بن العاص ـ على المصريين الأعباء الثقيلة التي كانوا يئنون تحتها من تعدد الضرائب التي شملت كل شيء في عهد الزمان.

وقد عزا بعض المؤرخين ـ غير المسلمين ـ نقص الخراج في أيام عمرو عما كان عليه في عهد الروم إلى إلغاء كثير منها وعدم رضائه بالإخلال بعهده

---

(١) راجع ما سبق، ص ٦٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، جـ ٣، الكتاب السابق، ص ٢٨٠.

(٣) الأموال لأبي عبيد، ص ١٢٦ فقرة (٣٢٣) والخراج لأبي يوسف ص ١٣٥، الكتابان السابقان، وكان عمر إذا جاءه المال من العراق أربع شهادات بالله أنه من طيب، ما فيه ظلم «لمسلم ولا معاهد» الخراج، الكتاب السابق، ص ١٢٤.

(٤) الخراج، الكتاب السابق، ص ١٥٩.

(٥) الإمامة والسياسة لابن قتيبة، جـ ١، ص ٤٥.

(٦) الأموال لأبي عبيد ص ٤٤، ٤٥ فقرة رقم ١٦، ١١٧ حيث أورد أقواله وأفعاله مع الذميين، وقال الإمام علي: «إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا». بدائع الصنائع، جـ ٧ للكاساني، الكتاب السابق، ص ١١١ وروي عنه أنه قال: «أمرنا بأن نتركهم وما يدينون». نفس المصدر، ص ١٤٧. وواضح أن ذلك يثبت لهم عصمة النفس وعصمة المال، وما يتفرع عن ذلك من حقوق أخرى.

لأهل مصر[1].

ولما قسم عمرو مصر إلى عدة كور (أي مجموعة من البلدان) عين على كل منها قاضياً قبطياً، يفصل في المنازعات الدينية والأحوال الشخصية والمدنية، لغير المسلمين وفق شرائعهم، لأنه أكثر فهماً لحالتهم وأخلاقهم، وإذا وقع نزاع بين مسلم وقبطي، عرض النزاع على مجلس مؤلف من قضاة الطرفيين، وأعطيت هذه الميزة لكل الذميين في مصر[2].

كما أن الخليفة عمر أبقى الأملاك المحبوسة على الكنائس المسيحية والرواتب المخصصة للقس، وشهد بطريرك مرو في عهد الخليفة عثمان في كتاب له لأسقف فارس أن العرب لا يتعرضون لدين المسيح، ويسبغون الهبات على الكنائس والأديرة[3].

وكان الخلفاء يقومون بالعدل المطلق (المساواة) في معاملة غير المسلمين، كما سبق بيانه من أمثلة، ويقول عمر بعد أن أقام الحد في الشام على رجل من أهل الكتاب: «ما على هذا صالحناكم. ثم يقول: يا أيها الناس اتقوا الله في ذمة محمد ﷺ ولا تظلموهم، فمن فعل منهم هذا فلا ذمة له»[4]. وهذا يدل على

---

(١) النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن. الكتاب ص ٣٠٢ وما بعدها.

والخراج: ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدي عنها. الأحكام السلطانية لماوردي، الكتاب السابق، وبين أنواع الأراضي التي يفرض عليها الخراج والتي لا يفرض عليها، ص ١٦٦ وما بعدها. والخراج إما أن يكون شيئاً مقدار من مال أو غلة، وأما حصة معينة مما يخرج من الأرض وهذا ما يسمى بالمعاملة أو المزارعة، وكان الخراج في عهد الإسلام يأتي من ناحيتين: (أ) الضرائب الشخصية: وهي جزية الرؤوس، (٢) ضرائب الأطيان. كما ذهب بعض المؤرخين إلى قصر الخراج على جزية الرؤوس، كما قصره غيرهم على ضريبة الأرض، النظم الإسلامية، الكتاب السابق، موارد بيت المال، ص ٢٦٥ وما بعدها.

(٢) القضاء في الإسلام للدكتور عطية مشرفة، الطبعة الثانية، ص ١٣١، ومصر في العصور الوسطى للدكتور علي إبراهيم حسن، الطبعة الأولى، ص ٣٠٣.

(٣) روح الإسلام، جـ ٢، للسيد أمير علي، ص ١٦٠، ١٦١.

(٤) ذلك أن يهودياً فحش بامرأة من المسلمين من الشام بأن ألقاها من فوق دابتها =

مدى حرص عمر أن يدفع الظلم عن الذميين، فهو يذكر المسلمين بالعدل في معاملتهم، وألا يظلموهم، حتى ولو ارتكب أحدهم فعلاً موجباً لتوقيع الحد.

ويقول علي: «إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا». فأوجب لأهل الذمة عصمة المال وعصمة النفس[1]. وفي خلافته قتل مسلم ذمياً، فسلمه إلى ولي الذمي ليقتص منه، إلا أنه عاد به بعد أن قبل الدية، ولم يرتض علي منه ذلك إلا بعد محاوراته وعلم منه صحة عزمه بقبول الدية (خشية أن يكون قد وقع عليه تخويف من أهل القاتل أو غيرهم)[2].

ويجدر بنا في هذه الدراسة أن نعرض مسألتين لما لهما من أهمية:

الأولى: الزي المميز وغيار الذميين.

الثانية: تولي الذميين الوظائف العامة في الدولة.

المسألة الأولى: الزي المميز وغيار الذميين:

وترجع أهمية هذه المسألة إلى أن بعض كتب الفقه أوردت شروطاً بإلزام الذميين بلباس وزي مميز يخالف ما يرتديه المسلمون. وقد أورد ابن القيم في

= وغشيها، فرآه عوف بن مالك فضربه فشجه، فانطلق إلى عمر يشكو عوفاً، فغضب أمير المؤمنين غضباً شديداً وأراد أن يبطش بعوف، فلما أخبره بالواقعة وصدقته المرأة وقامت البينة على الذمي، أمر عمر بقتله حداً وصلبه، وكان أول مصلوب في الإسلام، راجع فيما تقدم: أحكام أهل الذمة، المجلد الثاني لابن القيم، ص ٧٩١، ٧٩٢. الأموال لأبي عبيد، فقرة ٤٨٥ ص ١٨١، ١٩٨٢م، الكتابان السابقان، والحدود. معناها في اصطلاح الفقهاء المشهور عند الحنفية: أنها عقوبات مقدرة فلا تشمل التعزيز، لأنه وإن كان عقوبة إلا أنها غير مقدرة شرعاً ولكونها وجبت حقاً لله تعالى، فهذا القيد يخرج القصاص من الحدود لأنه يصح إسقاطه والعفو عنه. وقد عرفت الحدود بتعريف آخر يدخل القصاص في الحدود وذلك بحذف القيد الأخير وهو: وجبت حقاً لله تعالى. راجع: الحدود في الإسلام للدكتور محمد أبو شهبة، الكتاب السابق، ص ١٣١ وما بعدها، نظام الحدود في الشريعة الإسلامية. دراسة مقارنة للشيخ محمد محمد نصار، ص ٤ ـ ٥ طبع سنة ١٩٧٤م.

(١) بدائع الصنائع، للكاساني، جـ ٧، ص ١١١.

(٢) أحكام القرآن للجصاص، جـ ١، ص ١٧٣ وما بعدها، الطبعة الثانية، مطبعة عبد الرحمٰن محمد، الأزهر، مصر، وذلك بتصرف، وما بين القوسين زيادة للإيضاح.

مؤلفه أحكام أهل الذمة ما سماه: «الشروط العمرية» ونسبها إلى عمر بن الخطاب، وخرج عليها أحكاماً كثيرة في هذا الشأن[1].

وأعرض لهذه المسألة لاتصالها الوثيق بحق أكيد من الحريات الدستورية وهي الحرية الشخصية، فأورد هذه الحقائق الفقهية والتاريخية:

١ـ لم يعرض القرآن الكريم والسنة النبوية ـ وهما المصدران الأساسيان

---

(١) يلاحظ أن الدكتور صبحي الصالح محقق مؤلف أحكام أهل الذمة وجه انتقادات قوية، نافياً نسبتها إلى عمر، ويمكن إيجازها فما يلي:
(أ) لم يحقق ابن القيم صحة إسناد هذه الشروط إلى عمر، واستغنى عن ذلك بشهرتها، وما كانت الشهرة أن تغني عن الإسناد بحال من الأحوال لا سيما في موضوع خطير كموضوع هذه الشروط، كما أن تضارب الروايات الثلاث التي أوردها ابن القيم عن الشروط، وإبهام اسم المدينة التي جرى فيها هذا العهد، كما أن عمر نفسه لم يعاهد أهل حمص وأهل القدس إلا عهوداً بالغة السماحة والبساطة، وليس فيها من قريب أو بعيد ما ورد بتلك الشروط، مما ينفي صحة الإسناد المقول.
(ب) ما ورد بالشروط من فرض عمر على الذميين ربط الكستيجات ـ وهي الزنانير العريضة المدورة أي المنطق أو الحزام على الوسط ـ (والزنانير لفظ أعجمي يوناني لم يكن شائعاً ومعروفاً للناس في عهد عمر حتى يرد بالشروط) وكذلك ما ورد بها من أمره بختم أعناق الذميين عند جباية جزية الرؤوس، كل هذا يناقض ما ذكره ابن القيم نفسه عن النبي وعمر من نهي المسلمين عن تعذيب الذميين وأمرهم بالرفق بهم.
(ج) إن المؤرخين الذين أسهموا في مواد هذا العهد وتفصيلاته ـ ولا سيما في موضوع الغيار وإلزام الذميين بالزنار ـ كانوا من كانوا من المتأخرين، فما عرض قط لأزياء الذميين، ابن جرير الكبرى ولا البلاذري من أئمة التاريخ المتقدمين.
(د) لم يقصد ابن القيم اقتران الغيار بمدلول الإذلال، وإنما قصد أن يتشبه الذمي بقومه ليعرفه المسلمون بزيه، ويربطه بمفهوم المغايرة، ولم يغفل عن اختلاف الأزياء باختلاف العصور، ولما عرض الشيخ محمد الغزالي لنقد كتاب ألفه غير مسلم ـ لم يذكر اسم الكتاب ـ هاجم فيه الإسلام وشروط عمر بن الخطاب في معاملة غير المسلمين. قال الشيخ الغزالي رداً ونقداً لذلك: «إن هذا العهد مزعوم. . . وأنكر على من قال بصحته بأنه نقله من كتاب القلقشندي «صبح الأعشى في تعليم صناعة الإنشا» وهو كتاب لا يعد مصدراً للتاريخ ولا للدين، وألفه صاحبه بعد عمر سبعة قرون، وقصد منه أن يعين التلاميذ على اصطناع الأساليب المحسنة».
راجع: التعصب والتسامح للشيخ محمد الغزالي رحمه الله، ص ٥٠ وما بعدها.

للتشريع في الإسلام كما ـ هو معروف ـ إلى مسألة اللباس الذي يميز الذمي من المسلم، وأظهر ابن القيم هذه الحقيقة فقال: «وأما الغيار فلم يلزموا في عهد النبي ﷺ وإنما اتبع فيه أمر عمر. . .»[1] وهو ما يفيد أن ذلك لم يكن في عصر الرسول ولا الخليفة الأول.

٢ـ قامت الحركة الإسلامية في بلاد العرب، وما كان للنبي ولا سائر المسلمين إلا اللباس الذي كان رائجاً في بلاد العرب عامة، إلا أن للنبي تمييزاً للمسلمين عن غيرهم، أمر المسلمين أن يلبسوا العمائم فوق القلانس، لأن عامة العرب المشركين إما كانوا يلبسون العمائم فقط أو القلانس فقط، ولذا فقد أصبح لبس العمائم فوق القلانس شعار المسلمين. ولكن لما أسلم سكان الجزيرة العربية بعد ذلك، ما بقيت حاجة إلى شعار مميز، لأن اللباس العربي هو الذي أصبح اللباس الإسلامي. وكذلك لما بدأ الإسلامي ينتشر في فارس وغيرها من البلاد المفتوحة اقتضت الحاجة في أول الأمر أن يلبس المسلمون الجدد اللباس العربي أن يدخلوا على لباسهم الوطني شيئاً جديداً كشعار للإسلام، مثل العمامة، ولكن لما دخل أكثر سكان تلك البلاد في الإسلام وأجرى في لباسهم الوطني بعض الإصلاحات. فإن ملابسهم الوطنية على اختلاف أشكالها أصبحت ملابس إسلامية.

والظاهر من قول الرسول في غير واحد من الأحاديث، (خالفوا المشركين، خالفوا اليهود والنصارى، خالفوا المجوس)، إنما أراد من وراء هذه الأقوال ألا يلقى المسلم صعوبة في معرفة أخيه المسلم ولا يعامله إلا معاملة المسلم. وهذا هو المقصود من قوله: من تشبه بقوم فهو منهم[2].

---

(١) أحكام أهل الذمة، القسم الأول، ص ٢٣٦ ومثل ذلك القسم الثاني ص ٧٣٥.

(٢) الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، الكتاب السابق، للأستاذ أبو الأعلى المودودي، ص ١٦٦ـ ١٧٠ وراجع ما سبق عن دلالة الحديث، هامش ص ٤٠.
العمامة واحدة (العمائم) والعمائم تيجان العرب. والقلنسوة بفتح القاف و(القلنسية) بضمها معروفة وجمعها (قلانس)، راجع مختار الصحاح، الكتاب السابق، ص ٤٥٦، ٤٥٨، والقنسوة: ما تعرف بمصر بالطاقية والعمامة ما يكون ملتفاً حولها.

ويذكر الأستاذ أبو الأعلى سيطرة المسائل التافهة والظواهر السفسافة على أذهان عامة المسلمين (وذلك فيما يتعلق بالثياب وبالهيئة) ويقول بعد بيان رسالة الرسل والغرض منها: «أفكان ذلك أن الناس ما كانوا يعفون لحاهم، فأرسل الله تعالى رسله لدعوة الناس إلى إعفائها؟ أم كانوا يسبلون إزارهم فأمر الله أنبياءه أن يدعوا الناس إلى الكف عن ذلك. . .؟[(١)] وغير خاف إنكاره أن تكون رسالة الرسل لمثل هذه الأشياء وتعجبه ممن يفهم هذا الفهم. والثابت أنه لم يكن للرسول لباس خاص لا يتعداه إلى غيره، وقد نقلت كتب السنة أنه كان يلبس الضيق من الثياب والواسع منها، وكذلك الصحابة والتابعون. ولم يرد عن النبي ولا عن أحد من أصحابه والتابعين صفة أو هيئة خاصة للثياب سواء للرجال أو للنساء. ولأن تحديد هيئة الزي أو الثياب من الأمور التي لم يرد فيها نص في القرآن والسنة، إذ إنه من الأمور التي تختلف فيها الأحكام باختلاف العصور والأعراف[(٢)] ولأنه من الأمور التي تختلف فيها الأحكام باختلاف كل أمة أو أسرة ولزمانها ومكانها، ولتحقيق المصلحة أو الضرر في استعمالها، وليست مما يتعبد به حتى يتقيد لابسها بنوع أو زي منها، فهي على أصل الإباحة، بل إن جميع العاديات مما لا ضرر فيه بالدين ولا بالدين وكان مما يخفف مشقة أو يجلب منفعة مستحسن، ولا مانع منه ما لم يكن ممنوعاً بالنص، أو يقترن به معنى يقصد الشرع إلى التخلي عنه أو يقترن به محرم شرعاً[(٣)].

---

(١) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، ص ٧٥ـ ٧٧، محاضرها ألقاها في مؤتمر الجماعة الإسلامية في شرقي بنجاب بتاريخ ٨/ ٥/ ١٣٦٤هـ، ترجمة مسعود الندوي، طبع دار الاعتصام، القاهرة غير مبين سنة الطبع.

(٢) الفتاوى الإسلامية من دار الإفتاء بمصر، المجلد العاشر، الفتوى رقم ١٨٢١ بتاريخ ٨ ربيع الأول ١٤٠١هـ ـ ١٤ يناير ١٩٨١م، المفتي فضيلة الشيخ جاد الحق علي جاد الحق، ص ٤٧٣، ٣٤٧٦، طبع وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

(٣) الفتاوى الإسلامية من دار الإفتاء بمصر، المجلد السابع، الفتوى رقم ١٠٥٧ ورقم ١٠٥٩ المفتي الشيخ علام السيد نصار بتاريخ ٥ ذو القعدة ١٣٦٩هـ ـ ٢٩ أغسطس ١٩٥٠م، ١٩ ذو القعدة ١٣٧٠هـ، ٢٢ أغسطس ١٩٥١م، ص ٢٤٧٥، ٢٤٨٠. وما بعدهما، وما بين القوسين زيادة للإيضاح.

بل إن للمسلم أن يلبس ما يلبسه غير المسلمين من أزياء مثل البرنيطة أو البيرية ما دام القصد مجاراة العادة في قومه أو لحاجة من حجب شمس أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة(١). ما لم يكن هذا اللبس خاصاً بهم لمراعاة عدم التشبه ويبين من ذلك أن الكتاب والسنة لم يعرضا إلى مسألة اللباس الذي يميز الذمي من المسلم، ولم يلزما المسلم بلباس معين وهيئة محددة للزي أو الثياب، واختار المسلمون بسبب ضرورة حربية أو اجتماعية إشارات أو علامات معينة ليعرف بعضهم بعضاً بل إن المسلمين يشتركون مع غير المسلمين في الزي والهيئة ما جرى بذلك زمان أو مكان أو عادة.

٣ـ في معاهدة صلح خالد بن الوليد مع أهل الحيرة ـ في خلافة أبي بكر ـ شرط لهم وشرط عليهم، ومن ذلك: «ولهم كل ما لبسوا من الزي إلا زي الحرب من غير أن يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم. وأيما رجل منهم وجد عليه شيء من زي الحرب سئل عن لبسه ذلك. فإن جاء منه بمخرج وإلا عوقب بقدر ما عليه من زي الحرب»(٢).

ومفاد هذا الشرط أن لهم لباسهم وزيهم الذي كانوا عليه قبل الصلح، (ولم يطلب منهم تغييره إلى هيئة أخرى)، وألا يستعلموا زي الحرب، حتى لا يكونوا محاربين للمسلمين، ما داموا قد رضوا الصلح، كما طلب منهم ألا يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم، وذلك ـ والزمن زمن الحرب ـ أن يعرف المسلمون بعضهم، وأن يعرف المحارب من الموادع، من غير المسلمين.

وسبق ذكر أن عمر وعثمان وعلي أمضوا ما أمضاه أبو بكر من صلح، فبعيد القول إلزام أهل الذمة بغيار وزي معين، بل هم على ما كانوا عليه، ولا يغيرون من لباس، ولا يجبرون على أزياء وثياب أخرى غير ما اعتادوا عليه وأنه لحق القول بأن منع الذميين من تقليد المسلمين في أزيائهم يؤدي إلى حفظ كيانهم وحرياتهم وشخصياتهم المستقلة.

---

(١) الفتاوى الإسلامية، المجلد الرابع، الفتوى رقم ٦٢٥، ص ١٢٩٨، المفتي فضيلة الشيخ محمد عبده، بتاريخ ٦ شعبان ١٣٢١هـ والفتويان رقما ١٠٥٧، ١٠٥٩ سالفتا الذكر.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للدكتور محمد حميد الله، الكتاب السابق، الوثيقة رقم ٢٩١ ص ٢٢٠.

ولم أجد في معاهدات الصلح أو كتب الخلفاء الأربعة أنهم شرطوا على أهل الذمة غياراً أو زياً مميزاً[١]. فلو كانت هذه المسألة مما عرض لها الخلفاء الراشدين ـ باعتبارها من التشريع الصادر من أولي الأمر[٢] لنقلته إلينا كتبهم ومعاهداتهم مع أهل البلاد المفتوحة.

٤ـ أحل الإسلام الزواج بنساء أهل الكتاب، فقد تزوج عثمان (الخليفة الثالث) نصرانية ـ على ما سبق ذكره ـ كما تزوج (من الصحابة) طلحة بن عبد الله يهودية من أهل الشام، وتزوج حذيفة بن اليمان وكعب بن مالك والمغيرة بن شعبة وطلحة بن الجارود بن المعلى وأذينة العبدي، نساء من أهل الكتاب[٣].

ولا يستساغ في الأفهام أن يدخل أب زوجة الخليفة عليه، أو إخوانها أو أعمامها أو ذو نسبها وقد ألزما بغيار وزي معين، أو أن يختم على رقابهم عند جباية جزية الرؤوس.. أن يكون ذلك حال أصهار من سبق من الصحابة.. القول بذلك لا يعدو يكون صورة هزلية...!!

ولا يتفق مع حسن الفهم، ولا يكون ذلك ـ بأي حال من الأحوال ـ من مقاصد الإسلام، وحرصه على كرامة بني الإنسان، وعمر ـ ثاني الخلفاء الراشدين ـ عليم بأحكام الإسلام ومقاصده وغاياته.

ولا يتفق هذا مع حرص الخلفاء على الرفق في جباية الجزية، وحكمها ثابت بالكتاب والسنة، فقد وضع عمر الجزية عن نصارى نجران أربعة وعشرين شهراً، رفقاً بهم، مع نقضهم العهد الذي عقدوه مع الرسول على

---

(١) راجع في ذلك: مجموعة الوثائق السياسية للدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي، الكتاب السابق، وقد رجع في إثبات هذه الوثائق إلى اثنين وعشرين مصدراً من كتب الفقه والسيرة أثبتها تحت عنوان: حل رموز الاختصارات المستعملة في أوائل الوثائق وذلك بالصفحة الأخرى من مقدمة الكتاب.

(٢) راجع: التشريع الصادر من أولي الأمر، ص ٤٤ وما بعدها.

(٣) الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر، ص ٥٦ وما بعدها، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة لأبي الأعلى ص ١١١، العلاقات الاجتماعية بدران أبو العنين، ص ٤٨، السابقة.

ما سلف بيانه، كما خفف عنهم عثمان ثلاثين حلة من جزيتهم تركها لوجه الله تعالى جل ثناؤه كما جدد علي العهد مع النجراني[١].

٥- لما حشد الإمبراطور هرقل جيشاً ضخماً لصد قوات المسلمين الفاتحة للشام، وتجمع المسلمون في المعركة الفاصلة كتب أبو عبيدة قائد العرب (في خلافة عمر) بعد خالد بن الوليد إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبي من الجزية.. فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا: «ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أي على الروم)..» ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب، يقولون: «يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا» وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم. والثابت تاريخاً أن المسلمين عاملوا أهل الذمة في القرن الأول من الهجرة بالتسامح[٢].

ولو كان المسلمون يعاملون رعايا الدولة الإسلامية من غير المسلمين بالغلظة والعنف، كأن يلزموهم بغيار وزي مميز - بخلاف ما سلف بأنه من ضرورة حربية أو اجتماعية - لما أحبوا لهم النصر على جيش المسلمين.

٦- أثبت المنصفون من غير المسلمين عدم صحة نسبة ما سمي بعهد عمر إلى عمر بن الخطاب يقول المستشرق سير توماس أرنولد: «تنسب بعض الأجيال المتأخرة إلى عمر عدداً من القيود التي حالت بين المسيحيين وبين إقامة شعائرهم الدينية في حرية وطلاقة، إلا أن ذي غوية De Goeie وكيتاني Caeteni قد أقاما الدليل الذي لا يدع مجالاً للشك على أن هذه القيود قد استحدثت في بعض العصور المتأخرة...» ثم يقول إن أول من ذكر هذه الوثيقة ابن حزم المتوفى حوالي منتصف القرن الخامس الهجري، وتمثل

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية، الكتاب السابق، الوثيقتان رقما ١٠٣، ١٠٤.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، لسير توماس وأرنولد، الكتاب السابق، ص ٧٣ وما بعدها وص ٧٩ وأيضاً ص ٦٨.

شروطاً ما كان في العصور المتأخرة من تصرفات أشد تعصباً وأبعد عن التسامح. . . وذلك بعد أن أثبت ما اتبعه الخلفاء من تسامح في القرن الأول الهجري، مما يتعارض ويتناقض كلية مع هذه الشروط[1].

فتحت الشام والعراق ومصر وفارس في خلافة عمر، وهي بلاد فيها أديان اليهودية والمسيحية والمجوسية وصائبة، إلا أنه يبين من مطالعة العهد المزعوم أنه خاص بنصارى مدينة كذا وكذا (دون ذكر لها) ولا يتضح السبب في قصر هذا العهد على النصارى دون غيرهم من الأديان الأخرى، ولو كان ذلك سياسة لتناول جميع الرعايا غير المسلمين في البلاد المفتوحة. وأرى أن هذه الحقيقة ـ مع ما سلف بيانه ـ تنفي حجية هذا العهد في رسم سياسة معينة مع أهل الذمة في خلافة عمر، وهي تناقض وصايا الرسول وعمر نفسه من نهي المسلمين عن الإساءة للذميين وأمرهم بالرفق معهم، وهي الوصايا الثابتة ولا خلاف في صحتها، أما العهد وشروطه فقد أحيط بالشك من جميع نواحيه.

والخلاصة أنه غير صحيح نسبة الشروط العمرية أو ما أطلق عليه: عهد عمر إلى الخليفة عمر بن الخطاب، إذ لم يكن ذلك معروفاً في القرن الأول

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، الكتاب السابق، ص ٧٥ـ ٧٧ ويلاحظ أن المستشرق آدم ميتز قد أرجع التعليمات الخاصة باللباس إلى هارون الرشيد عام ١٩١هـ ٧ـ ٨ ولم يقل في كتابه ـ مع كثرة مصادره ـ بنسبتها إلى عمر. راجع: الحضارة الإسلامية، الكتاب السابق، ص ١٠١، وما بعدها.

وأشير إلى أن ابن القيم ذكر عن مسألة الغيار أنها تختلف باختلاف الزمان والمكان والعجز والقدرة والمصلحة والمفسدة، كما لم يغفل عن اختلاف الأزياء باختلاف العصور، وأن المقصود بالغيار ما يميزهم عن المسلمين. بحيث يعرف أنهم ذميون، كما أنه رد تفصيل الغيار إلى رأي الإمام، راجع في ذلك القسم الثاني أحكام أهل الذمة، ص ٧٤٧، ٧٧٠ وما بعدها.

ويقول ابن تيمية إن الغرض من الغيار مجرد التمييز حتى يعرفوا (من المسلمين) وأورد قولاً للقاضي أبو يعلى أنهم (أي أهل الذمة) إذا امتنعوا عن صبغ ثوب من ثيابهم لا يجبرهم المسلمون على ذلك، ثم يقول ابن تيمية إنه محل خلاف بين الفقهاء: هل يلزمون بالتغيير، أو الواجب علينا إذا امتنعوا أن نغير نحن راجع: اقتضاء الصراط المستقيم، الكتاب السابق، ص ١٢٢.

للهجرة، ولما لجأ إليه قواد الجيوش الإسلامية إلى تمييز المسلمين، واشتراطهم في العهود مع أهل الذمة ألا يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم، وألا يستعملوا زي الحرب، ضرورة أملتها الحروب والظروف الاجتماعية[١].

ويجدر الإشارة إلى أن إلزام أهل الذمة في العصور المتأخرة في الدولة الإسلامية بزي مميز ليس له أساس ديني، بل أساسه اجتماعي أو سياسي أو زماني مؤقت ـ ولم يحدث ذلك بأي حال من الأحوال في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ـ وأن ذلك إنما وقع في بعض العصور المتأخرة إذا صور ذلك بأنه يمثل اضطهاداً بالرعايا غير المسلمين، فإن ذلك لم يكن أساسه عقائدياً أو دينياً، وذلك أن الإسلام دين التسامح، ويقر حرية العقيدة الدينية لغير المسلمين.

وقد أظهر كثير من المنصفين غير المسلمين، أن الاضطهادات التي عاناها أهل الذمة من بعض الحكام، إنما كانت ناتجة من بعض ظروف خاصة أو إقليمية، أكثر من أن تكون منبعثة عن مبدأ مقرر من التعصب وحقيقة أسبابها إنما كانت سياسية محضة أو راجعة إلى الأهواء البشرية أو إلى المزاج المسيطر على الحاكم أو في الشعوب ولا يدخل الفعل الديني في نطاق هذه الأسباب[٢]. كما أن الحركات التي قام بها المسلمون لمقاومة غير المسلمين في الدولة الإسلامية كانت رد فعل لتسلط أهل الذمة على المسلمين، حتى أن أكثر الفتن التي وقعت

---

(١) من الطبيعي أن يحرص المسلمون في أوائل نشأة دولتهم أن يتميزوا بلباس خاص بالحرب يمنعوا منه غير المسلمين الذين لا يشتركون معهم في الجهاد، وهي ضرورة تمليها السياسة الحربية ونرى في العصر الحديث أنه من الحقوق الدستورية للدول أن تخصص زياً معيناً لأفراد الجيش أو الشرطة يختصون به دون سواهم، وتعاقب من لبسه دون وجه حق. ومثال ذلك ما نصت عليه المادة ١٥٦ من قانون العقوبات المصري على أن: «كل من ليس علانية كسوة رسمية بغير أن يكون حائزاً للرتبة التي تخوله ذلك أو محل علانية العلامة المميزة لعلم أو وظيفة من غير حق بالحبس مدة لا تزيد على سنة كما تعاقب المواد ١٥٥، ١٥٧ـ ١٥٨ من يتداخل في وظيفة عسكرية أو ملكية أو تقلد نشاناً بغير حق ولو كان جندياً.

(٢) الدعوة إلى الإسلام: سير أرنولد ص ٤٦١، ٤٦٢ وهامش الصفحة الأخيرة والمراجع المشار إليها، الحضارة الإسلامية، لآدم ميتز ص ١٠٦، ١١٢ وما بعدها، الكتابان السابقان.

بين النصارى والمسلمين بمصر نشأت عن تجبر المتطرفين الأقباط[١].

وأورد هنا ملحوظة هامة نخلص منها إلى أن مسألة اللباس الذي يميز الذمي من المسلم لم تكن تحمل أضراراً بهم بل هو لصالحهم، إذ قصد بإجبار الذمي على التشبه بقومه ليعرفه المسلمون بزيه، والغرض منه حصول التمييز. والذميون ـ كالمسلمون ـ ذوو مصلحة في هذا التمييز، لأن هؤلاء وأولئك يؤثرون الحفاظ على شعائرهم. وليس عيباً أن يحرص الإنسان على مبادئه سواء أكانت دينية أو سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية، وليس بجريمة أن يفرض الإسلام على رعاياه الذميين أو الأجانب أو المستأمنين أن يلزموا زيهم، قاصداً في آن واحد إطلاق حريتهم في التمسك بتقاليدهم ومنعهم من التشبه بالمسلمين[٢]. أن عقدة النقص Complexe d'inferiorite عند الإنسان المحكوم تحمله على تقليد أهل السيادة تقليداً في اللباس والزينة وغير ذلك. فإذا ألزم بعض الخلفاء أهل الذمة بارتداء أزيائهم، ومنعهم من تقليد المسلمين في الزينة الشخصية، فقد أعانهم من حيث يريد أو لا يريد على حفظ كيانهم وصيانة ثقافتهم في البيئة الإسلامية، ولو عامل المسلمون الذميين بمثل ما يفعله الفرنجة في الأزمنة الحديثة من إكراه الأجانب على الاندماج في ثقافة الملة الحاكمة، لما بقي أي أثر للملل والثقافات الأجنبية في الدولة الإسلامية[٣].

ويكون مفهوماً أن من يتقلد هذه المناصب الرئيسية التي تسير دفة الحكم ونظامه في الدولة الإسلامية من الطبيعي أن يكون مسلماً لأن تصرفاته تنسب إلى الدولة التي يمثلها، ومن الطبيعي أن يعتنق العقيدة التي تدين بها غالبية شعب تلك الدولة.

والعلة في ذلك أن الدولة الإسلامية تقوم على أساس عقيدة دينية ولغرض تنفيذ أحكام الإسلام تنفيذاً كاملاً وسليماً في الداخل والسعي إلى نشره بكل

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) هذه ملحوظة الدكتور صبحي الصالح، في بحثه، مقدمة التحقيق بالقسم الأول أحكام أهل الذمة لابن القيم، ص ٣٢ وللدكتور محمد حميد الله في بحثه المنشور بالمجلد المذكور تحت عنوان «مقدمة في علم التفسير أو حقوق الدول في الإسلام» ص ٩٤، ٩٥.

(٣) نفس المرجع السابق.

وسيلة مشروعة في الخارج، فجماعة المسلمين تربطهم رابطة الولاء الصادق والانقطاع التام لما فيه سلطان الإسلام والمسلمين. فدولة هذا شأنها لا يكون مستغرباً إذا منعت غير المؤمنين بعقيدتها من تولي أي شأن من شؤونها العامة والرئيسية ما داموا لا يؤمنون بما تؤمن به من عقيدة وغاية ونظام ولو حملوا جنسيتها وحصلوا على جميع حقوق مواطنيها[١].

---

(١) أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، الكتاب السابق للدكتور عبد الكريم زيدان، ص ٨٢، الجنسية في قوانين دول المغرب العربي الكبير للمستشار إبراهيم عبد الباقي بمحكمة التعقيب التونسية، مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربي، جامعة الدول العربية، طبع مصر سنة ١٩٧١، ص ٤٠.



الفصل السابع

- نموذج من سياسة الدولة تجاه الآخر.
- الدولة الفاطمية والمواطنون النصارى.
- القيود التي فرضت على دور العبادة لأهل الذمة.
- الكنائس والأديرة.
- الكنائس اليهودية في الدولة الإسلامية.
- غير المسلمين إبان حكم الإسلام الأندلسي.

نموذج من سياسة الدولة تجاه الآخر

الدولة الفاطمية والمواطنون النصارى:

من يقلب صفحات التاريخ في هذا الباب يرى مراحل كثيرة ونماذج عديدة برز فيها الوجه الحقيقي لأحكام الإسلام في معاملة الآخر حتى لو كانت بعض هذه الأنظمة ليست تعبيراً صحيحاً عن الإسلام لكنها ما كانت لتقهر موقف علماء الإسلام من الحكم على الآخر، فمثلاً عصر الدولة الفاطمية في مصر تمتع أهل الذمة في مصر بسياسة التسامح الديني التي سار عليها الخلفاء الفاطميون في العصر الفاطمي الأول ـ باستثناء فترة من عصر الحاكم بأمر الله ـ ونعموا بحرية ممارسة شعائرهم الدينية انطلاقاً من مبدأ حرية العقائد الدينية لأهل الذمة.

فالخليفة المعز لدين الله الفاطمي ـ بإجماع المصادر النصرانية ـ كان متسامحاً في سياسته الدينية بوجه عام إزاء أهل الذمة، ومع النصارى بوجه خاص، إذ لم يتدخل في الشؤون الداخلية الخاصة بالكنيسة، علاوة على أنه أقام علاقات وطيدة مع رجالها.

فعندما توفي الأنبا مينا البطريرك الحادي والستين للكنيسة القبطية، اجتمع أساقفة الكنيسة وأعيان القبط سنة ٣٦٦هـ ـ ٩٦٨م لانتخاب خلف له من بينهم، ووقع اختيارهم على تاجر سوري اسمه إبراهيم بن زرعة ـ الذي اشتهر بتقواه وعلمه ـ، ورسموه بطريركاً باسم الأنبا إبراهام السورياني، ليكون البطريرك الثاني والستين للكنيسة القبطية. ولم يعترض الخليفة المعز لدين الله على هذا الاختيار. بل نشأت بينه وبين البطريرك الجديد صداقات طيبة وكان يستدعيه إلى مجلسه بقصر الخلافة، ويستقبله بإكرام واحترام بالغين، كما كان البطريرك إبراهام محل تقدير واحترام كبار رجال الدولة الفاطمية، مما كان له الأثر الطيب في العلاقة بين الدولة والكنيسة، كما أثار حقد رجال الدولة من اليهود الذين كانت لهم صلة

وثيقة بقصر الخلافة[١].

وكان الخليفة المعز لدين الله يستدعي إلى مجلسه بعض كبار الدين المسيحي واليهودي حيث كانت تجري بينهم وبين بقية الجالسين من المسلمين مناقشات دينية، وفي هذه المجالس التي كان يعقدها في قصره تدعمت العلاقات الطيبة بينه وبين رؤساء الطوائف الدينية من أهل الذمة، ونشأت صداقات بينه وبينهم دعمتها روح التسامح الديني التي تحلى بها[٢].

أما العزيز بالله الفاطمي فقد شمل أهل الذمة جميعاً برعايته وعطفه[٣] فضلاً عن أنه قلد المناصب العليا في الدولة كبار رجال أهل الذمة من اليهود والنصارى دون أن يكره أو يشترط على أحد منهم اعتناق الإسلام، كما كانت علاقته برؤساء الطوائف الدينية لأهل الذمة، وخاصة المسيحية، في أحسن حالاتها، إذ كان للعزيز بالله - زوجة نصرانية على المذهب الملكاني، أنجب منها ابنته المعروفة بست الملك، وكان لهذه الزوجة النصرانية وابنتها نفوذ كبير في قصر الخلافة، فقد كان العزيز بالله يعمل بمشورتها مما أدى إلى استفحال نفوذ رجال الكنيسة الملكانية واتباع المذهب الملكاني في مصر. فقد تدخل العزيز بالله في الشؤون الخاصة بالكنيسة الملكانية، وأصدر قرار في رمضان سنة ٣٧٥هـ بتعيين صهره أريستيس خال ابنته ست الملك بطريركاً على بيت المقدس، كما عين صهره الثاني أرسانيوس (أرسانيس) بطريركاً للملكانية على القاهرة ومصر. وطبيعي أنه كان للرجلين نفوذهما المؤثر في دار الخلافة وإدارة الدولة، فازدهر حال الكنيسة الملكانية في عهده، واستبد أهل تلك الطائفة بشؤون البلاد، كما عانى النصارى اليعاقبة والكنيسة القبطية من استفحال هذا النفوذ فقد حاول أرسانيوس مستغلاً قرابته للعزيز بالله الاستيلاء على كنيستي المعلقة والسيدة العذراء بقصر الشمع بالفسطاط، وحدث نزاع خطير بين رؤساء الكنيستين، أنهاه الخليفة العزيز بالله لصالح الملكانيين، بأن أخذت الملكانية كنيسة السيدة العذراء وتسلمها أرسانيوس، بينما بقيت كنيسة المعلقة للأقباط

(١) ابن الراهب: تاريخ ابن الراهب، بيروت ١٩٠٣، ص ١٣٣- ساويرس: تاريخ بطاركة للكنيسة المصرية، نشر عزيز سوريال وآخرون، المجلد الثاني، جـ ٢، ص ١٠٠.

(٢) الأنبا ميخائيل (أسقف أتريب): السنكساري، جـ ١، ص ١٣٧.

(٣) الخربوطلي: مصر العربية الإسلامية، ص ١٠٦.

اليعاقبة[1] غير أن الأقباط استطاعوا استرداد كنيسة السيدة العذراء من الملكانية بعد وفاة العزيز بالله[2].

ولم يتدخل الخليفة الحاكم بأمر الله في الشؤون الداخلية الخاصة بالكنيسة القبطية، مثال ذلك أنه لم يتدخل في عام ٣٩٣هـ ـ ١٠٠٢م في انتخاب بطريرك اليعاقبة[3]. إلا أنه اتخذ موقفاً متشدداً من الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين، إذ أمر بحبسه واعتقاله لمدة ثلاثة شهور، ثم رميه للسباع الجائعة التي لم تضره ـ طبقاً لما ذكرته الكنيسة ـ وكان ذلك بسبب وشاية أحد الربان القبط ـ ويدعى يونس الراهب ـ، كان حاقداً على البطريرك زخاريا الذي رفض أن يرسمه أسقفا، فقابل الراهب المذكور الخليفة الحاكم بأمر الله، وشكا إليه سوء سياسة البطريرك فيما يتعلق بأمور الكنيسة الخاصة، وبيعه للوظائف الدينية، وما يتمتع به البطريرك من النفوذ والجاه والسلطان على أبناء ملته، وما تحت يديه من الثروة والأموال الطائلة، ثم عرض على الحاكم بأمر الله رسالة قال فيها: «أنت ملك الأرض، ولكن للنصارى ملك لا يعبأ بك، لكثرة ما كنز من الأموال الجزيلة، لأنه يبيع الأسقفية بالمال[4] وعدد الراهب للحاكم مثالب البطريرك، ومساوئ معاونيه من رجال الكنيسة مما أوغر صدر الحاكم بأمر الله على البطريرك، وأثار غضبه، ودفعه إلى اتخاذ موقف متشدد إزاء أهل الذمة الذين استفحل أمرهم في الدولة. فأصدر ضدهم العديد من القرارات والقيود التي اتسمت بالصرامة والعنف في المدة من ٣٩٥هـ إلى ٤٠٥ هـ/ ١٠٠٤ـ ١٠١٤م. وفي تلك الفترة لحق بالكثير من أهل الذمة ضرر بالغ لم يألفوه من قبل[5].

أما بالنسبة لموقف الحاكم بأمر الله من رؤساء الطائفة الملكانية، فإن الأنطاكي يذكر أن أرسانيوس بطريرك الملكانية قد قتل سراً في ذي القعدة سنة

---

(١) الأنبا ميخائيل: سر البيعة المقدسة، جـ ٣ ن ورقة ٥١.
ـ الأنطاكي: المصدر السابق، ص ١٦٤ـ ١٦٥.
ـ المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٩٤.

(٢) رؤوف حبيب: كنائس القاهرة القبطية القديمة، ص ٤٤.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٩٥.

(٤) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ ٣، ورقة ٥٦.

(٥) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ ٣، ورقة ٥٦ـ ٥٩.

٤٠٠هـ، دون أن يشير إلى قاتله أو إلى ظروف الحادث[١]. وقد ظل منصب بطريرك الملكانية بمصر شاغراً طوال بقية خلافة الحاكم بأمر الله[٢].

إلا أن الحاكم بأمر الله كان له يد في اختيار بطريرك الروم الملكانية ببيت المقدس، فبعد وفاة ثاوفيلس بطريرك الملكانية بالقدس في رمضان سنة ٤١٠هـ، تقدم إليه قس من طائفة الروم الملكانية اسمه نقفور - وكان يعمل نجاراً بقصر الخلافة، والتمس منه تعيينه بطريرك على بيت المقدس، فأجابه إلى ملتمسه[٣]. كما أعطاه بعد ذلك سجلاً في جمادى الآخرة سنة ٤١١هـ بحماية الكنائس والأديرة الباقية هناك مع إطلاق الحرية الدينية في كافة دور العبادة في بيت المقدس[٤].

ولم يتعرض الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله لرجال الدين من أهل الذمة بما يسيء إليهم، كما لم يتدخل في الإجراءات الخاصة بانتخاب البطاركة فعندما خلا كرسي بطريركية الروم الملكانية بالإسكندرية بوفاة أرسانيوس سنة ٤٠٠هـ - ١٠٠٩م وظل المنصب شاغراً إلى أن اجتمع قساوسة وأساقفة الكنيسة الملكانية بمصر ورسموا في ذي الحجة سنة ٤١١هـ الأنبا جورجيوس - أحد رهبان دير طور سيناء - بطريركاً لهم، وباركت ست الملك - ذات النفوذ القوي في قصر الخلافة - هذا الاختيار، وأرسلت إلى البطريرك الجديد هدايا قيمة من الثياب الديباج والمصاحف والتحف الفضية الثمينة التي كانت عندها لخالها أرسانيوس البطريرك السابق[٥].

كما أنه بعد وفاة الأنباء زخاريا البطريرك الرابع والستين للكنيسة القبطية، طمع بعض كبار رجال الكنيسة في اعتلاء كرسي البطريركية، وحاولوا أن يتولوا هذا المنصب الديني الرفيع عن طريق تدخل الدولة ومساعدتها، إلا أن الوزير علي بن أحمد الجرجرائي (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م)، الذي كان يسيطر على أمور الدولة والذي كان يحب النصارى ويعطف عليهم، رفض التدخل في اختيار

---

(١) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ١٩٧.
(٢) ماجد، الحاكم بأمر الله، ١٠٢.
(٣) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٢٨.
(٤) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٣٠.
(٥) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٣٧.

بطريرك اليعاقبة الجديد - كما قرر أن تتنازل الدولة عن مبلغ الثلاثة آلاف دينار التي كان يدفعها البطريرك الجديد رسماً إلى بيت المال - كرامة للنصارى -، غير أنه اشترط على أساقفة الكنيسة القبطية وأعيان القبط أن تسير إجراءات انتخاب البطريرك الجديد في نزاهة وحيدة تامتين وفقاً لما هو متبع في هذا الشأن. ولقد تم اختيار الأنبا سابونين البطريرك الخامس والستين للكنيسة القبطية سنة ٤٢١هـ، بدون أدنى تدخل من دار الخلافة(١).

كما كانت العلاقات الطيبة بين قصر الخلافة والكنيسة القبطية هي السمة الغالبة في السنوات الأولى من عهد المستنصر بالله، إلى أن كانت وزارة اليازوري:

ففي أثناء وزارته ساءت العلاقات بينهما، حينما اتهم البطريرك خريستوذولوس البطريرك السادس والستين بتحريض ملك النوبة على عدم الوفاء بالتزاماته نحو الخليفة المستنصر بالله، فألقي القبض على البطريرك ورحل إلى القاهرة مع إلزامه بدفع غرامة مالية كبيرة. غير أن «عبد الدولة» متولي منطقة مصر السفلى توسط لدى اليازوري للإفراج عن البطريرك، وأخذ منه تصريحاً بإطلاق سراحه في الحال(٢).

ومرة أخرى تعكر صفو العلاقة بين الدولة والكنيسة القبطية، عندما ترامى إلى مسامع اليازوري - عن طريق أبي الحسين الصيرفي الذي كان قاضياً بالإسكندرية - أن الأنبا خريستوذولوس قد اتخذ من بلدة «دمرو» مقراً له، وأن تلك البلدة أصبحت بمثابة قسطنطينية ثانية، وأن البطريرك شيد فيها قصراً رائعاً لنفسه، وأحاط نفسه بمظاهر العظمة والأبهة، بجانب كثرة الكنائس التي استحدثها وجدد عمارتها في القرى المحيطة بها، وأنه كتب على أبواب تلك الكنائس عبارات سب للإسلام والمسلمين. فما كان من اليازوري إلا أن أرسل من رجاله من يتقصى الحقيقة، ثم فرض على البطريرك والأساقفة غرامات مالية فادحة، طولبوا بسرعة سدادها، فاضطر البطريرك إلى طلب المساعدة المالية من ملك النوبة الذي استجاب لمساعدته(٣).

---

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ ٣، ورقة ٦٣.

(٢) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٣٨.

(٣) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ ٣، ورقة ٧٩-٨٠.

القيود التي فرضت على دور العبادة لأهل الذمة

الكنائس المسيحية:

يرى السير توماس أرنولد في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» في معرض حديثه عن سياسة التسامح الديني التي نعم بها أهل الذمة في مصر في عصر الفاطميين أن «السلطة المدنية أباحت للقبط أن يبنوا كنائس في القاهرة ـ العاصمة الجديدة ـ. كما سمح للمسيحيين أن يؤسسوا في بعض المدن الأخرى كنائس وأديرة جديدة[1]. هذا فضلاً عن السماح لهم بتجديد عمارة الكنائس القديمة.

فتحت مظلة التسامح الديني، انتهز البطريرك إبراهام السورياني ـ البطريرك الثاني والستون للكنيسة القبطية ـ صداقته الوطيدة بالخليفة المعز لدين الله، والتمس منه تجديد عمارة كنيسة القديس مرقوريوس المعروف بأبي سيفين بالفسطاط، وكذلك الكنيسة المعلقة بقصر الشمع، فأذن له المعز ببناء الكنيستين، كما قام البطريرك المذكور ببناء وترميم كثير من الكنائس بالإسكندرية وسائر أنحاء مصر. ولما اعترض بعض مشايخ المسلمين وعامتهم على قيام النصارى ببناء الكنائس الجديدة وترميم غيرها، أمر الخليفة المعز بتوفير الحراس لحماية وحراسة العمال والبنائين الذين يعملون في البناء حتى يستكملوا ما بدؤوه. وكان هذا تحدياً لمظاهر الغضب والسخط لمشاعر عامة المسلمين[2].

لكن المصادر النصرانية استغلت هذا التسامح الديني الذي أغدقه المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر على النصارى، وتصريحه لهم ببناء وتجديد

---

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٧م ص ٨٤.

(٢) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ ٣، ورقة ٤٣ـ ٤٤.

وتعمير وترميم الكنائس والأديرة، فذهب بها الادعاء إلى أن تزعم أن المعز لدين الله في أواخر أيامه، ارتد عن الإسلام، واعتنق النصرانية، ولبس زي الرهبان وظل على نصرانيته إلى أن دفن في كنيسة أبي سيفين بالفسطاط(١).

وترجع تلك المصادر النصرانية هذا الزعم إلى أسطورة خلاصتها: أنه حدث في مجلس الخليفة المعز لدين الله جدل ديني بين البطريرك إبراهام السورياني ومن معه، وبين اليهود يؤازرهم يعقوب بن كلس، انتهى لصالح البطريرك وجماعته. فما كان من ابن كلس إلا أن أوعز إلى الخليفة المعز بأن يمتحن إيمان النصارى قائلاً له: إن إنجيلهم يقول: «لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل». فما كان من المعز إلا أن طلب من البطريرك نقل جبل المقطم، وتمضي الأسطورة فتؤكد أن الرهبان والقسس اجتمعوا عند جبل المقطم، وقاموا بالصلوات والابتهالات فحدثت زلزلة شديدة تشقق لها جبل المقطم، فأكرم الخليفة المعز البطريرك وأجابه إلى طلبه بشأن التصريح له بتجديد وتعمير وترميم ما التمسه من كنائس وأديرة(٢).

ولقد تصدى الأستاذ عبد الله عنان للرد على تلك الأسطورة، وفندها فنقضها من أساسها، وأثبت بطلان دعواها(٣).

وفي خلافة العزيز لدين الله استغل أهل الذمة تسامحه وعطفه عليهم ومساندة زوجته النصرانية ـ الملكانية المذهب ـ لهم، فقام بطريرك الأقباط بإصلاح الكنائس المهدمة وبناء غيرها(٤). بل إن العزيز بالله أمر بتوفير الحماية للبنائين النصارى الذين يقومون بعمليات تعمير وترميم الكنائس ممن يعترض عليهم من المسلمين(٥).

---

(١) عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، الطبعة الأولى سنة ١٩٣١، ص ٧٧ ـ ٧٨.

(٢) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ ٣، ورقة ٤١ـ ٤٤.
ـ الأنبا ميخائيل: (سقف أتريب) السكنسار، جـ ١، ص ١٣٧ـ ١٣٨.
ـ سميكة: المرجع السابق، جـ ١، ص ١٨٨.

(٣) عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، ص ٧٨ـ ٨٥.

(٤) أبو صالح الأرمني: المصدر السابق، ص ٣٤ـ ٣٥.

(٥) أبو صالح الأرمني: المصدر السابق، ص ٣٦.

غير أن بعض الكنائس تعرضت في سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م لغضب عامة المسلمين بعاصمة الخلافة، ففي هذا العام قرر الخليفة العزيز الخروج لجهاد الروم، وبينما الجيش على أهبة الاستعداد للتحرك، إذا بقطع الأسطول الفاطمي الراسية في ميناء المقس تتعرض لحريق مدمر، أتى على معظمها، فاتهمت الرعية تجار الروم الواردين بالبضائع إلى مصر، فقتلوا منهم حوالي مائة وستين، ثم هاجمت العامة والمغاربة كنيسة القديس ميخائيل التي للملكانية بقصر الشمع كما نهبت كنيسة النسطورية، إلا أن العزيز أنزل العقاب الصارم بالمسلمين الذين اشتركوا في قتل الروم ونهب الكنائس، وأمر برد ما أخذ من ممتلكات الكنائس إليها(١).

وهكذا يتضح مما سبق أن الخليفتين المعز والعزيز قد صرحا بترميم الكنائس، وهذا ما يتفق مع ما يسمى بالشروط العمرية فيما يتعلق بالكنائس، إلا أنهما صرحا أيضاً بإقامة وبناء الكنائس الجديدة بالقاهرة وبالأقاليم، وهذا ما لا يتفق مع الشروط العمرية التي حرمت بناء الكنائس الجديدة لأهل الذمة، فخالفا بذلك ما اتفق عليه جمهور المسلمين.

لكن الخليفة الحاكم بأمر الله كان صارماً في تنفيذ ما جاء بالشروط العمرية فيما يتعلق بدور العبادة الخاصة بأهل الذمة، بل زاد عليها، فأمر بهدم الكثير من الكنائس في فترة سياسته المتشددة إزاء أهل الذمة.

ففي سنة ٣٩٣هـ ـ ١٠٠٢م كان الاحتكاك الأول بين الخليفة الحاكم بأمر الله وبين النصارى فيما يتعلق بتجديد الكنائس، ففي تلك السنة شرع أبو منصور الزيات الكاتب النصراني ـ اليعقوبي المذهب ـ في تجديد كنيسة قديمة مندرسة بظاهر الفسطاط، في الموضع الذي عرف بعد ذلك براشدة، مما أثار غضب عامة المسلمين. ولما علم الحاكم بأمر الله بذلك أمر بهدم الكنيسة فهدم عامة المسلمين ما بني منها، وأمر الحاكم بأمر الله بأن ينشأ مكانها مسجد عرف بجامع راشدة، وبدىء في عمارته في ربيع الآخر سنة ٣٩٣هـ، ولما رأى توسعة الجامع أزيلت مقابر اليهود والنصارى التي كانت ملاصقة له لاستكمال بنائه(٢). كما

---

(١) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ١٧٨ـ ١٧٩.

(٢) النويري: المصدر السابق، جـ ٢٦، ورقة ٥٣.

هدمت في سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م كنيستان كانتا بجوار الجامع[١]، إحداهما لليعاقبة والأخرى للنسطورية، وبنى الحاكم بأمر الله في موضعهما مسجدين للمسلمين. وشمل الهدم أيضاً كنيستان للملكانية كانتا بحارة الروم بالقاهرة[٢].

وفي رجب سنة ٣٩٧هـ، أمر الحاكم بأمر الله بمصادرة كل ما هو محبس على الكنائس من أملاك وعقارات وجعله في الديوان، وكتب إلى سائر الأعمال بذلك، كما أحرق العديد من الصلبان على باب الجامع العتيق بالفسطاط[٣] ثم تلاه مرسوم آخر في رجب سنة ٣٩٨هـ بمصادرة أوقاف الكنائس الحديثة والعتيقة بمصر خاصة دون غيرها من أقاليم الدولة وجعلها باسمه في الديوان[٤].

ثم كان أخطر مرسوم أصدره الحاكم بأمر الله، وهو الخاص بهدم كنيسة القيامة ببيت المقدس، وعلى الرغم من أن بعض المصادر العربية ترجع تاريخ هدم كنيسة القيامة إلى أواخر عام ٣٩٨هـ ـ ١٠٠٨م[٥]، إلا أن الرواية النصرانية المعاصرة تحدد سنة ٧٢٧ للشهداء وهي توافق ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م تاريخاً لهذا السجل الخطير[٦].

وقد ألقت تلك الرواية النصرانية المعاصرة الضوء على ظروف الحادث والأسباب التي دفعت الخليفة الحاكم بأمر الله إلى اتخاذ هذا القرار. ويروي الأنبا ميخائيل أنه عندما غضب الحاكم بأمر الله على الأنبا زخاريا بطريرك اليعاقبة أمر بإغلاق الكنائس أولاً، ثم القبض على البطريرك واعتقاله وحبسه، . . . وفي ثاني يوم لاعتقاله أمر الخليفة كاتب السجل النصراني النسطوري المعروف بابن شترين، بأن يكتب إلى الشام بهدم كنيسة القيامة بالقدس، وجاء في السجل «خرج

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٤٨.

(٢) الأنطاكي: المصدر السابق، ١٨٦.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٢٦٣ـ ٢٨٦.

(٤) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٥) القلانسي/ (الذيل، ص ٦٦)، ابن الجوزي (المنتظم، جـ ٧، ص ٢٣٩) سبط بن الجوزي (امرأة الزمان، جـ ١١، ورقة ٣٠٤)، المقريزي (اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٧٥) العيني (عقد الجمات جـ ١٩، ورقة ٥٤٤) عنان (الحاكم بأمر الله، ص ١٣٦).

(٦) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ ٣، ورقة ٦٠.
ـ الأنطاكي: المصدر السابق، ص ١٩٦.

أمر الإمامة إليك، فاهدم قمامة، فاجعل سمائها أرضاً، وطولها عرضاً»[1]، فقام والي الرملة (فلسطين) بإرسال رجاله وأمرهم بمصادرة كل ما في الكنيسة من الذخائر والتحف والآنية المقدسة، واحتاطوا على كل محتوياتها، كما هدمت مباني الكنيسة إلا ما تعذر هدمه، وأزيلت كنيسة ماري قسطنطين وكل ملحقاتها، ولم يبق من الآثار المقدسة بكنيسة القيامة سوى أثر الصخرة التي شيد عليها القبر المقدس، وقد أصيبت بالتلف من جراء ضربها بالمعاول، كما هدم دير السري وكان خاصاً بالراهبات، وصودرت جميع أملاك الكنيسة وأوقافها وأموالها، وأخذت جميع محتوياتها من تحف وذخائر، ويؤرخ الأنطاكي الخامس من صفر سنة ٤٠٠هـ تاريخاً لابتداء هدم الكنيسة[2].

أما معظم المصادر الإسلامية، فقد تعرضت هي الأخرى لهذا الحادث الخطير، وأسباب حدوثه، تؤرخ له بعام ٣٩٨هـ، وتذكر أنه في هذا العام خرج نصارى على عادتهم في كل عام إلى بيت المقدس لحضور احتفالات عيد الفصح، وهم في أجمل مظاهر العظمة والأبهة كما يخرج المسلمون إلى الحج فاستدعى الخليفة الحاكم بأمر الله ختكين الضيف العضدي أحد قواده، وسأله عن أمر كنيسة القيامة لمعرفته بها، وما يحدث في هذا العيد هناك، فأخبره بأنها بيعة تعظمها النصارى، ويحج إليها من جميع البلاد، ويأتي إليها حكام الدول المسيحية حاملين إليها النذور والأموال الكثيرة والثياب الديباج والستور والفروش والقناديل والشموع والصلبان، وأواني الذهب والفضة والتحف النادرة، فإذا كان يوم الفصح زينت الكنيسة بالأضواء الباهرة، وعلقت القناديل المضيئة والمملوءة بدهن البلسان في المذبح، وقد اجتمع النصارى لإقامة الصلوات والشعائر الدينية، في مواكب دينية صاخبة، ورفعوا أصواتهم يرددون الأدعية والابتهالات، حاملين المباخر والصلبان الضخمة، وقد علق خدم الكنيسة بها القناديل المملوءة بدهن البلسان مع دهن الزئبق، فتنبعث منها الأضواء الساطعة التي تخطف البصر، وبطريقة تخيل للناظرين إليها أنها نزلت من السماء، فيكثر تهليلهم وتكبيرهم. فأنكر الحاكم بأمر الله ذلك، وتقدم إلى أبي المنصور بشر بن سورين كاتب الإنشاء بأن يكتب رسالة إلى الداعي أحمد بن يعقوب بأن يقصد بيت المقدس،

---

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ ٣، ورقة ٥٦.

(٢) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ١٩٦.

ومعه والي الرملة، فيهدم كنيسة القيامة، ويأخذ محتوياتها، ويبيح لعامة المسلمين نهبها ومحو أثرها[١]،[٢]. فقام والي الرملة ومعه الأشراف والقضاة والشهود ووجوه المسلمين، وقصدوا كنيسة القيامة. إلا أن نصارى مصر عندما علموا بصدور مرسوم الخليفة الحاكم بأمر الله بهدم الكنيسة سارعوا بإحاطة بطريرك بيت المقدس علماً بمضمون السجل، فأخفى البطريرك كثيراً مما كان فيها من الفضة والذهب والجواهر والثياب والتحف قبل وصول أصحاب الحاكم بأمر الله الذين أحاطوا على ما تبقى فيها من موجودات وكان شيئاً عظيماً، فتمت مصادرته، كما هدموا مباني الكنيسة و«قلعت حجراً حجراً». وتعرضت للنهب والتخريب[٣].

وأغلب الظن أن تخريب الكنيسة «لم يكن تخريباً كلياً»، وأن الهدم امتد فقط إلى أغلب منشآتها[٤].

ونتيجة لهذا الحادث اهتز العالم المسيحي، وارتفعت الأصوات في أنحائه تطالب بحماية القبر المقدس، وأخذت البابوية على عاتقها الترويج لهذه الدعوة[٥].

ولقد اتبع الحاكم بأمر الله قراره بهدم كنيسة القيامة بقرار آخر يقضي بهدم جميع الكنائس والبيع في جميع أقاليم الدولة، إلا أنه أمسك عن هدم كثير منها خوفاً من أن تقوم شعوب العالم المسيحي بهدم ما في بلادها من مساجد المسلمين[٦].

إلا أنه في تاسع عشر ذي الحجة سنة **٣٩٩هـ** أمر الحاكم بهدم كنائس القنطرة التي في طريق بيت المقدس، وكذلك كنائس حارة الروم، ونهب جميع ما فيها، وفي السنة التالية أمر بهدم كنيسة العجوز بدمياط، وكانت واحدة من أعظم

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٧٥.

(٢) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٧٦.

ـ على أن المقريزي يذكر أنه في صفر سنة ٤٠٠هـ كتب من إنشاء ابن سورين لهدم قمامة بالمقدس (اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ٨١).

(٣) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جـ ١، ص ٣٠٣.

(٤) عنان: الحاكم بأمر الله، ص ١٣٨.

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٧٥.

(٦) النويري: المصدر السابق، جـ ٢٦، ورقة ٥٥.

كنائس الملكانية بمصر، فشرع في هدمها يوم الجمعة في الثاني عشر من شهر رمضان سنة ٤٠٠هـ كما نبشت مدافن بالكنيسة كانت لنصارى دمياط من الملكانية وأزيلت معالمها، وأخذت محتوياتها وما بها من آنية الذهب والفضة، وصودرت أملاك الكنيسة وعقاراتها وكل ما حبس عليها، وبني في موضعها مسجد للمسلمين(١).

وفي صفر سنة ٤٠٢هـ أمر الحاكم بأمر الله بأن لا يضرب بناقوس، وألا يظهر صليب بأية كنيسة ولا تقع عليه عين، فنزعت الصلبان من الكنائس ومحيت معالمها من ظاهر البيع والكنائس(٢).

وفي ربيع الأول سنة ٤٠٣هـ وقع الأمر بهدم جميع الكنائس في الديار المصرية(٣). فسأل جماعة من النصارى الحاكم بأمر الله أن يتولوا هدم كنائسهم بأيديهم، وأن يبنوها مساجد للمسلمين، وقطع الحاكم ما للكنائس من رباع وأملاك لجماعة من الخدم الصقالبة، ووهب لهم ما في الكنائس من التحف والذخائر وأواني الذهب والفضة وغيرها من الحواصل والمآكل، كما أقطع كثيراً من الكنائس لكل من التمسها، ولم يرد من سأله شيئاً منها(٤). ثم أصدر أوامره إلى ولاته بالأقاليم وسائر أعمال الدولة بأن يهدم كل والٍ ما في ولايته من كنائس(٥)، فهدم كثيراً منها، ومحيت معالمها وأزيلت آثارها، وقلعت أساساتها من الأرض، وأخذ أنقاضها، وأنشىء مكان البعض منها عدد من المساجد(٦). كما تحول بعض هذه الكنائس إلى مساجد للمسلمين(٧)، ويرى الأنطاكي أنه قد أخرجت عظام الموتى من الكنائس في عدة بلدان، وأحرقت الكتب الموجودة بها، كما ألزم الحاكم بأمر الله نصارى كل بلدة بأن يدفعوا أجور العمال الذين

---

(١) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ١٧٩.

(٢) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٠٣.

(٣) المقريزي: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٩٤.

(٤) النويري: المصدر السابق، جـ ٢٦، ورقة ٥٧.

(٥) النويري: نفس المصدر ونفس الورقة.
ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٩٤.

(٦) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٧) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٩٤.

قاموا بهدم ونقض ما بها من كنائس[١]، ويذكر المقريزي أن كنيسة أبي شنودة ـ كبرى الكنائس القبطية بمصر ـ والكنيسة المعلقة بالفسطاط قد تعرضتا لنهب ما فيهما من الأموال والمصاغ وثياب الديباج وغير ذلك من التحف والذخائر وكان شيئاً مثيراً[٢]. هذا بجانب ما نهب من أموال الكنائس والديارات في سائر أنحاء الدولة، فباع الناس بأسواق مصر كل ما وصلت إليه أيديهم من تلك الثروات والتحف وتصرفوا في أحباس أملاك وعقارات الكنائس بالبيع والشراء[٣].

ولقد تتابع هدم الكنائس في جميع أنحاء الدولة، وطبقت القرارات الخاصة بهدمها في منتهى الحزم والصرامة لمدة ما يقرب من ثلاث سنوات من ربيع الآخر سنة ٤٠٣هـ إلى أواخر سنة ٤٠٥هـ. وهدم في تلك الفترة من الكنائس والأديرة التي بناها الروم حوالي ثلاثين ألف ـ حسب قول المقريزي ـ، ونهب من أموالها وذخائرها ما يصعب حصره، وأخذ من أوقافها وأملاكها الشيء الكثير[٤].

وعلى الرغم من أن الأنطاكي بالغ في وصف قسوة الأساليب التي اتبعت في هدم الكنائس، وعلى الرغم من مبالغة المقريزي في تقدير ما هدم من كنائس وأديرة الروم، إلا أن واقع الأمر يؤكد أن الحاكم بأمر الله اتبع سياسة غاشمة متعصبة إزاء دور عبادة أهل الذمة في تلك الفترة، وليس هناك ما يبرر اتخاذ مثل تلك القرارات والإجراءات المنافية لروح التسامح الإسلامي، بل إن تلك القرارات تعكس روح التعصب الديني ـ لدى الخليفة الحاكم بأمر الله ـ التي غذتها كثرة حروبه من الروم.

ولقد حاول الراهب يونس ـ السابق الإشارة إليه ـ والحاقد على البطريرك زخاريا، أن يشعل نار الفتنة مرة أخرى بين الخليفة الحاكم بأمر الله وبين رجال الكنيسة الذين ألقوا على الراهب يونس تبعة تصرفات الحاكم الغاشمة إزاء هدم الكنائس، إلا أن الخليفة الحاكم بأمر الله كان قد قرر اتباع سياسة معتدلة إزاء أهل الذمة[٥].

---

(١) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٩٤ـ ٩٥.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٢٨٧، ٢٩٤، ٢٩٥.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٤٩٥.

(٥) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ ٢، ورقة ٦٠.

ففي جمادى الأخرى سنة ٤١١هـ، أصدر سجلاً إلى نقفور بطريرك بيت المقدس بحفظ دور العبادة الخاصة بأهل الذمة في بيت المقدس، والمنع من نقضها، وأنعم على كنائس بيت المقدس برد أوقافها إليها، «وانفتح حينئذٍ باب رجعة الكنائس ورد أوقافها»[١]. كما صرح الحاكم بأمر الله لبطريرك الروم بالقاهرة بتعمير كنيسة القنطرة بالفسطاط، ثم توالت التماسات الأنبا سلمون رئيس دير طور سيناء والتماسات غيره من النصارى إلى الحاكم برد كل كنيسة من كنائسهم وعمارتها ورد أوقافها.

كما كتب الأنبا سلمون رقاعاً رفعها إلى الحاكم بأمر الله عن أهل البلدان البعيدة التماساً لبناء وتجديد ما هدم من كنائس فأجاب الحاكم بأمر الله كل ملتمسه، وأطلق عمارة الكنائس التي يستدعي الأمر منه الإذن فيها، وإعادة أوقافها إليها. إلا ما كان قد بيع في وقت القبض عليها[٢] بأن يعاد إلى الكنائس الأخشاب والعمد والطوب والحجارة المأخوذة منها[٣]، وجد النصارى في عمارة كنائسهم فعادت إلى أحسن مما كانت عليه[٤].

زد على ذلك أن الحاكم بأمر الله أمر بإعفاء كثير من أملاك الكنائس وأوقافها من دفع ما عليها من الخراج والرسوم، وما فرض عليها من غرامات سابقة[٥].

وفي بداية خلافة الظاهر لإعزاز دين الله، سمح للنصارى الذين تؤازرهم ست الملك ـ ببناء الكنائس، إلا أن ست الملك ـ التي كان لها نفوذ كبير في الدولة ـ أخذت الخراج والرسوم التي سبق للحاكم بأمر الله إعفاء أوقاف وأملاك الكنيسة منها[٦].

وفي عهد الظاهر أيضاً أعيد تجديد عمارة كنيسة القيامة ببيت المقدس كما

---

(١) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٣١.
(٢) الأنطاكي: نفس المصدر ونفس الصفحة.
(٣) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ ٢، ورقة ٦٠.
(٤) الأنبا ميخائيل (أسقف أتريب): السنكسار، جـ ١، ص ١٠٨.
ـ العيني: المصدر السابق، جـ ١٩، ورقة ٥٤٨.
(٥) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٢٩ـ ٢٣٧.
(٦) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٣٨.

استمر النصارى في تعمير وتجديد في سائر أقاليم الدولة[١]، «حتى أعيدت لما كانت عليه وأفضل»[٢]، وردت أوقاف للكنائس لم تكن قد ردت إليها في خلافة الحاكم[٣].

وفي عهد وزارة اليازوري في الخلافة المستنصرية تعرضت الكنائس لبعض القيود، بسبب الخلاف الذي نشب بين اليازوري والبطريرك خريستوذولوس لأنه أنشأ كثيراً من الكنائس المستحدثة مما أدى إلى إغلاق الكنائس وهدم ما استجد منها وفرض غرامات مالية على ما استحدث من تلك الكنائس.

على أن حصن الدولة والي الإسكندرية في ذلك الوقت والذي كان يعطف على النصارى، أرسل خفية إلى بعض خواصه من رجال الكنائس بالإسكندرية ليجردوا كنائسهم سراً من الأواني والحلي وكل ثمين من محتوياتها، قبل أن تصل إليها يد المكلفين بالاستيلاء عليها من قبل السلطة[٤].

ولما رفض الروم سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م أن يخطب للخليفة المستنصر بالله بجامع القسطنطينية، أمر الخليفة المستنصر بمصادرة أملاك كنيسة القيامة بالقدس مع مصادرة أموالها ونفائسها[٥].

ومع هذا قام النصارى في خلافة المستنصر بترميم وبناء بعض الكنائس إذ يذكر أبو صالح الأرمني في تاريخه أن كنيسة القديس جرجيوس بالحمراء ـ والتي كانت قد تصدعت ـ قد أصلحت وجددت على يد المعلم سرور الجلال الذي كان من أغنياء النصارى[٦]، كما كان هناك كثير من رجال الدولة ـ في خلافة المستنصر ـ ممن شملوا برعايتهم وتسامحهم كنائس النصارى ودور عبادتهم[٧].

---

(١) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٣٤٣.

(٢) الأنبا ميخائيل: سر البيعة المقدسة، جـ ٣، ورقة ٦١.

(٣) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٣٨.

(٤) الأنبا ميخائيل: سر البيعة المقدسة، جـ ٣، ورقة ٦١.

ـ جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٤٠.

(٥) العيني: المصدر السابق، جـ ٢٠، ورقة ١١٢.

(٦) أبو صالح الأرمني: المصدر السابق، ص ٣١.

(٧) الأنبا ميخائيل: سر البيعة المقدسة، جـ ٣، ورقة ٧٧.

الأديرة:

وكانت أديرة النصارى منتشرة في أنحاء مصر والشام، ونعم رهبان تلك الأديرة بسياسة التسامح الديني إزاء أهل الذمة التي كانت سمة من سمات عصر الفاطميين، باستثناء فترة من عهد الخليفة الحاكم بأمر الله.

فعندما أقدم جوهر الصقلي على بناء مدينة القاهرة لتكون عاصمة الفاطميين قام بتعمير دير الخندق بظاهر القاهرة من شمالها، عوضاً عن دير هدمه كان موضعه بالقرب من الجامع الأقمر، وكان يعرف بدير العظام. كما نقل رفات موتى النصارى إلى دير الخندق احتراماً لمشاعر النصارى في مصر(١).

ولما قدم الخليفة المعز لدين الله إلى مصر واستقر بها، شمل برعايته وعطفه ديارات النصارى ورهبانها، وصرح للبطريرك إبراهام السورياني رأس الكنيسة القبطية آنذاك بترميم الأديرة القديمة وبناء ما التمسه من الأديرة الجديدة في سائر أقاليم الدولة(٢).

وفي خلافة العزيز بالله كانت ديارات النصارى في حمايته، ونعم الرهبان بالأمن والطمأنينة طوال عهده، كما أقام النصارى ببناء بعض الأديرة دون الاستئذان منه(٣)، وعلى سبيل المثال فإن أرسانيوس البطريرك الملكاني صهر العزيز بالله أحاط دير القصير بالمقطم بسور عظيم، وعمر الدير وجدده، وأنشأ فيه أبنية كثيرة(٤).

وقبل أن تهب العاصفة ويتشدد الحاكم بأمر الله في سياسته تجاه أهل الذمة، قام النصارى بتجديد عمارة بعض الأديرة، فقد اهتم أبو نصر بن عبدون ـ وكان آنذاك يتولى ديوان الشام، بتجديد عمارة دير مار يوحنا(٥)، وكان على جانبي هذا الدير بساتين أنشأ بعضها الأمير تميم بن المعز وكانت من مواضع النزهة والطرب(٦).

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٥٠٦.

(٢) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ ٣، ورقة ٤١ـ ٤٢.

(٣) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٤) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ١٩٧.

(٥) أبو صالح الأرمني: المصدر السابق، ص ٥١.

(٦) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٥٠٥.

وعندما هبت العاصفة ضد أهل الذمة في خلافة الحاكم، وصل ذراها إلى الأديرة والرهبان، فهدم الكثير من الأديرة، ولم يتبق منها إلا القليل[١].

ففي العاشر من رجب سنة ٣٩٨هـ، أمر بوضع اليد على أوقاف الديارات الحديثة والعتيقة بمصر دون غيرها من البلدان، وجعلها باسمه في الديوان[٢]، وفي مرسومه الصادر في ذي الحجة سنة ٣٩٩هـ، كان هدم كنيسة القيامة بالقدس وشمل الهدم والتخريب دير للراهبات بجوارها يعرف بدير السري، ونهب ما فيه من تحف وذخائر[٣]. كما صودرت أملاك الأديرة وأوقافها في أنحاء الدولة وامتدت إليها معاول الهدم لنقضها[٤].

وفي يوم الثلاثاء ثامن شهر رمضان سنة ٤٠٠هـ، أصدر الحاكم بأمر الله مرسوماً بهدم دير القصير بجبل المقطم، ونهب جميع ما فيه، وكان أرسانيوس بطريرك الملكانية يومئذٍ مقيماً فيه مع الرهبان، فأخرجوا جميعاً من الدير، وأخذت تنقضه معاول الهدم، ولعل السبب في ذلك تشدد الحاكم بأمر الله في سياسته إزاء أهل الذمة عامة، وإزاء النصارى الملكانية بوجه خاص، هذا بجانب أن البطريرك استحدث بالدير عدة مبان ومنشآت جديدة، وعمر وجدد في مبانيه، مما اضطر الحاكم بأمر الله تمشياً مع سياسته وتشدده في تطبيق الشروط العمرية إلى هدم الدير وجميع ملحقاته المستحدثة، واستمر الهدم فيه عدة أيام، وكان للنصارى الملكانية خارج الدير مقابر ومدافن لموتاهم، ففتح الرعايا والعبيد جميعها، ونبشوها، وأخذوا توابيت الموتى، ولما علم الحاكم بذلك، أمر بالكف عن فتح القبور وترك التعرض لرفات الموتى وما تحويه المدافن[٥]. وفي تلك السنة ألغيت جميع الأحباس المرصودة على الأديرة بمصر وضمت للديوان[٦]. وفي صفر سنة ٤٠٢هـ نزعت الصلبان وطمست آثارها من ظاهر الأديرة، وفي جمادى الأخرى

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٥٠٦.

(٢) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٣) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ١٩٦.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٩٥.

(٥) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ١٧٩.

ـ أبو صالح الأرمني: المصدر السابق، ص ٦٣.

(٦) عنان: الحاكم بأمر الله، ص ١٣٨.

سنة ٤٠٣هـ أقطع الحاكم بأمر الله معظم الأديرة العتيقة والحديثة بمصر وسائر أقاليم الدولة لكل من التمسها[(١)]. وأحرق بعضها[(٢)]. ووهب لهم أملاكها وما هو موقوف عليها، وسمح لهم بنهب محتوياتها، وكتب إلى عماله في سائر أعمال الدولة بهدم الأديرة ونقضها ومحو آثارها، فأتى على أكثر الأديرة بالأقاليم، إلا الدير الكبير المعروف بدير أبي مقار ـ في ترنوط من أعمال الإسكندرية ـ وما حوله من الأديرة القريبة منه، إذ بلغ الحاكم بأمر الله أن هذا الدير في حماية قبيلتي بني قرة وبني كلاب العربيتين، وأن عرب هاتين القبيلتين لا يمكنون أحداً من الوصول إليه والتعرض له، فأمسك الحاكم عن هدمه أو إلحاق الضرر به[(٣)]، مما أتاح للرهبان المقيمين فيه حرية العبادة وإقامة الشعائر الدينية في الفترة التي ضيق فيها الحاكم بأمر الله الخناق على الكنائس والأديرة بمصر[(٤)].

هذا بينما أقطع الحاكم بأمر الله دير راية، ودير طور سيناء، لرجل عربي يعرف بابن غياث، فهدم إحدى كنيستي دير راية، وأخذ جميع ما فيه من تحف وذخائر ومحتويات، ويذكر الأنطاكي أن الخليفة الحاكم أوعز إلى ابن غياث المسير إلى دير طور سيناء لهدمه وبناء مسجد مكانه، إلا أن الأنبا سلمون بن إبراهيم أحد الكتاب النصارى الذين اتخذوا من الرهبانية طريقاً لهم، وكان على قدر كبير من الذكاء والسياسة، أحسن استقبال ابن غياث هذا، وأكد له أن أسقف الدير ورهبانه على استعداد تام للمساعدة في هدم الدير لساعته وغير مانعين له منه، وسلم إليه جميع محتويات الدير من التحف والذخائر وما به من الذهب والفضة، وقال له قولاً ليناً. وأوضح الأنبا سلمون لابن غياث صعوبة هدم الدير لحصانة مبانيه وضخامة جدرانه وأسواره، وكثرة ما يلزم من الأموال والنفقات لهدم الدير، والتمس الراهب من ابن غياث عدم التعرض للدير مقابل مبلغ من المال تقرر دفعها إليه. فرضي ابن غياث بما تم الاتفاق عليه، وانصرف دون أن يهدم الدير أو يلحق برهبانه الأذى[(٥)].

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا: جـ ٢، ص ٨١.

(٢) أبو صالح الأرمني: ٧٧.

(٣) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٤) ابن الراهب: المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٥) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٠٤ـ ٢٠٥.

لكن الحاكم بأمر الله قبل اختفائه سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م كان قد خفف من مطاردته لأهل الذمة، فانتهز الأنبا سلمون رئيس دير طور سيناء تحول الخليفة عن سياسته السابقة وتسامحه مع أهل الذمة، وشكا إليه سوء حالة رهبان دير طور سيناء، وما هم عليه من الضرر والفاقة، وتوسل إليه في إطلاق الأوقاف الخاصة بالدير والتي سبق مصادرتها ليستعين الرهبان بريعها في احتياجاتهم ومتطلبات إعاشتهم، فأجابه الحاكم بأمر الله إلى ملتمسه، وأعاد ما كان للدير من أوقاف وأملاك[١].

وعندما التقى الأنبا سلمون بالحاكم بأمر الله شكا إليه ما أصاب دور العبادة الخاصة بالنصارى من خراب، وما تعرضت له أوقافها من المصادرة والتمس منه الإذن بتجديد عمارة دير القصير، والسماح بعودة الرهبان إلى سكناه، واجتماع النصارى فيه للصلاة مع رد ما سبق مصادرته من أملاك وأوقاف الدير إليه وإعفائها ما يستجد له من أوقاف مما يجب من «خراج وعشر وغرم ورسم» في سائر دواوين الدولة، فأجابه الحاكم إلى ما التمسه وكتب له سجلاً بذلك في ربيع الآخر سنة ٤١١هـ. ثم كتب الحاكم سجلاً إلى نقفور بطريرك بيت المقدس بحماية أديرة بيت المقدس ورد أوقافها إليها وإطلاق حرية التعبد لرهبانها، وحذر كل من تسول له نفسه مخالفة أوامره[٢].

وبعد ذلك أطلق الحاكم عمارة جميع الديارات في سائر أنحاء الدولة وأمر برد أوقافها وأملاكها إليها، إلا ما كان قد بيع إبان مصادرتها، وأعطى لكل من سأله سجلاً في معية سجل دير القصر[٣].

ثم كان قرار الحاكم بالعفو الشامل بمقتضى مرسوم أصدره في شهر شعبان سنة ٤١١هـ قبيل اختفائه[٤]. كما تعاطف الحاكم بأمر الله مع الرهبان ونشأت صداقة وطيدة بينه وبين بعض الرهبان، ومنهم برين الراهب الذي كان قد اعتنق الإسلام ثم ارتد إلى النصرانية في خلافته، وعاد صاحباً له، وكان واحداً من الذين التمسوا من الحاكم بأمر الله إعادة فتح الكنائس والأديرة، وإلغاء الكثير من

---

(١) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٢٨.
(٢) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٢٩ـ ٢٣١.
(٣) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٣١.
(٤) الأنطاكي: المصدر السابق، ٢٣٣.

القيود التي فرضت على النصارى، كما أن الحاكم بأمر الله صرح له بتجديد عمارة أحد الأديرة، وأطلق ما سبق مصادرته من أوقاف هذا الدير[١].

وزار الخليفة الحاكم بأمر الله في أواخر أيامه الرهبان في أديرتهم وقد لبس زي الرهبان، فكثيراً ما كان يقصد دير القصير أثناء تجديد عمارته، ويحث الصناع والعمال على الانتهاء منه، كما أطلق الأموال للصرف على بنائه، ودفع للرهبان المقيمين فيه الأموال الجزيلة للمساهمة في نفقات معيشتهم وسد احتياجاتهم، كما ساعد في دفع أجور العمال، وكافأ البنائين العاملين في بنائه، تشجيعاً لهم للإسراع في عمارته[٢].

هذا ولم يقتصر الحاكم بأمر الله على زيارة دير القصير الخاص بالروم الملكانية، بل إنه كان يقصد الديارات التي جددها النصارى اليعاقبة للوقوف على ما تم في عمارتها، مما دفع عوام المسلمين إلى إطلاق الإشاعات المغرضة ضده، واتهامه بأنه قد تتلمذ على يد الأنبا سلمون الراهب، وأنه قد انحاز إليه وامتثل لأوامره[٣].

وهكذا أعاد الحاكم بأمر الله سياسة التسامح الديني بإطلاق الحرية الدينية لأهل الذمة، فصرح لهم بحرية إقامة شعائرهم الدينية، والتعبد علانية في الكنائس والأديرة، والسكن بها، مع توفير الأمن والحماية لهم، وشملهم بعطفه ورعايته، وزارهم في أديرتهم، وأطلق لهم ما كان موقوفاً عليها من أملاك وأموال وعقارات، وأجاب النصارى لكل ما يحقق صلاح أمورهم[٤].

وفي تلك الأثناء، أذن الحاكم بأمر الله لمن دخل من الإسلام كرهاً أن يرتد إلى دينه، فارتد آلاف من النصارى ممن كانوا قد تظاهروا بالإسلام إلى المسيحية، ويروى عن الحاكم قوله في هذا الصدد: «ننزه مساجدنا عمن لا نية له في الإسلام»[٥]، كما صرح بأن تضرب النواقيس في البيع والكنائس[٦]، إيذاناً منه

---

(١) أبو صالح الأرمني: المصدر السابق، ص ٦٠.

(٢) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٣٣.

(٣) الأنطاكي: نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٤) الأنطاكي: نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٥) العيني: المصدر السابق، جـ ١٩، ورقة ٥٤٨.

(٦) الأنبا ميخائيل (أسقف أتريب): السنكسار، جـ ١، ص ١٠٦.

بإطلاق الحرية الدينية لأهل الذمة.

أما عن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، فقد أعلن أنه سيتوخى العدل في سياسته مع كافة الناس على اختلاف وظائفهم ودياناتهم، ولقد انعكست تلك السياسة على أهل الذمة، إذ استمرت سياسة إعادة بناء الأديرة، وبذل رؤساء الكنيسة جهوداً كبيرة لتعمير ما خرب منها[1]، هذا فضلاً عن أن الخليفة الظاهر أصدر مرسوماً عاماً يؤكد استمرار سياسته في إطلاق الحرية الدينية لأهل الذمة، وبأنه لا إكراه في الدين، فمن آثر منهم على البقاء على يهوديته أو نصرانيته فله ذلك، ولهم جميعاً الحماية والأمان والطمأنينة «على نفوسهم ودمائهم، وأولادهم، وأموالهم، وأحوالهم، ما سلكوا الطريق المستقيمة ولم يقصدوا المقاصد الذميمة»[2].

كما أصدر الخليفة الظاهر في المحرم سنة ٤١٥هـ مرسوماً للرهبان اليعاقبة بتجديد ما سبق أن أقره الخلفاء الفاطميون الأوائل من توفير الحماية لهم، وصيانة ممتلكات أديرتهم، وعدم المساس بأوقافها.

بل إن الظاهر لإعزاز دين الله سمح بعودة جماعة من النصارى سبق لهم الهجرة إلى بلاد الروم، إلا أنه أخذ منهم الجزية من السنة التي انتهى استخراجها منهم إلى السنة التي عاد فيها كل واحد منهم[3].

وفي خلافة المستنصر بالله الفاطمي نعم الرهبان بحرية ممارسة شعائرهم الدينية في الفترة الأولى من خلافته (٤٢٧هـ ـ ٤٤٧هـ) أي حتى منتصف القرن الخامس الهجري/ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي. ولم تتعرض الأديرة لما يسيء إليها أو إلى رهبانها، إذ سار المستنصر بالله على سياسة أسلافه التي تميزت بالتسامح الديني وحرية العبادة لأهل الذمة، يذكر أن كنيسة القيامة «يقيم بها كثير من القسس والرهبان، يقرؤون الإنجيل، ويصلون، ويشتغلون بالعبادة ليل نهار»[4].

---

(١) الأنبا ميخائيل: سر البيعة المقدسة، جـ ٣، ورقة ٦١.

(٢) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٣٦.

(٣) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٣٩.

(٤) ناصري خسرو: المصدر السابق، ص ٣٧.

على أن أديرة النصارى في الوجه البحري امتدت إليها يد السلب والنهب، أثناء تلك الحروب التي قامت بين قوات المستنصر، وبين القائد التركي نصر الدولة الذي شق عصا الطاعة، كما شوهت زخارف ورسوم تلك الأديرة ومبانيها، وتعرض رهبانها للأذى والقتل والتشريد، مما أدى إلى هروب من نجا منهم إلى الأرياف فراراً من البطش والموت[١].

ومع انتشار المجاعة، وازدياد الفتن، واضطراب الأمن وعجز الخليفة المستنصر عن استرجاع هيبته وسلطانه، وتدهور الأوضاع بوجه عام في جميع أنحاء الدولة، اضطر المستنصر بالله إلى استدعاء بدر الجمالي إلى مصر، لعله يعيد الأمور إلى حالتها الطبيعية[٢].

---

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ ٣، ورقة ٧٩، ٨٧.

(٢) ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، ص ٣٨٣، ٣٩٢ـ ٣٩٣.

الكنائس اليهودية في الدولة الإسلامية

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن كنائس اليهود في مصر، فإن المقريزي يذكر أنه كان لليهود عدة كنائس منتشرة في الديار المصرية ويتناول في حديثه إحدى عشرة كنيسة منها: كنيسة دموه بالجيزة، وكنيسة جوجر بالقرى الغربية[١]، وفي مدينة الفسطاط كان لليهود ثلاث كنائس هي: كنيسة المصاصة[٢]، وكنيسة الشاميين[٣]، وكنيسة الربانيين[٤].

كما كان لليهود عدة كنائس في مدينة القاهرة، فكان بحارة الجودرية كنيسة عرفت بها، ويروي المقريزي أنها خراب منذ أن أحرق الخليفة الحاكم بأمر الله تلك الحارة على اليهود[٥]. أما حارة زويلة وحدها فقد وجد بها خمس كنائس[٦] هي: كنيسة القرائين، وكنيسة دار الحدرة، وكنيسة الربانيين، وكنيسة السامرة، وجميع تلك الكنائس المذكورة - على حسب قول المقريزي - محدثة في الإسلام[٧].

وكان لمعظم هذه الكنائس مكانة خاصة عند اليهود، فهم يعتقدون أن كنيسة دموه - أعظم المعابد اليهودية بمصر - كانت الموضع الذي لجأ إليه موسى عليه السلام، حينما كان يبلغ رسالة الله عز وجل إلى فرعون، مدة إقامته بمصر، منذ أن قدم من مدين إلى مصر، إلى أن خرج بنو إسرائيل منها وكان بتلك الكنيسة شجرة

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٦٣.
(٢) المقريزي: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٤٧٠.
(٣) بنيامين التطيلي: المصدر السابق، ص ١٧٠، ١٧١.
(٤) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٧١.
(٥) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٧٠.
(٦) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٦٣.
(٧) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٧١.

زيزلخت في غاية الضخامة، لا يشكون من أنها ترجع إلى زمن موسى عليه السلام. كما كان لهذه الكنيسة عيد يرحل اليهود بأهاليهم إليها، في عيد الخطاب، وهو شهر سيوان، ويجعلون ذلك بدل حجهم إلى القدس(١).

أما كنيسة جوجر، فيزعمون أنها الموضع الذي ولد نبي الله الياس(٢) به(٣). كذلك يعتقد اليهود أن في كنيسة الشاميين نسخة من التوراة لا يشكون في أنها بخط عزرا أحد أنبيائهم(٤).

لكنه علينا أن نتساءل: هل تعرضت معابد وكنائس اليهود لأية أضرار أو قيود في العصر الفاطمي الأول؟ ثم لماذا تركزت معظم الكنائس اليهودية في حارة زويلة بالقاهرة؟

والواقع أن يهود مصر كغيرهم من أهل الذمة، قد نعموا بسياسة التسامح الديني، التي سار عليها الخلفاء الفاطميون في العصر الفاطمي الأول إذ تولوا أرقى مناصب الدولة، وكانوا على صلة وثيقة بقصر الخلافة(٥)، فتمتعوا بحرية ممارسة شعائرهم الدينية في أمن وطمأنينة. كما أن كنائسهم لم تتعرض طوال خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز بالله، لما ينال منها أو يلحق الضرر بها.

وفي بداية خلافة الحاكم بأمر الله مارس اليهود شعائرهم الدينية في حرية تامة، بل إن بعض الوثائق تمتدحه بسبب «إصلاحاته العظيمة» كما أن كنائس اليهود في أوائل خلافة الحاكم لم تتعرض لأية ضرار، فكان اليهود يجتمعون بها لإقامة الاحتفالات الدينية الخاصة بهم(٦).

إلا أن اليهود الذين كانوا يسكنون حارة الجودرية أثاروا سخط الحاكم عليهم، فصب عليهم جام غضبه، إذ بلغه أن اليهود يجتمعون بها أوقات خلواتهم ويغنون:

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٦٤.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٦٩.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٧٠.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٧٠.

(٥) Goitein: A Mediteranean Society. The Jews Communities of the Arab World as Portrayeein the Doments of the Cairo Geniza, Vol. I, p.33-34.

(٦) قاسم عبده، المرجع السابق، ص ٥٩.

وأمـة قـد ضـلـوا، وديـنـهـم مـعـتـل   قـال لـهـم نـبـيـهـم نـعـم إلا دام الـخـل

ويسخرون بذلك من المسلمين، ويستهزئون بنبي الإسلام ويخوضون في الديانة الإسلامية، ويتعرضون إلى ما لا ينبغي سماعه، مما اضطر الحاكم بأمر الله إلى الانتقام منهم[(١)]، فسد عليهم حارتهم ليلاً وأحرقها. فامتد الحريق إلى كنيستهم بتلك الحارة فدمرها وأصبحت خراباً[(٢)]، ثم منعهم من السكن بحارة الجودرية أو المبيت فيها، وأفرد لهم حارة زويلة للإقامة بها[(٣)]، وأمرهم بعدم مغادرتها وألاَّ يخالطوا المسلمين في حاراتهم[(٤)]، مما أدى إلى تمركزهم في حارة زويلة، وبالتالي إلى اهتمامهم بإنشاء معظم كنائسهم المحدثة في تلك الحارة.

ولقد تعرض اليهود في مصر لصرامة القيود التي فرضها الحاكم بأمر الله على أهل الذمة، وتشدده في تطبيق الشروط العمرية التي زاد عليها، مما اضطر كثيراً من اليهود في هذه الفترة إلى الهجرة إلى بلاد اليمن، وإلى تظاهر بعضهم بالإسلام[(٥)] وذلك إما حفاظاً على وظائفهم في الدولة، وإما هروباً من قسوة القيود الصارمة التي ضيقت الخناق على أهل الذمة بوجه عام.

وإذا كانت بعض كنائس اليهود قد تعرضت للنهب والتخريب في هذه الفترة من خلافة الحاكم فإنه قد عاد وصرح لهم بإعادة بنائها[(٦)]، كما أنه لم يكره أحداً على اعتناق الإسلام، والدليل على ذلك أنه عندما انتهج سياسة متسامحة مع أهل الذمة قبيل اختفائه سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م، وسمح لهم بالعودة إلى دينهم، ارتد أكثر أهل الذمة ممن كانوا قد تظاهروا بالإسلام[(٧)]، وفي يوم واحد ارتد سبعة آلاف يهودي إلى اليهودية[(٨)]. وذلك على الرغم من أنهم يستظلون بحماية وأمن مجتمع المسلمين.

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤.

(٢) المقريزي: نفس المرجع، نفس الصفحة. Goitein: O.P. Cit, p.84.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٧٠.

(٥) Goitein: Jews and Arabs, p.84.

(٦) Goitein: The Mediterrean Society. Vol. I, p.34.
Goitein: Jews and Arabs, p.84.

(٧) العيني: المصدر السابق، جـ ١٩، ورقة ٥٤٨.

(٨) ابن إياس: المصدر السابق، جـ ١، ص ٥٨.

غير المسلمين إبان حكم الأندلس

مما يجب أن ننبه إليه الأجيال المعاصرة، أكانوا من خصوم الإسلام أو من أنصاره أو من الذين يرمونه بالعدوانية وكراهية الآخر، الوقوف على تلك النماذج من مجتمعات المسلمين التي اخترناها عن قصد تاريخي لأن أصابع الاتهام موجهة إلى الإسلام من خلال صور مشوهة التي اتهم فيها الإسلام من خلال تاريخ غير المسلمين في مجتمع المسلمين ومن الجدير ذكره هنا أن نذكر ما ذكره علماء ثقات وقفوا على الأوضاع الحقيقية لغير المسلمين في عصر من العصور التاريخية التي كانت فيها السيادة للمسلمين في وطن جمع المسلمين وغيرهم، ونأتي هنا على ذكر أحوال وأوضاع النصارى في مجتمع الأندلس بعد الذي ذكرناه عن الدولة الفاطمية وغيرها، وهنا نقول إنه من الثابت أن النصارى كانوا في دولة المسلمين في الأندلس يشكلون نسبة كبيرة بين مجموع السكان العام في الأندلس. وقد شمل استيطانهم أغلب مدن الأندلس وقراها أيضاً.

فقد تواجد عدد كبير من النصارى في قرطبة، وكان لهم فيها أساقفة، مما يدل على أن المسلمين أبقوا لهم حريتهم الدينية[١]. واستقطبت طليطلة نسبة كبيرة من النصارى، ويؤكد بروفنسال[٢] أن معظم أهل طليطلة لم يتخلوا قط عن عقيدة الروم الكاثوليك. أي لم يجبروا على ترك عقيدتهم.

واستوطن قسم من النصارى في برشلونة[٣]، ويظهر أن أعدادهم بها كانت

---

(١) شكيب أرسلان المرجع السابق، ص ١١٩ـ ١٢٠.

(٢) ليفي بروفنسال: مادة طليلطة، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الخامس عشر، أصدرها باللغة العربية أحمد الشنتناوي وزملاؤه، (بيروت: دار المعرفة)، د.ت، ٢٦٠.

(٣) برشلونة (Barcelona) مدينة على البحر، بينها وبين طركونة خمسون ميلاً. ولها ربض عليها سور منيع؛ الحميري، المصدر السابق، ص ٨٦، ٨٧.

كثيرة جداً، إذ لم يماثلهم من الناحية العددية في هذه المدينة سوى اليهود[١]. وتواجد آخرون منهم في غرناطة، وكانوا يعملون بفلاحة الأرض[٢]. وتعتبر مدينة ماردة من المدن المهمة التي استوطنها النصارى[٣]، كما أن قلعة بيشتر، معقل الثائر ابن حفصون، كانت تضمن عدداً كبيراً منهم، وكان لهم فيها أسقفية[٤]، كما كان لهم نفوذ واسع في هذه المنطقة، ولعلهم بذلك استطاعوا التأثير في سياسة ابن حفصون، فحملوه على اعتناق النصرانية؛ إذ يروى أنهم قتلوا جعفر بن عمر بن حفصون، عندما انحرف عنهم إلى جانب المسلمين[٥]. وقد استوطن النصارى القرى أيضاً، فيروى أن جماعة من النصارى قد سكنوا في قرية يقال لها، بنتيج، بالقرب من وبذة[٦]. واستوطن قوم منهم في قرية الزبارقة[٧].

وقد أشار ابن حوقل[٨] إلى هذه الطبيعة الاستيطانية للنصارى، والجانحة نحو سكنى الضياع والحصون، فقال: «وبالأندلس غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تمدَّن، وهم على دين النصرانية الروم، وربما عصوا في بعض الأوقاف ولجأ بعضهم إلى حصن فطال جهادهم، لأنهم في غاية العتو والتمرد، وإذا خلعوا ربقة الطاعة صعب ردهم إلا باستئصالهم، وذلك شيء يصعب ويطول..».

ولقد تمتع النصارى بقسط وافر من الحرية والتسامح من قبل أمراء بني أمية، فقد سمح لهم بالممارسة الحرة لدينهم ولم يعانوا أي شكل من أشكال

---

(١) البكري، المصدر السابق، ص ٩٦.
(٢) ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان (القاهرة: دار المعارف، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م)، المجلد الأول، ص ١١٢، ١١٣.
(٣) الحميري، المصدر السابق، ص ٥١٨، ٥١٩.
(٤) ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف، المقتبس، نشره بيدروشالميتا مع زميليه (مدريد/ الرباط: المعهد الأسباني العربي للثقافة وكلية الآداب بالرباط، ١٩٧٩م)، جـ ٥، ص ١١٣.
(٥) ابن حيان، المصدر السابق، جـ ٥، ص ١٦٨.
(٦) الحميري، المصدر السابق، ص ٦٠٧.
(٧) ابن حزم، المصدر السابق، ص ٢١٨، ٢١٩.
(٨) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ١٠٦.

الاضطهاد[1].

ويظهر أن المسلمين في الأندلس لم يفرضوا على رعاياهم من النصارى أنواعاً خاصة من الملابس لتميزهم عن المسلمين حتى تكون مظهراً من مظاهر إذلالهم؛ إذ لم نقرأ في مصادرنا ما يشير إلى ذلك خلال هذه الفترة، كما يؤكد أحد مؤرخي الغرب المعاصرين أن النصارى الأندلسيين في القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري على الأقل كانوا يلبسون ملابس المسلمين[2].

ولم يفرض عليهم ما يميزهم أو يعين على التعرف عليهم من الزي المعين أو المسكن المحدد، فقد عاملهم المسلمون معاملة كريمة وفق سياسة تقوم على أمر الله وسنة نبيه ﷺ من أنه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[3]، وكانوا يعدُّونهم من أهل الكتاب[4].

ويذكر الأستاذ عنان[5]، أن من خصائص الدولة الأموية في الأندلس، المميزة لها هو عطفها الواضح على أهل الذمة وكفالة حرياتهم الدينية

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٣٠ـ ١٣١؛ محمد مرسي الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر ٧٥٥ـ ٩٧٦م/ ١٣٨ـ ٣٦٦هـ (مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص ٨٣ ـ ٨٤؛ وانظر أيضاً:
REINHART DOZY. SPANISH ISLAM-AHISTORY OF THE OSLEMS IN SPAIN LONDON. P.268.

(٢) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ترجمة حسن إبراهيم حسن وزملاؤه، الطبعة الثامنة (القاهرة: مكتبة النهضة العربية، ١٩٥٧م) ص ١٥٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٤) Levi-provencal, O.P. Cit. t.1. p.73.

(٥) محمد عبد الله عنان: الآثار الأندلسية في إسبانيا والبرتغال، طبعة ثانية، القاهرة، مؤسسة الخانجي، عام ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م، صفحة ٦٨٢ من القسم الثاني، وفي هذا الصدد، يقول برنارد لويس: «إن الطوائف غير المسلمة التي كانت في حماية المسلمين في إسبانيا، كانت أكثر عدداً وأحسن تنظيماً في إسبانيا منها في أي ناحية أخرى من البلاد خاضعة للمسلمين. وكانت سياسة الحكومة نحو هذه الطوائف نزيهة متسامحة»، انظر: برنارد لويس، العرب في التاريخ، ترجمة: نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، الطبعة الأولى، بيروت عام ١٩٥٤، صفحة ١٧٤.

والاجتماعية، حيث أنشىء منصب خاص لإدارة شؤون أهل الذمة يعرف صاحبه بالقومس.

ولا شك أن هذه المعاملة الطيبة المتزنة التي عومل بها أهل الذمة عموماً من قبل المسلمين، قد تركت في نفوسهم أثراً طيباً عميقاً، إذ روى الذهبي(١) أنه شوهد يوم وفاة الفقيه، عبد الله بن يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي(٢) ت ٢٩٨هـ/ ٧١٠م، نفرٌ من اليهود ومن النصارى من جملة الباكين عليه.

ولا شك أن مثل هذه العلاقات أسهمت في خلق علاقة الود والمحبة التي جعلت نفراً من اليهود والنصارى يبكون إماماً مسلماً بعد وفاته.

وتأكيداً لهذا التسامح الديني والاجتماعي الذي لقيه النصارى من المسلمين، فإن بعض هؤلاء النصارى قد وصل إلى وظائف عليا في الدولة، دون أن يجد المسلمون غضاضة في ذلك، حتى أن المسلمين في المشرق كانوا ينعون على بني أمية في الأندلس استخدام النصارى في بلاطهم وتوليتهم أسمى المناصب(٣). فقد كان في بلاط الأمير الحكم بن هشام، موظفٌ نصرانيٌّ كبيرٌ يدعى، ربيع بن زيد(٤).

ويبدو أن حدود وظيفته قد تجاوزت الإشراف على شؤون النصارى بقرطبة إلى جباية الأموال أيضاً من المسلمين، والتضييق عليهم في سبيل ذلك. ولعل طغيان هذا الرجل وصلفه قد جاوز به الحدّ، فانتهى به ذلك إلى قتله الأمير عبد الرحمٰن بن الحكم، وذلك في أواخر عهد أبيه الحكم بن هشام. وقد فرح المسلمون كثيراً بنهاية هذا الرجل الذي كان: «جديراً بالصلب والمثلة لسوء أثره

---

(١) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق علي أبو زيد، (مؤسسة الرسالة، د.ت) جـ ١٣، ص ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣.

(٢) أبو مروان عبد الله بن يحيىٰ بن يحيى الليثي. روى عن أبيه علمه، ولم يسمع بالأندلس من غيره، ورحل حاجاً وتاجراً. وكان عاقلاً كريماً عظيم المال والجاه. توفي ـ رحمه الله ـ سنة ٢٩٨هـ؛ ابن الفرضي، المصدر السابق، جـ ١، ص ٤٢٩.

(٣) عنان، المرجع السابق، العصر الأول ـ القسم الأول، ص ٣١٦.

(٤) ويعرف بربيع القومس. كان حظياً من رجال الأمير الحكم بن هشام وكان متولّي المعاهدين بالأندلس من النصارى، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق بروفنسال، ص ١٥.

في المسلمين»[1].

أما الأمير محمد بن عبد الرحمٰن، فقد اتخذ له كاتباً من النصارى، وهو قومس بن أنتنيان[2]، وذلك بعد أن ظهر فضل أدبه[3]. واستعمل الناصر لدين الله ٣٠٠ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ـ ٩٦١م، على مدينة أبذة عريفاً من العجم يعرف بابن بزنت[4].

ولقد تأثر النصارى بثقافة العرب وأسلوب حياتهم[5]، فانصرف قسم كبير منهم إلى محاكاة العرب في أنماط حياتهم وتمثل ثقافتهم، وبلغوا في ذلك مبلغاً عظيماً حتى أطلق على تلك الطائفة من النصارى التي سارت في هذا الاتجاه اسم المستعربون. ويبدو أن هذه الطائفة لم تتضح شخصيتها ويتأكد وجودها إلا في عصر الإمارة ١٣٨ـ ٣١٦هـ/ ٧٥٥ـ ٩٢٨م، وما تلاه من العصور الإسلامية في الأندلس؛ إذ لم يكن لها وجود في عصر الولاة ٩٢ـ ١٣٨هـ/ ٧١٠ـ ٧٥٥م[6]،

---

(١) ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيىٰ، مالك الأبصار في ممالك الأمصار، أصدره فؤاد سزكين مع زميليه، (فرانكفورت: معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، السفر الرابع والعشرون، ص ٣١٥.

(٢) قومس بن أنتنيان. كاتب الأمير محمد بن عبد الرحمٰن. كان من أسرة نصرانية، ولي الكتابة بعد وفاة الكاتب عبد الله بن أمية بن يزيد سنة ٢٤٦هـ. احتفظ قومس بديانته المسيحية مدة، لكنه أسلم وحسن إسلامه على ما يبدو، إلى درجة أن الفقيه محمد بن يوسف بن مطروح كان يسميه السجّاد العبّاد، حمامة هذا المسجد) يعني مسجد قرطبة، ويبدو أنه توفي بعد ذلك بمدة قليلة. انظر: الخشني، المصدر السابق، ص ٧٦؛ ابن حيان، المصدر السابق، تحقيق محمود علي مكي، ص ١٤٢.

(٣) الخشني، المصدر السابق، ص ٧٥.

(٤) ابن حيان أبو مروان حيان بن خلف ت ٤٦٩: المقتبس من أبناء أهل الأندلس، تحقيق: محمد علي مكي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م، صفحة ١٣١.

(٥) ويبدو أن بعض النصارى كانوا يستعملون الختان، وقد أشار الفقيه الأندلسي عبد الملك بن حبيب، ت سنة ٢٣٨هـ إلى ذلك؛ ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٠١هـ، ج ٢، ص ٩٣.

(٦) عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، بغداد، دار الرشيد للنشر عام ١٩٨٢، صفحة ١٤٧.

ولعل ذلك يرجع إلى أن النزعة العلمية عند العرب لم تكن لها الأهمية التي كانت تلقاها النزعة العسكرية التي سيطرت على أعمال العرب ونشاطاتهم في هذه الفترة، ثم إن الوقت لم يكن كافياً لأن يتعمق النصارى في دراسة الثقافة العربية بدرجة قوية تسمح بأن يظهر معها طائفة المستعربين. وقد ضمت مصادرنا أخباراً متفرقة تشير بطريق غير مباشر إلى مظاهر هذا الإقبال الشديد من قبل النصارى على تعلم اللغة العربية، ودراسة الأدب العربي والحياة العربية عموماً. فقد ورد في بعض الأسئلة الفقهية التي وجهت إلى الفقيه الأندلسي ابن لبابة[١]، المتوفى عام ٣١٤هـ/ ٩٢٦م؛ أن رجلاً نصرانياً صلّى بجماعة من المسلمين الصلوات الخمس المكتوبة وكذلك صلاة القيام في رمضان، ومعه قرآن يقرأ فيه، دون أن يعلم المسلمون من أمره شيئاً[٢].

وعلى الرغم من أن مثل هذه الأخبار والنوادر هي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، كما أنها ذات نزعة تصورية؛ إلا أن مجرد إثارة مثل هذه الأخبار وخصوصاً في هذه الفترة، يوضح لنا مدى الشوط البعيد الذي قطعه النصارى في تعلم العربية وحذقها، بل ومحاولة إتقان قراءة القرآن الكريم، مما جعل المسلمين يحتاطون لأنفسهم، ويتوقعون إمكان حدوث مثل هذا الأمر.

ولم يقتصر الاهتمام بهذه القضية عند هذا الحدِّ، بل إن الفقيه ابن لبابة قد نهى المسلمين عن تعليم أولاد النصارى القرآن[٣].

ولقد أفضى الاتجاه الطاغي نحو الاستعراب إلى انفجار حركات التعصب النصراني[٤]؛ إذ كان من المؤلم بالنسبة لرجال الدين من النصارى أن يروا أبناء

---

(١) محمد بن عمر بن لبابة. مولى أبي عثمان بن عبيد الله بن عثمان. من أهل قرطبة. كان إماماً في الفقه مقدماً على أهل زمانه في حفظ الرأي والبصر بالفتيا. وكان مشاوراً في أيام الأمير عبد الله بن محمد، وتوفي رحمه الله سنة ٣١٤هـ. انظر: ابن الفرضي، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٦٨٠، ٦٨١.

(٢) الونشريسي، أحمد بن يحيىٰ، المعيار المعرب والجامع المغرب لفتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف د. محمد حجي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) جـ ١، ص ١٥٦.

(٣) المصدر نفسه، جـ ١١، ص ٩٦.

(٤) روم لاندو، الإسلام والعرب، ترجمة منير البعلبكي، الطبعة الأولى، بيروت: دار =

دينهم، وقد بهرتهم حضارة العرب المسلمين، ينصرفون بجد واهتمام نحو الاستعراب الكامل في جميع مظاهر حياتهم تقريباً، وأثار هذا دوافع الحقد والحسد في أنفسهم ضد كل ما هو عربي إسلامي، فانبرى فريق من المتعصبين من رجال الكنيسة لمحاربة هذا التيار الجارف ومحاولة إيقافه.

واستخدم هؤلاء المتعصبون في حربهم هذه، وسائل غير شريفة على الإطلاق، فلجؤوا إلى إثارة العامة، واستفزاز مشاعر الرأي العام الإسلامي، عن طريق مهاجمة الإسلام وسبِّ الرسول ﷺ علناً[1]، رغم علمهم المُسبق أن عقوبة مثل هذا التصرف الأهوج هي الموت. وقد أوردت بعض المصادر التي بين أيدينا روايات تاريخية تحمل في ثناياها أحداثاً مشابهة لتلك الأحداث التي قام بها هؤلاء المتعصبون النصارى، ويحتمل أنها من الفصول الرئيسة لهذه الحركة المجنونة، أو أنها بقية من بقاياها التي تلاشت بالتدريج.

فمن ذلك مثلاً ما روي من أن رجلاً نصرانياً جيء به إلى القاضي أسلم بن عبد العزيز[2]، ت: ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، مستقتلاً لنفسه، أي يطلب الاستشهاد في سبيل دينه، وذلك بأن يقتل مقابل إقراره بمهاجمة الإسلام؛ وسبّ الرسول ﷺ وإصراره على ذلك. واجتهد القاضي في منعه ووبخه على تصرفاته الطائشة[3].

ويروى كذلك أن امرأة نصرانية أحضرت إلى مجلس القاضي أحمد بن محمد بن زياد[4]، ت: ٣١٢هـ/ ٩٢٤م، وقد زعمت أن عيسى عليه السلام هو الله، كما

= العلم للملايين، ١٩٦٢م، ص ١٧٦.

(١) Jackson. The Making of Medieval Spain, Califormia, 1976, p.31.

(٢) هو أبو الجعد أسلم بن عبد العزيز بن هاشم بن خالد بن عبد الله بن حسين بن جعد بن أسلم بن أبان بن عمرو مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه. كان عظيم القدر، شريف البيت، معروف النصيحة مع الجلالة في العلم والإدراك في الرواية والرحلة في الطلب. ولي قضاء الجماعة بقرطبة مرتين، الأولى سنة ٣٠٠هـ والثانية سنة ٣١٢هـ، الخشني، المصدر السابق، ص ١٠٦، ١١١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٨.

(٤) أحمد بن محمد بن زياد بن عبد الرحمٰن بن زهير اللخمي، المعروف بالحبيب، ولي قضاء الجماعة بقرطبة للمرة الأولى سنة ٢٩١هـ. كان من أكمل الناس أدباً. وولي القضاء للمرة الثانية سنة ٣٠٩هـ بعد أسلم بن عبد العزيز؛ المصدر نفسه، ص ١٠١، ١٠٩.

زعمت أيضاً أن محمداً ﷺ كذب فيما ادعاه من النبوة. فأفتى الفقهاء بقتلها(١).

وقد تحلّى الأمير عبد الرحمٰن بن الحكم، الذي حدثت في أيامه هذه الفتنة العمياء(٢)؛ بالحزم والصرامة في التعامل مع هذه الحركة، فأمر بقتل بعض محرضي الشغب من زعماء هذه الحركة، وأعانه في جهوده هذه بعض العقلاء من رجال الكنيسة الذين خافوا من أن تتقلب هذه الحركة إلى اضطهاد حقيقي، فهدأت الأحوال، حتى انتهت هذه الحركة بعد ذلك بالتدريج، خصوصاً بعد أن توفي أحد زعمائها من الرهبان(٣).

وقد استغرب المؤرخ، لين بول(٤)، من قيام المسيحيين بهذه الحركة إذ لا يوجد سبب معقول لتهافتهم على الموت ما دام المسلمون قد سمحوا لهم بإقامة شعائرهم.

ويتضح لنا مما تقدم، أن هذه الحركة قد نشبت في البداية لأسباب فكرية وثقافية، ثم ما لبثت أن تحولت إلى فتنة دينية حقيقية تداركها العقلاء والفضلاء من النصارى الذين لقوا كل التقدير من الولاة والقضاة.

---

(١) ابن سهل، أبو الأصبغ عيسى بن سهل. وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى، تحقيق د. محمد عبد الوهاب خلاف، (القاهرة: المركز العربي للإعلام، د.ت) ص ٧١، ٧٠، وانظر أيضاً: الونشريسي، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٤٤. وواضح أن هاتين الحادثتين وقعتا بعد انقضاء عصر الأمير عبد الرحمٰن بن الحكم الذي شهد أحداث هذه الحركة، ولعلها امتداداً لما حدث سابقاً.

(٢) يشير بعض المؤرخين المحدثين إلى أن هذه الحركة قد حدثت في أيام الأمير عبد الرحمٰن بن الحكم، ٢٠٦ـ ٢٣٨هـ في تاريخ غير واضح. انظر: عبد الحميد العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار القلم، ١٩٦٤م)، ص ٩٩؛ الحجي، المرجع السابق، ص ٢٤٢، ٢٤٣. ويذكر بروفنسال أن المستعربين قاموا بثورة مع بداية حكم الأمير محمد بن عبد الرحمٰن ٢٣٨ـ ٢٧٣هـ/ ٨٥٧ ـ ٨٨٦م، فما كان من هذا الأمير إلا أن أخذ في اضطهاد الطوائف المسيحية اضطهاداً شديداً.
انظر: ليفي بروفنسال، الأمويون في الأندلس، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الرابع، ٣١، ص ٤٨٦.

(٣) Levi-proferical. O.P. Cit. t.1. p.225-239.

(٤) ستاتلي لين بول، قصة العرب في إسبانيا، ترجمة علي الجارم، (القاهرة: دار المعارف، د.ت) ص ٨٤، ٨٩.

ولقد كان من نتائج حركة الاستعراب وانتشار اللغة العربية بين صفوف السكان على اختلاف أصولهم ومذاهبهم، أن تسرب الكثير من عادات المسيحيين إلى المجتمع الإسلامي، لتعبّر بوضوح عن مدى التفاعل الفكري الشديد بين عناصر السكان في هذه البلاد التي كونت لها طابعاً ذاتياً مستقلاً يميزها عن غيرها من البلاد الأخرى، بحكم بيئتها المحلية، فقد شارك بعض المسلمين في المناسبات الدينية الخاصة بالنصارى، وأصبحت مشاركاتهم في مثل هذه المناسبات وعلى مرور الزمن، عادات اجتماعية يصعب التخلي عنها، رغم تحذيرات بعض الفقهاء المتكررة بعدم جوازها شرعاً. ولعل من أبرز هذه المناسبات، عيد ميلاد المسيحعليه السلام(١)، ويوم العنصرة أو المهرجان(٢) ورأس السنة

---

(١) هو اليوم الذي ولد فيه عبد الله ورسوله المسيح عيسى ابن مريم. والنصارى تتخذ ليلة يوم الميلاد عيداً؛ المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٧٠م)، جـ ١، ص ٤٩٤.

(٢) عيد المهرجان ذو تقليد فارسي، ويطابق في أصله عيد اعتدال الشمس في فصل الخريف. وقد انتهى متداخلاً مع عيد العنصرة، فأصبح يوم العنصرة ANSARA هو مهرجان أهل الأندلس. وعيد العنصرة هو عيد سان أخوان SANJUAN الذي تحتفل بها إسبانيا في ٢٤ يونيو. انظر: أحمد مختار العبادي، الإسلام في أرض الأندلس، ص ١٠٧؛ وانظر أيضاً:
RERNANDO DE AL GRANJA, FIESTAS CRISTIANAS EN AL-ANDALUS. AL-ANDALUS, MADRID-GRANADA. 1969, VOLUMEN XXXIV. P.2.
ويذكر العزفي في كتابه «الدر المنظوم في مولد النبي المعظم» أن يوم العنصرة يوافق ميلاد يحيىٰ بن زكريا على نبينا محمد وعليه الصلاة والسلام، وأشار إلى أن الأندلسيين يحتفلون في هذا اليوم ويتهادون الهدايا فيما بينهم ويقيمون صنوف الأطعمة. انظر:
FERNANDO DE AL GRANJA. DEL "KITAB AL-DURR AL-MUNAZZAM FL MAWLID AL-NABL AL-MUAZZAM" DE ALZAFL AL-ANDALUS, MADRID GRANDADA. 1969. VOLUMEN. XXXIV. P. 19-20.
ولعل ما فعلته مصر في الآونة الأخيرة من اعتبار عيد الميلاد الذي يحتفل به نصارى مصر هو امتداد تاريخي وتطبيق لروح السماحة التي تمتلىء بها جوانح المسلمين نحو الآخر، بشراً واعتقاداً، وأيضاً على مستوى العلاقات الإنسانية يسجل هنا كاتب هذه السطور أنه قامت بينه وبين بعض النصارى علاقات صداقة ومجاملات كما هو الحال مثلاً مع المواطن الأمريكي المصري الأصل دكتور مهندس رئيف مرقس يني والمهندس المصري البرلماني المتوفى منذ خمسة عشر عاماً: وليم نجيب سيفين وقد رأى بأم عينيه أستاذه =

الميلادية (يناير)[١]، وليلة العجوز[٢]، وخميس العهد[٣]، والنيروز[٤]. لكن كل ذلك لم يحل دون وجود تيار إسلامي محافظ يخشى على عقيدة المسلمين لكنه لم يدع إلى فرقة فمثلاً في هذه الحقبة أفتى الفقيه الأندلسي، يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي[٥]

= في جامعة الأزهر المتوفى منذ أكثر من ثلاثين عاماً وهو بكلتا يديه أسقف التعليم العالي يومها الأنباء شنودة ـ بابا الأقباط في مصر فيما بعد.

(١) يوافق الاحتفال بهذه المناسبة اليوم السابع من ولادة عيسى ﷺ وكان بعض مسلمي الأندلس يشاركون النصارى في الاحتفال بهذه المناسبة، فكانوا يتهادون التحف ويتجهزون بموائد الطعام في تلك الليلة وفيها أصناف من الفواكه والسكر والتمر والزبيب والتين والجوز واللوز والجلوز والقسطل والبلوط والصنوبر وقصب السكر والأترج والنارنج والليم وغيرها. انظر:
FERNANDO DE AL GRANJA. DEL "KITAB AL-DURR AL-MUNAZZAM FL MAWLID AL-NABL AL-MUAZZAM" DE ALZAFL AL-ANDALUS, MADRID GRANDADA. 1969. VOLUMEN. XXXIV. P.19-21.

(٢) إحدى المناسبات الاجتماعية التي كان يحتفل بها النصارى ويتبادلون الهدايا فيها. ويظهر أن مسلمي الأندلس كانوا يشاركون النصارى في الاحتفال بهذه الليلة: انظر:
FERNANDO DE AL GRANJA. O.P. Cit. P.25.

(٣) ويسمى خميس أبريل، وهو الخميس الكبير، أو خميس العدس والبيض والأرز، وكان الأقباط في مصر يعملونه قبل الفصح بثلاثة أيام، وسنتهم فيه أن يأخذوا إناء ويملؤونه ماء ويزمزمون عليه ثم يغتسل به للتبرك، ويزعمون أن المسيح فعل هذا بتلاميذه في هذا اليوم، يعلمهم التواضع، وأخذ العهد عليهم أن لا يفترقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض. انظر: شيخ الربوة، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ط ١، بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص ٣٦٩.

(٤) النيروز من الأعياد الفارسية، وهو يوافق اليوم الأول من السنة الجديدة في التقويم الشمسي الفارسي وكان الأندلسيون يحتفلون بيوم النيروز بإعداد أرغفة من الخبز وغيرها من المأكولات ويتبادلون فيه الهدايا، ويقدمون لأكابر الشخصيات مديحاً من الشعر، انظر:
FERNANDO DE AL GRANJA. FIESTAS CRISTIANAS EN AL-ANDALUS. P.2.

(٥) يحيىٰ بن يحيىٰ بن كثير بن وسلاس بن شملل بن منقايا. من أهل قرطبة، وأصله من البربر من مصمودة، ويتولى ابن ليث. رحل إلى المشرق وسمع من مالك بن أنس وقدم الأندلس بعلم كثير فعادت فتيا الأندلس إلى رأيه وقوله. توفي سنة ٢٣٤هـ؛ ابن الفرضي، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٨٩٨ ـ ٩٠٠.

المتوفى سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م بعدم جواز الهدايا في عيد الميلاد، ونهى عن إجابة الدعوة فيه والاستعداد له، وشدَّد على أن يكون هذا اليوم كسائر الأيام الأخرى. كما أفتى أيضاً بعدم جواز الاحتفال بعيد العنصرة، وما يصاحبه من أعمال يقوم بها الرجال والنساء على حد سواء[١].

ووجّه الفقيه عبد الملك بن حبيب[٢] ت: ٢٣٨هـ/ ٨٥٥م كلمة خاصة إلى نساء المسلمين يحذرهن من الاحتفال بيوم العنصرة، ومما جاء فيها: «إياكم، يا معشر النساء لا ترششن بيوتكن بالماء يوم العنصرة، ولا تلقين في ثيابكن ورق الأكرنب ولا تغتسلن في ذلك اليوم إلا من جنابة، فمن فعل ذلك منكنّ فقد شرك في دم يحيىٰ بن زكريا ﷺ»[٣].

أما المسلمون من أهل البادية فكانوا يحتفلون أيضاً بيوم العنصرة، ولعل ذلك يرجع إلى أن قسماً من النصارى كانوا يسكنون في القرى والمناطق الريفية المجاورة للبادية فتأثر بهم أهل البادية بحكم محاربتهم لهم. وقد نهاهم الفقيه ابن لبابة، ت: ٣١٤هـ/ ٩٢٦م، عن الاحتفال بيوم العنصرة، وبيَّن لهم أن من يفعل ذلك من أهل المدن إنما هم من المجانين[٤].

كما حثَّ الفقيه محمد بن وضاح[٥] ت: ٢٨٧هـ/ ٨٩٩م المسلمين على عدم قبول الهدايا في ليلة يناير ونهاهم عن الاحتفال بليلة العجوز وغيرها من أعياد النصارى[٦].

---

(١) الونشريسي، المصدر السابق، جـ ١١، ص ١٥١.

(٢) عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي، قيل إنه من موالي سليم، كان بالبيرة ويسكن قرطبة، كان مشاوراً مع يحيىٰ بن يحيىٰ وسعيد بن حسان، وكان حافظاً الفقه على مذهب المدنيين، ابن الفرضي، المصدر السابق، جـ ١، ص ٤٥٩ـ ٤٦٢.

(٣) FERNANDO DE AL GRANJA. DEL "KITAB AL-DURR AL-MUNAZZAM FL MAWLID AL-NABL AL-MUAZZAM" DE ALZAFL. P.19-21.

(٤) الونشريسي، المصدر السابق، جـ ١١، ص ٩٢.

(٥) محمد بن وضاح بن بزيغ، مولى الأمير عبد الرحمٰن بن معاوية، من أهل قرطبة، يكنى: أبا عبد الله. رحل إلى المشرق رحلتين. كان عالماً بالحديث بصيراً بطرقه متكلماً على علله، ورعاً زاهداً فقيراً متعففاً محتسباً في نشر علمه، سمع منه الناس كثيراً. انظر: ابن الفرضي، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٦٥٠ـ ٦٥٢.

(٦) FERNANDO DE AL GRANJA. O.P. Cit. t.1. p.25.

غير أن هذه الفتاوى الدينية الصادرة بهذا الشأن، لم تؤد إلى الغرض المطلوب منها؛ فقد استمر المسلمون، أو بعضهم على الأقل، في هذه البلاد، يحتفلون بهذه المناسبات، ويتبادلون فيها الهدايا وألوان الأطعمة، في فترات تاريخية لاحقة لهذه الفترة التي نتحدث عنها. فقد اشتكى أحد علماء الأندلس في القرن السادس الهجري مما يفعله الناس في زمانه من البدع المحدثة مثل: «إقامة ينير بابتياع الفواكه كالعجم، وإقامة العنصرة وخميس أبريل بشراء المجبنات والإسفنج»[(١)].

ثم يأتي اعتبار يوم الأحد من كل أسبوع عطلة رسمية عند الأندلسيين[(٢)]، مظهراً قوياً من مظاهر التمازج الحضاري بين المسلمين والنصارى في الأندلس. وعلى الرغم من أن انتشار اللغة العربية بين عناصر السكان في الأندلس، كان له دور مهم في نقل الكثير من العادات الإسلامية إلى أهل الذمة، والعكس أيضاً، إلا أن الاختلاط الكبير بين العرب والإسبان، عن طريق الحروب المتصلة والزواج المشترك، أدى إلى تأثير هؤلاء الأبناء المولدين، وهم ثمرة الزواج المشترك؛ بأمهاتهم الإسبانيات، في لغتهم وعاداتهم وأسلوب معيشتهم، ولعل أوضح مثال لهذا اللقاء الحضاري ظاهرة انتشار ازدواجية اللغة بين الأندلسيين، أي اللغتين العربية والرومانسية[(٣)]، فقد استخدم العرب مفردات إسبانية في ألفاظهم، فكانوا يقولون للطعام الذي يصنع عند نبات الأسنان للأطفال، الذنْتِينَة. وقد وردت الإشارة إلى ذلك في مناسبة من مثل هذا النوع أقامها الأمير عبد الرحمٰن بن الحكم لبعض ولده[(٤)]. ولقد كان القاضي سعيد بن سليمان[(٥)]، يجيد التحدث بالعجمية، فقد تخاطب بها يوماً مع أبي الشمول، والد نصر الخصي، الذي لم يكن يتقن الحديث بالعربية[(٦)]. ويبدو كذلك أن القاضي

---

(١) الطرطوشي، المصدر السابق، ص ١٤٠ـ ١٤١.

(٢) الخشني، المصدر السابق، ص ٢٥؛ ابن حيان: المصدر السابق، تحقيق محمود علي مكي، ص ١٣٨.

(٣) أحمد مختار العبادي، الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٦.

(٤) ابن هشام اللخمي، المصدر السابق، ص ٢٨٦ـ ٢٨٧.

(٥) سعيد بن سليمان بن حبيب، ولي قضاة ماردة، ثم ولاه الأمير عبد الرحمٰن بن الحكم قضاء الجماعة بقرطبة، الخشني، المصدر السابق، ص ٦١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٦٥.

سليمان بن أسود[١] كان يعرف اللغة العجمية، فقد تحدث بها ذات يوم مع امرأة حضرت إلى مجلسه القضائي[٢].

ولقد كان للمستعربين كنائسهم الخاصة والتي وجدت حيثما وجد المستعربون في كل مكان من الأندلس، فمارسوا شعائرهم الدينية دونما مضايقة من أحد. بل إننا لم نقرأ في مصادرنا أن أحداً من المسلمين سعى في مضايقة النصارى والمستعربين لأسباب دينية أو عمل على هدم كنيسة، وذلك على الرغم من كثرة الحروب الداخلية بين عناصر السكان الخاصة في أواخر عصر الإمارة. بل أقيمت في هذا العصر كنائس جديدة للمستعربين، ومثال ذلك كنيسة ببشتر[٣] التي أنشئت في بلاط عرم بن حفصون فيما بين سنتي ٢٨٤هـ ـ ٣٠٥هـ/ ٨٩٨ ـ ٩١٧م عندما اعتنق النصرانية[٤].

---

(١) سليمان بن أسود بن يعيش بن جشيب، من مدينة غافق، ولي القضاء في كورة ماردة في عهد الأمير عبد الرحمٰن بن الحكم ٢٠٦ـ ٢٣٨هـ، ثم ولي قضاء الجماعة بقرطبة بعد عزل القاضي عمرو بن عبد الله، وذلك زمن الأمير محمد بن عبد الرحمٰن ٢٣٨ـ ٢٧٣هـ، ثم عزل عن القضاء سنة ٢٦٠هـ وأعيد إليه للمرة الثانية سنة ٢٦٣هـ. توفي رحمه الله في أيام الأمير عبد الله بن محمد ٢٧٥ـ ٣٠٠هـ؛ الخشني، المصدر السابق، ص ٧٣ـ ٨٣.

(٢) الخشني، المصدر السابق، ص ٨٠. والواقع أن أثر البيئة الأندلسية كان من القوة بحيث تأثر اللسان العربي بها كثيراً ففقد شيئاً من فصاحته المعهودة، وقد لاحظ ذلك علماء اللغة من أهل الأندلس، فهذا أبو عامر ابن شهيد يصف كلام أهل الأندلس بقوله: «إنما هي لكنة أعجمية يؤدون بها المعاني تأدية المجوس والنبط». انظر: ابن شهيد، أبو عامر أحمد بن عبد الملك، رسالة النوابع والزوابع، تحقيق بطرس البستاني، (بيروت، دار صادر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ص ١١٧.

(٣) وكان جعفر بن مقسم هو أسقف ببشتر، وقد عزله عمرو بن حفصون عن السقافة مدة لكنه أعاده إلى منصبه مرة ثانية بعد أن ألحّ عليه الرهبان ورؤساء العجم في ذلك. انظر: ابن حيان، المصدر السابق، جـ ٥، ص ١١٣ـ ١١٤.

(٤) مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة لطفي عبد البديع والسيد عبد العزيز سالم، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م)، ص ٤٢٢. ويذكر مورينو أن كنيسة ببشتر تضم ثلاثة أروقة تفصلها دعائم وعقود وذراع ثم مقصورة منحنية في شكل يزيد على نصف أسطواني ثم مقصورتين جانبيتين مربعتين وعقد حدوة =

ويشير بَعضُ الدارسين المُحدثين إلى أن قرطبة كانت تضم بداخلها ست كنائس، وأقيم في خارجها ست كنائس أخرى وذلك في القرن التاسع عشر الميلادي/ الثالث الهجري(١).

كما يذكر سمنونيت(٢) أن بجانة كانت تضم كنيسة صغيرة في العصر الإسلامي. ومن المعلوم أن مدينة بجانة قد بلغت أوج ازدهارها خلال عصر الإمارة.

أما إشبيلية فقد كانت مركزاً أسقفياً هاماً خلال العصر الأموي(٣). ومن هنا يتبين لنا أن المسلمين تركوا النصارى أحراراً في إنشاء ما يريدون من الأديرة(٤).

ونقرأ في مصادرنا، أن بعض النصارى كانوا يمارسون مهنة الطب منذ عهد الأمير عبد الرحمٰن بن الحكم، لكنهم لم يكونوا على درجة عالية من الكفاءة في ممارسة هذه المهنة(٥). حتى إذا اقترب عصر الإمارة (١٣٨ـ ٣١٦هـ/ ٧٥٥ـ ٩٢٨م) من نهايته ظهر جماعة منهم على مستوى عالٍ في هذا الشأن، أمثال: جواد الطبيب(٦)، وخالد بن يزيد بن رومان(٧)، وابن ملوكه

= الفرس وهو أقصى ما يكشف عنه منها ويتمشى مع تخطيط الحنية ويطول حتى يبلغ ثلاثة أرباع القطر. وربما كان هذا الطراز المعماري شائعاً في كنائس المستعربين. المرجع نفسه، ص ٤٢٣.

(١) BERNHARD AND ELLEN M. WHISHAW. O.P. Cit. p.18.

(٢) Simonet, Franciscojavier. Historia de los Mozarabes de Espan Madrid 1897-1903. p.132.

(٣) Isidro de las Gagigas Gagigas, O.P. Cit, t.1, p.58.

(٤) Simonet, O.P. Cit, p.190.

(٥) ابن جلجل، المصدر السابق، ص ٩٢؛ صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، نشره لويس شيخو اليسوعي، (بيروت: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٩١٢م) ص ٧٨.

(٦) جواد الطبيب النصراني: كان في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمٰن ٢٣٨ـ ٢٧٣هـ. وله اللعوق المنسوب إلى جواد. وله أيضاً دواء الراهب والشرابات والسفوفات المنسوبة إليه؛ ابن جلجل، المصدر السابق، ص ٩٣؛ ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، الطبعة الثالثة، (بيروت، دار الثقافة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، جـ ٣، ص ٦٥.

(٧) خالد بن يزيد بن رومان النصراني: كان بارعاً في الطب، ناهضاً في زمانه فيه. =

النصراني[1]، وإسحاق الطبيب[2]، وغيرهم. ولعل اشتغال النصارى بالزراعة قد ساعدهم كثيراً على التفوق في مهنة الطب، حيث عرفوا خصائص النباتات والأعشاب، وتمكنوا من صناعة بعض الأدوية والعقاقير الطبية.

والجدير ذكره هنا ونحن نتناول أحوال وأوضاع غير المسلمين في مجتمع المسلمين من النصارى أن نذكر هنا أن اليهود لم يكونوا أقل حظاً من النصارى في هذه الحقبة إذ المصادر المعتبرة تشير إلى أن دور اليهود يأتي كعنصر ثانٍ من العناصر السكانية غير المسلمة في الأندلس، وقد أشار المقدسي[3] إلى كثرة اليهود في الأندلس، والذين انتشروا في مختلف أرجائها.

فقد استوطن قسم منهم في قرطبة، وكان لهم فيها باب يعرف بأسهم[4]. كما استوطن آخرون منهم في إشبيلية، وكان لهم دور بارز في مساعدة السلطة المركزية وتثبيت الحكم الأموي في هذه المدينة، وذلك عندما ثار الموالي والمولدون من أهلها على عامل المدينة من قبل الأمير عبد الله بن عبد الرحمٰن محمد، فأرسلت الحكومة جيشاً حاصر إشبيلية مدةً، حتى قام اليهود من أهل إشبيلية وفتحوا أحد أبواب المدينة للجيش الأموي[5].

= وكان بقرطبة وكسب بالطب مبلغاً جليلاً من الأموال والعقار، وكان صانعاً بيده عالماً بالأدوية الشجارية، وظهرت منه في البلد منافع؛ ابن جلجل، المصدر السابق، ص ٩٥؛ ابن أبي أصبيعة، المصدر السابق، جـ ٣، ص ٦٦.

(١) ابن ملوكة النصراني: كان في أيام الأمير عبد الله بن محمد ٢٧٥ـ ٣٠٠هـ، وأدرك أيام الناصر لدين الله ٣٠٠ـ ٣٥٠هـ، وكان يصنع بيده ويفصد العروق، وكان على باب داره ثلاثون كرسياً لقعود الناس؛ ابن جلجل، المصدر السابق، ص ٩٦؛ ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، جـ ٣، ص ٦٦.

(٢) إسحاق الطبيب: كان مقيماً بقرطبة، وكان صانعاً بيده. يحكى له منافع عظيمة وآثار عجيبة وتحنك فاق به جميع علماء دهره. وكان في أيام الأمير عبد الله بن محمد ٢٧٥ـ ٣٠٠هـ؛ ابن جلجل، المصدر السابق، ص ٩٧؛ ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، جـ ٣، ص ٦٦.

(٣) المقدسي، المصدر السابق، ص ٢٣٦.

(٤) الخشني، محمد بن حارث، ت نحو ٣٦٦هـ: قضاة قرطبة: القاهرة، الدار المصرية عام ١٩٦٦، صفحة ٦٤.

(٥) العذري، أحمد بن عمر، ت ٤٧٨هـ: نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع =

وربما كان السبب وراء هذا التصرف من قبل اليهود هو حرصهم على توثيق علاقاتهم بالإمارة الأموية، وذلك لضمان تسهيل معاملاتهم التجارية، وحماية الحكومة لهم ورعايتها لنشاطاتهم.

واستوطن جماعات من اليهود في طليطلة(١). وقد كان التجار اليهود يختلفون إلى هذه المدينة ما بين الحين والآخر بضروب السلع(٢).

واستقر قسم كبير من اليهود في برشلونة(٣)، كما استقر آخرون منهم في مدينة أليسانة(٤)، وتكاثرت أعدادهم بها حتى عُرفت هذه المدينة باسمهم في المصادر المختلفة(٥).

وقد لاحظ الإدريسي(٦) على استيطان اليهود في مدينة أليسانة؛ أنهم يسكنون في وسط المدينة مجتمعين إلى بعضهم البعض، ولا يساكنهم أحد من المسلمين، كما وصف يهود هذه المدينة بأنهم أغنياء مياسير، أكثر غنى من اليهود الآخرين في البلاد الإسلامية.

= الأخبار وتنوع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، صدر من معهد الدراسات الإسلامية عام ١٩٦٥م، صفحة ١٠٢.

(١) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الأصول والفروع، ط ١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، جـ ١، ص ٥٥.

(٢) ابن سهل، المصدر السابق، تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف، ص ٥١.

(٣) البكري، المصدر السابق، ص ٩٦.

(٤) أليسانة Lucena وهي مدينة اليهود ولها ربض يسكنه المسلمون وبه المسجد الجامع، وبينها وبين قرطبة أربعين ميلاً، الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق رينهارت دوزي ودي خويه، (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٦٨م)، ص ٢٠٥.

(٥) فعلى سبيل المثال، نجد ابن حيان يشير إليها بقوله: «ومدينة أليسانة يهود الذمة»، ابن حيان، المصدر السابق، القسم الثالث، نشره منشور أنطونية، ص ٩٣. ويشير إليها الإدريسي بقوله: «مدينة أليسانة وهي مدينة اليهود»؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص ٢٠٥.

(٦) الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد، ت ٥٦٠هـ صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتابه: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق: رينهارت دوزي ودي خوية اليدن، مطابع بريل، عام ١٩٦٨، صفحة ٢٠٥.

وتعتبر مدينة طركونة[1]، من المدن الهامة التي استوطنها اليهود[2].

ولقد وجد اليهود في كنف المسلمين كل تقدير واحترام، إذ كانوا يمارسون شعائرهم الدينية في حرية تامة، وكانت لهم بيعهم التي تقام فيها صلواتهم، كما امتازت علاقتهم بالمسلمين بالرد والتفاهم المطلق، مما جعلهم يندمجون في المجتمع الإسلامي، ويتعلمون اللغة العربية، ويتزينون بلباس المسلمين[3].

وقد أكد الأستاذ بروفنسال[4]، على ازدهار الأحوال العامة لليهود في الأندلس. وما ذاك إلا ثمرة من ثمرات سياسة التسامح التي سار عليها أمراء بني أمية في الأندلس، ومن جاء بعدهم أيضاً من حكام المسلمين في هذه البلاد.

وتورد لنا مصادرنا، صوراً من نزاهة القضاء الإسلامي وإنصافه لليهود من ظلم قد يقع عليهم. فمن ذلك مثلاً، ما روي من أن الأمير محمد بن عبد الرحمٰن، عندما كان والياً على مدينة ماردة في عهد والده الأمير عبد الرحمٰن بن الحكم، احتبس لرجل يهودي من تجار جليقية جارية أعجبته، وذلك بعد أن غالى اليهودي في ثمنها، فما كان من الأمير إلا أن دس غلمانه لاختلاسها، ففزع اليهودي بمظلمته إلى قاضي ماردة في ذلك الوقت، سليمان بن أسود، وشرح له قضيته، وأحضر معه الشهود على ذلك. فأرسل القاضي إلى الأمير محمد يطلب منه أن يدفع الجارية إلى صاحبها، لكن الأمير رفض مزاعم اليهودي. فكرر القاضي الرسالة إليه مرة أخرى، وقال فيها: «إن هذا اليهودي الضعيف لا يقدر أن يدعي على الأمير بباطل. وقد شهد عندي قوم من التجار، فليأمر الأمير بإنصافه»[5]. ومع إصرار الأمير على عدم الاستجابة لطلب القاضي؛ أرسل إليه القاضي من يخبره بعزمه على مغادرة ماردة والتوجه إلى قرطبة، ومقابلة

---

(١) طركونة Taragona مدينة قديمة على شاطئ البحر، تتصل بأعمال طرطوشة، ياقوت، المصدر السابق، المجلد الرابع، ص ٣٢.

(٢) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٠، ١٩١.

(٣) محمود محمد شبكة، اليهود في الأندلس، مجلة الأزهر، جـ ٩، ١٠، السنة ٣٧، القاهرة: ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م، ص ٥٤١.

(٤) بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ص ١٠٣.

(٥) النباهي، أبو الحسن علي بن عبد الله، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت)، ص ٥٦ ـ ٥٧.

الأمير عبد الرحمٰن، واطلاعه على تفاصيل القضية، ثم استعفائه من القضاء. فلما أحس الأمير محمد بعزم القاضي، استجاب لرغبته، وأنصف اليهودي، فأطلق له جاريته[1].

ويبدو أن إحساس اليهود بعدالة القضاء الإسلامي، قد جعلهم ينظرون بعين التقدير والإجلال إلى فقهاء المسلمين وقضاتهم. فعندما خرج الفقهاء على الأمير الحكم بن هشام، في ثورة الربض الشهيرة في قرطبة سنة **٢٠٢هـ/ ٨١٧م**، ثم ظفر بهم، فقتل من وقع في يده منهم، وهرب من استطاع الهرب منهم؛ كان من بين هؤلاء الهاربين، الفقيه طالوت بن عبد الجبار المعافري[2]، وقد اضطر هذا الرجل إلى الاختفاء عند رجل من اليهود في قرطبة، وظل هذا اليهودي متستراً عليه في داره لمدة عام، متحملاً ما قد ينتج عن ذلك من مسؤولية[3].

ومن مظاهر هذه المودة التي أبداها اليهود تجاه فقهاء المسلمين وعلمائهم؛ ما رواه الذهبي[4] من أن نفراً من اليهود والنصارى، كانوا مع من يبكون على الفقيه عبيد الله بن يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي، يوم وفاته.

ولقد عمل بعضٌ من اليهود في البلاد الأموي، وكانوا قريبين جداً من أمراء بني أمية، ومن هؤلاء نذكر، منصور اليهودي المغني، الذي حظي بثقة الأمير الحكم بن هشام، ويبدو أن هذا الرجل كان مغنياً للأمير حسبما يتضح من اسمه، ومن طبيعة المهمة التي كلفه بها الأمير الحكم، فقد بعثه سيده رسولاً إلى زرياب[5] المغني،

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٦ـ ٥٧.

(٢) طالوت بن عبد الجبار المعافري: من أهل قرطبة، كان أحد من روى عن مالك بن أنس ونظرائه، ثم خالف على الأمير الحكم بن هشام مع أهل الربض وهرب، وكان بمحل من الدين والعلم، ويغلب عليه الفقه. انظر: ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، جـ ١، ص ٣٤٥.

(٣) المقري، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٦٣٩.

(٤) الذهبي، المصدر السابق، جـ ١٣، ص ٥٣٢، ٥٣٣.

(٥) هو أبو الحسن علي بن نافع، وزرياب لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه مع فصاحة لسانه وحلاوة شمائله، كان شاعراً مطبوعاً، وهو مولى الخليفة العباسي المهدي. كان تلميذاً لإسحاق الموصلي ببغداد، وقد خشي إسحاق الموصلي أن يفقد منزلته عند الرشيد بظهور زرياب، فأمره أن يترك بغداد ويرحل، فاتجه إلى الأندلس ودخلها =

يستدعيه إلى الأندلس[1].

وعلى الرغم من ندرة المعلومات التي تجود بها علينا المصادر المعتبرة فيما يتعلق باليهود ونشاطاتهم في هذه الفترة؛ فإنه يمكننا القول، استناداً إلى الإرشادات القليلة التي أسعفتنا بها مصادرنا، بأن الأوضاع العامة لهذه الفئة كانت مستقرة. وعلى درجة جيدة؛ إن لم تكن ممتازة. بل إن أحد الباحثين، قد ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، عندما وصف طبقة كبار التجار اليهود بالأندلس، بأنها تأتي على قمة الهرم الاجتماعي بعد الأرستقراطية العربية[2]. ليت اليهود اليوم يذكرون هذا السجل الذي يقول: إن المسلمين تعاملوا معهم على أنهم بشر وليس يهوداً.

= بعد وفاة الأمير الحكم بن هشام وتولى ابنه عبد الرحمٰن؛ المقري، المصدر السابق، جـ ٣، ص ١٢٢ـ ١٣٣.

(١) المصدر نفسه، جـ ٣، ص ١٢٥ـ ١٢٥، وانظر كذلك: DOZY, SPANISH ISLAM, p.263.

(٢) أندريه ميكيل، الإسلام وحضارته، ترجمة: زينب عبد العزيز، (صيدا، بيروت: منشورات المكتبة المصرية، د.ت)، ص ٢٢٤.



الفصل الثامن

- هل طبقت أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية؟؟.
- الجزية وإشكالية العقل الغربي.
- الفتح الإسلامي وحرية بناء الكنائس.
- العروبة والمسيحية والإسلام.
- العدوان الغربي المسيحي على مسيحي الشرق.
- تناقض العروبة والإسلام.

هل طبقت أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية؟؟

يجدر بنا في معالجة هذا الموضوع، ذكر الأحكام التي وردت بالقرآن الكريم والسنة النبوية، في بيان المنهج الأقوم والأرشد في التعامل مع غير المسلمين في مجتمع المسلمين، وبادئ ذي بدء لا بد من التنويه، بل والتأكيد على أن أحكام القرآن الكريم قطعية الثبوت، قطعية الدلالة في تقرير حرية الناس، أن يعتقدوا ما يرونه مناسباً لهم، ولا يجبرون، ولا يكرهون على اعتناق الإسلام، وهذا أمر لا يحتاج إلى تدليل أو برهان. ومن قال بغير ذلك، فهو إما جاهل، أفتى بغير علم، أو مغرض خبيث، وهذا الذي نذكر به، نراه أوضح وأبين ما يكون في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[1]، ويقول سبحانه وتعالى مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾[3]. وتطالعنا حقائق التاريخ، وآيات الهدي النبوي بأن الرسول ﷺ صار على هذا المنهج، فقد مُنع رجل حاول أن يرغم ولديه على الإسلام، ويذكر المؤرخون[4] أن رجلاً يقال له الحصين من بني سالم بن عوف كان له ولدان مسيحيان وهو مسلم فسأل الرسول ﷺ عما إذا كان يجوز له إكراههما على اعتناق الإسلام وهما يرفضان كل دين غير المسيحية فنهاه الرسول عليه الصلاة والسلام عن ذلك، كما كانت إحدى نساء بني قريظة وتدعى

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٣) سورة الغاشية: الآيتان: ٢١، ٢٢.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: القاهرة ١٩٧٩، جـ ٢، ص ٥٦٢.

ريحانة من نصيب الرسول ﷺ بعد محاربة قومها[1]، فعرض عليها الرسول ﷺ أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يا رسول الله بل تتركني في ملكك، وأبت إلا اليهودية فقربها الرسول ﷺ حتى أسلمت بعد ذلك. كما كتب إلى معاذ بن جبل وهو باليمن أن لا تفتن يهودياً عن يهوديته[2].

كما دعا الإسلام إلى اتباع أسلوب اللين والرفق والحوار الهادىء والمجادلة بالحسنى من خلال استخدام العقل والمنطق لإقناع أهل الكتاب بالدخول في الإسلام، قال تعالى: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾[3].

ويقول سبحانه مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[4]. وفيه أيضاً: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[5].

الدعوة إلى الإسلام:

من نافلة القول أن نذكر بأن الرسول ﷺ بدأ بعد نزول آيات تشريع الجهاد بنشر الدعوة الإسلامية بين القبائل العربية وكانت موجهة في البداية إلى القرشيين الذين ظلوا على وثنيتهم وناصبوا الرسول ﷺ العداء فعمل على استمالة القبائل المقيمة بين مكة والمدينة وارتبط بأكثرها برابطة الحلف واستطاع ﷺ بعد صبر وجلد، واحتمال كل ضروب الأذى طوال ثلاث عشرة سنة كان عليه الصلاة

---

(١) كان بين يهود بني قريظة وبين الرسول ﷺ عهداً نقضوه، وانحازوا إلى قريش في واقعة الخندق فحاصرهم الرسول ﷺ ولما اشتد عليهم الحصار نزلوا على حكمه واختار الرسول ﷺ سعد بن معاذ الأوسي يحكم فيهم فحكم بقتل الرجال وسبي النساء والذرية وتقسيم أموالهم بين المسلمين، انظر ابن هشام، السيرة النبوية قدم لها وعلق عليها طه عبد الرؤوف، القاهرة ١٩٧٩، جـ ٣، ص ١٢٥.

(٢) الطبري، المرجع السابق، جـ ٢/٢٥٦.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

والسلام يؤصل ويقعد لعقيدة التوحيد ونبذ ضروب الشرك أن يعقد صلح الحديبية بعد أن هاجر إلى المدينة وأسس دولة الإسلام الأولى. وبعد صلح الحديبية يوجه جهوده خارج بلاد الحجاز لينشر الدعوة الإسلامية التي بدأت في السنة السادسة للهجرة بإرسال رسلاً من قبله إلى قبائل العرب وأمراء النواحي في شبه الجزيرة العربية وخارجها ولملوك الدول المجاورة للدولة الفتية التي على عاتقها أقيمت عقيدة التوحيد وابتدأ ﷺ يمارس مسؤولياته التي شرف الله بها حيث قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢٨﴾[1]، وحين أمر بقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[2]. فالإسلام رسالة عالمية لا بد أن تبلغ للناس كافة[3]. وهذا ما تطالعنا به طبيعة الدعوة الإسلامية. ومن هنا كان على الدعوة أن تتبع سياسة الإقناع التي أتبعها بالفعل الرسول ﷺ من خلال الكتب التي وجهها عليه الصلاة والسلام إلى أمراء العرب. والملوك المعاصرين يدعوهم للدخول في الإسلام فكتب إلى المنذر بن ساوي أمير البحرين: «فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحنا فذلك المسلم، ومن أبى فعليه الجزية»[4]، وكتب أيضاً إلى أهل اليمن: «من أسلم من يهودي أو نصراني فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يفتن وعليه الجزية»[5].

كما أرسل إلى المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل امبراطور بيزنطة كتاباً مع حاطب بن أبي بلتعة جاء فيه: «من محمد رسول الله إلى المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٣) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ترجمة حسن إبراهيم وآخرون، القاهرة ١٩٤٧، ص ٣٤-٣٥.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، القاهرة ١٩٣٢، ص ٩١.

(٥) نفس المصدر، ص ٨٠.

شيئاً»[1]، وتأتي بقية الكتب التي أرسلت إلى نجاشي الحبشة وهرقل عظيم الروم وكسرى عظيم فارس تحمل روح الحرص على مصلحة الناس وسلامهم وأمنهم[2]، وهي توضح السياسة التي اتبعها الرسول ﷺ في الدعوة بتنفيذ ما جاء في القرآن الكريم من ضرورة نشر الإسلام بالحسنى وعدم إجبار الناس على الدخول فيه. وكانت وصيته لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر»[3].

كذلك وضع الرسول ﷺ منذ البداية الخطوط العامة للدعوة الإسلامية وكيفية التعامل مع غير المسلمين أثناء الحرب عند خروج أمراء الجيش لتأمين حدود بلاد العرب الشمالية وتوطيد سلطان المسلمين بها بما يتفق مع ما جاء في النص القرآني فيما يخص القتال في سبيل الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾[4]. كما يوجه سبحانه الأمة بقوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[5]. فعندما وقع اختيار الرسول ﷺ على مولاه زيد بن حارثة في السنة الثامنة للهجرة خرج على رأس جيش عدته ثلاثة آلاف فشيعهم رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع وأوصى أمراء الجيش بقوله: «أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعهم إلى ثلاث فأيتهن ما أجابوك إليها فأقبل منهم واكفف عنهم، ادعهم إلى الدخول في الإسلام، فإن فعلوا فأقبل منهم واكفف عنهم.. فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن فعلوا فأقبل منهم واكفف عنهم فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم».

«وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا.. وستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين الناس فلا

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، طبعة ١٩٢٠، ص ٤٦.
(٢) انظر: حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، وثيقة رقم ٢٦١٢٥، ص ٢٦ـ ٢٩.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ٤، ص ١٧٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٦١.

تتعرضوا لهم وستجدون آخرين على رؤوسهم مفاحص[(١)] فاقلعوها بالسيوف، ولا تقتلن امرأة ولا صغيراً ضرعاً ولا كبيراً فانياً ولا تغرقن نخلاً، ولا تقلعن شجراً، ولا تهدموا بيتاً[(٢)]، كما تضمنت الوصية التي أوصى بها الرسول ﷺ أسامة بن زيد في حملته على أطراف الشام نفس الروح السمحة»[(٣)].

ومن هذه الوصايا السابقة نتبين أن سياسة الدولة الإسلامية في الدعوة للإسلام كانت تقوم على أمور ثلاثة: الإسلام ـ الجزية، الحرب، وهذا الأمر في حد ذاته لا يؤكد فقط ما سبق أن أسلفناه من عدم إجبار غير المسلمين على الدخول في الإسلام ولكن أيضاً يؤكد مبدأي الحرية والاختيار وقد وضحت هذه الأصول للدعوة أيضاً عندما كتب الرسول ﷺ إلى أساقفة نجران قال فيه: «إني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم آذنتكم بحرب والسلام»[(٤)] كما أوضحت الوصايا السابقة للرسول ﷺ سياسة التسامح مع الضعفاء والنهي عن قتل النساء والشيوخ والذرية.

واللافت للنظر والجدير ذكره أنه بعد الهجرة إلى المدينة وتكوين نواة الدولة وفق دستور المدينة نزلت الآيات بما يتلاءم مع الوضع الإسلامي الجديد في مدينة الرسول ﷺ، فأذنت بالجهاد ومقاتلة الكفار والإعداد اللازم لذلك، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

---

(١) المراد بالمفاحص التمثيل بأن الشيطان استوطن رؤوسهم فجعل له فيها مفاحص كمفاحص الطير، انظر: المقريزي، إمتاع الأسماع، القاهرة ١٩٤١، جـ ١، ص ٣٤٩، تحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة، ١٩٤١.

(٢) نفس المصدر، جـ ١، ص ٣٤٤، سرور، قيام الدولة الإسلامية، القاهرة، ١٩٤٦، ص ١٥٦.

(٣) نفس المصدر، جـ ٢، ص ٥٣٦ـ ٥٣٧، أوصاه بقوله اغز باسم الله في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ـ اغزوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة.

(٤) حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، وثيقة رقم ٩٣، صفحة ٨.

وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[1].

والآيات في القرآن الكريم التي أكدت مشروعية القتال لحماية الدين ودولة الإسلام كثيرة وهي كلها لإعلاء كلمة الله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وليس في كتاب الله ولا سنة نبيه ما هو قطعي الدلالة في إجبار غير المسلمين على الدخول في الإسلام، فهو أمر اختياري لهم بشرط أن يكون دين الإسلام في مجتمع المسلمين هو الدين الذي لا سلطان لغير المسلمين في مجتمع المسلمين سواه، ومن أراد الدخول فيه بحرية كاملة ضمن القواعد التي رسمتها الشريعة الإسلامية، فله حرية الاختيار، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾[2]. لكن الذي يجب أن لا يغيب عن البال، أن سماحة الإسلام لا تحول دون الاستعداد للنزول إذا دعت الضرورة لذلك وهي فرضية حضارية لا تغيب عنها الشعوب التي تحافظ على هويتها ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[3].

وفي تقرير تلك الحقيقة جاء قوله تعالى إذا وقع الجد واعتدى على المسلمين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾[4].

وبداهة فإن مجاهدة الخصوم تأتي بعد استنفاد كافة الوسائل السلمية قبل القتال، فقد أرسل الرسول ﷺ إلى حكام عصره يدعوهم إلى الإسلام، كما استمرت هذه المراسلات بعد ذلك في عهد الخلفاء الراشدين لعرض الإسلام على الناس وبيان الغرض من هذه الدعوة في إقامة الحق والعدل والسلام، وأما إرسال الجيوش الإسلامية بعد ذلك فلم يكن لأجل الاغتصاب والعدوان واحتلال أرض الغير وثرواتهم، قال تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ

---

(١) سورة الحج، الآيات: ٣٩ ـ ٤١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾[3].

إن الذي يجب ذكره هنا هو أن مبدأ الإسلام في التعامل مع الخصوم يقوم على الرحمة والشفقة والعدل والإحسان والمساواة وجمع الكلمة وإرساء مبادئ الأمن والحياة الكريمة لكافة الناس تحت ظل الإسلام عرباً كانوا أم عجماً مسلمين أم أهل ذمة.

وعندما عرف أهل البلاد التي جاءت إليها جيوش المسلمين غاية الإسلام ومبادئه تسابقوا إلى الدخول فيه، وانضموا إلى الجيوش الإسلامية، وقاتلوا مع إخوانهم المسلمين لا فرق بينهم وبين العرب، وهذا ما فعله البربر في شمال إفريقيا، وما فعله الترك والفرس والمغول بعد دخولهم الإسلام. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[4].

وكان الرسول ﷺ يوصي قادة جيوش المسلمين أن لا يتجاوزوا الحدود الإنسانية التي رسمها الإسلام مع أعدائه، ومن ذلك أقواله ﷺ في الحث على الجهاد وهي أحاديث كثيرة[5].

آداب الحرب وضوابطها في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

عندما خرج الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه يودع أسامة بن زيد رضي الله عنه عندما

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(٣) سورة الممتحنة، الآيتان: ٨، ٩.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٥) ابن الجوزية، زاد المعاد جـ ٣/ ٧٦ وما بعدها.

سيره إلى الغزو أوصاه ومن معه قائلاً: «أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني. لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له»[1].

وهذا عكس ما جاء في مصادر وعقائد يدعي أصحابها أنها مصادر هداية ورحمة وسماحة وحب وكلها تدعو إلى القتل وسفك الدماء والتدمير والحرق والإبادة وتسخير الناس لخدمتهم وكأنهم حيوانات لا ترقى إلى مستوى البشر، ومن يطالع سفر الخروج من كتب العهد القديم يطالعه كلمات قائد جيش غزو فلسطين يوشع بن نون[2].

كما أوصى الخليفة أبو بكر رضي الله عنه قادة فتوح الشام وهو يودعهم قبل مغادرتهم المدينة المنورة بوصايا تحمل معنى وصيته إلى جيش أسامة[3]. وأوصى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، القائد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قبل توجيهه إلى العراق بوصايا أخرى مشابهة[4].

وهكذا كانت جيوش المسلمين تكتفي في حروبها بما يؤدي إلى إقرار الحق وإعلاء دين الله.

وفي مواجهة أعداء الله شددت الآيات على وحدة الصف وعدم التنازع أو الاغترار بالنفس، وضرورة الانقياد والطاعة والثبات في القتال، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾[5]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ ٣/٢٢٦.
(٢) انظر كتابنا: التاريخ اليهودي العام، صادر عن دار الجيل، بيروت، عام ١٩٧٥م.
(٣) الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ١٢ وما بعدها.
(٤) انظر: محمد حميد الله، الوثائق السياسية/ ٧٥٤ وما بعدها.
(٥) سورة الأنفال، الآيتان: ١٥، ١٦.

فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[(1)].

ويقول سبحانه: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾[(2)]. وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[(3)].

ويقول: ﴿۞فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾[(4)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾[(5)].

وليس في الإسلام دعوة لذات الحرب أو للعدوان على الآخرين، فقد بينت الآيات الكريمة أن الحرب في الدولة الإسلامية ليست سوى حرباً دفاعية عن الحرمات وعن دين الله ودفع الظلم والعدوان، والإسلام سلام كله في التعامل مع غير المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾[(6)].

وقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾[(7)]، وقال تعالى: ﴿۞وَإِن

---

(1) سورة الأنفال، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(2) سورة الأنفال، الآية: ٥٧.

(3) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(4) سورة النساء، الآيتان: ٧٤، ٧٥.

(5) سورة الصف، الآية: ٤.

(6) سورة البقرة، الآيات: ١٩٠ ـ ١٩٢.

(7) سورة النساء، الآيتان: ٩٠، ٩١.

جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴿٦١﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴿١٢﴾ ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴿١٣﴾﴾[2].

عهود وعقود الأمان في الإسلام:

أحكام وضوابط وقواعد الإسلام في التعامل مع غير المسلمين تظهر في عهود الأمان التي أعطيت لهم فكانوا يقيمون في بلادهم بناء على هذه العهود تحت مظلة الإسلام وكان الأمان يشكل القاعدة الإسلامية الأساسية بعد دخول المسلمين البلاد المفتوحة وبمقتضى هذا الأمان أتيح لغير المسلمين الحقوق والحريات التي قررها لهم الإسلام. وكان عهد الأمان الذي عقده الرسول ﷺ لأهل نجران هو المثال الذي عقدت على منواله عهود الأمان اللاحقة فقد نص على أن (. . .لنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم غائبهم وشاهدهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ولا يغير أسقف ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته وليس عليه دية ولا دم جاهلية ولا يخسرون ولا يعسرون ولا يطأ أرضهم جيشاً ومن سأل منهم حقاً فبينهم للنصف غير ظالمين ولا مظلومين ومن أكل ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة ولا يؤخذ منهم بظلم آخر. . .)[3].

كذلك وضحت نفس الروح في بقية عهود الأمان التي كتبها الرسول ﷺ ومنها ما عقده مع أهل أيلة ذكر فيها: «هذه آمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر»[4].

وثمة نقطة أخرى متعلقة بعهد الأمان وموقف الإسلام من الناكثين بالعهد

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦١.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ١٢، ١٣.

(٣) أبو يوسف: الخراج، الطبعة السادسة ١٣٩٧هـ، ص٨٧.

(٤) حميد الله، الوثائق السياسية، وثيقة رقم ٣١، ص ٢٤.

من غير المسلمين قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾[1]، وهذه الآية وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم[2]، وفيه أيضاً: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[3].

وسوف يتضح هذا المنهاج فيما قام به الرسول ﷺ تجاه يهود المدينة، فمن الثابت أن الرسول ﷺ بعد أن استقر في المدينة، وضع نظاماً للحياة فيها وتضمن الكتاب أو الصحيفة عهد اليهود، نظمت خلالها العلاقة بين المسلمين واليهود في المدينة فأمنهم على دينهم وأمنهم على أموالهم ما داموا ملتزمين بما اتفقوا عليه في دستور المدينة مع المسلمين، فسمح لهم بأنواع الحرية التي يريدون، وبل وممارسة عقائدهم التي يؤمنون ما داموا في المدينة وتحت رعاية الدولة التي اتفقوا مع سيادتها على أن يكونوا مواطنين وطالما يقفون بجانب المسلمين بأن يكونوا معهم ضد أعدائهم ولا أن تجار قريش ولا من ينصرها، أي إن هذا العهد بقدر إعطاء الحرية الدينية لليهود فإنه أيضاً يكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق (وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم)[4].

لكن يهود المدينة قد تتابعت خيانتهم ونكثهم بالعهد، وبدأ يهود بني قينقاع بعد غزوة بدر كما تناولناه بالتفصيل في مواضع سابقة يظهرون أحقادهم وتحديهم للرسول ﷺ وزعموا أنه لا يجرؤ على قتالهم فحاصرهم إلى أن قبلوا التسليم واكتفى بإجلائهم عن المدينة[5]، كما توترت العلاقة بين يهود بني النضير وبين الرسول ﷺ بعد غزوة أحد، إذ حاولوا أن يستفيدوا من هزيمة المسلمين في أحد بالغدر بهم فحاصرهم الرسول ﷺ وأجلاها أيضاً عن المدينة في العام الرابع للهجرة، وتلا ذلك نكث بني قريظة للعهد وانحيازهم إلى قريش في واقعة الخندق وأصبح وجودهم في المدينة يشكل خطراً على المسلمين، حتى بعد رجوع

---

(١) أبو يوسف: الخراج، الطبعة السادسة ١٣٩٧هـ، ص ٨٧.
(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١٩٨٠م، جـ ٢، ص ٣٢٩.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.
(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ٢، ص ١١٩ ـ ١٢٣.
(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٧.

القريشيين إلى مكة بعد غزوة الخندق بدأ يهود بني قريظة مع القريشيين في تأليب العرب على المسلمين فضلاً عن تعاونها لهم أثناء الحصار فأخرجها هذا عن العهد المدون في الصحيفة التي حوت أمان وعهد اليهود، لذلك نجد الرسول ﷺ قد حاصرها في آطامها حتى طلبت التسليم وقبول تحكيم سعد بن معاذ الأوسي رضي الله عنه الذي حكم بقتل الرجال وسبي النساء والذرية[١].

وعلى ذلك يمكن أن نتبين أن السبب الرئيسي في حرب اليهود يرجع إلى اشتطاطهم في معاملة مسلمي المدينة ونكثهم للعهد وخيانتهم وتحديهم السافر الذي بلغ منتهاه مما دفع الرسول ﷺ إلى محاربتهم لأن خطرهم قد هدد الدعوة الإسلامية التي كانت لا تزال في مهدها ومبلغ الخطورة في أن هؤلاء اليهود كانوا يشاركون المسلمين سكنى المدينة كمواطنين أهل ذمة بينهم وبين سلطة الدولة عهوداً ومواثيقاً وكانوا في نفس الوقت يظاهرون عدوهم. ومع ذلك لنا أن نؤكد أن هذه الحروب التي دفع إليها الرسول ﷺ دفعاً تجاه اليهود يظهر فيها أيضاً التسامح فهو لم ينكل بهم مع بداية خيانتهم ونكثهم بالعهد بل اكتفى فقط بإجلائهم وخروجهم بما يحملون وتكرر الموقف أكثر من مرة مما دفع الرسول ﷺ إلى أن يشتد فيرفق لأن الذين خرجوا خارج المدينة تحالفوا مع قريش وأصبحوا يشكلوا خطراً يحدق بالدولة الناشئة التي كانت دائماً حريصة على أن يسودها السلام، ومع ما قام به اليهود من نقض للعهود فإنهم كانوا معترفين لوفاء الرسول ﷺ[٢]. مع عدم تعرضهم للغدر أو الإساءة أو مصادرة مالهم من أصول وعقارات.

والأصول التي وضعها الرسول ﷺ مستمدة من القرآن الكريم في الدعوة للإسلام وعقد عهود الأمان مع غير المسلمين والتي ظلت المنهاج القويم الذي سار عليه خلفاء الرسول والقادة الفاتحون الذين تحملوا عبء نشر الدعوة الإسلامية شرقاً وغرباً بالسلم والوفاء بالعهد قبل أي شيء آخر.

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب استؤنفت عمليات فتوح بلاد الشام التي كانت قد بدأت في خلافة أبي بكر ففتحت سورية عام ١٣هـ/ ٦٣٤م، ثم فتحت

---

(١) ابن هشام: المصدر السابق، جـ ٣، ص ١٢٥.

(٢) ابن هشام: المصدر السابق، جـ ٣، ص ١٢٥.

فلسطين عام ١٥هـ/ ٦٣٦م وبعدها تم فتح العراق، وخرجت الجيوش الإسلامية شرقاً وغرباً واستطاع عمرو بن العاص أن يفتح مصر عام ٢١هـ/ ٦٤٢م واتجه ناحية الغرب ففتح برقة وطرابلس إذ شملت الفترة التي حكم فيها عمر بن الخطاب أغلب الفتوحات في عصر الراشدين.

واللافت للنظر أن معظم هذه الفتوحات تمت بالسلم وما وقع فيها من حرب كانت تحكمها الضوابط الإنسانية الإسلامية التي توجه الحرب.

كما أسهمت الدولة الأموية التي قامت عام ٤١هـ/ ٦٦٢م بدور كبير في استئناف الفتوحات ففي إيران تمكن الأمويون من تثبيت الفتوحات التي تمت خلال عصر الراشدين كما تتابعت الجهود التي قام بها الخلفاء الأمويون والتي وصلت ذروتها في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ـ ٩٦هـ/ ٧٠٥ـ ٧١٥م) فأنجزت في عهده فتوحات كثيرة في المناطق الطرفية والتي بدأت منذ وقت مبكر منذ أيام الراشدين واستمرت مع الأمويين ولكن هذه الجهود لم تكتمل إلا في عصره فجاءت فتوحات إقليم ما وراء النهر وبلاد السند. كذلك بلاد المغرب الذي استمر فتحها فترة طويلة وخرجت الجيوش الإسلامية وفتحت الأندلس وكان يقوم بهذا الدور قادة أكفاء لهم قدرات فائقة أمثال قتيبة بن مسلم في إقليم ما وراء النهر ومحمد بن القاسم في السند وموسى بن نصير في بلاد المغرب والأندلس. ولم يسجل أحد على هؤلاء القادة أنه أمر بعدوان أو مارس غدراً إذا ما اضطر للحرب.

ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن القيادة السياسية والعسكرية للمسلمين ومنذ أرسى الرسول ﷺ قواعد الدولة لا تختلف في أن أصل علاقة المسلمين بغيرهم هو السلم وعدم الإكراه، فضلاً عن رفض العدوان، فمن الثابت أن الخليفة عمر جاءته امرأة غير مسلمة تطلب حاجتها ولها فيها مصلحة فدعاها للإسلام فأبت، فقضى لها حاجتها، لكنه خشي أن يكون في تصرفه هذا ما ينطوي على إكراهها للدخول في الإسلام، فاستغفر الله عما فعل وقال: «اللهم إني أرشدت ولم أكره»[1].

وفي أقصى مراحل وتاريخ المد الإسلامي وإبان اشتغال الأمة الإسلامية

---

(١) علي عبد الواحد وافي: بحوث في الإسلام والمجتمع، القاهرة ١٩٧٧، ص ٧٣.

كلها ولاة وقادة بالدعوة للإسلام فإننا لا نلحظ تلك الروح العدوانية التي تسيطر وتهيمن على الجيوش الغازية فهاهم القادة الفاتحون نطالع سيرتهم فلا نرى فيها إلا الغاية الإنسانية حتى وهم يفتحون بلاد ويحررون شعوباً من قهر حكامها منها هو القائد الإسلامي الفذ خالد بن الوليد رضي الله عنه يكتب إلى هرمز صاحب ثغر فارس ما نصه: «أما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»[1] كذلك ما قام به سعد بن أبي وقاص فدعا الدهاقين إلى الإسلام والرجوع إلى الجزاء لهم والذمة[2].

واتضحت وصايا الرسول عليه الصلاة والسلام في التسامح مع الضعفاء والنهي عن قتل النساء والشيوخ والذرية في تلك السياسة التي سار عليها المسلمون من بعده، ففي عهد الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص وأمراء الجيش يوصيهم بتقوى الله وأن تنحى منازل المسلمين عن قرى أهل الصلح والذمة فقال: «لا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ولا يرزا أحد من أهلها شيئاً فإنهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح»[3].

كما حوت عهود الأمان التي عقدها الفاتحون نفس الروح السابقة، وسارت كلها في اتجاه واحد، فنجد مثلاً أن العهود التي أبرمت مع الإيرانيين قد تضمنت جميعها منح أهل الذمة الحرية الدينية، كما أن المجوس عدوا من أهل الذمة وكانوا على قدم المساواة مع الديانات الأخرى[4]، ونلمس أيضاً تلك الروح السمحة في العهود التي أبرمت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب فقد صيغت في إطار واحد بنفس الجزئيات وإن تغيرت الصيغة قليلاً، ففي كثير من المدن الإيرانية أعطيت فيها عهود الأمان في بعض الأحيان بشكل إجمالي، بمعنى إعطاء الأمان على الأنفس والأموال وسور المدينة مع أهل قومس وجرجان وأذربيجان وطفليس وغيرها.

---

(١) حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية، وثيقة رقم ٩٣، ص ٨٠.
(٢) نفسه: وثيقة رقم ٢٨٩، ص ٢١٧.
(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤، ص ٥.
(٤) حسن محمود: الإسلام في آسيا الوسطى، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٣٢.

فنصت معاهدة خالد بن الوليد لبلاد عانات[١] على: «أن لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة وعلى أن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم» كذلك معاهدة حذيفة بن اليمان مع أهل ماه دينار[٢] على: «إعطاء الأمان على أنفسهم وأموالهم وأرواحهم، ولا يغيرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ولهم المنعة».

كما سارت معاهدات الصلح في إقليم ما وراء النهر في نفس الاتجاه، فقد أتيح لأهل الصامغان ودراباز على (أن لا يقتلوا ولا يسبوا ولا يمنعوا طريقاً يسلكونه)[٣]، كما عقدت عهود الصلح بين قتيبة بن مسلم وكثير من مدن إقليم ما وراء النهر مثل كش ونسف وإن لم تذكر المصادر صيغة هذه العقود[٤]. كذلك وجدنا أن العرب في إقليم ما وراء النهر قد استطاعوا من خلال معاملتهم الطيبة مع أهالي البلاد أن يعقدوا صداقات مع الدهاقين[٥]، حتى نشأ ود متبادل بين الفريقين خلال الغارات الثغرية المتلاحقة ونتج عن ذلك إعجاب من جانب هؤلاء الوطنيين بسمات العرب وسماحتهم وكريم معاملتهم، وهناك عدة أسماء بقيت سيرتها في ذاكرة الناس فترة ليست بالقصيرة أمثال ثابت بن قتيبة أحد رجال عبد الله بن خازم الذي أثار احترام الناس وظلوا يذكرونه وقتاً طويلاً[٦].

أما عن فتح السند، فقد استطاع محمد بن القاسم أيام الدولة الأموية أن يرتفع بالبوذيين إلى مصاف أهل الكتاب، كما ارتفعوا من قبل بالزرادشية في إيران، ويعني ذلك أن ينضم هؤلاء البوذيون إلى بقية المعاهدين ويتمتعوا بكافة الحريات السابقة، واستطاع محمد بن القاسم أن يعقد الصلح مع عدة مدن قد طلبت منه الصلح مثل البيرون وأهل ساوندي وبشمند، كذلك اشتمل صلحه مع بلاد البوذ بعد أن فتحها صلحاً على أن لا يقتلهم ولا يعرض لبيوتهم والتي هي بيوت عبادة البوذية ككنائس النصارى وبيع اليهود وبيوت نيرات المجوس[٧] وهذا

---

(١) حميد الله: المصدر السابق، وثيقة رقم ٢٩٧، ص ٢٣٥.

(٢) نفسه، وثيقة رقم ٣٣٢، ص ٢٤٦.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٢٩.

(٤) نفس المصدر، ص ٤٠.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤، ص ٣١٥.

(٦) حسن محمود: الإسلام في آسيا الوسطى، ص ١٢٤.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٤٢٦ـ ٤٢٧.

يؤكد أن معابدهم قد ظفرت بنفس الحرية التي أتيحت لأهل الكتاب في ممارسة شعائرهم وحماية بيوت عباداتهم[(١)].

أما عهود الأمان التي أبرمت مع البلاد التي كانت خاضعة للبيزنطيين في الشام ومصر فقد سارت في نفس الاتجاه، ففي بلاد الشام أعطى خالد بن الوليد أماناً لأهل دمشق[(٢)] على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا تسكن شيء من دورهم كما نجد في عهد الخليفة عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس عام ١٧هـ/ ٦٣٨م[(٣)] نفس الامتيازات التي تتيح لأهل الذمة الحرية الدينية فضلاً عن أنها نصت على أن (لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم) كذلك شمل أمان أهل الرقة نفس الحقوق[(٤)].

وفي مصر استطاع عمرو بن العاص أن يعقد مع من أسلموا له حصن بابليون صلحاً شرط لهم فيه (أن لا تباع نساؤهم وأبناؤهم ولا يسبون وأن تقر أموالهم وكنوزهم في أيديهم)[(٥)]. وفي رواية أخرى أن عمراً كتب لهم (أنهم آمنون على أموالهم ودمائهم ونسائهم وأولادهم لا يباع أحد منهم)[(٦)] أما صلح الإسكندرية فقد حوى أيضاً: (أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس القبط ولا يتدخلون في أمورهم أي تدخل ويتاح لليهود الإقامة في الإسكندرية)؛ بهذا عومل الأقباط معاملة طيبة منذ البداية فعلى الرغم من اختلاف المؤرخين حول وضعية مصر هل فتحت صلحاً أم عنوة، فقد طبق العرب شروط الصلح التي أبرمت مع المصريين بأمر الخليفة عمر بن الخطاب بأن يصالح أهل مصر على أساس أن بلادهم فتحت صلحاً.

---

(١) انظر: كتابنا «العقائد الوضعية قبل الإسلام»، دار الجيل، بيروت، صفحة ٤٦٥ـ ٤٦٦.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية: وثيقة رقم ٣٥٢، ص ٢٦٤.

(٣) نفسه: صفحات ١ وثيقة رقم ٣٥٧، صفحات ٢٦٨ـ ٢٦٩.

(٤) نفسه: وثيقة رقم ٣٥٨، وثيقة رقم ٣٥٩، صفحات ٢٦٩ـ ٢٧٠.

(٥) نفسه: وثيقة رقم ٣٦٥، ص ٢٧٦.

(٦) نفسه.

الجزية وإشكالية العقل الغربي

بعض الكتابيين والمفكرين السياسيين من الذين عنوا بالموروث الديني للمسلمين، تعاملوا مع موضوع الجزية بنوع من التفكير العسكري الغربي، وهو أن الجزية نوع من بسط القهر والظلم والجباية لغرض سيطرة المسلمين على من عداهم ممن لم يقبل الإسلام ديناً ولم يحارب، واعترضوا على مبدأ الجزية على أنه يخالف روح العدل والمساواة وحرية الاعتقاد التي يقول بها المسلمون. والواقع أن هذا الزعم باطل ومغرض فضلاً عن مجافاته للحق، كما أنه يكشف عن جهل بالسياسة الشرعية في الإسلام. فكفالة الإسلام لحرية الرأي والعقيدة، وأساليب الكسب الحلال ونوع التعليم الذي يريده غير المسلم في مجتمع المسلمين من حقائق وأصول السياسة الشرعية في الإسلام(1) وفرض الجزية لا

---

(1) إمتاع الأسماع للمقريزي، جـ ١، ص ٣٢٣، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، سنة ١٩٤١هـ. وذلك نقلاً عن: أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام للدكتور عبد الكريم زيدان، ص ١٠١ والهامش، وعن أحكام أهل الذمة لابن القيم، القسم الأول، مقدمة التحقيق للدكتور صبحي الصالح، ص ٢٣ والهامش.
وتجدر الإشارة أن حقوق الأفراد السياسية من حيث جوهرها أو موضوعها، من المسائل الدستورية، فهي من المسائل المتصلة اتصالاً وثيقاً بنظام الحكم في الدولة. والمقصود بحقوق الأفراد: الحرية والمساواة بأنواعها المختلفة... وألا تمس الحكومة حرية المعتقدات الدينية، راجع في ذلك: المفصل في القانون الدستوري الجزء الأول، ١٨، ٣٠١ وما بعدهما. ويلاحظ أن الحرية الشخصية تتميز بخصائص ثلاثة: حق الأمن، وحق المسكن، وحرية التنقل.
راجع: النظم السياسية والقانون الدستوري للدكتور فؤاد العطار، سنة ١٩٧٤ دار النهضة العربية، ص ٤٨٣ وما بعدها ويلاحظ في هذا الصدد أن من يرى من الفقهاء والفرنسيين مثل الأستاذ «بريلو» استبعاد موضوع حريات الأفراد عن القانون الدستوري، فإنه يرى رغم ذلك أن تلك الحريات سواء كانت موجودة أو معدومة أو مقيدة فهي من =

يتعارض مع مبدأ المساواة، ذلك أن آية الجزية: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[١]، إنما نزلت في السنة التاسعة بعد الهجرة، أي بعد فتح مكة، وشرع في الآية عقد الذمة وفرض الجزية. وقد أورد الإمام القرطبي خمسة عشر مسألة في هذه الآية، منها أن الله جعل عوضاً للمسلمين بما قطع عنهم من التجارة التي كان المشركون يوافون بها، لما منع المشركين أن يقربوا المسجد الحرام ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ ـ الآية التي تسبقها ـ فقال بعضهم إنه لا توقيف فيها وإنما هي على ما صولحوا عليه.. وتؤخذ الجزية من الرجال المقاتلين دون النساء والذرية والعبيد والمجانين والشيخ الفاني، وبأداء أهل الجزية جزيتهم لم يؤخذ منهم شيء من ثمارهم ولا تجارتهم ولا زروعهم، إلا أن يتجروا في بلاد غير بلادهم فيؤخذ منهم العشر. وإن من عجز عن الجزية تسقط عنه، ولا يكلف الأغنياء بأدائها عن الفقراء[٢].

وحرية العقيدة التي سبق بيانها، كفل بها الإسلام حرية الرأي لغير المسلمين، فقد نهى المسلمون أن يؤذوا غيرهم بالطعن والسب فيهم ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ... ﴿١٠٨﴾﴾[٣]، ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٤]، فيكون الإسلام أباح لأهل الأديان الأخرى أن يجادلوا في الدين[٥].

والجزية (لغة) وزنها فعلة، من جزى يجزي إذا كافأ عما أسند إليه، فكأنهم

= مميزات الأنظمة الدستورية، حيث يقول عن الحريات العامة:
Elles caracterisent, alore, par leur presence, leur limtiation oue leur absence (carilyaces constitutions sans liberes les divers systemes constitutions leu edudes incorpore nature? Lementacelle regimes politiques.
Prelot, Precis de droit Constitutionnel ed 1949. p.17.18.

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، جـ ٨، ص ١٠٩ حتى ١١٦. ويقول ابن القيم أن المسلمين لو حاصروا حصناً ليس فيه إلا نساء فبذلن الجزية لتعقد لهن الذمة عقدت لهن بغير شيء وحرم استرقاقهن، ص ٤٣، أحكام أهل الذمة، القسم الأول، الكتابان السابقان.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.
(٥) السياسة الإسلامية في عهد النبوة، الكتاب السابق، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، ص ١٤٩.

(أي أهل الذمة) أعطوها جزءاً ما منحوا من الأمن[1].

وهي في اللغة خراج الأرض، فأخذت جزية الذمي منه، وليس فيها ما يشعر بشيء آخر غير هذا المعنى، والإسلام لا يأخذ الجزية من غير المسلمين عقوبة لهم، فهم يتمتعون في الدولة الإسلامية بالحقوق الوطنية التي يتمتع بها المسلمون، فكان لهم فيها ما للمسلمين، وعليهم فيها ما عليهم، وهذا هو أصل المساواة الذي جاء به الإسلام قبل أن يجيء به غيره، ولأن الإسلام دين يدعو الناس بالتي هي أحسن، فيأخذهم بالسلم لا بالقتل، أما قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟... ﴿٢٩﴾﴾ الآية ٢٩ من سورة التوبة فقد ورد في قوم حاربوا المسلمين، وهم نصارى الشام من العرب والروم فأمر المسلمون بقتالهم إلى أن يعطوا الجزية وهم خاضعون لهم، وكما سبقت الإشارة إلى ذلك فلا يفيد قوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ إلا معنى الخضوع وإيثار السلم على الحرب، وليس فيه شيء من الذلة والمهانة، ولأن الإسلام لا يقصد إذلال الناس ولا إهانتهم، وإنما يقصد إرشادهم وهدايتهم[2].

ومن نافلة القول أن نذكر ونكرر نصوصاً امتلأت بها مصادر الإسلام تكشف عن نوعية مواقف وأحكام الإسلام في التعامل مع الآخر فمثلاً في معاهدة الرسول ﷺ مع نصارى نجران يقول: «...ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة

---

(١) الجامع لأحكام القرطبي، الكتاب السابق، ص ١١٤. وما بين القوسين إضافة لإيضاح المعنى.

(٢) السياسة الإسلامية في عهد النبوة، الكتاب المشار إليه، ص ١٨٨ـ ١٩٢. وأبطل ابن القيم كل قول بأن المقصود بالصغار إهانتهم وإذلالهم، وقال بأنه لا دليل عليه، ولا هو مقتضى الآية ولا نقل عن الرسول ﷺ ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك، وقال: الصواب في الآية أن الصغار هو التزامهم لجريان أحكام الملة عليهم، (أحكام أهل الذمة، القسم الأول، ص ٢٣، ٢٤) ويقول: السير أرنولد: «لم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة ـ يقصد الجزية ـ على المسيحيين، كما يريدنا بعض الباحثين على الظن، لوناً من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كان يؤدونها مع سائر أهل الذمة وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين...» (الدعوة إلى الإسلام، ص ٧٩).

محمد رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كان من كهانته. وليس عليهم دية ولا دم جاهلية.. على ألا يأكلوا الربا فمن أكل الربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة...»[1]. وبمثل ذلك كتاب الرسول لعمرو بن حزم عامله على اليمن: «...ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها...»[2] وما عهد ابن النبي إلى معاذ بن جبل عند ذهابه إلى اليمن أنه «لا يزعج يهودي في يهوديته»[3] وكذلك كتابه إلى المنذر في مجوس هجر بدعوتهم إلى الإسلام، ومن أبى فعليه الجزية.

ومن المعروف أنه في السنة الثامنة من الهجرة فتح الرسول مكة بعد أن نقضت قريش عهدها المعقود يوم الحديبية، وقد فتحت صلحاً، ولم تفتح عنوة، وقد أمنهم الرسول على دمائهم وذراريهم وأموالهم ونسائهم إلا من قاتل أو استثنى فقط، وذلك حسبما حققه ابن حزم[4]. فلم يكره الرسول أحداً على

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للدكتور محمد حميد الله، الكتاب السابق، ص ٨٠ و١٠٦ وما بعدهما، وثيقة رقم ٩٤، ١٠٥، الأموال لأبي عبيدة، فقرة ٥٠٢، ص ١٨.

(٢) كتاب العقيدة والشريعة للمستشرق اليهودي جولد تسهير، ص ٣٨، وحاشية رقم ٧، ص ٢٧٩.

(٣) مجموعة الوثائق الإسلامية، ص ٦٠ وثيقة رقم (٦١) ونفس المعنى ص ٥٨ وثيقة رقم ٥٩. ويلاحظ أن الرسول ﷺ كتب كتباً إلى حكام الدولة الرومية ولواحقها، ص ٢٣ وما بعدها، وإلى حكام الدولة الفارسية ولواحقها ص ٥٣ وما بعدها، وإلى القبائل العربية ص ١٣٨ وما بعدها، وفيها جميعاً يدعو إلى الإسلام بالتي هي أحسن، ولم يكره أحداً.

(٤) جوامع السيرة. الكتاب السابق، ص ٢٢٩، ٢٣٠، وراجع ذكر الأسباب التي أوجبت السير إلى مكة، ص ٢٢٣ وما بعدها والجزء الرابع من سيرة ابن هشام، الكتاب السابق، ص ٨٥١ وما بعدها، وذكر من استثناهم الرسول ﷺ من الأمان، ص ٢٣٢ وما بعدها، من جوامع السيرة، ص ٨٧٦ وما بعدها من سيرة ابن هشام، الجزء الرابع ـ ولما نزل الرسول ﷺ مكة، واطمأن الناس قام على باب الكعبة فقال: (...يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم.. ثم تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ آية ١٣ من سورة الحجرات.. الآية كلها. ثم قال يا معشر قريش، ما ترون إني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، ص ٨٩٦ وما بعدها، سيرة ابن هشام.

الإسلام، ولم يصادر حرية أحد، ولم يأمر بقتال إلا من قاتل، ولم يتعرض لأحد من ماله أو أمنه إلا من استثني فقط لإضرارهم بالمسلمين وحربهم لهم.

وقد كفل الإسلام حرية العقيدة حين جعل هذا المبدأ أصلاً عاماً يتفرع منه كفالته جميع الحريات الشخصية - والمعروفة دستورياً في العصر الحديث ذلك أنه لو روع الإسلام غير المسلم في نفسه أو في ماله أو في حرمة ملكه أو في مسكنه، أو في غير ذلك من الحقوق المتصلة بشخصه، لكان في ذلك شبهة التعرض له في حريته الدينية، وهو ما تأباه أحكام الإسلام، ولأنه لما كان الواجب ما طلب الشارع فعله على سبيل الإلزام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[١]. وقد أوجب الإسلام حرية العقيدة، لذلك فإن من الواجب الذي فرضه على المسلمين ألا يتعرضوا لكل ما يمس غير المسلمين في حريتهم الأساسية (حرية العقيدة) أو ما يكون شبهة في التعرض لهذه الحرية، من التعدي على الحقوق الشخصية لهم: في النفس أو المال أو السكن..

وللعلماء أقوال في سبب نزول الآية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ منها أنها نزلت في الأنصار كانت المرأة تجعل على نفسها (أي تلزم نفسها نذار) إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا. أو قالوا: إنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن فيه، أما إذا جاء الإسلام فنكرههم عليه. فنزلت الآية. ودخول الألف واللام للتعريف لأن المعنى لا إكراه في الإسلام. وفي قول آخر يكون التقدير لا إكراه في الدين الإسلام. فمن شاء التحق به (أي اليهود أو غيرهم) ومن شاء دخل في الإسلام[٢]. والنبي لم يمنع قبل فرض الجهاد ولا بعده وثنياً دخل في دين أهل الكتاب، بل ولا يهودياً تنصر أو نصرانياً تهود أو مجوسياً دخل في التهود أو التنصر[٣].

---

(١) أصول الفقه الإسلامي، للدكتور محمد سلام مدكور، ص ٣٢٦، ٣٢٨، الكتاب السابق.

(٢) كتاب الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٣هـ، مطبعة السعادة بمصر، ص ٨٠، الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي، الكتاب السابق، جـ ٣، ص ٢٧٩- ٢٨١ وأورد القرطبي ستة أقوال للعلماء من بينها الرواية الثابتة بالمتن وهي عن ابن عباس، وقال النحاس والقرطبي إنها أقوى الأقوال، ويلاحظ أن ما بين القوسين زيادة الإيضاح.

(٣) أحكام أهل الذمة لابن القيم، القسم الأول، ص ٧٠.

وكما سبق القول فقد وجد المسلمون بعد فتح خير نسخاً من التوراة، فأمر الرسول بردها إلى حيث كانت، وأن تسلم لليهود بحكم إيمانهم بما فيها.

هذا ولما كان الإسلام قد كفل الأمن لغير المسلمين ممن انطوى لوائهم وأصبح في حكم المواطن المسلم فإننا يجب أن ننظر إلى أن الأمن الذي يوفره الإسلام لغير المسلمين يتضمن كفالة الحريات الشخصية بالمعنى الواسع وعلى ذلك فإن فرض الجزية لا يتعارض مع هذه الحريات إذ المقصود من الجزية قبول غير المسلمين أحكام الإسلام في الدولة الإسلامية التي تجمعهم سوياً. كما أنه قصر في إلزام الرجال المقاتلين فقط بالجزية ولأنه لا يلزم بها سواهم من غير المسلمين، بل هم أنفسهم إذا أصبحوا شيوخاً ـ أي ليسوا من عداد المقاتلين ـ فإنها تسقط عنهم، كما لا تفرض على غير القادرين (ولو كان في عداد الرجال المقاتلين). ولأنه ترد إليهم إذا لم يتمكن المسلمون من حمايتهم والدفاع عنهم ـ كما حصل في الشام في عهد عمر بن الخطاب[(١)]، [(٢)].

ومن اللافت للنظر والجدير ذكره ما يطالعنا به تاريخ الفتح الإسلامي في بلد كبير مثل مصر، حين يريد القائد الفاتح عمرو بن العاص أن يبسط سلطان الولاية التي تتبع دولة الإسلام في المدينة ويرسل جنده إلى ريف مصر لاستتباب

---

(١) الدعوة إلى الإسلام للسير توماس أرنولد، الكتاب السابق، ص ٧٩ وما بعدها وذكر أن خالد بن الوليد سجل في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله: «فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا» ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعت في حكم الخليفة عمر. لما حشد الإمبراطور هرقل جيشاً ضخماً لصد قوات المسلمين، وركز المسلمون كل نشاطهم في المعركة، فكتب أبو عبيدة إلى عمال المدن المفتوحة في الشام أن يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبي من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول: «إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وأنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم أن نصرنا الله عليهم»، وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة، فدعا المسيحيون لرؤساء المسلمين وقالوا: ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أي على الروم)، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقي لنا».

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢١٨.

الأمن وتحقيق دعوة الإسلام نراه يقول لقيادة جنده (واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً)[١] وهناك عدة أحاديث نقلت عن الرسول ﷺ توصي بقبط مصر خيراً (. . .فإن لكم منهم صهراً وذمة فعفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم)[٢].

ولهذا قام هؤلاء القادة الفاتحون بإبرام هذه العهود مع غير المسلمين ولم يكن هذا الأمر وقفاً عليهم بل توسعت دائرة الأمان في ظل روح السماحة التي يبشر بها المسلمون حين فتح الباب على مصراعيه الخليفة عمر بن الخطاب وكتب بذلك كتاباً إلى سعد بن أبي وقاص قائلاً: (فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان بإشارة أو بلسان كان لا يدري الأعجمي ما كلمه به وكان عندهم أماناً فأجروا ذلك مجرى الأمان)[٣]، وبذلك يكون أمر عمر بإمضاء الأمان حتى ولو كان بإشارة عابرة أمره بالوفاء، يشكل أهمية كبيرة في إتاحة الفرصة لأهالي البلاد المفتوحة في إبرام معاهدات الصلح.

وفي ضوء العهود السابقة التي أشرنا إليها وأخذنا منها صوراً من عهود وبلدان مختلفة، فقد تأكد لنا أنها كانت تقوم على أساس المعاملة المتسامحة مع أهالي الأديان الأخرى وإتاحة كافة الحريات والحقوق فأعطيت لهم الحرية الدينية في ممارسة شعائرهم وطقوسهم كذلك نالوا الحرية المدنية من خلال ما أتاحه لهم المسلمون من حماية وأمان على أرواحهم وأموالهم وأنفسهم وما إلى ذلك مما يجعلهم يعيشون كيفما شاؤوا.

كما أنه لم يكتف المسلمون بهذه العهود التي تبرم مع غير المسلمين مكفولة بهذه الحريات السابقة، فوجدنا الخليفة عمر بن الخطاب حريصاً على أن يلحق هذه العهود بوصايا من قبله موجهة إلى كافة القادة والولاة بأن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة أو إهدار شيء من حقوقهم التي أعطتها لهم عهود المسلمين.

أما عن موقف العرب بعد الرسول ﷺ من أهالي البلاد المفتوحة وحرصهم على الوفاء بالعهد وكذلك موقفهم من الذين نكثوا العهد فنجد من الدلائل التي

---

(١) السيوطي: حسن الحاضرة، القاهرة ١٢٩٩هـ، جـ ١، ص ١٢.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٣١٢ إذ كانت هاجر زوج إبراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده إسماعيل، كما كانت مارية القبطية زوج الرسول ﷺ من أهل مصر.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٤٩٢.

تؤكد حرص الخلفاء الراشدين على الوفاء بالعهد، فبعد وفاة الرسول ﷺ جاء أهل نجران إلى الخليفة أبي بكر الصديق فكتب لهم عهداً التزم خلاله بما جاء في عهد الرسول ﷺ[1] لهم من قبل.

كما حافظ الخليفة الثالث عثمان بن عفان على الوفاء بالعهد فجدد لأهل نجران عهدهم مخاطباً الوليد بن عقبة عامله على العراق جاء فيه: (وإني وصيت لهم بكل أرضهم التي تصدق عليهم عمر عقبى مكان أرضهم باليمن، فاستوص بهم خيراً فإنهم أقوام لهم ذمة، وكانت بيني وبينهم معرفة، وانظر صحيفة كان عمر كتبها لهم فأوفهم ما فيها، وإذا قرأت صحيفتهم فارددها عليهم[2]. وهنا الخليفة الجليل عثمان بن عفان رضي الله عنه يلفت النظر إلى معنى من معاني الوفاء والأخلاق فهو يقول للوليد بن عقبة وإذا قرأت صحيفتهم فارددها عليهم أي إن وثائقهم لا تصادر ولا ينقطعون عنها.

كما أتوا إلى علي بن أبي طالب فكتب لهم كتاباً ذكر فيه: (إنكم أتيتموني بكتاب من نبي الله ﷺ فيه شرط لكم على أنفسكم وأموالكم وإني وصيت لكم بما كتب لكم محمد ﷺ وأبو بكر وعمر فمن أتى عليهم من المسلمين فليلف لهم ولا يضاموا ولا يظلموا ولا ينتقض حق من حقوقهم[3] كما شملت عهود الإيمان التي أبرمت مع البلاد المفتوحة شرط الالتزام بالوفاء بالعهد[4].

ومن نافلة القول التأكيد على أن المسلمين طوال تاريخ دولهم لمن ينقضوا عهداً من العهود التي أبرموها، لأنها ملزمة لمن عقدها ولا يجوز لوال يأتي بعدهم أن يغيرها[5] كما أوضحت ظروف عقد الأمان مع أهل تدمير بالأندلس، حرص المسلمين على الوفاء بالعهد حتى بعد أن خدعوا من قبل تدمير، فيذكر المؤرخون[6] أن تدمير دينما شعر بقلة رجاله وخطورة المسلمين أمر النساء بنشر شعورهن والوقوف مع القلة الباقية من رجاله على أسواء حصنه وفي أيديهن

---

(١) أبو يوسف: الخراج، ص ٧٩ـ ٨٠.

(٢) أبو يوسف: الخراج، ص ٨٠.

(٣) نفسه، ص ٨٠ ـ ٨١.

(٤) مجموعة الوثائق السياسية: وثيقة رقم ٣٣٤، ص ٢٤٨.

(٥) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٤٤.

(٦) أخبار مجموعة: فتح الأندلس، مدريد ١٨٦٧، ص ١٣.

الرماح مما جعل المسلمين يعتقدون أن حامية المدينة كبيرة العدد فقبلوا مبدأ التفاوض ونزل إليهم بنفسه على هيئة رسول وأخذ يفاوض عبد العزيز بن موسى واستطاع أن يعقد معه الصلح الذي ذكرناه. وبعد إتمام الصلح كشف تدمير عن شخصيته فلم يرجع المسلمون عما عاهدوا عليه.

وفيما يخص نقض العهود من قبل المعاهدين، فأول ما يلاحظ في هذا الصدد موقف النجرانيين ونقضهم للصلح الذي عقده معهم الرسول واشترط عليهم فيه أن يبقوا في مساكنهم ولا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به، فجاء أبو بكر وجدد لهم الصلح على ذلك فلما استخلف عمر أصابوا الربا وكانوا قد كثروا وبلغوا أربعين ألفاً فتحاسدوا فيما بينهم فخافهم علي الإسلام فأجلاهم من نجران إلى اليمن إلى نجران العراق[1] وهذا الإجلاء لا يعد عقاباً عما قام به أهل نجران بقدر رغبة عمر بن الخطاب في تنفيذ وصية الرسول ﷺ: «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان، ولذلك وجدنا الفقهاء المتأخرين يضعون شروطاً لسكنى الحجاز ومنها أن لا يسكنه مشرك ولا ذمي ولا معاهداً[2] ولذلك نقل عمر إلى الشام والعراق يهود خيبر ومسيحي دومة الجندل إلى جانب نصارى نجران»[3].

وثمة عامل آخر يؤكد أن إجلاءهم لم يكن عقاباً لهم، وهو أن النجرانيين أتوا عمر بن الخطاب يسألونه إجلاءهم فاستحب هذا الجلاء[4] كما أنه حافظ على عهدي الرسول ﷺ وأبي بكر معهم ونقف من خلال كتابه لهم على حقيقة هامة وهي استمرار سياسة التسامح. فكتب لهم: (من سار منهم آمن بأمان الله لا يضره أحد من المسلمين وفاء لهم بما كتب لهم محمد النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، فمن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهراً بعد أن يقدموا ولا يكلفوا إلا من منعهم البر غير مظلومين ولا معتدى عليهم[5] كما حرص عمر أن يعوض أهل

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٧٧.
(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٦٧ـ ١٦٨.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٦.
(٤) نفسه، ص ٧٨.
(٥) أبو يوسف: الخراج، ص ٧٩ـ ٨٠.

نجران فاشترى بيوتهم وعقاراتهم وأقطعهم النجرانية عند الكوفة[١].

وهناك أمثلة كثيرة لما قام به المعاهدون من نقض الصلح لفقرات متتابعة فأهل طبرستان بعد الصلح كانوا يؤدون مرة ويمنعون من أدائه مرة أخرى فيتحاربون ويسالمون وجرى ذلك في أيام مروان بن محمد فغدروا ونقضوا ومع قيام الدولة العباسية أرسل أبو العباس السفاح عامله إليهم فصالحوه ثم عادوا ونقضوا وغدروا وقتلوا المسلمين في خلافة المنصور كذلك أهل رامهرمز الذين صولحوا ثم نقضوا العهد ثم غدروا[٢] وهناك أمثلة عديدة ذكرها صاحب فتوح البلدان يبين فيها نقض بعض المعاهدين لعهودهم.

وحتى يتضح بجلاء أمام كل من يلوك حول هذا الموضوع من غير المسلمين وذلك على الرغم من عدم وجود دولة إسلامية واحدة فيها من يدفع الجزية إذ أسبابها السياسية تاريخياً بسبب ما حل بالمسلمين من عوارض ونوازل فإن أهل الذمة في مجتمع المسلمين وهم ينعمون بكامل حرياتهم وتعهد المسلمون بالدفاع عنهم وحمايتهم ونلاحظ أصداء ذلك في معاهدات الأمان، ففي الكتاب الذي صالح به خالد بن الوليد أهل الحيرة نص على: (عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم وعلى الذمة. فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم)[٣] وكذلك معاهدته لصلوبا بن نسطونا وأهله: (إني عاهدتكم على الجزية والمنعة فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم)[٤] ويفهم ذلك من تفسير أبي يوسف[٥] لشرط الجزية التي ترتبط بالصلح على أنها مقابل حقن دمائهم وعلى أن يقاتل المسلمون من ناوأهم من عدوهم والدفاع والزود عنهم[٦].

والواقع أن هذا الاتجاه في عهود الأمان لم يلتزم بفترة زمنية معينة أو اختص بها إقليم بعينه، حتى يمكن أن يقال إن عهود الأمين المبكرة كان لا بد وأن تحوي مثل هذا الشرط على الفاتحين حيث كانت الحمية الدينية في ذروتها

---

(١) البلاذري، المصدر السابق، ص ٧٨.

(٢) نفسه، ص ٣٣٣.

(٣) مجموعة الوثائق السياسية: وثيقة رقم ٢٤٦، ص ٢٥٨.

(٤) نفسه، وثيقة رقم: ٢٩ ص ٢١٨.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤، ص ١٦.

(٦) والخراج لأبي يوسف، ص ١٢٣.

أو إقليم معين خص بامتيازات معينة ولكن من الثابت أن هذا الشرط شمل معظم العهود، كما نص كتاب الأمان لأهل دبيل في أرمينيا (فأنتم آمنون وعلينا لهم الوفاء بالعهد ما وفيتم وأديتم الجزية)[١].

ولم يقف الأمر عند حد المنعة مقابل دفع الجزية، بل يتعداه إلى شروط فرضها المسلمون على أنفسهم بعدم الإغارة والدخول في أرض المعاهدين إلا بإذن[٢] ومما يؤكد ذلك أن العرب في بعض الأحيان عفوا عن أخذ الجزية من أهل الذمة الذين تعهدوا للمسلمين بأن يقوموا بواجب الدفاع إلى جانبهم. وتفصيل ذلك أنه عندما تقدم المسلمون إلى شمال سورية فطلب منهم أهل الجرجومة الصلح على أن يكونوا أعواناً وعيوناً لهم وأن لا يؤخذوا بالجزية فقبل منهم ذلك[٣] وكذا عندما تقدم المسلمون ناحية قزوين عرض عامل الفرس (شهربراز) على عبد الرحمٰن بن ربيعة الصلح على أن لا يؤدوا الجزية قائلاً: ويدي مع أيديكم وجزيتنا إليكم والنصر والقيام بما تحبون[٤].

وعندما شغل خالد بن الوليد بدفع هجوم هرقل، رد على أهل حمص ما كان قد أخذ منهم وقال: (وقد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص لهم: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم)، ثم انضموا إلى المسلمين ويساعدوهم ضد الروم[٥].

نخلص من ذلك إلى أن فرض الجزية على أهل الذمة لا يعد عقاباً لامتناعهم عن الدخول في الإسلام ولكنها كانت مقابل الحماية لهم وتأمينهم في دار الإسلام كما سبق أن ذكرنا، فإذا كان المسلم يتحمل كثيراً من الأعباء باعتباره دافعاً للزكاة ويؤدي الخدمة العسكرية للزود عن الإسلام، فلا أقل من فرض الجزية على الذمي، لذلك فهناك ارتباط بين المنعة والجزية حتى يتعادل الفريقان في تحمل المسؤولية باعتبارهما رعايا لدولة واحدة، كما تعادلا في

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية، وثيقة رقم ٣٤٦، ص ٢٥٨، وثيقة رقم ٢٣٨، ص ٢٥١.
(٢) نفسه: معاهدة أهل طبرستان وجيجيلان، وثيقة رقم ٣٣٨، ص ٢٥١.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٤.
(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤، ص ٢٥٦.
(٥) المصدر السابق، ص ١٤٣.

التمتع بالحقوق وتساويا بالتمتع بالمرافق العامة للدولة[1].

ولم تكن الجزية ضريبة مستحدثة في الإسلام، ففرضها الروم من قبل على كل شخص من الرابعة عشرة إلى الستين وكانوا ملزمين بها ووصلت إلى عشرين درهماً في القرن الثاني الميلادي، ولم يعف منها في مصر سوى مواطني الإسكندرية والروم المقيمين في مصر وأبناء الجد الإغريق وعدد من البطالمة في كل معبد، معنى ذلك أن الأقباط هم الذين تحملوا عبء دفعها إلى جانب اليهود[2]، كما كان يفرض ملوك الفرس ضريبة الرأس وكانت واجبة على كل رجل من سن العشرين إلى الخمسين، وأعفا من دون أو فوق ذلك، وأعفا منها طبقات معينة مثل أهل البيوتات والعظماء والمقاتلة والهرابذة والكتاب ومن كان في خدمة الملك مثل الأشراف والوجهاء ورجال الجيش ورجال الدين وموظفي الدواوين وحاشية الملك وخاصته كطبقات صاحبة امتيازات[3].

وبمقارنة ذلك بما حدث في دار الإسلام، نجد أن هناك اختلافاً كبيراً، فلم تعف من الجزية طبقات معينة لها مصالح وثيقة بالدولة وإنما كانت الإعفاءات في دار الإسلام على أساس عدم القدرة، فكانت الجزية لا تجب إلا على الرجال العقلاء ولا تجب على صبي أو امرأة أو مجنون أو خنثى مشكل (حتى يزول أشكاله وبان رجلاً أخذت منه)، ولا تؤخذ الجزية من غير القادرين على القتال كالشيخ الكبير الذي لا يستطيع العمل، وليس من أهل القتال، ولا تؤخذ من المسكين الذي يتصدق عليه، ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ولا من مقعد، كذلك الرهبان في الأديرة وأهل الصوامع إذا كانوا يعيشون على صدقات الموسرين، لكن هذه الإعفاءات كانت مشروطة بعدم القدرة على الوفاء بالجزية مع هذه الحالات السابقة، أما إذا كان هؤلاء أصحاب مال ويسار، أخذت منهم الجزية[4].

والجدير ذكره أن مقدار الجزية لم يكن ثابتاً أو محدداً، فقد اختلفت حسب

---

(١) سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ١٠٨.

(٢) الريس: الخراج والنظم المالية في الدولة الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٥، صفحات ٥٠ـ ٥١.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: جـ ٢، ص ١١٣، نفس المرجع، صفحات ٧٦ـ ٧٧.

(٤) أبو يوسف: الخراج، ص ١٣٢.

الزمان والمكان وارتبطت بمقدرة الفرد ما لم يحدد مقدارها في عهد الأمان بين المسلمين وأهل الذمة[١] فوجدنا في عهود الأمان التي كتبها الرسول ﷺ قد كانت الجزية ديناراً على كل حالم[٢] وكان هذا هو تقدير أخذ به فيما بعد مع اتساع الدولة الإسلامية. كما أنه من الملاحظ أن السمة الغالبة على عهود الأيمان التي أبرمت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب أنها قد حوت في الغالب لقظة (على قدر الطاقة) وسبب ذلك أن الدولة الإسلامية اتسعت في عهده وضمت بين جنباتها أقاليم متفاوتة بين الفقر والغنى ولنفس السبب وضع على أهل الشام أكثر من أهل اليمن[٣]، وكانت عهود الأمان الخاصة بإيران يغلب عليها عبارة (على قدر الطاقة)[٤]. أما بلاد الشام فكانت مقدرة بدينار على كل حالم[٥] كما فرض عمرو بن العاص في أول الأمر ثم وضعها عمر بن الخطاب على أهل الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق (الفضة) أربعين درهماً وجعلهم طبقات لغنى الغني وإقلال المقل ولوسط المتوسط[٦] وعلى أهل مصر على كل حالم دينارين إلا أن يكون فقير[٧].

وفي ضوء ما سبق فإنه من الواضح الجلي أن الإطار التطبيقي في تطبيق الجزية روعي فيه الجانب الاقتصادي والإنساني حسب حالة الذمي وكذلك مراعاة التخفيف وعدم تكليف أهل الذمة ما لا يطيقون. فقد رويت عن الرسول ﷺ عدة أحاديث بهذا الشأن منها: «احفظوني في ذمتي»[٨] وقال ﷺ أيضاً: «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٤٤.

(٢) انظر يحيىٰ بن آدم، الخراج، الطبعة الثانية، ص ٧٠ـ ٧١، البلاذري صفحات ٧٠ـ ٧٢ مصالحة الرسول ﷺ مع أهل تبالة وجرش وابلة واليمن.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٤.

(٤) في معاهدة أهل ماه بهراذان وماه دينار وأصفهان والري وقوس وأذربيجان، انظر مجموعة الوثائق السياسية، صفحات ٢٤٦، ٢٥٢.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣١.

(٦) المصدر السابق، ص ٢٣١.

(٧) المصدر السابق، صفحات ٢١٧، ٢٢٥، ٢٢٦.

(٨) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٤٤.

حجيجه» كما اقتدى الخليفة عمر بن الخطاب بالسنة النبوية، فنهى عن ضرب أحد من أهل الذمة في استيدائهم الجزية ولا يقامون في الشمس ولا غيرها ولا يجعل في أبدانهم شيء من المكاره، لكن يرفق بهم كما أمر علي بن أبي طالب بالرفق وعدم ضرب الذمي لاستيداء الجزية وإظهار العفو عند عدم قدرة الذميين على الوفاء، وهذا هو المعنى الأخلاقي الذي حرص عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وذلك تأكيداً على تطبيق السياسة السمحة في التعامل معهم[1].

وفي ضوء ذلك يمكن أن يقال: إن الجزية التي كانت تطبق في حقبة المد التاريخي للإسلام أفضل وأخف من معظم قوانين الهجرة والإقامة التي تفرض على كل من قصد إلى بلد غير وطنه في عالمنا المعاصر.

---

(١) أبو يوسف: المصدر السابق: ص ١٣٥.

الفتح الإسلامي وحرية بناء الكنائس

من القضايا الشائكة التي طال حولها الجدل بين بعض أصحاب الفكر من المسلمين وبعض سيئي الظن من غير المسلمين هذا الموضوع، وقد تشعب الجدل حول ما إذا كان أهل الكتاب في ديار المسلمين من حقهم أن يعبروا عن إيمانهم وأن يمارسوا شعائر دينهم، وأن يقيموا معابدهم، وبغض النظر عن سلبيات مرحلة تاريخية سابقة في بعض بلدان إسلامية وبين بعض أبنائها من أهل الكتاب فإن درس التاريخ الإسلامي يجب أن لا يغيب عن إشكالات الواقع المعاصر فمصادر المسلمين التاريخية تحدثنا عن أنه في مصر، قد سمح عمرو بن العاص للقبط ببناء الكنائس، فتم بناء كنيسة مار مرقص بالإسكندرية خلال ولايته الثانية (٣٨ـ ٤١هـ/ ٦٠٨ـ ٦٦١م)[١] وتبدو حسن معاملة الولاة للقبط في سيرة الولاة الذين تولوا مصر بعد عمرو، بأنهم ساروا على منهجه ولم يكتفوا بمساعدة الأقباط على تجديد الكنائس القديمة، بل شجعوهم على بناء كنائس جديدة، فأول كنيسة بنيت في الفسطاط بحارة الروم كانت في ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري (٤٧ـ ٦٣هـ/ ٦٦٧ـ ٦٨٢م) وأنكر الجند على سلمة وقالوا: «أنقر لهم أن يبنوا الكنائس. . حتى كاد أن يقع بينهم وبينه شر، فاحتج عليهم مسلمة وقال: إنها ليست في قيروانكم وإنما هي خارجة في أرضهم فسكنوا عند ذلك»[٢].

ومن الكنائس التي تم بناؤها في عصر الولاة كنيسة أبي مقار[٣]، كما بنيت عدة كنائس في ولاية عبد العزيز بن مروان (٦٠ـ ٨٩هـ/ ٦٨٥ـ ٧٠٥م) منها

---

(١) المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٤٩٢.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص ١٣٢.

(٣) ساويرس بن المقفع، سير الآباء البطاركة، نشره يسي عبد المسح، أسولدبر مستد، القاهرة ١٩٤٣، ص ٦.

كنيسة مار جرجس وكنيسة أبي قير في داخل قصر الشمع، كما جددت كنيسة القديس مرقص(١) وبنيت عدة كنائس في حلوان(٢) كذلك بنيت عدة كنائس في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٣ـ ٧٤٣م) ومنها ما أذن به وإليه على مصر الوليد بن رفاعة(٣) ١١٦هـ/ ٧٢٧ـ ٧٣٤م من بناء كنيسة أبي مينا بخط الحمراء بظاهر الفسطاط، كذلك تم بناء عدة كنائس خلال خلافة الوالي العباسي موسى بن عيسى (١٧١ـ ١٧٢هـ/ ٧٨٧ـ ٧٨٨م) للقبط بناء الكنائس التي هدمها الوالي الذي سبقه ومنها كنيسة مريم وقد أيده في ذلك، أكبر حجتين في الفقه الإسلامي وقتذاك وهما الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة وقالا: (هو من عمارة البلاد، واحتجا أن عامة الكنائس التي بمصر لم تبن إلا في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين(٤) وهذا لا يكشف فقط عن سياسة الوالي إزاء المسيحيين بل يبين لنا أن هذين الحجتين في الفقه الإسلامي كانا يقولان ببناء الكنائس وتعميرها ويعدان هذا من مظاهر التعمير في البلاد(٥) بخلاف ما يذهب دعاة التحجير وأصحاب الفهم العقيم.

وفي إفريقيا في عصر الولاة، وجدنا الوالي الفضل بن روح عند قدومه إلى القيروان عام ١٧٧هـ/ ٧٩٣م يسمح لأحد النصارى ببناء كنيسة في القيروان عرفت بكنيسة قسطاس(٦)، ومن المعلوم، أن المسلمين عندما دخلوا الأندلس، ومع أنهم فتحوها عنوة، فقد اكتفوا بمشاركة المسيحيين الكنائس، وعندما انتشر الإسلام في البلد وضاق نصف الكنيسة بالمصلين اشترى عبد الرحمٰن الداخل النصف الآخر من النصارى وأذن لهم في بناء كنيسة أخرى بدلاً من الكنيسة

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٤.

(٢) المصدر السابق، نفس الموضع.

(٣) أبو صالح الأرمني، كنائس وأديرة مصر، أكسفورد، ١٨٩٤، ص ٧٧.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٩٢.

(٥) الكندي، الولاة والقضاة، بيروت ١٩٠٨، ص ١٣٢ حدث بين عامي ١٦٩ـ ١٧١هـ هدم الكنائس المحدثة في مصر في ولاية علي بن سليمان والي مصر من قبل الرشيد، انظر نفسه، ص ١٢١، المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٥١١.

(٦) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقيا والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس ١٩٦٨، صفحات ١٨٤، ١٨٥.

القديمة التي أصبحت مسجد قرطبة الجامع[1]، كما ظلت بيوت النار قائمة حتى القرن الرابع الهجري بملاحظة ابن حوقل في شرق العالم الإسلامي[2].

وأما عن حرية الاعتقاد وممارسة الطقوس عند غير المسلمين في مجتمعات المسلمين فحدث ولا حرج. إنه مع الاختلاف الجوهري بين مقومات وأركان عقيدة الإسلام خاصة فيما يتعلق بموضوعي: الألوهية والنبوة وبين عقيدة ومقومات كل من عقيدة اليهود والنصارى في هذين الموضوعين على ما بينهما من خلاف حول طبيعة السيد المسيح فإن الحرية الدينية لأهل الكتاب ـ والتعبير بأهل الكتاب فرضية حسن الظن والتقدير ـ من جانب الخطاب الإسلامي قد كفلها الإسلام لليهود والنصارى بكل وفاء وتقدير لما يذهبون إليه، وتمثل ذلك في أعظم صور التطبيق التي أتاحها معظم حكام وقادة المسلمين، الذين امتدت مسؤوليتهم في تحقيق الأمن وتوفيره لأهل الذمة بل امتد إلى رعاية ديانتهم ودور عبادتهم، وبذلك تيح لأهل الذمة حرية ممارسة شعائرهم الدينية، فلم يفرض عليهم شيئاً من القيود وفتح لهم باباً واسعاً للتسامح كان مغلقاً دونهم قبلاً حيث كان أهالي الشعوب المفتوحة يرزحون تحت الاضطهاد الديني الذي ظلوا يعانون منه قبل الإسلام تحت حكم الفرس والروم.

ويرجع الاضطهاد الديني في الدولة البيزنطية للخلافات المذهبية. وقد مثل ذلك الاضطهاد خير تمثيل في مصر البيزنطية[3] وقد ضرب هذا الاضطهاد بجذوره منذ القرن الثامن الميلادي حيث بدأ منظماً في حكم الإمبراطور سبتميوس سفيروس (١٩٣ـ ٢١١م) ثم بلغ الاضطهاد أقصاه مع الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ـ ٣٠٥م) حتى أطلق على هذا العصر (عصر الشهداء) أو ما يسمى باللغة اللاهوت المسيحي «السنكسار»، وعلى الرغم من إحراز المسيحية أكبر انتصار باعتراف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية (٣٢٣ـ ٣٣٧م) كأحد الأديان المعترف بها في الإمبراطورية الرومانية وما تلا ذلك من جعل المسيحية الدين الرسمي الوحيد مع الإمبراطور الأول (٣٧٩ـ ٣٩٥م).

---

(١) مؤنس: فجر الأندلس، صفحات ٤٩٢، ٤٩٣.

(٢) المسالك والممالك، ليدن ١٨٧٣، ص١٨٩.

(٣) انظر: سيدة كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ١٢ وما بعدها.

لكن سرعان ما نشأ الخلاف حول طبيعة المسيح، وتدخل الأباطرة في هذا الخلاف بداية من الإمبراطور قسطنطين، ومن أجل ذلك عقدت المجامع الدينية التي نشأ عنها خلاف حاد بين كنيستي الإسكندرية والقسطنطينية بسبب تبين الأباطرة سياسة دينية مناوئة لمعتقدات مسيحي مصر، فذهبت كنيسة الإسكندرية إلى القول بأن للمسيح طبيعة واحدة، أما كنيسة القسطنطينية، فقالت بأن للمسيح طبيعتين ومن أجل ذلك دعا المجمع الرابع في خلقدونية عام ٤٥٢م بسبب ذلك الاختلاف وأسفر هذا المجمع عن عزل البطرك المصري. كما أقر مذهب الطبيعتين الذي اعتبر المذهب العام للإمبراطورية وعرف بالمذهب الملكي أو الملكاني نسبة إلى الإمبراطور (مرقيانوس) الذي دعا إلى عقد مجمع خلقدونية وعلى أثر ذلك اتخذ هذا الخلاف في مصر شكلاً قومياً. فقد أدت القرارات السابقة إلى حدوث ثورة دينية في مصر وأطلق الثائرون على أنفسهم (الأرثوذكسيين) (أي أتباع الديانة الصحيحة) كما عرفوا أيضاً باليعاقبة نسبة إلى يعقوب البراذعي أسقف مدينة الرها المونوفيزي[1].

وقد تعرض اليعاقبة لاضطهادات كانت فاتحة لمأساة عظيمة استمرت حتى منتصف القرن السابع الميلادي. وفي خلال حكم هرقل (٦١٠ـ ٦٤١م) الذي أصدر صورة توفيقية فقضى بأن يمنع الناس من الكلام في طبيعة المسيح وصفته وأن يعترفوا جميعاً بأن له إرادة واحدة، فلم يتقبل أهل مصر هذا المذهب. ومما زاد الطين بلة أن قيرس أو المقوقس كما أسماه مؤرخو العرب قد فرض على المصريين أحد أمرين إما الدخول في المذهب الجديد الذي ابتدعه هرقل وإما الاضطهاد وكان مسيحيو مصر يشكلون غالبية من اليعاقبة وأقلية من الملكانية. ولذلك أدت هذه الاضطهادات إلى هروب البطرك القبطي بنيامين خوفاً من الفظائع التي ستحل به وبطائفته من جراء الاضطهاد لغرض المذهب الجديد.

وكان من البداهة أن رعايا الدولة البيزنطية في مصر وغيرها، هم الذين رحبوا بالعرب فاتحين ومن أجل هذا استقبلوا بالرضا والحماسة هؤلاء الفاتحين الذين وعدوهم بالتسامح الديني، كما أظهروا رغبتهم في تسوية مركزهم

---

(١) انظر كتابنا: «قراءة في الكتاب المقدس ـ تأملات في كتب الأناجيل» دار الزمان، المدينة المنورة، عام ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م صفحة ٤٣٥ ـ ٤٣٧.

الديني[١].

ومع القادة الفاتحين الأوائل الذين حملوا الإسلام شرقاً وغرباً كانت هناك إطلالة للشعوب المقهورة على عالم جديد جوهره التسامح وظاهره العفو والرفق شملت مظاهر الاحتكاك الأول في الدعوة إلى الإسلام.

واللافت للنظر أن الدولة الإسلامية ومنذ عصر الخليفة عمر حافظت على وضع اليهود، عندما أقر الخليفة عمر بن الخطاب تعيين الحاخام الأكبر البستاني، رئيس جالية اليهود بالعراق رئيساً دينياً لليهود لكل الطائفة اليهودية في العالم الإسلامي بعد فتح العراق، هذا فضلاً عن منحه لقب رأس الجالوت على أن يتولى شؤون اليهود شرقاً وغرباً كما كان قبل الإسلام[٢]، وظل هذا البيت على رئاسة اليهود خلال خلافة علي بن أبي طالب وكذلك خلال عهد الأمويين ومع انتقال مقر الحاخامية من العراق إلى فلسطين بعد اتخاذ الأمويين بلاد الشام مركزاً لدولتهم[٣].

وظلت اختصاصات رأس الجالوت في العصر الإسلامي كما هي من إشرافه على يهود الدولة الإسلامية والنظر في أحوالهم، كما كان مسؤولاً أمام الدولة عن تنظيم دفع الجزية. وإذا كان رأس الجالوت هو رئيس اليهود فكان أيضاً من اختصاصاته اختيار ممثلين ينوبون عنه في المراكز الدينية المختلفة واختيار قضاة اليهود (الديانين) وإن كان يقوم بنفسه بالنظر في قضايا اليهود المهمة والحكم فيها[٤].

ومع العصر العباسي أصبحت بغداد مقراً للحاخاميات اليهودية الكبرى بعد أن اتخذها العباسيون حاضرة لخلافتهم فقد كان الخليفة العباسي يقوم باختيار وتعيين رأس الجالوت[٥] وباعتباره من أكابر موظفي الدولة لأنه مسؤول عن طائفة كبيرة فكان يتم الاحتفاظ بخطاب تعيينه في ديوان الإنشاء، فضلاً عن ذلك استمر

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى السلام، ص ٥٣.

(٢) Dubonv, S, Hisotry of The Jews 11, London 1969 pp.229, 230.

(٣) Ibid pp.330; Nisim Rejwan, The Jews of Iraq, 1985, p.81.

(٤) Ibid, 354.

(٥) Goitein. O.P. Cit, p.120.

البستاني في الاحتفاظ بنفس اللقب إلى جانب الاحتفاظ بلقب (ناسي) أو أمير، على أن يكون منصب رأس الجالوت وراثياً فيما بينهم[١] ومن هذا نتبين مدى ارتباط حركة الحاخامية اليهودية بمركز الخلافة سواء في دمشق أو بغداد مما يؤكد أن هذه الطائفة قد نالت اهتمام الخلافة وأن العلاقة بينهما قامت على أساس الاحترام.

كما حظي رأس الجالوت عنان بن داود بإكرام الخليفة أبي جعفر المنصور[٢] كما انعكست هذه الروح التي عومل بها على عامة المسلمين الذين كانوا يحترمونه حتى أن رأس الجالوت دانيال بن حسداي في خلافة المتقي (٣٢٩ـ ٣٣٣هـ) كان ينعت بلقب سيدنا ابن داود، وكان الخليفة هو الذي مكن له الأمر فيهم وبوأه الرياسة حتى أصبح من الفرائض على المسلمين واليهود على السواء الوقوف إجلالاً له إذا كانوا بحضرته، وكان دانيال يذهب للقاء الخليفة مساء كل خميس، وكان أثناء امتثاله بين يدي الخليفة يقف أمراء المسلمين وكبارهم بين يديه[٣].

وظل هذا الاحترام لشخص رئيس اليهود طوال العصر العباسي، حتى أن الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي[٤] قد أفاض في تلك الوضعية الممتازة التي ارتقى إليها خلال خلافة المستنجد العباسي وعندما زار بغداد حوالي عام ٥٦٤هـ ـ ١١٦٨م. كان يستقبل في بلاط الخليفة استقبالاً حاراً، ويعد له مكان بجوار الخليفة يتبادلان الحديث الذي ينم عن ود واحترام شديدين كما ارتبطت هذه المكانة الممتازة التي حظي بها رئيس الجالوت لدى خلفاء المسلمين فيما خوطب به من ألفاظ التعظيم عند الكتابة إليه، وظهرت هذه الألقاب في بعض النصوص المتأخرة[٥] ومنها الرئيس: الأوحد، الأعز، الأخص، شرف الطائفة اليهودية.

وقد سمح مناخ الحرية الذي أتاحه الحكم الإسلامي لليهود بظهور وظيفة

---

(١) Dubnov, O.P. Cit, p.354.

(٢) Ibid.

(٣) المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٤٧٥.

(٤) ترنون، أهل الذمة في الإسلام، ص ٣٠.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٢، ص ١٧٤.

دينية أخرى كبرى عند اليهود، لا تقل خطورتها عن وظيفة رأس الجالوت وقد عرفت هذه الوظيفة «بالجاؤونية» وأطلق على صاحبها الجاؤون الذي يعني بالعبرية الأفخم أو المعظم، وتم ذلك في خلافة علي بن أبي طالب عندما تم فتح مدينة برون شابور القريبة من بمباديا، فتقدم إليه حاخام أكاديميتها ورحب بالخليفة باسم اليهود فرسمه الخليفة رئيساً دينياً لأكاديميتي اليهود الرئيسيتين في سورا وبمادئيا وأنعم عليه بلقب جاؤون[١].

واستمرت هذه الوظيفة في العهد الأموي والتي يختص صاحبها بالنواحي الدينية والقانونية وعليه أن يقوم بالإجابة على كل الأسئلة التي ترد من مختلف البلاد التي يوجد بها اليهود، كذلك كان عليه أن يرسل نوايا عنه إلى البلاد لتفسير أحكام الجاؤون وفض المنازعات بين اليهود وجمع تبرعات جماعات اليهود للجاؤونية، كما ظلت قائمة خلال العصر العباسي الأول وأخذت هذه الوظيفة في الازدهار وحملت لواء نشر التعاليم اليهودية وتصحيحها بين اليهود بفضل ما كفلته الدولة الإسلامية من حرية دينية وحرية الانتقال في أرجاء العالم الإسلامي وكذا حرية التعليم مما ساعد الجاؤونية على القيام بنهضة دينية وأدبية كبرى أتاحت لهم فرصة لتصحيح التلمود وتعاليمه وتطبيقها بشكل صحيح[٢].

أما عن النصارى، فصار الجاثليق النسطوري رئيس المسيحيين الشرقيين هو الرئيس الأكبر للنصرانية، وكانت الكنيسة تنتخبه ويصادق الخليفة على هذا الانتخاب ويكتب له عهداً، كما يكتب لكبار العمال المتصرفين، ويكون هذا التعيين في مدينة بغداد وبمقتضى ذلك يكون زعيماً للنصارى الذين تضمن الدولة الإسلامية وما عداهم من الروم والساقبة والملكية ويكون له حق الإشراف على هذه الطوائف وعلى طقوس العبادة وله أن يعاقب من لا يمتثل لحكمه[٣]، وكان على بطرك اليعاقبة أن يذهب إلى قصر الخلافة عند تنصيب كل خليفة جديد[٤].

---

(١) Dubmov. O.P. Cit. p.360.

(٢) Goitein. Jews and Arabs, p.122.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ١١، ص ٣٨٥.

(٤) متز: الحضارة الإسلامية، جـ ١، ص ٧٩، ذكر أن الطبيب حنين بن إسحاق أخرج كتاباً فيه صورة المسيح مصلوباً وصور ناس حوله فقال له الطيفوري هؤلاء الذين صلبوا المسيح، قال نعم فقال له أبصق عليهم فرفض وقال لا لأنهم ليسوا الذين =

أما الأقباط فمع بداية الفتح على يد عمرو بن العاص فلم يتم فقط تنفيذ شروط معاهدة الأمان وإقامة حرية العبادة للأقباط، لكن أيضاً تم لهم شعث الكنيسة المصرية من خلال إعادته للبطريك بنيامين إلى كرسيه بكنيسة الإسكندرية بعد أن ظل مبعداً عنه مدة ثلاث عشر عاماً هارباً من اضطهاد الروم، ولما كان موضعه غير معلوم كتب عمرو إلى جميع أقاليم مصر كتاباً قال فيه: الموضع الذي فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله فليحضر آمناً مطمئناً، ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته(١) كما أحسن عمرو استقبال رهبان وادي النطرون ومنحهم أماناً لأنفسهم وأديارهم(٢).

كما تأكدت شروط الصلح من خلال تلك الحرية الدينية التي تمتع بها الأقباط، وهو أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلوا في أمورهم أي تدخل(٣). ولذا وجدنا عمرو بن العاص يعطي بنيامين بعد رجوعه الحرية في الإشراف على الكنائس ورعاية أحوال الأقباط مما أدى إلى رجوع كثير من المصريين إلى مذهبهم الأرثوذكسي الذين أجبروا على تركه خلال اضطهادات الإمبراطور هرقل، كما عاد كثير من الذين اختفوا قبلاً خوفاً من البيزنطيين.

وإن كان عمرو حريصاً على عدم التدخل في شؤونهم ومع ذلك كان اهتمامه بأمرهم كبيراً فسمح لهم ببناء الكنائس، وخير شاهد على التزام عمرو ومعاملة الأقباط معاملة طيبة شهادة أحد المعاصرين من الأقباط هو حنا النقيوسي(٤) وإن هاجمه في جانب فقد أنصفه أيضاً في جانب آخر قال: (قد تشدد في جباية الضرائب التي وقع عليها الاتفاق ولكنه لم يضع يده في شيء من ملك الكنائس

= صلبوا المسيح، إنما هي صور فاشتد ذلك على الطيفوري ورفعه إلى المتوكل يسأله إباحة الحكم عليه بديانة النصرانية، فبعث إلى الجاثليق والأساقفة وسأله عن ذلك فأوجبوا اللعنة على حنين فلعن سبعين لعنة بحضرة الملأ من النصارى وقطع زناره ـ انظر: ابن أبي أصبيعة، عيون الأنباء من طبقات الأطباء، بيروت ١٩٦٥، جـ ٢، صفحات ١٤٨ـ ١٤٩.

(١) ساويرس، سير الآباء البطاركة، صفحات ٢٣١ـ ٢٣٢.

(٢) المقريزي، الخطط، جـ ١، ص ١٥٦.

(٣) بتلر، فتح العرب لمصر، تعريب فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٣٣، صفحات ٢٣٤ـ ٢٣٥.

(٤) بتلر، فتح العرب لمصر، ص ٢٣٦.

ولم يرتكب شيئاً من النهب أو الغصب، بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر حياته).

وهذه الشهادة تقف دليلاً على أن العرب الفاتحين قد نفذوا شروط الصلح الخاصة بالجباية ولم يشتطوا فيها وإن كانوا حريصين على الالتزام بتحصيلها، فإنهم أيضاً أعطوا الأقباط الحرية التامة في ممارسة شعائرهم الدينية ولم يتعرضوا بالتدخل في أمورهم، كما ترك للأقباط مطلق الحرية في التنظيمات الخاصة بهم، فإن كان لوالي مصر الحق في الإشراف على انتخاب البطاركة بوصفه الخليفة في مصر وأعلى سلطة سياسية في الولاية، وكان على البطرك والأساقفة أن يأتوا من مقرهم بالإسكندرية إلى الفسطاط لمقابلة الوالي بعد انتخاب البطرك[١]، فيبدو أن هذه الزيارة كانت مجرد مسائل شكلية بدليل أنه لم يعرف عن الولاة أنهم عارضوا في انتخاب أو تعيين أحد البطاركة إلا إذا طلب منه النصارى ذلك[٢].

كذلك حظي الأقباط اليعاقبة بعطف الولاة باعتبار أنهم كانوا يمثلون غالبية أهل مصر، وهذا بدوره أدى إلى استرداد اليعاقبة عدد من الكنائس والأديرة التي كانت بيد الملكانيين كما تم اجتذاب كثير من الملكانيين إلى مذهبهم[٣].

---

(١) ساويرس: سير الآباء البطاركة، ص ٢٣٠.

(٢) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ١٨٦.

(٣) ابن البطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، صفحات ٤٥ـ ٤٦.

العروبة والمسيحية والإسلام

أردت بهذا الموضوع وذلك على الرغم من أنني أحاول تبيان موقف وحكم الإسلام عبر مساحات زمنية عديدة، وفي حقب وأوطان مختلفة أن أوضح أن العروبة تحديداً صنعت من المسيحية والإسلام نسيجاً حضارياً وإنسانياً، احترم الخلاف، وأثرى المواطنة، وعلى الرغم من وقوع سلبيات أحدثت تبايناً أو تناقضاً بين المسيحية والإسلام على الأرض العربية، إلا أن تلك السلبيات لم تكن إلا عرضاً خفيفاً، سرعان ما يصمد النسيج الإنساني على الأرض العربية ويصد الزوابع حتى ولو بدت هوجاء، أي إنني أريد أن أقول لدعاة الطائفية والعنصرية، إن الأمر بالنسبة للمسيحية والإسلام على الأرض العربية تمثل تاريخاً وواقعاً نمطاً من التوحد الوطني يستبعد الخلاف العقدي، ولا يجعله أداة هدم أو تدمير، بل التعبير الثقافي والمعرفي عندما يقوم به كل فريق في التعبير عن أيديولوجيته منهج دعت إليه الأيديولوجية الإسلامية ولم تعارضه سيادة الدولة في الإسلام وذلك بالبراهين والأدلة التي قدمناها في الصفحات الماضية معتقداً ونظام حياة، وفي مراحل عديدة ومع أوطان كثيرة.

واللافت للنظر بل ومما يثلج الصدر أن كثيراً من أحبار المسيحية في الأمس واليوم، وقبل أن تتهم العروبة بإسلامها ومسيحيتها كأثر من تداعيات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م انتبه لهذه الحقيقة ومن هؤلاء اللبناني المسيحي الذي تعرض في موضوعية ومسؤولية لهذا الرصيد التاريخي الذي تفاعل على الأض خصوبة ونماء، في اتجاه نسيج اجتماعي متماسك متعاون، إنه الأستاذ: فكتور سحاب في كتابه العرب وتاريخ المسألة المسيحية الذي صدر عن دار الوحدة في لبنان عام ١٩٨٦م والذي ناقش فيه من أجل كل عربي مسيحي كما يقول في مقدمة كتابه مجموعة من آباء الكنيسة، وقد بدأ حديثه باستعراض تاريخي موثق يكشف فيه عن جناية الغرب التاريخية على المسيحية في الأرض العربية،

مبيناً وموضحاً أنه عندما كانت تشتد بنصارى العرب المضايقات والمطاردات والتشويهات العقدية الغربية لسماحة المسيحية العربية كان الملاذ الآمن والحصن الذي تحتمي به الأقلية المسيحية هو الإسلام والنظام الإسلامي، يقول المفكر المسيحي اللبناني فكتور سحاب: لقد بدأ قمع الغرب للمسيحية الغربية الموحدة بالحرب التدمرية الرومانية، ثم بحرب بيزنطية العقائدية على آريوس. فكان القمع الآتي من الغرب موجهاً وجهتين: نحو إنطاكية، ونحو الإسكندرية عاصمتي المسيحية المشرقية الموحدة. وكان هذا القمع موقفاً طبيعياً مستمداً من تناقص البيئتين الغربية والشرقية. فرومة كانت شديدة على النصارى منذ البدء، ولم تكن شدة بيزنطية عليهم فيما بعد إلاَّ إرثاً تولته مع ميراث الإمبراطورية الرومانية. وفيما كان القمع الروماني مستنداً إلى العقيدة الوثنية في حربه على المسيحية العربية الناشئة، اتخذت بيزنطية لنفسها عقيدة مسيحية خاصة استمدتها من نتاج تطويعها الإيمان المسيحي الأول لمقتضيات الفلسفة اليونانية واستندت إلى هذه الصيغة لقمع المذاهب المشرقية. ويصعب على الباحثين القول إن الغرب أخذ الدين المسيحي من الشرق. وثمة من يؤكد أن رومة وبيزنطية أخذتا الاسم والرموز فقط من الدين الجديد، ثم أدخلتا فيه مضموناً خاصاً يختلف عن المضمون الذي كان يراه فيه الساميّون والعرب. أتباع المسيح الأوّلون.

ولقد بدأ القمع الروماني باكراً في الواقع، وقبل أن تظهر المذاهب الصريحة في توحيدها، فالامبراطور تراجان الذي غزا مملكة الأنباط العربية قسا على النصارى قسوة سبَقَه إليها أباطرة آخرون تُروى أعمالهم في تواريخ لا تحصى. وقد أصدر تراجان سنة ١١٢م أمراً لتقل كل مسيحي لا يخلص للقيصر والدولة. فخاف منه أتباع الدين الجديد وتكتّموا[١]. وإذا كان أمر كهذا قد صدر، فلأن المسيحيين العرب لا بد وأنهم لم يكونوا مخلصين للقيصر والدولة. ولقد أحسّت رومة باكراً أن العقيدة الجديدة ربما تخفي شيئاً من البذور الاستقلالية، ويبدو أن حاجة الحركات السياسية إلى عقيدة فكرية أو دينية، ليست حاجة حديثة. كذلك يبدو أن اعتناق العقيدة الجديدة كان ينذر دائماً بموقف سياسي يظهر بمقدار أو بآخر. ويقول ديلاسي أوليري: «لقد كان المسيحيون في رومة وفي إفريقيا وبلاد

---

(١) دكتور جوال علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٣/ ٧٣، دار العلم للملايين، بيروت، دار النهضة، بغداد ١٩٧٦م.

الإغريق قلة محتقرة، تتكوّن أساساً من الطبقة الأمية»[1]، لكنه يضيف قوله: «وحين بدأت النهضة المسيحية في النهاية، كانت هذه الديانة إلى حد كبير قد أُعيد تشكيلُها تحت ضغط المؤثرات الهيلينيّة، وأُعيد وضعُ لاهوتها في اصطلاحات فلسفية». وهكذا سلكت رومة وبيزنطية مع الدين الجديد سياسة التطويع والتكييف، بعدما تعاظم شأنه وبدا واضحاً أن القضاء عليه متعذّر. وكانت إنطاكية والإسكندرية البيزنطيتان المختبرين اللذين جرى فيهما التطويع، الذي كان يتوسّل أحياناً بوسائل الفكر، وأحياناً بالقوة العسكرية لتحويل المسيحية العربية والمشرقية عن إيمانها تحقيقاً لوحدة العقيدة وتماسك الدولة.

ثم يستطرد ويقول: وإذا استعرضنا بعض واقعات النزاع الذي نشب في الكنيسة حول العقائد المشرقية والعربية الموحدة وغيرها، لتبيّن لنا بوضوح أن النزاع لم يكن عقائدياً فكرياً صرفاً، بل كان في حقيقته صراعاً شرقياً غربياً، ثم يستطرد الأستاذ فكتور سحاب وهو يؤصل لمنهجه ويقول: إن المسيحية العربية كانت روح المنطقة قبل أن تحوّرها رومة وبيزنطية قسراً لأسباب سياسية، وأن أهم ما في المسيحية العربية عنصران: أولاً التوحيد، وهو المحور العقائدي الذي استُنفر من حوله المؤمنون وقاتلوا واستشهدوا مئات السنين. ثانياً إن قوة المسيحية العربية استمدت أسبابها من قتالها مع الغرب دفاعاً عن كرامة المنطقة واستقلالها وكيانها الحضاري. وفهم هذا الأمر مفيد للغاية لأسباب عديدة، ثم يقول الأستاذ فكتور سحاب وبالحرف: [مفيد حتى نفهم أسس الشرعية التاريخية التي استند إليها الإسلام ليعلن أنه هو المعبّر عن روح المنطقة، ما دام يرث هذين العنصرين] التوحيد في العقيدة، ومقاتلة الغرب من أجل الاستقلال. وفهم هذا الأمر مفيد. فالعروبة لا تأبه الآن بقليل أو كثير أن يؤمن النصارى بالتثليث أو بالتوحيد. لكنها تهتم وتحفل بالموقف من الغرب، ومن حقها أن تنتظر موقفاً مسيحياً عربياً مقاتلاً من أجل مصير العروبة وكيانها التاريخي والحضاري، في مواجهة الخطر الغربي المزروع في إسرائيل صراحة، وفي غير إسرائيل خفية. ومن الخير للنصارى العرب أن يعرفوا أن مقاتلة الغرب أحصنت المسيحية العربية وعززتها، وأن

---

(١) «الفكر العربي ومكانه في التاريخ»، تعريب د. تمام حسّان. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١، ص ٢٦. وهو تعريب لكتاب.
Leary O, De Lacy: Arabic Thought and its Place in History, London 1968.

الالتحاق بالغرب أضعفها ودفعها إلى مشارف الهلاك.

ثم يستطرد ويقول: لم يتعوّد المؤرخون النظر إلى الصراع بين تدمر ورومة من هذه الزاوية. لكن بولس السميساطي بطريرك إنطاكية الذي قال إن السيد المسيح نبيّ صالح حمل في ذاته روح الله دون أن يساويه في الجوهر، ناصرته زينب ملكة تدمر. فلما خلعه مجمع في إنطاكية عقد سنة ٢٦٤، ثم سنة ٢٦٨، بقي في منصبه تؤيده زينب، فخلعه الإمبراطور الروماني الوثني أورليانوس بعد تغلبه على زينب[١]. فلماذا ينصر إمبراطور وثني فريقاً مسيحياً على فريق مسيحي، لو لم تكن في ذلك مقتضيات سياسية ما؟[٢]. إن الصراع السياسي والعسكري الخطير الذي كان ناشباً بين تدمر ورومة، واستولت خلاله زينب بقوة القبائل العربية المجتمعة من حولها، على مصر وسورية وفلسطين وبر الأناضول، ربما يطبع الأمر كله بالطابع السياسي، فيفسر إقصاء بولس على أنه إقصاء سياسي، صدف أن كان لضحيته موقف ديني. أما النزاع في شأن عقيدة آريوس فلا يحتمل مثل هذا الالتباس.

فلقد ظل الصراع دينياً وفلسفياً في ظاهره، ومع هذا انقسم المتصارعون بوضوح إلى فريق غربي وفريق شرقي، على رغم بعض الاستثناءات التي تُغمض الرؤية على من لا يُنعم النظر.

والناظر في واقعات الحرب يجد أن آريوس راهب ولد في ليبيا ثم استقر كاهناً في الإسكندرية في مطلع القرن الرابع الميلادي وقال بأن الأب وحده يستحق أن يُدعى الله. وأما الابن فمخلوق بإرادة الأب فوق سائر المخلوقات، وأما الأقانيم الثلاثة فواحد باتفاق المشيئة لا بالجوهر. فجمع الإمبراطور

---

(١) «تاريخ الموارنة»، المجلد الأول، ص ٢٢، ٢٣ نقلاً عن فكتور سحاب «العرب والمسألة المسيحية»، ص ٤٧.

(٢) في شأن هذه المقتضيات السياسية، والاقتصادية راجع:
Paul of "Samosata Zenobia and Aurelian, the Church, Local Culture and Political Allegiance, in Third-Century Suria", by Fergus Millar, Journal of Roman Studies, 61 (1971), pp.1-17.

وكذلك:
"Marchands et Chefs de Caravane a Palmyre", par Ernest Will, in Syria, 34 (1957), pp.262-277.

قسطنطين، إمبراطور بيزنطية الذي أباح المسيحية سنة ٣١٣ بمرسوم ميلانو، مجمع نيقية سنة ٣٢٥، فوضع المجمع الدستور الشهير القائل بمساواة الابن للأب في الجوهر، وبأن الابن إله من إله[١]. وفي هذا الجدال الذي استمر حتى آخر القرن الرابع ولم ينته بصدور قرارات نيقية، برز المدافعون الأوّلون عن مذهب آريوس من أسقفيات الشرق: تيودوسيوس أسقف اللاذقية، وأوسابيوس أسقف قيصرية فلسطين وأوسابيوس أسقف نيقوميدية. استطاع هؤلاء الأساقفة عزل بطريرك إنطاكية سنة ٣٣٥. وتمكنوا من تنصيب زعيمهم أوسابيوس أسقف نيقوميدية بطريركاً على القسطنطينية. ويقول الأب بطرس ضو إن الآريوسيين عملوا لنشر مذهبهم «في أنحاء الشرق»[٢]. لكن الضغط الإمبراطوري من أجل وحدة العقيدة جعلهم يتراجعون خطوة، فعقدوا مجمعاً في إنطاكية سنة ٣٤١، ووضعوا دستوراً للإيمان شبيهاً بدستور نيقية، حذفوا منه عبارة «مساوٍ للأب في الجوهر». فأقرّوا ألوهة الابن لكنهم جعلوها أدنى مرتبة من ألوهة الأب. وجاء في قاموس لاروس الموسوعي الكبير[٣] أن قسطنطين استند في الوقت المناسب إلى الحزب الأقوى، دون أن يلقي بالاً لآرائه الدينية. وأكد القاموس المذكور في المادة نفسها أن قسطنطين كان نسيج وحده في التوفيق، ولا يمكن القول إنه اهتدى إلى المسيحية، والأرجح أنه لم يعتنق هذا الدين إلا في آخر عمره بفعل تأثيرات مختلفة، منها تعاظم حزب المسيحيين من حوله، وإلحاح أوسابيوس البطريك الآريوسي في تعميده على الإيمان الآريوسي، على فراش موته سنة ٣٣٧. ويؤثر عنه أنه لم يمتنع عن التدخل في أعمال المجاميع، مثل مجمع أنقرة سنة ٣١٤، ومجمع نيقية الذي أنف ذكره.

ونجد في مجلد آخر من «قاموس لاروس الموسوعي الكبير»[٤] أن قسطنطين «انتظر الساعة المناسبة» ليتدخّل. وأن منشأ العقيدة الآريوسية مشرقي، أصله في أقوال للمؤسس المسيحي الشهير المصري أوريجينوس الذي يعتقد النصارى أنه مات شهيداً في صور نحو سنة ٢٥٠ للميلاد، والذي ألمح إلى أن الابن خاضع

---

(١) «تاريخ الموازنة»، المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٢٣.

(٢) «تاريخ الموازنة»، المرجع نفسه، ص ٢٤.

(٣) Grand Larousse Encyclopedique Paris, 1969, t.3. p.421.

(٤) Grand Larousse Encyclopedique, t.3. p.567.

للأب. وفي المادة نفسها أن النزاع حول عقيدة آريوس «أشعل النار في الشرق كله»، وأنه «تحوّل إلى نزاع سياسي، اشتدت فيه النزعات الإمبراطورية إلى السيطرة البابوية على الكنيسة». ويعرب غيبون عن ارتياحه لأن «سكان الولايات الغربية [في الإمبراطورية الرومانية] كانوا لحسن حظهم قد استقوا دينهم من مصدر صحيح. . . تحت الرعاية الأبوية التي أظلّهم بها بابا رومة»(١). ويروي غيبون واقعات المجمعين الغربي في ريميني سنة ٣٥٩، وحضره أربعمائة أسقف منهم ثمانون أريوسياً فقط، لم يفصحوا عن مواقفهم صراحة، والشرقي في سلوقية في السنة ذاتها، وحضره مائة وخمسون أسقفاً أيدوا العقيدة الأريوسية ما عدا ثمانية عشر أسقفاً منهم(٢). وكانت مجامع عديدة قد عقدت للأساقفة الآريوسيين الشرقيين في قيصرية وفي صور، لم تَخْلُ وقائعها من عنفٍ وقتل(٣). ويؤكد غيبون أن مجمع سارديكة (صوفية) سنة ٣٤٧، أظهر أعراض التنافر والانشقاق بين الكنائس الشرقية التي انحازت إلى عقيدة آريوس، والكنائس اللاتينية الغربية في إيطاليا وغالية وإسبانيا في العموم(٤). بل إن إمبراطور الغرب قونسطانس أنذر بشن الحرب على أخيه إمبراطور الشرق قسطنطيوس. وأدى هذا الإنذار إلى إعادة الأساقفة المعادين آريوس إلى مناصبهم في الإسكندرية على الخصوص. ومضت الحرب العقائدية في مد وجزر، وبدا واضحاً من وقائعها أن الصراع الديني والذي هو بالأصل خلاف عقدي حول طبيعة المسيح تحول إلى حرب سياسية بين الشرق والغرب بلا ريب.

---

(١) غيبون، المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٦٢٣، ٦٢٤.

(٢) «تاريخ الموارنة»، المرجع نفسه، المجلد الأول، ص ٦٣٧- ٦٣٩.

(٣) «تاريخ الموارنة»، المرجع نفسه، ص ٢٤.

(٤) غيبون، المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٦٤٢، ٦٤٣.

العدوان الغربي المسيحي على مسيحي الشرق

كان من البداهة أن يخطط الغرب المسيحي لموقف متماسك يحاصرون فيه الموقف في الشرق، وهذا ما حدث عندما نشب خلاف جوهري في صفوف الآريوسيين في سنة ٣٥٧، وأخذت مواقعهم السياسية والعقائدية تتراجع أمام تماسك الموقف الغربي وضغطه المستمر، وبدأ الخلاف حينما أخذ بعض الآريوسيين يدعو إلى رفض «التساوي في الجوهر» بين الأب والابن، والقبول «بالتشابه في الجوهر» بينهما، فيما رفض آخرون التساوي والتشابه كليهما. حتى إذا ما عُقد مجمع القسطنطينية المسكوني سنة ٣٨١، كانت الكاثولوليكية قد أحرزت انتصارات كثيرة بعد مجازر ومقاتل ترويها التواريخ الكنسية. وفي هذا المجمع قال بطريرك القسطنطينية النيقياوي مقالته الشهيرة: «إذا كان السيد له المجد ولد في الشرق، فإنه صُلب فيه أيضاً»[(١)]. وانتهى المجمع، بإيعاز من الإمبراطور تيودوسيوس الكبير، إلى تحريم الآريوسية، ووقّع الأساقفة الشرقيون أخيراً[(٢)] على دستور الإيمان الذي صاغه بابا رومة داماسيوس سنة ٣٧٧. وحُرّمت المجامع على مخالفي هذا الإيمان، وأُمروا بتسليم كنائسهم إلى أصحاب العقيدة النيقياوية.

ويعلق على هذه النتيجة فكتور سحاب ويقول: «والحرب على آريوس في الحقيقة نموذج للأسلوب الذي اعتمده الغرب في استيعابه المسيحية الشرقية، بعدما تعذّر القضاء عليها، حتى قال الأب البروتستانتي ألكسندر هيسلوب في كتابه الخطير: «البابلان»[(٣)] إن المعتقدات الكاثوليكية اليوم إن هي إلا نسخة

---

(١) «تاريخ الموارنة»، المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٣٠.

(٢) Grand Larousse Encyclopedique, t.3. p.567.

(٣) Alexander The Two Babaylons, Loizeaus Brothers, Neptune, New Jersy, First edited 1916 Hislop.

منقحة عن المعتقدات الدينية القديمة في الدولة البابلية. وعلى الرغم من ضرورة التحفظ حيال موقف الكنائس الأنجلو ـ ساكسونية حيال رومة البابوية، إلا أن هسلوب أسند كتابه إسناداً أكاديمياً مقنعاً، وأظهر الكثير من الشواهد على أصل مبدأ التثليث، والعقائد الأخرى التي فرضتها المذاهب الغربية على المسيحية في العموم، مثل العذراء والطفل، والميلاد، والاعتماد ومشحة الموتى، والزيّاحات والحبريَّة العظمى والرهبنة وما إليها. ولا يتردد ديلاسي أوليري[1] في القول إن المسيحية أعيدت صياغتُها «صياغة دائبة، حتى بدت المسيحية هلينيّة في جوهرها، ولكن مع تعديل العناصر التي فيها من فلسفة أفلاطون، بفعل المؤثرات الروحية للأفلاطونية المحدثة».

ويعقب على هذا الكلام: فكتور سحاب الذي قاله مفكر غربي مسيحي هو: أوليري ويقول استشهد بما ذهب إليه مفكر آخر عنه: وعلى الرغم أن توفيق فهد يعتقد أن التثليث هو نتيجة لانتصار بعل الابن الشهيد، في معتقدات الساميين[2]، فإن الغرب هو الذي فرض هذا المبدأ في المسيحية على الشرق الموحَّد.

ولا يتردد غيبون، وهو من هو في الكاثوليكية على ما أسلفنا، في ملاحظة الأثر الوثني الكبير الذي أدخله العربيون في المسيحية، إذ يقول[3]: «عندما انحدرت أهداف الدين شيئاً فشيئاً إلى مستوى تصور الناس وخيالهم أُدخلت في العبادة تلك الشعائر والطقوس التي رئي أنها تؤثر أعظم التأثير في حواسّ الدهماء والعامة. ولو أتيح لراعي الكنيسة ترتوليانوس أو لأوكتانتيوس أن يُبعثا من الموت فجأة في أوائل القرن الخامس ليحضر احتفالاً أقيم لقديس أو شهيد شعبي، لنظرا بعين الدهشة والسخط إلى ذلك المشهد الدنس الذي حلّ محل العبادة الطاهرة الروحية التي كان يقيمها جمهور المصلين المسيحيين [طبعاً في الشرق]، ولا بد أنه كان يزعجهما، بمجرد فتح أبواب الكنيسة، دخان البخور، وعبير الزهور، ولمعان المصابيح والشموع التي ينبعث منها في منتصف النهار ضوء متلألئ لا لزوم له، ينال في نظرهما من قدسية المكان، فإذا ما اقتربا من سور المذبح، شقّا طريقهما وسط جمهور منطبح على الأرض، يتألف أكثره ممن جاؤوا إلى المدينة

---

(١) «الفكر العربي ومكانه في التاريخ»، المرجع السابق، ص ٤٢.

(٢) Toufic Fahd Le Pantheon. O.P. Cit. pp.180, 181.

(٣) غيبون، المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ١٦٥ـ ١٦٧.

في عشية العيد، وبدؤوا يحسون نشوة الحماس الديني، وربما نشوة الخمر أيضاً، وكانوا يطبعون قبلاتهم على أسوار الهيكل المقدس وأرضه، ويتجهون بصلواتهم مهما كانت لغة كنيستهم، إلى عظام القديس أو إلى دمه، أو إلى بقاياه التي جرت العادة على إخفائها عن عيون الدهماء، وراء نقاب من الحرير أو التيل. . . وكانت الجدران مليئة بما يعلق عليها من رموز ترمز إلى ما حصلوا عليه من أفضال. يقول فكتور سحاب معلقاً ومعقباً على هذه الصورة والطقوس. فكنت ترى العيون والأيدي والأقدام المصنوعة من الذهب والفضة. وكنت ترى صوراً دينية لم تستطع الحفاظ على رونقها طويلاً من جرّاء ما نالها من التعبد الوثني الطائش، وهي روح تمثل عندهم شخص القديس الولي، وسجاياه وخوارقه. ولا شك في أن هذه الروح نفسها، روح الخرافة المتأصلة قد أوحت في أقدم العصور، وفي أبعد البلاد، بالأساليب نفسها التي استخدمت الآن لخداع سذاجة الناس، وللتأثير في حواسهم. ثم يقول فكتور سحاب وبالحرف: غير أنه ينبغي علينا أن نعترف في صراحة بأن قساوسة الكنيسة الكاثولوكية قلّدوا الأنموذج المدنّس الذي كانوا يتلهّفون على تدميره. وبلغ الحال بأعظم الأساقفة أنهم أقنعوا أنفسهم بأن الدهماء الجهلاء، سوف ينبذون في سرور خرافات الوثنيّة إذا ما وجدوا في المسيحية ما يشبه تلك الخرافات، أو ما يعوّض منها. وهكذا ترى أن ديانة قسطنطين قد حققت، في أقل من قرن، انتصاراً نهائياً كاملاً على الإمبراطورية الرومانية «الوثنية، غير أن الغزاة أنفسهم خضعوا، دون أن يحسّوا، إلى فنون منافسيهم المقهورين».

إن غيبون، الكاثوليكي، يصف في هذا الفصل الدقيق كيف طُوّعت المسيحية، لكنه لا يصف كيفَ طُوّع أصحابُ المسيحية الأولى، العرب والسوريون والأقباط، وكيف كان وقعُ هذا التطويع عليهم.

لكن فاسيلييف[1] المؤرخ الأرثوذكسي الشهير يؤكد أن البيزنطيين نظروا «إلى الإسلام على أنه نوع من أنواع الآربوسيّة، أو أنه مذهب من المذاهب النصرانية المنشقة عن الكنيسة الرسمية». ومن أجل هذه النظرة وهذا الاعتقاد يرى بعض الباحثين أن أساقفة بلاد الشام سلموا المدن إلى المسلمين وتعاونت معهم القبائل

---

(١) Vasiliev, AA.: Histoire de 1, Empire Byzantin, 27y. Fr.. Stark, Rome. p.388.

العربية المنتصرة[١]، في طرد البيزنطيين من بلاد الشام.

حتى ذهب الدكتور إدمون رباط إلى القول[٢] وهو مصيب في بعضه ومخطئ في البعض الآخر إنه: «لا مبالغة في الظن، أنه لولا تأليه السيد المسيح، في العقيدة التي صاغها فلاسفة اللاهوت اليونان، لأمكن حرمان الإسلام واحداً من أسباب ظهوره»!!؟

لكن رسالة الإسلام، بين أمور عديدة لا نحصيها هنا، تضمنت أيضاً وسائل تحرير العرب والساميين من حكم الدولتين العظميين: بيزنطية في الغرب، والساسانيين في الشرق. وكان لا بدّ من أن تنجح عقيدة التوحيد في الإسلام في استنفار ميراثهم الحضاري الهائل الذي ظل يحاول التعبير عن نفسه، في ثورات دينية وسياسية كان للمسيحية فيها سهم عظيم، فكنه فرّغ من قدرته على الاستنفار حين تخلّى تدريجياً عن مبدأ التوحيد الذي جاء به السيد المسيح وحين استنام ورفض مقاتلة السلطان الأجنبي.

وفي ختام هذا المبحث نود أن نقرر أن الإسلام سواء كانت سيادته وسلطانه في أرض عربية أم أعجمية فإن الآخر ـ نصارى كانوا أم يهوداً ـ نعموا بما يرضيهم ويسعدهم ويؤمنهم ديناً ووطناً ولم تنشأ بين المسلمين والآخر خاصة في المشرق العربي مشكلات ذات شأن إلا بعد أن تعمد الغرب أن يوجه سهامه إلى هذه الوحدة الوطنية التي تفاعلت على أرضها وازدهرت كل عقائد الآخرين في ظل منهاجية الإسلام وسياسته الشرعية في إمارة البلاد والعباد. حبذا لو أعاد الغرب تقدير وحساب معاملته هو للآخر؟؟.

---

(١) Diehl and G. Marcais: Le monde Oriental, Paris, 1936, p.104.

(٢) Le Orient Chretien. O.P. Cit. pp.197.

تناقض العروبة والإسلام

سادت هذه المقالة في العالمين العربي والإسلامي طوال النصف الأخير من القرن الميلادي المنصرم، وكانت مبررات القائلين بالتناقض هذا، أن «الإسلامية إخاء، أو اتحاد أو تحت أي المسميات أنسب للإسلام من الإسلام العربي، أو الإسلام الأعجمي، ولم يكن الأمر في حقيقته على مثل ذلك التوهم، ذلك أن الإخاء أو الوحدة أو الاتحاد، أو غير ذلك من صور العمل الجمع، أقرب ما يكون بين ثقافة وفكر اليمني والسوداني، وبين السوداني والعراقي، والمصري والسوري، وهكذا بين أقطار وأجزاء الوطن الواسع للعرب، وهم في الأصل كانوا في الأمس تحت لواء سياسة واحدة، وأصبحوا اليوم على ما هم عليه بعضهم وبعض، وهم في حاجة إلى ما يجمعهم مع أنفسهم داخل أوطانهم قبل أن يجمعوا مع إخوانهم المسلمين في الهند والنيجر، وغانا وجنوب إفريقيا وبريطانيا وأمريكا والصين، فالأصل في الوحدة الإسلامية على ضوء الشعار الذي يطرحه القائلون به أنها تجمع بين جميع المسلمين في الأرض شعوباً ودولاً كانوا، أم أفراد وجماعات ولربما يكون هذا الهدف السامي بعيد المدى، بعيد المنال، وبداهة فإن العلاقة بين المصري والسوري وغيرهما على الأرض العربية تكون أقرب للتحقيق منها قبل أن تتحقق مع التشادي أو التركي، وفي ضوء ذلك أرى أنه لا تناقض بين العرب والإسلام، خاصة وأنه على الأرض ذات الكثافة والكثرة الكثيرة بينهم وبين الآخر ـ النصارى واليهود ما يمكن معه لو استثمر المنهج الإسلامي التاريخي في تنظيم ما بين المسلمين وهؤلاء لكان نموذجاً في عصرنا يقول للآخر البعيد، نحن هنا أمة من الناس رايتهم الإسلام لكنه لا يمنع بل إنه يحمي رايات الآخرين.

وفي الحوار الذي أجراه المفكر العربي المسيحي اللبناني «فكتور سحاب» مع غبطة أحد قسس لبنان ما يؤكد ما نذهب إليه، إنه يقول: إن وقائع التاريخ

العربي الإسلامي تدل على أن المسيحيين والمسلمين في القرون الماضية، فهموا أن البلاد لشعوبها، لا لدين دون آخر. ودولة الإسلام التاريخية بالذات، تمتاز من الناحية الدستورية على كل ما عداها من الدول التاريخية الكبرى، في أنها أحكمت جامعتها السياسية على مبدأ التسامح الديني. ويقول د. إدمون رباط في أحدث كتبه «الفتح العربي، في عهد الخلفاء الراشدين»[1]، إن معاقل المقاومة التي اختارت المكوث على المسيحية لم تُعان أي قسر لمفارقة دينها». ويضيف قوله: «وفي أيامنا يرتجف مسيحيو لبنان هلعاً، لدى ذكر عبارة «الذمة». . على الرغم من أنهم يدينون لنظام أهل الذمة ببقائهم. إن المقارنة البسيطة بالأساليب التي كانت معتمدة في أوروبا على مرّ العصور، لإزالة الخلافات الدينية، هي مقارنة مفيدة جداً في هذا الصدد».

وفي تقرير ذلك يقول المفكر المسيحي اللبناني المعاصر فكتور سحاب لقد مضى زمن منذ كنّا نسمع من مسيحيين أن العروبة خير ملجأ لهم من الإسلام. فإذا طرحت اليوم مسألة العروبة على نحو جدي، في علاقات عضوية مقترحة، سورع إلى القول: لنأخذ من العروبة المقدار الأقل، وكأن المقصود أولاً وأخيراً تجنب العلاقات الوحدوية على أي صعيد وفي أية صيغة. وكأن العروبة والإسلام يتناقضان، أو كأن المسيحية نقيض آخر لهذه العروبة وذلك الإسلام.

والسؤال: فهل تتناقض العروبة حقاً مع الإسلام، أو هل يترادفان؟ يقول فكتور سحاب وبالحرف: إن مسألة التناقض مسألة فاسدة، لأنك كمن يقول إن الروابط العائلية تتناقض مع الروابط الوطنية. إن لكل منهما صعيداً. وإن العروبة سابقة للإسلام، مثلما أنها سابقة للمسيحية، والسبب بسيط. فأقدم الدلائل الأثرية على وجود العروبة، سبق المسيحية تسعة قرون، وسبق الإسلام خمسة عشر قرناً. والعروبة ظهرت قبل الإسلام في دولة بني جفنة الغسّانية، ودولة المناذرة اللخميين، وفي الدولة النبطية، وثمة من يقول إن بابل كانت دولة عربية، أُطلقت عليها تسمية عاصمتها وقصبتها. بل إن العروبة إضافة لإرادة الله تعالى في اختيار المكان والزمان والبشر مهّدت لظهور الإسلام، حين تفاعلت القبائل تفاعلاً سياسياً ولغوياً واقتصادياً، بل ودينياً في تطوّر إيلاف قريش، والرحلتين، وسوق

---

(١) La Compuete Arabe sous les quarter, publications de l'Universite Libanaise, Byrouth, 1985. premiers califes.

عكاظ وغيرها، والمقاومة العسكرية والسياسية التي جوبه بها: أبرهة. كل هذه دلائل على أن العروبة سبقت الإسلام في الاستعداد والمسؤولية.

ولكن، كيف كانت العروبة قبل الإسلام، وكيف أصبحت بعده.

لقد أعزّ الإسلام العروبة إعزازاً لم تبلغه في التاريخ من قبله، فأنهى تشتت القبائل، ورذل التبدّي، وأحل جامعة الأمة محل العصبية القبلية، وأنهى دولتي الوكلاء: دولة الغساسنة وكلاء الغرب البيزنطي، ودولة المناذرة اللخميين وكلاء الشرق الساساني، وأنشأ للعروبة استقلالها التاريخي ودولتها الكبرى. يقول الأستاذ فكتور سحاب وهو مفكر مسيحي أكاديمي ودارس مستنير [وإذا كنا نحن المسيحيين ننتمي إلى العروبة وطناً، فإن الإسلام أعزّنا أيضاً ثقافة ومعرفة].

لكن البعض يتخذ نصارى العرب ذريعة ومسوّغاً ليقول بالتناقض بين الإسلام والعروبة حتى الفوارق السياسية والمعرفية وغيرها بين أقطار وبلدان الوطن العربي الذي يتكلم أبناؤه لغة مشتركة كيف يحل نظيرها إذا سلمنا بوجود فوارق بين أبناء الوطن العربي أقول كيف يحل نظيرها بين المسلم الأعجمي في الهند وماليزيا وإيران وتركيا وتكون أقرب للإمكان مع هذا البعد من إخاء ووحدة العربي مع العربي. يقولون: إذا قلنا إن الإسلام والعروبة لا يتناقضان، فأين مكانة العرب المسيحيين فيما بيننا؟ ولعل كثيراً من قائلي هذا القول من ذوي النيّات الحسنة. لكنهم جميعاً لا يتخذون المعيار العربي والتاريخي لقياس الأمور، بل معيار أوروبا، التي أقامت وحدة دولها على وحدة الإيمان الديني فيها، وكان حتماً أن تتناقض الكاثوليكية مع النهوض القومي، لدى كثير من الأقوام.

والإسلام ليس الكثلكة، لأن الإسلام لم يضع التشريع وسلطته في أيدي إكليروس مركزي. ولذا أمكنت الثورة وأمكن التقدم وأمكن التسامح وأمكن ازدهار الحريات العامة من داخل الإسلام، وتعذرت الثورة من داخل الكثلكة، وكان لزاماً أن تكون ثورة عليها، حتى تقام دولة قومية موحّدة، مواطنوها يدينون بأديان عديدة حرة. أما دولة الإسلام فاحتوت التعدد الديني بنظام أهل الذمة، فكيف بدولة العروبة العصرية المنشودة؟

ثم يستطرد فكتور سحاب ويقول: «إن العروبة لا تتناقض والإسلام. بل إن العروبة جزء من الإسلام، إذ نظرنا إلى ديار العرب ضمن العالم الإسلامي.

والإسلام جزء من العروبة، إذ نظرنا إلى الموروث الثقافي وإلى الواقع الذي يعيشه النصارى العرب داخل ديار العروبة. فالإسلام تراث وثروة الجميع جميع العرب مسلمين ومسيحيين.

الإسلام السياسي المجاهد من أجل الاستقلال، هو للمسلمين والنصارى جميعاً، ولذا لا عجب أن يكون من قادة تحرير الأوطان العربية والدفاع عنها في حقب كثير قادة من النصارى وكانوا يحملون أمانة الدفاع عن وطنهم العربي جنباً لجنب مع إخوانهم المسلمين والإسلام التاريخي الذي أقام للعرب والمسلمين حضارتهم التاريخية، هو لنا.

والإسلام اللغة القرآنية، والتجويد وإيقاع الكلمة، هو لنا.

والإسلام العلوم والعمارة والفنون، هو أيضاً لنا. انتهى.

أين تناقض المسيحية والإسلام؟

في الحضارة وضوابط النظام التي توفرها أية حضارة كحضارة الإسلام تحديداً يمكن القول وبلا أدنى تجاوز أنه لا تناقض في هذه الجوانب بين النصرانيّة العربية والإسلام: النظام العام والعروبة سواء بسواء.

يقول فكتور سحاب: «إننا ممن يؤمنون بأن تراث الإسلام جزء من وجدان النصارى العرب وتكوينهم التاريخي، وبأن تراث النصرانية العربية مصدر من مصادر الثقافة الإسلامية أيضاً. فالموسيقى السريانية والأزجال السورية البدوية وكل ما شاكلها من ميراث خلفه المسيحيون في البداية والحواضر لحفدتهم، إضافة إلى تراث الأمم العلمي والأدبي والفلسفي الذي ترجمه المسلمون إلى لغة العرب أصبح كل هذا الموروث تراثاً مشتركاً لحضارة العروبة بمسلميها ومسيحييها. وبين هذه المسيحية والإسلام لا يوجد في هذا التراث أدنى درجة من درجات التناقض.

لكن هذا التناغم والتكامل لا يثبتان حين تصبح المسيحية هي مسيحية الغزو الثقافي والوكالة الأجنبية ومسمار جحا السياسي الغربي. إن ثمة مسيحية يريدها المسيحيون العرب الذين يؤمنون بالعقيدة الحرة، وثمة مسيحية يريدها الغرب نوعاً من المطايا يتسلل بها إلى منطقتنا، وكأنها حصان طروادة. هذا النوع من المسيحية هو مصدر المخاطر على العرب المسلمين والمسيحيين. ذلك أن التعدد الديني ليس مباحاً فقط في صيغتنا السياسية التاريخية، بل إنه ميزة كنا نمتاز بها

على الدنيا. أما «التعدد الثقافي والحضاري»، فهو يعني التعدد السياسي والانفصال والتفتت وحرية الوكالة الأجنبية. وهذا أمر لا يستطيع أن يسمح به، لا المسيحيون العرب، ولا المسلمون. لقد كانت مسألة الوحدة والاجتماع من أخطر المسائل التي عالجها الإسلام في مسعاه إلى تحرير العرب وإعزازهم. فالإسلام أسمى يومه المقدّس يوم «الجمعة»، وأسمى صلاته الأسبوعية الصلاة «الجامعة»، وأسمى المعبد الذي تقام فيه هذه الصلاة المسجد «الجامع»، وأبطل الإسلام صلاة الجمعة إذا لم يجتمع لها أربعون مصلياً على الأقل. الإسلام إذن في معناه السياسي الأول، لا في المعنى الذي يتخذه له المنافقون، دين وحدة واجتماع. حتى أن الرسول كفل للمسلمين مباركة الله لكل ما يُجمعون عليه، في أحاديث لا تحصى منها «إن الله مع الجماعة»، ومنها: «لا تجتمع أمتي على ضلالة».

ولذا فإن ثمة تبعات تلقى اليوم، كما لم تُلقَ من قبل، على عواتق الزعماء النصارى العرب، من أجل تبديل النزعة التي تسعى إلى تعكير صفو انسجامهم الثقافي والحضاري والسياسي مع مواطنيهم المسلمين. فإذا فشلوا في هذا الأمر، وواصل وكلاء الغرب الثقافيون والسياسيون مسعاهم لتغريب النصارى العرب، وإذا استطاع المخطط الإسرائيلي التفتيتي أن يدفع العرب المسلمين إلى إنزال سيف التنكيل الطائفي بالعرب المسيحيين، المتمغربين والعروبيين على السواء، فإن إسرائيل تكون قد أفلحت في القضاء على المجتمع العربي المسيحي، واستطاعت تجريد الإسلام التاريخي من أعظم مآثره الدستورية ومفاخره السياسية التي يمتاز بها على الغرب الاستبدادي التاريخي.

ويقول فكتور سحاب المسيحي اللبناني مرة أخرى وهو يتذكر محنة أهله من نصارى العرب في لبنان: «لقد مررنا، نحن المسيحيين بصورة خاصة، بمراحل من الحياة جعلتنا نشرب السم رويداً رويداً، وبجرعات قليلة، فنشأنا وترعرعنا، ومعنا نشأ السم وترعرع، فإذا بنا ننظر إلى الإسلام والمسلمين نظرة تفتقر إلى الكثير من المحبة والتقدير، حتى لخُيِّل إلى الكثيرين منا أن السماء لنا دون سوانا.

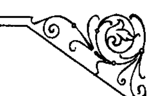
ثم يكشف عن الأسباب والعلل الكامنة فيقول: «أسباب ذلك كثيرة، أهمها إطلاقاً ما فعل الفكر الغربي، بصورة عامة، في خواطرنا وأذهاننا وعقولنا.

والفكر الغربي هذا غالباً ما يكون جانحاً ذا مصلحة. فالغرب الطامع بالشرق لجأ إلى وسائل عديدة، وفي طليعتها بذور الشقاق، ولا سيما في الحقل الديني والطائفي. ومن المتعارف عليه أن الأقلية دائماً على حذر. والمسيحيون أقلية في الشرق العربي، فوجد الغرب فيهم حقلاً خصباً، فألقى حبة الزرع بالشكوك فنمت، وإذا السنبلة تصبح خمسين.

ونشأنا، نحن المسيحيين، على هذا الواقع دون أن يترك لنا مجال للتفكير في صحته، أو في ملاءمته على الأقل، ولعبت السياسية دورها ـ السياسة لا الدين ـ فجعلت المسلم ينظر إلى المسيحي في ضوء الخطاب الغربي له نظرة بعيدة عن المحبة والتقدير لأنه اعتبره، في هذا الشرق، حائلاً دون تحقيق الأمنية الكبرى: السيادة والاستقلال ثم الوحدة.

ولم يقتصر دور الغرب على المسيحيين فحسب بل تعداهم إلى المسلمين ولعب اللعبة ذاتها، معكوسة، وانطلاقاً من مبدأ «فرق تسد» وصلنا إلى واقع مؤلم جعل الدين ضحية السياسية، وجعلنا جميعاً نبتعد عن الله وعن السماء بسبب ابتعادنا بعضنا عن بعض.

فعلى المسلمين أن يفرّقوا بوضوح بين النفاق والإسلام، مثلما فعل الرسول في يثرب «المدينة النبوية». إن المنافق هو الذي يردّ على الفتنة الطائفية برفع شراعه لينفخ فيه ريح الفتنة. إن أسلوب الفتنة بسيط، يقوم على تلازم الفعل ورد الفعل. ومن يردّ على فعلٍ فتنويّ، برد فعل فتنوي، لا يستطيع الادعاء أنه ضد الفتنة. ومن يعارض خطة إسرائيل الفتنونية الطائفية، عليه أن يتجنب الفخ الطائفي. وعلى الأحزاب الإسلامية، التي تقوم على استنهاض الهمم بالشعارات الإسلامية التاريخية الجهادية، أن تضع خطاً فاصلاً واضحاً بين الإسلام والنفاق للإسلام. فالإسلام كان يعرف نصارى دار الإسلام، ومشركي دار الحرب ومن ثم يفرق بينهما، فاستظل الجميع تحت رايته، ونعم الآخر في مجتمع المسلمين، بما لم ينعم به حتى مع نفسه. انتهى.



الفصل التاسع

- الجنسية ووضع غير المسلمين في الدول الإسلامية.
- موقف الإسلام من الأقليات.

الجنسية ووضع غير المسلمين في الدول الإسلامية

تعريف:

الجنسية Nationality, Nationalite. انتساب الشخص لدولة معينة، فهي رابطة سياسية وقانونية بينه وبينها، وهي بذلك تتصل بالقانون الدستوري من زاوية تحديده للمواطنين كركن للدولة ولكفالته حق المواطن في جنسيته، وتتصل الجنسية كذلك بالقانونين الدولي العام والدولي الخاص باعتبارها أساس توزيع الأفراد بين الدول، ولكونها منطلق البحوث المتعلقة بالأجانب وعلاقتهم مع المواطنين.

والجنسية نوعان: أصلية تثبت بحق الدم (أو المولد) أو بحق الإقليم (أي بحصول الميلاد في إقليم معين) وجنسية مكتسبة بالتجنس أو بسبب واقعة معينة كالزواج المختلط وذلك على تفصيل متفاوت في الدول المختلفة.

وقد نصت المادة ١٥ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر سنة ١٩٤٨، على حق كل فرد في التمتع بجنسيته وألا يحرم منها تعسفاً أو من تغييرها.

ولئن كانت قيمة الإعلان المذكور أدبية فقط ـ حسب الرأي الراجح ـ إلى أن تلتزم به الدول بمعاهدة ملزمة لا بمجرد إعلان، فإن ذلك لا ينتقص من أهمية القيمة الأدبية وخاصة في نطاق القانون الدولي العام، ومع الاهتمام المتزايد بالرأي العام الدولي[١].

---

(١) صفحة ٢١٧، ٢١٨، معجم العلوم الاجتماعية الشعبية القومية للتربية والعلوم الثقافية «يونسكو» طبعة سنة ١٩٧٥. إعداد نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين. أشرف على إخراجه مجمع اللغة العربية (مصر) مع مركز تبادل القيم الثقافية بالقاهرة ومع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة «يونسكو». =

ولقد أثبت التاريخ أن الجنسية قد ارتبطت في العصور القديمة بالدين، وانتماء الفرد إلى أمة معينة كان يقوم على عدة عوامل من بينها وحدة العقيدة، ويؤكد علماء الاجتماع والعلماء الأخصائيون في التاريخ القديم أن الدين كان الأساس الأول للجماعة الإنسانية، وفي ضوئه تتحدد الصفة الوطنية للفرد، وبحيث يصبح الأجنبي هو من لا يتمتع بحق الدخول في هذا الدين، وكان هذا الأمر ظاهراً في اليونان القديمة، وفي غيرها من الدول القديمة[(١)]. كما نلاحظ تأثر الملكيات الأوروبية القديمة بهذه الأفكار، وقد بدى ذلك في فرنسا بالنسبة للبروتستنت واليهود من الفرنسيين والذين لم تعتبرهم القوانين السائدة في ذلك الوقت من الوطنيين ما دام أنهم لم يعتنقوا الديانة الكاثوليكية إلى أن قامت الثورة الفرنسية، وساد الفكر المتحرر في أوروبا والذي كان من مقتضاه أن تحررت رابطة الجنسية من تأثير الديانة والعقيدة لتصبح مجرد رابطة سياسية وقانونية ينتمي الفرد على أساسها إلى دولة معينة[(٢)].

والجنسية علاقة قانونية بمعنى أن القانون هو الذي حدد كيف تزول كما يحدد الآثار المترتبة عليها، فهي تقوم في الأصل على فكرة الولاء للدولة وعلى توافر نوع من الصلة الروحية والاجتماعية. وقد أوضحت محكمة العدل الدولية هذه الفكرة في حكمها الصادر في ١٦ أبريل ١٩٥٥ حيث قضت أن: «الجنسية علاقة قانونية ترتكز على رابطة اجتماعية وعلى تضامن فعلي في المعيشة والمصالح والمشاعر»[(٣)].

= ويلاحظ أن معجم لاروس يعرف الجنسية:

Nationalite: Groupment d'individus de Meme otigine. Caracteres qui distinguent une nation Caratre denational tablir sa nationalite p.253, Paris, 1975, Larouse.

ويمكن تعريف ذلك: مجموعة الأفراد ذوي الصفات المتميزة الذين يكونون أمة معينة.

(١) لزيادة التفصيل راجع: الدكتور عبد الحميد متولي، المفصل في القانون الدستوري، جـ ١، ص ٢١٦ وما بعدها.

(٢) الجنسية والموطن ومركز الأجانب، ص ٣١: ٣٧ للدكتور هشام صادق، طبع منشأة المعارف بالإسكندرية سنة ١٩٧٧.

(٣) الجنسية ومركز الأجانب للدكتور فؤاد عبد المنعم رياض، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية بالقاهرة، ص ٤٣، أصول القانون الدولي العام جـ ١، للدكتور محمد سامي عبد الحميد، مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية، سنة ١٩٧٩، ص ٧١، ٧٢.

ولا يثبت حق إنشاء الجنسية إلا للدول بين أشخاص القانون العام، كما أن الجنسية تلحق الشخص الطبيعي دون غيره، أي تلحق الشخص الطبيعي دون الدولة التي تعد طرفاً في الرابطة القانونية، لأن الدولة هي التي تسبغ هذه الصفة على الفرد، وإنما اعتبرت الدولة طرفاً في الرابطة لأن القانون إذ يمنح الشخص جنسية الدولة ينشىء علاقة ملزمة بين هذا الشخص والدولة، ترتب حقوقاً وتكاليف لكل منهما أو عليه في مواجهة الآخر(١).

ومن نافلة القول الإشارة إلى أن أركان الدولة ثلاثة: (١) أمة (٢) سلطة عليا مستقلة (وهو ما يعبر عنها بالسيادة) (٣) إقليم يحدد ذلك المدى أو النطاق الذي تزاول فيه الدولة سلطانها، وأن العوامل التي تكون بعض هذه الأركان تختلف في عصرنا الحديث عن العصور القديمة، وعن ركن الأمة بوجه خاص فإن العوامل التي تعمل أو تساعد على تكوين أمة فهي تشمل وحدة اللغة والأصل والجنس والدين ووحدة العادات والمصالح. على أن اجتماع هذه العوامل جميعاً لا يعد ضرورياً من أجل تكوين أمة، على أن وحدة اللغة تعد في العصر الحديث أهم تلك العوامل التي تعمل على تكوين أمة. والعنصران الأساسيان المكونان للأمة: الأهداف المشتركة التي تعمل جماعة من الناس على تحقيقها، والاستقرار على بقعة معينة من الأرض.

ويلاحظ أن عامل الدين - مع ضعف سلطانه في العالم الغربي قد كان العامل الأساسي في الاحتفاظ بالوحدة بين اليهود ونشأة إسرائيل، وقد كانت الحركة الصهيونية في بداية نشأتها ذات صبغة قومية وسياسية، وكان بعض رؤسائها من الملحدين، ثم اصطبغت هذه الحركة فيما بعد بالصبغة الدينية(٢).

والأصل العام، في مجال الجنسية، أن للدولة حرية واسعة في تنظيم الأحكام المنظمة للجنسية، وهي تنفرد بهذا الحق، ولا يباح التدخل في تنظيمها لدولة أخرى، أو لأي هيئة دولية، وعلى أساس الجنسية يفرق عادة بين طائفتين

---

(١) أصول القانون الدولي الخاص للدكتور محمد كمال فهمي ص ٧٩: ٨٤. طبع سنة ١٩٨٣ مؤسسة الثقافة الاجتماعية، القانون الدولي للدكتور عز الدين عبد الله، جـ ١، ص ٩٣ مطبعة جامعة القاهرة، سنة ١٩٥٤.

(٢) نظام الحكم في إسرائيل. الدكتور عبد الحميد متولي، ص ٢٨، ٣٠، ٥٧: ٥٩.

من الأشخاص المقيمين على إقليم الدولة.

١ـ طائفة تربطها بالدولة رابطة الجنسية، بمفهومها السابق بيانه، وهذه الطائفة هي التي تشكل وحدها عنصر «الأمة».

٢ـ طائفة لا تربط أفرادها بالدولة التي يقيمون على إقليمها رابطة الجنسية، سواء قامت هذه الرابطة بينهم وبين دولة أخرى أو لم تقم. وتسمى هذه الطائفة بطائفة الأجانب، وتشمل رعايا الدول الأخرى، كما تشمل أيضاً عديمي الجنسية. ومن المتفق عليه أن الأجانب الذين يوجدون على إقليم الدولة لا تربطهم رابطة الولاء وإنما رابطة الإقامة أو التوطن حسب الأحوال[(١)].

وتنص الدساتير أو قوانين الانتخاب على شروط يجب توافرها في الناخبين حتى يكون لهم ممارسة حق الانتخاب، منها الجنسية. إذ يقتصر ممارسة حق الانتخاب على المواطنين الذين يتمتعون بجنسية الدولة وحدهم دون الأجانب الذين يمتنع عليهم هذا الحق. وهو أمر طبيعي إذ من غير المعقول أن يمارس الأجنبي الشؤون السياسية لدولة غير دولته[(٢)].

التفرقة بين الجنس والجنسية:

الجنسية سبق بيانها، أما كلمة الجنس (Race) فهي مادة علم الأنثروبولوجيا أو علم الإنسان الذي يدرس نواحي النوع الإنساني وكل الظاهرات من حيث تعلقها بالإنسان، ومن بينها علم الأجناس البشرية من ناحية خصائصها الجسمية[(٣)]. وقد يوجد في دولة واحدة مواطنون ينتسبون إلى أجناس بشرية متعددة، مثلاً في الولايات المتحدة يوجد بها مواطنون من الزنوج ينتسبون إلى

---

(١) أصول القانون الدولي العام، الكتاب السابق، للدكتور محمد سامي عبد الحميد، ص ٧٣.

(٢) القانون الدستوري والنظم السياسية ـ الدولة ـ للأستاذ سعد عصفور ص ٩٥، منشأة المعارف، الحكومة الديمقراطية للأستاذ الدكتور محسن خليل، الكتاب نفسه، ص ٦٤.
ولزيادة التفصيل في الانتخاب وأساليبه المختلفة: راجع الدكتور عبد الحميد متولي، القانون الدستوري والأنظمة الدستورية، الجزء الأول، الطبعة السادسة ص ١١٣ وما بعدها.

(٣) الموسوعة العربية الميسرة، مادة: أنثروبولوجيا ص ٣٣٥، ٣٣٦.

الجنس الأسود وآخرون من الهنود الحمر ينتسبون إلى الجنس الأحمر، وآخرون (هم الغالبية العظمى) من أصل أوروبي ينتسبون إلى الجنس الأبيض (بفروعه الثلاثة: الآري والسامي والحامي) ولكن هؤلاء جميعاً لهم (طبقاً لقانون الجنسية) جنسية واحدة هي الجنسية الأمريكية[١].

الأقليات:

لا يشترط في أفراد الدولة أن ينتموا جميعاً إلى جنس واحد أو الأصل أو الحضارة، أو اللغة. ومن النادر أن توجد دولة ينتمي كل أبنائها إلى جنس واحد، ويتكلمون لغة واحدة، ويدينون بدين واحد، بل الغالب أن توجد في الدولة أقلية واحدة أو أقليات متعددة تختلف عن الأغلبية من حيث الجنس كما هو مثلاً في حالة (الزنوج في الولايات المتحدة الأمريكية).

وإذا كان البعض من الدول يعامل الأقليات الموجودة على إقليمه على قدم المساواة - كمبدأ عام - مع الأغلبية، مثل غير المسلمين في الدول الإسلامية فإن البعض منها يعامل - رسمياً أو واقعياً - الأقليات الموجودة بها معاملة دون معاملة الأغلبية (الأقليات الزنجية في الولايات المتحدة، الأقليات الإسلامية في أثيوبيا. . .) ومن ثم يثور التساؤل عما إذا كان مثل هذا التصرف المنافي للعدالة يشكل خروجاً على أحكام القانون الدولي الوضعي أم لا؟؟.

ومن المتفق عليه أن الإجابة على هذا التساؤل لا يمكن أن تكون، كأصل عام، إلا بالنفي، فللدولة (كقاعدة عامة) أن تفعل برعاياها ما تراه ما لم تلتزم في هذا المجال بالتزامات اتفاقية محددة في معاهدات تعقد خصيصاً لهذا الغرض.

ويلاحظ أن هناك معاهدات دولية عقدتها الدول منذ القرن الثامن عشر خاصة بحقوق الأقليات وحمايتها، وكذلك الشأن بعد الحرب العالمية الأولى، وقد انفضت هذه المعاهدات بحل عصبة الأمم، كما يلاحظ أن ميثاق الأمم المتحدة لم ينص على شيء يتعلق بحماية الأقليات، ومن ثم يمكن القول بأن القانون الدولي الوضعي المعاصر لا يوفر أية حماية خاصة لأية أقلية من الأقليات[٢].

---

(١) القانون الدستوري والأنظمة الدستورية، الكتاب السابق، الدكتور عبد الحميد متولي، ص ٣١.

(٢) أصول القانون الدولي العام. الكتاب السابق للدكتور محمد سامي عبد الحميد، =

موقف الإسلام من الأقليات

ما هو موقف الإسلام من الجنسية بمعناها الفقهي في العصر الحديث ونظرته إلى غير المسلمين في الدولة الإسلامية؟

نبادر إلى القول إن الإسلام دولة بالمعنى السالف بيانه لدار الإسلام، والدولة في الإسلام تقوم على المبدأ، فلا يعترف الإسلام بالحدود الإقليمية في بيان إقليم الدولة كما هو معروف في العصر الحديث للفصل بين الحدود الدولية، ذلك أن الإسلام عقيدة وشريعة[1]. فيكون المسلمون ـ مهما كانوا في أية بقعة من بقاع الأرض ـ أمة واحدة. ولذلك نجد أنه من وجهة النظر الإسلامية ـ ومن أجل تكوين أمة ـ فإن الدين هو أساس الدولة في الإسلام، ولا أثر لاختلاف الأصل أو الجنس أو اللغة، أو الجنسية (بمعناها المعروف في الوقت الحاضر).

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده: «. . .لا ذكر لاختلاف الأوطان في الشريعة الإسلامية إلا فيما يتعلق بأحكام العبادات من قصر الصلاة للمسافر أو جواز الفطر في رمضان مثلاً. وقد يتبع ذلك شيء من اختصاص المحاكم من حيث تعين الجهة التي يكون لقاضيها الحق في أن يحكم في الدعوى. . فالشريعة واحدة والحقوق واحدة يستوي فيها الجميع في أي مكان كانوا من البلاد الإسلامية. . أما الجنسية فالأصل الشرعي الإسلامي أنها ليست معروفة عند المسلمين، ولا لها أحكام تجري عليهم لا في خاصتهم ولا عامتهم، وإنما الجنسية عند الأمم الأوروبية تشبه ما كان يسمى عند العرب: عصبية. . جاء

= ص ٧٦ـ ٧٨، الموسوعة العربية الميسرة، مادة: أقليات في القانون الدولي ص ٨٥، والخبراء محررو هذه المادة هم: الدرديري أحمد إسماعيل والدكاترة أحمد كمال أبو المجد وعبد الله العريان وعبد المنعم البدراوي، راجع الصفحة (ن) من المقدمة.

(١) الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة: ص ٤٣٣ وما بعدها.

الإسلام فألغى تلك العصبية ومحا آثارها وسوى بين الناس في الحقوق فلم يبق للنسب ولا لما يتصل به أثر في الحقوق ولا في الأحكام فالأصل الشرعي أن الجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة. فقد قال الرسول ﷺ: «إن الله أذهب عنكم عصبية الجاهلية..» وروي كذلك عنه: «ليس منا من دعا إلى عصبية». وبالجملة فالاختلاف في الأصناف البشرية (يقصد الجنسيات) كالعربي والهندي والرومي والشامي والمصري والتونسي والمراكشي مما لا دخل له في اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجوه. وأما حقوق الامتيازات المعبر عنها: «بالكابيتو لاسيون» فلا يوجد شيء منها بين الحكومات الإسلامية قاطبة..» ثم انتهى إلى القول.. «هذا ما تقضي به الشريعة الإسلامية على اختلاف مذاهبها: لا جنسية في الإسلام ولا امتياز في الحقوق بين مسلم ومسلم...»[1].

ونجد السيد محمد رشيد رضا قد سار أيضاً على نهج الأستاذ الإمام، ويقول إن الإسلام دين لا جنسية، وليس في الإسلام معنى الجنسية المعروفة الآن[2] لكن الجدير ذكره ولا بد من التنويه به هو أنه لا يمكن من الناحية العملية وبروح العدالة أن نطبق نظام الجنسية بمفهومه القانوني في العصر الحديث، على ما أورده فقهاء المسلمين، عن حكم الإسلام حين نشأته وتكوين دولة المسلمين ممن اعتنق الدين الإسلامي، وذلك أن المفهوم المذكور لم يكن معروفاً حينئذاك، ولذلك فإننا لا نصيب الحق حينما نطبق مفهوم فقهاء المسلمين، ونصل منه - بمقياس المفهوم القانوني للجنسية في عصرنا الحاضر - إلى القول بأن غير المسلمين في الدولة الإسلامية ليسوا من المواطنين وإنما يعتبرون من الأجانب.

وفي البحث عن الوضع القانوني والدستوري لغير المسلمين في الدولة الإسلامية نجد بعض الباحثين يذهب إلى أن الإسلام دين وجنسية معاً وأن

---

(١) الفتاوى الإسلامية من دار الإفتاء المصرية: المجلد الرابع، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م، الفتوى رقم (٦٨٤) المفتي: فضيلة الشيخ محمد عبده بتاريخ ٩ رمضان ١٣٢٢هـ ص ١٥٢٧- ١٥٣٠، عبية: عظمة هامش ص ١٥٢٨ الكابيتولاسيون: الواردة في المتن هي بالفرنسية Capitalisation أي حقوق الامتياز Action de Capitaliser راجع في القاموس الفرنسي. La rouse imprime en France, Paris, p.55.

(٢) تفسير المنار، جـ ٢، الطبعة الثانية مطبعة دار المنار بمصر سنة ١٣٥٠هـ، ص ٤٤١ والجزء الثالث، ص ١٢٣، ٢٢٦.

المسلمين في دار الإسلام هم المواطنون الأصليون في هذه الدولة الإسلامية لأن الانتماء إلى العقيد الإسلامية هو الرباط الذي يربط بين المسلم وأمة المسلمين، فهو رباط ديني واجتماعي أيضاً[١].

ويلاحظ أنه مع القول بذلك، فيرى البعض أن «الأجنبي» في دار الإسلام يتمتع بكافة الحقوق التي يتمتع بها «المواطنون» المسلمون، بل إنه يستمتع بمزايا خاصة، وهي أنه يخضع لقوانينه الخاصة في شؤون الأسرة، وفي شؤون الدين، لا يجد من ذلك إلا قيد النظام العام في رأي بعض فقهاء المسلمين، وفي غير هذا النطاق تنطبق عليه القوانين الإسلامية كما تنطبق على سائر المسلمين في دار الإسلام[٢].

ونجد البعض، في بيان الجنسية، والوطنية، يرى أن العقيدة في الإسلام هي «الجواز» الوحيد للدخول في الجنسية الإسلامية بمعناها الدقيق[٣].

ورتب على ذلك أن الدولة الإسلامية فرضت على الأجانب الجزية[٤]. أما

---

(١) الأستاذ الدكتور حامد سلطان: أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية، الكتاب السابق، ص ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤، وما ذكر في المتن هو خلاصة الرأي ـ كما أخذ بهذا الرأي: (الإسلام دين وجنسية، ويدخل فيها الذميون والمتسأمنون الذين يقيمون بدار الإسلام والذين يعبر عنهم اليوم: الأجانب انظر: إبراهيم عبد الباقي المستشار بمحكمة التعقيب بجمهورية تونس في مؤلفه: الجنسية في قوانين دول المغرب العربي الكبير ـ مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية عام ١٩٧٠م.

(٢) الأستاذ الدكتور حامد سلطان: ص ٢٢٤، ٢٢٥.

(٣) الدكتور مصطفى الرافعي: الإسلام نظام إنساني ـ من مطبوعات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر سنة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م، ص ٧٠، ٧١.

(٤) المصدر السابق نفس الموضع ص ١٨١ ويقول الدكتور محمد حميد الله: «رجح المسلمون الدين أساساً للوطنية، وفارقاً بين الأهالي والأجانب، فغير المسلمين من سكان دار الإسلام هم الأجانب، ولكنهم ليسوا بأعداء بل هم أهل ذمة.. وهم في الإسلام المستوطنون الأجانب من الأقليات» بحثه المنشور في القسم الأول لأحكام أهل الذمة لابن القيم، ص ٨٩.

ويلاحظ أن الأستاذ الشيخ أحمد إبراهيم، في بحث له بعنوان: «حكم الشريعة الإسلامية في الزواج مع اتحاد الدين واختلافه» المنشور في مجلة القانون والاقتصاد، السنة =

إذا أردنا أن نصل إلى مفهوم الإسلام الذي وصل إلينا باجتهاد الفقهاء، ونظرته إلى غير المسلمين المقيمين في الدولة الإسلامية، فإننا يجب أن ننظر إلى تقسيم الفقهاء الديار إلى دار الإسلام ودار الحرب (أو المخالفين). وكان هذ التقسيم مرجعه إلى الأحوال الوقتية التي كانت تسود المجتمع الإسلامي، والحياة المعيشية للمجتمعات الأخرى.

فقد قامت الدولة على أساس العقيدة والأخوة الدينية، فهؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام يكونون دولة هي دار الإسلام، تجمعهم عقيدة واحدة، للوصول إلى المجتمع الذي تتحقق فيه أسس العدالة.

وصلة الإسلام (بالمفهوم المشار إليه) تسمو على الجنسية، وتسمو على صلة النسب، وتسمو على صلة العشيرة[١]. (أي إن المسلمين في دار الإسلام مهما تعددت الأقاليم مواطنون أصليون، ولا يعتبرون أجانب).

ومن البداهة أن يوجد على إقليم الدولة الإسلامية غير مسلمين، ولأن الإسلام كفل الحرية الدينية، فكان الفقهاء حريصين على بيان موقف الإسلام في هذا الخصوص، فرأوا أن القاطنين داخل حدود دولة الإسلام على نوعين: المسلمون وأهل الذمة، وهم جميعاً مواطنو الدولة أي النظام الإداري.

وهذا التقسيم هو الذي بينه الأستاذ أبو الأعلى المودودي[٢].

ولا نجد في أقوال الفقهاء ولا في أفعال الخلفاء والولاة، ما يشير من

= الأولى ١٩٣١، العدد الأول، الصفحة (١١) يقول: «فالإسلام كان يعتبر في وقت واحد عقيدة وجنسية، والمسلمون في أي مكان كانوا يعتبرون أخوة في العقيدة والجنسية، غير أن أحكام الإسلام الدنيوية لا نفاذ لها في غير دار الإسلام». وواضح أن البحث كان خاصاً بأحكام الزواج وبيان حكم الإسلام فيه، وذلك كله من المسائل الدينية المتعلقة بالنظام العام، ولم يكن البحث معنياً ببيان الجنسية، بمفهومها القانوني والدستوري في العصر الحديث ـ ومدى تمتع غير المسلمين بالجنسية في الدول الإسلامية.

(١) أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية للدكتور حامد سلطان: ص ١٥٦، ويقول ص ٢٣٨، ٢٣٩ إن الفقه الإسلامي اعتبر دار العهد ـ وهي الأقاليم المفتوحة صلحاً ـ من الشعوب المستقلة لكل منها حريتها على إقليمها ونظمها الخاصة بها، وتنظم العلاقات بينها وبين الدول الإسلامية، المعاهدة المبرمة بين الطرفين.

(٢) حقوق أهل الذمة ص ٨: ٣ تدوين الدستور الإسلامي ص ٤٦: ٤٨.

قريب أو بعيد إلى اعتبار غير المسلمين المقيمين في الدولة الإسلامية (دار الإسلام) من الأجانب ـ بالمفهوم القانوني والدستوري الحديث، اعتبارهم من المواطنين.

ويتضح لنا من سهولة هذا التقسيم حقيقة هامة: هي أن الفقهاء قسموا مواطني الدولة الإسلامية على التقسيم السابق لإلزام المسلمين بأحكام الإسلام وعقائده، كأحكام الزكاة والزواج والميراث.. وغير ذلك من مسائل الأحوال الشخصية، وحتى لا يلزم بها غير المسلمين والذين يخضعون في ذلك لأحكام دينهم هم دون أحكام الإسلام. فكان هذا التقسيم ضرورياً على هذا الأساس، ولا يفيد بذاته ـ من قريب أو بعيد ـ اعتبار غير المسلمين أنهم من الأجانب.

أما دار الحرب ـ بناء على التقسيم السالف بيانه ـ فإن شعوبها هم الذين يعتبرون أجانب بالنسبة للدولة الإسلامية، وكذلك الحال بالنسبة للمعاهد أو المستأمن الذي يقيم في دار الإسلام إقامة مؤقتة لسبب التجارة أو العلم.. فإنه يعتبر أجنبياً ـ وذلك طبقاً للمفهوم القانوني والدستوري في وقتنا الحاضر ـ أما إذا أقام هؤلاء إقامة دائمة، وقبلت الدولة ذلك منهم فإنهم يصبحون من رعاياها غير المسلمين[1]. (وهذه الحالة شبيهة بحالة اكتساب الجنسية اللاحقة «التجنس» بأن يطلب الفرد من دولة معينة إعطاءه جنسيتها فتوافق الدولة على طلبه إذا استوفى الشروط المقررة في قانونها، وهذه من مسائل القانون الدولي الخاص والعام).

ويلاحظ في العصر الحديث، وقد تعددت الدول الإسلامية، فإن كسب الجنسية لدولة من الدول يكون طبقاً لقوانينها الوضعية الداخلية، وذلك دون اعتبار للدين الذي يعتنقه مكتسب الجنسية، وعلى ذلك يكون المسلم المصري مثلاً أجنبياً بالنسبة لقانون الجنسية في دولة المغرب أو سوريا أو الجزائر، وإذا كان القانون الداخلي لدولة ما يحرم تملك العقارات والأراضي الزراعية على الأجانب، كما كان الحال في مصر، قبل أيامنا هذه فإن المسلم الأجنبي ـ أياً كانت جنسيته طبقاً للقوانين الوضعية الحالية ـ كان لا يحق له تملك العقارات

---

(١) يقول الدكتور صبحي محمصاني: «الإسلام لم يتعرف إلى فكرة الجنسيات، بل صنف الناس على أساس صفة المسالمة أو المحاربة.. ثم اعتبر الحربيين وحدهم أجانب بطبعهم..» انظر مؤلفه القانون والعلاقات الدولية في الإسلام، ص ١٢٣.

المبنية والأراضي الزراعية في مصر. ويكون هذا المسلم غير المصري أجنبياً في تطبيق أحكام القوانين الوضعية المصرية، في حين يكون غير المسلم المصري الجنسية من المواطنين الأصليين.

وليس في هذا كله ما يخالف أحكام الإسلام، ولأن ذلك مرجعه الاجتهاد في رعاية المصلحة العامة، التي هي المقصد من تشريع الأحكام الدنيوية، والتي يقررها التشريع الصادر من أولي الأمر في حدود الأحكام الشرعية الإسلامية والتي يتسع باب المصالح المرسلة لكثير من صورها وتطبيقاتها[١].

ومما يجب أن ننبه إليه ونؤكد عليه أن اختلاف بعض المواطنين في الحقوق السياسية لا يعني أنهم أجانب لأن الإسلام مع إقراره مبدأ المساواة، فإنه لا يحول وحتى بين المسلمين أنفسهم، دون تفاوت درجات الأفراد، ذلك أن للإسلام شروطاً معينة لمن يتصدى للفتوى والاجتهاد، وكذلك الشأن في أهل الشورى أو «أهل الحل والعقد» وفي اختيار أولي الأمر، العلماء والأمراء... فإن ذلك كله يكون لصفات ومؤهلات خاصة بهم[٢].

وقد يقال إن الإسلام حينما حرم غير المسلمين بعض الحقوق السياسية إنما يعني اعتبارهم من الأجانب، ولأن الأجانب في دولة ما ليس لهم الاشتراك في الانتخاب وغيره من الحقوق السياسية، وأن هذه الحقوق تقتصر على المواطنين الأصليين ومن الملاحظ أن للمسلمين وحدهم أن ينتخبوا الخليفة وأولي الأمر، ويشتركوا في البرلمان المدبر لشؤونها، وأن يسند إليهم مناصبها الرئيسية لتسيير سياسة الدولة الفكرية وفقاً لمبادئها الأساسية. وأكبر دليل على هذه القاعدة أننا لا نجد في عهد النبوة ولا في عهد الخلافة الراشدة مثلاً ما يدل على أن أحداً من أهل الذمة انتخب عضواً لمجلس الشورى أو ولي حكماً على قطر من أقطار الدولة أو قاضياً عليه أو وزيراً لشعبة من شعب الحكومة أو ناظراً عليها أو قائداً في الجنود، مع أنه لم يكن ـ حتى ولا عصر الرسول ـ خالياً من أهل الذمة بل كان عددهم قد بلغ الملايين في عهد الخلافة الراشدة. فلو كان الاشتراك في كل

---

(١) راجع ما سبق ص ٤٤ : ٥٠.

(٢) راجع ما سبق: ص ٦٨، الملحوظة الأولى: الإسلام لا يحول دون تفاوت درجات الأفراد، ويقول السيد محمد رشيد رضا: «أهل الشورى أو أهل الحل والعقد هم الذين يسمون عند الأمم الأخرى بنواب الأمة». راجع تفسير المنار جـ ٣، ص ١١.

هذه الأمور من حقهم لما بخسهم الرسول شيئاً من هذا الحق، ولا قعد عن أدائه مدة ثلاثين سنة يقصد مدة الخلافة الراشدة أتباعه وأصحابه (وهذا الذي يذهب إليه الأستاذ أبو الأعلى المودودي)[١]. يجدر بنا أن نبسطه قليلاً وذلك بأن نبادر إلى القول أن الدولة في عصرنا، قد لا تساوي بين رعاياها الوطنيين ـ وكلهم يتمتعون بجنسيتها ـ في بعض الحقوق لا سيما الحقوق السياسية لأسباب تتعلق بها، ومع هذا يظلون متمتعين بجنسية الدولة. ولم يقل أحد أن عدم تمتع هذا الفريق من رعايا الدولة ببعض الحقوق دليل على عدم تمتعه بجنسية الدولة. فالمواطنون في الدولة الحديثة: «هم الأفراد الذين يتمتعون بجنسية الدولة، وذلك بغض النظر عما يكون بين بعضهم البعض من التفاوت في الحياة القانونية الداخلية، وخاصة من وجهة الحقوق السياسية»[٢] فالتفاوت في الحقوق والواجبات بين المواطنين مسألة داخلية، لا تؤثر على تمتعهم بجنسية الدولة. كما أننا نلاحظ على كلام أبي الأعلى المودودي أنه افترض رحمه الله تصوراً تمحور في قوله بوجود «مجلس للشورى» في صدر الإسلام: وهذا لم يقل به أحد قبله بل لقد دفع قوله عن مجلس شورى في عصر الرسول أن ذهب البعض إلى تحديد أعضاء هذا المجلس، وقد وزعت الأعمال فيما بينهم، وللمجلس كتاب وأمناء للسر... الخ.

والواقع أننا لا نجد في كتب التاريخ ولا في كتب التفسير أو الحديث ذكراً لقيام مثل هذا المجلس، بل ولا حتى مجرد ذكر لعبارة أو كلمة «مجلس» في مجال الكلام عن الشورى. ومن يقول بهذا الرأي إنما ينظر إلى أنظمة الماضي القديم بمنظار العصر الحديث. والواقع أنه كان هناك جماعة أو طائفة يرجع إليها الرسول والخلفاء الراشدون في أمر الشورى، ولكنها كانت بعيدة عن أن تكون «مجلساً» بالمعنى المعروف في العصر الحديث، أي هيئة تتكون من عدد معين تتطلب فيهم شروط معينة، ذات اختصاصات محدودة، كما هو الشأن في مثل هذا المجلس في العصر الحديث[٣].

---

(١) تدوين الدستور الإسلامي ص ٤٧، حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية، ص ٣١.

(٢) القانون الدولي الخاص للدكتور عز الدين عبد الله، الجزء الأول، ص ٨٩.

(٣) راجع الدكتور عبد الحميد متولي: مبادئ نظام الحكم في الإسلام، ص ٢٦٣: ٢٦٦.

كما أنه من الطبيعي ألا يتساوى غير المسلمين في الدولة الإسلامية مع المسلمين على قدم المساواة التامة في الحقوق السياسية في صدر الإسلام ذلك أن الدولة الإسلامية قامت على أساس العقيدة، فكان من الطبيعي أن يتولى شؤونها المؤمنون بعقيدتها ونظامها وغايتها، بل لا يكون مستغرباً إذا منعت غير المؤمنين بعقيدتها من تولى أي شأن من شؤونها العامة، ولو كانوا يقيمون على أرضها ويحملون جنسيتها.

ومن البديهي، وغير المسلمين يكذبون برسالة الإسلام، ألا يشتركوا في انتخاب الخلفاء والولاة، فكان حقاً أن تكون الشورى مقصورة على المسلمين دون الذميين في صدر الإسلام، فقد كانت لذلك مبررات اجتماعية وسياسية ودينية، إذ كان اليهود والنصارى والمشركون يحاربون الإسلام، ويفتنون المسلمين في دينهم، ويحاولون الوقيعة بينهم والغدر بهم[1]. فكان من الأمور المسلمة ألا يشتركوا في الرأي والشورى مع المسلمين.

وهذا الأمر يلاحظ دائماً سواء كانت تلك العقيدة الجديدة التي قامت الدولة على أساسها عقيدة دينية كما كان شأن الدولة الإسلامية أم كانت عقيدة سياسية كما كان شأن الدولة الألمانية النازية في عهد هتلر، وكما كان بالأمس في شأن الدولة السوفيتية. فمثل هذه الدولة التي تقوم على أساس عقيدة جديدة حسبها أن تنظر إلى رعاياها (أي مواطنيها) الذين لا يدينون بعقيدتها نظرة تسامح، فليس لأحد أن يطمع في أكثر من أن تؤمنهم الدولة على حريتهم الشخصية وعلى أموالهم وأعراضهم، وأن تترك لهم حرية الاحتفاظ بمعتقداتهم وإقامة شعائرهم الدينية، وذلك هو ما عرف به الإسلام واشتهر به المسلمون في صدر الإسلام أكثر مما عرف عن أية طائفة من الطوائف الأخرى أو عن أية أمة من الأمم[2].

وهنا يأتي السؤال الذي يطرح نفسه ويتعلق بجواز ومشروعية اشتراك المواطنين غير المسلمين في انتخاب رئيس الجمهورية في الدول الإسلامية التي تأخذ بهذا النظام في الحكم. وكذلك عن اشتراكهم في انتخاب النواب في المجالس التشريعية (وهؤلاء يقابلون أهل الشورى وأهل الحل والعقد)، أو أن

---

(١) روح الإسلام، جـ ٢، ص ١٥٨، ١٥٩ للسيد أمير علي.

(٢) الدكتور عبد الحميد متولي، مبادئ نظام الحكم في الإسلام، ص ٣٩٥، ٣٩٦.

يكونوا نواباً يتم ترشيحهم واختيارهم لهذه المناصب.

وهنا ينبه ويوجه العلامة الأستاذ الدكتور عبد الحميد متولي إلى حقيقة هامة، وهي أن رئاسة الجمهورية في الوقت الحاضر ليست لها صبغة دينية كما كانت في عصور ازدهار الدولة الإسلامية، فليس هي الآن الخلافة التي يتحدث عنها الفقهاء، وإن بقي لها شيء من معانيها. فرئاسة الجمهورية رئاسة دنيوية وليست هي خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا، كما أنه من الجدير أن نعلم أن مسألة بيان الشروط الواجب توفرها في أصحاب الحق في اختيار رئيس الدولة ليست في جوهرها ـ كما يظن البعض ـ مسألة دينية أو مسألة فقهية أو قانونية، إنما هي مشكلة اجتماعية سياسية، يتقرر فيها الرأي أساساً بناء على ما تقتضيه ظروف البيئة الاجتماعية والسياسية في زمان ما ومكان ما، أي إنها ليست من المسائل التي يصح أن يوضع بصددها قواعد جامدة لا تتغير بتغير ظروف الزمان والمكان. والواقع أن ميدان العلوم السياسية إذا صح أن توضع فيه مبادئ عامة ذات مرونة في تطبيقها، إلا أنه لا مكان فيه للقواعد التي لا تتغير بتغير ظروف الزمان والمكان، أن هذه القواعد الجامدة مكانها الرياضيات، أو في ميدان المعتقدات والعبادات لا في ميدان السياسة[1].

ولا شك أنه يجب الأخذ بهذا الرأي لسلامته وقوة حجته، ولذلك فلا يستقيم الرأي القائل بمنع غير المسلمين من انتخاب رئيس الجمهورية قياساً على منعهم من انتخاب الخليفة في العهود السابقة، وعلى هذا يحق لغير المسلمين، وهم من المواطنين الأصليين في الدولة الإسلامية، المشاركة في هذا الانتخاب لأنهم غير ممنوعين من المشاركة في شؤون الدولة الدنيوية.

أما انتخاب ممثليهم في مجلس النواب وترشيح أنفسهم لعضويته، فهذا جائز أيضاً ومن حقوقهم السياسية في عصرنا الحاضر، ولأن العضوية في البرلمان تفيد إبداء الرأي وتقديم النصح للحكومة وعرض مشاكل الناخبين ونحو ذلك.

ومن البديهي أن المسائل التي تقوم على الاجتهاد، والمتصلة بالعقيدة (مثل

---

(١) انظر: الدكتور عبد الحميد متولي، مبادئ نظام الحكم في الإسلام، ص. ٢٠٣ـ ولزيادة الإيضاح راجع في شأن الخليفة ص ٢٠١: ٢١٩ ومسؤولية الخليفة ص ٤٦٧ وما بعدها في نفس الكتاب.

مسائل الزواج والطلاق وحقوق الزوجين، ومسائل المواريث فيما يصح فيه الاجتهاد) لا يشترك النواب غير المسلمين ـ بطبيعة الحال ـ في إبداء الرأي فيها، وإصدار التشريعات المنظمة لها، لأنها خاصة بالمواطنين المسلمين، والحال أن غير المسلمين لا يؤمنون بالإسلام.

أما الأمور الدنيوية التي تعرض على المجالس التشريعية كالمسائل التجارية والعلمية، والقوانين المنظمة للضرائب وللمباني وللمرور وما أشبه، فإن النواب غير المسلمين شأنهم كشأن النواب المسلمين سواء.

ولنا في التاريخ ما يؤيد هذا النظر ـ (أحقية غير المسلمين أن يكونوا من أهل المشورة) فمن المعروف والثابت أن يهودياً من أهل مصر أشار على عمرو بن العاص رضي الله عنه بحفر قناة تربط نهر النيل بالبحر الأحمر، تمكن بها الوالي عمرو بن العاص من إرسال السفن مشحونة بالميرة من مصر رأساً إلى أقرب مرفأ في المدينة، وذلك في عام الرمادة، وكان ذلك سبباً أن يكافئه الخليفة عمر بن الخطاب على حسن المشورة، وأسقط عنه (أي اليهودي) الجزية ما دام حياً[1].

فهذه المشورة المتصلة بالنقل والهندسة (من المسائل الدنيوية) أخذ بها عمر من صاحبها اليهودي، فإذا أخضعنا هذا الأمر للمقاييس الدستورية في عصرنا الحاضر، وواضح أن هذه المسائل وما يشابهها مما تشرع له المجالس النيابية، فيكون من الواضح ثبوت أحقية غير المسلمين أن يكونوا أعضاء في هذه المجالس.

ولا شك أن التاريخ الإسلامي مليء بمثل هذه المشورات (الدنيوية) تقدم بها غير المسلمين للولاة والحكام في الدولة الإسلامية.

ويلاحظ أن الأستاذ أبا الأعلى حينما أبدى رأيه بأنه لا يحق لمن لا يؤمنون بمبادئ الإسلام أن يتولوا رئاسة الحكومة أو عضوية مجلس الشورى بأنفسهم، كما لا يصح لهم أن يشتركوا في انتخاب النواب، فقد ربط ذلك بأن وظيفة رئيس

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطي في ذكر نهر أمير المؤمنين. وذلك نقلاً عن الأستاذ الدكتور محمد حميد الله في بحثه المنشور في القسم الأول من كتاب أحكام أهل الذمة لابن القيم (السابق) وعنوان البحث: مقدمة في علم السير أو حقوق الدول في الإسلام، ص ٩٢ هامش رقم (١).

الحكومات في الإسلام تدبير أمر الدولة وفق مبادئ الإسلام، وأن عمل مجلس الشورى مساعدة الرئيس على تنفيذ هذا النظام المبدئي (أي عقيدة الإسلام)، وحفاظاً على هذه العقيدة فإنه يجب ألا يسير دفة سياسة الحكم إلا المؤمنون بمبادئها، أما في غير هذه الأمور الأساسية فقد أجاز منح غير المسلمين - (مواطني الدولة الإسلامية) - حقوق العضوية والتصويت في المجالس البلدية والمحلية (Local Bodies) لأن هذه المجالس لا تتناول المسائل المتعلقة بنظام الحياة، وإنما وظيفتها تدبير الأمور لتحقيق الضرورات المحلية، كما أجاز أن يؤلف للطوائف غير المسلمة مجلس نيابي مستقل، تكون عضويته وحق التصويت فيه خالصة لغير المسلمين، ويحق لهم أن يقترحوا القوانين الجديدة أو تعديل القديم منها فيما يتعلق بشؤونهم وأحوالهم الشخصية، وأن يقدموا شكاويهم واعتراضاتهم ومقترحاتهم فيما يتعلق بنظام الحكومة ومقررات مجلس الشورى، كما يحق لهم توجيه أسئلة إلى الحكومة الإسلامية عن الأمور التي تتصل بوظائفهم أو الدولة على العموم[١].

وأرى أن الأستاذ المودودي لا يربط رأيه المتقدم باعتبار أن غير المسلمين من الأجانب عن الدولة الإسلامية، بل إنه يرى أنهم من المواطنين الأصليين فيها، ولكن بسبب عدم إيمانهم بعقيدة الإسلام، ولأن الدولة في الإسلام تقوم على المبدأ، فإنه لا يصح أن يسير دفة الحكم فيها، خاصة في المسائل الأساسية، وتلك المتصلة بالعقيدة، إلا هؤلاء الذين يؤمنون بمبادئها، أما غير ذلك من المسائل المدنية أو التنفيذية التي تتولاها المجالس البلدية والمحلية، فإنهم فيها سواء كالمسلمين. ونلحظ في إجازته لهم بتكوين مجلس نيابي مستقل ما يدفع القول من قريب أو بعيد، إن الإسلام يحجر على حريتهم، أو يسلب حقوقهم السياسية والدستورية المعروفة في عصرنا الحاضر - هو اجتهاد من جانب قد يؤخذ به، إذا كان صالحاً للزمان والمكان، أو يرد عليه إذا لم يكن كذلك[٢].

---

(١) حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية، ص ٣١ـ ٣٣.

(٢) أخذ بالرأي القائل بحق أهل الذمة في انتخاب رئيس الجمهورية في العصر الحاضر، وحقهم في الانتخاب والترشيح لمجلس الأمة، الدكتور عبد الكريم زيدان: أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام ص ٨٤، كما قال بحقهم في عضوية الهيئات البرلمانية الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد: مبدأ المساواة في الإسلام ص ١٤٣، ١٤٤.

وننتقل الآن إلى بيان أقوال الخلفاء والولاة والأمراء والفقهاء الأقدمين بصدد بيان الحقوق السياسية والمدنية في دار الإسلام وما يستتبع ذلك - إذا أخضعناه للنظر القانوني والدستوري في عصرنا الحاضر - فإنه يتبين بجلاء أن غير المسلمين المقيمين إقامة دائمة وذراريهم مواطنون أصليون، وغير صحيح القول إنهم أجانب. وهذا هو الأصل الذي جرى به العمل في مجتمع المسلمين طبقاً للقاعدة لهم لنا عليهم ما علينا(١).

ولا شك أن هذا المبدأ يبعد اعتبار غير المسلمين من الأجانب، فإن الأجنبي لا يتمتع بنفس الحقوق المدنية والسياسية التي يتمتع بها المواطن الذي يحمل جنسية الدولة.

ومن المعلوم أن النظم القانونية السائدة الآن في الدول المتحضرة تجمع على أن المركز القانوني للأجنبي في الدولة لا بد وأن يكون أهون شأناً من مركز المواطن، فهو لا يمكن أن يتمتع بالحقوق السياسية أو بالحقوق العامة في الدولة التي يقيم فيها.

ويجمع الثقات من علماء القانون الدولي على أن ثمة قدراً من الحقوق يجب أن يتمتع به الأجنبي في الدولة. وهذا القدر هو ما يطلق عليه اصطلاح «القدر الأدنى من الحقوق» الذي يجب على كل دولة متحضرة أن تلتزمه، وأن تعترف به للأجانب المقيمين على إقليمها، والحقوق التي يتضمنها هذا الحد

---

(١) ذكر الكاساني أنه روي عن الرسول ﷺ أنه قال في الحديث المعروف «فأعلموهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين» البدائع جـ ٧، ص ١٤٧ وفي مواضع أخرى من الكتاب. ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: جاءت السنة المتواترة. بتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» الإسلام والنصرانية ص ٦٤. ويذكر الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف قول الرسول ﷺ في شأن الذميين «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» ص ٣٦، ٤٢: السياسة الشرعية «وهذا الحديث ليس محل اتفاق، فنجد السيد رشيد رضا يعلق على ما أثبته الإمام محمد عبده في نفس الصفحة ٦٤ هامش رقم (١) فيقول: «هذه هي القاعدة التي جرى عليها الفقهاء» كما يقول الدكتور عبد الكريم زيدان أن هذا الحديث لم يرد في كتب الحديث المعروفة، إلا أن معناه مقبول عند الفقهاء، وفيه بعض الآثار عن السلف ص ٧٠ وهامش رقم (٣) أحكام الذميين والمستأمنين.

الأدنى ترجع إلى جملة اعتبارات منها.

الاعتراف للأجنبي بالشخصية القانونية والاعتراف للأجنبي بالحريات اللازمة التي تتطلبها الشخصية الإنسانية، كحرية العقيدة، وممارسة الديانة علناً في حدود النظام العام والآداب، والحرية الفردية في نطاق الصالح العام، والنظام العام والآداب العامة، وكذلك حرمة المسكن وحرية التنقل في حدود القيود السابقة.

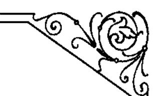
وتعترف كل دولة متحضرة بأن للأجنبي حق التقاضي أمام محاكمها، ولها أن تقيد ذلك بوجوب التأكد من حسن نية الأجنبي وعدم الكيد للمواطنين.

وللأجانب المقيمين في الدولة الحق في التمتع بحماية الدولة المقيمين على إقليمها[١].

وخلاصة الرأي أن غير المسلمين في إقليم دولة الإسلام، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وهو مبدأ التزم به الخلفاء والولاة والفقهاء، يثبت كون غير المسلمين لا يعتبرون من الأجانب، ولأن اختلاف الأحكام بالنسبة لغير المسلم (المواطن) عنها بالنسبة للمستأمن (وهو غير المسلم الذي يقيم إقامة مؤقتة في دولة الإسلام للتجارة أو للعلم. أو ما أشبه) وهو الذي يعتبر أجنبياً وعلى ما سبق ذكره في بعض المواضع، وعلى التفصيل المبين في كتب الفقه.

---

(١) أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية للأستاذ الدكتور حامد سلطان.



الفصل العاشر

- الإسلام والحوار مع الآخر.
- العلاقات الإسلامية ـ المسيحية.
- مقدمات الحوار الإسلامي المسيحي.
- حديث القرآن الكريم عن المسيح وأمه.

الإسلام والحوار مع الآخر

بعيداً عن متاهة مقولة: «فيورباخ الفلسفية والتي يقول فيها: إن تصور «الأنا» لا يتحقق ما لم تكن «الأنا» مقابل ما ليس «أنا» وما ليس أنا في الوجود المادي، أو الاعتباري لا يدرك تحققه دون مقابله وهو «الأنا» ومن غير توسع ولا استطراد فإن «الأنا» الذات أو الاعتبار، لا بد وأن يقابلها ما ليس أنا وما عبر عنه في الأدبيات الحديثة بالآخر، ومن ثم فالحوار الذي يجري مع الآخر لا يتحقق بمعزل عن «الآخر» ومن ثم فلا بد عند «الأنا» من مساحة «للآخر».

وفي ضوء تلك المقدمة يمكن القول إنه كلما سما الإنسان وترفَّع عن أنانيته، كلما أوجد في ذاته مكاناً أرحب للآخر. إن الحقيقة ليست في الأنا، إنها تتكامل مع الآخر حتى في نسبتها، وهي لا تكتمل في إطلاقيتها إلا بالله، والحوار مع الآخر هو اكتشاف للأنا وإضاءة ساطعة على الثغرات، وعلى النواقص التي لا تخلو منها شخصية إنسانية في بعديها الذاتي والإنساني.

إنه من نافلة القول أن نقول أو نؤكد على: أن وحدة الجنس أو اللون أو اللغة، ليست ضرورة حتمية لا يتحقق التفاهم بدونها، لذلك لا بد، من أجل إقامة علاقات مبنية على المحبة والاحترام، من الحوار على قاعدة هذه الاختلافات التي خلقها الله، بين الأنا والآخر وأرادها أن تكون، والتي يتكشف للعلم أنها موجودة حتى في الجينات الوراثية التي تشكّل بعناصرها شخصية كل منَّا وتمايزاتها. هناك فوارق كثيرة بين علاقة الإرادة وعلاقة الفرض. العلاقة الأولى هي نتيجة حوار وثمرة تفاهم، وهي من ثم فعل إرادي، أما العلاقة الثانية فهي حالة تنكر لحق الآخر وتجاهل لتمايزاته ولخصائصه؛ وتجاوز للحوار كوسيلة لفهمه وللتفاهم معه، وهي من ثم حالة مفروضة، وكل ما هو مفروض مرفوض من حيث المبدأ والأساس.

وفي دائرة الحوار مع «الآخر» قد يكون هذا الآخر فرداً وقد يكون جماعة،

وفي الحالتين قد يكون مؤمناً، وقد يكون كتابياً وقد يكون كافراً. الآخر المؤمن هو للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً. والآخر الكتابي في المجتمع الإسلامي هو في ذمة المسلم والرسول يقول: «من آذى ذمياً فقد آذاني». أما الآخر الكافر، فالعلاقة معه مبنية على قاعدة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝﴾[1]. وفي كل الحالات فإن العلاقة بين المسلم والآخر يختصرها الحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول محمد ﷺ: «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه».

وعندما يرسي الإسلام القاعدة الشرعية بأن: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾[2] فإنه يعطي الآخر الفرصة ليعمل عقله وفكره على الإيمان بالحقيقة الإلٰهية، حتى إذا توصل إليها كان الإيمان بالاقتناع وبالاختيار وليس بالفرض وعلى ضوء هذه البداهة العقلية.

يقول: المطران جورج خضر[3]: «إن صاحب الحقيقة لا يطوع أحداً، لأن التطويع يعني عبادة لأناه لا عبادة للحقيقة»، وهو يرى أيضاً أن: «شرط بروز الآخر فيك بساطتك، وهي الاطمئنان إلى أنك موجود لأن الله يراك. والبساطة تنشىء في الآخر نقاوة تجعله يعطيك ليس فقط خير ما عنده ولكن يعطيك نفسه، وهذا يكون إذا جعت إليه وجاع إليك لتأتي منه ويأتي منك، أي ليؤتي كل منكما الآخر نوراً إلٰهياً يعيش فيه؛ أي إن الأنا تشرق من الآخر». ذلك هو الإيمان القوي المناقض لذلك النوع من الإيمان الذي يبلغ في تقوقعه درجة من التسلط يلغي معها الآخر، ويسد منافذ الإشراق، ويعتم على ذاته حتى يفقد القدرة على الرؤية فتنقطع مع أوصال الحب، نابذاً ما لا يعرف، متعصباً لما يعرف، معتبراً أنه وحده يملك الحقيقة المطلقة وأنه يشكل الفرقة الناجية.

في ضوء تلك المقدمات البديهية التي يقول بها مفكر معاصر هو في الحوار «الأنا» أو «الآخر» يجدر بنا وإن كان من نافلة القول التذكير بأن رسول الله محمد ﷺ صنف المؤمن بأنه قوي أو ضعيف، وفضّل القوي على الضعيف. ولكن ما هي مقومات القوة والضعف في الإيمان؟ طبعاً لا يتعلق الأمر هنا بالقوة

---

(١) سورة الكافرون، الآية: ٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٣) جريدة النهار، ١٣ـ ١٧، ١٩٩٦.

البدنية وإن كان لا ينفيها بالضرورة، ولكنه يتعلق بمفهوم الإيمان وصفاته، وبكيفية ممارسته في الحياة العامة؛ ذلك أن الإيمان هو مدرسة الحياة من حيث إنه يُنظم علاقات الناس على أسس وعلى قواعد مستمدة من تشريع إلٰهي يكون في حد ذاته طريقاً إلى الآخرة.

إن الإيمان الانغلاقي لاجتهاد يواكب متغيرات العصر ومستحدثات الحياة، ومقفل في وجه الآخر فكراً ومعرفة، وأحياناً مصادرة لكل ما يحمله معه الآخر من مفاهيم هو إيمان ضعيف معرض للاهتزاز وللانهيار بمجرد أن يتسرب إليه اجتهاد مخالف للموروث ومما يرى أما الإيمان المتمسك بالمقدس من النص المتفتح على نسبية وحركية التفسير الإنساني، فإنه إيمان قوي واثق ومتجذر في العقل والقلب. . . وبقدر ما يلغي الإيمان الضعيف الآخر وينكره ويتنكر له، يقف الإيمان القوي على قاعدة ثوابته الإيمانية فاتحاً عقله للآخر محاججاً ومتعلماً ومعلماً.

في الأساس الحق واحد، كما يقول أبو الوليد الباجي في كتاب إحكام الفصول في أحكام الفصول، وأن من حكم بغيره فقد حكم بغير الحق. ولكننا لم نكلف إصابته، وإنما كلفنا الاجتهاد في طلبه. فمن لم يجتهد في طلبه فقد أثم، ومن اجتهد فأصابه فقد أجر أجرين: أجر الاجتهاد وأجر الإصابة للحق. ومن اجتهد فأخطأ فقد أجر أجراً واحداً لاجتهاده، ولم يأثم لخطئه.

يقرر الإسلام الاختلاف كحقيقة إنسانية طبيعية ويتعامل معها على هذا الأساس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[1] وفي عالمنا المعاصر المجتمعات الإنسانية متعددة الأديان والمذاهب، كالمجتمع اللبناني، مثلاً الذي يتعاظم فيه دور الأنا والآخر فالحوار يعد ركناً من أركان الاستقرار والسلم العالمي. والحوار لا يكون إلا مع الآخر، وإلا يصبح حواراً مع الذات. والآخر لا يكون إلا مختلفاً، وإلا تنتفي الحاجة إليه. لذلك فإن الركيزة الأولى للحوار هي القبول بالتعدد وبالاختلاف معاً. يشكل هذا القبول ميزة من ميزات الفقه الإسلامي. إن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨﴾[2] أي إن من العبث إلغاء الاختلاف،

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٨.

ومن المستحيل تحويله إلى وفاق مطلق، ولكن من الممكن جداً، بل من الضروري، عدم تحويل الاختلاف إلى خلاف. لقد شبَّه روجيه غارودي الإنسان[1] عن حق بأنه: «مثل موجة تسكنها جميع اندفاعات المحيط، موجة بلا حدود في محيط من الطاقة لا ضفاف له. كذلك الإنسان، فهو مسكون بجميع الآخرين. إنه جميع الآخرين».

لا يعني ذلك بالضرورة أنه لم تمر فترات من الانحطاط الفكري أُسيء خلالها فهم روح الشريعة الإسلامية، ومن ثم أُسيء تطبيق نصوصها السمحة. فقد استخدم بعض السلاطين، علماء ليفتوا للسلطان ضد حكمه، واستخدم خصوم للسلطان علماء آخرين ليفتوا ضد حكمه فكثرت فتاوى التكفير والتكفير المضاد على النحو الذي نشهد أمثلة لها اليوم في بعض الأقطار الإسلامية. ولكن هذه السقطات هي الاستثناء الخارج عن الخط العام لروح الشريعة الإسلامية؛ مما يستلزم حصرها في إطارها الزمني والمكاني، وبالظروف والعوامل المحلية التي كانت سائدة في حينه، وهي لا تنسحب على التشريع الإسلامي العام، ولا تشكل ثابتاً من ثوابته الفقهية.

ويذكر المفكر غارودي أيضاً في كتابيه: «الغرب عبارة عن حادثة»، و«حرب الأديان» أن الغربيين يعتقدون أنهم يملكون الحقيقة المطلقة، وأن من واجبهم أن يفرضوها على الآخرين بحجة أن هؤلاء غير متحضرين وجاهلين، وهذا ما لم يتوقف عنه الغرب منذ خمسة قرون متواصلة».

ويؤكد غارودي أن المسيحية كانت بالنسبة للغرب، الحقيقة المطلقة فاستخدموها لاحتلال العالم، ثم وجدوا الحقيقة المطلقة في العلم فاستخدموا التقدم العلمي وسيلة لفرض سيادتهم على العالم. والآن يضعون الحقيقة المطلقة في إطار الحداثة والتطور لمواصلة تبريراتهم السابقة بإلغاء الآخر واحتوائه وتدجينه. وهنا تكمن خطورة الآخر على «الأنا» الذي هو هنا: المسلمون وما يمثلونه.

إن من مقومات الحضارة العربية ـ الإسلامية احترام الآخر والانفتاح عليه والتكامل معه، وليس تجاهله أو إلغاؤه أو تذويبه. ويشهد تعدُد الأقليات الدينية

---

(١) روجيه غارودي، «نحو حرب دينية»، ص ٩٦.

والإثنية في العالم الإسلامي ومحافظتها على خصائصها العنصرية وعلى تراثها العقدي والديني، على هذه الحقيقة وأصالتها. وفي ضوء ما عرضنا له من مجتمعات المسلمين في الشرق والغرب يقوم شاهداً على أن اعتراف الإسلام بالآخر ومحاورته بالتي هي أحسن وقبوله كما هو، لا يعود بالضرورة إلى سماحة المسلمين، إنما يعود في الأساس إلى جوهر الشريعة الإسلامية، عقيدة وقيماً.

إن هدف الحوار ليس إقناع الآخر بأن يكفَّ عن أن يكون نفسه. إن الهدف على العكس من ذلك هو محاولة اكتشاف الآخر في عمقه لتمكينه من أن يُسهم بفكره وبتجربته الخاصة، وبإيمانه في بلورة الحقيقة وتكاملها، ومن ثم للعمل معه، وكأن العمل له تحقيقاً لحب هو في ذاته أسمى تجليات العلاقة مع الآخر.

العلاقات الإسلامية ـ المسيحية

هناك سلبيتان ترسمان صورة الواقع المعاصر للعلاقات الإسلامية ـ المسيحية، السلبية الأولى مسيحية غربية، وهي تتمثل في:

أولاً: تزايد الشعور عند المسيحيين العرب بأنهم يتحوَّلون من جسر حضاري وثقافي بين الشرق والغرب إلى رهائن في عالم عربي يتراجع فيه الشعور بالانتماء القومي لمصلحة الشعور بالانتماء الديني.

ثانياً: استمرار العالم الغربي في تعامله مع المسيحية العربية على أنها موجودة في الجانب الخطأ من خط التقسيم الحضاري، ومن ثم فإن العلاقات الغربية ـ العربية تدفع باتجاه القفز من فوق المسيحية العربية متجاهلة أكثر فأكثر حقائق أصالتها وشهادة وجودها ومعنى استمرارها، وهي في بعض الأحيان تحاول استغلالها متجاوزة مصالحها، وغير مراعية لمشاعرها الروحية ولانتمائها القومي.

ثالثاً: محاولة علاج هذين الأمرين السابقين بكيفية تؤدي إلى استفحالهما. فالمسيحية العربية تهرب من الواقع إلى تأشيرة الهجرة إلى الولايات المتحدة أو كندا أو أستراليا أو أمريكا اللاتينية أو أوروبا الغربية؛ والعالم الغربي يبادر إلى ترتيب علاقاته مع الأقطار العربية ومع إسرائيل على هذا الأساس.

إذا أخذنا الحضور المسيحي العربي في القدس مقياساً، ندرك الحجم المأساوي لتراجع هذا الحضور وأبعاده؛ ذلك أن دفع المسيحية العربية إلى الهجرة من المدينة المقدسة على النحو الذي يجري بشكل متعمَّد ومبرمج منذ احتلالها في عام ١٩٦٧، سوف يؤدي ليس فقط إلى استضعاف الحضور المسيحي والعربي، بل قد يؤدي أيضاً، وتبعاً لذلك، إلى تمرير معادلة للتسوية تقوم على قاعدة تفاهم إسلامي ـ يهودي يكون على حساب التفاهم الإسلامي ـ المسيحي العربي وعلى أنقاضه.

أما السلبية الثانية: فإسلامية ـ عربية، وهي تتمثل في:

أولاً: انحسار مسافة التمييز في الثقافة العامة بين الغرب والمسيحية؛ وبين الصراع السياسي والاختلافات العقائدية. أدى هذا الانحسار إلى تساقط الفواصل بين مفهوم حق الدفاع عن الإسلام وجوهر العلاقة مع المسيحية، كما أدى إلى تداخل رد الفعل الاستنفاري تجاه الغرب بالموقف من المسيحية العربية، ومن ثم إلى التعامل معهما خطأ ـ أي مع المسيحية ومع الغرب ـ وكأنهما وجهان لحالة واحدة.

ثانياً: تنامي واتساع رقعة عمل الحركات السياسية التي تتخذ من الإسلام مظلة أو شعاراً لها. وذلك على الرغم من أنها في غالبيتها ليست تعبيراً صحيحاً عن أحكام الإسلام وقواعده في التعامل مع الآخر.

وفي ضوء ذلك فهناك ثلاث دوائر تجد فيها هذه الحركات ميداناً لتحركها:

الدائرة الأولى: دولية، وذلك من خلال ما تتعرض له بعض الأقليات الإسلامية في العالم الغربي من اضطهاد وقمع؛ في يوغوسلافيا السابقة وخاصة في البوسنة ـ الهرسك؛ وفي الاتحاد السوفيتي السابق، وخاصة في الشيشان وطاجكستان وقبل ذلك في أذربيجان؛ وفي أوروبا الغربية حيث ارتفعت وتيرة الحركات العنصرية المعادية للمهاجرين المسلمين من تركيا وشمال إفريقيا.

الدائرة الثانية: إقليمية، وهي تتخذ عدة أوجه، منها فرض أحكام دولية بالعقاب الجماعي مما لحق ضرراً جسيماً بحياة الناس وينتهك حقوقهم، وذلك بحجة معاقبة أنظمة سياسية سيئة. ومنها استعمال سياسة ازدواجية المنطق بين العرب وإسرائيل سواء لجهة الموقف من قرارات الأمم المتحدة أو لجهة التسلح. ولعل آخر تجليات ذلك يتمثل في الضغط على الدول العربية لتجديد التزامها بمعاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية في الوقت الذي تأكدت صحة المعلومات الدولية عن امتلاك إسرائيل ترسانة نووية ربما يزيد حجمها على ١٥٠ قنبلة[1]. ومنها كذلك، أن التسوية السياسية، التي يجري إقرارها لم تأت استجابة لمبادرة عربية أو لقناعة عربية، بل إن الدول العربية وجدت نفسها في وضع

---

(١) انظر: كتابنا «إسرائيل بين المسير والمصير» الصادر عام ١٩٧٢م عن مكتبة القاهرة الحديثة. وعند الحديث عن: إسرائيل وإنتاج القنبلة الذرية.

المضطر للتجارب تحت ضغوط معادلات ما بعد الحرب الباردة.

أما **الدائرة الثالثة:** فداخلية، وتتمثل في الصراع على السلطة في بعض الدول العربية، أو في الصراع مع السلطة في بعضها الآخر.

يتمحور الصراعان هنا حول مغالطتين كبيرتين:

المغالطة الأولى: هي اعتبار المسيحية العربية مجرَّد امتداد للغرب المسيحي. وفي الواقع فلا الغرب مسيحياً بالمعنى الديني والعقدي، ولا المسيحية العربية هي امتداد له. وعلينا نحن المسلمين العرب والعجم إدراك وتفهم هذه المغالطة.

والمغالطة الثانية: هي اعتبار المسيحيين العرب أداة أو حليفاً للسلطة الداخلية عندما تكون هذه السلطة في حالة صدام مع الحركة الإسلامية السياسية. وفي الواقع فإن للمسيحية العربية من المواقف الوطنية والمبدئية ما يتجاوز العلاقة مع السلطة على النحو الذي برز، بشكل واضح وجلي، في عدة مناسبات، وفي عدة دول عربية، وخاصة في لبنان ومصر والأردن وسوريا.

ومع ذلك فإن من الخطأ أن ينطلق رد فعل المسيحية العربية من الشعور بالأقلية؛ ذلك أن قاعدة هذا الشعور هو الخوف، والخوف يقود إلى حالة من ثلاث حالات، أو إلى الحالات الثلاث معاً. الحالة الأولى هي التقوقع والانعزال الذاتي مما يعطل دور المسيحية العربية في المجتمع العربي. والحالة الثانية هي الهجرة إلى الخارج، وفي الهجرة ضياع وتخل عن فعل الإسهام أما الحالة الثالثة فهو احتمال الوقوع بين روحي المواجهة بين الغرب والإسلام، وهي مواجهة يُفلسف لها منذ بدايات نهاية الحرب الباردة (دراسة صموئيل هانتغنون - مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية صيف ١٩٩٣).

والذي يجب أن يكون في الاعتبار هو أن يكون رد فعل المسيحية العربية جزءاً من رد فعل عربي إسلامي - مسيحي مشترك، ينطلق أولاً وأساساً من تثقيف المجتمع العربي بأن المعاناة واحدة؛ سواء من جراء الصعوبات الاقتصادية والتردي الاجتماعي، أو من جراء خيبات الأمل الوطنية، أو من جراء السلوك الغربي من حيث إنه سلوك استعلائي ليس موجهاً ضد المسلمين وحدهم بل ضد المسلمين والمسيحيين معاً كعرب وكشرقيين.

ولكي يمكن الارتفاع برد فعل المسيحية العربية إلى هذا المستوى من

المسؤولية الوطنية القومية، لا بد من العمل على تحقيق أمرين أساسيين: الأمر الأول هو بلورة ردّ فعل إسلامي يلتزم بصورة خاصة بالمهام الأساسية الآتية:

المهمة الأولى: هي رسم خط فاصل بين الإسلام كدين والاستغلال السياسي له في حركات وتنظيمات تتطلع إلى السلطة.

فالقرآن الكريم، الذي يتألف من حوالي ١٧,٤٠٠ كلمة، يحمل اللامتناهي في المعنى، ولعل هذا ما يفسر قوله تعالى:

شكَّل اللقاء مع الرسول ﷺ نفسه وفي بيته، وفي المدينة المنورة، أول لقاء حواري إسلامي ـ مسيحي في التاريخ. ويؤكد ذلك اللقاء، في ضوء أدبيات السلوك التي رافقته، وفي ضوء النتائج الفورية التي انتهى إليها، مدى الالتزام بما ورد في الآية ٢٥٦ من سورة البقرة والتي تنص على أنه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾.

وقد تواصل الحوار الإسلامي ـ المسيحي بعد ذلك في عهود متعددة، وخاصة في العهدين الأموي والعباسي، ولعل من أبرز معالمه الحوار الشهير، في القرن الثامن، بين الخليفة العباسي المهدي والبطريرك تيموثي الأول، كما تواصل في ظل أوضاع وظروف مختلفة، ولعل أبرزه الحوار الذي جرى أثناء حروب الفرنجة «الحملات الصليبية» في عام ١٢١٩ في مدينة دمياط بمصر، بين السلطان الأيوبي الملك الكامل والقديس فرنسيس، المنحدر من مدينة أسيزي في إيطاليا. وقد أطلقت منظمة سانت جيديو من هذه المدينة، وفي ذكرى القديس فرنسيس مؤسس أخوية الفرنسيسكان، حركة جديدة للحوار بين الأديان في عام ١٩٨٦م برعاية ودعم البابا يوحنا بولس الثاني.

هذا وقد شكل المجمع الفاتيكاني (٢١ تشرين الثاني، نوفمبر ١٩٦٤ـ ٢١ تشرين الأول أكتوبر ١٩٦٥) المحطة الأبرز في مسيرة الحوار الإسلامي المسيحي؛ ذلك أن المجمع تحدث، في القسم الثالث من الوثيقة التي صدرت عنه، عن الإسلام بإيجابية وانفتاح مناقضاً بذلك ما ورد في رسالة البابا الأسبق بيوس الثاني عشر في عام ١٩٥٧، والتي وصفت انتشار الإسلام في إفريقيا بأنه «خطر على الكنيسة»، كما وصفت الحضور الإسلامي العالمي بأنه حضور كارثي

لا يقل خطراً عن الشيوعية[1]، وقد جاء في دراسة أعدها الأب جوزف كوك ولويس غارديه وقدَّم لها الكاردينال ماريللا المسؤول عن أمانة شؤون غير المسيحيين في الفاتيكان[2].

«يجب أن نعترف، وبكل شجاعة وصدق، أن المسلمين لم يلاقوا من العالم المسيحي إلا القليل من التعاطف والود. . . وقليلون هم الذين أولوهم العناية الكافية، بالرغم من أن الرهبان والراهبات أظهروا اهتماماً أكبر في مجالات التعليم والمساعدة والرعاية، ولكن جهودهم بقيت جزئية أمام اتساع الاحتياجات، كما أن الغربيين، المستشرقين منهم والعلماء المتخصصين بالإسلاميات، أظهروا تعاطفاً وتفهماً لكل ما يتعلق بأهداف دراساتهم، ولكن تفهمهم للإنسان وتعاطفهم معه كان أقل. . وهذا ما يأخذه المسلمون عليهم في أيامنا هذه، مع شيء من اللوم والعتاب. وحتى اليوم، وفي أكثر الأحيان، عرف المسلمون العالم الغربي من خلال الأنظمة الاستعمارية. وباختصار، يجب أن نعي بكل موضوعية، أن المسيحيين لم يحققوا بعد، كمجموعة الشرط الأول والأهم الذي يؤهلهم لأن يكونوا موجودين وحاضرين في عالم المسلمين كما هو، وعلى حقيقته».

وجاء في الدراسة التي وُضعت في الأساس لتنفيذ مقررات المجمع المسكوني الثاني أيضاً: «إن عاطفة القلب دون الروح غير كافية إذا لم يكن الذكاء يعمل في قيادته وتوجيهها، ولا يمكن استقبال الإنسان الآخر إلا إذا كنا نعرف، وأولى مهام المسيحي هي التعرف على شريكه المسلم، لا كما هو بكل بساطة بل كما يريد أن يكون، وهذه المعرفة يجب أن لا تكون معرفة عالم الاجتماع، وهي معرفة جافة وغير حارة، ولكن يجب أن تكون معرفة الصديق للصديق الذي يعمل على أن يكتشف في صديقه كل ما هو حسن وجيد، وعلى أن يحبه حباً صادقاً».

عكس هذه الروح، لأول مرة البابا بولس السادس في رسالة وجهها تحية أخوية إلى المسلمين، وذلك أثناء زيارته للقدس وعمان (مروراً ببيروت) في كانون

---

(١) Histoire Universail catholique, vol. 3-4 Paris, (1958-1959) p.176.

(٢) من أجل حوار إسلامي ـ مسيحي ـ موقف المسيحية من الإسلام كما حدده الفاتيكان ـ ترجمة د. سليم إلباني ـ زهير مارديني ـ دار الجديد، ١٩٦٣، ص ٣١.

الثاني - يناير ١٩٦٤، حيث أكد على «احترام أولئك الذين يعتنقون الأديان التوحيدية، والذين يعبدون معنا إلٰهاً حقيقاً وواحداً». أما الترجمة العملية الأولى لبيان المجمع الفاتيكاني الثاني فتمثلت في إنشاء الأمانة العامة لشؤون الديانات غير المسيحية، والتي جدد البابا يوحنا بولس السادس مهمتها في رسالة كنيسة جامعة وهي «إجراء الحوار مع كل المؤمنين لإرساء علاقات جديدة بين الكنيسة والديانات الأخرى، وعلى ضرورة التقارب بصفة خاصة مع المسلمين». دلت تلك الرسالة - لأول مرة - على أن ثمة مؤمنين بالله غير مسيحيين، وأن ثمة أدياناً غير المسيحية، كما دلت على توجه من رأس الكنيسة (البابا) حتى قاعدتها (المجمع) على ضرورة الحوار والتقارب مع المسلمين، مع ذلك لم يصدر الموقف الأكثر جرأة والأكثر وضوحاً إلا في عهد البابا يوحنا بولس الثاني الذي اعترف بأن الخلاص ليس وقفاً على المسيحية وحدها، وأن الخلاص يمكن أن يتحقق من خلال أديان أخرى مستنداً في ذلك على دراسة أعدتها مجموعة من علماء اللاهوت أمثال «رانير» و«فون بالتزار» و«دي لوباك» و«دانيال».

فتح هذا الموقف الفاتيكاني بوابات الكنائس الأخرى على الإسلام، ولعل أهمها بوابة مجلس الكنائس العالمي (مقره في جنيف) الذي أنشأ في عام ١٩٧١ دائرة للحوار مع الأديان، وخاصة مع الإسلام. وكان المجلس قد أقام في آذار - مارس ١٩٦٩ أول مؤتمر له في بلدة كارتيني - Cartigny - قرب جنيف خُصص لموضوع الحوار بين الأديان على المستوى العالمي. وبعد عشر سنوات، في عام ١٩٧٩، صدرت عن المجلس وثيقة تضمنت المبادئ العامة للحوار مع أهل الأديان الحية حاولت إبراز القضايا الفقهية - اللاهوتية والقضايا العملية للحياة المشتركة بين المؤمنين بالأديان المختلفة. وهذه المبادئ هي[١]:

١- على الكنائس إيجاد السبل لتمكين الجماعات المسيحية من الدخول في حوار مع جيرانها من المؤمنين بديانات وعقائد مختلفة.

٢- يجب الإعداد للحوار معاً.

٣- على المشاركين في الحوار أن يأخذوا بالاعتبار الموروث الديني والثقافي والتنوع العقدي الخاص بكل منهم.

---

(١) Meeting with faith, compiled by stuart E. Brown, W.C.C, Geneva, 1989, p.VIII.

٤ـ على المشاركين في الحوار أن يتمتعوا بحرية التعريف عن أنفسهم.

٥ـ على الحوار أن يحرك الجهود الثقافية في المجتمع.

٦ـ يكون الحوار مهماً للغاية عندما يجعل المتحاورون من حياتهم جزءاً منه.

٧ـ يتحتم متابعة الحوار من خلال قيام مؤسسات مشتركة في المجتمع.

٨ـ على المشاركين في الحوار التنبه لالتزاماتهم العقدية.

٩ـ على المشاركين في الحوار التنبه لانتماءاتهم الثقافية.

١٠ـ على الحوار إثارة مسألة المشاركة في الاحتفالات: الطقوس والعبادة والتأمل.

١١ـ يتحتم التخطيط للحوار وتنفيذه بصورة جماعية عندما يكون ذلك ممكناً.

١٢ـ يتطلب التخطيط للحوار وضع أسس عامة له، محلية وإقليمية.

١٣ـ يمكن دعم الحوار من خلال المشاركة الانتقائية في اللقاءات والمنظمات المتعددة الأديان.

تتابعت اللقاءات والمؤتمرات والندوات الإسلامية المسيحية[١]، وانعكست إيجاباً على موقف مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك، الذي أصدر رسالة راعوية[٢] قال فيها:

«يعود الحضور المسيحي في معظم البلدان العربية إلى نشأة المسيحية. ويشهد التاريخ على وجود جماعات مسيحية عربية في مختلف مناطق الشرق. وبمجيء الإسلام في القرن السابع بدأ تاريخ مشترك جمع بين المسيحيين والمسلمين في الشرق العربي، وحضارة مشتركة ورثت جميع الحضارات السابقة في هذه البلاد. وقد أدت خبرة الماضي بالمسلمين والمسيحيين إلى الانصهار في بوتقة واحدة هي الحضارة العربية، مع احتفاظ كل منهم بأصالته الدينية

---

(١) راجع: البيانات المسيحية ـ الإسلامية المشتركة من ١٩٥٤ إلى ١٩٩٢ معهد الدراسات الإسلامية ـ المسيحية، جامعة القديس يوسف ـ بيروت ـ ١٩٩٥.

(٢) معاً أمام الله في سبيل الإنسان والمجتمع ـ العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين في العالم العربي. مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك ـ الأمانة العامة ـ بكركي ـ ١٩٩٤.

وخصوصيات تقاليده. ويشكل هذا التراث الحضاري المشترك ضماناً لاستمرارية التفاعل الذي يواجه اليوم مستجدات لا بد من استيعابها، وإمكانات لا بد من بلورتها، وتحديات لا بد من مواجهتها، وهذا كله يفتح الأبواب واسعة أمام مستقبل هذه الخبرة بكل حيويتها وأصالتها».

«ظهر التلاقي الإسلامي المسيحي في الماضي على المستويين الثقافي الشعبي. أما على المستوى الثقافي فقد تعاون رجال العلم المسلمون والمسيحيون، وعملوا جنباً إلى جنب لإرساء أركان حضارة مشتركة، تحولت فيما بعد إلى منارة للإنسانية طيلة عصور كثيرة متعاقبة، وهذا إرث نفتخر ونعتزّ به، لأنه مرجع من مراجع تأصلنا وأصالتنا وغنى عيشنا المشترك».

والجدير ذكره والذي يجب أن ننبه إليه هو أنه عندما وجدت اللغة العربية طريقها إلى الجماعات المسيحية في منطقتنا، على اختلاف انتماءاتها الكنسية، أصبحت في الغالب وبسرعة أداة تعبيرها اللاهوتي والكنسي والطقسي واليومي، وهذا ما أسهم في بناء جسور التواصل بينها وبين العالم الجديد الذي نشأ، كما أسهم في الوقت عينه، في إعادة التواصل الثقافي بين مختلف كنائسها، بعد عهد من القطيعة والغربة.

«إن التراث العربي المسيحي هو الوجه المشرق لهذا الغنى الثقافي في الكنائس المسيحية المختلفة في ظل الحضارة العربية. ولا بد من القول إن جزءاً كبيراً من هذا الفكر نما وترعرع في علاقته بالإسلام، وهذا يعطيه طابعه الخاص والمميز ضمن التراث المسيحي العام. ولقد أتاح التسامح الديني السائد في الحضارة العربية والإسلامية قيام حوارات دينية جادة بين مسلمين ومسيحيين تجدر الإشارة إليها بالرغم من روح الجدل العقيم الذي اتسم بها بعضها أحياناً».

«وأما على المستوى الشعبي، فقد اندمج المسيحيون والمسلمون في مجتمع واحد يتقاسمون فيه «العيش والملح»، ويقف الواحد منهم إلى جانب الآخر في السراء والضراء، في ظل قيم مشتركة وأنماط جيدة خاصة تجمعهم وتوحدهم...».

توج هذه المسيرة بيان الإرشاد الرسول الذي أذاعه البابا يوحنا بولس الثاني من بيروت في أيار ـ مايو ١٩٩٧، أثناء زيارته الرسمية للبنان، والتي جاءت في إطار المرحلة الأخيرة للمؤتمر الراعوي من أجل لبنان ـ السينودس ـ الذي عقد

في الفاتيكان بدعوة من الباب وبرئاسته في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٩٤. يقول البيان(١):

«هناك عدد من القيم الإنسانية الروحية الراهنة تجمع بين الإسلام والمسيحية، وقد أوجز أهمها المجمع الفاتيكاني الثاني، بقوله: «تنظر الكنيسة بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد، الحيَّ القيوم، الرحمٰن القدير، الذي خلق السماء والأرض، وكلم الناس. إنهم يسعون بكل نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله، وإن خفيت مقاصده، كما سلم الله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه. وإنهم، على كونهم لا يعترفون بيسوع إلٰهاً، يكرمونه نبياً، ويكرمون أمه العذراء مريم، مبتهلين إليها أحياناً بتقوى. ثم إنهم ينتظرون يوم الدين الذي يجازي فيه الله جميع الناس بعدما يبعثهم أحياء. من أجل هذا يقدرون الحياة الأبدية، ويعبدون الله خصوصاً بالصلاة والصدقة والصوم».

«لقد كانت العلاقات بين الكاثوليك والمسلمين في لبنان شاقة في مناسبات مختلفة، وقد تكون اليوم أيضاً، في نظر بعض المواطنين اللبنانيين، متسمة بالحذر بسبب ما حدث أحياناً من سوء تفاهم غذته ذكريات مؤلمة. وهناك أحكام راسية في عمق الذهنيات تسهم في استمرار انعدام الثقة المتبادل، وهناك أيضاً بروز أشكال متنوعة من التطرف تبعث على القلق، ولا يمكن إلا أن يسيء إلى وحدة البلد، ويوقف الاندفاع الجديد الذي يجب إيلاؤه إياها، ويعيق العيش المشترك بين كل الفئات التي تكون مجتمعه».

هذا ما صدر أخيراً من الآخر بعد أربعة عشر قرناً على ظهور الإسلام نتيجة مقدمات تاريخية حضارية أسهم فيها المسلمون بروح التسامح والمحبة في بناء تراث إنساني مشترك تمثل في حرية الاعتقاد وممارسة الآخر لعقيدته وشعائر دينه في آمن وأمان.

وهنا يتواصل العرض الفكري التاريخي العقدي الذي يحمله الآخر «الإسلام» عن (الآخر) غير المسلمين من فكر واعتقاد؟؟

---

(١) جريدة النهار ١٣/٧/١٩٩٧.

حديث القرآن الكريم عن المسيح وأمه

يمكن القول وبغير تجاوز أن حديث القرآن الكريم عن المسيح وأمه عليهما السلام بلغ في التعريف بهما ذروة الكمال والسمو بحيث يتعذر أن يوجد كتاب غيره أضفى عليهما من القداسات ما جاء في القرآن الكريم، فعن مريم العذراء وقدسيتها والمسيح واصطفاؤه تتعانق الآيات في صورة بيانية أخاذة[1]: يقول سبحانه جل من قائل: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[2].

اصطفاه الله لها وتطهيره إياها:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾[3].

الملائكة تبشرها بالمسيح:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ

---

(١) «معجم الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم»، تصنيف د. عبد الصبور مرزوق، ج ـ١، دار الشروق، القاهرة ـ ١٩٩٥م.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ٣٥ ـ ٣٧.

(٣) سورة آل عمران، الآيات: ٤٢ ـ ٤٤.

وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾[1].

نبأ القرآن عن الروح الذي تمثل لها بشراً سوياً يقول سبحانه:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾[2].

حزنها وعزلتها بعد ظهور الحمل:

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾[3].

رعاية الله لها:

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾[4].

عودتها إلى قومها وظنهم بها الظنون:

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾[5].

الصبي يبرىء الأم:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٤٥ ـ ٤٧.

(٢) سورة مريم، الآيات: ١٦ ـ ٢١.

(٣) سورة مريم، الآيتان: ٢٣، ٢٢.

(٤) سورة مريم، الآيات: ٢٤ ـ ٢٦.

(٥) سورة مريم، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾[1].

سيدة نساء العالمين: المحصنة القانتة:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[2].

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾[3].

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾[4].

---

(١) سورة مريم، الآيات: ٣٠ ـ ٣٣.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٤٢، ٤٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٩١.

(٤) سورة التحريم، الآية: ١٢.

المسيح عليه السلام في القرآن الكريم

التبشير بميلاده:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾(١).

إيتاؤه البينات وتأييده بروح القدس:

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾(٢).

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾(٣).

﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾(٤).

تعليمه الكتاب والحكمة وإرساله إلى بني إسرائيل:

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾(٥).

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(٦).

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾(٧).

أخذ الميثاق منه:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٤٨.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

(٧) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾[1].

آياته في الناس:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٤٩﴾[2].

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١١٠ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ۝١١١﴾[3].

عيسى عبد الله ورسوله وما هو بإله:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ﴾[4].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ﴾[5].

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝١٧٢﴾[6].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

(٣) سورة المائدة، الآيتان: ١١٠، ١١١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٧٢.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[1].

﴿۞وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾[2].

نفي مقولة أن المسيح ابن الله:

﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾[3].

﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾﴾[4].

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾﴾[5].

كفر القائلين بألوهية المسيح أو بالتثليث:

﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾﴾[6].

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾[7].

﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٧.
(٢) سورة الزخرف، الآيات: ٥٧ ـ ٥٩.
(٣) سورة يونس، الآية: ٣٠.
(٤) سورة مريم، الآيتان: ٢٩، ٣٠.
(٥) سورة مريم، الآيات: ٣٤ ـ ٣٦.
(٦) سورة المائدة، الآية: ٧٢.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾[1].

المسيح يتبرأ ممن ألهوه:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[2].

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾[3].

إرساله إلى بني إسرائيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾[4].

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾[5].

تبشيرة برسالة محمد ﷺ:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾[6].

وجوب الإيمان به وبما أنزل عليه:

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

(٢) سورة المائدة، الآيات: ١١٦ ـ ١١٨.

(٣) سورة الزخرف، الآيتان: ٦٣، ٦٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.

(٦) سورة الصف، الآية: ٦.

وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾(١).

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾(٢).

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾(٣).

مثله عند الله كمثل آدم:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾(٤).

إيمان الحواريين بعيسى:

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾(٥).

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

إنزال المائدة:

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٤.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٤) سورة آل عمران، الآيات: ٥٩ ـ ٦١.

(٥) سورة آل عمران، الآيتان: ٥٢، ٥٣.

عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ (1).

لعن الكافرين من بني إسرائيل على لسانه:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (2).

رفعه ونفي قتله أو صلبه:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (3).

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ (4).

السلام عليه في الميلاد والموت ويوم يبعث:

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ (5).

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ (6).

في ضوء هذه الآيات القرآنية الكريمة تواجه الحوار الإسلامي - المسيحي إشكاليتان فقيهتان أساسيتان. تتعلق الإشكالية الأولى بألوهية المسيح، وتتعلق الإشكالية الثانية بنبوة محمد ﷺ.

---

(1) سورة المائدة، الآيات: ١١٢ - ١١٥.

(2) سورة المائدة، الآية: ٧٨.

(3) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

(4) سورة النساء، الآيات: ١٥٦ - ١٥٩.

(5) سورة مريم، الآية: ١٥.

(6) سورة مريم، الآية: ٣٣.

فقد عقد في آذار ـ مارس ١٩٧٧، في مدينة قرطبة بإسبانيا، مؤتمر خُصص لبحث هاتين الإشكاليتين حضره أكثر من مائتي عالم إسلامي ولاهوتي مسيحي. غير أن هذا المؤتمر، الذي امتنع العلماء المسلمون العرب عن المشاركة فيه لاعتقادهم بأنه غير ذي جدوى، لم يصل إلى جل. فالإسلام يحترم يسوع المسيح ويعظمه كنبي ولكن لا يعترف به إلهاً. والواقع أن هذا الأمر كان موضع جدل لاهوتي حتى بين الكنائس المسيحية الأولى(١).

كانت هناك النظرية المونوفيزية التي ظهرت في القرن الخامس للميلاد والتي تقول بالطبيعة الواحدة للمسيح، أي إن المسيح إله كامل، وإنه إنسان كامل، وإن الطبيعتين تتجسدان فيه بطبيعة واحدة. وكان صاحبها «أوطيخا» (أوتيخوس باللاتينية) رئيس أديرة القسطنطينية، وقد راجت نظريته في كنيستي الإسكندرية والقسطنطينية أكثر من ٢٠٠ عام (٤٥١ـ ٦٨٠م). وكانت هناك النظرية النسطورية ـ نسبة إلى نسطور (السوري) (أو نسطوريوس باللاتينية). وقد شغل منصب بطريرك القسطنطينية في عام ٤٢٨، وتقول نظريته بطبيعتين منفصلتين للمسيح، وتنكر نظريته على السيدة مريم لقب أم الله. وقد حرم مجمع أفسس هذه النظرية في عام ٤٣١م.

وكانت هناك نظرية المشيئة الواحدة أو المونوتيلية التي راجت في القرن السابع، إلى أن حرمها مجمع القسطنطينية الثالث في عام ٦٨٠م.

وكانت هناك النظرية الأريوسية (نسبة إلى الكاهن المصري الليبي الأصل أريوس) التي تقول بوحدانية الله المطلقة، وبأن كل ما هو خارج الله مخلوق بإرادة الله. وتنكر الأريوسية ألوهية المسيح جملة وتفصيلاً، وتعتبره إنساناً مخلوقاً كغيره من البشر. وقد حرم مجمع نيقية، في عام ٣٢٥، هذه النظرية وأدان أريوس وحكم عليه بالكفر والزندقة، وأقر المجمع ألوهية المسيح ومساواته في الذات وفي الجوهر مع الإله الأب.

أما النظرية السائدة اليوم، فقد أقرها مجمع خلقيدونية الرابع في عام ٤٥١م (وهي مدينة في تركيا اليوم كانت تقع على ضفاف البوسفور) متبنياً الأفكار التي

---

(١) راجع:
Karem Armstrong. A. History of God, Alfred A. Knope. N.Y. 1994, p.107.

صاغها البابا ليو الأول حول ألوهية المسيح.

ويلاحظ الكاتب الروسي أليكسي جورافسكي[1] أن «المشكلة الثقافية الكبرى، التي برزت أمام تلك الشعوب الصغيرة «شعوب الشرق الأدنى» تكمن في أن العالم الإغريقي ـ الروماني اعتنق بدوره الديانة المسيحية، ثم عممها ونشرها في سياق تكييفها مع ثقافته المهيمنة أساساً. وبهذا وجدت الشعوب والأقوام الصغيرة المنتصرة في منطقة الشرق الأدنى نفسها أمام إمبراطوريتين مسيحيتين عظيمتين، حاولتا بأسلوب نوعي جديد، أن تخضعا (كالماضي) تلك الشعوب والأقوام لتأثيراتها السياسية والروحية. وقد وجدت تلك الشعوب أن الشكل الاستقلالي، المناسب لتطلعاتها، إنما يتمثل في انتهاج العقائد والمبادئ المسيحية ذات النزعات غير الأرثوذكسية. فلا السريان، ولا الآشوريون، ولا الأقباط، ولا الأرمن اعترفوا بالعقائد والمبادئ المقرة في مجمع خلقيدونية المنعقد في سنة ٤٥١م، (ولهذا أطلق على هذه الكنائس، أحياناً، تسمية الكنائس غير الخلقيدونية)، وشكلوا مقابل ذلك كنائسهم الوطنية ضمن الاتجاهات والتيارات المونوفيزية، النسطورية، وأخيراً أصحاب المشيئة الواحدة أو المونوتيلية».

«ولم تكن وراء هذه الانشقاقات الاستقلالية أسباب لاهوتية محضة، بقدر ما كانت تطلعات قومية ومصالح سياسية، حيث إن كل كنيسة في الشرق الأدنى مثلت، وفق الوصف الدقيق الذي أعطاه ج. ليرو «إثنوس» (شعب، عرق، جنس)، ملتحماً مع الدين واللغة».

مع ذلك يتساءل الدكتور محمود أيوب[2]: «هل المسيح في الإنجيل يعلمنا شيئاً نحن المسلمين؟ وهل المسيح في القرآن يعلمنا شيئاً نحن المسيحيين؟ أو بمعنى آخر: هل يمكن أن يكون السيد المسيح نقطة تلاقي في الحوار الحسن، أو الحوار الأحسن، بين المسيحية والإسلام، بما أنه هو نفسه نوع من الإظهار أو

---

(١) أليكسي جورافكسي ـ الإسلام والمسيحية ـ ترجمة د. خلف محمد الجراد، عالم المعرفة ـ الكويت ـ نوفمبر ـ تشرين الثاني ١٩٩٦، ص ١٧٦.

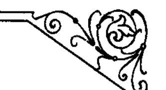
(٢) د. محمود أيوب ـ المطران جورج خضر، «نحو الجدال الأحسن: محاورات إسلامية ـ مسيحية»، مركز الدراسات المسيحية ـ الإسلامية ـ جامعة البلمند ١٩٩٧، ص ٦٢ ـ ٦٣.

الإعلان الإلٰهي في كلا الدينين؟».

«المسيح في الإنجيل هو ذلك الملك السماوي المتواضع والوديع الذي ولد في مذود. وعد الله، في القرآن، الذي استضعفوا في الأرض ليستخلفهم في الأرض وليمكن لهم دينهم، والمسيح نفسه قال: «طوبى للمساكين بالروح» (متى ٥ : ٣). فالتواضع والفقر والمسكنة أمام الله هي مبادئ هامة جداً في المسيحية والإسلام، والسيد المسيح خير مثال لهذه المبادئ الإنسانية. والقرآن كإنجيل لوقا لا يسرد ولادة المسيح كرواية عابرة ولكنه يروي ولادته بلغة احتفالية؛ أي إنه يحتفل إنجيل لوقا عندما يصف ظهور الملائكة للرعاة وإشراق النور».

«المسيح يدافع عن نفسه وهو طفل، ويعرف بنفسه عندما يقول إن الله أتاه الكتاب وجعله نبياً[1]: وهذه البركة، هي رمز التقوى والتعبد يعرضان في مواضع كثيرة صوراً ومشاهد تتعلق بالسيد المسيح. والسيد المسيح مر، بحسب الأناجيل، بتجارب إنسانية، فصام، ثم جربه الشيطان، وانتهت التجربة بانتصار المسيح عليه، ويتوج هذا كله بحادثة التجلي على الجبل عندما بهر السيد المسيح التلاميذ بآياته ومعجزاته وقد سأل المسيح، كما هو وارد في نص الإنجيل: من يقول من الناس إني أنا؟ فيجيب بطرس بمقولته الشهيرة: «أنت المسيح ابن الله الحي». والمسيح في القرآن هو أيضاً كلمة الله[2]: وهو آية للناس ورحمة من الله، وأمه آية للناس ومصدر بركة. والمسيح في الإنجيل والقرآن هو ذلك الإنسان المتألم الذي كان يطعم الجياع ويُبرىء الأكمة والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله. قد يكون قول الله[3] تصديقاً لقول السيد المسيح في الإنجيل: «ليست مشيئتي أنا بل مشيئة الذي أرسلني».

(١) سورة مريم، الآية: ٣١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.



الفصل الحادي عشر

- أصناف غير المسلمين في مجتمع المسلمين؟
- دستور العلاقة مع غير المسلمين.
- ضوابط المجتمع الإسلامية لحياة غير المسلمين.
- حرية المعتقد لغير المسلمين في مجتمع المسلمين.

أصناف غير المسلمين في مجتمع المسلمين؟

من المعروف أن غير المسلمين أصناف كثيرة، يجمعهم جامع واحد، وهو عدم الدخول في الإسلام وإن كان لكل صنف منهم اسم خاص به.

وقد جمعت الآية الكريمة في سورة الحج أسماء غالبيتهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ١٧].

وهناك آيات أخرى تتحدث عن أصناف آخرين: كالدهرية مثلاً، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وعلى ضوء ما تلهم الآيات فالصائبة هم الذين يعتقدون في الكواكب، ويؤمنون بتأثير السيارات على الكون[١] ومن ثم على مصائر الناس.

والمجوس هم عبدة النيران، القائلون بأن للعالم إلٰهين اثنين مديرين قديمين، يقتسمان الخير والشر، والنفع والضرر، والفساد والإصلاح، ويسمون أحدهما: النور والثاني الظلمة[٢].

والمشركون الذين يؤمنون بربوبية الله تعالى، ولكنهم يشركون معه غيره في العبادة، كعبدة الأوثان من العرب وغيرهم، وعبدة الشمس وعبدة الملائكة[٣].

غير المسلمين من أهل الكتاب:

وللفقهاء في تعريفهم رأيان:

الأول: رأي فقهاء الحنفية: وعندهم الكتابي هو كل من اعتقد ديناً سماوياً،

---

(١) انظر الملل والنحل (٢/ ٧١)، (٢/ ٩٥)، والجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٢).

(٢) انظر الملل والنحل (٢/ ٧١)، والجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٣).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب (٢٣/ ١٨)، والجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٣)، ورد المختار على الدر المختار (٣/ ٣٩٦). ومغني المحتاج (٤/ ٢٤٤).

وله كتاب منزل كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وشيث[1]، وزبور داود، فلا يقتصر أهل الكتاب على اليهود والنصارى فقط، بل يشمل غيرهم من أصحاب الكتب السماوية المنزلة[2].

الثاني: رأي فقهاء الشافعية والحنابلة: أهل الكتاب اليهود والنصارى دون غيرهم، فليس أصحاب صحف إبراهيم وشيث، وزبور داود ﷺ أهل كتاب، واستدلوا بالآية الكريمة: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾[3]. والآية تدل على أن الطائفتين هما: اليهود والنصارى دون غيرهم[4].

والراجح هو القول الثاني، لدلالة الآية الكريمة عليه[5].

إذ أهل الكتاب هم اليهود الذين يتبعون التوراة، والنصارى الذين يتبعون الإنجيل.

وقد سماهم الفقهاء باسم أهل الذمة. وكلتاهما تسميتان رقيقتان، الأولى منهما عامة لكل اليهود والنصارى سواء أكانوا داخل حدود الدولة الإسلامية أم خارجها، وأما الثانية فهي تختص باليهود والنصارى داخل حدود الدولة الإسلامية فقط.

وأهل الذمة تعني: أهل العهد والضمان والأمان والحرمة[6].

وفي اصطلاح الفقهاء: أهل الذمة هم المعاهدون من اليهود والنصارى، ومن في حكمهم ممن يقيم في دولة المسلمين، وسموا بذلك لأن لهم عهد الله، وعهد رسوله، وعهد جماعة المسلمين، على أن يعيشوا في حماية الإسلام، وتحت راية المجتمع الإسلامي آمنين مطمئنين[7] وهذه الذمة هي في واقع

---

(١) انظر الكامل في التاريخ (١/ ٣١).

(٢) انظر: الدر المختار على تنوير الأبصار (٣/ ٢٦٨). والفتاوى الهندية (١/ ٢٨١).

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٦.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٤٤). والمغني لابن قدامة (٦/ ٥٩٠) والمهذب (٢/ ٤٥).

(٥) انظر: أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٣٢٧).

(٦) لسان العرب (٥/ ٥٩). والقاموس المحيط (٤/ ١١٥).

(٧) انظر: بدائع الصنائع (٧/ ١١٠) وما بعدها. والمغني لابن قدامة (٨/ ٤٩٦ـ ٥٣٥).

المسلمين المعاصر اتفاقات ولاة الأمر على استحضار بعض غير المسلمين إلى مجتمع المسلمين بعقد وعهد، وإذن بالإقامة.

وهناك ضوابط وضمانات هي من جوهر تعاليم وأخلاق الإسلام في التعامل مع الآخر داخل أوطان المسلمين، من بين هذه الضمانات التي شرعها الإسلام وعمل بها المسلمون أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا[1]. ويبدو أن هذه القاعدة مستندة إلى قول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا، وأموالهم أموالنا»[2].

ويوجب الإسلام على المجتمع الإسلامي أن يؤمن لكل من كان داخل أوطان المسلمين كل ضوابط الحماية لنفسه، وماله، وعرضه، وسائر حرياته، وكذلك ضد أي نوع من أنواع الاعتداء الخارجي، وقد صرح الفقهاء بهذا في كتبهم، يقول ابن حزم[3]: «إن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة»[4].

ويقول القرافي: (. . فالرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم، على سبيل اللطف بهم، والرحمة عليهم لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال إذايتهم في الجوار مع القدرة على إزالته، لطفاً منها بهم لا خوفاً ولا تعظيماً، والدعاية لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم، إذا تعرض أحد لأذيتهم وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم لجميع حقوقهم، ولك خير يحسن من الأعلى مع الأسفل أن يفعله. . فإن ذلك من مكارم الأخلاق، فجميع ما نفعله معهم من ذلك ينبغي أن يكون من هذا القبيل، لا على وجه العزة

---

(١) انظر: بدائع الصنائع (٧/ ١٠٠).

(٢) سنن الدارقطني (٢/ ٣٥٠).

(٣) علي بن أحمد بن حزم الظاهري، ت (٦٨٤ـ ١٢٨٥م). انظر الديباج المذهب (٦٢/ ٦٧).

(٤) الفروق للقرافي (٣/ ١٤)، الفرق (١٠١٩).

والجلالة)[1].

كما حذر الإسلام بشكل واضح وقطعي من أي ظلم أو اعتداء أو أذى يقع على أي إنسان هو في ذمة المسلمين وعهدهم، فقد جاء في الحديث قول النبي ﷺ: «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة»[2].

وقوله ﷺ: «من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة»[3].

وكان الخليفة الفاروق رضي الله عنه دائم السؤال عن أحوال غير المسلمين في دولته ويسأل كل من يفد إليه من الأمصار عن أهل الذمة، فيجيبون: «ما نعلم إلا وفاء»[4].

وقد كان العلماء يوصون الأمراء والخلفاء بحسن معاملة الذميين، والإحسان إليهم، فهذا أبو يوسف[5] يكتب إلى الخليفة هارون الرشيد العباسي، يوصيه بتفقد أحوال أهل الذمة ورعايتهم، فيقول: (... وقد ينبغي يا أمير المؤمنين - أيدك الله - أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ، والتقدم لهم حتى لا يظلموا، ولا يؤذوا، ولا يكلفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم)[6].

حماية أعراض وأموال غير المسلمين:

لا يجوز في الشريعة الإسلامية إلحاق أذى بغير المسلم داخل مجتمع المسلمين بأي أذى، أو النيل منه بالشتم أو القذف أو التجريح، أو حتى في غيبته، وقد ذكر الفقهاء حرمة ذلك، والأحكام المتعلقة به في كتبهم، ومن ذلك قول فقهاء الحنفية: (يجب كف الأذى عنه «أي الذمي» وتحرم غيبته كالمسلم)[7].

---

(١) الفروق (٢/ ١٥)، الفرق (١١٩).
(٢) رواه أبو داود في سننه (٢/ ٤٦).
(٣) رواه الخطيب عن ابن مسعود، وقال حديث حسن انظر: الجامع الصغير (٢/ ٤٧٣).
(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٤٩٨).
(٥) يعقوب بن إبراهيم الحنفي ت (١٨٢هـ ـ ٧٩٨م) انظر وفيات الأعيان (٦/ ٣٧٨).
(٦) الحراج لأبي يوسف: ص ١٣٥.
(٧) الدر المختار على تنوير الأبصار (٣/ ٢٥٠).

ويقول فقهاء المالكية: (إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا لهم، لأنهم في جوارنا وفي خفارنا «حمايتنا»، وذمة الله تعالى، وذمة رسول الله ﷺ، ودين الإسلام؛ فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك فقد ضيّع ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ، وذمة دين الإسلام)[١].

وكذلك يجب على المسلمين حماية أموال غير المسلمين داخل أوطانهم وعدم الاعتداء عليها أو مصادرتها، ويظهر ذلك جلياً في كثير من المعاهدات التي كانت تُبرم بين المسلمين وغيرهم، كالعهد النبوي لأهل نجران الذي عرضنا له[٢].

وقد بلغ من رعاية الإسلام في أحكامه لغير المسلمين داخل مجتمعه أنه قد أعطاهم حرية التعامل ببعض السلع وامتلاكها، وهي في نظر الشريعة سلع يحرم على المسلم أن يتعامل بها، حيث اعتبرت الشريعة الخمر والخنزير سلعاً لا قيمة لها أبداً عند المسلمين، فلو أن مسلماً قام بإتلاف هذه السلع لمسلم، لما وجبت عليه الغرامة المالية أو التأديب؛ لأنه بفعل الإتلاف هذا إنما يتقرب إلى الله تعالى، ولكن إذا كانت هذه السلع ملكاً لذمي، وأتلفها مسلم، كان ضامناً لها، لأن المسلمين قد أُمروا بتركهم وما يدينون، وهذا رأي فقهاء الحنفية والمالكية وغيرهم[٣].

ولا يوجد خلاف بين الفقهاء في وجوب إقامة حد السرقة ـ وهو القطع ـ على المسلم إذا سرق من الذمي، وتحققت أركان وشرائط القطع، وارتكاب الجريمة، لأن مال الذمي معصوم مثل مال المسلم[٤].

ويكفل المجتمع الإسلامي للمسلم وغيره كل الاحتياجات التي يحتاجها، وبخاصة عند العجز عن العمل، وذلك تطبيقاً لحديث النبي ﷺ: «كلكم راعٍ

---

(١) الفروق (٣/ ١٤).

(٢) الحراج لأبي يوسف، ص ٧٨.

(٣) انظر الدر المختار على تنوير الأبصار (٥/ ١٤٧) وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير (٣/ ٤٤٧).

(٤) انظر: المغني لابن قدامة (٨/ ٢٦٨). وبدائع الصنائع (٧/ ٧١). ومغني المحتاج (٤/ ١٧٥).

وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته»[١]. وقوله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمٰن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[٢].

وهناك أمثلة كثيرة في تاريخ تعطف المسلمين على المحتاجين، ولو كانوا مخالفين لهم في العقيدة؛ وكما سبق القول فلقد أرسل النبي الكريم ﷺ بصدقات إلى أبي سفيان ـ زعيم الشرك بمكة المكرمة ـ، ليوزعها على فقراء المشركين لما قحطوا، وكانوا وقتها على الكفر قائمين[٣].

وإذا كان أهل الذمة يستحقون بر المسلمين وإحسانهم لأنهم من رعايا الدولة الإسلامية، فغيرهم ممن قدم إلى داخل بلاد المسلمين لتقديم علمه وخبرته، أو لتبادل المصالح وتمثيل المصالح التي بيننا وبينهم من علاقات وارتباطات وعهود ومواثيق أولى بالرعاية وصون أعراضهم وأموالهم لأنهم في ذمة المسلمين.

وعلى هذا المنهج سار المسلمون في أغلب عصورهم، مهتدين بسنة النبي ﷺ، وخلفائه الراشدين من بعده[٤].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٦٠).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٣٢٤).

(٣) انظر: لسان العرب (١/ ٣٧٢).

(٤) انظر: المرجع السابق (١١/ ١٥٩).

دستور العلاقة مع غير المسلمين

لا بد من التنويه والتأكيد على العلاقة التي نظمها الإسلام مع غير المسلمين سواء أكانوا داخل المجتمع المسلم، أم كانوا طرفاً في علاقة دولية لا تخضع للأهواء ولا للمتغيرات، إنما ينظمها دستور قواعده ومادته الأساسية تنطلق من قواعد الذكر الحكيم والتي وردت بذلك الشمول وتلك الإحاطة، والمتمثلة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝٦ ۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٦ ـ ٨].

فالآية واضحة تماماً في تحديد كيفية العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، والعلاقة قائمة على أمر أعظم من العدل ـ الذي هو إعطاء كل ذي حق حقه ـ وإنما ترتقي هذه العلاقة إلى مرحلة الإحسان ـ وهو الزيادة على الحق ـ، ولقد قدمت الآية لفظ البر الذي يعني فعل كل الخير من أي ضرب كان، على لفظ القسط، الذي يعني العدل. وهذه إشارة عظيمة تؤكد الآية الكريمة فيها إلى كيفية معاملة غير المسلمين، في حالة السلم، إنها علاقة قائمة على البر والإحسان، وهو أمر فوق العدل وفوق إعطاء الحقوق. واللافت للنظر هو أنه كيف غاب هذا البعد الأخلاقي العقدي عن العقل الغربي وهو يمارس عدوانه وبطشه بالمسلمين بعد سوء الظن، وسوء المعاملة.

ضوابط المجتمع الإسلامي لحياة غير المسلمين

مما يجب أن تنتبه له الأجيال المعاصرة أن علاقة المسلمين بغيرهم ليست بنت الحاجة السياسية أو الاقتصادية، كما أنها لا تتشكل كرد فعل من الآخر في ظل الضغوط وأساليب العصر، إنما هي ضوابط وضمانات تقوم على أصل شرعي وعقدي، الكتاب والسنة يقومان دليلاً عليها، وتشكل هذه الضمانات جملة حقائق تتصل بمنهج التعامل مع الآخر وهي في جملتها حقائق تتصل بحقوق غير المسلمين.

ومنها أن «لهم ما لنا، وعليهم ما علينا»[١]. وهذه القاعدة مستندة إلى قول سيدنا علي كرم رضي الله عنه: «إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا، وأموالهم كأموالنا»[٢].

وفي ضوء تلك الضوابط والضمانات يوفر المجتمع المسلم لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي: الحماية الأدبية والاجتماعية، بل وحتى العسكرية للدفاع عنهم إذا ما استهدفهم عدو، أي إنه يمكن القول بأن الإسلام يوجب على المجتمع الإسلامي أن يؤمن لكل من قبل بعقد الذمة، كل ضوابط الحماية لنفسه، وماله، وعرضه، وسائر حرياته، وذلك ضد أي نوع من أنواع الاعتداء الخارجي، وقد صرح الفقهاء بهذا في كتبهم، يقول ابن حزم[٣]: «إن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ

---

(١) انظر: بدائع الصنائع (٧/ ١٠٠).

(٢) سنن الدارقطني (٢/ ٣٥٠).

(٣) علي بن أحمد بن حزم الظاهري، ت (٤٥٦هـ - ١٠٦٤هـ)، انظر وفيات الأعيان (٣/ ٣٢٥).

فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة»[1] ويؤكد هذا المعنى الإمام القرافي حيث يقول[2]: «فالرفق بضعيفهم، وسدّ خلّة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم، على سبيل اللطف بهم، والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال إذايتهم في الجوار مع القدرة على إزالته، لطفاً منا بهم، لا خوفاً ولا تعظيماً، والدعاية لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم، إذا تعرض أحدٌ لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم لجميع حقوقهم، وكل خير يحسن من الأعلى مع الأسفل أن يفعله... فإن ذلك من مكارم الأخلاق، فجميع ما نفعله معهم من ذلك ينبغي أن يكون من هذا القبيل، لا على وجه العزة والجلالة»[3].

ولعل أروع الأمثلة على ذلك في التاريخ الإسلامي، هو موقف القائد أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه من أهل حمص، حينما ردّ إليهم الأموال التي دفعوها للجيش الإسلامي، مقابل حمايتهم من الاعتداء الخارجي، بسبب انسحاب المسلمين من حمص، وعجزهم عن حماية أهلهم غير المسلمين من الاعتداء الخارجي[4].

ومن الأمثلة والشواهد التاريخية التي تدل على حرص المسلمين على حماية أهل الذمة، موقف شيخ الإسلام ابن تيمية[5]، حينما استولى التتار على الشام، وأراد ملكهم أن يحرر الأسرى المسلمين فقط، فإذا بالإمام ابن تيمية يعترض أشد الاعتراض، ويطالب بتحرير كل الأسرى، المسلمين والنصارى على السواء، موضحاً: بأننا لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسرى من المسلمين وغير المسلمين لأنهم أهل ذمتنا، ولا ندع أسيراً، لا من أهل الذمة، ولا من أهل الملّة، بل أوجب الشيخ الإمام على المسلمين متابعة القتال حتى يتم تحرير الجميع، فلمّا

---

(١) الفروق للقرافي (٣/ ١٤)، الفرق (١١٩).

(٢) أحمد بن إدريس القرافي، ت (٦٨٤هـ ـ ١٢٨٥م). انظر الديباج المذهب (٦٢/ ٦٧).

(٣) الفروق (٣/ ١٥)، الفرق (١١٩).

(٤) انظر: الخراج، لأبي يوسف (ص ١٤٩). وفتوح البلدان (ص ١٤٣).

(٥) أحمد ابن تيمية، ت (٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م). انظر: الدرر الكامنة (١/ ١٤٤).

رأى ملك التتار ذلك أطلق سراً جميع الأسرى لديه[1]. هذا وقد أوجب الإسلام على المسلمين حماية دماء ونفوس غير المسلمين، وحذر وبشكل واضح وقطعي من أي ظلم أو اعتداء أو أذى يقع على أي إنسان هو في ذمة المسلمين وعهدهم.

فقد جاء في الحديث قول النبي ﷺ: «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة»[2].

والسؤال الذي لا بد منه هل يدرك الحاقدون على نبي الإسلام هذا البعد الإنساني الرفيع، وعلى نفس الإيقاع الإنساني العظيم يقول ﷺ: «من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة»[3].

وكان الخليفة الفاروق رضي الله عنه دائم السؤال عن أحوال غير المسلمين في دولته، ويسأل عن كل من يفد إليه من الأمصار عن أهل الذمة، فيجيبون: (ما نعلم إلا وفاء)[4].

فحماية الدماء والأبدان حق مقرر لأهل الذمة من القرآن والسنة، وقد اتفق ولاة الأمة وفقهائها بدون خلاف في أي عصر أو مصر على أن دماء وأموال وأعراض غير المسلمين في مجتمع المسلمين معصومة ومصونة وقتلهم محرم بالإجماع، لقول النبي الكريم ﷺ: «من قتل نفساً معاهداً لم يُرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً»[5].

وأهل الذمة من المعاهدين مع أهل الإسلام، ولهم ذمة الله وذمة رسوله ﷺ.

ولهذا اعتبر الفقهاء قتل الذمي من الكبائر، بل وقد ذهب بعض أئمة وعلماء المسلمين إلى وجوب قتل المسلم بالذمي[6]، ومنهم الحنفية[7] على حين يرى كل

---

(١) انظر: الرسالة القبرصية (ص ٤٠).

(٢) رواه أبو داود في سننه (٢/ ٤٦).

(٣) رواه الخطيب عن ابن مسعود، وقال: حديث حسن، انظر: الجامع الصغير (٢/ ٤٧٣).

(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٤٩٨).

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٩٤).

(٦) انظر: مغني المحتاج (٤/ ١٦)، والمحلي (١٠/ ٣٤٧).

(٧) انظر: بدائع الصنائع (٧/ ٢٣٧). والدر المختار على تنوير الأبصار (٥/ ٣٤٢).

من الإمام مالك والليث رضي الله عنهما أنه يقتل المسلم بالذمي، إذا قتله غيلة[1].

وكان العلماء يوصون الأمراء والخلفاء بحسن معاملة الذميين، والإحسان إليهم، فهذا أبو يوسف[2] يكتب إلى الخليفة هارون الرشيد العباسي، يوصيه بتفقد أحوال أهل الذمة ورعايتهم، فيقول: (. . .وقد ينبغي يا أمير المؤمنين ـ أيدك الله ـ أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ، والتقدم لهم حتى لا يُظلموا، ولا يُؤذوا، ولا يكلفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم).

بل لقد كان بعض العلماء يقف في وجه كل أمير يبدر منه أي خطأ أو إساءة في حق أهل الذمة؛ فمن ذلك إنكار الإمام الأوزاعي[3] على الوالي العباسي صالح بن علي، عندما أجلى قوماً من أهل الذمة من جبل لبنان، فكتب إليه قائلاً: (. . .وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه، ممن قتلت بعضاً، ورددت باقيهم إلى قراهم، ما قد علمت؛ فكيف تُؤخذ عامة بذنوب خاصة؟! حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم، وحكم الله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النجم: ٣٨]. وهو أحق ما وُقف عنده، واقتُدي به، وأحق الوصايا أن تحفظ وتُرعى وصية رسول الله ﷺ، فإنه قال: «إلا من ظلم معاهداً، أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه»[4]، [5].

والسؤال هل نجد في العالم المتحضر ابن «المحارب الآلي» الذي يقتل الأبرياء العزل، صوت مفكر، أو أديب على كثرة لجان وهيئات ومؤسسات حقوق الإنسان المدعاة وعبر المنابر والهيئات صوت إنسان رحيم يشفق على المعذبين في الأرض من أبناء المسلمين ونسائهم ليقول لزمرة المحاربين من تجار موت المسلمين: رفقاً بالضعفاء فالأيام دول.

إن المؤلم حقاً أن يقلب المسلم صفحات تاريخه وأوراق دينه، فإذا به

---

(١) انظر: بداية المجتهد (٢/ ٣٩٥).

(٢) يعقوب بن إبراهيم الحنفي، ت (١٨٢هـ/ ٧٩٨م). انظر: وفيات الأعيان (٦/ ٣٧٨).

(٣) الخراج لأبي يوسف (ص ١٣٥).

(٤) عبد الرحمٰن بن عمرو الأوزاعي، ت (١٥٧هـ/ ٧٧٤م). انظر: وفيات الأعيان (٣/ ١٢٧).

(٥) رواه أبو داود في سننه (٢/ ٦٤).

يطالع أنه لا يجوز في الشريعة الإسلامية إلحاق أي أذى بأيّ ذمي، أو النيل منه بالشتم أو القذف أو التجريح، أو حتى غيبته، وقد ذكر الفقهاء حرمة ذلك، والأحكام المتعلقة به في كتبهم، كثيرة ومن ذلك قول فقهاء الحنفية: (يجب كفّ الأذى عنه [أي الذمي] وتحرم غيبته كالمسلم)(١). ويعقب الشارح ابن عابدين(٢) إمام الحنفية العملاق على ذلك بقوله بأنه بعقد الذمة وجب له ما لنا، فإذا حرمت غيبة المسلم حرمت غيبته، بل قالوا: إن ظلم الذمي أشد(٣).

ويقول فقهاء المالكية: (إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا لهم، لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا [حمايتنا]، وذمة الله تعالى، وذمة رسول الله ﷺ، ودين الإسلام؛ فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك فقد ضيّع ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ، وذمة دين الإسلام(٤).

هذا ويلحق بحماية الأبدان والأعراض، ومراعاة أدبياتهم وعقائدهم، حماية أموالهم ونرى ذلك أوضح ما يكون في كثير من المعاهدات التي كانت تُبرم بين المسلمين وغيْرهم، فمنها عهد النبي ﷺ لأهل نجران الذي سبق وأن عرضناه بعد أن زاره وفد من مسيحي نجران في بيته ﷺ والذي جاء فيه: «ولنجران وحاشيتها جوار الله تعالى وذمة محمد النبي رسول الله ﷺ، على أموالهم، وأرضهم، وملتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير(٥).

وأهل الذمة هم أولى بالبر والصلة لأنهم من رعايا الدولة الإسلامية ومساعدتهم حال العجز من بيت مال المسلمين أمر قد أجمعت عليه الأمة(٦).

وواقعة الخليفة عمر الفاروق رضي الله عنه عند مقدمه الجابية بدمشق، أشهر من أن تذكر فقد مر بقوم مجذومين من النصارى، فأمر أن يعطوا من الصدقات، وأن

---

(١) فتوح البلدان (ص ١٦٧).
(٢) الدر المختار على تنوير الأبصار (٣/ ٢٥٠).
(٣) محمد أمين بن عابدين الدمشقي، ت (١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م). انظر: الأعلام (٦/ ٤٢).
(٤) انظر: رد المختار (٣/ ٢٥٠).
(٥) الفروق (٣/ ١٤). الفرق (١١٩).
(٦) الخراج لأبي يوسف (ص ١٥٦).

يجري عليهم القوت[1].

وقصته رضي الله عنه مشهورة مع اليهودي الذي رآه على باب متسولاً، وهو يقول: شيخ كبير، ضرير البصر. فقال له عمر: ما ألجأك إلى هذا؟ قال: الحاجة والجزية. فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله، وأعطاه شيئاً، ثم أرسل إلى خازن بيت المال، قائلاً: انظر هذا وأمثاله، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، وقرأ الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾ [التوبة: ٦٠]. وقال: الفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ثم وضع عنه الجزية وعن ضربائه[2].

ومن تلك الأمثلة أيضاً كتاب الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عامله في البصرة عدي بن أرطأة: (أما بعد.. فانظر أهل الذمة فارفق بهم، وإذا كبر الرجل منهم، وليس له مال، فأنفق عليه، فإن كان له حميم فَمُرْ حَميمه ينفق عليه)[3].

---

(١) انظر: أحكام الذميين والمستأمنين (ص ١٠٤).

(٢) انظر: الخراج لأبي يوسف (ص ١٣٦).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٨٠).

حرية المعتقد لغير المسلمين في مجتمع المسلمين

يمكن القول إننا وصلنا بعد هذه المقدمات إلى «بيت القصيد» حرية المعتقد لغير المسلمين في مجتمع المسلمين، قضية القضايا التي تعامل مع المسلمين حولها الغرب المعاصر على أن الإسلام دين عنصري منغلق متعصب لا يحترم عقائد الآخرين حتى ولو كان لهم شبهة كتاب. والدافع والحقيقة التاريخية التي سقناها عبر نماذج لدول وأمصار في عصور متباينة سعد فيها غير المسلمين بكامل حريتهم الدينية وممارسة شعائرهم تحت حماية وأمن ولاة وخلفاء الأمصار الإسلامية بدءاً من بناء مدارس وكنائس وأحياء أعياد وإنشاء جامعات، بحيث يمكن القول بأن حرية المعتقد، وممارسة الشعائر، وصون أماكن العبادة من قبل سلطات المجتمع الإسلامي مما لا يحتاج إلى تدليل أو برهان لأن النصوص الإسلامية واضحة جلية في الإقرار بحرية الاعتقاد لكل الناس، فلا إكراه لأحد على اعتناق الإسلام، وإن كان يدعوهم إليه، ويرغبهم فيه، والدعوة إلى دخول الإسلام، والإكراه عليه، أمران متضادان تماماً. فالأول: جائز مشروع. والثاني: حرام ممنوع. وفي تقرير ذلك والتدليل عليه:

يقول الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]. ويقول أيضاً: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ويقول أيضاً: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩].

ومن القواعد الأساسية في معاملة غير المسلمين، ضمن هذا الإطار، قاعدة (نتركهم وما يدينون)[1].

---

(١) مروي من كلام سيدنا علي رضي الله عنه. انظر: تكملة فتح القدير (٧/ ٣٩٨).

والشواهد التاريخية على هذه القضية كثيرة، منها عهد النبي ﷺ إلى يهود المدينة الذي ذكرنا بعض أهم بنوده وعناصره والذي جاء فيه: «...لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم»[1]. ورسالته ﷺ إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه في اليمن، والتي جاء فيها: «ولا يُفتتن يهودي عن يهوديته»[2]. وأيضاً عهد النبي ﷺ إلى أهل نجران، الذي جاء فيه: «...ولا يُغيَّر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليه دنية»[3]. وقد حُفظ رجال الدين من سطوة الحروب، فقد جاء في الحديث النهي عن قتل أصحاب الصوامع، أي رجال الدين والرهبان والعبّاد، تطبيقاً لمبدأ عدم الإكراه في الدين، حيث قال ﷺ: «...لا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع»[4].

وفي خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بجيوشه التي وجهها لتحرير العراق والشام، جاء قوله: «...وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له»[5]. وذلك على الرغم من النعي القرآني على بدعة الرهينة التي ابتدعها النصارى، لكنها أخلاق الإسلام التي تحترم سلوك وعبادة الآخر، حتى ولو كانت مرفوضة في عقيدة الإسلام ما دام لا يمثل بها أذى أو عدواناً.

وجاء في عهد عمر الفاروق رضي الله عنه إلى أهل القدس ضمانة واضحة لحريتهم الدينية وحرقة معابدهم وشعائرهم جاء فيها: «هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبرئيها، وسائر ملتها؛ أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا يُنتقص منها، ولا من حيزها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار منهم»[6].

وعند دخول جيوش المسلمين مصر كان أول عمل قام به عمرو بن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٠٣).

(٢) انظر: الخراج ليحيى القرشي (ص ٧٢).

(٣) الخراج لأبي يوسف (ص ٧٨).

(٤) رواه أحمد في مسنده (١/ ٣٠٠).

(٥) تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٢٤٦).

(٦) المرجع السابق (٢/ ٤٤٩) (١/ ٤٤٩).

العاص رضي الله عنه هو ترسيخ مبدأ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وذلك بمحو كل آثار الضغط والإكراه، عن أهل مصر الأقباط، الذين تعرضوا لضغوطات شديدة من الروم، بسبب مخالفتهم في المذهب الكنسي، فأرسل عمرو رسالة إلى البطريك القبطي (بنيامين)، يدعوه فيها للعودة إلى كنيسته، بعد أن بقي متخفياً فترة طويلة من الزمن، حيث استقبله عمرو بكل حفاوة، ومنحه صلاحية إدارة شؤون طائفته(١).

ولأهل الذمة في ديار الإسلام أن يؤدُّوا شعائرهم الدينية على أكمل وجه، فحرية ممارسة العبادة، وأداء الشعائر من الأمور البديهية التي يتضمنها أي عقد أو معاهدة يبرمها المسلمون مع غيرهم.

ولعل من أوضح الأمثلة على هذا التسامح الرفيع ـ رغم أنه لم يكن هناك عقد أو معاهدة ـ هو سماح النبي الكريم ﷺ لوفد نصارى نجران، المؤلف من حوالي ستين شخصاً، بدخول مسجده الشريف، وجلوسهم فيه فترة طويلة، وعندما حان وقت صلاتهم، قاموا متوجهين إلى المشرق ليصلوا صلاتهم فقام المسلمون لمنعهم عن ذلك، إلا أن الرسول ﷺ نهاهم عن ذلك، وتركهم يصلون في طمأنينة(٢).

وجاء في عهد خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى سكان عَانَات(٣)، ما نصُّه: (... على أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاؤوا من ليل أو نهار، إلا في أوقات الصلوات، وعلى أن يُخرجوا الصلبان في أيام عيدهم)(٤).

وإن من أعظم الشواهد الواقعية على حرية المعتقد في الإسلام هو ما يُرمى الآن من أماكن العبادة: الكنائس والمعابد والأديرة، منتشرة في كل مكان من حواضر العالم الإسلامي، وهي شواهد عَيانٍ تنطق بحرية التعبد التي جاء بها الإسلام فلو أن المسلمين كانوا كغيرهم من أتباع الملل والنِّحل لما شُوهد برج كنيسة واحد، ولما سُمع صوت ناقوس.

---

(١) انظر: الأوضاع القانونية للنصارى واليهود في الديار الإسلامية (ص ٥٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية (١/ ٥٧٤).

(٣) عَانَات: مجموعة قرى قرب بيت المقدس بفلسطين. انظر: معجم البلدان (٤/ ٧١).

(٤) انظر: الخراج لأبي يوسف (ص ١٥٨).

بل إن القرآن الكريم جعل حماية المعابد وأماكن العبادة أحد الأسباب التي أبيح لأجلها الجهاد في الإسلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[1] [الحج: ٣٩ـ ٤٠].

فالآية الكريمة تدل على أنه لولا ما شرع الله تعالى للأنبياء وللمؤمنين من جهاد الأعداء لاستولى أهل الشرك والكفر على أماكن العبادة، ولتعطلت عبادة الله تعالى في تلك الأماكن، ولكنه أوجب القتال ليتفرَّغ أهل الأديان للعبادة.

فالمسلم يبذل دمه وروحه، وكل ما يملك لأجل حماية العابدين وأماكن العبادة.

يقول ابن قيمة الجوزية[2]: ([وإن الله] يدفع عن متعبَّداتهم التي أُقروا عليها شرعاً وقدراً، فهو يحب الدفع عنها، وإن كان يبغضها، كما يحب الدفع عن أربابها، وإن كان يبغضهم)[3].

وعندما أرسى الإسلام قواعد المجتمع الإسلامي؛ كان من بين أسسه نشر العلم بين كل فئات ذلك المجتمع، وكان غير المسلمين من بين أولئك الذين تم نشر العلم بينهم، وأبلغ دليل على ذلك هو كثرة الإنتاج العلمي الذي ظهر على أيدي غير المسلمين في شتى المجالات العلمية، حيث اشتهرت أسماء علماء كُثُر من غير المسلمين كانوا يعيشون ضمن المجتمع الإسلامي.

فليس في أحكام الشريعة ما يمنع غير المسلمين من حرية الفكر والتعليم، فلهم تعليم أبنائهم، وتنشئتهم وفق مبادئ وتعاليم دينهم، وكذلك إنشاء المدارس الخاصة بهم.

---

(١) الصوامع، جمع صومعة، وهي أماكن عبادة الصابئة. والبيع: جمع بِيْعَة، وهي أماكن عبادة المسيحيين. والصلوات، هي جمع أماكن عبادة اليهود. والمساجد، أماكن عبادة المسلمين، انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٧٠ـ ٧١).

(٢) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ت (٧٥١هـ/ ١٣٥٠م). انظر: الدرر الكامنة (٣/ ٤٠٠).

(٣) انظر: أحكام أهل الذمة (٢/ ٦٦٧).

ولقد سجل التاريخ هذه الحرية للفكر والتعليم لأبناء غير المسلمين في مجتمعات المسلمين فها هي مجموعات الطلبة من خارج البلدان الإسلامية تفد إلى المعاهد التعليمية في قرطبة، وبغداد والقاهرة، وكان من بين هؤلاء الطلبة عدد لا بأس به من أبناء الملوك والأمراء والنبلاء في أوروبا، حتى أن البابا (سلفستر الثاني) كان أحد هؤلاء الطلبة الذين درسوا في جامع قرطبة في الأندلس[١].

الحرية الاجتماعية لغير المسلمين:

يُقصد بالحرية الاجتماعية حرية ممارسة كل النشاطات الاجتماعية، كالأعياد والمهرجانات، والزيارات، وحسن الصلة بينهم وبين المسلمين. وعلى طول التاريخ الإسلامي وامتداده، وتحت سمع وبصر العلماء والولاة كانت سمة المجتمع الإسلامي هي التعايش السلمي والديني، بين كل طوائفه وملله، فلقد أوصى القرآن الكريم بهذا التعايش، وحثَّ عليه، في قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨].

وكان النبي ﷺ يعود مرضى غير المسلمين، ويزور جيرانه منهم، ويحسن إلى محتاجهم، ويدعوهم إلى الإسلام بكل رفق ولين[٢] ولم يكن ﷺ، يقاطع من لم يستجب لدعوته منهم وكان احتفال غير المسلمين بأعيادهم ومناسباتهم من الأمور المألوفة لدى المجتمع الإسلامي، في جو من الحرية والتسامح في حدود الآداب والضوابط العامة حيث كانت الطقوس الدينية تجري داخل المعابد والكنائس والأديرة.

وقد سجل التاريخ أن أعياد القديسين في مختلف الأديرة كانت من أكثر الأعياد نصيباً بالاحتفال في القرن الرابع الهجري، فقد ذُكر عن دير سَمَالو: (وعيد الفصح ببغداد فيه منظر عجيب، لأنه لا يبقى نصراني إلا حضره، وتقرَّب فيه، ولا أحد من أهل التطرب واللهو من المسلمين إلا قصده، للتنزه فيه)[٣].

---

(١) انظر: روح الإسلام (ص ٣٥٦).

(٢) انظر: صحيح البخاري (٤/ ٤).

(٣) انظر: الديارات (ص ١٤).

وأيضاً دير الثعالب في غرب بغداد، كان له عيد يحضره الكثيرون من النصارى والمسلمين[1]. وكذلك دير بَعَكْبَرا كان عيده الأحد الأول من الصوم، يجتمع إليه كل من هو قريب منه، من النصارى فيعيّد هؤلاء، ويتنزه هؤلاء[2].

ولم يكن قط في المدن الإسلامية أحياء خاصة باليهود أو النصارى، كما كان يوجد في أوروبا أحياء مخصصة لسكن اليهود، والتي تدعى: (الغيتو)، بل كانت بيوت المسلمين متلاصقة ومتداخلة مع غيرهم، ويشهد لهذا كلمة كان يرددها الصحابي عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وهي: (هلّا أهديتم لجارنا اليهودي)، وذلك حين يضع له خادمه طعامه[3].

ولعل من أبلغ الشواهد التاريخية أيضاً، على تلك العلاقة الاجتماعية الراقية وذلك التعايش الإيجابي الإنساني، هو ما جاء في كتاب (الكامل في التاريخ)، عن حوادث سنة (٣١٩هـ) أنه في شوّال من تلك السنة، جاء إلى مدينة تكريت في شمال العراق سيل كبير من المطر، فغرق خلق كثير من الناس، ودُفن المسلمون والنصارى مجتمعين، لا يُعرف بعضهم من بعض[4].

هذا توضيح مجمل لموقف الإسلام من غير المسلمين داخل المجتمع الإسلامي، وفي شتى مجالات الحياة الإنسانية.

والسؤال الذي قد يطرح نفسه هو: ما الذي دفع المسلمين إلى معاملة المسيحيين وغيرهم وفق هذا المنهج من الرحمة والمودة، والتعامل الإيجابي، والبعد عن التعصب والاضطهاد.

يقول الإمام الكاساني[5] في كتابه بدائع الصنائع: (...أهل الكتاب إنما تُركوا بالذمة، وقبول الجزية، لا لرغبة فيما يؤخذ منهم، أو طمع في ذلك، بل للدعوة إلى الإسلام ليخالطوا المسلمين، فيتأملوا في محاسن الإسلام وشرائعه، وينظروا فيها، فيروها مؤسسة على ما تحتمله العقول وتقبله، فيدعوهم ذلك إلى

---

(١) انظر: المرجع السابق (ص ٢٤).
(٢) انظر: المرجع السابق (ص ٩٣).
(٣) انظر: الأدب المفرد (ص ٥٢).
(٤) انظر: الكامل في التاريخ (ص ٦/ ٢١٧).
(٥) أبو بكر بن مسعود الكاساني، ت (٥٨٧هـ/ ١١٩٠م). انظر: مفتاح السعادة (٢/ ٢٤٧).

الإسلام، فيرغبون فيه، فكان عقد الذمة لرجاء الإسلام)[١].

ويقول الإمام السرخسي[٢] صاحب كتاب المبسوط: (المقصود من الجزية ليس المال، بل الدعاء إلى الدين بأحسن الوجوه، لأنه بعقد الذمة يترك القتال أصلاً، ولا يقاتَل من لا يقاتل، ثم يسكن بين المسلمين، فيرى محاسن الدين، ويعظه واعظ، فربما يسلم)[٣].

ثم إن التربية الإيمانية الراقية، والعقيدة السليمة، التي أنشأ الإسلام عليها أتباعه، وبخاصة إجلال جميع الأنبياء والمرسلين، وتقدير كل الدعوات والرسالات السماوية السابقة، واحترام الكتب المنزلة. تدعو المسلمين على عرضها على غير المسلمين بالحسنى وبالتي هي أحسن من خلق كريم ومعاملة إنسانية.

إن الاطلاع على تاريخ العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين عامة، وبين المسلمين والمسيحيين خاصة، يوضح أن الأسس التي وضعها الإسلام في معاملة غير المسلمين كانت تجعل الولاة والخلفاء والعلماء في غاية الحرص والسهر على حقوق غير المسلمين من أن تنتقص أو تهدر، أو يتعرض غير المسلمين للغبن أو الإهمال. ولعل من أوضح الأمثلة التي أشرنا إليها في صفحات سابقة موقف الإمام الأوزاعي، الذي وقفه في وجه الوالي العباسي صالح بن علي، عندما أجلى قوماً من أهل الذمة من جبل لبنان، حيث اعترض بشدة، وطالب بعودة المهجرين إلى ديارهم[٤].

ويمكن التنبيه إلى الأخطاء التي وقعت في مصر زمن الحاكم الفاطمي، حيث اضطهد أهل الكتاب، وأساء إليهما أيما إساءة[٥].

لقد كانت هذه التصرفات تصرفات فردية شاذة، وليست نابعة من أصول دينية، أو تعاليم إسلامية، حيث إنه من المعروف تاريخياً أن للحاكم هذا أخطاء

---

(١) بدائع الصنائع (٧/ ١١١).

(٢) محمد بن أحمد السرخسي، ت (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م). انظر: مفتاح السعادة (٢/ ٢٤٦).

(٣) المبسوط (١٠/ ٧٧).

(٤) انظر: فتوح البلدان (ص ١٦٧).

(٥) انظر: بدائع الزهور (١/ ١٩٨ـ ٢٠٠).

كثيرة، وأهواء مشتتة، وتناقضات صارخة في فترة حكمه، فلم يَسْلَم حتى المسلمون من بطشه وجوره وانحرافاته، فلا يمكن اعتبار تصرفات هذا الحاكم حجة على الإسلام والمسلمين[١].

وأما عامة المسلمين فقد حدثت بعض الأخطاء من قبل بعضهم في حق المسيحيين، في بعض فترات التاريخ ولكن السبب في ذلك هو أخطاء المسيحيين أنفسهم في حق المسلمين، فقد جاء في كتاب: تاريخ الحروب الصليبية، ما يلي: (وحينما ساءت أمور العرب في حروبهم مع بيزنطة.. تعرض المسيحيون لهجوم العرب، الذين غضبوا لما أظهره المسيحيون من العطف على عدو المسلمين [أي بيزنطة]، وحرص الخليفة دائماً أن يبذل تعويضاً عن الخسائر والأضرار التي وقعت)[٢].

وجاء أيضاً: (وحدث في سنة (٩٢٣- ٩٢٤م) أن دمر الرعاع الكنائس المسيحية الأرثوذكسية بالرملة وعسقلان وقيسارية ودمشق، وعندئذٍ بادر الخليفة المقتدر بمساعدة المسيحيين على عمارتها)[٣].

وكما حدث في مصر حيث هاجم العوام كنيستين في القاهرة، وقاموا بتخريبها، فما كان من الوالي إلا أن أرسل فرقة من الجيش، كفت أيدي العابثين، وأعاد إصلاح الكنيستين كما كانتا. ولليوم نرى في معظم حواضر العالم الإسلامي أنه عندما تتحرك الفتن، ويسعى المتربصون بأعداء بلاد المسلمين لإيقاع الفتنة بين المسلمين وغيرهم من مواطني تلك الحواضر، يهوداً كانوا، أم نصارى يسارع ولاة الأمر في هذه البلدان بتوجيه ومباركة من العلماء والمفتين إلى حماية وحراسة معابد غير المسلمين بجند من المسلمين.

---

(١) انظر: المرجع السابق (١/ ١٩٧) وما بعدها.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، رنسيمان (١/ ٤٩).

(٣) المرجع السابق (١/ ٥٠).



الفصل الثاني عشر

- ■ مأساة المسلمين في الأندلس.
- ■ رسائل النبي ﷺ لغير المسلمين.
- ■ حكم المسيحية في الإسلام.

مأساة المسلمين في الأندلس

المسلمون إبان حكمهم للأندلس سمحوا لعدد كبير من النصارى أن يستوطنوا برشلونة، وتواجد عدد كبير منهم في غرناطة، ولقد تمتع النصارى بقسط وافر من الحرية والتسامح من قبل أمراء بني أمية، فقد سمح لهم بالممارسة الحرة لشعائر دينهم ولم يفرض عليهم ما يضايقهم حتى لقد اعتبر يوم الأحد من كل أسبوع عطلة رسمية عند الأندلسيين جميعاً مما كان له الأثر القوي في التمازج الحضاري بين المسلمين والنصارى، وتشير الدراسات التي سبق أن أشرنا إليها في الصفحات الماضية إلى أن قربة وحدها كان بها أكثر من اثنتي عشر كنيسة كما أن المسلمين تركوا النصارى ينشئون ما أرادوا من الأديرة.

لكن اللافت للنظر والعجيب الغريب أنه بعد سقوط الأندلس، وسيطرة المسيحيين عليها، قامت حملات مكثفة باسم المسيحية، لإنهاء الوجود الإسلامي في إسبانية، والتي تمثلت فيما يسمى: (محاكم التفتيش).

ففي سنة (١١٢٣م) أنشأ البابا جريجوري التاسع، في عهد لويس التاسع ملك فرنسا محاكم التفتيش، أو ديوان التحقيق[(١)] (Inquistition).

وفي إسبانيا استجابت الملكة إيزابيلا وزوجها فرديناند لنصح راهب دومينيكي متعصب يدعى توركوبمادا، فالتمسا من البابا سكستوس الرابع إصدار مرسوم لإنشاء محاكم التفتيش، فنشأت في قشتالة سنة (١٤٧٣م) تلك المحاكم، ثم ببقية المدن الإسبانية[(٢)].

وقد صدر عن هذه المحاكم ما يسمى: (فرمان الإيمان)، حيث جُنّد بموجبه الناس، لملاحقة بعضهم بعضاً، وكان المبدأ فيه قائماً على القاعدة التالية: (لئن

---

(١) انظر: قصة الاضطهاد الديني (ص ٦٩).

(٢) انظر: المرجع السابق (ص ٧١).

يدان مئة بريء زوراً وبهتاناً، ويعانون العذاب ألواناً، خير من أن يهرب من العقاب مذنب واحد)[1].

وكانت هذه المحاكم موجهة بالدرجة الأولى ضد المسلمين، ففي نص قرار صدر باسم الملكة إيزابيلا، والملك فرديناند، سنة (١٥٠١م)، جاء: (...إنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها. فإن كان بعضهم فإنه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم، خوفاً من أن يتأخر تنصيرهم، أو بأولئك الذين نُصِّروا، لئلا يفسد إيمانهم، ويعاقب المخالفون بالموت، أو بمصادرة الأموال)[2].

وقد نصح كاردينال طليطلة، الذي كان رئيساً لمحاكم التفتيش، بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب، رجالاً ونساءً، وشيوخاً وولداناً.

ولكن الراهب الدومينيكي بليدا، أشار بضرب رقاب من تنصّر من العرب، ومن بقي منهم على دينه، وحجته في ذلك: أنه من المستحيل معرفة صدق إيمان من تنصر من العرب[3].

وفي سنة (١٥٢٤م) أصدر البابا مرسوماً يحث قضاة الديوان على تنصير المسلمين وأن يُخرجوا من يأبى النصرانية منهم من إسبانيا، وأن تكون عقوبة المخالفين الرق مدى الحياة، ثم أتبعه بمرسوم آخر جاء فيه الأمر بقلب كل المساجد إلى كنائس[4].

وفي سنة (١٥٢٥م) صدر أمر ملكي في إسبانيا يأمر المسلمين بوضع شارة زرقاء على قبعاتهم، وأن يسلِّموا أسلحتهم، ومن خالف عوقب بالجلد، وأن يسجدوا إذا مرَّ كبير الأحبار في الطريق، وألا يقيموا شعائرهم، وأن يغلقوا مساجدهم[5].

---

(١) انظر: المرجع السابق (ص ٧٣).
(٢) انظر: العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين (ص ٣٢٨).
(٣) انظر: حضارة العرب (ص ٢٧١).
(٤) انظر: العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين (ص ٣٢٩). والحروب الصليبية في المشرق والمغرب (ص ٢٥٢).
(٥) انظر: العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين (ص ٣٢٩).

وكانت نتيجة تلك الإجراءات أن حُرِّم الإسلام على المسلمين، وفُرض عليهم تركه، كما حرّم عليهم استخدام اللغة العربية، وكذا الأسماء العربية، وارتداء اللباس العربي، ومنعوا من الاغتسال ودخول الحمامات(١).

وحرقت المكتبات لمحو كل آثار ومعالم الثقافة الإسلامية، وكانت أعظم تلك الكوارث قيام الكاردينال كيمناس، سنة (١٥١١م) بإحراق الكتب الإسلامية في غرناطة، في ساحة تدعى باب الرحلة، وقد اختلف المؤرخون في أعداد هذه الكتب المحترقة، ولكن القول المتعارف عليه عندهم: إن العدد يصل إلى المليون والسبعين ألف كتاب(٢).

وأما إحصاء ضحايا هذه المحاكم في أوروبا، فلا يمكن تقديم صورة واضحة عنه تماماً، ولكن يمكن في إسبانيا فقط الاستشهاد بإحصاءٍ قام به المؤرخ الفرنسي لورنتي، جاء فيه: حكمت المحاكم في إسبانيا وحدها على واحد وثلاثين ألفاً من المسلمين حرقاً، ومائتين وتسعين ألفاً منهم إعداماً، وفي عهد الملك تشارلز الخامس أعدم خمسون ألفاً، وفي عهد ابنه مثلهم(٣).

هذا وقد جاء في كتاب حضارة العرب: (وخسرت إسبانيا بذلك مليون مسلم، من رعاياها في بضعة أشهر، ويقدر كثير من العلماء ومنهم سيديو عدد المسلمين الذين خسرتهم إسبانيا، منذ أن فتحت غرناطة حتى إجلائهم الأخير بثلاثة ملايين)(٤).

ولعل أوضح تعريف وتعرية لحقيقة محاكم التفتيش، شهادة المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون عن تلك المحاكم، بقوله: (ولا تعدّ مذبحة سان بارتلمي(٥)، إزاء تلك المذابح سوى حادث تافه لا يُؤبه له، ولا يسعنا سوى

---

(١) انظر: قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام (ص ٩ـ ١٠). والحروب الصليبية في المشرق والمغرب (ص ٢٥٢).

(٢) انظر: المكتبات في الإسلام (ص ٢٠٦).

(٣) انظر: العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين (ص ٣٢٩).

(٤) انظر: حضارة العرب (ص ٢٧٢).

(٥) مذبحة جرت في فرنسا، عهد تشارلز السابع، ليلة (٢٤/ ٨/ ١٥٧٢م)، في باريس وضواحيها، قتل فيها الكاثوليك أكثر من عشرين ألف برتستانتي، وقد باركها جريجوري الثالث، انظر: قصة الاضطهاد الديني (ص ٩٠).

الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقتُرفت ضد المسلمين)[1].

ولما بدأت الحروب الصليبية بصيحة البابا أوربان الثاني، في مجمع كليرمونت، سنة (١٠٩٥م)، حيث قام البابا بحثّ جميع ملوك وأمراء وشعوب أوروبا للزحف على أرض الشرق، لإنقاذ بيت المقدس، والقبر المقدس، وبقية الأماكن المقدسة في فلسطين، من أيدي المسلمين، وأيضاً بحجة حماية المسيحيين في المشرق، وتسهيل طرق الحجاج إلى القدس[2].

وقد استمرت الحروب الصليبية قُرابة قرنين من الزمن، حتى سنة (١٢٩٢م)، قام خلالها الصليبيون بشن ثمان حملات براً وبحراً، ضد بلاد الشام، ومصر، وشمال إفريقيا[3].

وكانت جميع آثار الحروب الصليبية بالنسبة للمسلمين سلبية للغاية، نظراً لما ألحقته من خراب ودمار، وشتت قوى المسلمين لفترة طويلة من الزمن.

ولعل عبارة المؤرخ ستيف رنسيمان تكون ذات دلالة واضحة في هذا السياق، إذ يقول: (على أنه وفقاً للمنظور التاريخي، ليست الحركة الصليبية بأكملها إلا فشلاً ذريعاً)[4].

فمن خلال تسليط الأضواء على بعض الكوارث التي سببتها الحروب الصليبية يتضح حجم البلاء الذي حل بديار وأمة المسلمين. إن الكارثة التي تعرض لها المسلمون بغزو الصليبيين للشرق هي نقيض أخلاقي وإنساني لسماحة الإسلام التي استظل بها الغربيون إبان فتح الأندلس وما أشبه اليوم بالأمس فها هو الغرب في حربه لظاهرة العنف أو ما سُمي بالإرهاب التي تنسب إلى نفر من المسلمين يأتي على الأخضر واليابس ويضرب في كل مكان ويبيد مدناً بأكملها على ما فيها ومن فيها وإذا ما استبعدنا مأساة عصرنا من قبل «الآخر» تجاه المسلمين وذلك على الرغم من فارق أدوات العصر التدميرية، ونظرنا إلى ما

---

(١) انظر: حضارة العرب (ص ٢٧٢).
(٢) انظر: تاريخ الحروب الصليبية، رنسيمان (١/ ١٦٩). وتاريخ الحروب الصليبية، بردج (ص ٣٩).
(٣) انظر: تاريخ الحروب الصليبية، بردج (ص ٧) وما بعدها.
(٤) انظر: تاريخ الحروب الصليبية، رنسيمان (ص ٣/ ٧٨٢).

يقوله أحد مؤرخي «الآخر» وهو المؤرخ: «أنتوني بردج» لو وقفنا على تلك الصور الدامية فسنرى بشاعة غير متناهية إنه يقول: (وكانت بربرية ووحشية إلى حد بعيد، لم يُترك منها أحد حياً، حيث جرى ذبح النساء والأطفال، إلى جانب رجالها، . . . وحتى منتصف النهار لم يبق تركي واحد حياً في المدينة، أما الشوارع فقد افترشت بالجثث في كل مكان، إلى درجة أنه كان من الصعوبة ألا يعثر المرء بها، وبدأ الهواء يعبق بروائح كريهة، من الدماء واللحم المتفسخ)[1].

أما المؤرخ الراهب «روبرت» الذي تحدث عما أحدثه قومه في شمال سوريا إبان الحروب الصليبية فيقول: (وكان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، . . . وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ، ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا لا يستبقون إنساناً، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، . . . وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة، المغطاة بالجثث، فيا لتلك الشعوب العمي المعدة للقتل!! . .)[2].

وأما ما فعله «الآخر» إبان الحرب الصليبية بالمسلمين في مدينة (القدس) فهو أبشع ما سجله التاريخ الإنساني من وحشية حيث ذبح الصليبيون ما يقارب من السبعين ألف إنسان في تلك المدينة المقدسة[3]. يصور تلك المأساة كاهن مدينة (لوبوي) ريموند داجيل واصفاً لتلك المذبحة، فيقول: «لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهنالك، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها، فإذا ما اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها، وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمشقة.

ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس، من المسلمين واليهود وخوارج النصارى، الذين كان عددهم نحو ستين ألفاً، فأفنوهم على بكرة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستثنوا

---

(١) انظر: تاريخ الحروب الصليبية، بردج (ص ٨٨).
(٢) انظر: حضارة العرب (ص ٣٢٥).
(٣) انظر: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (ص ٥٢).

منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخاً[1].

هذا بعض ما تطالعنا به صفحات التاريخ عن الآخر في أمسه بينما نحن نعيش في عصر يفعل أبناء رجال الأمس أبشع مما فعله الآباء من وحشية وعدوان.

والسؤال الذي ربما لا نجد له جواباً شافياً ما موقف الإسلام والمسلمين من غير المسلمين خارج مجتمعات المسلمين «عقدياً» وتطبيقاً وممارسة؟؟

في ضوء الاعتبارات الشرعية الاصطلاحية يمكن تقسيم غير المسلمين خارج المجتمع الإسلامي إلى فئتين، هما:

(أ) ـ المعاهدون: وهم غير المسلمين الذين يرتبطون من خارج بلاد المسلمين بمعاهدات واتفاقيات ومواثيق مع المسلمين سواء أكانوا دولاً أو أفراداً[2].

وهؤلاء لهم من المسلمين الوفاء الكامل بعهدهم، والسلام الكامل، والتعاون على أساس العدالة والتكافؤ.

ويحرم على المسلمين نقض العهود معهم، والإخلال بها، ما داموا أوفياء من جانبهم، لأن الوفاء بالعهود والمواثيق من أعظم الواجبات الإسلامية في الشريعة.

وقد نهى الله تعالى عن نقض العهود في عدة مواضع من كتابه الكريم، إذ يقول: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [النحل: ٩١ـ ٩٢].

---

(١) حضارة العرب (ص ٣٢٧). وانظر: تاريخ الحروب الصليبية، ونسيمان (١/ ٤٢٦)، وانظر تاريخ الحروب الصليبية بردج (١٠٤).

(٢) انظر: مغني المحتاج (٤/ ٢٣٢) وما بعدها. والأحكام السلطانية، للماوردي، (ص ١٣٨). والأحكام السلطانية لأبي يعلى (ص ١٤٨) وما بعدها. وآثار الحرب في الفقه الإسلامي (ص ١٧٥) وما بعدها.

ويقول أيضاً سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

ومن هنا إذا دخل المسلمون في معاهدات أو مواثيق مع غيرهم، وجب على المسلمين الوفاء لهم بما عاهدوهم عليه. يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾[1] [التوبة: ٤].

فإذا نقض هؤلاء المعاهدون عهودهم مع المسلمين وجب معاملتهم بالمثل، حتى لو وصل الأمر إلى إعلان حالة الحرب معهم.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[2] [الأنفال: ٥٥ـ ٥٨].

(ب) ـ المحاربون: وهم الذين في حالة حرب مع المسلمين، أو عداء معلن يهدد بالحرب مع المسلمين، ولا توجد بينهم وبين المسلمين معاهدات أو اتفاقيات أو مواثيق أمن وصداقة[3].

لعل هؤلاء هم المعنيون بقول الله تعالى للمسلمين: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[4].

---

(١) انظر تفسير الآية: الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٧١).

(٢) وانظر تفسير الآية: الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٠) وما بعدها.

(٣) انظر: آثار الحرب في الفقه الإسلامي (ص ١٧٠).

(٤) انظر: آثار الحرب في الفقه الإسلامي (ص ١٧٠).

رسائل النبي ﷺ لغير المسلمين

في إطار الدعوة للإسلام ومن أجلها سبقت لنا الإشارة إلى أن النبي ﷺ أرسل رسائل ورسلاً ووفوداً بقدر ما تضمنت تبليغ رسالة الإسلام بقدر ما حملت منهجاً في التعامل مع الآخر، وتقديره وعدم الاعتداء عليه، وعدم السخرية مما يؤمن به، والمتأمل في هذه الرسائل ونوعية الوفود التي كانت تحمل رسالة الإسلام من قبل النبي ﷺ يجد فيها رحابة أخلاقية وسعة أفق وبصيرة، وقدرة على مخاطبة الآخر بما لا يؤذيه، خاصة عندما كان يوجه رسائله ﷺ إلى أهل الكتاب: اليهود والنصارى، وإذا ما وقفنا على بعض تلك الرسائل تبين لنا حجم سماحة الإسلام في احترام الآخر، فمثلاً رسالة النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة والتي حملها عمرو بن أمية الضمري جاء فيها:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، سِلْمٌ أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلٰه إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، حملت بعيسى، فخلقه من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده، لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله إليك، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فأقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى»[1].

وبعد أن قرأ النجاشي الرسالة، جرى بينه وبين حاملها عمرو الضمري الحوار التالي: ـ وكانت بينهما صلة قديمة ـ، فقال عمرو: يا أصحمة، إن عليَّ القول وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقة علينا، وكأنا في الثقة بك منك،

---

(١) هداية الحيارى (ص ٤٢). وانظر: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ١٣١). وانظر المستدرك على الصحيحين (٢/ ٦٢٣).

لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه، ولم نخفك على شيء إلا أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، والإنجيل بيننا وبينك شاهدٌ لا يُردّ، وقاض لا يجوز، وفي ذلك الموقع الحزّ [أنت بمكانة الشرف]. وإصابة المفصل، وإلا فأنت من هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم، وقد فرّق رسول الله ﷺ رسله في الناس، فرجاك لما لم يرجهم، وأمِنَك على ما خافهم عليه، بخير سالف وأجر منتظر[١].

ويجيب النجاشي: أشهد أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار، كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس أشفى من الخبر[٢].

ثم نزل عن سريره، وجلس على الأرض تواضعاً، ثم أسلم وشهد شهادة الحق، وقال: لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته[٣]. ثم كتب بإسلامه إلى النبي ﷺ الكتاب التالي: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، إلى محمد رسول الله، من النجاشي أصحمة، سلام عليك يا نبي الله من الله، وبركات الله، الذي لا إلٰه إلا هو، أما بعد، فلقد بلغني كتابك فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تُفْرُوقاً[٤]، إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بُعثت به إلينا، وقد قرّبنا ابن عمك [يعني جعفراً]، وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين[٥].

ثم كتم النجاشي إسلامه وإسلام أهل بيته، إلا أن أهل الحبشة خرجوا عليه، فكلمهم بما يحبون فرجعوا إلى طاعته[٦].

وكان النجاشي يدفع كل عام جزية محددة لهرقل، ولكنه بعد إسلامه رفض دفع أي شيء له، وقال: لا والله، لو سألني درهماً واحداً ما أعطيته، فبلغ ذلك

---

(١) انظر: هداية الحيارى (ص ٤٢). والسيرة النبوية (٣ـ ٤/ ٢٧٧).
(٢) انظر: هداية الحيارى (ص ٤٢). وانظر تاريخ الرسل والملوك (٢/ ١٣٢).
(٣) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢٥٩).
(٤) التفروق: علامة بين النواة والتمرة. انظر: المُخَصَّص (٢/ ١٢٩).
(٥) هداية الحيارى (ص ٤٢).
(٦) انظر القصة كاملة: السيرة النبوية (١ـ ٢/ ٣٤١).

هرقل، فقال له أخوه نِيَاق: أتدع عبدك لا يُخرج لك خَرَاجاً، ويدين ديناً محدثاً؟!..

فقال هرقل: رجل غرب في دين اختاره لنفسه ما أصنع به، والله لولا الضَّنُّ بملكي لصنعت كما صنع[1].

وأما الرسالة الثانية التي بعث بها النبي ﷺ فكانت إلى هرقل قيصر الروم وقد حملها: دحية الكلبي، كان ذلك بعد أن استقدم القيصر ركباً من العرب فيهم أبو سفيان بن حرب، يسألهم عن النبي ﷺ في حوار طويل بينهما، ثم قال هرقل لأبي سفيان في نهاية الحوار: إن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، لو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاؤه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه[2].

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فَقُرِئ عليه، فإذا فيه:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيِّين، ويا أهل الكتاب، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولَّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»[3].

وفي السنة التاسعة للهجرة، وعندما نزل الرسول ﷺ وجيشه في تبوك، أرسل إليه هرقل كتاباً مع رجل من قبيلة تنوخ، وأمره أن يختبر النبي ﷺ في ثلاث، الأولى: إذا نظر في كتاب هرقل، هل يذكر أنه كتب شيئاً إليه سابقاً. والثانية: إذا قرأ الكتاب هل يذكر الليل. والثالثة: هل في ظهره شيء يُريب.

وقدم التنوخي على الرسول ﷺ فناوله الكتاب، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فكره مفارقة دين من أرسله، فضحك رسول الله ﷺ وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص:

---

(١) انظر: هداية الحيارى (ص ٤٥).

(٢) انظر نص الحوار: صحيح البخاري (١/ ٨).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٩). الأريسيين: هم العمال والفلاحون بلغة الروم.

٥٦]. ثم ذكر الرسول ﷺ أنه أرسل كتاباً إلى كسرى، وآخر إلى هرقل. فقال التنوخي: هذه واحدة. ولما قُرئ الكتاب على رسول الله ﷺ، فإذا فيه: تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض، فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار؟» فعلم التنوخي الثانية. ثم أهدى التنوخي حلة، وذهب به أحد الأنصار ليضيفه، فناداه الرسول ﷺ، وألقى رداءه عن كتفه، فنظر فيه التنوخي فوجد خاتم النبوة، فعلم الثالثة(١).

أما الرسالة التي أرسلها النبي ﷺ إلى المقوقس ملك القبط في مصر والتي حملها الصحابي حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، فقد جاء فيها: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد بن عبد الله، إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط»(٢). ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وفي ضوء ما تقول المصادر، وما تكشفه من أدبيات الحوار الذي مثلته هذه الرسائل التي تضمنت منهج الإسلام في تقديم دعوة الإسلام: لما وصل حاطب إلى المقوقس، ودفع إليه الرسالة، جرى بينهما الحوار التالي: قال المقوقس: هلمَّ أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبي؟ قلتُ [أي حاطب]: بلى هو رسول الله: قال: فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟ قال حاطب: عيسى ابن مريم، ألست تشهد أنه رسول الله ﷺ؟ قال: بلى. قلت: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم. فقال المقوقس: أنت حكيم جاء من عند حكيم. ثم قال حاطب: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النازعات: ٢٥]. فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر بك غيرك. قال المقوقس: إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه. قال حاطب: ندعوك إلى الإسلام، الكافي به الله فَقْدَ ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٧٤).

(٢) انظر: هداية الحيارى (ص ٤٣).

يهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوماً فهم من أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به. فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فرأيته لا يأمر بمزهود به، ولا ينهى عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة، من إخراج الخبء [الأشياء المستورة]، والإخبار بالنجوى. ثم صار يصف لحاطب أشياء من صفة النبي ﷺ ثم قال: القبط لا يطاوعونني في اتباعه، ولا أحب أن تعلم بمحاورتي إياك، وأنا أضن بملكي أن أفارقه، وسيظهر على بلادي، وينزل بساحتي هذه أصحابه من بعده، فارجع إلى صاحبك. ثم كتب إلى النبي ﷺ الجواب التالي: «بسم الله الرحمٰن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان من القبط، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك»[(١)].

والجاريتان هما: مارية وسيرين: وقد تزوج النبي ﷺ مارية بعد إسلامها، فولدت له إبراهيم[(٢)].

هل رأى الدعاة إلى الإسلام قبل غيرهم أدب هذا الحوار بين طرفين لم يتفقا تماماً ولم يسلم كل منهما للآخر بما يريد على الرغم من تركهما باب الحوار مفتوحاً بل إن المقوقس يبشر الصحابي حاطب بمستقبل الإسلام في أرض مصر ونزول أصحاب محمد رسول الله ﷺ ساحة المقوقس. إن أدبيات الحوار بين المتخالفين يجب أن تخضع لمثل ذلك النهج الرشيد.

وعلى منهاج هاتين الرسالتين كانت رسائله ﷺ إلى ملك عمان والحارث بن أبي شمر الغساني، وهوذة بن علي الحنفي، وأسقف نجران أبي الحارث وجبلة بن الأيهم الغساني وإلى أسقف الروم في دمشق: ضغاطر، وإلى يُحنَّة بن رؤبة ملك

---

(١) هداية الحيارى (ص ٤٤). وانظر الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢٦٠).

(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢٦٠).

أيلة وإلى فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على منطقة «البلقا» بالأردن وغير هذه الرسال كثير كتبها النبي ﷺ وحملها رجالاً أو وفوداً. لكن اللافت للنظر هو ما تلهمه هذه الرسائل من دلالات ونتائج فقد اعتمد فيها الرسول ﷺ على منهج القرآن الكريم، في عرضه لكل ما يتعلق بالمسيحية والمسيح وحقيقته، وأن المسيح عبد الله ورسوله، وكلمته، وروح منه، ألقاها إلى مريم العذراء.

والمبدأ الذي وضعه الرسول الكريم ﷺ في موضوع اللقاء مع المسيحيين، هو قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وعلينا أن ننتبه إلى أن الرسول ﷺ أضفى على رسائله جَوّاً من السَّلام، ليعبِّدَ الطريقَ أمام اللقاء والحوار مع المسيحيين، حتى يصل بهم إلى الحق، وذلك بقوله: «سلم أنت». وقوله: «أسلم تسلم». وقوله: «سلم أنتم».

وكذلك حرصه على طمأنة الملوك والأمراء بعدم المساس بممالكهم، وملكهم، إذا هم أسلموا، وهذا يدل على أن أهداف النبي ﷺ من الرسائل هي الدعوة إلى الله تعالى، وفقط، وهو أيضاً باب من أبواب الترغيب بالإسلام مع أدب في الحوار عالي المقام يتمثل في رعاية النبي ﷺ لمقتضى أحوال الذين أرسل إليهم رسائله ووفوده، حيث لم يتهددهم ولم يتوعدهم بما يمكن أن يسلبهم سلطانهم أو ملكهم أو ينزع وجاهتهم في قومهم.

حكم المسيحية في الإسلام

بعيداً عن همس الخفافيش بليل الجهل وظلمات الأهواء والأغراض والمطامع فإن نور السماحة والرحابة التي تعامل بها الإسلام مع أهل الكتاب ومن لهم شبهة كتاب تطالعنا عبر التاريخ الطويل صفحات الإسلام المضيئة بهدي السماء التي تفيض بها آيات الذكر الحكيم وتملأ جنبات التاريخ الإنساني بأقوال وأفعال النبي الخاتم محمد ﷺ، وفي ضوء تلك المقدمة ما الذي تناول به نبي الإسلام: المسيحية نبأ وخبراً وحكماً، عقيدة وهداية؟ وبادئ ذي بدء فإن من نافلة القول استحضار الموروث الديني الذي تمتلئ به مصادر الإسلام والذي يقرر بشارة النبي ﷺ لكل مسيحي آمن بالمسيح ابن مريم عليه السلام ثم آمن برسالة الإسلام، وبالنبي الكريم ﷺ بأن له أجرين في الثواب عند الله تعالى، فيقول عليه الصلاة والسلام: «إذا أدب الرجل أمته، فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، كان له أجران. وإذا آمن بعيسى، ثم آمن بي فله أجران. والعبد إذا اتقى ربه، وأطاع مواليه فله أجران»[1].

وفي ضوء هذا النبأ الذي رواه البخاري في صحيحه، هل يمكن أن يعثر «الآخر» على ما يجرح مشاعره ويسيء إلى معتقده أو يفسد عليه حياته، فضلاً عن أن يتهدده، وإذا كانت البداهة قاضية بأنه لا ضرر ولا حرج بما يقوله ويدعو إليه نبي الإسلام ﷺ فإن النفس، نفس «الآخر» ترتاح وتطمئن إلى ما جاء في سنة النبي ﷺ حين امتدح النبي ﷺ طائفة من أهل الكتاب، بسبب تمسكهم بمنهج الأنبياء عليهم السلام وكيف أن الله تعالى قد اطلع إلى الخلق قبل بعثة النبي محمد ﷺ فأبغضهم إلا هؤلاء النفر المؤمنين، فقال: «إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عجميهم وعربيهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»[2].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٢٥٦).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٦٢).

واللافت للنظر أن النبي ﷺ يجعل الإيمان بالمسيح عليه السلام بأنه عبد الله ورسوله، من جملة مستلزمات الإيمان، التي توصل صاحبها إلى رضاء الله تعالى، فيقول: «من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة، على ما كان من العمل»[١].

والذي نحب أن نؤكد عليه وننبه الأجيال المؤمنة إليه: المسلمون والمسيحيون معاً هو ذلك المنهج العف المسالم الذي وضع قواعده نبي الإسلام ﷺ بحيث تزول من النفوس أحقادها وتسكن الخواطر فلا تضطرم بنارها التعصبية أو العنصرية هو أن النبي ﷺ وضع قواعد مهمة في الحوار مع الآخر، وتحديداً مع المسيحية بحيث لا يصل أطراف الحوار إلى نقطة الصراع الجدلي العقيم. وهذه القاعدة التي يجب أن يلتزم بها المسلم قبل غيره هي: عدم موافقة أهل الكتاب في كل ما جاؤوا به، وعدم مخالفتهم في كل ما يدعونه في كتبهم، فيقول: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بما أنزل إلينا، وما أنزل إليكم»[٢] وتأتي الإضافة الثانية من هديه ﷺ لتوضح السبب في هذه القاعدة، وهي قوله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم، وقد ضلوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل، أو تكذبوا بحق»[٣].

ويعلل الكرماني[٤] هذا الحديث بقوله: «لقد أُمرنا أن نؤمن بالكتب المنزلة على جميع الأنبياء، وليس لدينا ما نستطيع به أن نميز الصحيح من الباطل، فيما نقله مؤلفوها، فنحن لا نصدقهم، حتى لا نكون شركاءهم فيما حرفوه من هذه الكتب، ولا تكذبهم، لإمكان أن يكون ما نقلوه صحيحاً، فنكون قد أنكرنا ما أُمرنا بالإيمان به»[٥].

وفي ضوء تلك القواعد يمكن أن نفهم: وصايا النبي ﷺ للمسلمين بحسن

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٢٥٤).
(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٠٣).
(٣) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٣٣٨).
(٤) محمد بن يوسف الكرماني، ت (٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م). انظر: الدرر الكامنة (٤/ ٣١٠).
(٥) انظر: الرد على النصارى للجعفري (ص ٢٩).

الصلة، والمعاملة للمسيحيين، وفق وصاياه ﷺ بأهل الذمة عامة[1]، ومن ذلك قوله: «أوصيكم بذمة الله، فإنه ذمة نبيكم»[2].

ويحذر الرسول الكريم ﷺ من الاعتداء على أهل الذمة بالقتل، فيقول: «من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً»[3].

لكن اللافت للنظر ونحن نتناول أبعاد قواعد الحوار في ضوء هديه ﷺ هو تركيز وتخصيص وصاياه ﷺ بأقباط مصر المسيحيين، بقوله: «إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً»[4].

وأيضاً مما يدعو للتأمل والتدبر أحاديث النبي ﷺ عن الصلة الكبيرة التي تربطه بالمسيح عليه السلام ولعل السبب في ذلك هو عدم وجود نبي يفصل بين رسالتيهما، ويبين ﷺ أنه أولى الناس بعيسى ابن مريم، أي إنه أقرب الناس، وأكثرهم معرفة بحقيقة المسيح، ودينه، وشريعته، فيقول: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نبي»[5] كما أنه ﷺ وضع القاعدة الواضحة لالتقاء الأنبياء عليهم السلام ووحدة أصول دياناتهم، وذلك من خلال ما كان يضربه للناس من أمثلة ونماذج يكشف فيها عن الوحدة العقدية بين الأنبياء والمرسلين فيقول ﷺ: «الأنبياء إخوة لِعَلَّات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»[6].

كما أنه ﷺ يشبه تكامل رسالات الأنبياء عليهم السلام ووحدة الهدف الذي جاؤوا من أجله، ببيت رجل بناه فأحسن بناءه، ولم يبق إلا موضع لبنة لم تكمل، فكانت بعثته ﷺ هي تلك اللبنة المكملة للبناء، فيقول: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبل كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة،

---

(١) انظر: تعريف أهل الذمة (ص ٣٧) من هذا الكتاب.
(٢) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٢٠١).
(٣) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٥٣).
(٤) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٢٥٥).
(٥) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٢٥٥).
(٦) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٢٥٥).

وأنا خاتم النبيين»[1]. كما أنه ﷺ حذر من اتخاذ المفاضلة بين الأنبياءعليهم السلام وسيلة وسبباً للجدال، والخصومة بين أتباع الديانات، فهو يرفض أن يفضله الناس على الأنبياء، حتى لا يكون هذا التفضيل سبباً للبغي والظلم والاختلاف، فيقول: «لا تخيّروني على موسى»[2]. ويقول أيضاً: «لا تخيروا بين الأنبياء»[3].

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

هذا ولم يترك ﷺ الأمر بغير حسم وتحديد للنتائج وذلك على الرغم من مقدمات التسامح وعدم السخرية أو التجريح فقد بين صلوات الله وسلامه عليه أن سبب انحراف المسيحية عن حقيقتها هو المغالاة التي غالى بها المسيحيون في مدح وتعظيم المسيحعليه السلام ويحذر من هذا الأمر فينهى أن تعظمه أمنه، أو تغالي بمدحه، فيقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»[4].

كما ينهى النبي ﷺ أمته عن كثرة التساؤلات، ويأمرهم بالعمل على قدر استطاعتهم، حتى لا يقعوا في نفس الأخطاء التي وقع فيها من كان قبلهم، فيقول: «ذروني ما تركتكم، فإنما أُهلك أهلُ الكتاب قبلكم، بكثرة اختلافهم على أنبيائهم، وكثرة سؤالهم، فانظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فدعوه»[5].

كما أنه ﷺ يخبر أمته محذراً من أمر غيبي ستقع فيه وهو أن هذه الأمة سوف تسير على نفس الطريق الذي سارت عليه اليهود والنصارى، فيقول محذراً: «لتتَّبِعنَّ سُننَ من قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جُحر ضَبٍّ لسلكتموه. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟!»[6] وعند مثل هذا الموقف يطالعنا الإبهار والإعجاز، ففي الوقت الذي تتعانق فيه آيات الكتاب

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٢٧٠).
(٢) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٦٠)، وانظر قصة الحديث في نفس الصفحة.
(٣) المرجع السابق، نفس الموضع.
(٤) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٢٥٦).
(٥) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٤٥٧).
(٦) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٢٥٧).

والسنة على تصحيح ما علق بعقائد أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإيمان بما أنزل على جميع أنبياء الله ورسله يأتي هذا التحذير من الوقوع في نفس السلبيات والأخطاء التي وقع فيها أهل الكتاب. ولعل هذا هو سر تحذير النبي ﷺ أمته، من أن تصل إلى مرحلة لا تستفيد فيها من تلاوة القرآن الكريم، بحيث يُصبح القرآن حجة عليها لا لها، كما حصل مع أهل الكتاب، يقول الحديث: «ذكر رسول الله ﷺ ذهاب العلم؛ فقلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم؟ ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة. فقال: ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنتُ لأراك من أفقه رجال المدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى، يقرؤون التوراة والإنجيل، فلا ينتفعون مما فيها بشيء»(١).

كما يرفض النبي ﷺ منهج وعمل اليهود والنصارى، في مغالاتهم بتعظيم أنبيائهم، مما أوصلهم إلى عباداتهم، وكان السبيل إلى ذلك هو بناؤهم المساجد على القبور، فيقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». قال ابن عباس رضي الله عنهما راوي الحديث: «يحذر مما صنعوا»(٢) وبقدر ما حذر النبي من تقديس الأنبياء وتعظيمهم، حذر أمته من تعظيم، وتقديس العلماء، خشية الوصول إلى مرحلة العبادة، فقد جاء في الحديث: «كانت أم سلمة، وأم حبيبة أتتا من أرض الحبشة، فذكرتا كنيسة، يقال لها: سارية، من حسنها وتصاوير فيها، فرفع رسول الله ﷺ رأسه فقال: «أولئك إذا مات منهم الرجال الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق عند الله»(٣).

وهكذا يبين النبي ﷺ الصورة السلبية التي وقع فيها أهل الكتاب، ويخبر أمته بأنها ستقع في نفس هذه الصورة السلبية، ألا وهي الفرقة والتمزق، فيقول: «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم إلى اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق إلى ثلاث وسبعين ملة»(٤) ولم يكن ذلك كله منه ﷺ إلا حرصاً على اتباع منهجه القويم وصراطه المستقيم.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٢١٩).
(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٩٣).
(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٣٢).
(٤) رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٠٢).



الفصل الثالث عشر

- الحوار مع الآخر المسيحي.
- علماء المسلمين ورهبان النصارى.
- أشهر حوار في التاريخ العقدي.

الحوار مع الآخر المسيحي

لم تقترن بحركة الفتح الإسلامي وانتشار الإسلام بين الأمم والشعوب رغبة في قهر الشعوب وإذلالها أو بسط سيطرتها عليها واغتنام مواردها، بل إن المنصفين من غير المسلمين يعلمون أن عمليات التحرير التي حرر بها المسلمون شعوباً كانت ترزخ تحت ألوان من الظلم والاستبداد كان غير المسلمين ينعمون بكامل حرياتهم وممارسة معتقداتهم دون نقد أو تجريح وعندما كان البعض من «الآخر» يرغب في الحوار كان العلماء والأئمة بل والخلفاء والأمراء يرحبون بالحوار ويتحمسون له، وكان يحدث أن تتحول هذه الحوارات إلى ما يشبه اليوم: الندوات والمؤتمرات التي ينظمها أفراد، أو يرعاها جماعة أو جامعة، ويبدو أن بدايات هذه الحوارات كانت قد بدأت بعد أن قعد النبي ﷺ منهج الحوار مع أهل الكتاب وغيرهم بالحسنى وبالتي هي أحسن، ومن هذه الحوارات ما كان يقع أحياناً في مجلس الخليفة العباسي المأمون كما حدث بين علي الرضا[1] وجاثليق[2] في مجلس المأمون الذي كان مثقفاً عميق الثقافة، وذا دراية بالفلسفة، وعلم الكلام، ويبدو أنه قد درس المسيحية، وتعمق فيها، وألم بمسائلها الكبرى، فكان أحياناً يستدعي بعض القسيسين من حَرَّان وأنطاكية، ويجمع بينهم وبين علماء المسلمين، في حوارات عامة وخاصة، وتدور موضوعاتها حول شخصية المسيح، وبعض القضايا الإسلامية والمسيحية في بساطة ويسر وسماحة، قصد الوقوف على الحقيقة.

ومن هذه الحوارات التي وقت في مجلسه الحوار التالي، الذي جرى

---

(١) توفي علي الرضا (٢٠٣هـ/٨١٨م). انظر: تاريخ الرسل والملوك (٥/١٤٦).

(٢) الجاثليق: مقدم الأساقفة عند بعض الطوائف المسيحية الشرقية. وجمعه: جثالقة. انظر: المعجم الوسيط (١/١٠٧).

بحضور عدد كبير من العلماء والفقهاء وأهل الملل وأصحاب المعتقدات، الذي جاء فيه[1]:

قال الجاثليق كيف أحاجّ رجلاً يحتج عليّ بكتاب أنا منكره، ونبي لا أؤمن به؟ فقال له الرضا: يا نصراني، فإن احتججتُ عليكَ بإنجليك أتقرّ به؟ قال الجاثليق: وهل أقدر على دفع ما نطق به الإنجيل؟! نعم، والله، أقرّ به على رغم أنفي. فقال الرضا: سلْ عما بدا لك، وافهم الجواب. قال الجاثليق: ما تقول في نبوة عيسى وكتابه؟ وهل تنكر منهما شيئاً؟ قال الرضا: أنا مقرّ بنبوة عيسى وكتابه، وما بشر به أمته، وأقرّت به الحواريون. وكافر بنبوة كل عيسى لم يقرّ بنبوة محمد ﷺ وبكتابه، ولم يبشر به أمته. قال الجاثليق: أليس إنما تُقطع الأحكام بشاهدي عدل؟ قال: بلى. قال: فأقم شاهدين من غير أهل ملتك على نبوة محمد ﷺ ممن لا تنكره النصرانية، وسلنا مثل ذلك من غير أهل ملتنا. فذكر له الرضا اسم (يوحنا الديلمي) من أصحاب المسيح عليه السلام فقال الجاثليق: بخٍ بخٍ، ذكرت أحب الناس إلى المسيح. قال الرضا: فأقسمت عليك هل نطق الإنجيل أن يوحنا، قال: إن المسيح أخبرني بدين محمد العربي، وبشرني به، أنه يكون من بعده، فبشرت به الحواريين فآمنوا به؟ قال الجاثليق: قد ذكر ذلك يوحنا عن المسيح، وبشر بنبوة رجل، ولم يلخص متى يكون ذلك، ولم يسمّ لنا القوم فنعرفهم. ثم قرأ له الرضا من الإنجيل المقاطع التي ذُكر فيها النبي ﷺ واستحلفه قائلاً: ما تقول يا نصراني؟ هذا قول عيسى ابن مريم، فإن كذبت ما ينطق به الإنجيل، فقد كذبت موسى وعيسى عليهما السلام ومتى أنكرت هذا الذكر وجب عليك القتل، لأنه تكون قد كفرت بربك ونبيك وكتابك. فأقر بذلك الجاثليق، ويبدو أن الاستدلال كان بالإنجيل الذي كان على عصر الرضا ثم تعرض لما تعرض له الإنجيل تاريخياً كما هو معروف، حتى عند علماء كانوا نهم مثل الطبيب الفرنسي في عصرنا هذا: موريس بوكاي صاحب كتاب: التوراة والإنجيل والقرآن.

ثم قال الرضا في موضع آخر[2]: يا نصراني، والله، إنا لنؤمن بعيسى الذي آمن بمحمد ﷺ وما ننقم من عيساكم شيئاً إلا ضعفه، وقلة صيامه وصلاته. فقال

---

(١) انظر: بحار الأنوار (١٠/ ٣٠١) وما بعدها.

(٢) انظر: بحار الأنوار (١٠/ ٣٠٣).

الجاثليق: أفسدت ـ والله ـ علمك، وضعفت أمرك، وما كنت ظننت إلا أنك أعلم أهل الإسلام. قال الرضا: وكيف ذلك؟ قال الجاثليق: من قولك: إن عيسى كان ضعيفاً، قليل الصيام، وما أفطر عيسى يوماً قط، ولا نام بليل قط، وما زال صائم الدهر، قائم الليل، قال الرضا: فلمن كان يصوم ويصلي؟؟!! فسكت الجاثليق. وهنا تتجلى أدبيات الحوار وإلزام الآخر بمعتقدات ومسلمات «الآخر» وفي تتمة الحوار وتكملته تقول مصادر الحوار إن الإمام: الرضا قال للجاثليق: يا نصراني، أسألك عن مسألة. قال: سل. قال الرضا: ما أنكرت إن عيسى كان يحيي الموتى بإذن الله تعالى؟ قال الجاثليق: أنكرت ذلك من قبل، أن من أحيى الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، فهو رب مستحق لأن يعبد، قال الرضا: فإن اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى، مشى على الماء، وأحيى الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، فلم تتخذه أمته رباً، ولم يعبده أحد من دون الله عز وجل. وأتى له بالأدلة من التوراة فسكت الجاثليق. ولم تقم حروب ولم تهدر دماء، ولم تضع نفوس بسبب الاختلاف مع الآخر.

«أبو الحسن الأشعري والآخر النصراني»:

في مسلسل الحوارات التاريخية التي وقعت بين بعض أئمة المسلمين، والآخر من المسيحيين، الحوار الذي وقع بين أبي الحسن الأشعري[(١)] وبعض علماء المسلمين مع فيلسوف نصراني: وقد جاء في كتاب عيون المناظرات نقلاً عن صاحب كتاب (بهجة الإشراق)، أن فيلسوفاً نصرانياً قدم بغداد، وطلب الحوار مع علماء المسلمين، فجمع له الخليفة كلاً من الصالحي، والجبّائي، والكعبي، والأشعري.

فتقدم الصالحي[(٢)]، وكان من علماء المعتزلة، فأخذ في الاستدلال، وأثبت الأعراض، فسلّم له النصراني إثباتها، ثم أثبت لها حدوثها، فسلّم له هذا الأصل الثاني أيضاً، وقال: لا يضرني [أي النصراني]، وإنما مدار الأمر عندي على

---

(١) توفي أبو الحسن الأشعري (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م). انظر: طبقات الشافعية (١/ ٧٢).

(٢) ورد اسم (الصالحي) في (فضل الاعتزال، وطبقات المعتزلة) في موضعين الأول باسم (أبو الحسين الصالحي)، والثاني باسم (أبو عبد الرحمٰن الصالحي)، الأول (ص ٢٨١)، والثاني (ص ٣٨٠). دون ترجمة لهما.

جسوم العالم. فلما بلغ معه إلى الأصل الثالث، الذي هو استحالة تعري الجواهر عن الأعراض، قطعه النصراني، لأنه شاع من مذهب الصالحي القول: بعُروّ الجواهر عن جملة الأعراض. فقال له: كيف تلزمني بأمر لا تعتقده، ولا تقول به؟ فانقطع الصالحي.

ثم تقدم أبو القاسم الكعبي[1]، فأثبت الأعراض وحدوثها، فسلم له النصراني ذلك فلما بلغ معه إلى الأصل الثالث، وهو بيان عُرُوّ الجواهر عن الأعراض، قال النصراني: وأنت شاع من مذهبك أيضاً أن الجواهر تخلق من كل جنس من أجناس الأعراض، إلا عن الألوان. فقطعه، لأنه يلزمه في الألوان، ما قال به من العُروّ في جميع الأعراض، وإلا كان متحكماً، والتحكم غير مقبول.

فتقدم أبو علي الجبائي[2]، فأثبت الأصلين، فلما وصل إلى إثبات الأصل الثالث، قال له النصراني: قد شاع من مذهبك أيضاً عُروّ الجواهر عن الأعراض ابتداء، إلا عن الكون، فقطعه.

فتقدم أبو الحسن الأشعري، فأثبت له الأصلين، ثم أثبت له الأصل الثالث، وهو استحالة عرو الجواهر عن الأعراض، وتبين أن ما لا يسبق الحادث فهو حادث بالضرورة، فلم يكن للنصراني عليه قيام، لأنه لم يؤثر عن أبي الحسن القول بالعُروّ، فتمت حجة الأشعري، وأسلم النصراني[3].

وهذه الحوارات التي جرت في التاريخ الإسلامي كثيرة ومتنوعة ولم يترتب عليها ذات يوم تأجج العداوة، وإشعال نار الفتنة ومنها مثلاً الحوارات التي وقعت في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله[4]:

وهي حوارات كانت تجري أمام الخليفة، بين علماء المسلمين، وفيلسوف نصراني يدعى سايروس بن المقفع[5]، وقد سجل سايروس هذه الحوارات في كتابه المسمى (المجالس)، وكان غالب تلك الحوارات يدور حول الدفاع عن

---

(١) توفي الكعبي (٣١٩هـ/ ٩٣١م). انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٤٥).
(٢) توفي الجبائي (٣٠٣هـ/ ٩١٦م). انظر: المرجع السابق (٤/ ٢٦٧).
(٣) انظر: عيون المناظرات (ص ٢٣٢).
(٤) توفي المعز الفاطمي (٣٦٥هـ/ ٩٧٥م). انظر: وفيات الأعيان (٥/ ٢٢٤).
(٥) لم أقف له على ترجمة.

المسيحيين من تهمة التحريف والتبديل في الإنجيل - حسب قول ابن المقفع -[1].

والحوارات التي وقعت في عهد ملوك التتار حين أراد التتار التحول عن ديانتهم الوثنية القديمة، وهي الديانة الشامانية[2]، إلى أديان أخرى، وكانت تجري لأجل امتحان أتباع كل ديانة من الديانات، حيث كان يتنافس على كسب التتار كل من البوذيين والمسيحيين والمسلمين[3].

---

(١) انظر: مقدمة تحقيق كتابة هداية الحيارى (ص ٥)، نقلاً عن كتاب مصباح العقول، تحقيق: سمير الخيل. ولم أقف على نص الحوارات في المصادر.

(٢) انظر: الدعوة إلى الإسلام (٢٥١). وانظر لمحة عن الديانة الشامانية: اكتشاف الهند (١/ ٣٥٩).

(٣) انظر: الدعوة إلى الإسلام (ص ٢٥٠) وما بعدها.

علماء المسلمين ورهبان النصارى

هذا الحوار، تاريخياً يعتبر من أميز وأهم الحوارات التي كان الملك: أكبر المغولي في الهند، قد دعا إليها، على أن يشترك فيها أكبر عدد ممكن من أتباع كل دين.

ولما كان اهتمام المسيحيين بالهند كبيراً جداً، لم يشأ رهبان وقساوسة الهند أن يواجهوا المسلمين وحدهم، فسافر مندوبون عنهم إلى روما، وفرنسا، وإسبانيا، وأعدوا لهذا اللقاء حشداً كبيراً من اليسوعيين والفرنسيسكان الكاثوليك، وكانت آمالهم في تنصير المغوليين كبيرة، تبعاً لتنصير مليكهم الذي طلب هذا الحوار[١].

ولما تلاقى الجمعان ـ كان الحشد الذي حضر لشهود هذا الحوار حشداً هائلاً ـ ومن مختلف الديانات، وما أكثرها في الهند.

وابتدأ الملك أكبر المغولي بإلقاء أسئلته، وتلقى إجابتها من كلا الطرفين، ثم تركهما ليواجه كل منهما الآخر، وفي نهاية الحوار أعلن الملك أكبر المغولي إسلامه، وقال: إنه يعتقد أن الإسلام هو الدين الصحيح[٢].

الحوار بين رحمت الله ابن خليل الهندي وفندر الإنجليزي:

الحوار الذي وقع بإيحاء من الاستعمار الإنجليزي في الهند بين الشيخ رحمت الله ابن خليل الهندي وبين القسيس فندر الإنجليزي هو بلا منازع أشهر حوار وأشده على امتداد القرن التاسع عشر الميلادي، وقد أسفر الحوار عن

---

(١) انظر: الدعوة إلى الإسلام (٢٥٨) وما بعدها. وانظر مناظرات بين الإسلام والنصرانية، مجلة الأمة، العدد (٥٤)، العام (١٩٨٥)، ص (٤٣).

(٢) انظر: مناظرات بين الإسلام والنصرانية، مجلة الأمة، العدد (٥٤)، العام (١٩٨٥)، ص (٤٣).

تأليف الشيخ رحمت الله ابن خليل لأشهر كتاب في نقد الكتاب المقدس وهو «إظهار الحق» الذي طبع عدة طبعات إلى اللغة العربية وغيرها، وكان لنا شرف مناقشة مادته العلمية لأحد طلاب العلم الذي تقدم به لنيل درجة الدكتوراه في إحدى الجامعات الإسلامية. وبدايات الحوار ومقدماته بدأت منذ أن دخل الاستعمار الإنجليزي إلى الهند، بدأ يبث دعاياته المسمومة ضد الإسلام والمسلمين، ويشجع البعثات التبشيرية للقيام بعمليات التنصير في أنحاء الهند. وكان أحد هؤلاء المبشرين النشطين، قسيساً إنجليزياً يدعى (فندر)، وكان أسلوبه التبشيري هو عقد حلقات عامة، واحتفالات جماعية، في مدن الهند وقراها، وإلقاء الخطب والمواعظ التي تهاجم الإسلام وعقيدته، وتحتقر المساجد والمدارس الدينية.

وكان علماء الهند آنذاك بعيدين عن معرفة المسيحية، ومصادرها، وتاريخها، وتطورها، من خلال مجامعها ومؤتمراتها. والسبب في ذلك هو انشغالهم بالعلوم الشرعية، وبعض كتب الفلسفة اليونانية المترجمة، وبحوث علم الكلام والفقه.

حيث كانت هذه العلوم تُدرَّس باللغة العربية، والفارسية، والأُردية، على حين أن كتب المبشرين كانت تنشر باللغة الإنجليزية، وأما كتب العقيدة المسيحية وتاريخها فلم تكن موجودة في الهند.

فقام الشيخ رحمت الله الهندي بدراسة المسيحية والتعمق فيها، ليرد على هذه الهجمات التبشيرية، ضد الإسلام والمسلمين، وقد ساعده في ذلك طبيب اسمه محمد وزير خان من مدينة أكبر أباد الهندية، إذ كان قد تخرج في لندن، وأحضر معه كتباً كثيرة عن المسيحية، وتاريخها وعقائدها، الأمر الذي ساعد الشيخ رحمت الله في مواجهة القسيس فندر.

وأما الطرف المسيحي فكان يمثله القسيس فندر، ومعاونه القس فرنج، حيث وجه فندر طعوناً في الإسلام وعقيدته، ونبيه ﷺ وتتمثل هذه الطعون في نقاط خمس[1]، وهي الموضوعات التي عرضت أثناء الحوار للتداول، وهي:

١ـ إن ادعاء القرآن الكريم بأن في التوراة والإنجيل تحريفاً، وأن اليهود هم

---

(١) انظر: إظهار الحق (١/ ١١).

الذين قاموا بهذا التحريف، هو ادعاء باطل.

٢ـ إن بعض آيات القرآن الكريم منسوخة، وإن النسخ دليل على أن القرآن الكريم ليس من عند الله تعالى، لأن أحكامه بهذا قابلة للتبديل والتعديل.

٣ـ محاولة البرهنة على صحة اعتقاد المسيحية بالتثليث، ومهاجمة عقيدة التوحيد في الإسلام.

٤ـ الادعاء بأن القرآن الكريم هو من كلام النبي ﷺ وليس هو كلام الله تعالى، والتشكيك في طريقة جمعه وتواتره.

٥ـ إنكار نبوة محمد ﷺ وأنه خاتم الأنبياء عليهم السلام.

وقد كان القسيس فندر قد ألف كتاباً بعنوان: ميزان الحق. تضمن هذه الادعاءات وغيرها، وكان يفتخر دائماً، بأنه من العسير على علماء المسلمين معارضته والردّ عليه[1].

ولأجل هذا كله حرص الشيخ رحمت الله على أن يكون الحوار بينه وبين فندر عَلَناً على مشهد ومسمع الجمهور المسلم والمسيحي واضطر القسيس فندر على قبول شكل الحوار هذا، أمام إصرار الشيخ رحمت الله، فعقد الحوار في شهر رجب عام (١٢٧٠هـ) الموافق (١٠/ ٤/ ١٨٤٥م)، في مدينة أكبر أباد. وحضر الحوار عدد كبير من المسؤولين في المدينة، وأعيانها من المسلمين والمسيحيين والهندوك والسيخ، إضافة على جموع هائلة من الجماهير من كل الملل والأديان.

وكانت موضوعات الحوار هي نفس النقاط السابقة، واتفق الطرفان على أن يدخل المنهزم منهما طوعاً في دين المنتصر، ويترك دينه، واستمر الحوار لمدة يومين فقط، انتصر فيهما الشيخ رحمت الله، وأثبت في اللقاء الأول ـ باعتراف القسيس فندر نفسه ـ وقوع التحريف في ثمانية مواضع من الإنجيل.

ولكن القسيس فندر لم يتابع الحوار، وغادر المدينة سراً في اليوم الثالث، الأمر الذي شجع المسلمين، ورفع معنوياتهم عالياً، فقاوموا الحركة التبشيرية في

---

(١) ألفت عدة كتب للرد على كتاب: ميزان الحق. منها: لسان الصدق بالرد على المسمى ميزان الحق، للشيخ علي البحراني. وكتاب: أدلة اليقين في الرد على كتاب ميزان الحق، لعبد الرحمٰن الجزيري، وهو كتاب عمد في استدلاله وشواهده المنطقية.

بلادهم، ولكن الاستعمار الإنجليزي تسلط عليهم، وأساء معاملتهم، قتلاً وتعذيباً وتشريداً، حيث كان نصيب الشيخ رحمت الله من ذلك كبيراً، فاضطر إلى مغادرة الهند إلى مكة المكرمة، حيث أقام مدرساً في الحرم الشريف.

وأما القسيس فندر فقد سافر إلى القسطنطينية، للعمل مع الإرسالية الكنسية فيها، وقابل هناك السلطان العثماني عبد العزيز، وأبت الغطرسة والمكابرة والغرور الكنسي الذي ملأ رأس هذا القسيس إلا الافتراء والبهتان، فادّعى زوراً بأنه أجرى الحوار السابق في الهند، وأفحم علماء المسلمين فيها، وانتصر عليهم.

فأرسل السلطان إلى شريف مكة يسأله عن الأمر، فاتق وجود الشيخ رحمت الله فيها، فسافر إلى القسطنطينية، وعندما علم القسيس فندر بحضوره هرب منها، وهناك اطلع الشيخُ رحمت الله السلطان على وقائع الحوار، ثم قام بتأليف كتاب يتضمن المواضع التي بحثت في الحوار، وأضاف إليه موضوعات أخرى، وسمّاه: إظهار الحق.

ولهذا الكتاب ميزات كثيرة أهمها[1]:

١ـ إن المؤلف آثر فيه خطة الهجوم على خطة الدفاع، وهي أشد وقعاً في النفس لأنها تجعل الطرف الآخر في موقع الدفاع عن النفس.

٢ـ اعتمد المؤلف على التناقضات الواضحة، وما يخالف البديهيات الجلية التي لا تقبل التأويل، الموجودة في التوراة والإنجيل. وقد عدّد من اختلاف وتناقض العهدين (القديم والجديد) مائة وثمانية أخطاء، مبرهناً بذلك على تحريف الكتاب المقدس.

٣ـ تعرض الكتاب لمغالطات المسيحيين، ورد عليها رداً كافياً، وتعرض أيضاً لمسألة النسخ، مثبتاً وقوعها في الديانتين اليهودية والمسيحية.

٤ـ ناقش عقيدة التثليث، ونقدها نقداً علمياً دقيقاً.

٥ـ رد على اعتراضات المسيحية على القرآن الكريم، وفنّدها وتكلم عن القرآن والسنة، ومكانتهما، وأورد البشارات الموجودة في التوراة والإنجيل عن النبي ﷺ.

---

(١) انظر: مقدمة هل الكتاب المقدس كلام الله؟ (ص ٧٢).

أشهر حوار في التاريخ العقدي

لا ينازع أحد من المهتمين ودارسي العقائد أن الحوار الذي وقف فيه الشيخ أحمد ديدات رحمه الله كطرف في الحوار مع الآخر المسيحي وعبر حوالي ٣٢ حواراً مع مجموعات من القساوسة فراداً أو مجتمعين برزت شخصية الداعية الإسلامي عالماً من العجم لغته الأم الإنجليزية لا العربية التي حاور بها الآخر دفاعاً عن الإسلام وراداً للشبهات ودحضاً للمفتريات. وقد قدر الله لنا أن نتقابل مع الشيخ ديدات في القاهرة عام ١٩٨٨ أثناء فعاليات مؤتمر للدعوة الإسلامية نظمه الأزهر يومها ولمسنا عن قرب تواضع الرجل ووقفنا على سماحته وبشاشته ورغبته في أن يتعلم العربية، ثم قدر الله لنا أن نزوره وهو على سرير المرض بأكبر مستشفى بالمملكة العربية السعودية، وكم كان الرجل يطلب من زائريه الدعاء له بالشفاء، الأمر الذي كان يتضح من خلاله مدى عميق صلة الرجل بربه ورضاه بقضائه وقدره.

والشيخ أحمد ديدات كما هو معروف من مسلمي جمهورية جنوب إفريقيا وأحد أبرز علماء المسلمين الذين قاموا بإجراء حوارات كثيرة مع المسيحيين في عدة أماكن من العالم، وعلى عدة أشكال ومستويات.

إذ إن له أكثر من (٣٢) حواراً مع القساوسة[١]، في أماكن متعددة من أهمها في: الولايات المتحدة الأمريكية، بريطانيا، إيرلندة، كندا، هونغ كونغ، سنغافورة، الهند، زيمباوي، موريتانيا، ملاوي، وجنوب إفريقيا بلده[٢].

وكان السبب الرئيسي الذي دفع بالشيخ ديدات إلى دراسة المسيحية، والتعمق في أناجيلها، هو أنه كان يعمل قريباً من إحدى الإرساليات التبشيرية،

---

(١) انظر: هل المسيح هو الله ـ سبحانه ـ؟ وجواب الإنجيل على ذلك (١٠٨).

(٢) انظر: من دحرج الحجر؟ (ص ٧).

وكلية لاهوت، في بلده جنوب إفريقيا، فكان هو وزملاؤه المسلمون يتعرضون للكثير من الأذى والمضايقات من قبل الطلاب المسيحيين الذين يدرسون في تلك الكلية، حيث لم يكد يمر يوم واحد إلا ويوجه أولئك الطلاب الإهانات والإساءات إلى الإسلام، والقرآن الكريم، والنبي محمد ﷺ، فدفعه ذلك إلى دراسة القرآن الكريم، والبحث في الأناجيل، حتى يستطيع الرد على تلك الافتراءات[1].

وابتدأ نشاطه في الحوار في عام (١٩٤٤م)، ثم تفرغ كلياً للدعوة إلى الله تعالى في عام (١٩٥٩م)، وأسس مركزاً لإعداد الدعاة، باسم مركز الدعوة الإسلامي[2].

وكانت أشهر حواراته التي قام بها ما يلي:

حواره مع المبشر الأمريكي الشهير القس (جيمي سويجارت) في جامعة (لويزانا) في الولايات المتحدة الأمريكية، بتاريخ (٣/ ١١/ ١٩٨٦م)[3]. وقد تأثر الرأي العام بها داخل الولايات المتحدة وخارجها خاصة في العالم الإسلامي، وعقب هذا الحوار زار الشيخ ديدات إحدى البلاد الإسلامية، فاستقبله في إحدى الجامعات أكثر من خمسين ألف مستقبل.

أما حواره الثاني فكان مع (بول فندلي) عضو الكونغرس الأمريكي سابقاً في جمهورية جنوب إفريقيا، الذي ألقى محاضرة بعنوان: (هل أقيمت إسرائيل من أجل التدمير؟) وأعقبها الشيخ ديدات بمحاضرة بعنوان: (العرب وإسرائيل: شقاق أم وفاق؟)[4]. وقد دحض وفند مفتريات السياسي: «بول فندلي».

أما حواره مع القس (أنيس شوروش)، وهو صهيوني الاتجاه، مسيحي الديانة، فلسطيني الجنسية، وذلك بتاريخ (٧/ ٨/ ١٩٨٨م)، في قاعة أرينا

---

(١) انظر: مقدمة هل الكتاب المقدس كلام الله؟ (ص ٣٢٠) وما بعدها.

(٢) انظر: مقابلة صحفية مع الشيخ ديدات: صحيفة المدينة السعودية، العدد (٨٨٦٥)، تاريخ (٢٣/ ٨/ ١٩٩١م)، مقالة ضيف الجمعة، (ص ٥).

(٣) المصدر: شريط تسجيل مرئي قامت بإخراجه وترجمته الإذاعة المرئية للإمارات العربية المتحدة.

(٤) انظر: العرب وإسرائيل، شقاق أم وفاق؟ (ص ٥٣) وما بعدها.

(ARENA) في مدينة برمنجهام البريطانية، بعنوان: الكتاب المقدس: هل هو كلام الله؟ وقد حضرها عدة آلاف من المسلمين والمسيحيين[1]. فقد لقيت نجاحاً وترحيباً من كافة الدوائر الإسلامية في أوروبا.

ومن المعروف أن حوارات الشيخ ديدات كلها باللغة الإنجليزية، التي هي لغته الأم، وقد طبعت وترجمت أغلب تلك الحوارات، ضمن كتيبات صغيرة، حيث جُمعت أكثرها في كتاب بعنوان: مجموعة كتيبات في مقارنة الأديان.

وأما المواضيع التي بحثت في تلك الحوارات فهي[2]:

١ـ ما هو اسم الله تعالى؟ في عدد من الأديان السماوية وغير السماوية.

٢ـ ماذا يقول الكتاب المقدس عن سيدنا محمد ﷺ.

٣ـ الإلٰه الذي لم يكن قط، وما هكذا يكون حضرة الله تعالى.

٤ـ بعث أم يقظة بعد غيبوبة؟ قضية قتل المسيح عليه السلام.

٥ـ ماذا كانت معجزة يونان؟ أي يونس عليه السلام.

٦ـ الصلب: حقيقة أم افتراء؟

٧ـ هل الكتاب المقدس كلام الله تعالى؟

٨ـ المسيح في الإسلام.

٩ـ من دحرج الحجر؟ وهل كانت هناك حاجة إلى دحرجة الحجر وقضية صلب المسيح عليه السلام عند المسيحيين والادعاء بدفنه بعد الصلب.

وأما حوار الشيخ ديدات مع القس سويجارت[3]، فإن له صدى بعيداً وأثره لا يزال حتى اليوم يخشاه كثير من الذين يمثلون الآخر في هذا الاتجاه سواء كان المحاور في مستوى الشيخ ديدات أو أقل قدرة وذلك بسبب شهرته، وتأثيره الكبير، والأسلوب الذي جرى به.

---

(١) انظر: بين الإنجيل والقرآن (ص ٦١) وما بعدها.

(٢) انظر: فهرس كتاب مجموعة كتيبات في مقارنة الأديان (ص ٥).

(٣) القس (جيمي سويجارت)، كان أشهر مبشر بروتستانتي في الولايات المتحدة، له برنامج أسبوعي لمدة (٣) ساعات في الإذاعة المرئية بأمريكا، وعدد كبير من المؤلفات التبشرية.

فقد عقد هذا الحوار بتاريخ (٣/ ١١/ ١٩٨٧م) في إحدى قاعات جامعة لويزيانا، في الولايات المتحدة الأمريكية، بحضور أكثر من عشرة آلاف شخص من المسلمين والمسيحيين، وغيرهم.

وكان موضوع الحوار: هل الإنجيل كلمة الله؟

وابتدأ الحوار بكلام القس سويجارت، حيث عرض النقاط التالية؟:

١ـ موضوع تعدد الزوجات في الإسلام.

٢ـ التوراة والإنجيل الموجودان حالياً هما اللذان كانا موجودين في زمن النبي ﷺ.

٣ـ الطعن في صحة النص القرآني، والادعاء بأن لم ينقل بالتواتر.

٤ـ الدفاع عن صحة نص التوراة.

٥ـ التهجم على القرآن الكريم، والادعاء بوجود التناقضات فيه.

٦ـ تبرير سبب وجود التناقضات في الأناجيل فيما يتعلق بنسب السيد المسيح عليه السلام.

وأما المواضيع التي تناولها الشيخ ديدات، فهي[1]:

١ـ (ابن الله) كلمة في الإنجيل لا تدل مطلقاً على الولادة الطبيعية.

٢ـ اختلافات في تراجم الأناجيل حول قضية شاؤول.

٣ـ اختلافات في تراجم الأناجيل حول قضية الابن الوحيد.

٤ـ موضوع التحريف في رسالة يوحنا الأولى عن الأقانيم الثلاثة.

٥ـ تناقض الأناجيل في رواية صعود المسيح بعد الصلب.

٦ـ التناقض في أسفار التوراة.

٧ـ موضوع العناية الإلٰهية، وقضية القضاء والقدر، ونصوص التوراة بعد ذلك.

٨ـ موقف المسيح عليه السلام من التوراة، في قضية التوراة بعد ذلك.

---

(١) انظر: المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان (ص ١٢٨) وما بعدها.

٩ـ تناقض الأناجيل في قضية العناية الإلٰهية.

١٠ـ نص من سفر حزقيال، يجب عدم قراءته أدبياً وأخلاقياً.

١١ـ أمثلة على تناقضات في أسفار الأنبياء، وموضع تناقض الأعداد.

١٢ـ أمثلة على التحريفات في الأناجيل.

١٣ـ قضية التناقضات في ذكر الأناجيل لنسب المسيح عليه السلام.

١٤ـ السبب في تغير نسب المسيح عليه السلام من هارون إلى داود عليه السلام.

وأما الأسلوب الذي سار وفقه الشيخ ديدات في حواراته، فهو الأسلوب الخطابي المؤثر، حتى في أثناء عرضه للحقائق العلمية، والأفكار الدقيقة؛ ويبدأ ـ غالبية حواراته ـ بمقدمات تمهيدية جذابة، ذات أثر نفسي كبير، ثم يباشر بتجريد الطرف الآخر من كل حججه، وينقض على كل الأدلة التي يوردها الطرف الآخر بالبراهين الدامغة، والحجج القوية[١].

ولعل السبب في سلوك الشيخ ديدات هذا الأسلوب يعود إلى أمرين[٢]:

أ ـ بسبب التأثر الشديد، والحزن العميق، والانفعال المتواصل الذي تسرب في شخصية ووجدان الشيخ ديدات، نتيجة الاستفزازات التي كان يوجهها أولئك الطلاب المبشرون، ويواجهون بها الأقلية المسلمة، شكل عدواني، بعيد عن الأدب والعلم والمنطق.

ب ـ إن الشيخ ديدات ليس باحثاً متخصصاً جامعياً، درس دراسة منظمة، وإنما هو قارئ مجتهد، تتركز خبرته الحقيقية في الدُّربة والتمرس على مواجهة المبشرين، والدخول معهم في حوارات علنية، إضافة إلى دراسة عميقة للمسيحية وأناجيلها. إضافة إلى تضلع واقتدار في فهم وفقه المفردة الإنجليزية وأصلها اللاتيني.

وكان اعتماد الشيخ ديدات بالدرجة الأولى على القرآن الكريم، وعلى نصوص الكتاب المقدس ـ التوراة والإنجيل ـ، وكذلك على شروحهما.

---

(١) انظر: كتابنا «قراءة في الكتاب المقدس ـ تأملات في كتب الأناجيل»، الطبعة العربية.

(٢) انظر: هل الكتاب المقدس كلام الله؟ (ص ٧٨) وما بعدها.

وأما اعتماده الكلي في كل حواراته فكان على كتاب (إظهار الحق) والسبب في ذلك هو تشابه القضايا والمواضيع التي يحتويها الكتاب مع الكثير من الموضوعات التي طرقتها حوارات الشيخ ديدات مع المسيحيين.

وهناك أيضاً بعض الكتب الحديثة التي اعتمدها الشيخ ديدات، يدور معظمها حول نقد لجوانب متنوعة من الكتاب المقدس، وذكر المغالطات التي تحتويها أسفارها، وهذه الكتب هي دراسات لبعض المسيحيين حول الكتاب المقدس، من أهمها كتاب (هل الكتاب المقدس كلام الله؟) تأليف: د. جراهام ميكروجي. وكتاب: (دعوة المئذنة) تأليف: الأسقف كينيث كراج[١].

وكان لحوارات الشيخ ديدات أثر واضح بين المسلمين والمسيحيين، إذ إنها أحدثت هزّة كبيرة في مشاعر ووجدان وعقيدة المسيحيين الذين اطلعوا على تلك الحوارات، والنتيجة كانت إسلام أكثر من (٧٠٠) شخص من مختلف بقاع العالم[٢] بأثر مباشر من حوارات الشيخ أحمد ديدات وحده.

وأما بالنسبة للمسلمين فقد أعطت تلك الحوارات ـ من اطلع عليها منهم ـ دفعاً قوياً، وثقة أكبر في صحة دينهم، وقوة على مواجهة كل الاعتراضات التي يثيرها الآخرون حول الإسلام شريعة وعقيدة وأخلاقاً.

ويتحدث الشيخ ديدات عن أهداف حواراته، فيحصرها في قضية واحدة وهي الدعوة إلى الله تعالى، وينبه المسلمين إلى تقصيرهم في هذا الجانب المهم من الإسلام، ومن الأهداف التي يسعى لتحقيقها من خلال الحوارات لمواجهة الافتراءات التي يقوم المبشرون ببثها في شتى أنحاء العالم ضد الإسلام والمسلمين[٣].

---

(١) انظر: هل الكتاب المقدس كلام الله؟ (ص ٧٦) وما بعدها.

(٢) انظر: المسيح في الإسلام (ص ١٤٦)، لقاء صحفي مع الشيخ ديدات.

(٣) انظر: المرجع السابق (ص ١٦٤).

خاتمة الكتاب

كان لا بد ونحن نتناول أوضاع غير المسلمين في مجتمعات المسلمين من أن نعرف في الفصل الأول بنبي الإسلام وهو ﷺ الرجل الوحيد من بين الخلق الذي لم يعد بحاجة إلى تعريف، فأحبابه وأنصاره والمؤمنون به يتكاثرون ويزدادون، وأعداؤه وخصومه على الرغم من شراستهم وعدوانيتهم يتراجعون وينهزمون أمام الوقوف على خطابه المعرفي وثوابته الإيمانية، فضلاً عن المعجزة الخالدة التي صمدت كالجبال الراسيات أمام عواصف الكذب القديم المتجدد وأعني بها القرآن الكريم. لكن ما وقع في عالمنا المعاصر ومع سهولة وسائل التعبير ونقل المعلومات الصحيحة والمكذوبة على السواء دفع بنا إلى التكفير في قضايا هذا الكتاب.

وكان لا بد والأمة التي حملت لواء هذا الدين ـ الإسلام ـ إلى الآخر تعرضت بفعل سلبيان تجاه الآخر من بعض أبنائها من أن نعرف بمقوماتها وخصائصها التي أهلتهم لحمل رسالة الإسلام بل قبل الإسلام حملت اليهودية والمسيحية إلى أصقاع العالم واستطاعت بفضل قواعد التعامل مع الآخر في الإسلام من أن تقدم نماذج وتطبيقات حضارية لمجتمعات المؤمنين ساد فيها الوئام والأمن والأمان والسلام على كل عوارض الهوى وأسباب الانحراف.

كانت تلك المقدمات شغلنا عبر الفصلين الأول والثاني، أما الفصل الثالث والرابع فقد كان لا بد فيهما من الوقوف على المسرح السياسي عصر قيام أول دولة في الإسلام عهد النبي ﷺ وذلك للوقوف على منهاجها في التعامل مع الآخر خاصة وأن العاصمة المدينة المنورة كانت تجمع أطيافاً شتى وقبائل وعناصر متباينة عرقاً وتاريخاً وديناً وكان من بين أطيافها قبائل مشركة وأخرى منافقة وثالثة ذات انتماء ديني لليهودية ممثلة في بني قينقاع والنضير وقريظة وبني المصطلق وخيبر. هذه الأطياف التي شكلت العناصر الوطنية في المجتمع والدولة

التي ينشئها نبي الإسلام وكان لا بد لها من دستور ونظام حياة عرضناه وكشفنا جوانب الإيجاب فيه ثم تناولنا أدوار الخيانة الوطنية والفتنة في الدين والكراهية للأصل التاريخي لأمة العرب ولشخص النبي محمد ﷺ وقد اقتضى ذلك من المسلمين بقيادة نبيهم أن يدخلوا في حوار مع الآخر لعل التذكير بالمواثيق والعهود يعيد للمجتمع أمنه واستقراره ولما فشلت الجهود من جانب المسلمين كان لا بد من المواجهة التي ضرب فيها المسلمون أعظم آيات الخلق الكريم في التعامل مع الآخر. عرضنا لذلك كله بنوع من التفصيل وإيراد الأدلة ونقل النصوص التي تفيد منهج الدراسة لطرح الأدلة والبراهين على ما نقول.

وأما في الفصلين الخامس والسادس: فقد أبرزنا المنهج العام للإسلام في التعامل مع أهل الكتاب وهو المنهج الذي لقي قبولاً واستحساناً وتعليقاً من قبل بعض (الآخر) في الندوة التي أشرت إليها في مقدمة الكتاب. وكان لا بد من بيان دور نبي الإسلام في تبليغ الدعوة بإرسال الكتب والبعوث والحوار مع الآخر كما حدث منه ﷺ حين استضاف في مسجده بعض أهل الكتاب.

أما الفصل السادس والسابع: فقد تناولنا فيهما البعد الشرعي في تقعيد وتقنين الأصل في علاقة الدولة الإسلامية بغيرها وبيان سبب قتال المسلمين لغيرهم. كما تناولنا من أمهات مصادر كتب السياسة الشرعية حرمة مال الآخر في شريعة الإسلام وقت السلم والحرب على السواء.

وعرضنا لنماذج من علاقات الود بين المسلمين وغيرهم والتي تمثلت في جواز زواج المسلم بالكتابية مع النص على حرية عقيدتها في بيت الزوجية وما يترتب على ذلك من أواصر ومحبة بين المسلمين وغيرهم. وكان لا بد من عرض نماذج من سياسة الدولة الإسلامية تجاه الآخر وأخذنا نموذجاً من الدولة الفاطمية وأوضاع النصارى فيها وإسهام ولاة أمر المسلمين في بناء دور العبادة من كنائس وأديرة في ظل الدولة الإسلامية لأهل الذمة وكانت الأندلس إبان حكم المسلمين لها النموذج الثاني. وفي عصرنا هذا أخذنا نموذجاً من مصر وآخر من لبنان لبيان كيف يمارس أهل العقائد حريتهم في محيط المجتمع الإسلامي العام. ومن البداهة أننا حين ختمنا هذه الدراسة بالفصل الثامن بسؤال: هل طبقت أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية أن نتناول بعد فعل النبي فعل أصحابه مع الآخر في عصر الراشدين ومع دولة الإسلام الكبرى الدولة الأموية ثم الدولة العباسية كان

لا بد لنا من دحض بعض المفتريات التي يطرحها العقل الغربي قديماً وحديثاً حول إشكالية الجزية.

واللافت للنظر بل المضحك أن تنبري أقلام غربية تثير قضية كتلك في عصر المسلمون فيه على امتداد الدنيا يحاصرون من قبل الآخر بالتشويه الفكري وصور العدوان الأخرى لكنه كان علينا أن نبين في هذه الدراسة معنى الجزية التي شرعها الإسلام عندها يستظل بأمنه وتحت رايته شريحة من الناس لا تقبل الإسلام ولا تحاربه لكنها تحب أن تنعم بجواره. وأسعفتنا مصادر السياسة الشرعية ووقائع التاريخ الإسلامي إلى أن قضية الجزية لم تكن إلا نوعاً من (الضريبة) بلغتنا على من يقدر نظير أمنه وحمايته وإقامته وتسقط بفقره أو عجزه بل يوفر مجتمع الإسلام ما يعيش به ويحيا في ضوء أمن وعدل هذا الدين.

وأرجو الله أن أكون قد وفقت في عرض هذه القضية التي طالما شغلت بال الكثير من المهتمين بالشأن العام.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بعض أهم المصادر والمراجع التي وردت بالكتاب

أهم المراجع باللغة العربية:

١ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ لأبي جعفر بن جرير الطبري ت/ ٣١هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ط الثانية ١٣٧٣هـ، وطبعة دار المعارف بمصر.

٢ ـ التبيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، المطبعة العلمية في النجف الأشرف ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.

٣ ـ التفسير الكبير المشهور بتفسير الفخر الرازي ـ لأبي عبد الله بن محمد بن عمر بن حسين الرازي، ت ١٠٦هـ، المطبعة البهية بمصر، أولى ١٣٥٧هـ.

٤ ـ الفتح الرباني في ترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني ـ لأحمد بن عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي ط أولى بمصر، ١٣٧٠هـ.

٥ ـ السنن الكبرى أو سنن البيهقي ـ لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، مطابع دار صادر، بيروت/ الناشر محمد أمين دمج وتعليق محمد سعيد المولوي، دار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ.

٦ ـ الموطأ ـ للإمام مالك بن أنس الأصبحي المدني/ ١٧٩هـ صححه وخرج أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي، ١٣٧٠هـ.

٧ ـ المنتقى من أخبار المصطفى: لمجد الدين أبي البركات عبد السلام ابن تيمية الحراني، تعليق وتصحيح محمد حامد الفقي، مطبعة حجازي، مصر ط. أولى ١٣٥١هـ.

٨ ـ سبل السلام: لمحمد بن إسماعيل الكحلابي ثم الصنعاني المعروف

بالأمير (١٠٥٩ـ ١١٨٢هـ) مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط الثانية ١٣٦٩هـ.

٩ ـ تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير: لأبي حجر العسقلاني.

١٠ ـ معالم السنن شرح سنن أبي داود لحمد بن محمد الحطابي البستي المتوفى سنة ٣٨٨هـ، المطبعة العلمية لمحمد راغب الطباخ، حلب ١٣٥٢هـ.

١١ ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد ـ لأبي الوليد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ت ٥٩٥هـ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، ط ثالثة ١٣٧٩هـ.

١٢ ـ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير: العلامة شمس الدين محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر، مطبعة بولاق، ١٢٩٥هـ، مصر.

١٣ ـ المدونة وهي رواية الإمام سحنون عن الإمام عبد الرحمٰن بن القاسم عن الإمام مالك بن أنس الأصبحي، مطبعة السعادة بمصر، ط أولى ١٣٢٣هـ.

١٤ ـ الشرح الكبير المطبوع بهامش حاشية الدسوقي، لأبي البركات سيد أحمد بن محمد العدوي المالكي الشهير بالدردير.

١٥ ـ تهذيب الفروق والقواعد السنية ـ لمحمد علي الشيخ حسين مفتي المالكية، وهو مطبوع بهامش الفروق ـ للقرافي.

١٦ ـ توضيح الأحكام على تحفة الحكام ـ سيدي عثمان بن المكي التوزي الزبيدي ـ المطبعة التونسية، تونس، الطبعة الأولى، ١٣٣٩هـ.

١٧ ـ التاج والإكليل لمختصر خليل لمحمد بن يوسف العبدري الشهير بالحواق المتوفى سنة ٨٩٧هـ، مطبوع بهامش مواهب الجليل للخطاب.

١٨ ـ منح الجليل مختصر لمحمد بن أحمد بن محمد عليش، ت ١٢٩٩هـ، المطبعة الأميرية، بولاق، ١٢٩٤هـ.

١٩ ـ فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب مالك لمحمد عليش ت ١٢٩٩هـ، مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة، سنة ١٣٥٥هـ.

٢٠ ـ كفاية الطالب الرباني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني لأبي الحسن المالكي. ومعه حاشية الشيخ علي العدوي الصعيدي. مطبعة مصطفى

البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٥٧هـ.

٢١ ـ كشاف القناع على متن الإقضاع لمنصور بن يونس بن إدريس اليهوني المتوفى سنة ١٠٥١هـ، مطبعة أنصار السنة المحمدية، بالقاهرة سنة ١٣٨١هـ.

٢٢ ـ منتهى الإرادات في جمع المقنع من التنقيح وزيادات لمحمد بن أحمد الفتوحي الحنلي الشهير بابن النجار، المتوفى سنة ٩٧٢هـ، دار الجيل للطباعة، القاهرة، سنة ١٣٨١هـ.

٢٣ ـ بلغة السالك لأقرب المسالك، على شرح الصغير للدردير للصاوي وبهامشه الشرح الصغير.

٢٤ ـ كتاب المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات الشرعيات لأمهات مسائلها المشكلات لابن رشد، مطبعة السعادة بمصر.

٢٥ ـ الإنصاف في الراجح من الخلاف: علاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان المرداوي، الطبعة الأولى، سنة ١٣٧٤هـ.

٢٦ ـ الإقناع لأبي النجا شرف الدين موسى الحجاوي المقدسي المتوفى سنة ٩٦٨هـ، المطبعة المصرية، تصحيح وتعليق عبد اللطيف السبكي.

٢٧ ـ زوائد الكافي والمحرر على المقنع: للشيخ عبد الرحمٰن بن عبيدان الحنبلي: ٦٣٠هـ منشورات المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، دمشق.

٢٨ ـ المغني على مختصر الحزقي: لموفق الدين بن قدامة، مطبعة دار المنار، القاهرة، الطبعة الثالثة سنة ١٣٦٧هـ.

٢٩ ـ القواعد والفوائد الأصولية وما يتعلق بها من الأحكام الفرعية لعلي بن عباس البعلي الحنبلي، المتوفى سنة ٨٠٣هـ، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة سنة ١٣٧٥هـ.

٣٠ ـ الوجيز لأبي حامد الغزالي، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧هـ.

٣١ ـ حاشية الشرقاوي على تحفة الطلاب بشرح تنقيح اللباب للشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشافعي الأزهري الشهير بالشرقاوي سنة ١٣٢٦هـ،

مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٦٠هـ.
٣٢ ـ المهذب: لأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦هـ، مطبعة مصطفى البابي بمصر، الطبعة الثانية سنة ١٣٧٩هـ.
٣٣ ـ تخريج الفروع على الأصول للإمام شهاب الدين محمود بن أحمد الزنجاني المتوفى سنة ٦٥٦هـ. تحقيق الأستاذ الدكتور محمد أديب صالح المتوفى مطبعة جامعة دمشق سنة ١٣٨٢هـ.
٣٤ ـ التمهيد في تخريج الفروع على الأصول لعبد الرحيم بن الحسن القرشي الإسنوي المتوفى سنة ٧٧٢هـ. الطبعة الأولى بالمطبعة الماجدية بمكة المكرمة سنة ١٣٥٣هـ.
٣٥ ـ روضة الطالبين وعمدة المفتين ليحيىٰ بن شرف النووي الدمشقي المتوفى سنة ٦٧٦هـ، طبعة المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بدمشق، سنة ١٣٨٨هـ.
٣٦ ـ كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار لأبي بكر بن محمد الحصني الدمشقي المتوفى سنة ٨٢٩هـ، المطبعة المنيرية بالقاهرة، سنة ١٣٤٧هـ.
٣٧ ـ الأشباه والنظائر: لزيد العابدين بن إبراهيم بن بخيم، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٨٧هـ.
٣٨ ـ المبسوط ـ شمس أئمة الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل، مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٤هـ.
٣٩ ـ مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر، شمس أئمة الدين السرخس، دار الطباعة سنة ١٣١٩هـ.
٤٠ ـ تنوير الأبصار لأبي محمد بن عبد الله بن أحمد الخطيب التمرتاشي المتوفى سنة ١٠٠٤هـ، مطبوع مع حاشية رد المحتار.
٤١ ـ الحجة على أهل المدينة لمحمد بن الحسن الشيباني، المتوفى سنة ١٨٩هـ، طبعة حيدرآباد الدكن بالهند سنة ١٣٨٩هـ.
٤٢ ـ روضة القضاة وطريق النجاة لعلي بن محمد بن أحمد الرحبي السمناني المتوفى سنة ٤٩٩هـ. تحقيق الأستاذ الفاضل الدكتور صلاح الدين

الناهي، مطبعة أسعد ببغداد، سنة ١٣٨٩هـ.
٤٣ ـ عيون المسائل لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي من فقهاء الحنفية في القرن الرابع الهجري. تحقيق الأستاذ الكبير الدكتور صلاح الدين الناهي، مطبعة أسعد ببغداد، سنة ١٣٨٦هـ.
٤٤ ـ مجمع الضمانات لأبي محمد بن غانم البغدادي، الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بالقاهرة، سنة ١٣٠٨هـ.
٤٥ ـ ابن كثير، البداية والنهاية.
٤٦ ـ عباس العقاد: مطلع النور ـ أو طوالع البعثة المحمدية، دار الهلال، مصر عام ١٩٥٨م.
٤٧ ـ عباس العقاد: عبقرية محمد، طبعة أولى، دار الهلال، بدون تاريخ.
٤٨ ـ سيرة ابن هشام.
٤٩ ـ د. محمد حسين هيكل ـ حياة محمد، طبعة ثانية، دار المعارف بمصر.
٥٠ ـ ناصر الدين. م دينه وسليمان إبراهيم ـ محمد رسول الله، ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود، ومحمد عبد الحليم محمود.
٥١ ـ تاريخ ابن الأثير، ط الأزهرية.
٥٢ ـ ابن سعد ـ الطبقات الكبرى.
٥٣ ـ عبد الله درار، المختار من كنوز السنة.
٥٤ ـ المقريزي: الامتاع.
٥٥ ـ ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري.
٥٦ ـ الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية.
٥٧ ـ المباركفوري، الرحيق المختوم.
٥٨ ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك.
٥٩ ـ ابن شيبة، تاريخ المدينة.
٦٠ ـ الصالحي الشامي ـ سبيل الهدى والرشاد في سير خير العباد، تحقيق مصطفى عبد الواحد، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة.
٦١ ـ عبد الرحمن السهلي الخثعمي ـ الروض الأنف. طبعة المعرفة، بيروت،

تحقيق عبد الرحمٰن الوكيل.
٦٢ ـ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ط مؤسسة الرسالة، بيروت.
٦٣ ـ الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة، مكتبة المعارف بالرياض.
٦٤ ـ الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف بالرياض.
٦٥ ـ ابن رجب ـ لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، مكتبة الرياض الحديثة.
٦٦ ـ ابن حجر، تهذيب التهذيب.
٦٧ ـ ابن العماد، شذرات الذهب.
٦٨ ـ محمد شفيق غبريال، الموسوعة العربية الميسرة.
٦٩ ـ د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية.
٧٠ ـ ابن الأثير، أسد الغابة.
٧١ ـ محمد رشيد رضا، تفسير المنار.
٧٢ ـ ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق الدكتور ناصر العقل.
٧٣ ـ محمد الحضري، نور اليقين.
٧٤ ـ سليمان مظهر، في الديانات، القاهرة بدون تاريخ.
٧٥ ـ أحمد موسى سالم، لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب، طبعة الأولى، عام ١٩٦٨، دار الجيل، بيروت.
٧٦ ـ الذهبي، تذكرة الحفاظ.
٧٧ ـ ابن خلدون، المقدمة، ط كتاب التحرير، القاهرة.
٧٨ ـ محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية.
٧٩ ـ الرسول ﷺ وموقفه من التفرقة العنصرية.
٨٠ ـ صابر طعيمة، إرادة التغيير في الإسلام، مكتبة القاهرة الحديثة، ط أولى عام ١٩٦٨م، القاهرة.
٨١ ـ الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب.
٨٢ ـ محمد رشاد خليل، ملامح من دور الإسلام في بناء الحضارة العربية قبل

البعثة المحمدية، ط أولى عام ١٩٨٢م.
٨٣ ـ صابر طعيمة، الإسلام وعالمنا المعاصر، دار المعارف، الرياض.
٨٤ ـ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط٥، دار الكتاب العربي.
٨٥ ـ عبد القادر أحمد عطا، لماذا بعث الرسول ﷺ.
٨٦ ـ محمد مصطفى النجار، عرب الجزيرة بين الجاهلية والإسلام، ط، دار الطباعة المحمدية.
٨٧ ـ د. عبد الحليم محمود ـ التفكير الفلسفي في الإسلام، ط الأنجلو المصرية عام ١٩٦٧م.
٨٨ ـ محمد يوسف موسى، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، ط دار الفكر العربي، بيروت.
٨٩ ـ الهيثمي، مجمع الزوائد.
٩٠ ـ إبراهيم الدسوقي، الدعوة الإسلامة علماً وعملاً.
٩١ ـ محمد علي الهاشمي، شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم، ط عالم الكتب، بيروت عام ١٩٨٣م.
٩٢ ـ عطية صقر، الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه.
٩٣ ـ حسني محمد إبراهيم غيطاس، الدعوة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، المكتب الإسلامي، بيروت عام ١٩٨٦م.
٩٤ ـ نجيب العفيفي، المستشرقون.
٩٥ ـ توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام.
٩٦ ـ أنور الجندي، آفاق جديدة للدعوة الإسلامية.
٩٧ ـ آدم عبد الله الألوري، تاريخ الدعوة الإسلامية، ط دار مكتبة الحياة.
٩٨ ـ أحمد عز الدين البيانوني ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ط دار السلام، للطباعة والنشر، القاهرة عام ١٩٨٥م.
٩٩ ـ القاسمي، محاسن التأويل.
١٠٠ ـ مصطفى المراغي، تفسير القرآن الكريم.

١٠١ ـ محمد الصباغ، من صفات الداعية، الطبعة الثالثة، المكتب الإسلامي، بيروت، عام ١٤٠٠هـ.
١٠٢ ـ الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة.
١٠٣ ـ محمد السيد الوكيل، أسس الدعوة.
١٠٤ ـ محمد إبراهيم شقرة، ركائز الدعوة في القرآن، ط الأولى، المكتب الإسلامي.
١٠٥ ـ ابن عبد البر، جامع بين العلم وفضله.
١٠٦ ـ ابن تيمية، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق د. محمد السيد الجليند، ط. دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة عام ١٩٨٤م.
١٠٧ ـ محمد الوكيل، أسس الدعوة وأدب الدعاة.
١٠٨ ـ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، طبعة أولى سنة ١٩٧٠م.
١٠٩ ـ عبد الله بن إدريس، مجتمع المدينة في عهد الرسول.
١١٠ ـ إسرائيل ويلفنتسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام.
١١١ ـ صابر طعيمة، التاريخ اليهودي العام، دار الجيل، بيروت، عام ١٩٧٥م.
١١٢ ـ الإمام محمد أبو زهرة، تاريخ الجدل، ط ثانية عام ١٩٨٠م.
١١٣ ـ د. محمد سيد طنطاوي، بنو إسرائيل في القرآن والسنة.
١١٤ ـ الإمام الزمخشري، الكشاف، ط دار المعرفة.
١١٥ ـ عبد الله التل، خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية، ط ثالثة.
١١٦ ـ أبو عبيد، الأموال.
١١٧ ـ ابن القيم، زاد المعاد.
١١٨ ـ ابن عبد البر، الاستيعاب.
١١٩ ـ عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب.
١٢٠ ـ القلقشندي، نهاية الأرب.
١٢١ ـ ابن خلدون، العبر.

١٢٢ ـ الزرقاني، شرح المواهب اللدنية.
١٢٣ ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان.
١٢٤ ـ ابن عبد البر، العقد الفريد.
١٢٥ ـ د. علي عبد الحليم محمود، عالمية الدعوة الإسلامية.
١٢٦ ـ د. رؤوف شلبي، اتجاهات في دبلوماسية الدعوة الإسلامية.
١٢٧ ـ البيهقي، السنن الكبرى.
١٢٨ ـ الزيلعي، نصب الراية.
١٢٩ ـ سيدة إسماعيل الكاشف، مصر في فجر الإسلام.
١٣٠ ـ عباس محمود العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.
١٣١ ـ محمد شامة، الإسلام في الفكر الغربي.
١٣٢ ـ عبد الرحمٰن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت.
١٣٣ ـ صبحي محمصاني، الأوضاع التشريعية في البلاد العربية، ط دار العلم للملايين، بيروت عام ١٩٦٦م.
١٣٤ ـ د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام.
١٣٥ ـ محمد رأفت سعيد، التوازن في التصور الإسلامي.
١٣٦ ـ السرخسي، شرح السير الكبير.
١٣٧ ـ أبو حيان، البحر المحيط.
١٣٨ ـ الجصاص، أحكام القرآن.
١٣٩ ـ ابن الهمام، شرح فتح القدير.
١٤٠ ـ محمد أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، ط دار الفكر العربي.
١٤١ ـ د. محمد عبد الله دراز، العلاقات الدولية في الإسلام، ط الكويت، دار القلم، ١٩٨٠م.
١٤٢ ـ وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، طبعة دار الفكر.
١٤٣ ـ د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في الإسلام، ترجمة وتحقيق الدكتور عبد الصبور شاهين، ط مؤسسة الرسالة، عام ١٩٨٢م.

١٤٤ ـ عبد الخالق النواوي، العلاقات الدولية والنظم القضائية.
١٤٥ ـ محمد بن الحسين، منتهى المرام في شرح آيات الأحكام.
١٤٦ ـ محمد علي الحسن، العلاقات الدولية في القرآن والسنة.
١٤٧ ـ عبد المتعال الصعيدي، السياسية الشرعية في عهد النبوة، ط، دار الفكر العربي.
١٤٨ ـ محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية.
١٤٩ ـ د. فؤاد العطار، النظرية السياسية والقانون الدستوري، ط دار النهضة العربية عام ١٩٧٤م.
١٥٠ ـ السيباني، شرح السير الكبير.
١٥١ ـ أبو يوسف، الخراج.
١٥٢ ـ الدكتور عبد الكريم زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام.
١٥٣ ـ ابن الراهب، تاريخ ابن الراهب، بيروت عام ١٩٠٣م.
١٥٤ ـ ساوريوس، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، نشر عزيز سوريال وآخرون.
١٥٥ ـ الدكتور علي حسني الخربوطلي، مصر العربية الإسلامية.
١٥٦ ـ الأنبا ميخائيل، سر البيعة.
١٥٧ ـ رؤوف حبيب، كنائس القاهرة القبطية القديمة.
١٥٨ ـ عنان، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، الطبعة الأولى عام ١٩٣١م.
١٥٩ ـ الوسيط في شرح القانون المدني، عبد الرزاق السنهوري، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٨م.
١٦٠ ـ موسوعة الفقه الإسلامي، بإشراف الشيخ محمد أبو زهرة، جمعية الدراسات الإسلامية، مطبعة أحمد علي مخيمر، سنة ١٣٨٩هـ.
١٦١ ـ الملكية في الشريعة الإسلامية مع مقارنتها بالقوانين العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، سنة ١٩٦٨م.
١٦٢ ـ مصطفى الزرقا، الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد، دار الفكر، بيروت، الطبعة السابقة.

١٦٣ ـ محمد عبد الجواد محمد، الحيازة ملكية الأراضي في الإسلام، تحديد الملكية والتأميم، منشأة المعارف بالإسكندرية، الطبعة الثانية، عام ١٣٩٣هـ.

١٦٤ ـ محمد عبد الجواد محمد، الحيازة والتقادم في الفقه الإسلامي المقارن بالقانون الوضعي، منشأة المعارف بالإسكندرية، الطبعة الثانية، عام ١٣٩٣هـ.

أهم المراجع باللغة الأجنبية:

- BERNHARD AND ELLEN M. WHISHAW. OP. Cit. p.18.
- Simonet Franciscoijavier, Historia de los Mozarabes de Espan Madrid. 1897-1903. p.132.
- FERNADO DELA GRANJA, DEL "KITAB AL-DURRA AL-MUNAZZAM FL MAWLID AL-NABI AL-MUAZZAM" DE AL-AZAFI, p.19-20-21.
- FERNADO DELA GRANJA, FIESTAS CRISTIANAS EN AL- ANDALUS, P.2.
- "LA Comquete Arabe sous les quatre premiers califes" publications de I Universite Libanaise, Beyrouth, 1985.
- FERNADO DELA GRANJA, DEL "KITAB AL-DURRA AL-MUNAZZAM FL MAWLIDE AL-NABI AL-MUAZZAM" DE AL-AZAFI, AL-ANDALUS, MADRID-GRANANDA, 1969, VOLUMEN XXXIV, p.2.
- FERNADO DELA GRANJA, FIESTAS CRISTIANAS EN AL-ANDALUS. AL-ANDALUS. MADRID-GRANANDA, 1969, VOLUMEN XXXIV, p.2.
- Jackson, The Making of Medieval Spain, Califormia, 1967, p.31.
- REINHART DOSY, SPANISH ISLAM- AHISTORY OF THE MOSLEMS IN SPAIN, LONDON, p.268.
- Vasiliev, AA: "Histories de l'Empire Bezanting, 279, Fr. Stark, Romem p.388.
- FERNADO DELA GRANJA, DEL "KITAB AL-DURRA AL-MUNAZZAM FL MAWLID AL-NABI AL-MUAZZAM" DE AL-AZAFI, p.30.
- Rogers (R.W), Coneiform Parallels to the Old Testarment, London, 1912.
- Samuel, R, Ropaport, Toles, and Maximus, from the Talmud, London, 1910.
- Oesterlay (W.O.E), The Wisdom of Egypt and the Old Testament, London, 1927.
- Olmstead, Albert, (T), History of the presian Empirem Chicago, 1970.
- Cornwell. P.B, On the Location of Dilmum, BASOR, 103, 1964.
- Driever, S.R. Introduction to the Literature of the Old Testament, Edinburgh, 1950.
- Hunke, S.: Kamele auf dem kaisermantel, Stuttgart, 1976.
- Klosinski, G.: Warum Bhagwan? München, 1985.
- Küng, H.: Christentum und Weltreligionen, München., 1984.

- Langenscheidt: Lateinisch- Deutsch, Berlin, 1983.
- Miquel. A.: Der Islam-von Mohammad bis Nasser, Essen, 1975.
- Müller, W.: Der Duden- Fremdwörterbuch- Mannheim, 1974.
- Paret, R.: Der Koran, Kohlhammer Verlag, Stuttgart, 1979.
- Rahner, K.: Kleines Thoelogisches Wörterbuch, Herder, Freiburg, 1985.
- Roth, P.: Trennung von Staat und Kirche, Hamburg, 1974.
- Rosenthal, F.: Das Fortleben der griechischen Wissenschaften im Islam, Stuttgart, 1965.
- Schischkoff, G.: Philosophisches Wörterbuch, Stuttgart, 1974.
- Steinschneider, F.: Die europaischen Ubersetzungen aus dem Arabischen bis zum 17. Jh., Graz, Wien, 1965.
- Störig, H.-J.: Kleine Weltgeschichte der Philosophie, Frankfurt/M., 1976.
- Van de Pol, H.W.: Der Weltprotestantismus, Essen, 1960.
- Wahrig, G.: Deutsches Wörterbuch, Gütersloh, 1972.
- Wiedemann, E.: Gesammelte Schriften zur arab. -islam. Wissenschaftsgesch., 1.B., 1876-1912, Frankfurt/M., 1984.
- Encyclopedia Britannica.
- Ayalon, D., The Structure of The Mamluk Army. BSOAS.XV.XVI, 1953-54.
- Bosworth, C.E., The Islamic Dynasties, Islamic Survey, Edinbrugh, 1967.
- Browne, A Literary History of Persia, Cambridge, 1965.
- Dunlop, D.M., Arab Civilization ot AD 1500 Beirut 1971.
- Gibb, H.A.R., The Armies of Saladin, Studies on Islamic Civilization, London, 1962.
- Government & Islam Under The Abbasids I Paris, 1961.
- Goitein, S.D., A Mediterranean Society, Vol. I. Economic Foundation, Berkeley, 1967.
- Grohmann, A., Arabic Papyri in Egyptian Library, 3 vols, 1934. 36.38.
- Muir, W., The Caliphate, Its Rise, Decline & Fall, Edinbrugh, 1915.
- Lewis & Holt, Historians of the Middle East, London, 1964.
- Nichdson, litarary History of the Arabs. CAMBRIDGE, 1969.
- In Anouar ABDEL-MALEK; Anthologie de la littérature arabe contemporaine, vol. II, Paris, Seuil, 1965.
- Voir chapitre V.
- Kemal KARPAT, Ottoman Population, 1830-1914, Demographic and Social Characteristics, Madison, The University of Wisconsin Press, 1985.
- Pour le Mont- Liban, nous avons eu recoure aux chiffres de Vital CUINET, Syrie, Liban et Palestine. Géographie administrative, statistique et raisonné, Paris, E. Leroux, 1896.
- La nahda compta de nombreux écrivains chrétiens.

- Feroz AHMAD, "Unioist Relation with the Greek, Armenian, and Jewish Communities of the Ottoman Empire, 1908/1914". in Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, Christians and Jews in the Ottoman Empire, New York, Holmes and Meir Publishers, 1982.
- Georges CORM, L'Europe et l'Orient, Paris, La Découverte, 1989, ou Edgard Morin, Vidal et les siens, Paris, Seuil, 1988.
- Héritière de Muhammad Ali, sa statistique public depuis 1907 des annuaires d'une remarquable tenue, rédigés en français jusqu'en 1952, y compris donc sous le mandat britannique: souvenir des missions scientifiques envoyées en France au XIX^{e} siècle. Les décès y sont répartis avec un luxe de détails selon la préfecture et la cause, mais seulement à partir de 1944 selon la confession, et avec irrégularité.
- Les taux bruts de mortalité fournis au tableau VIII.4 sont tirés de l'état civil, sans ajustement. Durant la période nassérienne, la mortalité chrétienne paraît anormalement faible, probablement à cause de non- déclarations.
- Les données en notre possession ne fournissent qu'un seul taux pour les quinze dernières années, celui de 1980.

فهرس الكتاب